الأعمال الفكرية الكاملة



عمر عبيد حسنه

المجلد الخامس

المكتب الإسلامي

الأعمال الفكرية الكاملة

عمر عبيد حسنه

المجلد الخامس

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

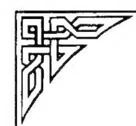
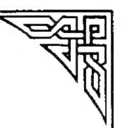
يَقُولُ تَعَالَى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

(يوسف، ١٠٨)

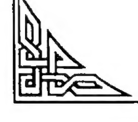
فهرس المحتويات

□ □ □ □ □ □

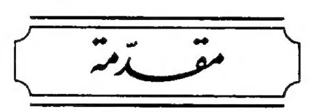



على بصيرة







الحمد لله الذي جعل البيت مثابة للناس وأمناً، ووحد به الوجهة، والملة والأمة، وحقق التواصل، بين النبوة الأولى، حيث بوأ لسيدنا إبراهيم أبي الأنبياء، مكان البيت، ليبنيه على التوحيد، ويطهره للطائفين، والقائمين، والركع السجود، وبين النبوة الآخرة الخاتمة، حيث جعل الله حج البيت، فريضة العمر، لمن استطاع إليه سبيلاً... وفرض التوجه إليه، واستلهام معاني التوحيد، خمس مرات يومياً، يستقبله المسلم، ابتداءً من استيقاظه فجراً، ويودعه بالاستقبال والتوجه قبل نومه مساءً، مصراً بذلك على الانسلاك في قافلة التوحيد... حتى أثناء الاحتضار، يحتضر مُوَجَّهاً إلى البيت... وما بعد الموت، يوجه إليه في قبره، بانتظار القيامة، أملاً أن يبعث وهو متوجه إليه.

والصلاة والسلام على صاحب النبوة الآخرة الخاتمة، الذي اختزل برسالته النبوات جميعاً، وشرع الله له من الدين، ما وصّى به الأنبياء: قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ (الشورى: ١٣).

فالمؤمن بمحمد ﷺ، مؤمن بإبراهيم، وعيسى، وموسى، وسائر الأنبياء، الذي كلفه الله ـ وهو محل الأسوة والقدوة ـ بأن تكون وجهته وهدفه، أينما كان، وفي أي نشاط يمارس، بيت الله الحرام: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١٦٢)، ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ

٢٥٦٣/١٢

﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (البقرة: ١٤٤)، ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٩).

وَبَعْـد: فلعل ما يلفت النظر، ويدعو للتأمل، أن سيدنا إبراهيم أبا الأنبياء، ومحل النبوة الأولى، هو الذي أسس التوحيد، وبنى وجهة التوحيد وكعبته، في الأرض المحرمة، قادماً من فلسطين، الأرض المقدسة المباركة... وأن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، خاتم الأنبياء، ومحل النبوة الآخرة، كانت ولادته، ونبوته، في الأرض المحرمة، وكانت قبلته الأولى، إلى الأرض المقدسة، أرض النبوات، ذلك أن الإسلام، الذي جاء به محمد ﷺ، لم يكن بدعاً من الدين، والرسول ﷺ، لم يكن بدعاً من الرسل، وأن وجهة الإسلام الأولىٰ، كانت أرض النبوة المقدسة واقتفاء أثر الأنبياء. فليس الإسلام إلا لبنة من هذا البناء، وليس المسلم إلاّ فرداً في هذه القافلة المباركة... لذلك كان لا بد من العود علىٰ بدء... ومن ثمّ التحوّل بميراث النبوات جميعها، إلى محور النبوة الأولى، ووجهتها، إلى قبلة التوحيد، المسجد الحرام.

ومما يدعو للتأمل أيضاً، أن إبراهيم عليه السلام، في النبوة الأولىٰ، هاجر من الأرض المقدسة، لتأسيس التوحيد... وأن محمداً عليه الصلاة والسلام، عندما اشتد به الأذىٰ، في رحلة الطائف، أُسري به إلى الأرض المقدسة، ليؤم الأنبياء، ويستلهم سيرتهم، وليصبر، كما صبر أولو العزم من الرسل، وفي مقدمتهم سيدنا إبراهيم عليه السلام، ليعود من ثمّ، بالصبر والعزم إلى محور التوحيد، في الأرض المحرمة، مؤكداً أن ما جاء به هو الحنيفية السمحة، وأنه امتداد واتباع لملة إبراهيم: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨).

وإن التأهل للشهادة على الناس، يقتضي التحقق بالمعيارية، التي تمنحها مرحلة القدوة، التي كان المسجد الحرام، وما حوله، وعاءها الزماني، والمكاني، ومحورها الفكري، والإيماني... والمعيارية لا تتحقق إلاّ بوضوح أبعاد القدوة، والالتزام بتعاليمها... ذلك أن شهادة الرسول القدوة على المسلم ـ وذلك عندما يكون سائراً على قدم النبوة ـ هي التي تؤهله ليكون شهيداً على النّاس، قادراً على قيادتهم... وتنقله من المشاهدة لمواقع القدوة، ومنازل الوحي، إلى الشهود الحضاري والقيام بأعباء الاستخلاف وفق منهج الله، واستحضار المعاني كلها، الأمر الذي تحققه الرحلة إلى تلك المواقع، ولو في العمر مرة، لمعاودة الاستنبات، واسترداد الشهادة للرسول علينا، وتحقيق الشهود، والولادة الجديدة، التي تبدأ من هناك وتؤهل للشهادة على النّاس.

ذلك أن القيم، والأفكار، والتاريخ، والأرض، والجغرافيا، والإنسان، والمناخ، والتدافع، الذي أنتج الجيل الأول، قادر باستمرار على إنتاج الجيل، الذي يمكنه الشهادة علىٰ النّاس، والعطاء في كل زمان ومكان، طالما أن قيم النبوة، وشهادة النبي (كتاب الله وسنّة الرسول ﷺ)، لم ينلهما التغيير، والتبديل... لذلك كان لا بد لنا من التحقق بشهادة النبي ﷺ، حتى نتمكن من الشهادة على النّاس.

ولذلك كان على المسلم أن يطوي مسافة الزمان والمكان، للوصول إلى الينابيع الأولىٰ، ورؤية المناسك: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ (البقرة: ١٢٨)، وإدراك الآيات البينات، التي لا تغيب عند كل منسك، بل عند كل حبة رمل، في منزل الوحي... فالتحقق بشهادة الرسول علينا، تعني فيما تعني: أن ندرك أبعاد هذه المواقع، ونتوغل في تاريخها، ونسترد المعاني، والأبعاد الغائبة، حتى نعيد البناء، ونبرأ من الإصابات، ونعود جدداً، متجددين للشهادة علىٰ الناس.

فالعقم، ليس في الأرض، وقد سبق لها أن أنبتت الجيل الأول... وليس في شهادة الرسول (القيم في الكتاب والسنّة)، وإنما في قدرة الإنسان اليوم على التعامل مع تلك القيم، وتأمين الظروف، والشروط لمعاودة الإنتاج، والتحقق بالشهادة المطلوبة.

وستبقى منازل الوحي، حيث الاتصال الأخير للسماء بالأرض - والله أعلم حيث يجعل رسالته، أرضاً، وإنساناً - محملة بالمعاني، التي تحقق الولادة الجديدة، ومحلاً لانطلاق الإنسان الجديد، المتجدد، المتحقق بشهادة الرسول ﷺ، مهما حاول أعداء الإسلام، محاصرتها، وتحنيطها، وتغييب معانيها، وإلغاء التفاعل معها، والانفعال بها.

وسيبقى عالم الإسلام، مُصراً على وجهته، ومنطلقاتها، صباح مساء... مُصراً على التوجه إلى مطلع النور، ليطلع النور من جديد...

وإن المسلم بالتزامه الدائب بوجهة التوحيد، والاجتهاد في بناء الاستطاعة لرحلة الحج، حيث يسقط مسافة الزمان والمكان، إنما يصر على تحقيق الانبثاق الجديد الرشيد، من هنا، من أرض الوحي.

لذلك قد لا يكون غريباً، ولا مفاجئاً - وقد «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ» - استمرار إشعال المنطقة، وحمل الحطب إليها، ومحاصرة إنسانها، والصد عن سبيل الله، وقبلته المسجد الحرام، وممارسة إرادة الإلحاد والظلم، الذي لا يتوقف... فخلود الآيات، ونماذج هذا الخلود، وسنن المدافعة، تقتضي استمرار ذلك كله. وإلا انتهت الآيات إلى ضروب من قصص الماضي وافتقدت خاصية الخلود.

ومهما اشتد الظلم، وأحكم الحصار على أطراف الجسم الإسلامي، يبقى القلب، وإنسان القلب، هو المستهدف بالدرجة الأولىٰ.

وقد يكون المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضىٰ، أن يدرك

إنسان منزل الوحي، دوره، ورسالته، وموقعه، بالنسبة للعالم... وأنه يمثل موقع الوجهة، والقلب، الذي يضخ الغذاء، واستمرار الحياة للأطراف... ويدرك أبعاد الكيود التي تحيط به، لشلّه عن أداء دوره... وأن قوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ (سبأ: ٣٣)، نزل في أرضه ليكون إحدى الآيات البيّنات... وما ذلك كله، إلاّ لإلغاء إنسان الوجهة، وتحويله عن مقاصد الإيمان، إلى ضروب من الأشكال، والشكليات، التي لا روح فيها، والشعائر الخالية من الشعور، والمشاعر، والانفعال بالمعاني.

لذلك، فليس الاقتصار على سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (التوبة: ١٩) مغنية عن مقتضيات الإيمان، وتحقيق أبعاده... وليس التوجه الشكلي، الفاقد للمعنى، هو المقصود: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ (البقرة: ١٧٧). إنما المقصود مدلول التوجه ونتائجه العملية في النفس والمجتمع.

إن حج الناس إلى موقع القبلة، ومنزل الوحي، وعاء فترة القدوة، في الزمان والمكان، هو في الحقيقة، رؤية للآيات البينات، وإدراك أن هذه المواقع، تمتلك الطاقة الروحية، التي تحرك العالم، وتحمل له الهداية، وتتمركز فيه الطاقة المادية، التي تحرك عجلة الحضارة العالمية، وتصنع لها التقدم المادي... هذه المواقع، التي تمتلك عقيدة الإنسان، وتمتلك الطاقة، التي تمثل أشياء الإنسان، سوف تكون قادرة في كل وقت، على استرداد دورها، في توليد الإنسان الجديد، القادر على استئناف دوره الحضاري: «فمن حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه» (رواه البخاري).

إن هذه الجموع البشرية، التي تتحرك من مواقعها سنوياً، إلى

مواقع القدوة، لتصحيح مسارها، وتصويب شهادة الرسول عليها، وتحقيق توبة الفكر والسلوك، ومن ثم تعود بهذه المعاني إلى مجتمعاتها، قادرة لو استطاعت رؤية الآيات البينات حقاً، أن تحرك هذه البرك الراكدة، وتعيد إليها الفاعلية، وتمنحها التجدد والتجديد سنوياً.

وهكذا يصوّب التاريخ، ويعدّل المسار باستمرار، كما صوّب نظام الكون، وعاد إلى وضعه الطبيعي، واستدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض... هنا، عند أول بيت وضع للناس، أعلن الرسول ﷺ تصويب الزمان، والمكان، والإنسان.

وَبَعْـد:

فهذه خواطر، ونفحات، وأفكار، من رحاب الحرم، وقبسات من مواقع القدوة والتأسي، جاء استلهامها من مواقف ومواقع متعددة، من أرض الوحي... وكتبت في فترات متباعدة... نقدمها للقارىء، في محاولة لاستعادة بعض المعاني الغائبة، والمساهمة في إعادة البناء، واستبطان الظروف والشروط، التي تربىٰ من خلالها جيل القدوة، فلعل استرجاعها، وتوفرها، ورؤية مواقعها، يساهم بشحذ الفاعلية، وولادة الإنسان الجديد، الغائب عن الشهادة على الناس، بحيث يقدم الأنموذج، الذي يثير الاقتداء، ويصوّب المعادلة، ويخرج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة... ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام... والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الدوحة في

شوال ١٤١٤ هـ الموافق نيسان (إبريل) ١٩٩٤ م

٢٥٦٨/١٢



٢٥٦٩/١٢



﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[1]

الغاية الأساسية من العبادة، هي تحقيق العبودية لله سبحانه، والخضوع له، فيما أمر ونهى، والانعتاق من سائر العبوديات بأشكالها وألوانها، التي كانت سبب الشر في العالم، الكامن في تسلط الإنسان على الإنسان، وعدم التسليم، بأن السيادة لله، فمن لم يكن عبداً لله، فهو عبد لسواه يقيناً. وإن الذين يحاربون الإيمان بالله والعبودية له، إنما يحاربونه لأنه يسويهم بغيرهم، وهذا يحول دون استعبادهم للناس واستخفافهم لهم، وتسلطهم عليهم.

والعبادات في الإسلام ـ التي بها قوامه، وبناء أركانه ـ وقد قال الرسول ﷺ: بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ـ (متفق عليه) ـ هي التعبير الإيجابي العملي العضوي عن العقيدة، والغذاء الدائم لها. وهي أشبه بالمحطات التي يتزود منها الإنسان بطاقات، تضمن له ديمومة تغلب دوافع الخير على نوازع الشر، ليبقى معنى العبودية الحقة، في حراسة دائمة، وحرز أمين.

ولكل عبادة من العبادات الإسلامية، معنى خاص بها، ذلك أنها تتولى بناء جانب من جوانب الشخصية المسلمة، ولو كان للعبادات في

---

(١) الأمة، العدد ١٢، ذو الحجة ١٤٠١ هـ.

الإسلام مدلول واحد، لكانت إحداها كافية في عملية بناء الشخصية المسلمة، وتربيتها على العبودية لله تعالى.

صحيح بأن الصلاة فرض على كل مسلم، تبدأ مع تمييزه، ولا يخرج من عهدة التكليف، ما لم يؤدها بشروطها وأركانها، ولا تسقط إلا بسقوط العقل. وإن بناءها النفسي والعملي للمسلم أمر على غاية من الأهمية، حيث تتكرر في اليوم خمس مرات، إلا أن أركان الإسلام الأخرى، كالصوم والزكاة والحج، إنما فرضت أيضاً لكنها أنيطت بالاستطاعة، لأن هذه الحالة من الاستطاعة التي يصير إليها المسلم، لا بد لها من تربية خاصة بها لتتوجه الوجهة النافعة المفيدة لصاحبها وللمجتمع تسير وجهة النعم ولا ترتكس ارتكاس النقم. وشكر المنعم سبب دوام النعم، وشكرها إنما يكون بوضعها، حيث أراد المنعم.

فلعل الإنسان إذا ملك نصاباً ـ والنصاب كما هو معلوم، بلوغ المال حداً معيناً زائداً عن نفقته ونفقة من تجب عليه نفقته ـ استيقظت في نفسه نزعة الاستغناء والطغيان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ (العلق: ٦).

من هنا كان لا بد لهذه الاستطاعة من تربية خاصة بالحالة التي انتهى إليها هذا الإنسان، حتى لا تضل مسارها، ولا تحمل صاحبها على الطغيان والظلم للآخرين، حيث السقوط في إسار المادة القاتل.

ومن هنا كانت عبادة الزكاة، أو تربية الزكاة لازمة بالنسبة لمن بلغوا من المال حداً معيناً، حتى يسير الجانب المادي في حياتهم، منسجماً ومتوازناً مع سائر الجوانب الأخرى، والزكاة عبادة سنوية. وما يقال في شأن الزكاة، يقال في شأن فريضة الصيام على المستطيع المعافى، لأن الإنسان القوي المعافى الذي لا يشكو ضعفاً تتسرب إلى نفسه بعض نزعات التأله الكاذب، والاستغناء بقوته عن قوة الله، فكان لا

بد له من تربية الصيام، التي تشعره ببشريته المحتاجة إلى الطعام والشراب، إلى جانب الشعور العملي بحاجة الآخرين، فيكون أقدر على مساعدتهم.

أقول: الشعور العملي، والتدريب العملي، وليس الشعار السياسي، الذي يطرحه المترفون من شرفاتهم العالية، لذا نرى أن رمضان ارتبط بالأشهر القمرية يتكرر كل عام مرة حتى يستغرق كل الفصول وكل الأنواء، ويحكم مختلف الحاجات.

والحج هو الركن الخامس، تربية للمسلم الذي يملك الزاد والراحلة، تربية لا تتأتى في تأدية كل العبادات الأخرى، فلكل عبادة مدلولاتها في النفس وبناؤها للفرد المسلم، ولو تأتى هذا البناء من الصلاة أو الزكاة أو الصوم، لما فرض الحج مرة في العمر، ولما كان لفرضيته معنى.

صحيح أن العبادات توقيفية، وأن الغاية منها: العبودية والخضوع لله، لكن هذا لا يمنع أبداً من معرفة الحكم والتماسها، خاصة وأن الله تعالى الذي فرض علينا هذه العبادات قد نص على بعض حكمها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥). وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣). وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ (البقرة: ١٨٣). وقال الرسول ﷺ: «الصيام جنة» (متفق عليه).

يبقى الأمر المطروح هنا، أن الصلاة والزكاة والصيام تتكرر في اليوم أو السنة، أما الحج ففرضه في العمر مرة، على المسلم الذي يملك الزاد والراحلة، حيث لا بد للمسلم من أن يشهد ولو لمرة واحدة في

مستوى الفرضية، الآيات البينات قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ (آل عمران: ٩٧).!

يشهد مهبط الوحي، ويترسم خطوات النبوة الأولى، يشهد المرابع، التي تربى فيها رسول الله ﷺ، وقد حفظه الله من عقائد الجاهلية، السائدة وعاداتها، وكره إليه أصنامها... يشهد مكان صراع قريش، على وضع الحجر الأسود، وحكمة الرسول الأمين ﷺ، يشهد المكان الذي اتصلت به السماء بالأرض، وكان بدء الوحي، وكان اكتماله. يعيش رحلة الدعوة، التي قطعها رسول الله ﷺ، بين مكة والمدينة، متجاوزاً كل الروابط القسرية، التي تواضع عليها الناس، بكل ما في هذه الرحلة من المعاني الكبيرة الخالدة، حيث البلاء يشتد هنا وهناك، وحيث المواجهة المؤمنة، حيث الأمل والرجاء وبرد اليقين، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠) يستروح الذكريات والمعاني ليعيشها ويتمثلها... يستذكر الهجرة إلى الطائف، وما حملت في طريق الذهاب، والإياب، من صور المعاناة والعذاب «إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي» فيكون شعاره: لا يأس مع الإيمان، ولا إيمان مع اليأس، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

يرى التاريخ أمامه على أرض التاريخ، على مقربة من منى، حيث بيعة العقبة الأولى والثانية، وعمادها: السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى قول الحق، وعدم الخوف في الله لومة لائم.

يشهد المسلم في حجه دورة سلمية، يدخلها ويتدرب عليها، مع نفسه، ومع المخلوقات من حوله، حيوانها ونباتها، يعيش في الحرم آمناً ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (آل عمران: ٩٧) حيث لا يزال العالم عاجزاً عن تأمين بقعة من الأرض، محايدة آمنة. يشهد مؤتمر المسلمين العام، حيث ينحدر المسلمون من شتى أنحاء الدنيا، من كل فج عميق.

يدخل مكة، فيذكر دخول الرسول ﷺ، عندما دخلها فاتحاً، ويكاد رأسه يلامس سرج راحلته، تواضعاً وشكراً لله أن فتح له مكة، لأن ذلك اليوم، هو يوم المرحمة، فلم تعصف بنفوس المسلمين نشوة الظفر، وصلف المنتصرين، وما يمكن أن يستدعي ذلك من تجاوز.

يسمع كلام أبي سفيان للعباس رضي الله عنه: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، ويسمع جواب العباس، وكيف يصحح المفاهيم، فيقول: يا أبا سفيان إنها النبوة، وليس الملك.

إن كل حبة رمل في تلك البقاع، تحمل تاريخاً مشرقاً، وتنطق بحضارة، ما زال عطاؤها للبشرية مستمراً.

لقد شهدت هذه الأماكن، لحظات الانتصار، للمعاني الإسلامية، المعاني الإنسانية، شهدت انتصار، الصبر، والحلم، والإيثار، والصدق، والأمانة، هذه المعاني، التي تجسدت في حياة المسلمين الأوائل، على طريق الدعوة، وصاغت سلوكهم من جديد، حتى أصبحوا مؤهلين لدولة الإسلام.

يعيش ولو مرة في العمر، على أرض الدولة الإسلامية، التي تربى أفرادها على عين الله، وتسديد وحيه، لتبقى الدولة القدوة، والخلافة الراشدة... يعيش المساواة الكاملة، فلا تمييز ولا امتياز... يهيج اشتياقه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، الحاكم المسلم العادل، يقول لجبلة بن الأيهم الأمير الغساني، عندما كان يطوف حول الكعبة، لكنه يطوف في الحقيقة حول نفسه، وأمارته، وداس الأعرابي على ثوبه، فضربه جبلة فهشم وجهه، فشكا الأعرابي جبلة، إلى عمر رضي الله عنه، فحكم للأعرابي بأن يقتص منه، فاستنكر جبلة هذه القيم، وقال: كيف يا أمير المؤمنين، وأنا أمير وهو سوقة، فتكون كلمة عمر التي تربي عليها في الإسلام: (الإسلام سوى بينكما)، فيفضل جبلة العمالة للروم، حيث

ضمان التميز على الإسلام، الذي يحكم بالمساواة... يشتد اشتياق المسلم لسيدنا عمر رضي الله عنه، أكثر، عندما يتفلت من ذكرياته وتاريخه، ويعود إلى واقعه الذي يحاول الهروب منه، حيث المآسي، والظلم، والتمييز، والامتيازات وكل ما أنتجته العقول الظالمة، يُصَدَّرُ إلى عالم المسلمين. إذ يعود الإسلام غريباً كما بدأ، ويغيب عمر، ويحضر جبلة، ويصبح حالنا كحال الغاص بالماء، وفي أمننا يخاف البريء... (وشر الملوك من خافه البريء) يشهد المسلم في عبادة الحج ويقف على الأرض التي سقطت فيها قيم الجاهلية ونخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء، لأول مرة في تاريخ البشرية حتى باتت تحت الأقدام، إلا عند الذين نكسوا على رؤوسهم، وأخلدوا إلى الأرض، ينبشون ما تحت الأقدام، يبعثونها من جديد.

يشهد يأس الشيطان، وقافلة الشيطان من دين الإسلام، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾.. (المائدة: ٣) يشهد كمال الدين، واكتمال التشريع ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة: ٣).

يشهد أرض خطبة حجة الوداع، حيث الرسول ﷺ، يضع المعالم الرئيسة للدولة الإسلامية عبر التاريخ، بقوله: «إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا» ويقول: «واعلموا أن الصدور لا تغل على ثلاث: إخلاص العمل لله، ومناصحة أهل الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، ألا أن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع... قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: «كتاب الله». (رواه مسلم وأبو داود والنسائي)

يشهد الطواف حول البيت العتيق، الذي بني على التوحيد، من أول يوم لتتأكد هذه الحقيقة في نفسه، أكثر من مرة بكثرة طوافه.

يستعرض بطوافه عكس عقارب الساعة ماضيه، وما فرط في جنب الله، ويقابله بماضي هذا البيت، وهذه الأرض، فيلتجىء إلى غافر الذنب، وقابل التوب، ليتجدد في حياته، وينخلع من كل ما لا يرضي الله.

قال رسول الله ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». (البخاري وأحمد والنسائي).

* * *

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[1]

قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قد لا نكون بحاجة إلى التذكير، بدور العبادات في بناء الشخصية المسلمة، وكيف أن لكل عبادة من العبادات، التي شرعها الإسلام، حكمة خاصة بها، وأداء معيناً، بحيث لا تغني في ذلك عبادة عن أخرى، فيما بني عليه الإسلام، من العبادات، بعد أن تتحرر النية، وتلغى العبوديات لغير الله بأداء شهادة ألا إله إلا الله، التي بها ينتقل الإنسان إلى الإسلام، ويحقق انعتاقه من العبوديات لغير الله. وتؤدي العبادات المتنوعة، من صلاة وصيام وحج وزكاة دورها في حماية الشخصية المسلمة من السقوط، وتضمن لها ديمومة تغلب دوافع الخير على نوازع الشر، فهي أشبه بمحطات، يتزود منها الإنسان بالطاقة والعطاء والإيجابية، وتجديد المعاني التي تكاد تغيب من نفسه، في زحمة الممارسات اليومية، والتدافع البشري.

وقد تكون مشكلتنا، في عدم الإحساس بأثر العبادة، وحكمتها وعطائها، وروائها، ومعانيها، لأنها تحولت عند الكثير منا، إلى لون من الآلية والتكرار، والألف، بمعنى أنها تحولت من نطاق العبادة وعطائها إلى رتابة العادة وآليتها، إلى درجة لم نعد نحس معها بالفارق المطلوب،

---

(١) الشرق، ٤/٥/١٩٩٣.

٢٥٧٨/١٢

بين حالنا قبل أداء العبادة، وحالنا المفترض بعدها، مما جعل الكثير منا، بدأ يشعر بأن بعض العبادات لا معنى لها، لأنها ممارسات حركية عضلية، مقطوعة عن فكرتها وحكمتها.

ولعل عبادة الحج، والتوجه صوب البيت، الذي بني على التوحيد، تشكل عبادة موصولة ومستمرة، في حياة المسلم، بشكل أو بآخر، حتى ولو لم يمتلك الاستطاعة، من الزاد والراحلة، للذهاب إلى هناك، والتي لو امتلكها، لوجب عليه الحج مرة في العمر، يذهب فيها ليشاهد عياناً منزل الوحي، ويلغي بهذه الرحلة، التاريخ والجغرافيا على سواء، ويصوب المنطلق، ويترسم خطوات النبوة، ويعيش مرابعها ومراحلها، ليولد من جديد، «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (متفق عليه) إنها رحلة التجدد والاتصال بالجذور، والعب من الينابيع الأولى، بعد أن امتلك المسلم القدرة على تجاوز الزمان والمكان، ليلتقي بجذور النبوة الأولى ويجدد الانتساب إليها، ذلك أنه بحجه إلى البيت الحرام، وطوافه حول البيت العتيق، لا يقتصر على أن يكون تاريخه ممتداً إلى نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما يتوغل في تاريخ النبوة، إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذي وضع القواعد من البيت على التوحيد، وجعله رمزاً للتحرر والتحرير، من العبوديات لغير الله، وطهره من الأوثان، وسائر الشركيات، ودعا ربه هناك، مع ولده إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ (البقرة: ١٢٨) إنه البيت العتيق، وسواء قلنا بأن العتيق هنا، هو القديم، الضارب في القدم، في التاريخ، الذي يتوجه إليه الإنسان المسلم يومياً خمس مرات، ويحجه في العمر مرة، حيث يدخل في قافلة الخلود، المستمرة العطاء والأداء، ذلك أن المسلم بالتوجه إلى البيت العتيق والطواف بالبيت العتيق، يضيف تاريخاً إلى تاريخه، وعطاءً إلى عطائه، وينضم إلى قافلة النبوة، ويرتبط بمعانيها، فهو أحد أبناء

سيدنا إبراهيم، الذي حرر البشرية ووضع لها رمز التحرير، لتتوجه إليه يومياً، ونحاول الوصول إليه، لنتمحور حوله، ونؤكد عملية الانتساب إليه بشكل عملي مادي، ولا نقتصر على الارتباط النفسي، هذا إذا قلنا بأن البيت العتيق يعني البيت القديم، الذي بني على التوحيد، وكان رمزاً له، وهو معنى كبير، وكبير جداً، يستدعي التوجه اليومي، ويقتضي المجاهدة، لطي مسافة الزمان والمكان، للوصول إليه، إنه التوجه اليومي خمس مرات، الذي يبدأ الإنسان فيه يومه، وينهي فيه نهاره، ويوجه إليه حال موته وفي قبره.

وإذا قلنا: بأن العتيق هنا، يعني الذي لا سلطان، ولا تسلط لأحد عليه لأنه رمز الحرية والانعتاق من سائر العبوديات والشركيات والطواغيت، والذي يعني التوجه إليه والوصول بالحج إليه، التخلص والخلاص من أسر المعاناة والعبودية، فإن الحج إليه والتمحور حوله، والطواف بساحته، وإدراك معانيه، هي بلا شك استرداد لإنسانية الإنسان، واسترداد لكراماته المفقودة، وحقوقه المهدورة.

إن التوجه صوب البيت العتيق، خمس مرات يومياً، حيث يفتتح المسلم يومه بالتوجه ويختتم يومه بالتوجه، ويملأ يومه بالتوجه معناه الإصرار على استرداد المعاني النبوية الغائبة، عن حياة الإنسان التي يحمل دلالاتها البيت العتيق، إنه التوجه صوب مطلع النور، وأرض النبوة والتحرير، والسلام والأمان، ذلك أن هذه القبلة أو الوجهة، تعني التوجه صوب هذه المعاني الكبيرة، ومحاولة إبصارها ورؤيتها، والإصرار عليها، والاستمساك بها، مهما كانت الظروف، والتي تمثل المساجد المنتشرة على أرض الدنيا كلها، مواضع لاستقبالها. فإذا استطاع المسلم وامتلك الزاد والراحلة، فما عليه إلا الذهاب للوصول إلى المشاهدة بعد الشهود، والمعايشة اليومية، لمواقع النبوة ومراحلها ومرابعها، بعد دراستها وسماع أخبارها، فإذا وصل مكة، بدأ بالطواف حول البيت العتيق، وقام مصلياً

عند مقام إبراهيم عليه السلام، وإذا أدى المناسك، عاد إلى الطواف، قبل المغادرة، وإذا دخل المسجد الحرام، فلا بد له من الطواف في كل دخلة، فتحية المسجد الحرام الطواف، وحاول في كل طوافه، إن استطاع، أن يقبل الحجر، وتلمس شفتاه ملمس شفاه النبوة، ليؤكد وحدة المورد، ووحدة المصدر، ووحدة المنطلق، ويستذكر قوله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله إني أعلم أنك حجر، لا تضر، ولا تنفع، ولولا أن رسول الله ﷺ قبّلك ما قبلتك، إن سيدنا عمر تجاوز الشكل إلى المعنى، والمضمون، الذي يعني فيما يعني الالتزام حركياً، وليس فكرياً وعقيدياً فقط، السير على قدم النبوة وحسن الاقتداء بها.

إن المسلم يذهب إلى الحج، ويطوف بالبيت، بعكس عقارب الساعة، إنه يطوف باتجاه الماضي، ليصل تاريخه بالنبوة الخالدة، التي لا تقتصر على النبوة الخاتمة، ويعود من الحج مرتكزاً إلى تاريخ النبوة الطويل، بعد أن تأهل ليكون أحد أفراده وصناعه ليبدأ حياته من جديد، جديداً متجدداً، خالياً من الذنوب والخطايا، متسأنفاً رحلة الحياة، بطهر، ونظافة، وتاريخ مضيء، «فمن حج لله، فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (البخاري وأحمد والنسائي) إنها رحلة باتجاه تصويب الماضي، والتزود بالتقوى، إلى حسن صناعة المستقبل، قال تعالى عن رحلة الحج: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (البقرة: ١٩٧). إنها الوقاية النفسية والحضارية، والسلوكية، والفكرية، التي تمنحها فريضة الحج، ويمنحها الطواف حول البيت العتيق، ليعود الإنسان خلقاً آخر، يقوم بأداء الرسالة ويحقق العمران البشري، وإنه الإصرار اليومي على استرداد المعاني المفقودة، من حياة المسلم، التي يمنحها البيت، وإنه الانسلاك في قافلة الخير والنور والخلود، والماضي والمستقبل، فليس المسلم عرضاً زائلاً، وإنما هو خيار الخلود.

٢٥٨١/١٢

من هنا نقول: إن اختزال الإسلام، في موقف، أو جماعة، أو تنظيم، أو قوم، أو جنس، أو عصر، أو معركة، أو نظام، أو حاكم، أو شعب، والخروج به من خلوده الحضاري، والتاريخي، والمستقبلي، هو نوع من القصور في الإدراك للمعاني الكبيرة، التي يحملها الإسلام، وتقاصر عن إدراك أبعاد الأمانة والعبادة.



﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾[1]

- ١ -

إن حياة المسلم كلها موصولة بالبيت العتيق حيث يبدأ صباحه بالتوجه إليه، وينهي نهاره، ويبدأ ليله بالتوجه إليه أيضاً، ويمارس عملية التوجه، والصلاة خمس مرات يومياً، مصراً على استرداد معاني التوحيد وآثاره، التي انطلقت من البيت العتيق، معتقداً أن هذا الموقع الذي انطلقت منه خير أمة أخرجت للناس، يمتلك الإمكان والقدرة، في كل وقت، حين إذا توافرت الشروط ،على معاودة إخراج الأمة، التي تمتلك الخيرية للعاملين، ذلك أن نهوض أي مجتمع، مرهون بتوفير شروط وظروف ميلاده الأول.

إن توجه المسلم المستمر، إلى البيت العتيق، نفسياً في المعتقد، وحركياً في عبادة الصلاة والحج، يعني فيما يعني، الخلوص من العبوديات، والتحرر من كل ألوان التسلط، والضغط،والإكراه، والانعتاق من كل المغريات المادية والمعنوية، والانطلاق إلى أداء الرسالة، التي بني عليها البيت من أول يوم في تاريخ النبوة، رسالة التوحيد والتحرير.

إنه البيت العتيق، قبلة الإنسان العتيق من كل القيود والإصار، الذي يمتلك المسلم التاريخ بالتوجه إليه، فينسلك في قافلة النبوة، التي

---

(١) الشرق، ١١/٥/١٩٩٣.

انطلقت من ذرية إبراهيم، ومقامه عند البيت الحرام، ويسعد بكسبها ويستمد من عطائها، ويدخل في قافلة الخلود، الذي لا يحده الموت، وقد يتوج هذه المعاني كلها عملياً، إذا امتلك الزاد والراحلة، فيسقط جدار الزمان، ويختزل مساحة المكان، ليحج البيت العتيق ويطوف حوله، متمحوراً حول المعاني الكبيرة، التي يحملها في تاريخه الطويل، واقفاً أمام الآيات البينات وجهاً لوجه، وفي مقدمتها مقام إبراهيم، باني التوحيد تاريخه، وصاحب الحنيفية السمحة، ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ (آل عمران: ٩٧) ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨).

إن الآيات البينات، التي يقرأ عنها المسلم، ويتوجه إليها يومياً، والتي كان يؤمن بها غيباً من الغيب، يشهدها هنا في رحاب البيت الحرام، عياناً في لحظات، يحس معها بمعاني الخلود وآفاق الامتداد، وأخوة البشرية، ووحدة الإنسانية، ويسقط معها كل صور الزيف، والتمييز، ويستشعر أنه لم يعد بينه وبين الله حجاب، فيعب من الخير على أرض النبوة، وفي مواقع القدوة، مترسماً خطا النبوة، متوسماً الآيات البينات، لأنها آيات للمتوسمين، هنا في رحاب البيت العتيق، يتحرر من كل قيد، ويطلق سمعه، وبصره، وعقله، وحسه، وحدسه، لإدراك الآيات البينات.

هنا في رحاب البيت الحرام، وعلى مقربة منه، يسمع من وراء الزمن المنظور، ومن غار حراء عطاء الوحي الخالد: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ (العلق: ١) فيدرك أن الإسلام كان المرحلة الفاصلة بين العلم والجهل، بين الضلال والضياع، بين الإيمان واليقين، ويدرك أيضاً أن العلم مفتاح هذا الدين، ويعتصر قلبه أسى وحسرة، على أن نسبة الأمية في عالم المسلمين اليوم، هي أعلى النسب، ذلك أن أمة اقرأ أصبحت لا تقرأ!

ولعل ذلك الصوت الغائب اليوم، عن الحياة الإسلامية، بالشكل المطلوب، صوت الوحي: باقرأ، هو من أولى الخطوات المطلوب استردادها، وأولى الآيات البينات.

فإذا نظر المسلم إلى الكعبة، التي جعلت مثابة للناس وأمناً، يلمح في تاريخ النبوة، كيف أن هذا البيت الذي بني على التوحيد، ترجمت النبوة الخاتمة، معاني التوحيد فيه، إلى واقع الناس، وأعلنت وحدتهم العملية، وكأنه يرى بلالاً رضي الله عنه يصعد الكعبة، بساقية السوداوين، ليعلن نداء التوحيد، والمساواة، وتتعاظم مكانته وتتعاظم، ليدوس بقدمه سطح الكعبة ويصبح سيداً، فالإنسان المؤمن أكرم من كل شيء ـ وأبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا ـ بعد أن كان يسمى الغراب الأسود.

إن المسلم، الذي يبصر مكانة بلال، من وراء الحجب، يدرك من الآيات البينات، الشيء الكثير الغائب عن حياة المسلمين اليوم، والذي يمثل روح الحضارة الإسلامية، وهو المساواة، وعدم التمييز، وأن الأكرم هو الأتقى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣). وعندما يطوف في خياله، نموذج بلال وسلمان، لا بد له أن يقف ولو للحظات، عند معاني الكرامة، وتصويب الموازين، فبلال يصعد حتى يقف على الكعبة، والقرآن، يتلى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ (سورة المسد) فيدرك هذه الآيات البينات، وكيف أن رموز الجهل والظلم والجاهلية، أصبحت وسائل إيضاح، لمصير كل الطغاة والمعاندين للحق، لقد غابت الجاهلية برموزها وتاريخها، وبدأت الآيات البينات، والمعاني الجديدة للقيم الإنسانية الجديدة.

قال رسول الله ﷺ فيما معناه: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة

الجاهلية، وتفاخرها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب (حديث حسن) ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ (البقرة: ١٩٩).

المسلم في رحلة الحج، يقف كما أسلفنا، وجهاً لوجه أمام الآيات البينات، هنا في الحج، يصبح الماضي مستقبلاً، ويتحول التاريخ، من الوراء إلى الأمام، فيتزود الإنسان بالآيات البينات، ليعود مولوداً جديداً، «فمن حج لله، فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (متفق عليه).

إنه يرى صورة أبي لهب الدارسة، ويرى معها صور كل أولئك الذين يحملون الحطب اليوم، ليحاربوا الدعوة والصحوة، ويرى مصارعهم، وكيف أنهم سيصبحون وسائل إيضاح للطغاة والمتألهين، الذين يسيرون وراء لواء أبي لهب، إلى النار، فيزداد المسلم قوة على قوة، وتصميماً على تصميم، في الثبات على الحق، والدفاع عنه، لأنه يعلم أن الله يضرب الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

ومن الآيات البينات أيضاً ما يقرره العلماء: من أن النظر إلى البيت الحرام: الكعبة عبادة، ذلك أن هذا النظر، والتأمل، والتوسم سوف يستدعي الكثير من المعاني الغائبة.

إن هذا النظر، يذكر أول ما يذكر، بحكمة الرسول ﷺ أثناء إعادة بناء الكعبة، ووضع الحجر كما أنه يذكر بحكمته في الدعوة، وأخذ الناس بأحكام الإسلام شيئاً فشيئاً، فيستمع إلى حديثه العظيم في قولته لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام لهدمت البيت، وأقمته على قواعد إبراهيم»، ويدرك حكمته وكيف أنه تحول إلى تغيير النفوس، لا إلى تحطيم الرؤوس، فكان يقرأ القرآن، ويطوف البيت الحرام، والأصنام تملأ ساحاته، فلم يمسها بأذى، حتى انتهى الأمر بها إلى أن كسرها عبادها، بأيديهم بعد أن آمنوا.

يتأمل المسلم في الكعبة، وتأمله عبادة فيستثير التأمل في نفسه الكثير والكثير، من المعاني الغائبة، يتذكر ما كان عليه الرسول ﷺ من الصبر والمصابرة، وما كان عليه المسلمون من الاستعجال، والرغبة في النصر السريع والضيق، بالمعاناة الشديدة، وكيف أنهم لا يدركون تماماً أن مع العسر يسراً، وأن العسر والشدة مقدمات النصر.

وكأن المسلم الذي يتأمل في الكعبة، ليدرك الآيات البينات، يبصر من السيرة، وعند هذا المكان كيف أن الرسول ﷺ: كان متوسداً بردته في ظلها، عندما جاءه المسلمون يقولون: ألا تدعو لنا ألا تستنصر لنا، وقد أصابهم من الشدة ما أصابهم، فيقول لهم بما معناه: لقد كان فيمن كان قبلكم يؤتى بالرجل، فينشر بالمناشير ما بين فرقه وقدمه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، ما يثنيه ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الدين حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، ولكنكم تستعجلون (رواه البخاري). فيتعلم المسلم من رحلة الحج، فن الصبر، ويدرك أبعاده وآماده، وأعماره المطلوبه، فيدرك خطورة حرق الزمان، ويدرك خطورة الاستعجال، ويدرك خطورة التحول، من تغيير النفوس، إلى محاولة الإطاحة بالخصوم.

يدرك المسلم في جنبات هذا البيت، كيف أن الكثير من الصحابة، سمعوا آيات الله تتلى وهم أهل الفصاحة والبيان، ومع ذلك لم يؤمنوا لسنوات من السماع طويلة، ثم ما لبثوا أن آمنوا، وكانوا عدة الإسلام، ورجاله العظام، فيعيد حسابه من جديد، ويدرك أن عملية التربية، والتحويل الثقافي، وتغيير النفوس من الصناعات الثقيلة، التي تقتضي الكثير من الصبر، والاحتساب، والمصابرة، حتى تنضج الثمار، ذلك أن أي استنهاض للنبتة قبل أوانها، يعني قطعها والقضاء عليها، فيتعلم من الحج فن الصبر، والاحتمال في سبيل الله، وأن لكل أجل كتاباً.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾[1]

- ٢ -

إن صلة المسلم بالبيت العتيق مستمرة، لما في هذه الصلة من التحرر والانعتاق، من كل تألُّه وعبودية لغير الله، والارتباط بجذور التوحيد، التي بني عليها هذا البيت، على يد أبي الأنبياء، وإعادته إلى أداء رسالته في التحرير، مطهراً من الوثنية والشرك، للطائفين والقائمين والركع السجود، على يد الرسالة الخاتمة.

إن المسلم، مطالب بأن يحسن قراءة وجهته، ويعرف قبلته، ويدرك معناها تماماً، ويعرف أبعاد توجهه خمس مرات يومياً حيث يبدأ نهاره بالتوجه كما يبدأ ليله به، ويسعى بجهده الذي قد يعمل له طيلة حياته ليمتلك الاستطاعة ـ الزاد والراحلة ـ ليسقط مسافة الزمان، ومساحة المكان، ليصل في نهاية المطاف، إلى ينبوع التوحيد، وأرض التوحيد، ورمز التوحيد، فيقف أمام البيت العتيق، ويتمحور حوله، عتيقاً من كل حواجز التاريخ والجغرافيا، ويحاول بالإحرام الذي يهيئه لاستقبال البيت، التجرد والخلوص من كل مظاهر الدنيا، ومفاتن الحياة، وإصاباتها المختلفة، والتلقي من الينابيع الأولى، بعيداً عن كل القيود والأثقال والآصار، ليعود من جديد، يعاود البناء على تقوى من الله ورضوان: فـ «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

إنه الرجوع المتجدد، والولادة الجديدة، التي إن لم ندرك أبعادها

(١) الشرق، ١٨/٥/١٩٩٣.

تماماً، فسوف ينقلب الحج إلى لون، من الآلية والتكرار والعادة، بعيداً عن عطاء العبادة، التي تغير ما في النفس، وتعيد صياغة الشخصية.

والكعبة، التي جعلها الله مثابة للناس وأمناً، جعل النظر إليها، والتأمل في معطياتها عبادة ووسيلة ثواب، تغييراً وتجدداً، لما يحمل هذا النظر، والتأمل إلى النفس، من المعاني المفقودة، ويعيد بناء مركز الرؤية، القادر على إبصار المناسك، والاهتداء إليها، وإدراك معانيها وأداء مبانيها ومحاولة القيام بإعادة النظر في بناء الذات، تحت شعار: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ (البقرة: ١٢٨) لتبعث من جديد، وتقلع من مواقع القدوة، ورصيد النبوة المتجسد في هذه المناسك.

وكم سيكون التغيير كبيراً، والعطاء متميزاً، لو تأمل المسلم في المناسك، وأحسن رؤيتها، وأدرك حكمتها، وتمثل عطاءها، واعتمد السيرة كأنموذج للاقتداء «خذوا عني مناسككم» (رواه النسائي).

من هنا ندرك أبعاد الترهيب الكبير، الذي توعد به الرسول ﷺ «من استطاع الحج ولم يحج» لما لهذه العبادة المستطاعة من أثر وبعد في صياغة الشخصية، والعقيدة... إنها فرصة العمر، وعبادة العمر، وعطاء التاريخ، ابتداء من أبي الأنبياء وانتهاء بالنبوة الخاتمة.

نعود إلى القول كم نحن بحاجة اليوم، وبعد هذا الجنوح، والخروج، والتخلف، والإصابات في المفاهيم، والممارسات، التي تحمل لنا يومياً الخسران، تلو الخسران، كم نحن بحاجة إلى العودة إلى الينابيع الأولى، على أرض النبوة، لنصوب المسيرة، ونراجع الماضي، وندعو الله أن يرينا مناسكنا لننطلق من جديد.

ولعل من هذه المناسك والبينات، التي أشرنا إليها، أن ندرك أن من أخص خصائص الداعية الذي يسير على قدم النبوة، أن يتعلم فضيلة الصبر وفائدة الصبر، ويستوعب مخاطر الاستعجال، وحرق المراحل،

٢٥٨٩/١٢

ويتدرب على الإخلاص في النية، والاحتساب في العمل. فعند هذا البيت، وعلى هذه البقعة المباركة من الأرض، قرئت دعوة الرسول ﷺ بأبجدية خاطئة، وظن الكبراء، والزعماء، والمتمولين، والمتنفذين، أن الرسول بدعوته، يريد سياسة، ويريد زعامة، ويريد مالاً، ويريد جاهاً، إلى آخر هذه القائمة التي ما تزال تقرأ حركة الدعوة الإسلامية، والصحوة الإسلامية، بأبجديتها الخاطئة، إلى اليوم، وتشوه صورة الدعاة، وتلبس عليهم التهم التي هم منها براء، فما كان من الرسول ﷺ إلا العزم، على المضي في دروب الحق، مهما كانت التضحيات، «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» هنا في رحاب البيت، مطلوب إلى المسلم، المراجعة، لتصويب المسيرة، والعزيمة على الرشد والثبات، على إلحاق الرحمة بالناس، مهما كانت التضحيات، هنا أمام البيت الحرام، يكون العهد، على التواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

هنا لا بد من تصويب الفعل، وتحرير النية، للانطلاق من جديد.

والحقيقة، التي أرى أنه لا بد من التوقف عندها، والتذكير بها، ونحن بسبيل رؤية المناسك، وإدراك الآيات البينات، التي تنبعث من عطاء البيت العتيق، أن نستوعب تماماً أبعاد الدعوة إلى الله، وتميزها في أهدافها، ومقاصدها، وأسلوب ممارستها، وسياساتها، عن سائر الأفكار، والدعوات الأخرى، أو بمعنى آخر، لا بد لنا أن ندرك الفرق الواضح، بين النبوة، والملك، أو النبوة والسياسة، أو الدعوة والسياسة. ونعلم أن النبوة دليل السياسة والحكم. وقيم النبوة، وخلق النبوة، هي الضابط للممارسة السياسية، على مختلف الأصعدة.

وتحضرني في هذا المقام مواقف متقابلة، بين النبوة، والملك، ولعلي أعتبر إدراكها من الآيات البينات، المطلوب تدبرها، ومن

المناسك المطلوب رؤيتها، على هذه الأرض المباركة، سواء كان المسلم حاجاً، أو موصولاً بالبيت الحرام، مستقبلاً له في كل حياته.

لقد شهدت أرض مكة التآمر على حياة الرسول ﷺ، والمكر به، وانتهى التواطؤ على الظلم إلى جمع القبائل، لتحقيق ضربة واحدة، تلغي معالم النبوة، فكانت الهجرة إلى المدينة، بعدما تم من بيعتي العقبة الأولى، والثانية، كما هو معروف في كتب السيرة.

يحضرني، في مقابل موقف التآمر على النبوة، على هذه الأرض المباركة المحرمة، قولة أبي سفيان، بعد أن ذلت دولة الجاهلية، وعاد النبي فاتحاً لمكة عاصمة الجاهلية في ذلك الوقت، بعد أن رأى كتائب الجهاد، وبعد مضي أكثر من اثنتين وعشرين سنة، على البعثة، قولة أبي سفيان للعباس عم الرسول ﷺ: «لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً»، قرأ النبوة من جديد، بأبجدية خاطئة، فظنها الملك العظيم، كما ظنها أهل مكة، في بدء الدعوة، فصوب له العباس، رضي الله عنه فقال: «إنها النبوة وليس الملك».

فالنبوة بخصائصها، وصفاتها، وممارساتها، وسياساتها، شيء آخر متميز غير السياسة والملك، والحكم العضوض، عندما يكون بلا نبوة.

وقد يكون من المفيد ونحن بسبيل استطلاع بعض الآيات البينات، ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ (آل عمران: ٩٧)، أن نحاول رصد بعض المواقف، التي تبين الفرق بين النبوة ودعوتها، والملك وسياسته، خاصة عندما يكون الملك بلا نبوة، ولا قيم سماوية.

الرسول ﷺ عندما فتح مكة، لم يدخلها متشفياً، جباراً، منتقماً، تعصف في رأسه، نشوة الظفر، والنصر، ورغبة الثأر، ممن تآمروا عليه، وسعوا في قتله، وإنما دخلها عابداً، خاضعاً، متواضعاً، شاكراً لله، حتى ليكاد وجهه، يلمس سرج راحلته.

إنها النبوة وليس الملك.

وعندما أراد بعض الصحابة أن يثأر، ويقتص من أعداء الله، الذين أخرجوا الرسول من مكة، ومارسوا كل أنواع الظلم، والتنكيل، وألحقوا به كل أنواع الأذى، ورأى في الفتح فرصة للعقاب، فقال يوم الفتح:

اليوم يوم الملحمة ــ وهذا من آثار سياسة الملك ــ صوب له الرسول ﷺ الأمر، وأعاده إلى جادة الصواب، وقال: اليوم يوم المرحمة، حتى يتخلص الناس من الظلم، والطغيان، والعبودية وتدركهم رحمة الله برسالة النبوة، «إنها النبوة وليس الملك».

فما أحوج الدعاة اليوم إلى التحول من الملحمة، إلى المرحمة، وإبصار آيات النبوة، المتميزة عن السياسة، والملك العضوض، وتعلم فضيلة الصبر، وثواب الاحتساب، وإدراك أن مهمتهم إلحاق الرحمة بالناس، وإنقاذهم مما هم عليه، والدعاء لهم بدل الدعاء عليهم.

ما أحوجهم، وهم يرون الآيات البينات ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ (آل عمران: ٩٧) في أشهر الحج، ورحلة الحج، أن يستمعوا إلى قولة الرسول، بعد العودة من الطائف، بعدما وقع عليه من الشدة والعذاب، حتى أن عائشة رضي الله عنها تروي فيما تروي، أن عذاب الطائف، من أشد ما لقي الرسول من قومه، وقد أصابه ما أصابه من صلف الكفار، وترفعهم وكبريائهم، حتى عزفوا عن السماع إليه، واللقاء به، وهذه نهاية الاستهتار، والمبالغة فيه، إلى درجة أغروا به صبيانهم وعبيدهم.

فاصطفوا له صفين يرمونه بالحجارة، ويدمون قدميه، ويوقعونه على الأرض، وكلما قام عاودوا الضرب من جديد حتى أغمي عليه، فما استفاق من العذاب، ألا وهو بقرن الثعالب «مكان بين الطائف ومكة»، حيث قابله ملك الجبال، والعقاب فقال يا محمد: لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين، فما كان من عطاء النبوة، المتميز عن الملك إلا أن

قال: «عسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». إنه يتحمل كل شيء في سبيل هداية الناس، وإلحاق الرحمة بهم والتوجه صوب أجيال المستقبل، لعلها تكون محل العطاء.

وعندما اشتد الأمر بالصحابة، طلبوا إلى الرسول الدعاء على الكفار بالهلاك، فقال: ما بعثت لعّاناً.

إنه يدعو لهم، بدل أن يدعو عليهم، إنها النبوة التي ندعو الله، أن يرينا مناسكها، في أشهر الحج، إنها النبوة، وليس الملك، فهل يدرك العاملون للإسلام، طريق النبوة الهادية، ومتطلباتها، بعيداً عن ممارسات الجبابرة، والطغاة، ويعيدوا قراءة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ﴾ (ق: ٤٥).

وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ (ق: ٤٥).

* * *

ألا هل بلغت[1]؟!

المعاني الجامعة، التي عرض لها الرسول الله ﷺ، في حجة الوداع، وائتمن عليها الأمة المسلمة، والتي يمكن وصفها، بأنها حديث المودع، الذي يبصر المستقبل، في ضوء تجارب الماضي، وهدايات الوحي، خاصة بعد أن اكتمل البناء الأنموذج، للمجتمع الإسلامي، وتمت النعمة في اليوم التاسع من ذي الحجة، يوم عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣). يوم أن يئس الشيطان، أن يعبد في أرض النبوة، كما يئس الكافرون من دين الإسلام، تعتبر من المعالم الرئيسية، لمسيرة الأمة المسلمة، والمرتكزات الأساسية لبناء المجتمع الإسلامي، وسلامته، كما أن تجاهلها، أو تغييبها، سوف تترتب عليه المخاطر الكبيرة، والسقوط المروع.

والحقيقة أن هذه المعالم الرئيسية، على طريق النهوض الإسلامي، والمرتكزات الأساسية في البناء، التي أبصرتها عين النبوة، وأكدت عليها من خلال مسيرة التكامل، وميلاد المجتمع الإسلامي القدوة، وتمحورت حولها خطبة حجة الوداع، لا بد أن تصبح من الآيات البينات لكل مسلم وحاج، خالدة، خلود الزمان والمكان.

إنها الوصية الباقية، التي يستمع إليها كل مسلم، حاجاً كان أو

(١) الشرق، ٢٥/٥/١٩٩٣.

متذوقاً لمعاني أشهر الحج، ومناسك الحج، وبينات الحج، ويكلف بنقلها، لتتجاوز حدود الزمان والمكان، «فرب مبلغ أوعى من سامع (رواه الترمذي وابن حبان). «ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه». (رواه أحمد وابن ماجه) هذا النقل الثقافي، أو هذا البلاغ المبين، الذي يتكرر كل عام، ويستدعى كل عام، ويستغرق ما يقارب ربع العام، ولا يقتصر على يوم عرفة، والأيام المعلومات، وعشر ذي الحجة، وإنما الحج أشهر معلومات، إنه مناخ استدعاء تلك المعاني، واسترداد المفقود منها لمعاودة البناء، إن رؤية المناسك، والتحقق بالبينات، ومحاولة استدعائها، واستيعابها، لا يسعه يوم واحد أو أيام معلومات، وإنما هي الدورة المتكررة، والزمن المعلن سنوياً، للعودة إلى رؤية المعاني، وتجديدها، لتبقى حاضرة مؤثرة مشهودة.

إن أشهر الحج المعلومة، هي المدى الزماني المطروح سنوياً للمراجعة، في إطار الزمان، كما أن الذهاب إلى أرض النبوة، ورؤية المناسك مادياً، ومعنوياً هو المدى المكاني، الذي لا بد أن يتحقق للمسلم المستطيع، ولو مرة في العمر، لاستعادة المعاني الغائبة والقضاء على العناصر الشائخة، والجوانب الرخوة في الحياة، وتوفير التجديد للميلاد الجديد.

إن شهرين، وبعض الشهر، في كل عام، كعنوان للمرحلة الزمنية، التي تجدد الانتماء لمعاني النبوة، بالنسبة لكل مسلم، وتتميز بحركة المجتمعات الإسلامية، وشد الرحال، لأجيال متعاقبة متداخلة، للوصول إلى أرض النبوة، لرؤية المناسك، وشهود البينات، وتحقيق المنافع، له من المعاني والأبعاد، الكثير والكثير، التي لا بد أن تعتبر منجماً، مستمر العطاء، للتربية الإسلامية، إذا أحسنا استثمار ذلك، وتوظيفه على الشكل المطلوب.

إن قراءة واعية، لوصية الرسول المودع، في حجة الوداع، ومقابلتها بالواقع، الذي صارت إليه الأمة المسلمة، والإصابات التي لحقت بها بسبب الغفلة عن هذه المعاني، والجنوح عن جادتها، تعيدنا إلى الصواب، وتبصرنا بالأدواء والأدوية التي غفلنا عنها، لكن المشكلة كل المشكلة اليوم، هي وجود البصر، والحركة، وغياب البصيرة، والفاعلية، وإدراك المعاني الجامعة لهذه العبارة.

من هنا نعاود القول: بأن الحج بالنسبة للمسلم فريضة العمر، وهو الحياة على أرض النبوة نفسها، وإقامة المناسك نفسها أيضاً... والذي لا بد من الاعتراف به: أن العبادات في عصور التخلف، والوهن، والتكرار، تنعدم فاعليتها لتصبح خالية من أي معنى، حتى أن بعضهم صار يتساءل عن جدواها، لأنه لا يشعر بأي تبدل في موقعه قبل أدائها وبعده، أو في مواضع كثيرة من مسالك الذين يؤدونها...

كما أن القيم في عصور التخلف والوهن أيضاً، تنقلب إلى شعارات تعلو بها الأصوات، وتسقط معها الهمم، وتخبو قدرات التغيير، ويظن معها أن حل المشكلات، يستدعي مزيداً من الصراخ، والعويل، والاحتجاج، فيتوقف الفعل، ويعم الانفعال، وتحصل حالة من فقدان التوازن الديني، فيستغرق الناس في صور من العبادات، تشكل لهم مهارب نفسية، هي أقرب إلى البدع والخرافات، منها إلى الدين، بصفائه ونقائه وعطائه وفاعليته.

وقد تزداد الأمور سوءاً، فيمارس مسلم عصر التخلف، فصل الحياة عن الدين عملياً، ولو لم يعترف بذلك نظرياً، فإما أن يهرب من الحياة إلى لون من العبادة والذكر، يظنها البداية والنهاية، وتتضخم عنده بعض التصورات، فلا يرى سواها، ويقوّم سلوك الناس على ضوئها، وإما أن يمارس الحياة ممارسة عادية، كسائر الناس، الذين لا صلة لهم

بالإسلام، ويقعد عن سائر واجباته، ولا يختلف في معاملاته عن غيره، ويظن أنه يكفر عن ذلك، بصيام نفل، أو بتكرار حج، أو بمتابعة تلاوة، أو حلقة ذكر، يتساهل بحماية الثغر الذي أقامه الله عليه، وقد يدع إتقان العمل، وممارسة التفوق في الاختصاص، وأداء حقوق الناس، إلى صور من التدين، يختارها هو... إنه الاطمئنان الخادع، والتدين المغشوش، وعدم الاستشعار بالمسؤولية، وفقدان التوازن الديني، إن صح التعبير، وغياب التوتر الإيماني، والقلق السوي، الذي يصوب المسار... ومن هنا تبدأ عملية تفسير النصوص الإسلامية، والتعامل معها، من خلال هذه المواقع المتخلفة، ويتملك الإنسان العجب، ألسنا نصلي، كما كان الصحابة يصلون، ونصوم كما يصومون، ونحج كما يحجون؟! أليس هذا هو القرآن الذي فقهه صحابة رسول الله ﷺ، فصنع منهم ما صنع؟!...

إن القرآن هو القرآن، لكن الفهم غير الفهم، والاستجابة غير الاستجابة، والتلقي غير ذاك التلقي... إن العلل الفكرية، وإصابة عالم الأفكار، لا تغني عنه بعض صور العبادة، بما في ذلك تكرار الحج، إذا لم يترافق ذلك مع عمليات الاختبار، لصحة الموقع، وتصويب المسار، إنه الخلط بين حقوق الله، التي تكفر بالتوبة، والعبادة، وحقوق الناس، التي لا بد من أدائها... وقد تكون قضية الانفلات من عصر التخلف، وطي مرحلة التخلف، وإلغاء مفهوم عصر التخلف، والتلقي المباشر عن القيم، والفهوم الأصلية، عملية صعبة على إنسان هذا العصر، لكنه الأمر الذي لا بد منه إن عاجلاً أم آجلاً...

إن الآيات البينات في رحلة الحج، وأداء مناسكه كثيرة، وكثيرة جداً، ولا بد للمسلمين من وعيها، وإدراكها، وإن كان جهل بعض مسلمي اليوم، الذين يتعلمون أحكام الحج وينسون آدابه ـ، حتى يكاد يقع بعضهم في ارتكاب المحرم، لاستدراك مندوب، أو مستحب ـ لا يعطي الفرصة لإبصارها واستشعارها في كثير من الأحيان.

ولعل من أهم معالم رحلة الحج، إلى جانب أداء المناسك العبادية، تلك المعاني الجامعة التي خاطب بها الرسول ﷺ في حجة الوداع، فطلب إليهم، أن يبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع... أفلا يحق لنا بهذه المناسبة أن نقوم بواجب عملية البلاغ، التي جعلها الرسول ﷺ مسؤولية كل مسلم، بقدر وسعه، فنذكر المسلمين حجاجاً، وغير حجاج بهذه الأمور... ذلك أن الحج كان موسمها، وكان الوعاء لكثير من المعاني، وكثير من الأعمال التي شكلت منعطفات في تاريخ البشرية...



٢٥٩٨/١٢

اللهم فاشهد[1]

في السنة التاسعة للهجرة، حج الرسول ﷺ، وحج معه خلق كثير، وكانت حجة الوداع التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، وكان الكمال والاكتمال، وبعد أن اكتمل البناء، فإن المعاني التي ذكر بها، وعرض لها الرسول ﷺ في هذه الحجة، على غاية من الأهمية، فهي المعالم الرئيسة للحياة الإسلامية التي لا بد من حراستها، والتنبه لها، حتى لا يتآكل المجتمع من الداخل، والنص الذي ورد في كتب السيرة لخطبة الوداع، لا يخرج بمجموعه عما يلي:

خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع:

«... إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا... إن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، فإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحرث، كان مسترضعاً في بني سعد، فقتلته هذيل، وأول رباً أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمته، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً، تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن

(١) مجلة الأمة، العدد ٣٦، ذو الحجة ١٤٠٣ هـ.

ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما أن لا تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله... وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس، ويقول: «اللهم اشهد، ثلاث مرات...».

«إن الزمان قد استدار، كهيئته، يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها: أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان، وقال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت، حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحجة؟ فقلنا: بلى. قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت، حتى ظننا، أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس البلد الحرام؟ قلنا: بلى. قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت، حتى ظننا، أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم أشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، «فرب مبلَّغ أوعى من سامع...» (رواه الإمام أحمد والترمذي).

«واعلموا أن الصدور لا تغل على ثلاث: إخلاص العمل، ومناصحة أهل الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، ألاَ إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع... قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله».

إن مجموعة القضايا التي عرض لها الرسول ﷺ في هذه الخطبة، في حجة الوداع، تشكل المرتكزات الأساسية، التي يقوم عليها المجتمع

الإسلامي، والتي لا بد من حراستها، وعدم السماح بخرقها، والخروج عليها، من الحاكم والمحكوم، والأمر الذي لا يحتاج إلى مزيد بيان، أن هذه المرتكزات هي التي انتهى إليها المجتمع المسلم، وتربى عليها، فلا يجوز التفريط فيها... وتأتي أهميتها في أنها «خطبة المودع»، الذي حمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، ورعى مسيرتها ثلاثة وعشرين عاماً...

لقد اختار الرسول ﷺ هذه المعاني، من خلال مسيرة النبوة الطويلة، ليؤكد عليها، وينبه لها دون سواها، فلماذا هذه المعاني دون غيرها؟ ذلك لأن عدم التزامها، يؤدي إلى دمار المجتمع، ولا يعوزنا الدليل ـ نحن المسلمين ـ في القرن الخامس عشر الهجري حيث نرى السقوط بأم أعيننا...

الأمن النفسي والاقتصادي:

«إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا... لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض...».

لقد أجمع العلماء أن مقاصد الشريعة هي: تحقيق مصالح العباد، في معاشهم، ومعادهم، ولا يتحقق ذلك إلا بحماية الكليات الخمس، التي لا تستقيم الحياة، ولا تتحصل السعادة، إلا بتوفرها وحمايتها، وهي: العقل والنفس والدين والعرض والمال.

ولسنا بحاجة هنا إلى التذكير، والتدليل بأن الدماء المسلمة، التي تسيل يومياً كالأنهار، في أكثر من بلد، وأكثر من موقع، على يد المسلمين أنفسهم، مهما كانت الشعارات، وكيفما كانت المسوغات، قضية لا تخدم إلا أعداء الإسلام في نهاية المطاف «... لا ترجعوا

بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض...» «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمتقول في النار» (متفق عليه). إن إراقة دم المسلم أكبر عند الله من هدم بيته الحرام، ومن كل شيء في الدنيا« لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» (رواه الترمذي والنسائي) فكيف ستكون مسؤولية الذين يتاجرون بدماء المسلمين، ويأكلون بها ويقبضون ثمنها، ويبنون ثراءهم على جماجم المسلمين؟! وكيف سيكون حسابهم عند الله؟!

إن العالم الإسلامي عاش ثلاثة عشر قرناً تقريباً، بعيداً اقتصاده عن لوثة الربا، وقادراً على مواجهة مشكلاته المالية، وحلّها، إلى أن جاء الاستعمار السياسي، وجاء معه الاستعمار الاقتصادي، وأصبح الربا سمة المعاملات المالية، ومن لوازمها كما يدعون، فأفقدنا ذلك الأمن الاقتصادي، بعد أن افتقدنا الأمن النفسي...

أمر الجاهلية:

«... إن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي...» «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء...».

إن الجاهلية ارتكاس وهبوط ورجعية، إنها رفض الخضوع لحكم الله عز وجل، وسقوط في الطاغوت، بكل أشكاله، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ ﴾ (المائدة: ٥) إن أمر الجاهلية، وظهور النزعات الإقليمية الذي بدأ ولا يزال مستمراً، هو الذي مزّقَ الأمة، وأنهك قواها، إن الحدود التي وضعها المستعمر، وفرق عندها وحدة المسلمين، يستميت بعضنا في الدفاع عنها، وإن النزعات الجاهلية التي نبش قبورها المستعمر، نحاول أن نهب لها الحياة، ونمنحها الاستمرار!!.. الرسول ﷺ يقول: «دعوها فإنها منتنة...» وبعضنا يصر على الاستمساك بها!!!

إن التراجع الإسلامي عودة إلى الجاهلية، وإن الجاهلية جاهزة للانقضاض، في كل لحظة ضعف إسلامية، إنها حاولت الانقضاض في غزوة بني المصطلق، والرسول ﷺ يرعى المسيرة «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» وأطلت القيسية واليمنية، برأسها على الصورة الإسلامية بشكل مبكر، ومبكر جداً، والخطورة كل الخطورة الآن، أن نفصّل الأثواب الإسلامية لنلبسها لأمور الجاهلية الحديثة، فنمارس الجاهلية، تحت عناوين وشعارات إسلامية!! إن مساحة الجاهلية في حياة الإنسان المسلم، تتسع وتضيق، بقدر ما يوفقه الله للرؤية الإسلامية، والانضباط بها، وإن سقوط الإنسان في بعض أمور الجاهلية، لا يعني أن نسلب عنه إسلامه، كما يحلو لبعضهم من الذين يمارسون إشاعة هذا المصطلح، ويحاولون تعميمه، ذلك أن التعميم لون من العامية في الرؤية، فالرسول ﷺ قال لأبي ذرّ عندما عَيَّرَ بلالاً بأمه: «إنك امرؤ فيك جاهلية» (رواه أبو داود). إن سلوك التعيير هذا ينتسب إلى الجاهلية، ولا يعني بحال من الأحوال، سلب أبي ذر رضي الله عنه فضله وإسلامه وجهاده... فهل يكون موسم الحج ونداء حجة الوداع فرصة لمطاردة الجاهلية في نفوسنا، وتخليص مجتمعنا الإسلامي، من بعض مفهوماتها، وأمورها بالحكمة والموعظة الحسنة؟! ذلك أنّ فقدان الحكمة في الموضوع، قد يؤدي إلى تكريسها واستغلالها.

النقل الثقافي:

«فليبلغ الشاهد الغائب... فرب مبلغ أوعى من سامع...».

إنها مسؤولية البلاغ المبين التي لا تخرج هنا عن مسؤولية التحمل ومن ثم مسؤولية الأداء، لقد اعتبر الرسول ﷺ غاية مهمته: البلاغ، فقال: «ألاَ هل بلّغت؟ اللهم اشهد» وبذلك يكون الرسول ﷺ شهيداً على المسلمين، ويكون المسلمون شهداء على الناس، يوصلون إليهم هذا

الدين، ويطورون وسائلهم في نقل حقائقه لإنقاذ الناس من الجاهلية...

وهنا قضية تلفت النظر «رب مبلغ أوعى من سامع» فعملية الحفظ وسلامة النقل لا تعني بالضرورة، القدرة على الفهم والوعي، والإدراك، لمدلولات الخطاب، فليست القضية قضية حفظ فقط، قد يكون صاحبها نسخة من كتاب، وإنما القضية، قضية الفقه والوعي والدراية، وهي قضية على غاية من الأهمية، لعالم المسلمين اليوم، ذلك أن بعض الناس اليوم كالأرض التي تمسك الماء، لكنها لا تنبت الكلأ... إن مسؤولية وأمانة النقل الثقافي، «عملية البلاغ المبين» ومسؤولية الوعي والقدرة على فهم السنن، وإمكانية التعامل معها، هي مشكلة المسلمين الثقافية اليوم... فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع...

إنها المعاني التي شهدها الصحابة الحجاج في مكة في العام التاسع للهجرة، وحُمِّلوا مسؤولية نقلها إلى العالم، ليكونوا شهداء على الناس، بعد أن كان الرسول شهيداً عليهم، إنها المسؤولية المحددة، والمهمة الدائمة للمسلم، في مجال عالم الأفكار، والوعي الثقافي، المسؤولية المحددة تقابلها الحيدة المهلكة المدمرة لبعض مسلمي اليوم، في القعود عن مهمة البلاغ المبين، وامتشاق وسائل أخرى، والسير في طرق وعرة شائكة...

موقع الحاكم وأمانة الحكم:

«... إن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العبّاس بن عبد المطلب، إن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث...».

لقد جاء الإسلام بأنموذج للحكم والحاكم متفرد، في الوقت الذي كان الحكام فيه يمثلون الآلهة أو ظل الله على الأرض!! وكانوا يُعبدون من دون الله، حيث كان تأليه الحاكم من المسلّمات...

إن الشخصية الحضارية الإسلامية، لها مقومات في مجال الحكم، ومواصفات في اختيار الحاكم وصفاته، ولها تاريخ مشهود في التطبيق والممارسة، وسوف تبقى هذه الشخصية التاريخية، شاهد إدانة على الممارسات القمعية، والاستعلاء بالسلطان، التي يعاني منها عالم اليوم، إنه المقياس، الذي ينتظم الحاكم، قبل المحكوم «... إن أول ربا أبدأ بوضعه ربا عمي العباس... وإن أول دم أضعه دم ابن ربيعة بن الحارث...» إنها قيم السماء، التي لا بد للبشر من وضعها موضع التنفيذ والالتزام، يتعاون على إنفاذها الحاكم والمحكوم... إن إنسان الإسلام الذي يرى في تاريخه هذه النماذج، يصعب عليه بعدها أن يرضى بما هو دونها، وسوف يبذل جهده دائماًلاستردادها والعمل لها:..

تقوى الله في النساء:

«... اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله...».

مما لا شك فيه أن قضية المرأة، وموقع المرأة في الحياة الإسلامية، وخاصة في عهود التخلف، تحكم فيها أكثر من عامل، واختلطت فيها المفاهيم، والتبست العادات السائدة، في بعض المجتمعات الإسلامية، بالأحكام الشرعية، حتى لنكاد نقول: إن كثيراً من العادات قد ألبست الثوب الإسلامي، واعتبرت من الدين، أو اعتبرت ديناً لدرجة غابت معها الصورة العملية للمرأة المسلمة، وعلى الرغم من العنوان الإسلامي، لكثير من الأسر، إلا أن الثقافة الجاهلية، تضغط على تصرفاتنا، تجاه المرأة بين التسيب المطلق، والتشدد، الذي قد يفقدها إنسانيتها، الأمر الذي ينأىٰ عنه دين الله عز وجل ويأباه شرعه...

ولا شك أيضاً أننا أوتينا من قبل المرأة، وغزينا من طريق الأسرة، وأقمنا المعارك لحماية حدودها، والحيلولة دون اقتحامها، لكننا عدنا إلى الأسرة المسلمة، فلم نجدها، لم نجد المرأة المسلمة فعلاً، والطفل

المسلم، والتربية الإسلامية، والممارسة الإسلامية، وكثير منا تأبى عليه نفسه وثقافته، أن يعطي المرأة المسلمة دورها، في الحياة، الذي مارسته زمن الرسول ﷺ، من التعليم، والرواية، والمبايعة، والمشاركة في الجهاد، ومعرفة الحياة، وإلا فكيف يمكن لها أن تقوم بدورها وتؤدي رسالتها، وتعد أطفالها لعصر لا تدرك طبيعته، ولا تعرف مشكلاته، ولا تشارك في قضاياه؟!

وهناك حقيقة تغيب عن بالنا في ظل التقاليد والعادات، التي أصبحت من الدين، وهي أن الأكرم في الإسلام: الأتقى؛ فليس الأكرم: الذكر، وليست الأكرم: الأنثى، وإنما الأكرم: الأتقى؛ وأن خطاب التكليف إنما جاء للرجل، وللمرأة، على حد سواء، وأن المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق الإنسانية العامة، ليست محل نظر، وبعدها يبقى لكل اختصاصه في مجال الحياة، وبالتالي لا يمكن المقايسة، وطرح قضية المساواة بين اختصاصين متباينين، فالمرأة في اختصاصها، أفضل من الرجل في اختصاصها، ومقدمة عليه، والرجل في اختصاصه أفضل من المرأة في اختصاصه، ومقدَّم عليها، أما في مجال الحقوق الإنسانية فهم سواء، ولكل جزاؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧) والقوامة التي شرعها الله ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إنما هي للإشراف والإدارة، في الأسرة، البنية الاجتماعية الأولى، التي لا يمكن أن تترك تأكلها الفوضى، وليست للتشريف والتعالي، فلا بد من تفكيك الصورة الموروثة، واختبارها، وتنقيتها، مما لحق بها، لنرى صورة المرأة المسلمة، خالية من كل غبش، ونستجيب لنداء الرسول ﷺ في حجة الوداع: «... اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله...».

الاعتصام بالكتاب:

«... قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله...».

لا حاجة بنا إلى القول: إن القرآن الكريم كتاب الله، وإن الذي خلق الإنسان، أعلم بما يحقق سعادته، ويحميه من الضياع والضنك، إنها القيم الثابتة، البعيدة عن وضع البشر، وتحكم الأهواء وتحقيق السيطرة والاستغلال، وتحقيق مصلحة لطبقة، أو فئة، أو طائفة، أو فرد... ذلك أن معظم الشر في العالم مردّه، تسلط الإنسان على الإنسان، ولا بد لإيقاف هذا التسلط، من أن تستمد القيم من الله الخالق وليس من بعض مخلوقاته.

إن كثيراً من القيم الوضعية، في عالمنا المعاصر، أشبه بدمىٰ الأطفال، يحكمها الناس ويشكلونها على الصورة التي يختارونها، وتبقى محل نزاع وخصام، يفرضها الأقوياء ويتوهمون أنها تحقق مصالحهم، وما أسهل أن يغيروها ويبدلوها تبعاً لأهوائهم، وتبقى عاجزة عن حكم الناس، ويبقى أصحابها عاجزين عن تحقيق الاحترام لها، والالتزام، بها من بقية الناس؛ ذلك أن الالتزام بها، يبقى طاعة للمخلوق، أما كتاب الله، فهو القيم الثابتة، التي تحكم الناس ولا يحكمها الناس، يخف الإنسان للالتزام بها، بوزاع لا يمكن أن يتحقق لغيرها، فالطاعة لله الخالق العليم المحاسب، الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور... وفي الاعتصام بالكتاب، عصمة من الخطأ، وأمن من الضلال، والشاهد التاريخي يقول: إن التزام العرب المسلمين واعتصامهم بالقرآن الكريم، كان سبيل وحدتهم وحضارتهم، وإن الحيدة عنه، كانت سبب فشلهم، وتخلفهم وفرقتهم، والواقع يشهد بذلك أيضاً، والله عز وجل يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:

٤٦) لقد اعتبرت الآيات، أن العدول عن طاعة الله ورسوله موقع بالنزاع، لتعدد الأهواء والآراء...

وبعد: فإنه نداء خطبة الوداع، نوجهه لعالم المسلمين اليوم، بمناسبة الحج، ليبلغ الشاهد منهم الغائب، فلعله يحقق المراجعة المطلوبة، والاستقامة على الطريق، والاستجابة لنداء سيد المرسلين ﷺ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل...



٢٦٠٨/١٢

ربنا أرنا مناسكنا[1]

لا شك أن العبادات في الإسلام، بما في ذلك عبادة الحج، هي وسائل لتغذية العقيدة ونموها، وتمكنها من النفس البشرية، ليولد الإنسان الجديد الذي يناط به حمل الرسالة الخاتمة، فيكون وجوده رحمة للعالمين، لأنه يسير على قدم النبوة، ويتابع رسالة النبوة... والعبادات بهذا المعنى، ضرورة لازمة لصياغة الإنسان المسلم، وحراسة سلوكه، وضمان غلبة دوافع الخير على نوزاع الشر في نفسه، إلى جانب كل ما تحققه في بناء الإنسان، من التوازن، في الحياة، وتحصنه بالقدرة على التحمل والمواجهة، وتكسبه الطمأنينة وتمنحه الرضا، الذي هو مناط السعادة...

ولكل عبادة من العبادات التي شرعها الله، دورها المطلوب، والمقصود، في بناء هذا التوازن. وعلى الرغم من كل ما كتب، حول حكم وفوائد العبادة في الإسلام، فلا نزال بحاجة إلى قراءات شمولية لتحديد الأبعاد المتوازية، والمجتمعة، المكونة للشخصية الإسلامية، التي تصوغها العبادات، مجتمعة، لتجيء متوافقة، وقادرة على حمل أمانة الاستخلاف، وعمارة الأرض، بتوازن، ووسطية، واعتدال وفق منهج الله، في جميع مناحي الحياة...

---

(١) مجلة الأمة، العدد ٤٨، ذو الحجة ١٤٠٤ هـ.

وفي اعتقادنا، إن لكل عبادة من العبادات ـ الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج ـ دورها، ومجالها، ومساحتها في بناء ذلك الإنسان، وتحديد أبعاده وتكاملها، ولا تغني عبادة في ذلك، عن الأخرى، إنها مرتكزات بناء، الإسلام وصياغة الإنسان. قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ» (العقيدة محور البناء ـ) وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً» (متفق عليه)...

ولا يمكن بحال من الأحوال، أن تترتب على الصلاة، الفوائد التي تؤديها الزكاة نفسها أو الحج، أو الصيام، ولو كان ذلك كذلك، لاستغني بعبادة عن الأخرى... أما وقد شرع الله لنا هذه الأوجه في العبادات، فمعنى ذلك، أن لكل عبادة دورها في بناء الشخصية المسلمة، وأن وجودها مجتمعة، هو الذي يحقق التوازن المطلوب، والمفروض على المسلم، ويحقق الوسطية، ويرسم منهج الاعتدال... صحيح أن العبادات، ليست في مرتبة واحدة، من حيث استمرارية الأداء، وتكراره، ولا من حيث حالات الأداء أيضاً، فالزكاة يبدأ وجوبها عند امتلاك النصاب، والحج تبدأ فرضيته عند الحصول على الاستطاعة، من الزاد والراحلة، وما في حكمهما...

ولا شك أن الصلاة التي هي عمود الدين، وغرة الطاعات، لا تسقط عن الإنسان، إلا بسقوط التكليف الشرعي عنه، وتبقى لها أهميتها الخاصة والمستمرة ـ وكأن اسمها من المواصلة، يدل على ذلك ـ حتى ضمن العبادات الأخرى، من صيام، وزكاة، وحج، بل قد تصبح في هذه المواسم، آكد منها في الأيام الأخرى، ذلك أن الصلاة، هي ألف باء الإسلام، بعد الشهادة، فهي السمة المميزة، بين المسلم والكافر، ومن ضيعها فهو لغيرها أضيع. هي التي أدخلت المسلم في تقدير قيمة الوقت، كطاقة يجب الاستفادة منها، بعد أن كان إنسان ما قبل الإسلام

منساحاً، هكذا بدون حس بقيمة الزمان والمكان، وبدون ضوابط للزمان والمكان، وكيف يجب أن يغتنمهما، فهما مواسم الخير، والطاقات الممنوحة، التي سوف يُسأل عنها، قبل أن تزول قدماه يوم القيامة... إن تحديد المواقيت، التي تحمل الإنسان على قراءة الزمن، وبيان أحكام الأداء، والقضاء، الذي يشعر الإنسان بقيمة الزمن أيضاً، ومن ثم تقديم الحساب عن السلوك، والممارسة، أمام الخالق خمس مرات يومياً، والشعور بالمسؤولية، يعني فيما يعني صياغة إنسان جديد، بعد أن كان يعيش حياة بوهيمية، بلا حدود ولا قيود...

وإذا امتلك الإنسان قدراً من المال، شكل له طاقة إضافية، قد تحمله على الاستغناء، ومن ثم الفسوق، والترف، والطغيان، فلا بد له، عند هذه الحالة، من تربية خاصة، لنزوعه المالي، وقيود خاصة لإنفاقه، واستشعار نفسي، وممارسة عملية، لحياة التكافل الاجتماعي، التي لا تنطلق من موقع المنة، لأن ذلك يخرب الضمير، ويوقع في الكبر، والاستعلاء في جانب الغني، ويربي حواس الذل، والانكسار عند الفقير، وإنما تنطلق من موقع الشعور بالمسؤولية، وشكر المنعم، ونمو الإحساس بالأخوة والتواضع... إنه البعد النفسي الإيماني، الذي تهدف إليه العبادة، فلا يفرط الإنسان، إذا رأى المال والجاه ولا يطغى...

وما تختص به مدرسة الصيام، أو عبادة الصيام، فذلك طعم آخر، وأداء آخر. إنه الاستشعار بالبشرية المحتاجة، ومعالجة لعقدة التأله، التي يمكن أن تتسرب للنفوس الضعيفة، فتفقد توازنها، وتربية ميدانية على شعور المشاركة، والإحساس بالآخرين، والتكافل معهم من خلال رياضات نفسية ذاتية، تبدأ في داخل النفس وتنتهي في إطار المجتمع... والعبادات في هذا وسائل لتحقيق الإنسان المسلم، ذي السلوك المتميز، المؤهل لحمل رسالة الله في الأرض واستنقاذ البشرية من شقوتها، ولا تقتصر على تنظيم العلاقة بين الإنسان وربه...

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، فليس له منها إلا القيام والقعود، وللإنسان من صلاته ما عقل منها، ومن لم يدع قول الزور، والعمل به، فليس لله حاجة، في أن يدع طعامه وشرابه... وإذا كان يوم صوم المسلم، بدأت دورة التدريب العملية، على معاني الخير، فلا يصخب، ولا يرفث، وإن سابه أحد أو شاتمه، فليقل إني صائم...

والزكاة سميت صدقة، لأنها برهان الصدق، والإيمان هو التصديق، والله تعالى يقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣) وبذلك، يمكن أن نقول: بأن الصلاة هي الرئة الدائمة، التي ترتبط بها حياة المسلم، والتي يتنفس من خلالها، في كل الظروف والأوقات، بل قد يكون الالتجاء إليها والاستعانة بها، هي الحماية الحقيقية في مواجهة المصاعب، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البقرة: ٤٥)، إنها المعين الدائم، الذي لا ينضب، ولا يعني ذلك نوعاً من التكرار المرفوض، وإنما هي كضربات القلب، التي تشعر باستمرار الحياة وغذاء الأبدان. من هنا تتحدد أهميتها بالنسبة لفريضة الزكاة السنوية والمرهونة بحالة محددة، من اليسار، تستدعي نوعاً من العلاج وبالنسبة لفريضة الصيام السنوية أيضاً، كدورة تدريبية، لا بد من دخولها في العام، وعلى مدار الأعوام، وتبدل الحاجات.

وأما الركن الخامس في بناء الإسلام، أو بناء إنسان الإسلام، فهو الحج وهو عبادة لها رواؤها، ولها مدلولها، وأبعادها، التي لا بد أن يستشعرها المسلم، ولو مرة واحدة في العمر... إنها الحياة على أرض النبوة الأولى، والطواف حول أول بيت وضع للناس، مجسداً شعيرة التوحيد، محور حياة الإنسان، وتوجهه، وطوافه، ونشاطه البشري، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ (آل عمران: ٩٦)، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

إنه الحضور التاريخي، والاستحضار للتاريخ، والرؤية لآيات النبوة، ابتداء من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، إلى خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ (البقرة: ١٢٧) حيث مشاهد النبوة، ومنازل الوحي، والآيات البينات...

إن كل حبة رمل على تلك الأرض، تحمل العبر والعظات، وتنطق بتاريخ لا بد من معايشته، وحضوره، ليبقى حاضراً في وجدان كل مسلم، هنا على أرض النبوة، يسمع الإنسان المسلم الإيقاع الروحي للتاريخ البشري، ويرى التلاحم، والتلازم، ووحدة الوجهة، بين النبوات الأولى، والنبوة الخاتمة، ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ (الأعلى: ١٨، ١٩).

إنه التاريخ، الذي يشحذ روح الأمة ويشكل الحافز على المواجهة، ويعيد لها الفاعلية لتبدأ الولادة الجديدة، للإنسان الجديد، الذي طرح عن كاهله كل العوائق والمثبطات... قال رسول الله ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»... (متفق عليه). إنها القراءة التاريخية، والمعايشة التاريخية، التي يفتقر إليها واقع المسلمين اليوم...

إنه استرداد الماضي بكل ما فيه، وحضور للحظات، التي يكون فيها الإنسان قادراً، على الإلغاء والإبقاء، على إلغاء ما لا ينسجم مع متطلبات الإسلام، من تاريخه، بالتوبة التي تطهر النفس وتلغي مصادر الشر، وتوقف امتدادها في حياة المسلم، والعزم الصادق على أرض الصدق، وفي ظل الوحي، على الولادة الجديدة، التي تقتضي السلوك الجديد الرشيد «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

إن الطواف حول أول بيت وضع للناس، كنوع من الالتفاف،

والتمحور، حول رمز التوحيد، وتأصيل عقيدة التوحيد، والطواف بعكس عقارب الساعة، هنا لا يعني أبداً أن الإنسان يلغي حاضره، ويغتال مستقبله، ويحبس نفسه في الماضي، وإنما هو الحضور التاريخي الكامل، كما أسلفنا، واستحضار الماضي والقراءة في صفحات هذا الماضي، لرحلة النبوة التي تشكل الأنموذج والقدوة، ووقفة ومراجعة الحساب، لما قدم الإنسان المسلم في جنب الله، ليتدارك أمره قبل فوات الأوان...

إنها عودة إلى الجذور، ابتداءً من خلع المخيط، حيث التجرد في الشكل، إلى جانب التجرد في المضمون، ورحلة عبر الماضي، وتتبع لخطوات النبوة، ورقب لمسارها وتطورها ومشي على طريق الهجرة... فالحج لون من ألوان الهجرة، ولعله نوع هجرة لمسلم اليوم، فإذا عاد المسلم من رحلة الحج، وقد هجر ما نهى الله عنه، فقد رجع كيوم ولدته أمه، أما إذا ذهب بأثقاله وعاد بها فهجرته إلى ما هاجر إليه.



العجز عن إدراك
رسالة المكان

إن هذه الأماكن الطيبة الطاهرة، يشتد انتظارها لحضور المسلم، الذي يجيد الفهم لرسالتها، وبذلك يكون قادراً على استئناف السير... وليست المشكلة اليوم، في هذه الأماكن، وهذه المناسك وإنما المشكلة، كل المشكلة، في مسلم اليوم، وتخلفه وعجزه عن إدراك رسالة المكان، واستيعابها، والتفاعل بها، والقدرة على تمثلها... إن الحج فرصة لتجديد الذاكرة، وطي مسافة الزمان والمكان، بين مسلم اليوم وبين مواقع النبوة، ومسالكها... فهل نحسن التعامل مع هذه الأماكن كما كان يتعامل معها الصحابي، في الصدر الأول؟ وهل تكون الأزمنة والأمكنة مصدر بعث وإحياء لفاعليات جديدة، بعد أن أطفأتها صور الاغتراب والعقوق؟... وهل ندرك المعاني البعيدة، لتجمع الحج، فنعرف كيف نؤدي المناسك ونشهد المنافع؟

إن العطالة التي أصابت مسلم اليوم، تركته عاجزاً عن رؤية المناسك وإدراكها، وشهود المنافع وتحصيلها، فانقلبت القضية الكبيرة في إطاره، إلى لون من الآلية والتكرار، وماتت المعاني التي من أجلها شرع الله الحج على يديه، قال تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ (الحج: ٢٨).

إن الله قدم شهود المنافع، على أداء المناسك في الآية، فهل من

سبيل إلى تحقيق المنافع لعالم المسلمين، في هذا التجمع الإسلامي الكبير، أم أن معاني الحج الكبيرة، يصيبها التهميش، شيئاً فشيئاً، حتى تنتهي إلى ضرب من العادة، بدل العبادة؟

لقد فقه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، المناسك، وأحسن رؤيتها، وشهد المنافع، على أوسع مداها، فكان الحج فرصته لمراجعة مواقع ولاته ومحاسبتهم وإعادة ترتيب الدولة... وحسبنا هنا قراءة في بعض المشاهد التاريخية، التي شهدتها تلك البقاع، في موسم الحج، الذي ورثه العرب عن إبراهيم عليه السلام، والذي كان الحج فرصتها الوحيدة، فشكلت المنعطفات التاريخية الكبيرة في حياة البشرية...

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق... عن جابر قال: مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتبع الناس في منازلهم، وفي المواسم يقول: «من يؤويني، من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي، وله الجنة»، فلا يجد أحداً يؤويه، ولا ينصره حتى إن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مضر، فيأتيه قومه وذو رحمه، فيقولون احذر غلام قريش، لا يفتنك... حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه... فيخرج الرجل منا، فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق دار من دور الأنصار، إلا وبها رهط من المسلمين... ثم ائتمروا جميعاً فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ، يطوف ويطرد من جبال مكة، ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً، حتى قدموا عليه في المواسم، فواعدناه شعب العقبة ـ على أرض منى ـ فاجتمعنا عندها، من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: «تبايعوني على السمع والطاعة، في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم، مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم ولكم الجنة».

٢٦١٦/١٢

فقمنا إليه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، فقال: رويداً رويداً، يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل، إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم، مناواة للعرب كافة، وقتل خياركم وتعضكم السيوف، فأما أنتم قوم تصبرون على ذلك، فخذوه، وأجركم على الله، وأما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة، فذروه... فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله... قالوا أبط عنا يا سعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً. قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ علينا، وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة.

أما عن الطريق إلى العقبة مكان البيعة، فيقول ابن إسحاق، عن عبد الله بن كعب بن مالك: قال: فنمنا تلك الليلة، مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا، لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب، عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا، نسيبة بنت كعب «أم عمارة»، وأسماء بنت عمرو بن عدي، وهي أم منيع.

وقام أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا، وبين الرجال، حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت، إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، وأنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» ـ كأنه أحسَّ من وقت مبكر، ومبكر جداً، بأن التوجه إلى الإسلام، يعني بدء المعركة مع يهود.

وعلى العموم، فالروايات بمجموعها، لا تخرج في جملتها، عما أوردناه عن الحافظ بن كثير، في البداية والنهاية، وإن كان هناك جوانب يحسن الرجوع إليها، والاطلاع عليها، في مظانها لاستكمال صورة القضية.

إنها واحدة من المنافع الكثيرة، والكثيرة جداً، التي لا مجال لأن نعرض لها جميعاً، وإنما هي نافذة ينظر من خلالها...

إن المنافع التي شهدها وادي منى، كانت منعطفاً في تاريخ البشرية، ما تزال تعيش آثاره إلى الآن. إنها البيعة في وادي منى، التي مكنت للهجرة إلى المدينة، ومن ثم انتشار الإسلام بعد انتصاره في بدر، وإنهم المبايعون، الذي آووا ونصروا، فكان لهم من الثواب، ما كان للأصحاب من المهاجرين، الذين حملوا الدعوة في مراحلها الأولى، وفي ظروفها الصعبة، حتى إن بعضهم كان يرى لهذه البيعة من الفضل، والثواب، ما لمعركة بدر، التي مكنت لعبادة الله في الأرض.

قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حيث تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدراً كثير من الناس». فأين حجنا من حج الأصحاب رضي الله عنهم؟. لم يكن الحج عندهم تجمعاً، وتفرقاً، بعيداً عن متطلبات التغيير في واقع المسلمين، حتى إن مسلمي اليوم، أضفوا على مناسك الحج، واقعاً من واقعهم المتخلف فلم يحققوا المنافع، وعجزوا عن حسن أداء المناسك.

لقد انطفأت فاعلية المسلم، وصدأ ضميره، وبدأ يعيش خارج نطاق الزمان والمكان، اكتفى بترديد بعض الشعارات العامة، التي لم تكلفه شيئاً، ولم يعد قادراً على إبصار الآيات البينات: قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ (آل عمران: ٩٧)... إنها معالم الحياة الإسلامية التي رسمتها خطوات النبوة، على أرض النبوة، فهل من سبيل إلى ترسمها، وحسن التأسي بها؟

على هذه الأرض بدأت الرسالة بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ (العلق: ١) وعليها اختتمت الرسالة بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)... وعلى الأرض نفسها، كانت الصورة العملية التطبيقية لشرائع الإسلام، وقيم الإسلام... وفيها بوأ الله لإبراهيم مكان البيت، قبلة المسلمين، ومحور طوافهم. ولا ندري كيف تنعم هذه الجماهير المسلمة اليوم، بحجها، وكيف يطمئن ولاة أمر المسلمين اليوم، إلى أداء نسكهم، والقبلة الأولى واقعة في أسر يهود، والمسلمون يعيشون حالة الوهن ومرحلة القصعة؟ وسوف لا يحل الأمر بخطب موسمية، يتكرر سماعها، هنا وهناك، وإنما هو بحاجة إلى بيعات، كبيعة العقبة، وعهود صادقة، على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى قولة الحق، وعدم الخوف في الله لومة أي لائم، وعلى استمرارية الرقابة العامة، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنها بحاجة إلى بيعة جديدة، في وادي منى، عند العقبة تبني جيل التحرير، الذي لا بديل عنه وتسمح، لجيل التحرير بالتحرير...

وأخشى ما نخشاه، أن الاقتصار على الكلام، سوف يصيب الإنسان باليأس، عندما لا يستطيع له تحقيقاً... واليأس هو أول الطريق للبعثرة النفسية، وتمزيق رقعة التفكير عند الأمة، وهو من أخطر الأمراض، التي تصاب بها الأمم، وتقدمها لقمة سائغة لعدوها...

وقد يستغرب بعضهم وقد تصاعدت تصريحات الحاخام مائير كاهانا ضد القبلة الأولى وسكانها ــ ورب ضارة نافعة ــ أن نتمنى أن تكون ضربات يهود موجعة، وأكثر إيلاماً وأعمق أثراً... كم نتمنى أن تتوجه ضربات يهود للمصالح، لأن ضرب المبادىء لم يحركنا، ولم يصل بعد إلى مرحلة الإحساس، الذي يشعر الأمة بالتحدي حقيقة، ويصيبها بزلزال نفسي، يقضي على العناصر الشائخة في حياتها، ويعيد إليها ذاتها من جديد.

وقضية أخيرة، فالإسلام دين التيسير، والرسول ﷺ يقول: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا...» (متفق عليه). ولقد كان التيسير، أوضح ما يكون في عبادة الحج، فالرسول ﷺ لم يُسأل عن شيء في الحج، إلا وقال: «افعل ولا حرج»... وإذا سمح الرسول ﷺ للسقاة، والرعاة بالرمي ليلاً، حفاظاً على إيصال الماء، ورعاية للحيوانات، فكيف لا يسمح للإنسان الذي يهدد السعي حياته، لكثرة الكثافة، في أوقات معينة، من أن يرجىء رميه؟ وهل الحيوانات، أكرم عند الله من الإنسان؟ وما قيمة تنفيذ الحكم وفائدته، إن كان أداؤه قد يزهق الروح ويفضي إلى الحرج؟

ولقد كان العرب قبل الإسلام، وهم على بقية من إرث من إبراهيم عليه السلام، يقددون لحوم الأضاحي، ويعرضونها للشمس المشرقة، الوسيلة الممكنة وقتئذ، لحفظها، حتى سميت أيامها التشريق؛ أفلا تستحق هذه اللحوم الكثيرة، وهي أموال من أموال المسلمين، أن تحل مشكلتها، وتغني بذلك البطون الجائعة، في عالم المسلمين؟ والله تعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨)، ويتوسع أكثر فأكثر بما بديء به من الحفظ الصناعي، ويتعاون في ذلك الحجاج، والمسؤولون، وهل نتعلم آدب الحج كما نتعلم أحكامه، فكثير من الناس يخفون لتحصيل مندوب، أو مسنون، فيقعوا في المحرم بإيذاء غيرهم... قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾ (البقرة: ١٢٨). والله من وراء القصد...

* * *

خواطر من وحي الحرم[1]

ارتباط المسلم بالبيت الحرام؛ الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، ليس مقتصراً على الأشهر المعلومات، والأيام المعدودات، التي يؤدي فيها مناسك الحج والعمرة مرة في العمر أو أكثر؛ وإنما هي العلاقة الدائمة والوشيجة التي لا تنقطع، ولا تتوقف، إلاَّ بسقوط العقل، وافتقاد أهلية التكليف، فالمسلم يبدأ نشاطه اليومي، منطلقاً من القناعات الفكرية، والضوابط السلوكية، التي يقتضيها التوجه إلى البيت الحرام.

يبدأ يومه بصلاة الفجر، مستقبلاً المسجد الحرام، ومن ثم يتابع عبادة التوجه هذه طيلة النهار، وكأنه بذلك ينتظم مع المسلمين جميعهم، في مواقعهم المتعددة، ومناطقهم الجغرافية المختلفة، بجماعة واحدة.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ (البقرة: ١٥٠).

ويختتم يومه بتوجه العشاء الآخرة، وعندها يسترجع نشاطه، وضربه في الأرض؛ ليؤوب إلى الله بالتوبة، من الجنوح الذي حصل له، بسبب من طبيعته البشرية.

إنها الوجهة الدائمة، التي تتأكد في اليوم، خمس مرَّات، ترافق

---

(١) مجلة الأمة، العدد ٦٠، ذو الحجة ١٤٠٥ هـ.

الحياة، ولا تنتهي بانتهائها، فالمسلم حتى بعد موته، يوضع في قبره، مُوجَّهاً إلى البيت الحرام.

ولا بد من الاعتراف، بأن أبعاداً كثيرة لهذا التوجه ـــ في عالم الغيب والشهادة على حدٍ سواء ـــ قد غابت عن حياة المسلمين اليوم، فأصبح الأمر عندهم، أقرب للعادة، منه للعبادة، بعد أن انطفأت فاعلية الإيمان، في نفوسهم، وانعكس تخلفهم على جميع مظاهر حياتهم، فالعبادة التي هي مصدر الإيجابية والفاعلية، والتوجه إلى القبلة، الذي يعني استلهام المعاني الكبرى لخطوات النبوة، والتحقق بطريقها، وتلمس وسائلها، في الدعوة إلى الله، أصبح أمراً تحكمه الآلية والتكرار، بعيداً عن أهدافه التي، شُرع من أجلها، بعيداً عن مدلول الموالاة، التي أرادها الله بقوله:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ (البقرة: ١٥٠).

إنه استلهام لمعاني الموالاة التي أقام عليها سيدنا إبراهيم عليه السلام، القواعد من البيت:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨).

تلك المعاني التي ترافقت مع بناء البيت، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ (الحج: ٢٦).

وبعث عليها من ذريته سيدنا محمد ﷺ قال رسول الله ﷺ: «أحب الأديان إلى الله تعالى الحنيفية السمحة» (رواه الإمام أحمد). حيث أعاد للبيت طهره، وصحح معناه.

وتولية الوجوه، تقتضي الحضور الدائم، لتلك المعاني، التي رفع عليها سيدنا إبراهيم القواعد من البيت، وبُعِثَ محمد عليه الصلاة والسلام، ليعيد إليها، طهرها ونقاءها، مما أدخل عليها الجاهلون، من وثنية وتسلط؛ يولي المسلم وجهه خمس مرات في اليوم، ليبقى بصره مشدوداً دائماً إلى منابع النبوة الأولى، ومواقع النبوة الآخرة... يتزود منها بالرؤية السليمة، والطاقات الروحية التي تضمن له صواب الخطوة، وديمومة تغلّب دوافع الخير على نوازع الشر في نفسه؛ حيث يطوى الزمان، وتطوى المسافات، ليبقى قلبه معلقاً بأرض النبوات، التي حملت الخير إلى العالم، وانتهت إلى أهلها القيادة الدينية، بعد أن سقط أهل الكتاب، بسبب نقضهم لميثاق الله، وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه، فليست قضية التوجه قضية أبنية وحجارة وأشياء، وأشكال: (والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أن رأيت رسول الله ﷺ قبّلَكَ، ما قبلتك)، ولكنها النبوة التي ابتدأت من هنا، والمبادىء التي انطلقت من هنا... والإنسان الجديد، الذي توجه صوب العالم، يحمل له رسالة الخير، بدأت خطواته من هنا أيضاً.

عقيدة التوحيد:

ولا شك أن الركيزة الأولى، التي قام عليها بناء البيت، وكانت قولة الأنبياء جميعاً هي: عقيدة التوحيد، التي تعني بأبسط مدلولاتها، خلوص العبودية لله، والتحرر والانعتاق من العبوديات، التي استذلت الإنسان، طالما حاد عن طريق النبوة. إنها تعني إيقاف تسلط الإنسان على الإنسان؛ حيث إن معظم الشر في العالم كامن دائماً، في هذا التسلط، الذي أخذ صوراً وأشكالاً متنوعة، عبر مسيرة البشرية. وقد يكون طبيعياً أن يبدأ الصراع تاريخياً حول عقيدة التوحيد، في قصة سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء، مع النمرود، الذي دعاه سيدنا إبراهيم لعبودية الله،

الذي يحيي ويميت فقال النمرود: أنا أحيي وأميت، لتكون أنموذجاً ووسيلة إيضاح، تُتلى صباح مساء.

وهكذا تتكرر الصورة النمرودية على الأرض، لكن بإخراج جديد. فما أكثر الذين يعتدون على سلطان الله، ويتوهمون بأنهم، هم الذين يحيون ويميتون!!

إنَّ عقيدة التوحيد، التي بني عليها البيت، وأكَّدتها النبوَّة الآخرة، وقضى في سبيل تحقيقها وتحديد معالمها الشهداء، والصالحون، تعاني اليوم ألواناً من الشركيات، تسللت إلى عالم المسلمين ولا تزال، تحت صيغٍ وأشكال متعددة.

ولا بد أن نعترف، بأن عقيدة التوحيد، كانت ولا تزال وستبقى، ساحة المعركة الأولى، بين الإسلام، وخصومه، وإن مساحة ساحة الشرك بالله، أكبر بكثير مما يخطر على بال بعضنا.

فهناك الشرك في العقيدة الذي وقع فيه أصحاب الأديان السابقة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠).

وهناك الشرك في العبادة، وهو الخروج بها، عمَّا شرع الله من الوسائل التي يعبد بها، إلى ضروب من البدع، تسللت إلينا من عند غير المسلمين، أو حملتها بعض الأقوام معها من عقائد سابقة، إلى الساحة الإسلامية.

إنَّ المخاطر، التي تحيط بعقيدة التوحيد، وتستهدفها، أبعد بكثير من تلك القضايا المحدودة، التي يدندن حولها بعض الغيورين من المسلمين، فالشركيات التي قد تكون خفيَّة لا تظهر واضحة في مجال العقيدة، والعبادة، نراها مستشرية في مجال المعاملات، والكثير من

ممارسات المسلمين الأخرى، أليس السكوت على الظلم والاستبداد السياسي، وتسلط الإنسان على الإنسان، يقع في دائرة الشرك السياسي؛ أو على الأقل في مرتبة أضعف الإيمان، إذا كان السكوت عن عجز؛ وأما إن كان عن رضاً، فليس دون ذلك من الإيمان مثقال حبّة من خردل؟ وقل مثل هذا في استبدال أهواء البشر بشرع الله، وفي الممارسات الاقتصادية الربوية، والمظالم الاجتماعية المنسلخة عن الإسلام.

أليست هذه الشركيات التي أوصلت إلى افتراق المسلمين اليوم، إلى شيع وأحزاب مؤشراً خطيراً على الإصابة التي أوصلتنا إلى عقيدة التفريق بدل التوحيد؟

يقول تعالى محذراً:

﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الروم: ٣١ — ٣٢).

إنَّ محاولات إسقاط عقيدة التوحيد، التي تركَّزت عليها قبلة المسلمين، وكانت أساس حضارتهم، وضابط سلوكهم، من حياتهم، بشكل غير مباشر، مستمرة على أكثر من مستوى، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء: ٨٩).

ولقد طرح على الساحة الفكرية، ولا يزال، كثير من الدعوات، والمصطلحات التي حاولت مطاردة المسلمين، وإخراجهم عن عقيدة التوحيد، تحت شعارات الإنسانية، والعدل، والسلام بين الأمم والشعوب والأديان، وليست قضية الدعوة إلى الحوار، بين الحضارات أو الحوار بين الأديان، أو إحياء الإبراهيمية اليوم، أو تكوين جبهة إيمان ضد الكفر، والإلحاد، والشيوعية، بدعوى أن دين الله واحد، ولا بد أن يلتقي المؤمنون، مهما كانت طبيعة إيمانهم بالأمر الجديد، ولا المستحدث... ويبقى المطلوب، دائماً توظيف الإسلام لمحاربة الشيوعية فقط!!.

ولقد سبقت هذه الدعوات في عالم المسلمين، دعوات إلى إسقاط الإيمان، والأديان، لأن الدين في زعمهم أداة للتعصب، وتفريق الشعوب والأمم، ولا بد من إيجاد البديل، الذي يقوم على المحبة، والأخوة، والسلام بين الشعوب، ومحاصرة الدين، وفصله عن الحياة، ليبقى علاقة سلبية، بين الفرد وربّه، فالدين لله والوطن للجميع، ولا شك عندي أن الأيدي الخفية والسياسات العالمية، والمحافل السرية، وضحاياها في العالم الإسلامي، من الساسة، والكتّاب أصبحت غير خافية إلاّ على البسطاء من الناس.

واليوم يتجدد العدوان على عقيدة التوحيد، وتستبدل الماسونية، بعد أن انكشفت أوراقها تماماً لتأخذ شكلاً أكثر جاذبية وخفاءً، تستبدل، ويطرح مكانها الدعوة إلى إحياء الإبراهيمية، وهي الماسونية بثوبها الجديد، وعقد حوار بين الأديان الثلاثة اليهودية، والنصرانية والإسلام.

العلاقة مع أهل الكتاب:

والأمر الذي نحب أن نوضحه هنا ــ ولا نرى أنه يخرج بنا عن هذه الخواطر ــ أن العلاقة مع أهل الكتاب، من يهود ونصارى، كانت على مدى التاريخ الإسلامي، علاقة حوار، ومجادلة بالتي هي أحسن: قال تعالى:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، لا علاقة قتال ومواجهة، ولقد شرع هذا الحوار القرآن الكريم، حيث لمعتقداتهم، وناقشها، ونهاهم عن لَيّ ألسنتهم، وإخفائهم الكثير من الكتاب، ابتغاء العوج والالتواء، والقول على الله غير الحق، وأغراهم بالإيمان بالدين الجديد، وباشر الرسول ﷺ هذا الحوار بنفسه، فأرسل الكتب إلى المقوقس في مصر وهرقل عظيم الروم، واستقبل وفودهم، ودعاهم إلى كلمة سواء: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤) يلتقي عليها الجميع. ومن ثم طلب إليهم المباهلة. وأرسل المهاجرين الأوائل إلى الحبشة، وكان أن أسلم النجاشي، ومعه كثير من القساوسة والرهبان، ونزل في شأنهم قرآن يتلى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (المائدة: ٨٢).

وإن كان بعض مسلمي اليوم، يحب أن يقف عند كلمة نصارى، كلون من التضليل، حتى إنَّ الإسلام قبلهم في مجتمعه، مواطنين واعترف لهم بحقوقهم، على الرغم من كفرهم بعقيدته ودينه، وأقام لهم من الحقوق، ما يوازي حقوق المسلمين؛ حتى ليمكننا القول: بأن حفظ حقوقهم في بعض فترات التاريخ الإسلامي، كان مقدماً على حفظ حقوق المسلمين؛ فهم ذمة الله وذمة رسوله، في الوقت الذي نرى فيه اليوم أن كثيراً من (العقائديين) التقدميين، الذين يروجون للانسلاخ من الدين، لا يطيقون مجرد الوجود لغيرهم، ويسعون إلى التصفيات الجسدية في الوقت الذي يهاجمون الإسلام، ويتَّهمونه بأنه يغمط حقوق الآخرين... أليس قبولهم في مجتمع المسلمين يعني الاعتراف بهم، واستمرار الحوار معهم؟ خاصة وأن الإسلام دين إنساني لا يخص جنساً، أو لوناً، أو قوماً، وأن خطابه كان للناس عامة؟ فليس أمر الانغلاق وعدم الحوار والتوقف عن الدعوة، والبلاغ للناس من طبيعته.

فالدعوة إلى الحوار، ليست جديدة ولا مبتدعة، لكن المشكلة اليوم أنها تتم على حساب الإسلام، والمسلمون وحدهم، هم الخاسرون، كما كانت دائماً الدعوات الإقليمية والقومية والوطنية، أقنعة مارستها بعض

الأقليات، لإقصاء الإسلام عن الساحة... إن المشكلة اليوم في إسقاط ذلك الرصيد التاريخي في الحوار مع أهل الكتاب.

فالدعوة إلى إحياء الإبراهيمية، يُخشى أن تكون ـــ كما أشرنا ـــ الصورة الحديثة للماسونية، التي تهدف إلى إسقاط الإسلام، خاصة وأن سيدنا إبراهيم أوّل من أسس بنيانه على التقوى، وأصل عقيدة التوحيد وأقام عليها القواعد من البيت، الذي يحج إليه المسلم ويستمر في موالاته، قال تعالى:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (آل عمران: ٦٧)، وإنّ الإبراهيمية هي الإسلام... والدعوة إليها، دعوة إلى الالتزام بالإسلام، فالرسول ﷺ جاء بالحنيفية السمحة كما أسلفنا وعرف دعوته بأنّها: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج: ٧٨).

فالحوار دائم ومطلوب، لكنه يجب أن يتم من خلال المواقع الإسلامية الصلبة، وليس على حساب الإسلام، كما هو الشأن اليوم.

فالإبراهيمية تعني الإسلام... وفريضة الحج والتوجه إلى البيت يومياً، تأصيل للإبراهيمية، وحفظ لها، واستمرار لعقيدة التوحيد التي بني عليها البيت، ووكّل أمر رعايتها وحفظها، واستمرارها للأمة المسلمة، فمن كان صادقاً في الانتساب إلى إبراهيم، فليتبع عقيدته: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (آل عمران: ٦٨).

معالم على طريق الدعوة:

ولا يفوتنا هنا ونحن نعيش بعض المشاهد في شهر ذي الحجة، والمسلم يتوجه صوب المسجد الحرام، لأداء المناسك، والحياة ولو

لومضات سريعة في منزل الوحي، وأرض الدعوة الأولى، أن نسجل بعض الخواطر الأخرى، التي نعتبرها من المعالم الهامة، على طريق الدعوة إلى الله وما يجب أن يترتب عليها من التطور النوعي في وسائل الدعاة اليوم:

● الناظر إلى البيت الحرام، لا بد أن يذكر ألوان العذاب، التي لقيها المسلمون في ظلّه، وعلى جنباته، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ. . . يلمح صورة أبي عبد الله خباب بن الأرت رضي الله عنه، ويسمع صدى صوته، من وراء الزمن عندما جاء إلى رسول الله ﷺ، وكان متوسداً بردة له في ظل الكعبة، وقد اشتد بالمسلمين الأذى والعذاب يقول:

ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعونا لنا؟

فيقول الرسول ﷺ: «كان الرجل قبلكم يؤخذ فيحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق باثنين ما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظمه، أو عصبه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون! (رواه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي)

إنه النصر الذي لا بد أن يتم من خلال عزمات البشر، وإنها العذوبة في تحمل العذاب في سبيل الله، والخضوع للسنن الإلهية في النصر والهزيمة. . . ولكنكم تستعجلون.

● والمتأمل الناظر إلى البيت الحرام، لا بد أن يذكر كيف أن الجاهلية اقتحمته بأصنامها، وانحرفت به عن المعنى، الذي بني عليه، وكيف أن هذه الصنمية كانت تشكل التحدي الأكبر للمسلمين، وعقيدة التوحيد التي يدعون إليها، ومع ذلك لم يكسرها الرسول ﷺ، ولم يقترب منها ابتداءً، وإنما أعاد صياغة النفوس التي كانت تعبدها، وعمرها

بالإيمان، لتقوم هي بكسرها وتطهير الحرم منها... إنها تربية النبوة، التي أتت على البنيان الجاهلي من القواعد، فخرَّ السقف من تلقاء نفسه... فمحل الدعوة دائماً صياغة النفوس، وإعادة بناء الأفكار، وليس الارتطام بالأشياء، والأشخاص، الأمر الذي لم يحمل للدعوة، إلاَّ العنت والخسائر الفادحة.

● والجالس قبالة البيت الحرام، الناظر إليه، لا بد أن يذكر حكمة النبوة في الدعوة إلى الله وتربية الناس على الإسلام، ومخاطبتهم على قدر عقولهم، وأخذهم بأحكام الإسلام شيئاً فشيئاً، وفي حدود الوسع: «إذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم»، (رواه مسلم والنسائي). ولا بد أن يذكر قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم». (رواه أحمد والنسائي).

إن حداثة العهد بالكفر، يمكن أن تولد الفتنة، فليتوقف نقض البيت إذاً، سداً للذريعة، ودرءاً للفتنة، فهل نعيد النظر بكثير من ممارساتنا، ووسائلنا في العمل الإسلامي، والدعوة إلى الله ونمحص، ونختبر جدواها، ونرصد آثارها في المجتمع؟ وقد لا يكون الحق الذي ندعو إليه هو محل النظر والمناقشة، والاجتهاد فهو قد يكون حقاً لا جدال فيه.

ولكن الظروف والشروط والإمكانات وردود الفعل والجدوى، تلك هي الأمور التي يجب أن تدرس وتناقش وتستكمل.

ثم أليست الحكمة، تعني أوّل ما تعني، وضع الأمور في مواضعها؟ وقد يكون المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت، مضى دراسة الموقع (الموضع) المُجدي، وسيدنا علي رضي الله عنه الذي ينهل من

معين النبوة يقول: خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟

وفي كثير من الأحوال، إذا افتقد العاملون الحكمة، والرؤية الصحيحة ينتهي بهم الحال إلى نقيض ما يريدون.

● والطواف حول البيت الحرام، تأكيد للولاء له، ودليل على أن القضية المحورية في حياة المسلم، التي يتمركز حولها، ويطوف بها، ويتجه إليها، هي عقيدة التوحيد. هذا إضافة إلى أن طوافه عكس عقارب الساعة، يعني فيما يعني طوافاً في الماضي، واسترجاعاً للمعاني التاريخية الكبيرة، على هذه الأرض، واسترجاعاً لماضيه ومسلكه، وما فرط في جنب الله، وعزماً على توبة الفكر والقلب، والجوارح والمشاعر، وتصميماً على استقامة السلوك في قابلات الأيام.

ولسنا هنا بسبيل الكلام عن التوبة، وأثرها النفسي، في تخليص الإنسان من عقدة الذنوب التي تؤرقه وتلاحقه، وكيف يستأنف حياة جديدة نظيفة، ويبدأ ولادة جديدة.. إنه يولد من جديد:

«فمن حج لله ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (متفق عليه).

والطواف واحد من المناسك المتعددة، التي تبتدىء بالإحرام، في رحلة التجرد الخالص هذه، وتنتهي بالتحلل ما يوحي بالخواطر الكثيرة، التي لا يتسع المجال للوقوف عليها، لكن تبقى قضية على غاية من الأهمية، وهي أن العبادات في الإسلام هي برامج تربوية، لإعداد الإنسان نفسياً وفكرياً، واجتماعياً، وروحياً، إنها وسائل لتحصيل غايات لا بد من التحقق بها، وإلا انقلبت العبادة إلى عادة.

ومما لا شك فيه أن لعبادة الحج، أهدافاً تربوية، تتحقق من

التأمل، والنظر، وأداء المناسك، والوقوف في مواقع النبوة، وتلمس خطواتها، قال تعالى:

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ (الحج: ٢٨).

لكن المشكلة اليوم، أن جهل جماهير المسلمين، واضطراب فقه الحج، عند كثير منهم، يفوِّت الكثير من المقاصد، والأهداف، ويفوت فرص التأمل المطلوب، فقد يقع بعضهم في ارتكاب المحرم، لتحصيل مندوب أو مستحب.

وهذا لا يعني بحال من الأحوال عدم الانضباط، والالتزام، بأحكام الحج الشرعية، وانقلاب الأمر إلى فوضى، يرى فيها كل إنسان رأياً، وإنما التأكيد على ضرورة التحقق بأهداف الحج التربوية، بالقدر نفسه، الذي يحرص فيه الإنسان، على أداء الأحكام الشرعية، فقد يتعلم المسلمون اليوم أحكام الحج الشرعية، ويعرفونها لكنهم ـــ مع الأسف ـــ لا يزال بعضهم يفتقد آداب الحج ويجهل مقاصده، ولا بد من فقه الحكم الشرعي، إلى جانب فقه أدب الحج العملي، وقد رفع الرسول ﷺ الحرج في صور أداء الحكم الشرعي، عن كثير من المسلمين، في حجة الوداع، لتحقيق الهدف التربوي، والمقصد العملي، فكان يجيئه الرجل فيقول: فعلت كذا قبل كذا، فيقول ﷺ: «افعل ولا حرج...».

وفي لفظ الصحيحين قال: «فما سئل رسول الله ﷺ في ذلك اليوم عن شيء قُدِّم أو أُخِّر إلاَّ قال: «افعل ولا حرج».

* * *

هل يحقق المسلمون
الأبعاد المطلوبة
لفريضة الحج[1]؟!

العبادات في الإسلام، التي يرتكز عليها بناؤه، هي تعبير عملي، سلوكي، عضوي، عن قضايا عقيدية، وقناعات عقلية، وعزائم قلبية، واستجابة لما تتوق إليه النفس من النزوع إلى الخلاص من معاناة إصابات الدنيا، ومآسيها... وهي أشبه ما تكون بمحطات على درب الحياة، يتزوّد منها الإنسان بطاقات نفسية إيمانية، تضمن له ديمومة تغلب دوافع الخير على نوازع الشر، وتحقيق النصر، والفوز في النهاية. ولا شك أن لكل عبادة دورها وأهميتها، وعطاءها، في البناء الإسلامي، وفي ذلك لا تغني عبادة عن أخرى.

ويتفرد الحج عن سائر العبادات، التي يرتكز عليها بناء الإسلام، بأنه فريضة العمر، التي تتطلب من كل مسلم، يمتلك الاستطاعة، من الزاد والراحلة، أن يرتحل إلى مهبط الوحي، ومواقع النبوة، ويعيش فترة من عمره، ضمن إطار الزمان والمكان، الذي كان وعاءً لحركة الإسلام الأولى، حيث بدأت الخطوات من غار حراء، وامتدت مع الزمن حتى، بلغت الناس كافة.

---

(١) مجلة الأمة، العدد ٧٢، ذو الحجة ١٤٠٦ هـ.

والمسلمون مطالبون، بين وقت وآخر، بالعودة إلى المنابع الأولى، وهم دائماً، بحاجة إلى المراجعة، والتصويب، لتكون الخطوات بالاتجاه الصحيح.

ولعل هذه المراجعة تتحقق في نفرة هذه الطائفة ـــ الحجاج ـــ سنوياً، من كل موقع من العالم الإسلامي، للذهاب إلى موطن الدعوة الأولى، والعيش على أرضها، وإسقاط الحاجز التاريخي والبعد المكاني، والتواصل مع الجذور التاريخية، الممتدة للنبوة، ابتداءً بأبي الأنبياء ـــ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـــ الذي أرشده الله إلى بناء البيت على التوحيد، وأمره بتطهيره من كل شرك، نفسي أو سياسي، أو اجتماعي أو اقتصادي، ومناداة الناس بالحج، ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ ويتعرفوا على الواقع الإسلامي في مختلف دول العالم.

وتحضر لأداء الحج عيِّنات، تحمل هموم المسلمين، وتشكل النوافذ الأمينة للمعرفة الصحيحة، وتفقّه هذا الواقع عن قرب، بعيداً عن كل صور الزيف، والتضليل الإعلامي والسياسي، ومن ثم يعود أفرادها إلى بلادهم، لينذروا قومهم، إذا رجعوا إليهم: قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (التوبة: ١٢٢).

وقد اعتبر الإسلام الحجَّ جهاداً، أو باباً من أبواب الجهاد، ونفرته نفرة جهاد، وفي أحد ميادينه... وهذه النفرة السنوية، التي تحققها طائفة، تجيء من كل بلاد المسلمين، لتلتقي على أرض النبوة ـــ والحج كما أسلفنا جهادٌ وفقه وآياتٌ بيِّنات وشهادة منافع ـــ لو كُتب لحركتها أن تأخذ الأبعاد الكاملة، وتدرك المسؤولية والأمانة، التي ناطها الله تعالى بها، لكانت إحدى أهم وسائل التحريك وإعادة الفاعلية لعالم المسلمين، الذي هو أشبه ما يكون اليوم بالبرك الراكدة.

لكن الأمر المؤسف، يتجلى في تخلف رؤية المسلمين لمناسك الحج، وحكم الحج، وشعائر الحج، ومنافع الحج؛ في محاولة لتجريده من كل المعاني المطلوب توفرها لعالم المسلمين، ليصبح بذلك مجرد استيفاء لأشكال، وتكرار لطقوس، وأعمال وحركات مقطوعة الصلة بالأصول النفسية، التي شرعت من أجلها هذه الفريضة، ومبتورة عن إدراك الأبعاد التاريخية، لحركة النبوة، التي لا بدّ من حضورها عند كل خطوة على أرضها.

إنه التخلف الذي انعكس على مظاهر حياتنا، حتى وصل إلى عبادتنا فعطلها، وأفقدها معناها وحكمتها التي شرعت من أجلها، حتى بات بعضنا يهوّن منها، ولا يرى أهميتها، ولا يلتمس لها أية فائدة عملية، في حياة الناس ومسلكهم، وقد وصل به الأمر إلى درجة، يرى معها أن وضع المال في أي مجال ــ ولو حتى في الرحلات اللاهية ــ أجدى من وضعه في الذهاب لأداء فريضة الحج، وما ذلك إلا لتخلف المعاني الكبيرة، التي يجب أن تتحصل من هذه الرحلة، حيث يذهب الكثيرون، وقد لا يختلف مسلكهم في إيابهم عن مسلكهم وعلاقاتهم وصفاتهم، عند ذهابهم.

من هنا ندرك الخطورة البالغة، التي يمكن أن تترتب تدريجياً، على تهميش معاني الحج وعدم الإفادة منها، لواقع المسلمين، والعجز عن تحصيل المنافع لدنياهم: والله تعالى يقول: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ (الحج: ٢٨).

وقد قدم الله شهود المنافع في السياق، على ذكره سبحانه، وإن كان العطف هنا يعني ــ فيما يعني ــ مطلق الجمع... فشهود المنافع لا بد أن يكون مترافقاً مع ذكر الله، حتى لا يضل، ولا يتيه، ولا يستأثر بالنفس البشرية.

وفي اعتقادنا، أن مؤتمر الحج ــ على الرغم ممّا يعاني من جهل المسلمين، وقعودهم عن إدراك الآيات البيّنات، وشهود المنافع، التي تقيم دينهم وتصلح دنياهم، والمحاولات الدائمة لمحاصرة وتوهين شأنه ــ يمكن أن يعتبر إلى حدٍّ بعيد، إحدى الركائز، إن لم يكن الركيزة الأساسية، ضمن هذا الإطار، لضمان الشعور المستمر، بوحدة الأمة المسلمة، لأنه الوسيلة المفروضة الباقية والدائمة لإلغاء الحدود، وتجاوز السدود، وفتح القنوات سنوياً، بين المسلمين، للتواصل والتمازج والنقل الثقافي.

وعلى الرغم من فرقة الحكام، وتباين الأنظمة، والاستماتة وراء الحدود التي وضعها المستعمر لتفريق المسلمين، فإن لقاء الحج، يؤكد سنوياً، أن إيمان الشعوب بالوحدة، أقوى من فلسفات الفرقة عند الحكومات، وأن العقيدة أبقى من السياسات... والحمد لله الذي جعل الحج فرضاً، لا يخضع لاختيار المسلم، ولا لمنع الحاكم الظالم، يتكرر سنوياً لنماذج وعناصر جديدة تفد من جميع أنحاء العالم، لتلتقي على أرض النبوة، حيث عجزت السياسات تاريخيّاً، أن تجمع بينها على أرض غير أرض النبوة، وقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بقوله:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأنفال: ٤٦)، ذلك أن العدول في اللقاء عن أرض النبوة، ورسالة النبوة، موقع في الفشل والنزاع، وواقعنا شاهد إدانة لذلك.

التوغل في البعد التاريخي:

وقد لا نكون بحاجة إلى التذكير بأن الحج رحلة باتجاه الماضي، على مستوى النفس، للقيام بعمليات المراجعة، واستعراض الأخطاء، والتقصير في جنب الله، والنكوص في حمل أمانة الدعوة، والبلاغ

المبين، والقعود عن القيام بحقوق الأخوة الإسلامية، وتلمس مواطن الإصابات التي لحقت بالمسلم في خاصته، وأن المناسك، والمواقف، تعين على ذلك، ومن ثمّ تكون توبة الفكر، والعقل، والسلوك، من المعاصي جميعاً، وقطع العهد هناك عند البيت الحرام للالتزام بكل المعاني الخيرة، واستئناف رحلة الحياة، بصورة جديدة تماماً، ذلك أن الحج، ولادة جديدة لمسلم جديد، ودع الماضي بكل معاصيه، وتوجه صوب المستقبل، بكل معانيه بصورة أخرى، والرسول ﷺ يقول: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رجعَ كَيَومِ وَلَدَتْهُ أمُّه» (متفق عليه).

إنه رحلة في الماضي، ووقوف أمام أخطائه، واكتشاف لمواطن الخلل في التاريخ المديد، والإفادة من ذلك في رحلة الإياب، والعودة لصناعة مستقبل أفضل، بعيداً عن عثرات الماضي، ولعل من حكمة ذلك، أن جعل الله الطواف باتجاه الماضي، وعكس عقارب الساعة.

وكما أن الحج رحلة باتجاه الماضي، على مستوى النفس، ومحاسبتها، فهو من وجه آخر رحلة باتجاه قراءة السيرة والتاريخ، وطي للزمن، وإسقاط للنقاط السود، وعودة للاتصال والتزود من المنبع الأصلي، ومشاهدة لأرض النبوة ورصد لحركتها، وتاريخها عن قرب، واستعادة للتألق التاريخي، وإحياء لنقاط الارتكاز، التي كانت الأساس في ميلاد المجتمع المسلم، وقيام الحضارة، والتحقق بالآيات البيِّنات في حركة الإسلام الأولى، في الدعوة، والهجرة، والحركة، والبيعة، والمعاهدة، والفتنة، والنصر، والهزيمة، والانفعال بذلك كله، واستعادة البصارة، ومعرفة أبعاد المسؤولية، وتجديد الذاكرة واستعادة الفاعلية، ومحاولة عيش الظروف والملابسات نفسها.

ولعل من الأمور المهمة جداً في البناء الإسلامي، أن جعلت العودة إلى الجذور، والتوجه صوب مهبط الوحي، واستعادة تاريخ النبوة

المعصوم، والعيش لفترة على أرضها، من الأمور المفروضة على المسلم المستطيع، كضرب من تجديد العهد... ولم يترك ذلك لرغبات النفس التي لا يتحلّى بها إلا أصحاب العزائم والتطلعات.

وأهمية مثل هذا الأمر، الذي جعل فرضاً على المسلمين، ولم يترك لاختيارهم، أصبح معروفاً ومقدراً عند الكثير من الأمم، التي تعي ذاتها، وتحاول بعث وإحياء أمجادها.

وكثيراً ما نسمع اليوم، عن مجموعات من المؤرخين، والجغرافيين، وعلماء الاجتماع، والأديان، يحاولون التوغل في العمق التاريخي، واستحضار الظروف والملابسات، التي رافقت ظهور الأحداث، حتى يتمكنوا من تخليص المسار الحضاري، من كل ما علق به، في محاولة للوصول إلى الحقيقة، وبعث الأمجاد وشحذ الفاعلية، والعيش ضمن الظروف التاريخية، لتكون معارفهم صحيحة ودقيقة.

فهناك مجموعات في أوربا اليوم، تحاول السير على طريق الحملات الصليبية إلى الشرق مستخدمة وسائلها، وآخرون يشدون الرحال، لاقتفاء آثار المكتشفين الجغرافيين، ومتابعة الطرق التي سلكها القادة العظام، في تحقيق انتصاراتهم... كما نسمع عن رجال دين، يحاولون طرح الترجمات والكتب الدينية الحديثة جانباً، وتلمس الطريق إلى النسخ القديمة، والمخطوطات المحفوظة في الكهوف والأديرة، والانقطاع لتعلم اللغات، والمصطلحات، التي كتبت فيها، في محاولة منهم لإلغاء حاجز الزمن، للوصول إلى الصورة الحقيقية للأمور، ومحاولة التلقي من النبع الأصلي، قبل أن يداخله التحريف، والتبديل، والأهواء... وقد لا يكون غريباً، أن يعود بعض رجال الدين النصارى، من رحلاتهم المضنية، في البحث عن الحقيقة، خالين الوفاض؛ مما يدفعهم إلى الاعتقاد بأن الطريق الوحيدة لمعرفة النصرانية، التي خلت من

المداخلات البشرية، وخطأ الذاكرة وتحريف البشر، هي القرآن، لأنه أقدم وثيقة تاريخية، وصلت بطريق علمي صحيح بطريق التواتر الذي يفيد علم اليقين. . . لقد أصبحت الآثار التاريخية موادّ ثقافية، واعتبرت المتاحف مصادر للمعرفة لا تقل عن المدارس والمعاهد اليومية.

فإذا كان نهوض أي مجتمع من المجتمعات مرهوناً ـــ إلى حدٌ بعيد ـــ بالتعرف على ظروف وشروط ميلاده، وأن استحضار هذه الظروف والملابسات، والتعرف عليها عن قرب، ضرورة لاكتشاف المسار الحضاري للأمة، ووضع الجهود على الطريق الصحيح، والعودة لاعتماد الأصول، وأن سبيلنا الوحيدة هي الاتصال بالينابيع الأولى، لحركة المجتمع الإسلامي، عرفنا الأهمية البالغة، والمنافع المشهودة والبيِّنات المقصودة، من وراء فرض الحج، وعرفنا أهمية هذه العبادة، ودورها في البناء الإسلامي، وضرورتها في أي نهوض لمجتمع المسلمين.

عودة إلى صناعة المستقبل:

وهنا قضية لا مندوحة لنا من التوقف عندها، وتحرير القول فيها، بعض الشيء، والحج رحلة في استقراء الماضي، وتصفية معاصيه، وإزالة آثاره، والعودة لاستئناف رحلة المستقبل، والإقلاع من جديد بعزيمة أمضى، ونفسية أنقى، وفقه للبينات، وبصارة للمناسك، واستمداد من الينابيع الأصلية، ومع أن الحج ذهاب إلى الماضي، فهو عودة إلى صناعة المستقبل أيضاً، على ضوء عبرة الماضي، حيث لا بد من الرجوع، (رجع كيوم ولدته أمه).

إن التوغل إلى العمق التاريخي، دون القدرة على تحقيق النقلة الحضارية، وتغيير الواقع واستصحاب الماضي، والاحتفاظ بثوابته وأصوله، يمكن أن ينقلب من دافع للنهوض، إلى معوّق ومانع، يشل الحركة ويعطل الطاقة، ويحنط الأمة، وبذلك يصير التاريخ الذي هو

محل اعتزاز الأمة ومصدر ذاتيتها، مقبرة لهذه الأمة وعبئاً على أجيالها، ومحاصرة لطموحاتها، ولا يعني هذا بحال من الأحوال إلغاء الماضي، كما يتوهم بعض الغيورين، وإنما هو إحياء له في صورة الحاضر وامتداد له إلى تشكيل المستقبل.

فالتشبث بالتاريخ، واللجوء إليه، ضرورة لحفظ كيان الأمة، وتحديد قسماتها، وتحقيق ذاتيتها، وتجسيد قيمها، والوقوف أمام العواصف السياسية الاستعمارية، التي تحاول اقتلاعها من جذورها، وتغيير معالمها، واستلاب ثقافتها. لكن لا بد لنا من القول: بأن الضرورة تقدر بقدرها... والغياب في الماضي، على حساب الحاضر والمستقبل، موت مع وقف الدفن، وإساءة للماضي نفسه، وحكم عليه بالعجز، وعدم الصلاحية، لإفادة الحاضر وتشكيل المستقبل.

وقد تكون من أخطر مشكلات العقل المسلم اليوم ـــ مع أهمية الاعتراف بأن المطاردة الدائمة، والمحاصرة المستمرة، لم تمهله ولم تدع له المجال، لاستشراف آفاق المستقبل، ولم تعطه الفرصة الكافية لصناعة الحاضر، فكان لا خيار أمامه للمحافظة على الوجود، إلا الارتكاز إلى مواطن القوة، والاعتزاز والفخر، في تاريخه، لأن ذلك يشكل حماية للذات، ووقاية من السقوط ـ قد تكون مشكلة العقل في الكثير من ساحات العمل الإسلامي المعاصر، هي تلك الارتكاسة الخطيرة، التي وقع فيها، في معاداة الحياة، فبدل أن يستصحب روح الماضي، ويستحضر تجاربه، ويبصر دروسه ليستشرف المستقبل ويعيد تشكيل الحاضر، انعكست نظرته، وانقلبت المعادلة بالنسبة له وأسقط الحاضر والمستقبل من حسابه وألغى التعامل معهما، وانسحب من الساحة، فهو لا يمل الحديث عن الماضي؛ إلى درجة أصبح معها الماضي حاضراً ومستقبلاً، وأعفى نفسه من المسؤولية والمعاناة، والنزول إلى الميدان، وافتتن بتاريخه القريب، وأصرّ على تأكيد الوجود التاريخي، أكثر من الحضور المعاصر.

وبمناسبة الكلام عن التاريخ - والحج رحلة في الماضي، لاستلهامه، وعودة لتصويب الحاضر واستشراف المستقبل - نحب أن نعاود التأكيد بأن التاريخ هو عبارة عن اجتهادات وتجارب بشرية، لتجسيد القيم، وتنزيلها على حياة الناس، أو هو حركة المجتمع، لتحقيق أهدافه على هدي من قيمه... والاجتهاد في قيادة الحركة الاجتماعية، وتحديد مسارها قد يخطىء، وقد يصيب، وليس الاعتراف بالأخطاء التاريخية، والإفادة منها بأقل شأناً من الإفادة من الصواب، في نهاية المطاف.

أما السيرة النبوية التي يعيش الحاج على أرضها، ويتأمل حركتها، وهجرتها، وبيعتها، وبلاغها، فهي وإن كانت حلقة في التاريخ الإسلامي، من الوجهة الزمنية، إلا أنها تمتاز عن التاريخ الإسلامي وتنفرد بأنها التجسيد الأمين، والمعصوم عن الخطأ لقيم السماء في حياة الناس... وهي الحقبة التاريخية الوحيدة التي تحتل موقع القدوة. ومن هنا كان الحج مفروضاً للارتحال، إلى حقبة السيرة، وأرض الحركة الإسلامية القدوة، دون سائر المواقع التاريخية الأخرى، على ما فيها من الدروس والعبر التي تقتضي أهمية النظر.

كيف نتعامل مع السيرة؟

وهنا قضية نرى ضرورة التنبيه إليها، وقد حرصنا ودعونا كثيراً في الماضي، وأكدنا على أهمية وجود دراسات تحليلية، لكيفية التعامل مع السيرة، لتحقيق الإفادة منها، وهي أن الكثير من المسلمين اليوم والعاملين في الساحة الإسلامية - في محاولاتهم للاقتداء والقبس من الفترة المعصومة، وتعدية الرؤية وتحقيق النقلة المأمولة ـــ إنما ينظرون إلى الحدث فقط، بعيداً عن ظروفه وملابساته التي رافقته؛ وبذلك يفتقدون رؤية الكثير من الخصوصيات والجوانب التي لا بد من

استصحابها، أثناء محاولة الإفادة والاقتداء... وقد تكون بعض هذه الخصوصيات ملازمة لحدث تاريخي معين، دون غيره من أمثاله، في فترة السيرة نفسها... وحتى لا نسترسل في التجريد نأتي لذلك ببعض الأمثلة الموضحة:

فالخصيصة التي جعلت لمعركة بدر، لم تجعل لغيرها، طيلة فترات التاريخ الإسلامي؛ بما في ذلك معارك فترة النبوة على الرغم من كثرة ضحاياها، وكثرة تضحياتها، لم تجعل لأحد رغم كثرة الشهداء فيها، ولا للخندق، ولا للفتح، ولا لتبوك، على قسوتها وعسرتها... والعصابة التي قال الرسول ﷺ قبل المعركة: «اللهمّ إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض» إنما كانت تلك الخصوصية للبدريين دون غيرهم من الصحابة، وسائر المسلمين من جماعات وأفراد، على مر الزمن، لأن البدريين هم فعلاً أجنّة المجتمع المسلم المأمول، وقاعدته الأساسية، وإن القضاء عليهم انطفاء لنور الدين الجديد، لذلك كان لهم من الفضل والثواب أيضاً ما ليس لغيرهم... ومن هنا جاء قول الرسول ﷺ: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» (رواه الحاكم) هذه خصوصية...

أما بعد بدر وبعد انتصار المسلمين في معركة الفرقان بين الحق والباطل فلسوف يعبد الله في الأرض، وعبادته لن تتوقف على نتيجة أية معركة، سواء في فترة السيرة، أو في التاريخ الممتد على الزمن... وقد أكمل الله الدين، ويئس الذين كفروا من القضاء عليه. قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣)... فليس أمر الإسلام بعد ذلك اليوم حكراً على أيّ جماعة، أو عصر أو إقليم، أو جنس، حتى يرث الله الأرض ومن عليها... فالمقياس الذي قيست به بدر وملابساتها

وخصائصها، لا بد من ملاحظته وتقديره حقَّ قدره، عند النقل والمقايسة.

وهناك الكثير من الأمور، التي اعتمدت في بدء الدعوة والحركة، وكانت من لوازم الريادة التي لا بد من ملاحظتها، وحسن تقديرها، أثناء التعامل مع السيرة، ومحاولة التأسي والاقتداء.

ويمكن أن نأتي على أمر آخر، فمرحلة السرية، التي شرعت لحماية المجتمع الوليد، وسبقت مرحلة الصدع بالأمر، والبلاغ المبين، التي أمر بها بعد أن تكونت المحصلة المطلوبة؛ إلى أي مدى يمكن أن تمتد؟ وما هي الحدود التي يجب أن تبلغها؟ وهل هي مسلمة في كل الأحوال أم أنها شرعت لحماية البذور، حتى إذا ما اشتدت واستوت على سوقها، كان لا بد من البلاغ المبين والصدع بالحق، على الرغم من أن الدولة الإسلامية، لما تقم بعد، وأن العذاب اشتد واشتد، بعد الظهور لكنه ليس العذاب الذي يقضي على الدعوة، وإنما هو الجهاد الذي يضمن لها الصلابة والتمكين؟

لذلك لا بد من دراسة الظروف والملابسات، والزمن الذي أبيحت فيه الدعوة السرية، والوقوف على دواعيها، وانتهاء هذه الدواعي، والأسباب بالصدع والجهر، ولا بد أيضاً من دراسة بعض الآثار الواردة والغايات التي وردت من أجلها، فحديث الرسول ﷺ الذي يُستشهد به لإقرار السرية: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان»(رواه أبو نعيم في الحلية) إنما قيل بين يدي فتح مكة، ومن الطبيعي إخفاء الخطط، والأخبار العسكرية عن العدو؛ فهل تمتد ساحته لتشمل ميدان الدعوة إلى الله؟!

ويمكن أن يندرج تحت هذا الأمر أيضاً، إيقاف الإذن بالهجرة، التي كان القعود عنها في فترة مُوقِعاً في الإثم، ومعرضاً للهلاك، بعد أن

قويت شوكة الإسلام، وفتحت مكة. لقد سمح بالهجرة وأمر بها من خلال ظروف وملابسات معينة، لا بدّ من توفرها. لكن بعد أن قويت شوكة المسلمين وحصل التمكين، أوقفت الهجرة، وقال الرسول ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية». (رواه مسلم) ذلك أن المواجهة والجهاد بعد فتح مكة، لن تقضي على المسلمين، أو تطفىء نور الإسلام، بعد مرحلة الفتح المبين.

كذلك يمكن أن يكون القول في مشروعية القتال لدفع الفتنة، التي كانت تمارس على المسلمين، والتي شرعت من أجلها المواجهة والقتال بقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٩٣) فهل يستمر القتال بكل ساحاته الساخنة إذا توقفت الفتنة أو انحسرت ميادينها وتبدلت وسائلها؟ وفي هذه الحالة قد يكون في القتال فتنة؛ ومن المفيد هنا أن نستشهد لما نرى بقول الصحابي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فيما رواه نافع عنه قال: «أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: ما يمنعك أن تخرج؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا، حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله.

وهكذا نرى ــ أثناء تعاملنا مع السيرة ــ أنه لا بد من النظر في الظروف والملابسات ودراسة على الأحكام، ومعرفة حكمها، وعدم الاقتصار على التوجه إلى الحدث. . . وقد أدى التوجه إلى الحدث دون النظر إلى ملابساته ومراحله، إلى وقوع بعض العاملين في المجال الإسلامي في أخطاء قاتلة، عندما أرادوا أن يفصلوا أحداث السيرة على حركتهم، ونظروا إلى المراحل ضمن إطار الحدود الزمنية فقط: فرأيناهم يجعلون للفترة المكية ثلاث عشرة سنة، لا بد منها في عمليات التكوين والتمهيد، لإقامة المجتمع؛ ومن ثم البدء في تكوين المرحلة المدنية(!!) بعيداً عن إدراك كل الظروف والملابسات والخصوصيات، واكتمال

الدين، واستكمال شرائعه، وتجاوز مرحلة انتشاره إلى مرحلة انتصاره. فكيف يمكن والحالة هذه أن نستغني عن الرؤية الشمولية الكاملة التي منحنا إياها الإسلام، والتجارب التاريخية الغنية في تاريخنا الطويل، ونحاصر أنفسنا ضمن حدود زمنية دون أن نتوفر على ملابساتها، وخصوصياتها، التي قد لا تتكرر، وقد لا يكون من المعقول أن تتكرر بالصورة التي نفضلها؟!

من هنا نقول: إن عملية الاقتداء، وتعدية الرؤية، والإفادة من ماضي هذه الأمة لحاضرها ومستقبلها، لا يحسنها كل إنسان يدعيها؛ حيث لا بد من استيعاب الماضي، بكل ظروفه وملابساته، والقدرة على استصحاب روحه والالتزام بثوابته، واستخلاص مساره الحضاري، لتشكيل الحاضر واستشراف المستقبل، ذلك أنه من المستحيل أن تتكرر الأشكال التاريخية نفسها.

فإذا كانت مشروعية الحج، فرصة للارتحال إلى المنابع الأولى للنبوة، وفرصة لمراجعة الماضي، والتوبة عن معاصيه، وإعادة ترميم الشخصية المسلمة لتستأنف دورها من جديد، فإن المسؤوليات التي تنتظر المسلم، بعد رحلة العودة، أبعد أثراً؛ بل لعل إمكانية تصحيح المسار التي تتيحها رحلة الحج والذي يذكر به التوجه اليومي إلى البيت الحرام، أبعد أثراً في حياة المسلمين ودليل صدق التوبة عن معاصينا في الماضي... فإلى أيِّ مدىً يستطيع المسلمون عامة والعاملون في الحقل الإسلامي خاصة، الإفادة من الآيات البيِّنات، في رحلة الحج، وما أكثرها؟ وإلى أيِّ مدىً يستطيع الشباب المسلم اليوم ــ وقد اشتدت من حوله الفتن ــ أن يكون قادراً على السماع إلى جواب الرسول ﷺ، عندما كان متوسداً بردة عند الكعبة، التي يتحلق حولها هذا الجمع الغفير من الحجيج اليوم، وجاءه خبّاب بن الأرت رضي الله عنه بعد أن بلغت الفتنة مداها، يطلب إليه أن يدعو للمسلمين ويستنصر لهم، فيقول:

«لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه!! وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله عز وجل - والذئب على غنمه - ولكنكم تستعجلون»، (رواه البخاري) فيأخذ بسنة التدرج ويتواصى بالصبر بعد أن يتأكد من صواب موقفه؟ والله غالب على أمره.

* * *

في مجال التأسيّسي

٢٦٤٧/١٢



قراءة في غزوة الفتح المبين[1]

إن أهم الانتصارات التي ما تزال تعطي هذه الأمة القوة، وتمدها بأسباب النهوض، وتشكل لها الحصانة في العقيدة والشريعة، والثقافة، والفكر، والضمانة في السلوك والأخلاق، وتحميها من السقوط والذوبان؛ هو هذا القرآن... ولا تكاد أمة من الأمم في التاريخ العام، تمتلك مثل هذه الثروة من العقيدة الجامعة، والقيم التشريعية، التي تجمع عليها، وتدين لها بالمشروعية العليا، وهذا الرصيد الفكري، والتطبيقات العملية، التي تكوّن قاعدتها الصلبة، وهذا الدليل الثقافي ـ إن صح التعبير ـ لمختلف العقائد والملل والنحل، والمقياس الأمين، والدقيق لعوامل سقوط الأمم، وشروط نهوضها.

حتى كان التذكير بالقرآن، والجهاد به، والقيام بأداء رسالته في البلاغ المبين، من المهام الكبرى، وعهدة التكليف التي نيطت بالفرد المسلم، والتي اعتبرت رسالته في الدنيا، ونجاته في الآخرة.. قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ (ق: ٤٥) وقال: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ (الفرقان: ٥٢) وقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (الجن: ٢٢ ـ ٢٣).

(١) مجلة الأمة، العدد ٤٥، رمضان ١٤٠٤ هـ.

ولعل فضل رمضان، وتميزه عن شهور السنة، إنما يتحدد لأنه شهر نزول القرآن: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾(البقرة: ١٨٥) ـ إلى جانب، أنه وعاء لكل معاني الخير، ودليل لسبل السلام... وعاء لكل الانتصارات التي شكلت منعطفات كبرىٰ في تاريخ البشرية، وحضارة الإنسانية ــ إنه شهر نزول القرآن، ومدارسة القرآن، وملازمة القرآن، والقضاء على الهجر للقرآن، والحيدة عن طريقه ومنهجه قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ (الفرقان: ٣٠).

لقد بدأت انتصارات هذه الأمة في شهر رمضان، بدأ انتصارها بنزول القرآن، الذي كانت به خير أمّة أُخرجت للناس، تقودهم إلى الخير، وتهديهم سبيل الرشاد، وتشهد عليهم عند الله، ومهمة قيادة البشرية، والشهادة عليها، لا بد لها من رجال، امتلأت قلوبهم بخشية الله، واستقامت أعمالهم بشريعة الله، وترفعت نفوسهم عن الدنايا، وانخلعت أرواحهم من أسر الشهوات، والخوف على المصالح، وانتظار ما عند الناس، وإيثار الدنيا... وسوف لا يتحقق هذا، إلاّ في مدرسة الصوم، التي تتم فيها الاستنارة بنور القرآن، والتدريب على معاني الخير...

ففي الصيام انتصار على شهوات النفس، من الطعام، والشراب، والجنس، تلك الأمور التي أذلت البشرية، وعبَّدتها لغير الله، من لدن آدم عليه الصلاة والسلام، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كلما حادت عن نهج الله، وأخضعتها لسلطان الطغاة، من متألهي العصور المختلفة، حيث إن من لوازم الطغيان، والاستبداد السياسي، وضمان استمراره وتعطيل الإحساس به، والقدرة على مقارعته: إطلاق العنان، لشهوتي البطن والفرج، والتشجيع على ذلك، والترويج له، ووضع الفلسفات

والمسوغات، وممارسته تحت شعارات الحرية، ولا يعنيهم من كل مفهومات الحرية إلا حرية الجنس والإباحية!!... قال رسول الله ﷺ: «صنفان من الناس لم أرهما: نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، على رؤوسهن كأسنمة البخت، ورجال في أيديهم كأذناب البقر، يضربون بها وجوه الناس» (رواه مسلم وأحمد). وقد لا يحتاج الإنسان إلى كثير من العناء والتفكير، ليكتشف أن هذين الصنفين من لوازم بعضهما، والشواهد على ذلك، ووسائل الإيضاح، التي تملأ على الناس حواسهم، لم تدع استزادة لمستزيد، فالمجتمعات الظالمة المستبدة، هي الأكثر تشجيعاً على الإباحية.

ومن خبث يهود، أنهم أخذوا يميتون في نفوس الناس التمرد على هذه الحاجات والترفع عنها، ففسروا لهم الحياة، والتاريخ، والأخلاق، والأديان، على ضوء ضغط هذه الحاجات، وفلسفوا الخضوع لها لتستمر سيطرتهم على البشرية، باسم العلم، إذ لم يتمكنوا من السيطرة عليها باسم القوة... فجاء الصيام في شهر القرآن، والجهاد، ليعلن انتصار المسلم على هذه الشهوات، المتحكمة في كثير من الناس اليوم، هذا الانتصار الذي يعتبر المقدمة، التي لا بد منها للانتصار على العدو، الذي نعاني منه أشد ما تكون المعاناة، وسوف لا يتحقق هذا الانتصار، إلا في مدرسة الصوم، فالمهزوم أمام شهواته، حري بأن يهزم أمام عدوه...

ولا شك أن المسلمين عندما كانوا على مستوى خطاب التكليف القرآني: وعياً وإدراكاً وحركة، استطاعوا أن يكونوا شهداء على الناس، ويقدموا من الإنجازات الكبيرة، في مجال العطاء الحضاري الإنساني، المتوازن، ما لم تستطعه أمة من الأمم، ويمكننا أن نقول: إن الانتصارات الكبرى، في القديم والحديث، كان وعاؤها شهر رمضان، إلى حد بعيد، ابتداءً من انتصار قاعدة الإسلام الأولى، وضمانة استمرار

عقيدة التوحيد في (بدر): «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض» وانتهاءاً بالعصر الحاضر، حيث لا تزال أقباس رمضان، وانتصاراته، تتكرر على مستوى الأفراد والجماعات...

وسوف نعرض هنا لبعض المواقف في غزوة الفتح المبين ـ صلح الحديبية ـ التي كانت بما ترتب عليها من فتح مكة، المنعطف الكبير، بعد بدر لتحول الجزيرة العربية، مهد الدعوة إلى الإسلام، والانطلاق لقيادة البشرية... ونحن في قراءتنا لهذه المواقف، لا بد لنا من البدء من ساحة الأسباب، والمقدمات، التي قادت فيما بعد إلى فتح مكة، ومن ثم الانتهاء إلى النتائج، التي أدت إليها هذه الأسباب، حيث لا يمكن الكلام عن غزوة فتح مكة، دون الوقوف عند غزوة الفتح المبين قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ (الفتح: ١) في غزوة الحديبية، أو صلح الحديبية، وسوف لا يعنينا كثيراً هنا، السرد التاريخي للأحداث، إلا بالقدر الذي نحتاج إليه، في إبراز الموقف، أو كشف بعض ملابساته، علّنا نصل إلى النتائج المأمونة، التي تشكل دليلاً لمسلم اليوم يستهدي به، ويكسبه البصيرة، فيدرك الصواب في عمله الإسلامي، ودعوته إلى الله.

والعودة لاستلهام السيرة النبوية، ضرورة حتى لا تضل الفهوم، وتجنح الممارسات، وتتجاوز البدهيات الشرعية، تحت عنوان «مصلحة الدعوة»، فلقد قتل بعض الخوارج علياً رضي الله عنه، تحت عنوان: «مصلحة الإسلام والمسلمين»!! ونسارع هنا إلى التحذير، مما وقع فيه بعض المسلمين تاريخياً، ولا يزال، يقع فيه بعض العاملين للإسلام اليوم، من وجود أمور وعلاقات اجتماعية، وأحلاف تقرر مسبقاً، وقد لا يكون للإسلام فيها نصيب، ثم يأتي دور السيرة النبوية متأخراً، ليضفي صفة المشروعية، ويقدم صيغة المبررات والمسوغات، سواء أكان ذلك

على مستوى الأفراد، أم الجماعات، والحكومات، في صلحهم، وتحالفاتهم، ومعاهداتهم... حيث إن صلح الحديبية، الذي أبرمه الرسول ﷺ مع قريش، يستخدم اليوم مظلة لكثير من التعاهدات، والتحالفات، التي ما تزال آثارها تشهد عليها، وقد لا يختلف كثيراً هنا دور فقهاء الظلم والاستبداد السياسي، عن دور بعض الفقهاء والعلماء، الذين أصيبوا بداء التعصب الحزبي، من الذين غادروا المبادىء، إلى تسويغ بعض العهود لتحقيق المصالح...

من أخبار الغزوة:

والمعروف من أخبار هذه الغزوة أن الرسول ﷺ، بعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، بست سنوات، من المواجهة الداخلية مع المنافقين، والخارجية مع الكافرين، قرر العمرة، وزيارة البيت الحرام، فأحرم بالعمرة مع أصحابه، وساق الهدي، وأعلن أنه إنما جاء معظماً للبيت، يريد زيارته، ولا يريد قتالاً، حتى إذا كان بعسفان، لقيه بشر بن سفيان الكعبي، قال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً. فقال الرسول ﷺ: «يا ويح قريش، قد أكلتهم الحرب... فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد، على هذا الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة»، ثم استشار أصحابه في سلوك طريق، غير الطريق التي هم بها... وقد شق سلوك هذه الطريق على المسلمين، حتى إذا كان الرسول ﷺ في ثنية المرار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال: «ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة، يسألونني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها»، ثم قال للناس: «انزلوا...».

وقد جرت بين رسول الله ﷺ وبعض من رسـ... ـ...
ومفاوضات، معروفة في مظانها، من كتب السير والمغازي، لا يتسع المجال لذكرها ولا بد من الرجوع إليها لاستكمال صورة الصلح، وما أحاط به من ملابسات...

ولعل من أهمها، ما روىٰ الزهري عن بعث عروة بن مسعد الثقفي، حيث قابل الرسول ﷺ وتعرف على مجتمع المسلمين عن قرب، ومن ثم رجع إلى قريش، فقال: إني قد جئت كسرىٰ في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد ﷺ في أصحابه، لقد رأيت قوماً، لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم.

وقد دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش، ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعزَّ بها مني: عثمان بن عفان رضي الله عنه. فدعا عثمان فبعثه إلى أبي سفيان، وأشراف قريش يخبرهم، أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمته... فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان، وأشراف قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ، ما أرسله به، فقال أبو سفيان لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. قال: ما كنت لأفعل، حتى يطوف به رسول الله ﷺ... فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قتل، فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان، تحت الشجرة، التي كان لأصحابها فيما يروىٰ، مكانة أهل بدر، من خصوصية الغفران والثواب...

ثم أرسلت قريش سهيل بن عمرو، فقالوا: أئت محمداً وصالحه،

ولا يكن في صلحه، إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب، أنه دخلها عنوة أبداً. فأتاه سهيل، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «قد أراد القوم الصلح، حتى بعثوا هذا الرجل...»... وبعد أن تكلما وتراجعا، جرىٰ الصلح بينهما... فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال: «اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم» قال سهيل: لا أعرف هذا، اكتب، باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب، باسمك اللهم» فكتبها. قال: «اكتب، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو» قال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، لكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله ﷺ: اكتب، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، اصطلحا على:

ـ وضع الحرب عن الناس عشر سنين.

ـ من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه يرده، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

ـ وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، دخل فيه، فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمد، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش...

ـ وإنك ترجع عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك، فأقمت فيها ثلاثاً، معك سلاح الراكب: السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها...

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل، بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، فلما رأىٰ سهيل ابنه قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه،

٢٦٥٥/١٢

وقال: يا محمد، قد لجت القضية بيني وبينك، قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتره بتلبيبه ويجره، يعني يرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين، يفتنوني في ديني. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك، ولمن معك، من المستضعفين، فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم...».

مواقف من الغزوة:

وسوف نعرض هنا لبعض القضايا والمواقف في غزوة الفتح المبين هذه:

قضية الشورىٰ: لا على أنها إحدى مقومات نظام الحكم في الإسلام، وإحدى سمات وخصائص المجتمع المسلم فحسب، حيث رافقت مجتمع المسلمين في خطواته الأولى، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨) والآية مكية، وإنما من حيث إنها ملزمة للحاكم المسلم، وقائدة المجتمع المسلم إلى الصواب، ذلك أن الاستدلال على عدم إلزاميتها من موقف الرسول ﷺ في صلح الحديبية، بعد أن كان ما كان من موقف عمر رضي الله عنه، ورأي الصحابة رضوان الله عليهم، فيكفي لنا هنا، إيراد قول الرسول ﷺ، عندما خلأت ناقته في ثنية المرار، فقال الناس: خلأت. قال: «ما خلأت، وما هو بخلق لها، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة...» ويمكن أن نلمح ذلك أيضاً، من موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما جاءه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مستنكراً ما حدث، فقال له أبو بكر: يا عمر، الزم غرزة، فإني أشهد أنه رسول الله... وعندما رد رسول الله ﷺ على عمر رضي الله عنه بقوله: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني».

فالقضية هنا لا مجال فيها للشورىٰ، حيث أمر الله ووحيه، نص، إضافة إلى أن عمل الرسول ﷺ سنة، وهو مستغن عن الشورىٰ بالوحي، والشورىٰ اجتهاد الجماعة، ولا اجتهاد مع النص، ومجال الشورىٰ إنما يكون فيما لا وحي فيه... ولسنا بحاجة إلى التذكير بما أحدثه غياب المؤسسات الشورية، وسيطرة فلسفة الاستبداد السياسي، من مخاطر في المجتمع المسلم، ومن أخطار في مجال العاملين للإسلام، ذلك أن سيادة الشورىٰ، والالتزام بها، هو المأمن الوحيد، لحماية السفينة من الخرق، والتي ما تزال تخرق ويتكرر اللدغ من الجحور المختلفة، تحت عنوان: أن الشورى معلمة، وليست ملزمة... وفي اعتقادنا لو أن الصحابة رضوان الله عليهم فهموا أن الشورىٰ معلمة، وليست ملزمة، لاكتفوا بتقديم الرأي، وينتهي الأمر، لكن الإصرار، والمتابعة، وتحرك عمر لإقناع الصديق، وغيره رضي الله عنهم جميعاً، دليل على أن الأمر يثمر الإلزام إذا لم يكن هناك نص...

والقضية الثانية: إن علاقة الصحابة مع رسول الله ﷺ كانت طبيعية للغاية، كان الحوار وكان تعدد وجهات النظر، حول القضية الواحدة، يبلغ أبعد مدى ممكن، «ألست برسول الله؟» «ألسنا بالمسلمين؟ فلماذا نرضى الدنيّة في ديننا؟» إلا أن ذلك، ما كان لينتهي إلى الخلاف والخصام والاصطدام ثم الافتراق... صحيح أن مجتمعهم القدوة، وعلاقاتهم، تميزت على واقع المجتمعات البشرية جميعاً، حيث تحطمت في هذا المجتمع، صورة كسرىٰ في ملكه، وقيصر في حكمه، والنجاشي في مملكته، إلا أنهم بشر تربوا في مدرسة الرسول ﷺ، والمبالغات الكثيرة حول حياتهم التي قد تخرج بهم عن بشريتهم، يخشى أن تساهم سلبياً في نقل الدعوة الإسلامية من مجال الواقعية، وإمكانية التطبيق ضمن طاقات البشر، إلى ضرب من الخيالية والأوهام...

والقضية الثالثة: إن الصلح ـ دون شك ـ كان في مصلحة المسلمين حتى أسماه الله تعالى «الفتح المبين» ولم يبق هذا محلاً للاجتهاد، بعد نزول القرآن، وظهور النتائج، التي أدت إلى فتح مكة، ونشر الإسلام، على عكس رؤية بعض الصحابة، أو معظمهم، ذلك أن قريشاً بهذا الصلح اعترفت عملياً، ولأول مرة، بالوجود الإسلامي، أو ما يسمى بلغة القانون اليوم: «الاعتراف الفعلي»، وهذا مكسب كبير للإسلام.

القضية الرابعة: لا شك أن هذا الاعتراف، وما استتبعه من وضع الحرب أوزارها عشر سنوات، أتاح الفرصة، لكثير من الخائفين على أنفسهم، من القبائل العربية، للدخول في الإسلام، ذلك أن الفرصة الحقيقية لانتشار الإسلام، والوسيلة الحقيقية، لنشره هي السلم، أما الحرب وامتشاق الحسام، فهي حالات خاصة تتحدد بالضرورة لدفع العدوان... ولعل نظرة إلى العدد الذي جاء به الرسول ﷺ في عمرة الحديبية، سنة ست للهجرة، كان ألفاً وخمسمائة رجل، والعدد الذي دخل فيه مكة فاتحاً سنة ثمان للهجرة، كان حوالي عشرة آلاف رجل أو يزيد، دليل كاف على ذلك... وهذه الحقيقة لا ترتبط بفترة زمنية معينة، وإنما هي سنة ماضية... ولو ألقينا نظرة على خارطة العالم الإسلامي اليوم، لوجدنا أن البلاد التي دخلها الإسلام فاتحاً، لا تعدل خمس بلاد العالم الإسلامي، ولا يزال الإسلام، يكسب يومياً مؤمنين جدداً، رغم ما يعاني العالم الإسلامي من ضعف واستعمار...

القضية الخامسة: الرؤية الواضحة للمستقبل، والتبصر بما ستؤول إليه الأمور، من خلال المقدمات، فقد تبدو ظاهرة عدم المساواة، في أن من جاء محمداً من قريش مسلماً، بدون إذن وليه يرده، ومن جاء قريشاً لا يردونه، ذلك أن الذي يرتد عن إسلامه، ويلتحق بقريش، فلا حاجة للرسول ﷺ به، ولا حرص للمسلمين عليه.

القضية السادسة: التزام الخلق الإسلامي حتى مع الخصم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟﴾ (المائدة: ٨) فالغاية لا تبرر الوسيلة، لقد جاء أبو جندل مسلماً، يرسف في قيوده، واستجار بالمسلمين، ودخل عليهم في ذلك همٌّ عظيم، حيث تقضي نصوص المعاهدة بردّه إلى قريش، وهو ينادي: أتردونني، يفتنني المشركون عن ديني!! فما كان من الرسول ﷺ، إلا أن قال: «إنا قد عقدنا بيننا، وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك عهد الله، وإنا لا نغدر بهم، فاصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين، فرجاً ومخرجاً»... لقد كانت هذه الأخلاق، والعهود، وراء إسلام سهيل بن عمرو، وخالد بن الوليد، اللذين كانا من عتاة قريش، وغيرهم كثير، وهذا مؤشر على أن عمليات التغيير، التي ننشدها في المجتمعات، سوف لا تتحقق إلا بالقدر، الذي يتمتع به العاملون للإسلام بأخلاق الإسلام السامية، ويمتلكون من صفات يفتقدها الآخرون، ويشعرون أنهم بحاجة إليها... الأخلاق التي تثير الاقتداء... أما إذا كان العاملون للإسلام، يحملون علل مجتمعهم نفسها فأنَّىٰ لهم التغيير؟!

وبعد: فلقد أسمى الله تعالى صلح الحديبية، وما ترتب عليه: بالفتح المبين، ذلك أن آثاره امتدت في أعماق التاريخ، وشكلت منعطفاته الكبرىٰ، واعتبر ذلك تمهيداً لفتح مكة حيث دانت الجزيرة العربية بالإسلام، لينطلق منها إلى العالم، ففي بدر انتصر الإسلام، وتأصلت عقيدة التوحيد، وفي الحديبية انتشر الإسلام، حتى عم الجزيرة، وانطلق منها، إلى العالم، حتى كانت مكانة أهل بيعة الرضوان عند الله، في سوية مكانة أهل بدر، ولذلك شواهد كثيرة من أحاديث الرسول ﷺ، من ذلك قوله: «إني لأرجو أن لا يدخل النار أحد إن شاء الله ممن شهد بدراً والحديبية» (رواه أحمد وابن ماجه).

قبسات من مواقع القدوة[1]

- ١ -

إن الجهود والإمكانات، والدعوات إلى النهوض بالأمة المسلمة، إذا لم تتوفر لها الشروط الفنية اللازمة، من الحسابات الدقيقة، والإدراك الواعي، والاختبارات الدائمة، والبصارة النافذة للواقع، وكيفية التعامل معه، لتحقيق الأهداف... سوف تنقلب إلى جهود ضائعة، وإمكانات مبعثرة، وحركات غير مجدية تساهم بشكل أو بآخر في تكريس تخلف المجتمع، وتجديد أخطائه، وتبديد طاقاته، وتضييع أجياله، والدوران في حلقة مفرغة، وإن ترافق ذلك مع سلامة النية والإخلاص، والمزيد من الحماس، والتوثب الروحي، في كثير من الأحيان إنه الإخلاص السلبي، الذي لا يفتح البصيرة، ولا يحقق ملكة الفرقان، ولا تدرك أبعاده ومستلزماته، فينقلب إلى مهرب وجداني، وقد يحقق لصاحبه سعادة، ومتعة ذاتية، تبقى حسيرة، وعاجزة عن المساهمة بأي تغيير، وأي نهوض بالأمة المسلمة، أو أي شحذ لفاعليتها، وحل لمشكلاتها المتراكمة، التي تطاول عليها الزمن وهي تنتظر المنقذ، الذي يهبط عليها، ليملأ الأرض عدلاً، بعد أن مُلئت جوراً وظلماً، وبذلك توقع لنفسها وثيقة الإعفاء من المسؤولية، التي تعتبر الحافز والشرط الضروري، للفعل الحضاري،

---

(١) مجلة الأمة، ٥١، ربيع الآخرة ١٤٠٥ هـ.

والهاجس الدائم، الذي يدفع إلى استكناه حقيقة التغيير، وامتلاك وسائله، ومن ثم تحقق البعث الحضاري الإسلامي المنشود. . .

وما نظن أحداً يقدر على الإنكار، بأن الأمة المسلمة اليوم، تمتلك من الطاقات والإمكانات، ما قد يفيض عن احتياجاتها، لكن الذي تفتقده: القدرات المختصة والشروط الفنية، لتوظيف هذه الطاقات والإمكانات، وحملها لتصب في مسارها الصحيح والسليم، إننا ـ من بعض الوجوه ـ كالأطفال الذين تمتلىء جيوبهم بالمال، ولكنهم يفتقدون القدرة العملية والعقلية الراشدة لتوظيفه، وكالجاهل الذي يمتلك القنبلة، كسلاح فعَّال، لكنه لا يدري أي شيء عن شروط استعمالها، ولا عن المدىٰ الذي يمكن أن تحققه، ولا العدو الذي يجب أن توجه إليه، إنه والحالة هذه، قد يكون أقرب إلى تدمير نفسه، من تدمير عدوه، ذلك أنه مالك للطاقة، لكنه فاقد للشروط الفنية في توظيفها واستخدامها. . .

ومن الضياع والضلال، أن نعتقد أن سبب هذا الضياع والضلال، تتحكم به كله أسباب خارجة عن الذات المسلمة، ونظل نلقي بالتبعة على الماسونية، والصهيونية، والصليبية، والإلحاد لنعفي أنفسنا من المسؤولية عن قضايانا، ونتهرب منها بطفولة محزنة.

ذلك أن الشجرة ذات الجذور الضاربة في الأرض، القوية في ذاتها، لا تقتلعها الرياح، ولا تجتثها العواصف. . . إن استمرارية العداوة لهذا الدين لم تتوقف تاريخياً، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ (البقرة: ٢١٧)، لكنها تختلف في تأثيرها بحسب قوة المسلمين الذاتية أو ضعفهم، وغفلتهم أو صحوتهم، قال تعالى: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (النساء: ١٠٢).

والأمر الخطير في الموضوع اليوم، أن الأمة المسلمة التي ورثت النبوة، ورحلة النبوة وتجربة النبوة، من لدن آدم عليه الصلاة والسلام، تعيش خارج نطاق كتابها، الذي قص عليها وحمل إليها رصيد التجربة البشرية من عوامل قيام الأمم، ونهوضها، وسبب دمارها وانقراضها، وكان نداؤه الخالد لها: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾(الحشر: ٢) ففقدت الاعتبار، وأصيبت بعطالة الإبصار، وعدم إدراك البصائر: .... فهي تعيش خارج سيرة نبيها ﷺ، وتعجز عن تعدية الرؤية وتحقيق العبرة، ولم يبق لها من تاريخها نصيب، إلاَّ بما يحقق لها من طرب، بسبب عظمة، يعجز الوريث أن يلتمس أسبابها...

إن التاريخ في مثل حالنا، الذي نحن عليه، يصبح عبئاً على الإنسان الكَلّ، بدل أن يكون حادياً وهادياً للإنسان العدل...

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٧٦﴾ (النحل: ٧٦).

شروط صلاح الأمة:

ومن الأمور التي أصبحت حقيقة، لا مراء فيها، أن نهضة أي مجتمع متخلف، لا يمكن أن تتم، إلاَّ من خلال الظروف والشروط العامة، التي تم فيها ميلاده، وهذا يعني أن أية محاولة للنهوض وإعادة بناء المجتمع الإسلامي الجديد، لا يمكن أن تتحقق بالقفز من فوق الشروط الفنية والظروف العامة، والبنية الأساسية، التي تشكلت خلالها الفكرة الإسلامية، والتجربة التأسيسية للمجتمع الإسلامي الأول.

إن مجتمع الانتقال، من الجاهلية إلى الإسلام، هو وحده محل القدوة، لمجتمع العودة بعد الانسلاخ عن الإسلام؛ ولقد أدرك الإمام

مالك رضي الله عنه هذه الحقيقة، عندما قررها في القرن الثاني للهجرة، وقد بدأ يلمح نذر التراجع، بقوله: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلّا بما صلح به أولها».

إن هـذا القـول ـ فيمـا نحسـب والله أعلـم ـ لا يعني بحـال مـن الأحـوال، الاقتصـار على استحضـار القيـم والمبـادىء، والتحقيـق في صحتها، ونقلها، من جيل إلى جيل فقط، وإغفال الشروط العامة، والظروف التي رافقتها، وكيفية التعامل معها، وأصول الدعوة، ووضوح أهدافها وفقه مراحلها.

إن استحضار القيم، لتصبح شعارات، ترفع بالمناسبات، وتعلن على المنابر، وتردد بالاحتفالات، وإن إغفال الظروف، والشروط العامة، والمناخات، التي ترجمتها إلى قيم فاعلة، وعدم رسم طريق العودة، ومراحله بدقة، وتدرج، يعني مزيداً من الارتكاس، والتعثر، ولا نظن أن أحداً من المسلمين اليوم، بات ينكر صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وخلود الإسلام، وصدق مبادئه، وقدرته على استئناف حضارة إنسانية، وسعادة بشرية، إلى آخر هذه التعميمات، التي أصبحت أقرب إلى المسلمات، ومع ذلك لم يتبدل معها الواقع.. إنها شعارات محفوظة ومصدقة من كل المسلمين.

لقد تجاوزت الأمة المسلمة اليوم مرحلة الاقتناع، بمصداقية الإسلام، وضرورة العودة إليه، وأصبح المطلوب البحث عن كيفية تطبيق مبادئه، وتنزيل شرائعه على واقع الناس، وتجسيد قيمه في حياتهم. وهذا لن يتأتى، ما لم نعد إلى الاقتباس من المجتمع الأول... فكيف نخترق الحـواجـز القـائمـة، ونحـدد مـراحـل رحلـة العـودة، لاستئنـاف الحيـاة الإسلامية، التي بشرنا بها الخطباء والوعاظ والمحدثون؟ وما هي المداخل الحقيقية لشحذ فاعلية الأمة، من جديد، وتبصيرها بمراحل

طريقها؟ ولا نعني بذلك مزيداً من التوثب الروحي، والحماس الملتهب ـ كما أسلفنا ـ والذي قد يكون أفقدنا ـ في كثير من الأحيان ـ الرؤية المتوازنة، والحسابات الدقيقة، ووظف من قبل أعداء الإسلام، لتصفية حساباتهم، ونحن ما نزال نظن أننا نحسن بذلك صنعاً؛ ولعلّ في حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه زياد بن لبيد، دلالة على ما نحن بصدده.

أخرج الإمام أحمد رحمه الله في مسنده، وابن ماجه بإسناد صحيح من حديث زياد بن لبيد، قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: «وذلك عند ذهاب العلم» قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم، ونحن نقرأ القرآن، ونُقرِئه أبناءنا، وأبناؤنا يُقْرِئُونَه أبناءهم، إلى يوم القيامة؟ فقال: «ثكلتك أمّك يا زياد، إنْ كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى، يقرأون التوراة والإنجيل، ولا ينتفعون منهما بشيء؟!».

إن ذهاب العلم، والدراية، والفقه، وافتقاد ملكة الفرقان، وغياب الروح الفاعلة، وعدم إدراك شروط وظروف مجتمع النبوة، لا يجدي معه استحضار القيم، وحفظ النصوص، وتحفيظها، وانتقالها من الآباء، إلى الأبناء، والأحفاد!! لقد حذّرنا الله تعالى من السقوط في علل اليهود والنصارى الذي حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ ﴾ (الجمعة: ٥) إنه حمل القيم، ونقلها والعجز عن تمثلها...

لقد كانت رحلتنا شاقة، أدمت أقدامنا، وسَيَّرتنا في دروب مظلمة، وشعاب وعرة، عندما جرينا وراء التغريبيين، وظنّنا أن نهضة مجتمعنا الإسلامي، أو تأسيسها، يمكن أن يتم بقيامه على أصول غريبة، بعيداً عن الظروف والشروط، التي رافقت ميلاد المجتمع الإسلامي الأول...

وكَلَوْنٍ من الافتتان بالغالب ومحاكاته، حاولنا تأسيس نهضتنا على الأصول الغربية فازددنا سقوطاً، بتتبع سنن الأمم الأخرى، والعدول عن سنتنا، فأضعنا النهضة، وأضعنا الأصول جميعاً... قال رسول الله ﷺ: «لتتبعنَّ سنن الذين من قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» (متفق عليه).

التأسي بمرحلة القدوة:

من هنا فنحن مدعوون دائماً، للعودة للتأسي والاقتباس، من المرحلة التاريخية، التي تم فيها ميلاد المجتمع الإسلامي الأول ـ مرحلة السيرة ـ وإدامة النظر في الظروف، والمراحل، والشروط التي تم فيها ذلك الميلاد؛ لنؤسس على ذلك، نهوض مجتمعنا من جديد... إن تحول سيرة الرسول ﷺ، عند كثير منا، إلى مناسبات، وأعياد واحتفالات، ومواسم، وموالد، تنسج حولها الخرافة، وتمجد فيها البدعة، وتهزم معها الحقيقة، وتغيب عنها السيرة الصحيحة، وتوليد العزمة الصادقة، مؤشر واضح على الهبوط والانحدار؛ وقد لا تختلف موالدنا الحديثة، (من اجتماعات ومناسبات واحتفالات) عن تلك الموالد الخرافية الشعبية، من حيث الأثر والنتيجة.

من هنا نقول ـ ونحن على أبواب شهر ربيع الأنور ـ: إن المطلوب من المسلمين الآن، أكثر من أي وقت مضى، إدامة النظر في السيرة العملية، والقَبْس من مواقع الاقتداء، حيث البيان الميداني التطبيقي، لِتَنَزُّلِ آيات القرآن على واقع الناس.

لا بد من تحديد الظروف، والشروط، والمراحل، والخطوات التي تمت فيها ولادة المجتمع الإسلامي الأول، ليكون ذلك أنموذجاً، لا بديل عنه، للنهوض والارتقاء... ولا نريد بذلك مزيداً من الكتب، التي تسرد علينا السيرة النبوية، كمرحلة تاريخية، من مراحل تاريخ الأمة

٢٦٦٥/١٢

المسلمة، أو مزيداً من الموالد الشعبية، أو الرسمية، والاحتفالات، وإنما الذي نعني بإدامة النظر: الدراسة التحليلية، التي نستطيع من خلالها، أن نمتلك الرؤية الإسلامية الشاملة، العملية الميدانية، التي تكسبنا القدرة، على إنزال النصوص، والقيم الإسلامية، على واقع الناس؛ الدراسة التي نمتلك من خلالها الوقوف، على منهج أصول الدعوة الإسلامية، في العصر الحالي، وفقه مراحلها، وأهدافها ومقاصدها العامة؛ لتكون ضوابط للسلوك، وكوابح لردود الأفعال، فلا تغيب الأهداف، ولا تُفْتَقَد الحِكَمُ، من خلال دفقات الحماس، واهتياج العواطف، وضغوط الصور، غير الإسلامية على أعصابنا، وعدم الإغراق في النظرات المثالية، إلى مجتمع الميلاد الأول.

إنه مجتمع البشر، الذين يخطئون، ويصيبون، ويحملون معهم بعض أمراض مجتمعاتهم، الجاهلية السابقة عن الإسلام، ذلك أن النظرة المثالية، التي انتهى إليها، وأكدها بعض الدارسين أصبحت من العوائق والمثبطات... من هنا نقول: إن ميلاد المجتمع الأول، هو قدوة مجتمع النهوض.

إن النظرة إلى السيرة، عند بعض دارسينا ومؤلفينا، لا تخرج عن كونها مرحلة تاريخية، تسرد حوادثها بالصورة، وبالطريقة نفسها، والنتائج نفسها التي تحك الفترات التاريخية كلها، في حياة الأمة، وعند بعضهم الآخر، لا ينظر إليها، إلا من خلال ما يمكن أن يستنبط منها، من فقه تشريعي، حتى جاءت بعض المؤلفات، تسرد حوادث السيرة، ثم تُلحق ذلك بمجموعة أحكام فقهية مستنبطة.

إن هذه النظرة، لم تقتصر على السيرة النبوية، وإنما كانت النظرة نفسها، إلى آيات القرآن الكريم، فقد اقتصر بعضهم في ذلك، على استنباط الأحكام الفقهية التشريعية، أو ما سمي بآيات الأحكام، التي

أوصلها بعض العلماء إلى خمسمائة آية، أو يزيد، وكأن آيات الشورى والعدل، والتربية، وسنة انقراض الأمم وبناء الإنسان، وسنن حكم الحياة والأحياء، ليست هي مقصودة في التنزيل... وعلى الرغم من الاستبحار العظيم، والفائدة الكبيرة التي تحصلت من هذه الثروة الفقهية التشريعية، إلاَّ أن الجوانب الأخرى، ليست أقل أهمية، بل قد تأتي من الأهمية في المقام الأول، إذ لا بد من بناء الإنسان، القادر على فهم مناخه، وتاريخه، وعلاقاته الاجتماعية، وسنن الحياة والأحياء، ليكون بحق، محلاً سليماً لتطبيق الأحكام... فما قيمة تقرير الأحكام بغياب الإنسان؟!

أما ما يمكن أن يتحصل من فقه حضاري، يمكِّن من النظر في قيام الحضارات وسقوطها، والعلل التي تتسلل إلى الأمم، وتؤدي إلى انقراضها، وفقه الحركة التاريخية، ودور الإنسان وفاعليته فيها، والفقه السياسي، والإداري والمالي، والفقه الاجتماعي، واكتشاف السنن، والقوانين، التي تحكم حركة المجتمعات البشرية، فيكاد الإنسان، لا يجد لها المساحة التي تتناسب مع أهميتها وخطورتها...

من هنا تختلف السيرة - كمحضن، اكتمل خلالها ميلاد المجتمع الإسلامي - عن التاريخ الإسلامي، بشكل عام، إنه مصدر للتشريع، ومصدر لاستبانة أهداف الدعوة، ووسائل العمل، ومصدر للتربية والإعداد، والمجاهدة، والجهاد، وكيفية التعامل مع الأعداء، في الظروف والمناسبات، ووسائل إيضاح، ومعالم هدىً، لا بد من استيعابها، من حياة، ومواجهات الداعية القدوة عليه الصلاة والسلام، للمواقف المتنوعة والمختلفة، من امتحانات النصر، وامتحانات الهزيمة، على حد سواء، لأن الحياة، ليست إلاَّ مجموعة انتصارات أو مجموعة هزائم، والله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)

وقد يكون مستغرباً، إلى حد بعيد أن نقول: لا بد من إدامة الدراسة، لإيضاح أهداف الدعوة، ومقاصدها العامة، بعد هذه القرون المتطاولة، والعودة بين الحين والآخر، لاختبار سلامة السير، ومدى انطباقه على منهج أصول الدعوة، وتحقيقه لأهدافها، وانضباطه بمقاصدها، والقضاء على الجنوح، والخروج، الذي يكمن في طبيعة البشر، والخروج من صور التعميمات، والضبابيات، التي تساهم بالضياع، أكثر من مساهمتها، بتحديد الخطوة وتصويب السير، ورسم طريق العودة، بعد الاتفاق، والاقتناع بضرورة هذه العودة...

وليست السيرة مصدراً للفقه التشريعي فقط، إنها مصدر للحياة الإسلامية، والتعرف على الحلول المنضبطة، برعاية الوحي وحراسة السماء.

أما التاريخ الإسلامي، فلا يصل بحال من الأحوال إلى هذه الدرجة، إنه محاولات بشرية تخطىء وتصيب، إنه ساحة ومختبر للدروس، والعبر، وليس مصدراً للتشريع....

ولا شك أن العناية بالسنة، صحيحها وضعيفها، صادقها ومكذوبها، والتأصيل لعلم «مصطلح الحديث» وقواعد الجرح والتعديل، حمل لنا الخير الكثير، من الحفظ، والاطمئنان، لهذه الثروة الهائلة، من النصوص الإسلامية، والأحكام التشريعية، وسلامة النص الديني من أي تحريف أو تعديل؛ الأمر الذي افتقدته الأديان السماوية السابقة عن الإسلام... لكن يبقى المطلوب أن تأخذ السيرة العملية، القدر نفسه، من الدراسة والفقه، لأنها المحل الرئيس لفقه الحركة والسلوك.

إن علم «مصطلح الحديث» وكل القواعد والدراسات، التي أوصلت إلينا السنة صحيحة؛ كانت مقدمة لا بد منها، لكن لا يجوز أن تنتهي المهمة عند ذلك الإثبات، بل قد يكون هذا الإثبات وسيلة للوصول إلى

الثمرات، والأهداف، التي من أجلها كان هذا الإثبات؛ وهي صياغة السلوك الإسلامي، وفق مقتضيات الشرع.

والوقاية من أمراض الأمم: لا تكون بالمفاخرة بالتراث والعجز عن تمثله، والإفادة منه، والمفاخرة بالماضي، والعجز عن إسقاطه على الواقع، وإضاءته للمستقبل، لأنه انتصار عاطفي الذي لا يسمن، ولا يغني من جوع.

إن أصول الدعوة، ووسائلها، وأهدافها، ومقاصدها، وتحديد الفهم الصحيح لها، مركوز في السيرة العملية، فهي المعين، الذي يمد الدعوة، ويحصن الدعاة، بدروس الصبر، وضوابط الظفر والانتصار، ولعل في توقف الرسل، واستمرار الرسالة، وخلودها، معنىً واضحاً على استمرارية المعاني والعبر، لتستوعب، وتشمل كل المواجهات التاريخية، حتى يرث الله الأرض، ومن عليها، إنها الحقائق المجردة، التي تتجاوز حدود الزمان والمكان؛ وهذا يعني من بعض الوجوه: القدرة الإسلامية على تنزيل، وإسقاط ذلك على الحركة التاريخية، والتحكم بمسارها في كل زمان ومكان، من خلال الرصيد الكبير، من التجارب والدروس، التي شهدها عصر الرسول صلى الله عليه وسلم.



٢٦٦٩/١٢

قبسات من مواقع القدوة[1]

- ٢ -

من الأمور التي أصبحت حقيقة، لا مراء فيها، أن نهوض مجتمع المسلمين اليوم، لا يمكن أن يتم، إلاَّ من خلال توفير الظروف والشروط العامة نفسها، التي تم فيها ميلاده؛ وهذا يعني أن أية محاولة للبعث، وإعادة بناء المجتمع الإسلامي الجديد، لا يمكن أن تتحقق بتجاهل الشروط، والظروف العامة، والبنية الأساسية، التي تشكلت من خلالها الحياة الإسلامية، والقاعدة التأسيسية للمجتمع الإسلامي الأول، كما أن أية نهضة إسلامية لا يمكن أن تؤسس على أصول غريبة عنها، وهذا يعني - ببساطة - أن فترة القدوة، هي فترة السيرة فقط ابتداءاً من الخطوة الأولى في غار حراء بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ (العلق: ١) حيث جعلت القراءة مفتاح الأمر كله، وانتهاء بيوم الحج الأكبر، حيث استقرت الأحكام واكتمل الدين، بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) والآية الأخيرة التي نزلت قبل انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بأيام: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ (البقرة: ٢٨١) ذلك أن هذا الرصيد الضخم من المبادىء والممارسات - التي تمت على عين الوحي وتسديده - لا بد لحراستها الدائبة، وعدم الخروج

(١) مجلة الأمة، العدد ٥٢، ربيع الآخرة ١٤٠٥ هـ.

عليها، من التقوى، واستشعار المسؤولية، واستحضار البعد الإيماني.

من هنا فنحن مدّعوون دائماً للعزمة الصادقة، في العودة إلى التأسي، والاقتباس من المرحلة التاريخية، التي تم فيها ميلاد المجتمع الإسلامي الأول ـ مرحلة السيرة ـ، وإدامة النظر في الظروف والشروط، التي تم فيها ذلك الميلاد؛ لنؤسس على ذلك، نهوض مجتمعنا من جديد، ولن يتحقق لنا ذلك إلاّ بالدراسة التحليلية للسيرة النبوية، التي نستطيع من خلالها أن نمتلك الرؤية الإسلامية الشاملة، التي تكسبنا القدرة على تعدية الرؤية، والقدرة على الحكم على الأشياء المستجدة، والتعامل مع الظروف المتبدلة، وإنزال القيم الإسلامية على واقع الناس، والوقوف على منهج أصول الدعوة الإسلامية، وفقه مراحلها، واستشعار أهدافها، وتصور مقاصدها العامة، لتكون دليل عمل، وضابط سلوك، وكوابح لردود الأفعال، فلا تغيب الأهداف، ولا تتعطل المقاصد، ولا تُفْتَقَدُ الحِكَم من خلال دفقات الحماس، واهتياج العواطف، واستعجال النتائج، وتجاهل سنن الله في التدرج والأجل، والقراءة الخاطئة، وضغوط الصور غير الإسلامية.

وهناك حقيقة لا بد من تأكيدها والتنبه إلى أهميتها، وهي أن لهذه الفترة من حياة المسلمين ـ فترة السيرة ـ قدسيتها، وعصمتها، ذلك أن رعاية السماء، كانت مستمرة، وتسديد الوحي، كان مرافقاً لكل خطوة وخلجة نفس، وهذا لم يتأتَّ، ولن يتأتّى، لأية مرحلة تاريخية أخرى، من حياة الأمة المسلمة، ذلك أن الممارسات الإسلامية والتطبيقات الإسلامية، فيما وراء ذلك، لا تخرج عن كونها محاولات بشرية، محكوماً عليها بالخطأ والصواب، من خلال ما توفق إليه باقترابها وابتعادها من مرحلة السيرة، مرحلة الاقتداء، إنما تبقى تاريخاً يمد المسلمين بالدروس والعبر، بعيداً عن التشريع، وتحقق صور الاقتداء، الذي يختص بهذه المرحلة دون غيرها. . . وبذلك يتحقق لنا اللقاء على

الأصول الجامعة، ويتوقف الانتصار والتعصب لأية دولة أو جماعة، سواء أكانت تاريخية، أو معاصرة، تختلف في تقويمها، وجهات النظر.

من هنا نقول: إن إدامة النظر في الظروف والشروط، التي رافقت ميلاد المجتمع الإسلامي الأول ـ مجتمع القدوة ـ يكسبنا القدرة على تعدية الرؤية، والاهتداء بقبسها، ويغني تصورنا بالكيفيات، التي تمكننا من الحكم على الواقع، ذلك أن الحكم على الشيء فرع من تصوره، فإذا لم نتحقق بالتصور السليم، للظروف والشروط والممارسات، للفترة المعصومة، التي تم فيها ميلاد المجتمع الأول، فكيف يمكن لنا أن نحكم على واقعنا ونحاكمه على ضوء ذلك؟! وهذا لا يعني بحالٍ القفز من فوق التاريخ الإسلامي، أو التاريخ العام، وعدم التبصر بالحركة التاريخية، واستفادة الدروس والعبر، من صواب وخطأ المحاولات البشرية...

إن السيرة النبوية، مرحلة تشكل بالنسبة لنا أنموذج الاقتداء الوحيد، الذي يجب أن يحتذى، والمعالم ووسائل الإيضاح للاهتداء على ضوئها، والسير بوحيها، لذلك نقول: إن تلك القدسية، لا يمكن أن تكون لأية فترة ماضية، أو حاضرة، أو مستقبلية، والعصمة لا يمكن أن تتحقق لأي شخص أو جماعة أو مؤسسة ـ، مهما كانت جادة في التأسي والاقتداء ـ لتوقف تسديد الوحي، ولأن البشر ـ أفراداً وجماعات ـ يجري عليهم الخطأ والصواب، ولا تؤمن عليهم الفتنة.

إن عدم إدراك هذه الحقائق، أوقع الكثير من الدارسين، والباحثين، بمغالطات وأخطاء، على غاية من الخطورة، عندما حاول بعضهم إسقاط حوادث السيرة، والأزمنة، التي حكمت مراحلها ـ وهي التي لا تتكرر بذاتها، كما أسلفنا، وإنما الاهتداء بها، والاقتداء والتأسي، هو المطلوب دائماً ـ على سلوك أشخاص، وأوضاع،

وجماعات، وكيانات... كما حاول أن يجعل منهم محلاً للأسوة والاقتداء! وليس هذا لأحد سوى المعصوم، ولا لمرحلة سوى السيرة النبوية.

ولا أزال أذكر بكثير من الألم، والمرارة، أحد الخطباء عندما حاول القيام بعملية الإسقاط التاريخي ـ إن صح التعبير ـ حيث كان ذلك مترافقاً مع حوادث الاضطهاد، والاعتداء، على بعض العاملين للإسلام، بقوله عنهم، بعد أن عرَضَ لِلعذابات، التي تقع عليهم من الظالمين: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض»، دون أن يدري، أن هذه الخاصية، تفرد بها البدريون دون سواهم من الأصحاب، على الرغم من المعارك الكثيرة، والضحايا الكبيرة، في الغزوات الإسلامية، والفتوحات الإسلامية... تفردت بدر بذلك لأن شهودها كانوا هم أجنّة المجتمع الإسلامي المنشود، والبذور التي نمت من خلالها دوحة الإسلام، وكانوا فيما بعد وسيلة التمكين له في الأرض... إن هذه الخاصية لم تتحقق لمن شهدوا غزوة أُحد، والخندق وحنين وتبوك وغيرها... فكيف يمكن أن نسقطها على أفراد، وجماعات تُصاب في سبيل الله، ولها أجرها إن شاء الله تعالى، لكن موتها، واضطهادها، لا يعني بحال أن الله لن يُعبد في الأرض؟! وقد أتم الله دينه، وتعهد بحفظه وخلوده، وختم النبوة بالرسول الكريم ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩) و﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾(الأحزاب: ٤٠)... وما موقف هذا الخطيب، لو هلك هؤلاء، واستمرت عبادة الله تعالى في الأرض، وهي مستمرة بعونه تعالى؟!

ملاحظات حول التعامل مع السيرة:

وقضية أخرى يمكن أن تشكل أنموذجاً آخر للفهم؛ فقد قرأت عند

بعض من كتبوا في السيرة النبوية حديثاً ـ في محاولة لاستكناه المنهج الحركي للسيرة النبوية ـ محاولات لإسقاط أحداث السيرة على سير بعض الأشخاص، والجماعات، والانتصار لفهمها، ومنهجها، حيث يرى فيها حركة الأمة الإسلامية، وعلى الرغم أنه لم يتح لنا بعد قراءة المؤلَّف كاملاً، ولكن نقول هنا: أليس من الخطر، مجرد التفكير بأن انتظام أي مسلم ـ كائناً من كان اليوم في جماعة ـ كائنة من كانت ـ يقاس بخروج سيدنا حمزة رضي الله عنه، من الكفر إلى الإيمان، أو أن استشهاده رضي الله عنه الذي أخبر عنه المعصوم ﷺ، بأنه سيد الشهداء، يمكن أن يُسقط على أي إنسان، لأي سبب مهما كان فضله، وجهاده، وعلمه، وعطاؤه، فالله أعلم به، ونرجو الله له ولغيره أن يكونوا من الشهداء الأبرار؟! لكن ما أظن أنه يحق لمسلم ديناً أن يقول: الشهيد، أو المغفور له، أو المرحوم، أو ما إلى ذلك، وإنما سبيل المسلم الدعاء لموتى المسلمين... فيقول: رحمه الله، وغفر له، ورزقه الشهادة في سبيله... إلخ.

وقد يكون من الأمور الخطيرة أيضاً، المسلك الانتقائي، ومحاولة أخذ جزئية، أو موقف من السيرة، وقطعه عن سياقه، وظروفه، وشروطه، وموقعه، من الصورة الكليّة، ومن ثم توظيفه، وإسقاطه على حادثة، أو قضية من القضايا المعاصرة، وهذا فعل كثير من الذين أتقنوا صناعة المبررات، «وفبركة» المُسَوِّغَات من فقهاء، وعلماء سلاطين الاستبداد السياسي، والتحزب السياسي، على حد سواء، حيث يعمدون إلى كتب السيرة، يقلبون فهارسها، ليقعوا على حادثة يمكن أن تبرر، وتسوغ ما طُلب إليهم تسويغه... أما جمهور المسلمين فيكون فريسة التضليل، ومحل الضلال..: وقد يقع هؤلاء في مفارقات محزنـة، حيث يوظفون الحادثة نفسها، لموقفين متناقضين، فنجد الإسلام على أيديهم، يحرم الصلح مع الأعداء ـ أعداء الدين ـ ولذلك فتاواه ومسوغاته، وتارة

أخرى يبيح التحالف والصلح، اهتداء بفعل الرسول ﷺ بصلح الحديبية...

إنها المواقف الانتقائية، التي تنقلب السيرة معها، من دافع إلى النهوض، إلى مانع منه، تقر الواقع وتكرسه، وتضفي عليه صفة الشرعية الإسلامية، ولعل في هذا من الخطر، ما يفوق العمل، على إقصاء الإسلام صراحة، ذلك أن تعطيل فاعلية الإسلام، وهديه، أخطر من محاولات إقصائه، وترك الناس في حالات من العجز والإحباط، حيث لا تتحقق النتائج، التي سلكوا لها سبيل الإسلام.

نعود إلى القول: إن الفترة التاريخية المعصومة، التي تشكل مرحلة الاقتداء والتأسي، والقبس المضيء، هي مرحلة السيرة، وإن أصول الدعوة، ووسائلها، وأهدافها، ومقاصدها، وتحديد الفهم الصحيح لها، مركوز في السيرة العملية، فهي المعين، الذي يمد الدعوة، ويحصّن الدعاة بالدروس والعبر، وضوابط النصر والظفر، ولعلّ في توقف الرسول ﷺ واستمرار الرسالة، معنى واضحاً... إنها الحقائق التي يجب أن تستوعب، ويتعامل على ضوئها، مع كل المواجهات التاريخية، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا يعني - من بعض الوجوه أيضاً - القدرة الإسلامية، على تنزيل القيم على واقع الناس، وحسن التعامل مع السنن، التي تحكم الحركة التاريخية، من خلال الرصيد الضخم من الدروس والعبر، التي شهدها عصر الرسول ﷺ، في إطار المحاولة الإسلامية التي لا تعني الإسلام، على كل حال. والنماذج التي سنعرض لها، سوف نحاول، أن تكون من مواقع متنوعة، علّها تكون معالم هادية، على طريق الجيل المسلم...

تميز طريق النبوة:

ولعل أولى هذه المعالم، التي كانت ولا تزال من الأبجديات

٢٦٧٥/١٢

الضرورية للعمل الإسلامي، والتي لا بد من إدراكها ابتداءاً: تميز طريق النبوة، بوسائله، وأهدافه، وممارساته عن طريق المُلْك، وهذا لا يعني، أن الإسلام عقيدة، لا شأن لها بتنظيم الحياة، وإنما يعني، أنه تنظيم للحياة، متميز بالهدف، والوسيلة، والممارسة، فقد نخطىء القراءة، وبالتالي نخطىء الفهم، والممارسة، وتتداخل الأمور في الطريق إلى تحقيق الهدف، فيصبح التميز لفظاً بلا معنى، واسماً بلا مدلول، وبذلك تختلط الممارسة، فتتحول النبوة إلى ملك، والهداية إلى جباية، والاحتساب إلى احتراف.

يقول ابن إسحاق:

[اجتمع زعماء قريش بعد غروب الشمس، عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد ﷺ فكلموه وخاصموه، حتى تُعْذروا، فبعثوا إليه، أن أشراف، قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن، أنه قد بدا لهم، فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم... وكان مما قالوا: فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث، تطلب مالاً، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، فنحن نُسَوِّدُك علينا، وإن كنت تريد ملكاً مَلَّكْناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئياً، تراه قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك، حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك. فقال لهم: «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني، أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فَبَلَّغْتُكُمْ رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني، ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ، أصبرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم»].

لقد كانت هذه المعالم واضحة من بداية الطريق، ترافقت مع خطوات الدعوة الأولى، ولازمتها حتى المواقع الأخيرة، وكانت الاستجابة واحدة، في حالات الضعف، وحالات القوة، على السواء...

قال ابن إسحاق بمناسبة فتح مكة: [نحدَّثني عبد الله بن أبي بكر، أن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ـ فتح مكة ـ حتى إن عُثْنونه، ليكاد يمس واسطة الرحل...

أمر رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، أن يدخل مكة في بعض الناس من كدىً، وأمر سعد بن عبادة، أن يدخل في بعض الناس من كَدَاء.

قال ابن إسحاق: فزعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وجه داخلاً قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة؛ (ولعلّ سعداً رضي الله عنه، رأىٰ بطبيعته البشرية، أنه يوم الجزاء والعقاب، لمن حملوا الأذى للإسلام والمسلمين، إحدى وعشرين سنة، لكن للنبوة موقعاً آخر، ومنطلقاً آخر، وفلفسة أخرى)، فسمعها رجل من المهاجرين ـ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن، أن يكون له في قريش صولة. فقال الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب: «أدركه فخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها» ـ وفي رواية أنه دفع الراية إلى قيس بن سعد بن عبادة ـ ويروىٰ أن الرسول ﷺ استدعىٰ سعداً، وقال له ـ مسدداً طريقه، موضحاً له طريق النبوة ـ: «اليوم يوم المرحمة»...] والفرق كبير بين الملحمة، التي تنسب إلى الملك، وبين المرحمة التي تمثل عطاء النبوة...

ومعلمة أخرى:

... قال أسامة بن زيد رضي الله عنه: فأتيتُ النبي ﷺ، وقد أتاه البشير بالفتح، فإذا هو متهلل الوجه، فأدناني منه، ثم قال: «حدِّثني». فجعلت أُحدثه، فقلت: فلما انهزم القومُ أدركتُ رجلاً، وأَهْوَيْتُ إليه

بالرمح، فقال: لا إله إلاّ الله؛ فطعنتُه فقتلتُه. فتغير وجه رسول الله ﷺ وقال: «ويحك يا أسامة، فكيف لك بلا إله إلاّ الله؟ ويحك يا أسامة فكيف لك بلا إله إلاّ الله؟» فلم يزل يرددها عليَّ، حتى لوددتُ أني انسلخت من كلّ عمل عملتُه، واستقبلتُ الإسلام يومئذ جديداً؛ فلا والله لا أُقاتل أحداً، قال: لا إله إلاّ الله بعد ما سمعت رسول الله ﷺ.

وفي رواية أخرى: قال أسامة رضي الله عنه: لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلاّ الله أبداً. فقال سعد بن مالك رضي الله عنه: وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلاّ الله أبداً. فقال لهما رجل: ألم يقل الله ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٩٣) فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله...

وهذه معلمة من تسديد الوحي، وبيان وسيلة الداعية وخصائصه.

قال ابن إسحاق: [وخرج رسول الله ﷺ، فيما بلغني، يلتمس حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، فوجده ببطن الوادي، قد بقر بطنه، عن كبده، ومُثّل به، فَجُدِع أنفه وأذناه... فلما رأىٰ ما رأىٰ قال: لولا أن تحزن صفية، ويكون سنَّة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير؛ ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن، لأمثلّن بثلاثين رجلاً منهم...

فلما رأىٰ المسلمون، حزن رسول الله ﷺ، وغيظه، على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر، لنمثّلَن بهم مُثْلة، لم يمثّلها أحد من العرب...

قال ابن هشام: ولما وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال: لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط أغيَظَ إليَّ من هذا؛ ثم قال: جاءني جبريل، فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب، أسد الله، وأسد رسوله.

٢٦٧٨/١٢

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الله عز وجل أنزل في ذلك (في النهي عن المثلة) من قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝١٢٥ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨ ﴾ (النحل: ١٢٥ ـ ١٢٨) فعفا رسول الله ﷺ، وصبر ونهى عن المثلة].

لقد سدَّد الوحي طريق النبوة ورعاها، وبيَّن وسيلة الداعية، وأنها ﴿ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ وكان لا بد من التدرج في الموقف، فبعد بيان وسيلة الداعية، انتقل إلى تأكيد العدل، وهو التماثل بين العقوبة والجريمة ﴿ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ ﴾ ثم كان الندب إلى الصبر، وهو مقام الإحسان الذي يليق بالنبوة، ﴿ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ ﴾ ثم كان الأمر بالصبر للاحتساب... ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾.

ويوم الفتح، قال رسول الله ﷺ: يا عبَّاس، احبسه ـ يعني أبا سفيان ـ بمضيق الوادي، عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها... حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرىٰ منهم إلاّ الحدق من الحديد، فقال أبو سفيان: سبحان الله، يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلْكُ ـ كذا ـ ابن أخيك الغداة عظيماً. قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوّة...

نعم إنها النبوّة، وليست الملك، النبوة في الهزيمة، والنبوة في النصر... النبوة في الضعف، والنبوة في القوة... المرحمة، وليست الملحمة... الهداية وليست الجباية... فهل نعيد النظر في التحقق من الأهداف، والمقاصد التي نعمل لها؟ وهل نختبر الوسائل والممارسات،

التي نعتمدها لتحقيق هذه الأهداف؟ وكأن المطلوب إلينا اليوم، أن نعيـ
النظر في المواقع، التي ننطلق منها فننظر بعين العبّاس رضي الله عنه.
حيث لا يزال كثير منّا يقع في نظرة أبي سفيان، أثناء الفتح، فتكون
الدعوة إلى الإسلام ـ وسائل وأهدافاً ـ على ميراث النبوة، ويكون شعار
دعوتنا وممارساتنا: إنها النبوّة وليست الملك.



١٢/ ٢٦٨٠

حتى نكون على ميراث النبوة[1]

المسلم الحق هو الذي يرى دائماً: أن رضى الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، والذي لا يتحقق إلاَّ بموافقة الكتاب والسنة، في فهمه وتطبيقه (أي: في تصوره، وسلوكه)، هو الغاية من خلقه ووجوده، وأن كل ما عدا ذلك من جهود ومحاولات، ونشاطات، وجماعات، وقيادات، وأنظمة، وحكومات، وسائل تخضع لهذه الغاية، وتستخدم لصالح الإسلام، من هنا كانت موازين الحب والبغض، والالتقاء والافتراق، وكان على المسلم أن يحب المرء، لا يحبه إلاَّ لله، وينتصر لحركة، أو فكرة، لا ينتصر لهما إلا حباً في الإسلام، وتعاوناً على البر والتقوى وليس الإثم والعدوان... فلا يجوز بحال من الأحوال أن تنقلب الوسائل غايات، أو تُسلك وسائل غير مشروعة، بحجة الوصول إلى الغايات، وأن يُطلب رضى الناس، بسخط الله، فالغاية لا تبرر الوسيلة، وتشرف الوسيلة بشرف الغاية، والله تعبدنا بالوسائل، ومن هنا كان لا بد وباستمرار، من ديمومة الفحص والاختبار، لشرعية وسائلنا، في الطريق إلى تحقيق الغاية التي خلقنا لها.

وإنه ليس من الأمور المعادة أن نقول: إن الرسالة الإسلامية، هي الرسالة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية جميعاً، من

---

(١) مجلة الأمة، العدد ١٥، ربيع الأول ١٤٠٢ هـ.

لدن آدم عليه السلام، وإنها تحمل لنا رصيداً تاريخياً ضخماً، على طريق النبوة الطويل، ودعوة الأنبياء لأقوامهم، ووسائلهم في المواجهة لأعداء الله، الأمر الذي لو أحسنَّا الاستفادة منه، لاتَّضحت الرؤية، واختصر الطريق، وعشنا في قمة التجربة البشرية للأنبياء مع أقوامهم، وكنا على ميراث النبوة باستحقاق.

وإن الرسول القدوة ﷺ انتهت إليه، واجتمعت في شخصه، سائر كمالات الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وإنه للمسلم في مكان الأسوة والقدوة والمثل الأعلى، لأنه الأعبد لله، والأتقى له، قال رسول الله ﷺ: «... أما وإني لأخشاكم لله وأتقاكم له...» (رواه البخاري) وإن المسلم يقترب من هذا المثل، بتوفيق الله ورعايته، أو قد يبتعد عنه لسبب أو لآخر، المهم: أن الرسول ﷺ هو المثل الأعلى، وأن التفكير بتجاوز هذا المثل إلى غيره، أو الابتداع بالإضافة إلى الصورة التي كان عليها، خروج، ورفض، وانحراف... «فمن رغب عن سنتي فليس مني» (رواه البخاري) أي: ليس مسلماً، فهو منارة الاقتداء في كل زمان ومكان، وسيرته التي تشكل بمجموعها وشمولها الصورة التطبيقية لمبادىء الإسلام، هي المعين الثرُّ الذي لا ينضب، والمنجم الدائم، العطاء الذي يتزود منه المسلم، في طريقه إلى الله، بالرؤية الإسلامية، حتى لا تزلّ به قدم، ولا ينأى به تفسير، فيضل سعيه، ويحبط عمله، ويكون في قافلة الأخسرين، الذين يظنون أنهم يحسنون صنعاً.

ونحن في مطلع النور، شهر ربيع الأول حيث ولادة الرسول ﷺ، الذي يقول الله بحقه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢١). لا بد أن تكون لنا وقفة للمراجعة: فإلى أي مدى يعيش مسلم اليوم، هذا التأسي، الذي يحقق غايته، ويسدد طريقه؟ وإلى أي مدى يخلو لنفسه، بعيداً عن كل العناوين والألقاب والضجيج، مختبراً هذا التأسي... يعيد النظر في سلوكه،

ومدى انطباقه، على ما شرعه الرسول الكريم ﷺ، يعيد النظر في وسائله لنصرة هذا الشرع الحكيم، لتكون وسائله مشروعة أولاً، ومتطورة في مستوى عصره وإسلامه؟ هذه المراجعة تبدو ضرورية بين حين وآخر، وفي كل مناسبة حتى لا يسقط ضحية ضغط المجتمع من حوله، أو ينتهي بسلوكه إلى لون من ردود الفعل غير السوية، وغير المبصرة، أو يحكم سلوكه لون من التعصب الحزبي، أو مواقف المزايدة، التي لا تخرج في حقيقتها عن ردود الفعل، وحظوظ النفس، وأهوائها الدنيوية.

ولعل المطلوب من مسلمي اليوم، أفراداً وجماعات، في القاعدة، وفي القيادات ـ وتكاد تكون مسؤولية القيادات، عندما تشتد الظروف، وتشتبه الأمور، ويتداعى الأعداء على الإسلام والمسلمين، أخطر وأكبر ـ أن يعيدوا النظر، بشرعية وسائلهم، ومدى انطباقها على الإسلام، ومدى انسجامها مع طريق النبوة، وأن يعيدوا النظر بمدى وضوح أهدافهم، وصدق العمل لها، بعيداً عن الغرور، والصلف، والكبر والافتتان بالقول، والدفاع عن النفس، والطواف حول الذات، فالحق أحق أن يتبع... ولعل الموقف الشجاع بالرجوع إلى الحق، لا يقل بطولة في الدنيا، وثواباً في الآخرة عن الثبات على الحق والدفاع عنه، بل لعلّ منبع الموقفين واحد في نهاية المطاف...

المطلوب من المسلمين اليوم، وكل يوم: أن يحققوا شعار: «الحق أحق أن يتبع»، في حياتهم وعلاقاتهم، وأن لا يبقى شعاراً سجيناً معلقاً على منابر المسلمين، نقلل من قيمته وجدواه، بكثرة استعماله، وعدم التزامه... ومن كان قوله يغاير عمله، فكأنما يوبخ نفسه...

فهل يكون شهر ربيع الأنور فرصة لنا، وعلى كل المستويات لمعاودة الفحص والاختبار؟ اختبار مواقفنا في فهمنا للإسلام، وتطبيقنا له في منشطنا ومكرهنا، في نصرنا وهزيمتنا، مستلهمين في ذلك كله طريق

النبوة، وتعاليم النبوة، في الوقت الذي كثرت فيه الفهوم، وتعددت الآراء، ووقعنا بما نهينا عنه، من القيل والقال، وبدأت مرحلة التلاوم، تأكل عمرنا وتضيع أجرنا.

ولا بأس هنا، أن نعرض لمواقف من حياة الرسول ﷺ وصحابته الكرام، علّها تكون لنا مصابيح، في الطريق، حيث يشتد الظلام.

لقد كان الصحابة الكرام يتمتعون بحساسية رائعة من الخوف والرجاء، إنه الخوف السوي الذي يوقظ الإنسان، ويبصره أين يضع قدمه، إنه الخوف من الله من الزلل والضلال.

كان الصحابي دائب السؤال عن أمور دينه، ومعرفة حدوده، من الحلال والحرام، ليتمتع بالاطمئنان، وسكينة النفس، بل كان الاستباق إلى فعل الخيرات، والسؤال عن أحب الأعمال إلى الله، وأعلاها قدراً، ديدنه... وهذه بعض النماذج:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يقول: أي العمل أحب إلى الله؟ فيقول الرسول ﷺ: «الصلاة لوقتها» فيقول الرجل: ثم أي؟ فيقول الرسول ﷺ: «بر الوالدين» فيقول الرجل: ثم أي؟ فيأتي الجواب: «الجهاد في سبيل الله» (متفق عليه) وآخر يسأل: أي الناس أحق بحسن صحابتي؟ وثالث يطلب إلى الرسول ﷺ أن يقول له في الإسلام قولاً لا يسأل عنه أحداً بعد رسول الله.

ولا شك أن هذا منهج، فهل نلتزم ذلك، ولا نتعدى الكتاب والسنة؟ والله تعالى يقول:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾ (الحجرات: ١).

وصحابي آخر يعرض أعماله على رسول الله ﷺ ليطمئن إلى سيره

٢٦٨٤/١٢

فيقول: يا رسول الله أرأيت إن صليت المكتوبة، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أأدخل الجنة؟ فيقول الرسول ﷺ: «نعم» فيقول: والله لا أزيد على ذلك شيئاً...

ولا بأس هنا أن نذكر بحادثة عمر رضي الله عنه، مع حذيفة بن اليمان، أمين سر رسول الله ﷺ، الذي ائتمنه على أسماء المنافقين، فجاء عمر يطلب إليه معرفة ذلك، فقال حذيفة: دونها قطع السّالفة. فاكتفى عمر، بأن سأله هل ورد اسمه بين أسمائهم؟ إنه الخوف من الله، ورجاء رضاه.

ولعل زيادة الحساسية الإيمانية هذه، دفعت ببعض الشباب المتحمسين، إلى التفكير بتجاوز الرسول ﷺ - المثل الأعلى - في عباداتهم وتطلعاتهم الإيمانية، لأن الرسول ﷺ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلما سألوا عن عبادته كأنهم تقالّوها، فقال أحدهم: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الثاني: أنا أقوم ولا أنام. وقال الثالث: أنا لا أتزوج النساء. إلاّ أن الرسول ﷺ لم يرض بذلك مسايرة لرغبتهم، وإنما أعادهم إلى التوازن والاعتدال، واعتبر ذلك خروجاً عن الإسلام، ولو كان رغبة بنيّة صادقة، فقال: «من رغب عن سنتي فليس مني» (متفق عليه) وما هذا في حقيقته إلاّ وسيلة إيضاح خالدة، مجردة عن حدود الزمان والمكان، تبصرنا بالطريق...

وإذا كان شهر ربيع الأول، فرصة ننظر من خلالها مواطن أقدامنا، نستعيد إسلامنا أو نعود إليه، كما أنزله الله تعالى، وبينه الرسول ﷺ، فهنا نعرض لقضية نعتقد أنها من الأهمية بمكان:

إن معظم العاملين للإسلام، وعلى مختلف الأصعدة تقريباً، قضوا عمرهم، وهم يلقون بالتبعة على الآخرين، ويعزون كل مشاكلهم

وارتكاساتهم، وكل نكباتهم ونكساتهم، إلى جهة خارجة عنهم، سو
أكان ذلك استعماراً، أم صليبية متعصبة، أم صهيونية حاقدة، ونحن هـ
لا نريد أن نقلل من قيمة ذلك، ولا نهون من خطورته، وشراسته، في
حرب الإسلام والمسلمين، لكن الأمر الذي نريد أن يكون واضحاً: أز
ذلك هو الوضع الطبيعي بالنسبة للعدو، ألم يقل الله تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ (البقرة: ٢١٧) ويقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠)... وكان المفروض أن نتبصر عدونا، ونأخذ حذرنا، ندرس وسائله في حربنا، لنعد له ما نستطيع من قوة، ذلك أن دراسة العدو وخططه ليست للمعرفة الباردة السلبية، التي تصلح مادة اللسان والقلم، بقدر ما هي ضرورية لتأخذ بالاعتبار، أثناء وضع خطة المواجهة، أو استراتيجية المواجهة، إن صح التعبير، أما الدراسة النظرية، التي لا تنعكس بشكل إيجابي، على وسائلنا وفاعليتنا، فلا تورث إلاَّ مزيداً من الإحباط، والحسرة، والخسائر المستمرة، ذلك أن الكثير منا يحاول مواجهة العدو، دون وضوح رؤية، ودون إعداد سابق لوسائل مكافئة، والذي نخشاه هنا، أن يكون الإلقاء بالتبعة على العدو الخارجي، بمخططاته، وكيده، وشراسته، نوعاً من الهروب، عن مواجهة المشكلة، ولوناً من الدفاع عن النفس، في تحمل المسؤولية، ذلك أن الإنسان منا اليوم يدع ما يملكه من وسائل وإمكانيات متعبد باستعمالها، ويطلب إليه دائماً تطويرها، ومعاودة اختبارها، وعند التأكد من عدم جدواها استبدالها، والعدول عن الطريق المسدود، إنه يدع ما يملكه من إمكانيات، ووسائل، يتطلع إلى التحكم بوسائل العدو التي لا يملكها... كل ذلك حتى لا يعترف بالخطأ، ولا تخدش العصمة التي أحاط بها نفسه.

كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا استبطأوا النصر، عادوا لاختبار

وسائلهم، وفحص سلوكهم، واستدراك تقصيرهم، ومناصحة أولي الأمر منهم، والتفتيش عما قصروا به في جنب الله، حتى حرموا من نصره، وكانوا لا يلقون بالتبعة على وسائل العدو، لأنها ليست ملكاً لهم، إنما يتحركون فيما يملكون، على مختلف الأصعدة، المادية والمعنوية، فإذا فعلوا صغيرة اعتبروها خرقاً في جبهتهم، موجباً لسخط الله، فأين نحن منهم؟! يفعل بعضنا الكبائر والعياذ بالله، وينتظر نصر الله!

ويحضرنا في هذا المقام، أنموذج من السيرة الكريمة، يمكن أن يكون معلمة كبرى على الطريق.

في غزوة الأحزاب عندما اشتد الضيق بالمسلمين، وبلغت القلوب الحناجر، وكاد الرسول ﷺ يصالح على بعض ثمار المدينة حقناً لدماء المسلمين، جاءه نعيم بن مسعود رضي الله عنه مسلماً وقال: يا رسول الله أسلمت، ولم يعلم أحد بإسلامي، فمرني بما ترىٰ.

وكان جواب الرسول ﷺ، حيث تكالبت على المسلمين قوى الشر من كل جانب:

«إنما أنت فينا رجل واحد، «وإن الحرب خدعة، (متفق عليه) فخذل عنّا ما استطعت».

وتصرف نعيم من خلال وسائله المتاحة، وأحسن استخدامها، وكان ما كان، مما هو معروف في مظانّه من كتب السيرة، من نصر الله تعالى للمسلمين، بحسب الأسباب والمسببات، أليس هذا الدرس جديراً أن يقرأ في كل يوم، ذلك لأن عطاءه خالد مستمر كل يوم، حتى يرث الله الأرض ومن عليها؟.

وبعد... فقد يكون من المؤسف حقاً، ونحن نُعاني التخلف، وشيوع التقليد، أن يصبح شهر ربيع الأول، مطلع النور، موسماً للاحتفالات، والرسوم والأشكال، وإشاعة البدع والخرافات، وإخراج

الرسول ﷺ عن بشريته، والإساءة إليه، على طريقة العوام، أو مساير العوام؟ وأن يقتصر دورنا على التوقف عند عتبة الإحساس بالمناسبة دون القدرة على تجاوز ذلك إلى إدراك المعاني الكبيرة التي جاء به صاحب المناسبة... والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *

٢٦٨٨/١٢

فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه[1]

لا شك بأن دراسة السيرة، تغني تصور المسلم بالصور التطبيقية، والدروس العملية لمبادىء هذا الدين، وقد نكون الآن أكثر احتياجاً من أي وقت مضى، لاستيعاب أكبر، لدروس السيرة النبوية، وتبين أدق، لكيفية الاستفادة منها، ومدىٰ هذه الاستفادة ومساحتها، وخاصة من ذلك الأحداث الكبيرة، التي كانت وراء المنعطفات الكبرىٰ، في تاريخ المسلمين، بل في تاريخ البشرية جمعاء، وندرك المقدمات الصحيحة، والشروط الضرورية، التي مهدت للوصول إلى المنعطف التاريخي الكبير. . . وحصول هذا المنعطف في حياة الأمة، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون وليد طفرة، أو ثمرة أمنية حالمة، أو دفقة حماس، أو موقف انفعال، أو قول ارتجال، أو قفزة مصادفة من فوق السنن، التي تحكم الحياة والأحياء، إنما هو نتيجة مقدمات محكمة، وسنن متبعة، ورؤية دقيقة لطبيعة الطريق الموصلة، وامتلاك الزاد والراحلة التي تقتضيها المرحلة، إلى جانب التقوىٰ، تلك الملكة التي تسهم الإسهام كله في تحقيق الفرقان، الذي يمثل الروح الحركية المبصرة في حياة المسلم. . . قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ (الطلاق: ٢).

نقول: لا بد من استيعاب أكبر، لدروس السيرة النبوية، وتبين

(١) مجلة الأمة، العدد ٢٧، ربيع الأول ١٤٠٣ هـ.

أوضح، لكيفية الاستفادة منها، ذلك أن بعضاً من مسلمي اليوم، بد
يتعامل مع الآيات القرآنية، بعيداً عن الاهتداء بنور النبوة، وبيان النبوة،
وتعامل النبوة، ويظن أن اختصار الطريق، يقتضي القفز من فوق السير
والسنة النبوية، والسنن الطبيعية، فيذهب في تفسير آيات القرآن الكريم
كل مذهب... ويرىٰ فيها كل رأي!!

أما بعضهم الآخر، وهو الأكثر خطورة، أو الذين يمثلون الوجه الآخر للمغالطة الفكرية، أولئك الذين يقرأون السيرة النبوية، دون وعي واستيعاب للدروس، والشروط، والظروف، ويبدأون بعد ذلك بعملية تمزيق للرؤية الإسلامية المتكاملة، وتفصيل السيرة النبوية على مواقع حياتهم، وإسقاطها على أنماط سلوكهم، بنوع من الجرأة والتطاول، ينبو عنه حتى الذوق العام لهذا الدين...

فبعضهم يقرأ واقع الحياة اليوم، أو بعض مواقع العمل الإسلامي، ويقوم بعملية مقايسة ساذجة، فيقرر: أننا ما زلنا في مرحلة العهد المكي، ومدة هذا العهد تقتضي ثلاثة عشر عاماً، لا بد من انقضائها، وانتظارها، قبل الوصول إلى مرحلة تشكيل الدولة..! بهذه السذاجة، وهذه السهولة نقدم على اغتيال الرؤية القرآنية المتكاملة، وتمزيقها إلى أبعاض، وتفاريق، بعد أن أكملها الله تعالى بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣). ونخشىٰ أن تكون حالة الخزي، التي يعاني منها المسلمون اليوم هي نتيجة لهذا التبعيض. وأنهم أصيبوا ببعض علل أهل الكتاب. قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (البقرة: ٨٥)..

وبعد أن استقرت الصورة الإسلامية وأخذت بعدها الكامل، لا يزال بعضنا يصر على الانحسار والقصور في النظر، دون أن يدري أن ترتيب

آيات القرآن الكريم نفسها، لم يكن على أزمنة النزول، وإنما كان توقيفياً على شكل الكمال، الذي وصل إلينا... فكيف نمارس باسم الإسلام، عملية التمزيق هذه، ونلغي من حياة المسلمين، وفهومهم وتراثهم الذي يشكل رصيداً زاخراً، ورؤية خصبة، تغني التصور خلال قرون طويلة، كثيراً من جوانب الصورة؟! الأمر الذي يؤدي طبعاً إلى تعطيل الأحكام الشرعية، ومدلولات الآيات القرآنية..

إنهم يعيشون هذه الرؤية الحسيرة، بعد أن اكتملت الصورة الإسلامية، وتكاملت، بانتظار قيام الدولة... وقد يستغنون بالانتظار ـــ وهم يعيشون واقع المجتمعات، وسلوك أفرادها حيث لا يزال المجتمع جاهلياً، يستبيحون فيه بعض أنماط من السلوك غير الشرعي ـ عن العمل لقيام دولة الإسلام وتقديم النماذج السلوكية لذلك، وتغيب عنهم سيرة الرسول القدوة ﷺ في مكة وصفاته الخلقية، وتعامله مع مجتمعه، فهو الأمين في مجتمعه، وهو المؤتمن على أماناته....

أما بعضهم الآخر، فيقرر أنه يعيش في مرحلة العهد المدني، يقيمون الدولة، وهم بعد أفراد لم يستكملوا شرائط إقامة الأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، وينطلقون من هذا التصور البسيط المحزن، يستعجلون أقضية، ويطبقون أحكاماً، قد يكون الكثير منها منوطاً بالدولة المسلمة، ولا يستقيم تطبيقها، ولا يجوز أن يكون على يد أفراد أو جماعات، وضعوا لأنفسهم عناوين معينة، وحصروا الإسلام بهم دون سائر المسلمين، ويفوتهم أن نصيبهم من خطاب التكليف، يقتصر على العمل للوصول إلى الدولة المسلمة، التي يناط بها تنفيذ الأحكام، لا تنفيذ الأحكام، على أيديهم، وهم أفراد لا يمتلكون سلطة الدولة.

ولعل درس الهجرة، أو حادث الهجرة، الذي نحن بسبيله، يمكن أن يوصف بأنه المنعطف الكبير في تاريخ الدعوة الإسلامية، وعلى الرغم

من هذا الانتصار العظيم، وهذه الإيجابية الفذة، وهذه الفاعلية المؤثرة، يحاول بعض من يعيش في عالم المسلمين اليوم ممن يعانون العطالة، ممارسة أنواع من الهجرة السلبية، وذلك بالانسحاب من المجتمعات، والانغلاق عنها، وتعطيل وسائل الدعوة فيها، والقعود عن دعوة الناس، واستنقاذهم مما هم فيه، من الجهل بالإسلام، الذي يقود للعداوة له والانقضاض عليه، والاكتفاء بالجدل، حول بعض المفهومات، التي تشكلت نتيجة ظروف خاصة، وردود فعل معينة، تحكمت فيها بعض المكونات النفسية والعضوية، فأراد أن يجعل منها قاعدة عامة تحكم المسلمين وتحاكمهم، اكتفى بالجدل حول بعض المفهومات عن العمل على نشر الدعوة الإسلامية، والقيام بعملية البلاغ المبين، التي أمرنا بها ونحن نسير على طريق النبوة.

والذي نريد له أن يكون واضحاً، أن الهجرة حركة إيجابية ضخمة، واستبدال لمواقع الدعوة ووسائل الداعية، وليست فقداناً للتوازن الاجتماعي، وحركة سلبية هروبية انسحابية، تنتهي إلى الانغلاق، وتسكير النوافذ، والابتعاد عن المجتمع، ورميه بالحجارة، وإقامة المعامل لصناعة التهم وإلحاقها بالناس بهذه البساطة، من التكفير، والفسوق، والارتداد، وإعانة الشيطان على الناس، وإحكام عملية الانفصال عن المجتمع، وتكوين أجسام غريبة عنه، بعيدة منه.

الهدف من الهجرة هدف استراتيجي، يعني أول ما يعني: الانتقال من مكان، يبدو أنه مصاب بالعقم، والقحط، إلى مكان، أكثر عطاءاً وخصباً، فالرسول القدوة ﷺ، لم يترفع عن قومه، ولم ينسحب من مهمته، ولم يعتزل الناس، ويتوقف عن الدعوة إلى الله في مكة، قبل الهجرة، وفي المدينة بعدها، حتى ولا في طريقها أيضاً.

لم يستسلم، بحجة أنه بذل جهده مع مشركي مكة، ولم يفلح

معهم، ولم يلق بالتبعة على أي ظرف خارجي، أو أنه استفرغ وسعه، ولكنه لم يدرك النتائج، وإنما كان دائب النظر والتبصر، في محاولة أن يلمح آفاقاً جديدة، للدعوة فيرتادها، ويلجأ إلى وسائل جديدة، في العمل فيختارها، وأساليب جديدة يتعامل معها.. لم يهجر المجتمع، ويهرب منه، ويحكم عليه هكذا، ويستخرج له ورقة الوفاة... ولو كان ذلك منهج الرسل والأنبياء، لما حصلت عملية الإيمان والاتباع، ولما أمر الرسل بالصبر، والبيان، وَوُصف الصابرون منهم بأولي العزم... لو هجر الأنبياء والرسل المجتمعات، وتوقفوا عن عملية البلاغ المبين، لما آمن بهم أحد، ولو سلك دعاة الإسلام الأوائل، مسلك بعض دعاة هذه الأيام، الذين استغلق تفكيرهم على مفهومات معينة لهجر المجتمعات والانفصال عنها، والحكم عليها بأقسىٰ الأحكام، لما سار في طريقهم أحد... أليس وجود من اختاروا السير في طريق الإسلام، والتضحية في سبيله، وهم النخبة التي استجابت لدعوة الله، والتزمت منهجه... أليست هي ثمرة البلاغ، الذي أمرنا به؟ فكيف يصح أن نفتي بهجر المجتمع، والحكم عليه، والابتعاد عنه، ونؤلف الكتب، وننشر الرسائل، ونقاتل دون بعض المفهومات؟!

إن وجودنا، كمسلمين، ضمن هذه المجتمعات، نلتزم الإسلام، وندعو إليه، دليل على فساد هذه الكتب، والمؤلفات، وعدم جدواها... والتزامنا هذا، ما كان إلا نتيجة لجهود دعاة ومربين أنقذونا مما نحن فيه... فكيف يصح للطبيب أن يهجر المرضى، ويبتعد عنهم، ألا يكون بذلك قد افتقد أصل مهمته، وتنكر لطبيعة رسالته؟!

كان الرسول ﷺ وهو وحده محل البيان، للهدف والوسيلة، يواجه أذىٰ الكافرين بالصبر والتحمل، وليس بالحقد والانتقام، قد يكون مقبولاً أن يحمل المجتمع، الذي لم يدرك الإسلام، بعد العداوة للمسلمين ودعوتهم، وأن يصمها بشتى النعوت، ويسيء الظن برجالها من خلال

ظروفه والممارسات، التي توقع عليه، أما أن يحمل الدعاة العداوة للمجتمع والحقد عليه، وهم يسيرون على ميراث محمد ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين، فهنا مكمن الخطر... كان رسول الله ﷺ يأسىٰ على قومه، ويحزَن على ما هم فيه، وحسبنا في ذلك موقفه بعد العودة من الطائف.

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت، وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق، إلا وأنا «بقرن الثعالب»، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة، فنظرت، فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك «ملك الجبال» لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك مما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، أي جبلي مكة، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم، من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»...

إنه يوم أشد من يوم أحد، حيث استشهد سبعون رجلاً من أصحابه، وشج وجهه وكسرت رباعيته ـ ورفعت شعارات الكفر على أرض المعركة، بقول أبي سفيان: «أعل هبل»ـ ومع ذلك إذا انعدمت الاستجابة والقابلية في هذا الجيل، فليكن العمل والأمل في الجيل القادم؛ لم يحكم تصرفاته عليه الصلاة والسلام رد الفعل، ولم يخرجه الموقف عن طريق النبوة، ولم يحمله العجز على الانتقام.

ألا تقتضي ردود الفعل السوية، من بعض العاملين للإسلام اليوم،

وعلى أكثر من مستوى، أن يصوبوا المسار، وأن يعودوا لاختبار تصورهم عن المجتمع، ووسائلهم في التعامل معه؟ فالخطأ ليس عيباً، وإنما الإصرار على الخطأ هو العيب، وليس من الإسلام في شيء.

لا بد من إعادة الاختبار لمواقفنا ووسائلنا معاً، والكشف من جديد عن أمراضنا بعين بصيرة، فالكثير الكثير من علل وأمراض المجتمعات غير الإسلامية من حولنا، تفتك بنا، ونحن نعيش وَهْمَ العافية، وورمها الكاذب؛ لا بد من اختبار طرائق العمل الإسلامي، ونشر الدعوة، وعدم الإصرار على كثير من الوسائل، بعد أن ثبت فشلها، أو عدم جدواها، إن صح التعبير، فالملاحظة والاختبار هما الوسيلة الصحيحة للوصول إلى الحقيقة والكشف عنها، ولا تخرج الهجرة في معناها العام عن الملاحظة والاختبار، الذي يتبعه تحول وانتقال من وسيلة إلى أخرى، ومن موقع إلى آخر...

وقد يكون ذلك مرتقىً صعباً، ومهمة شاقة، ذلك أن هذه الوسائل أو هذه الأخطاء، كرسها زمن ليس بالقليل، حتى كادت تصبح جزءاً عضوياً من أصحابها، وأصبح المتلبسون فيها يتوهمون أن الدفاع عنها دفاع عن الإسلام أو على الأصح دفاع عن أنفسهم وذواتهم، وقد يعينهم على ذلك قوم آخرون، ممن يجب أن يحثى التراب في وجوههم... لكنه دين الله، والحق أحق أن يتبع... فالمسؤولية كبيرة، والمرور في الدنيا وقوف في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (الصافات: ٢٤) فكل العقلاء في الدنيا يفحصون تصوراتهم، ويختبرون وسائلهم بعد كل مرحلة من العمل، يحددون أخطاءهم، ويعدلون طرائقهم، ويطورون وسائلهم، وإن لم يثبت خطؤها بإطلاق، يهجرونها إلى غيرها، للوصول إلى مردود أكبر وحصيلة أكثر... أما وقد تغيرت الظروف، فلا بد من إعادة النظر في تغيير المواقع وتطوير الوسائل، والمشكلة أننا نمارس دائماً عملية الهروب من الأخطاء والمسؤوليات، وذلك بإلقاء التبعة على

الآخرين، أما نحن فدائماً مبرأون من التقصير، مستكملون لكل مستلزمات وشرائط الدعوة والتغيير...

إنها حالة مرضية آن لنا أن نضع لها حداً، وننسجم مع منهج هذا الدين، قال تعالى: ﴿هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ﴾ (آل عمران: ١٦٥) فالمسلم دائماً يملك الحركة الإيجابية والفاعلية المنتجة، حيث لم يقبل الله تعالى العطالة والكلالة بحال، حتى من الذين استسلموا وقالوا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ (النساء: ٩٧) حيث كان الرد عليهم حاسماً جازماً: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء: ٩٧) فالمسلم كالماء إذا حبس في مكان، تفجر في مكان آخر، ليسقي الناس وينبت لهم الزرع والضرع، وكالقمر إذا أفل في مكان ظهر ضوءه في مكان آخر، فهو الإنسان الفاعل الذي يملك استبدال وسيلة بأخرىٰ، وهجر موضع إلى آخر.

إن الإصابة بالعجز والعطالة المزمنة، والسقوط في منطقة اليأس، والإلقاء بالتبعة على الآخرين، وإضاعة الجهد بإيجاد المبررات للخطأ، والعجز بدل التفكير والتبصر بتغيير المواقع وهجر الوسائل غير المجدية، إن الإلقاء بتبعة الفشل على الآخرين، وعدم الجرأة في تحديد الخطأ ومواطن التقصير، والذي يوهما بأننا استطعنا أن نحصل على وثيقة البراءة، من أخطائنا، يوقعنا بقضية أخطر، لكننا لا نتنبه لها في غمرة الحصول على وثيقة البراءة، وهي أقل ما يقال فيها: إننا دون سوية المرحلة وحسن التبصر بالظروف، ودون سوية التعامل معها، أو إن شئت: دون سوية الفهم السوي... وهذه قضية أكبر من الأخطاء بكثير، ولعل ذلك من الأخطاء القاتلة، سواء في ذلك اعترفنا بخطئنا وفشلنا، أم حملنا ذلك لأمر خارج عن أنفسنا!!

إن مسلم اليوم يعيش معاناة المناخ الثقافي غير الإسلامي وضغوطه المختلفة، وبالتالي تنتقل إليه العدوىٰ الاجتماعية وتستوطن الأمراض التي

تسود المجتمعات غير الإسلامية في كثير من التجمعات الإسلامية، التي لا تختلف بواقعها ومقياسها، في كثير من الأحيان عن سائر التجمعات الأخرى، اللهم إلا بالعناوين، ويبدو أن تكريس الأخطاء، مرده بشكل أساس إلى العجز عن إبصار الصواب، إنه التعلق بالأشخاص، والعجز عن الارتباط بالأفكار؛ ولعل ذلك ضربة لازب في المجتمعات المتخلفة، مهما اختلفت فيها العناوين. . .

والأمر الجدير بالتأمل في عالمنا العربي والإسلامي، أن المناخ الثقافي غير الإسلامي، ترك آثاره وخلف بصماته على بعض جوانب العمل الإسلامي أيضاً، وأبرز المخاطر هذه، كما قدمت، عملية الارتباط بالأشخاص، وادعاء العصمة لهم، واستنزاف الطاقة، ليس في العمل على تصويب الأخطاء، وإنما في الاستماتة في تبريرها، وهنا تكمن المعادلة الصعبة، ونعيش نظرية العكس، ونتحرك، ولكن في مكاننا، والرسول ﷺ يقول: «كل ابن آدم خطاء» وكلمة: «كل» هنا من ألفاظ العموم كما هو معروف، ويصر بعضنا على العصمة الكاذبة من الخطأ، والقاعدة تقول: اعرف الحق تعرف أهله؛ فأصل الفقه والرشد: التزام المقاييس، وانضباط المنهج، وحسن التميز. أما الطفولة البشرية المستمرة فتعني: الارتباط بالأشخاص، والعجز عن الارتباط بالأفكار؛ ذلك أن الالتقاء مع الأشخاص ثمرة لالتزام المنهج، وليس الالتزام بالمنهج ثمرة للارتباط بالأشخاص، فالمنهج ما شرعه الله، والقدوة في البيان والتنفيذ ما أتى به رسول الله ﷺ، ولا يتأتىٰ هذا لأحد من بعده. . . على الإطلاق.

وقد يكون من المناسب هنا أن نذكر بأن رسول الله ﷺ، وهو المسدد بالوحي، والمؤيد به، كانت بعض جوانب العصمة المطلقة بالنسبة له محل اجتهاد ونظر من العلماء، ابتداء من عهد الصحابة رضوان الله عليهم، حيث يرىٰ بعضهم أن العصمة إنما تكون من الخطأ، والنسيان في تبليغ الشريعة، وكل ما يطلب لذلك، كالأمراض المنفرة

وغيرها من الأمور المعروفة في مظانها من كتب السيرة والأصول؛ فالعصمة إنما تكون من كل ما يتعارض مع عملية البلاغ التي نيطت به عليه الصلاة والسلام، أما في أمور الدنيا التي تخضع لسنن وقوانين وتجربة واختبار واجتهاد فيها، فهو بشر، وحسبنا في ذلك قول الرسول ﷺ، في حادثة تأبير النخل: «أنتم أعلم بإمر دنياكم» (رواه مسلم) ونلمح لهذا أكثر من صورة في حياة الرسول ﷺ: أمنزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ وكان جواب الرسول ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» فطلب الصحابي في معركة بدر التحول إلى المكان الآخر، لأنه أكثر جدوى من الناحية العسكرية...

وفي غزوة الأحزاب حيث اشتد الحصار واشتد، حتى فكر الرسول ﷺ وارتأىٰ أن يصالح غطفان على بعض ثمار المدينة حقناً لدماء المسلمين وتخفيفاً لوطأة الحصار عنهم، وباشر في كتابة العهد، وعرض ذلك على أصحابه، فكان ردهم: شيء أمرك الله به فنفعله، أم رأي ارتأيته لنا؟ فقال: «بل هو رأي» فقالوا: فما لهم عندنا إلا السيف... يا رسول الله، والله إن كانوا ليأكلون العلهز (وبر يخلط بدماء الإبل ثم يشوى بالنار ويأكلونه) في الجاهلية من الجهد، ما طمعوا بهذا منّا قط، أن يأخذوا ثمرة إلا بشراء أو قرىً، فحين أتانا الله بك، وأكرمنا بك، وهدانا بك، نعطي الدنية، لا نعطيهم أبداً إلا السيف... فقال ﷺ: «اشق الكتاب».

وبعد: فهل نستطيع أن نؤكد مرة أخرىٰ بأن الهجرة، هي حركة التاريخ الكبيرة، وهي خطوة متقدمة على طريق الحركة والدعوة، وهي ارتفاع على الواقع، الذي أخلد إليه الناس واستسلموا له، ومواجهة مبصرة للتعامل مع هذا الواقع، وتدريب للمسلم، على أن آصرة العقيدة هي الرابطة التي تشد أخوة المسلمين، وأن القعود عن الهجرة بمعناها

الإيجابي، والقبول بالواقع بحجة الاستضعاف مدعاة لسخط الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (التوبة: ٢٤) والمعروف أن سبب نزول هذه الآيات بعض الذين شدتهم الروابط الأرضية واستسلموا لها ولم يهاجروا إلى المدينة حيث القاعدة الإسلامية، فالهجرة جهاد، وأي جهاد أكبر من التفلت من أثقال وروابط الأرض وترك المألوف والمعروف، والنفرة في سبيل الله؟

ومن هنا نتبين أيضاً، لماذا كان السلف رضوان الله عليهم، وتابعوهم يستحبون تقديم حديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه...» (متفق عليه) دروسهم ومؤلفاتهم، ذلك أنه لا بد من استضاءة التصور عن شرعية العمل، وعزم القلب بعد اختبار صحة العمل، ومدى مطابقته لأمر الله شكلاً ومضموناً، فإذا تحصل ذلك كانت الحركة الهادفة المبصرة، والتطبيق المشروع الذي يسدده الإخلاص، وتميزه التقوىٰ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله... فهجرته إلى الله ورسوله... ولا يغني في ذلك الشكل أو القدرة على التشكل أمام الناس، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها إلى فهجرته ما هاجر إليه، إنه انسلك في ركب المهاجرين، لكنه لم يختلف عن غيره من المسافرين...

إنها الهجرة إلى الله ورسوله بكل أبعادها، وكل معانيها الإيجابية، كانت وسيلة الإيضاح والأنموذج المتفرد لحديث رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات».

وإنه المهاجر القدوة الذي لم يستسلم لليأس، ولم يعان من عقد الحقد والانتقام، إنما هو الرحمة المهداة للبشرية... ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

إنه ينتقل من أرض عقيم إلى أخرىٰ، ويستبدل وسيلة توقفت جدواها بأخرى، وإذا أجدب جيل، فيرجو أن يخرج الله من أصلابهم، من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

٢٧٠٠/١٢

إن كان قال فقد صدق[1]

لا بد لنا بين الحين والآخر، من العودة والعيش في ظلال السيرة النبوية، لأنها تمثل الصورة العملية، لمبادىء الإسلام، والتربيةِ الميدانية، لصياغة السلوك الإسلامي الرشيد، إنها وسيلة الإيضاح، التي لا بد من الاهتداء بها، لتأخذ النصوص مدلولاتها الحقيقية، ويأخذ التصور مساره الصحيح، ويضبط ما يمكن أن يكون من الجنوح، والخروج والتمحل، لأن المشكلة الآن قد تكون إلى حدٍّ بعيد، في محاولة الانتقاء من النصوص، والفتاوى، ما يبرِّر، السلوك ويسوغه، لا ما يُنشىء السلوك الإسلامي، ويصوِّبه ويهديه سبيل الرشاد، من هنا كان لا بدَّ بين فترة وأخرى، من العودة إلى السيرة، لتحصيل هذه القبسات لإيضاح الرؤية، وفحص التجربة، واختبار المنطلق، وتسديد السير، وبيان كيفية التعامل مع النصوص، ومعرفة أسباب نزولها، وحسن الاستجابةَ لخطاب التكليف، وترجمة المبادىء إلى حركة سلوكية، فقد تستغرق العقل المعارف الباردة. . . وقد يجنح بالتأملات الحالمة، وينغلق على وسيلة، ويجمد على حالة.

والذي نريد أن نَعْرِضِ له من السيرة هنا، ونحن في شهر رجب الحرام، حادثة الإسراء حيث يرى بعض العلماء، أنها كانت في هذا

---

(١) مجلة الأمة، العدد ١٩، رجب ١٤٠٢ هـ.

الشهر الكريم، كانت بعد عودة الرسول ﷺ من رحلته الشاقة، إلى الطائف، وقد أصابه ما أصابه، حيث أغرى به أهل الطائف سفهاءهم وعبيدهم، يسبُّونه ويرمون عراقيبه بالحجارة، قعدوا له صفَّين على طريقه، فلما مرَّ بين صفيهم جعل لا يرفع رجليه، ولا يضعهما، إلاَّ رضخوهما بالحجارة، حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وكان إذا آلمته الحجارة، قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، ولم يمكنوه من القعود على الأرض ليخفّ تعبه، وليتمكنوا من إدامة رميه بالحجارة، فإذا مشى رجموه، وهم يضحكون، وكان ذلك أشد ما لقيه الرسول ﷺ فيما ترويه السيدة عائشة رضي الله عنها.

ولسنا الآن بسبيل التوقف عند هذه الحادثة، للتدبر والتأمل في نتائج هذه الشدة الشديدة، وموقف الرسول الكريم، وإنما الذي نريد بيانه، أنها الصورة التي كانت مقدمة لحادثة الإسراء وإيمان الجن، كما هو معروف في فطانه، من كتب السيرة.

كما أننا لا نريد التوقف طويلاً، عند كيفية الإسراء، وهل كان الإسراء بالروح والبدن، أم كان بالروح فقط، ذلك أن الأمر الذي يكاد ينعقد عليه إجماع المسلمين، أن الإسراء كان بالجسم والروح، وللقضية علاقة بالسنة الخارقة ـ المعجزة الربانية، وهي: الأمر الخارق للعادة والسنن الجارية ـ فلا بد من تصحيح المقدمات لتصح النتائج، والله تعالى يقول: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ (الإسراء: ١) وكلمة العبد في معهود العرب للخطاب، تطلق على الإنسان بجسمه وروحه، ولا تقتصر على الروح، ولو كانت القضية في الرؤيا، لما كان لها نصيب من الإعجاز، ولما وقع هذا الاستغراب.

وخبر القضية كما ورد في كتب السيرة المعتمدة: أن الرسول ﷺ

أُسْرِيَ به من المسجد الحرام في مكة، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل، وموسى، وعيسى، في نفر من الأنبياء، قد جُمِعُوا له فصلى بهم... ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة، فلما أصبح غدا على قريش، فأخبرهم الخبر، فقال أكثر النَّاس: «هذا والله الأمر البيّن (العجيب المنكر)، والله إن العير لتُطْرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟!.

قال:

فارتد كثير ممن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له: «هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلى فيه، ورجع إلى مكة»، فقال لهم أبو بكر: إنكم تكْذِبون عليه، فقالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجد، يحدِّث به النَّاس، فقال أبو بكر: «لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؛ فوالله إنه ليخبرني، أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض، في ساعة من ليل أو نهار، فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه»، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال يا نبي الله: أحدَّثت هؤلاء القوم، أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة. قال: نعم... قال: صدقت أشهد أنك رسول الله، فقال الرسول لأبي بكر، وأنت يا أبا بكر... الصدِّيق، فيومئذ سمَّاه الصدِّيق.

وفي رواية أخرى قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، بمجرد أن نقل إليه خبر الإسراء: إن كان قال فقد صدق...

وليست حادثة الإسراء خاضعة للسنة الجارية، إذ يستحيل عقلاً وواقعاً من خلال السنة الجارية، أن تتحقق هذه النقلة، ذات البعد الزماني والمكاني، لكنها إرادة الله في سنته الخارقة، وأن يكون الإسراء

والمعراج بعد العودة من الطائف، وبعد أن واجه النبي الكريم ﷺ ما واجه من المكاره، بالعبودية والرضا، فأرض الدعوة، ليست مكة، أو الحبشة، أو الطائف فقط، وإنما مجالها أرض الله الواسعة... وسماؤه المرتفعة، والمؤمنون ليسوا من الإنس فقط، وإنما من الإنس والجن أيضاً.

والقضية الجديرة بالتأمل في حادثة الإسراء: وضوح الرؤية الإسلامية، منذ الأيام الأولى للدعوة، وحسن التمييز بين أحكام العقل ـ من جهة ـ وأحكام الوحي ـ من جهة أخرى ـ وكيف أن المقاييس التي يمكن أن نختبر بها أحكام العقل، لنتحقق من صحتها وسلامتها، وذلك بفحص المقدمات وإخضاعها للمسلمات العقلية، والقواعد المنطقية، لا يمكن بحال من الأحوال أن تطبق على أحكام الوحي ـ ومن هنا وقع الالتباس على المشركين، وبعض من ارتد من المسلمين ـ وإن مصادر المعرفة بالنسبة للمسلم، قد تكون عن طريق الحواس، لما يقع ضمن مقدورها في عالم الشهادة، فالحواس هي النوافذ التي يطل منها العقل على العالم الخارجي ويحصل على المعارف والخبرات، ويتحقق له العلم، ومسؤولية الإنسان عنها معروفة وهي مسؤولية مزدوجة... مسؤول عن تعطيلها، لأنه تميز عن المخلوقات الأخرى بها، ومسؤول أيضاً عن عدم الالتزام بعطائها حال إعمالها... قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٦).

لكن مصدر المعرفة بالنسبة للمسلم لا يقتصر على هذا الطريق... طريق الحواس، وإنما للمعرفة طريق آخر، هو طريق الوحي، بعطائه وشروطه، وضوابطه المختلفة تماماً عن شروط المعارف العقلية وضوابطها وهذا لا يعني بحال إلغاء العقل، في مواجهة الوحي، أو تعطيل العقل تجاه أحكام الوحي، وإنما تحقيق التوازي والانسجام،

وتجنب الثنائية والتنافر والاصطدام، ولا يعني هذا أبداً إلغاء العقل في قضايا الدين والشريعة، على الطريقة التي صنعها رجال الكنيسة: «أطفىء سراج عقلك واتبعني، ومن تفلسف فقد تزندق»، لممارسة لون من الإرهاب الديني والفكري.

وإنما هو تنظيم التفكير، وانتظامه، ووزن الأمور بموازينها، ووضع القضايا في نصابها... فأبو بكر رضي الله عنه، الذي تربى في مدرسة النبوة، لم يقع في هذا التخليط، ويرتد مع من ارتد، ولم يلغ دور العقل، بل استخدمه أبلغ ما يكون الاستخدام.

فالعقل عنده طريق الوحي، ولا بد من إعمال العقل، ليتحقق من أن الرسول ﷺ قال. توقف أبو بكر ابتداءً، فلم يصدق ولم يكذب، لكنه سلّم بمقدمة عقلية، «إن كان قال» لا بد أن يثبت لديه بطرق الإثبات العقلية الحسية، أن الرسول ﷺ قال، فإن ثبت لديه أنه قال... فالعقل يقضي بالصدق، إذ كيف لا يصدق العقل ذلك، وهو يأتمنه على خبر السماء؟! وهو أكبر من ذلك بكثير، لقد أجرى أبو بكر رضي الله عنه، المقايسة العقلية، ووظف العقل، إلى أبعد مدى، لكنه لم يسلم بالمقدمة: «إن كان قال» ويتنكر للنتيجة، وإنما الذي يسلم بالمقدمة عقلاً، وبعد التأكد من صحتها وسندها، يلزم نفسه بالنتيجة: «فقد صدق».

وهذه قضية على غاية من الأهمية، وهي من أولى المسلمات، على طريق الإسلام، وقد فهمها الصحابة جيداً، يلمح الإنسان ذلك بوضوح في حوادث السيرة الكثيرة... ففي معركة بدر وبعد أن اختار الرسول ﷺ منزلاً معيناً للجيش، يقوم أحد الصحابة ويسأل: أمنزل أنزلكه الله (أهو حكم الوحي) أم هو الحرب والكيد والخديعة؟ (نظرة العقل والاجتهاد)، فيقول الرسول ﷺ: «بل هو الحرب والكيد والخديعة»، وبذلك يكون مجال العقل والنظر ـ فيطلب الصحابي الجليل التحول عن هذا الموقع، لما يرى، ويجتهد من فائدة هذا التحول!!

وفي معركة الخندق، يسأل الصحابيان سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة الرسول ﷺ فيقولان: هذا شيء أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به (وحي) ؟أم هو شيء تصنعه لنا: (اجتهاد ونظر)؟ فإن كان الوحي، وكان أمر الله، فليس أمام المسلم، إلاّ التسليم، لأنه محض حق ومحض مصلحة لا يطرأ إليه الشك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦) أما إن كان اجتهاداً، ونظراً، وحكم عقل، فلا بد من فحصه واختباره وتطبيق المقاييس العقلية عليه.

إن تنظيم هذه القضية وانتظامها في الفكر الإسلامي الحديث، على غاية من الأهمية، فكثيراً ما يقع التخليط، وتضطرب الموازين، وتحصل البلبلة والفوضى، وينعدم التمييز بين مقاييس العقل، وضوابط الوحي، فيحكم نتاج العقل بعصمة الوحي، أو يُخضع عطاء الوحي لمقاييس العقل وما يجري عليه من الخطأ والصواب.

ففي مجال التراث مثلاً، نرى كثيراً من الباحثين، يقع في عملية التخليط هذه، أثناء البحث في مناهج نقد التراث، فَيُخْضِع القرآن الذي أوحىٰ الله به، وورد بالتواتر، الذي يفيد علم اليقين، والسنة الصحيحة، لمناهج نقد التراث، ويحكم عليها بأنها من التراث، بالمفهوم الضيق، ويُحكِّم هذه المناهج البشرية للنقد، في عطاء الوحي... وعلى الطرف المقابل، نرى كثيراً ممن عطلوا عقولهم نهائياً، وأعطوا القدسية لفهوم البشر، وادَّعوا العصمة لأقوال الفقهاء، واعتبروها محض صواب كأحكام الوحي، والاكتفاء بها عن الكتاب والسنَّة، مع أنها اجتهادات بشرية، تخطىء وتصيب، ولا تخرج عن كونها وسائل، تعين على فهم الكتاب والسنة، والتلقي عنهما. إنها صورة عجيبة للمناهج الخاطئة التي تقود إلى النتائج الخاطئة...

وبعد، فإن المعاني الكبيرة التي تحملها لنا ذكرى الإسراء والمعراج، لا تتسع لها هذه العجالة، وقد لا يقتضيها هذا المجال، ولكن على أية حال، لا بد أن نذكِّر ونحن في هذا الشهر الكريم، بأن الرسول ﷺ صلى بالأنبياء في بيت المقدس، وفي هذا ما فيه، من الدلالة على أن الرسالات السماوية جميعاً، انتهت إلى الإسلام، وأن الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً، وأن بيت المقدس، أولى القبلتين وثالث الحرمين... هو أرض الطهر والأنبياء، وأن الحيدة عن منهج الأنبياء مهَّدت طريق يهود للوصول إليه، وأن خطباء الفتنة، الذين تُقْرَضُ شفاههم بمقاريض من حديد، والظالمين الذين يحملون السياط، ويضربون بها النَّاس، وأن شيوع الزنى والربا، وكل الصور التي رآها الرسول ﷺ تملأ النار في رحلة المعراج، هي المقدمات التي إذا حلَّت بأمة، سلط الله عليها الأعداء في الداخل والخارج.

ونذكر أيضاً بأن صلاح الدين رحمه الله، كان تسلمه القدس في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب، حيث ارتفعت الأصوات بالدعاء، والتهليل، والتكبير والشكر لله.

وأن الكثير من بني جلدتنا، ما يزالون يصرون على السير في الطريق المسدود، بالنسبة لقضية فلسطين، ويصنعون الانتصارات في الفراغ، ويفلسفون الهزائم، ويوبخون أنفسهم بكثرة الكلام والمخالفة بالأعمال، وأن إسرائيل ماضية في خططها، ومخططاتها، وتهويدها لمناهج التعليم، وليست صور المآسي في جنوب لبنان، والضفة الغربية، وقطاع غزة، ومرتفعات الجولان عنَّا ببعيد.

فهل انتقل حائط المبكى إلى الجانب العربي؟!

لقد صاغ بكاء اليهود رؤياهم الدينية، وشحن عواطفهم، ووجه خطواتهم، صوب أرض الميعاد... أمَّا نحن فإننا نمارس البكاء

السياسي، ونأكل بالقضية، ونتآكل أمامها، وقد يكون بكاؤنا إلى حد بعيدٍ دليلاً على موت قضيتنا في نفوسنا، والإعلان عن إسقاطها، وقبرها قبل سقوطها بيد الأعداء... فهلاً لأرض الإسراء من جهاد إسلامي، وشهر رجب إسلامي، وقائد إسلامي... فالسيف أصدق أنباءً من الكتب؟

* * *

هل يدرك المسلمون حقيقة رسالة المسجد[1]؟

قد لا يمكننا الإحاطة في هذه المساحة البسيطة، ببعض الأبعاد الغائبة لرسالة المسجد في الإسلام، والتذكير بها بالشكل المطلوب، والتأكيد على أهمية استردادها، وبيان دورها في إعادة بناء المعاني المفقودة في الأمة المسلمة، بمناسبة انعقاد دورة جديدة للمجلس العالمي للمساجد، كإحدى المؤسسات المتفرعة عن رابطة العالم الإسلامي. لكن هذا لا يمنع من التذكير بدور المسجد، ورسالته في محاولة لتجديد المعاني الموجودة، والتأكيد عليها، واسترداد المعاني المفقودة، التي تغيب اليوم عمداً من أعداء الإسلام، وغفلة من أبناء المسلمين عن مؤسسة الإسلام الأولى، حتى يكاد ينقلب المسجد، في كثير من بلاد العالم الإسلامي، إلى أشكال ونماذج للبناء والزينة، هي أقرب ما تكون للأماكن السياحية، منها إلى تحقيق المعاني العبادية، بالمعنى الشامل، وتحقيق التفاعل الاجتماعي، وتشكيل الثقافة في الحياة الإسلامية، والتحول إلى الشكل والمبنى، عن المضمون والمعنى.

بل لعلنا نقول: ماذا استطاعت أن تفعل المساجد الكثيرة التي انطفأت فاعليتها، وعطلت رسالتها، وألغيت وظيفتها، في مركز الخلافة الإسلامية في استانبول، التي زرع فيها من المساجد الكثير، إلى درجة

(١) الشرق، ١٩٩٢/١/٣١م.

يمكن أن تعتبر معها كلها مسجداً؟ هل استطاعت هذه المساجد بحجارتها، ورخامها، وقبابها، وزينتها، عندما افتقدت روحها، أن تحول دون سقوط الخلافة؟ وأن تغني عنها شيئاً؟ وهل استطاعت قصور الحمراء، ومساجد الأندلس، التي غلبت فيها فنون العمارة، على تأصيل العلوم والثقافة الإسلامية، أن تحول دون سقوط الأندلس؟ وهل أغنى الشكل عن المضمون؟

ولا بد لنا أن نشير ابتداءاً إلى أنه قد يكون من الصعب على أعداء الإسلام، أن يهدموا المساجد ـ وقد يفعلون ذلك عند الضرورة ـ حتى لا يستنفروا المسلمين، ولا يبصروهم بحقيقة الصراع، بل قد لا يكون عندهم مانع، أن تبنى المساجد بكثرة، إذا استطاعوا محاصرتها، وتعطيل رسالتها، وإطفاء فاعليتها، والتغرير ببسطاء المسلمين، والغافلين منهم، عن حقيقة الأمر، وأنهم والحمد لله بخير فهم يصرفون أموالهم على الحجارة والتراب، والطين، ويظنون أنهم يحسنون صنعاً.

ولعل ولع المسلمين الشديد بإقامة المساجد، والتفنن في بنائها المادي، وعدم القدرة على تجديد المعاني الغائبة، يعتبر لوناً من ألوان التخلف والسذاجة الدينية، والعجز الحضاري، حيث لم تكن الحضارة الإسلامية، في يوم من الأيام، حضارة حجارة وتراب، مهما توهم الواهمون، ومهما مارسوا مخادعة السذج والبسطاء من المسلمين. . . فعلى الرغم من أن لهذه الأماكن معناها، وقدسيتها، ودورها، إلا أن الرسول ﷺ قال: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً». (متفق عليه) وعلى الرغم من أن هذا يعني من قريب، أن المسلم يصلي حيثما أدركه الوقت، وهو ليس بحاجة إلى رجل دين، يحقق له الصلة بالله، وإنما يتصل مباشرة بالله، ويقف بين يديه، كما أنه ليس بحاجة إلى مكان له مواصفات معينة لأداء الصلاة ـــ وهذا على الرغم من المعاني الكبيرة، التي يتضمنها ـــ إلا أنه يعني أيضاً أن العمل في كل المجالات، وفق

القيم الإسلامية يعتبر عبادة من العبادات، فالأرض وسائر أنواع النشاطات فيها عبادة، وهي معبد المسلم ومسجده، وأن المسجد، لا يعني، ولن يعني أبداً، الانفصال عن نسق الحياة، وفعالياتها اليومية.

فالمسجد في الإسلام هو المؤسسة الاجتماعية الأولى، التي رافقت البناء الإسلامي التربوي، والتعليمي، والسياسي، والقضائي، والثقافي، والاجتماعي... إلخ، لذلك كان الإنجاز الأول للرسول ﷺ المسجد، لأنه يشكل الإطار، الذي ينطلق منه المجتمع الإسلامي الوليد، والمناخ الثقافي، الذي يتشكل فيه الفرد المسلم، ويعاد فيه بناء نسيج الأمة الاجتماعي، والموقع الإعلامي، الذي تتدفق منه باستمرار معاني الخير، حتى لقد حرص الرسول ﷺ، أن يشارك بنفسه في البناء المادي، وأن يكون القدوة المستمرة، في أداء المعاني، المؤكدة لرسالة المسجد، بأبعادها وشمولها.

فالمسجد الأول الذي بني على التوحيد، هو القبلة، والوجهة، التي يتجه إليها المسلم خمس مرات يومياً، لأنه حقق له النقلة النوعية، من الوثنية إلى التوحيد، والتحرير، ولأن فيه تذاب وتصهر الفوارق، والامتيازات بين الناس، وفيه تتحقق المساواة المعنوية والشكلية، في الحركة، والقانون، والعبادة، والعبودية لله الخالق للناس جميعاً، ولأن منه انطلق استشعار الإنسان بالوقت وقيمته، والزمن وحركته، والأخوة ومدلولها... لقد جعل المسجد الحرام قبلة المسلمين الذين يتجهون إليها خمس مرات، ويفرض عليهم ولو مرة في الحياة، طي مسافة الزمان والمكان عملياً، وليس نفسياً، والحج إلى بيت الله الحرام، حيث يتحرك المسلمون يومياً خمس مرات إلى المساجد المتمحورة، حول المسجد الحرام يبدأون منها نهارهم، وينتهون إليها في سعيهم آخر النهار، لتجديد المعاني التوحيدية التي أعادت للإنسان كرامته، واستردت إنسانيته.

وعلى الرغم من هذه العبادات المستمرة المتكررة، إلى المسجد يومياً، فقد جعل الله ثواباً كبيراً للذي يشد الرحال إلى المساجد الكبرى الثلاثة، التي تمثل المحاور الحضارية والتاريخية في حياة المسلمين، ليقف أمام تلك المعاني الكبيرة، وجهاً لوجه، دون حواجز الزمان والمكان، قال رسول الله ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا. (متفق عليه). فالمسجد الحرام، رمز التحرير والتوحيد، والخطوة الأولى لأبي الأنبياء على طريق توحيد الله وتأسيس الحياة على منهج النبوة المنطلق من المسجد. والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وكان مركز النبوة تاريخياً، والصراع بين الحق متمثلاً في النبوات، والباطل، الذي يتمثل بالطغاة والظالمين، في كل عصر. إنه رمز لوحدة النبوة ووحدة المواجهة، ومركز للصراع الحضاري العالمي الدائم. والمسجد النبوي الذي جاء ثمرة للجهاد والمعاناة، والتي جسدت فيه معاني الرسالة الخاتمة، وكان مركز الحضارة والأخوة والمساواة الإنسانية. هذه المساجد، بكل ما تحمل من المعاني، هي محاور الارتحال، ومواطن المعاني الكبيرة، بالنسبة للمسلم، وما لم يستطع المسلم أن يتمثل المعاني التي ترمز إليها هذه المساجد، ويحاول اختزالها في كل مسجد في العالم الإسلامي، فمعنى ذلك أنه أضاع الوجهة، وافتقد معنى وجوده ووجودها. والمسجد كان ولا يزال ملجأ المسلمين، وملاذهم في حالة الضعف، وحصنهم في مراحل الاستعمار، كما كان محرك جهادهم، ومنطلق كتائبهم، في حالة القوة واسترداد الاستقلال.

ومعركة أعداء الإسلام مع المسجد، معركة شرسة تاريخياً لأنهم يعلمون ماذا يعني المسجد بالنسبة للمسلم، في أوقات السلم والحرب على سواء، وعلى الرغم من كل محاولاتهم لإفساد رسالته، وبناء مساجد

الضرار هنا وهناك، ومحاولة الاعتداء عليه مادياً، بحرقه، أو هدمه، أو تحويله إلى كنائس، أو متاحف، أو حظائر للحيوانات، كما كان الحال في كثير من البلاد التي احتلتها الصليبية والماركسية، أو كان الاعتداء عليه بمحاصرة رسالته، وتحنيط دوره في الحياة، وقصره على العبادة، بمفهومها التقليدي، لأداء الصلاة، تحت الحراسة والرقابة، إلا أن محاولاتهم كلها باءت بالفشل.

وقد يكون من الأمور المحزنة اليوم، أن يدرك أعداء الإسلام، مخاطر المسجد، وتاريخه في العلم، والجهاد، والثقافة، فيكون حصار المسجد، وشل نشاطه ومحاصرته، من أولى مهامهم، أو مهام عملائهم، أو عملاء ثقافتهم، ولا يدرك المسلمون رسالة المسجد، وبعدها في حياة المسلم... لقد انطلقت كتائب الجهاد، ومنازلة الاستعمار، من مساجد العالم الإسلامي، في القديم والحديث، ولا يتسع المجال هنا للتذكير بقادة الجهاد، الذين خرجوا من الأزهر، والأموي والزيتونة، والقرويين والقيروان، كما لا يتسع المجال للحديث عن موقف جحافل الاستعمار وعدوانها المستمر على المساجد وروادها. وحسبنا أن نأتي بمثالين من العصر الحديث.

ولعل المسجد هو الوحيد الذي احتفظ للجزائر بلغتها، وإسلامها، وجهادها، وكان تحويل المسجد في الجزائر العاصمة «مسجد كتشاوة» إلى كنيسة، يمثل قمة التحدي، والاستفزاز الذي بعث الروح من جديد، في جسم الجزائر، فثارت لمواجهة كل عمليات الفرنسة، والإلغاء الثقافي والحضاري. ولعل كتاتيب القرآن، التي لجأت إلى الشعاب والجبال، هي التي أبقت على لغة الجزائر، ولعل الفتوى بتحريم التجنيس التي انطلقت من المساجد، هي التي حالت دون ذوبان الأمة الجزائرية، في المحيط الأوروبي.

لقد كانت رسالة المسجد حية في النفس الجزائرية، على الرغم من كل أنواع المحاصرة التي باءت بالفشل، وكان المسجد رمز التحرير والتحرر كما هو رمز التوحيد والمساواة. فإذا غادرنا الجزائر إلى فلسطين المحتلة، نرى أن المسجد هو الذي احتفظ بالمعاني، التي تميز الشخصية المسلمة، وحال دون تطبيع الهزيمة الثقافي، والاجتماعي، والسياسي، ورأينا أن المسجد هو الذي احتفظ بصورة المحتل، وهو الذي جدد ذاكرة الأمة، ولا يزال، تجاه الاحتلال، ومنه انطلقت ثورات الرفض ولا تزال تخرج من المساجد، وتحتمي بالمساجد، وتلجأ إليها، لأنها تستمد منها كل معاني الصمود والمواجهة.

وإذا رجعنا بالذاكرة إلى المساجد، ومراكز تحفيظ القرآن، في تركيا، أدركنا المعاقل الحقيقية التي احتفظت بالإسلام، ومعانيه، في معظم أنحاء العالم الإسلامي، لذلك نقول: إنه مهما حاول أعداء الإسلام من إلغاء لرسالة المسجد، ومحاصرة لوظيفته، فسوف يخيب مسعاهم ذلك أن المسجد جزء من الكيان الإسلامي، فهو المدرسة، والمعبد، والنادي والمحكمة، ومركز الشورى والثقافة... والخطبة التي تبصر المسلمين، هي جزء من الدين.. والذهاب إلى المسجد عبادة من العبادات، وتحقيق معاني الأخوة فيه، من عطائه وأدائه. وإصابة المسجد اليوم، على يد أعدائه ومحاصرة رسالته، وتخويف الناس، من الذهاب إليه، وإطفاء نوره، بالأفواه الصغيرة، لا يغير من الأمر شيئاً، فهو النور الذي لا يطفأ ولا ينطفىء، بل لعل التحدي الجديد، هو الذي يؤصل رسالة المسجد، ويؤكد عليها ويدفع المسلمين للاستمساك بها، والدفاع عنها، ويبصر المسلمين بالطريق، الذي يجب أن ينطلق من المسجد دائماً، بكل ما تعني رسالة المسجد من إلحاق الرحمة والخير بالعالمين.

٢٧١٤/١٢

خواطر رمضانية



﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]

العبادات بشكل عام، والصوم منها بشكل أخص، هي مواسم للمراجعة، والتجدد، واستعادة الفاعلية، والعودة إلى حالة التوازن، التي تكاد تفتقد في غمرة الحياة، بدوافعها ونوازعها. هي مراكز للتدريب العملي، على المعاني الإسلامية، ضمن مناخ جماعي ملائم، يعين الفرد على التكيف، ويغريه بالاقتداء، والمشاركة في الإنجاز، ولكل عبادة في ذلك وظيفتها، ودورها في بناء الشخصية المسلمة، ولا تغني في ذلك عبادة عن أخرى.

فللصلاة وظيفتها، ودورها في إيقاظ الوازع الداخلي، واستمرار الرقابة اليومية، والمساهمة بالاستقامة، والنهي عن الفحشاء والمنكر.

وللزكاة دورها في معالجة نوازع التملك، وحب الأثرة، ومغالبة الشح، وتطهير النفس من غوائله، وتطهير المال من حق الغير، وتطهير المجتمع من الفقر، وزيادة المال ونمائه، وغالباً ما تعالج الزكاة حالة نفسية ومالية واجتماعية، تتلبس بالإنسان، أو تحاول السيطرة عليه، إذا ما ملك النصاب، لذلك لم تفرض إلا على الأغنياء.

والحج عبادة العمر، ولو لمرة واحدة هي تعني، فيما تعني، إسقاط

(١) الشرق، ٢٣/٢/١٩٩٣م.

حواجز الزمان والمكان، والعودة إلى المنطلق، وأرض النبوة، والحياة في منزل الوحي، والتمحور حول أول بيت، وضع على التوحيد، حيث يحس الإنسان بعمق الجذور التاريخية، والبعد الخالد لحياته ابتداء بأبي الأنبياء، الذي يحاول التمسك بطريقته الحنيفية السمحة، وامتداداً إلى الخلود في الآخرة، وأهم من هذا وذاك: الولادة الجديدة وامتلاك القدرة على تجاوز الماضي، بكل أخطائه وانحرافاته، «فمن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (متفق عليه). إنها الولادة الجديدة، والاستئناف، والتجاوز، والانعتاق في البيت العتيق، من قيود الماضي وأخطائه تلك الأخطاء التي تطارد الإنسان، وتثقل كاهله، وتقض مضجعه.

فلكل عبادة في بناء الإسلام دورها، وأهميتها، ووظيفتها، في بناء الشخصية المسلمة، والاستمرار في استقامتها، وحراستها من غوائل الشيطان، ولو كان الأمر على غير ذلك، لكانت إحدى العبادات كافية ومغنية عن كلها.

فالتقوى أو الوقاية الحضارية والنفسية، والمالية، والاجتماعية، والتاريخية، وجميع أنواع الوقاية، مركوزة في العبادات، التي هي في الحقيقة، وسيلة للارتقاء بالإنسان وحماية إنسانيته، أو استعادتها، وليست قهراً للنفس، ومشقة وعنتاً للجسم.

إنها وسائل لتهذيب الإنسان، وليست أدوات لتعذيبه، وتكليفه بما لا يطيق، فالمشقة تجلب التيسير، وإن مع العسر يسراً، وإذا عزم الأمر، واشتد التكليف، جاءت الرخصة، لذلك لا بد من تصحيح الفهم للعبادة، وتصحيح الوسيلة في الدعوة إليها، وحمل المكلف على إدراك معانيها وأهدافها.

ولا شك أن عبادة الصيام، تتمحض لبناء الوقاية، وتحقيق التقوى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

ولقد عبر الرسول ﷺ عن الصيام بوظيفته فقال: «الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله، فليقل إني صائم» (متفق عليه). والجنة الوقاية. والوقاية هنا ليست فلسفة باردة، ونظرية تقنع العقل، وترضي النفس بعيداً عن السلوك والتدريب، وإنما هي الدرس العملي والتدريب العملي، الذي يمتد بالإنسان شهراً كاملاً، كل عام، يتعود من خلاله الصبر على الحاجات والشهوات، ويمسك من خلاله عن الخلال السيئة، والعادات الشائنة، ويتحلى بحسن المعاملة، والدفع بالتي هي أحسن؛ فإن سابه أحد أو خاصمه، فليقل إني صائم، حتى يتعود ذلك الخلق، ويكتسب تلك المعاني، فتصبح بعد شهر من التدريب، سجية له، وجزءاً من تكوينه.

والمناخ الجماعي للصوم، معين على ذلك «فإذا جاء شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين» (رواه النسائي).

إنها لحظات الانتصار، وميادين الانتصار، على مداخل الشيطان التي تتسلل إلينا من خلال شهوتي البطن والفرج، وتأكيداً على أن عطاء العقيدة، أقوى من ضغط الشهوة، التي أذلت البشرية في تاريخها الطويل، ولا تزال حتى يومنا هذا، واستغلها أعداء الأمة، لتكون وسيلة ضغط وارتهان، حيث يقودنا الأعداء اليوم من بطوننا وفروجنا.

إن عبادة الصوم تحمي الشخصية من الانكسار، أمام شهوات الحياة، والسقوط أمام المغريات، كما أن عبادة الصوم تحفظ التوازن للإنسان، وتشعره بحجمه، وبشريته وحاجته، وتحميه من آفة التأله له، والكبر، والتعالي، على عباد الله، فهو بشر مثلهم، محتاج إلى الطعام

٢٧١٩/١٢

والشراب وسائر الأمور الأخرى، التي لا يحس بها، إذا كان يعيش الوفرة، إنه العبد المحتاج، ولا أدل من الصوم للإنسان على حقيقته البشرية، ولا أدل من الصوم على استشعار الإنسان حاجات الآخرين، لأنه بالصوم يدخل معهم حالة الإحساس الفعلي. فإلى أي مدى نعزم على النقلة، من حال إلى حال، في شهر الصوم، ونؤدي هذه الفريضة، كما أمر الله في الذكر، والشكر، واستحضار المعاني الغائبة، في حياتنا واستعادتها، والتقاط الفرصة، لتصويب مسيرة حياتنا، حتى لا نكون في عداد الصائمين الذين لم يدركوا من معاني الصوم، إلا الامتناع عن الطعام والشراب، الذين قال الرسول ﷺ: «رب قائم حظه من قيامه السهر، ورب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش» (رواه أحمد والحاكم).

ويبقى المعيار الذي نعاير فيه أنفسنا: هل حدث لنا التغيير المطلوب من الصيام، وتحصلنا على الوقاية، وامتلكنا التقوى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢﴾ (الطلاق: ٢).

* * *

وكان أجود ما يكون في رمضان[1]

لعل من أبرز المقاصد، التي تهدف إليها العبادة في الإسلام، تحقيق الوقاية والحماية للشخصية المسلمة، من السقوط والانكسار، والوصول بالمجتمع الإسلامي، ليكون مجتمع المتقين، والتقوى جماع الأمر كله، والتحقق بملكة التقوى، يمنح الإنسان البصيرة النافذة، والقدرة على التمييز، بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال: ٢٩) هذا الفرقان هو الذي يميز الإنسان الرباني، الذي ينظر بنور الله وهدايته.

وقد تكون مشروعية عبادة الصوم، بما يمارس فيها الإنسان من رياضات نفسية، وتدريبات عملية، وما ينمو فيها من أحاسيس تكافلية مع الآخرين، حيث تتغلب دوافع الخير، على نوازع الشر، طيلة شهر كامل من شهور السنة، ليصبح ذلك طبعاً له، وسجية يصدر عنها، لعل مشروعية عبادة الصوم، تتمخض من بين غيرها من أركان البناء الإسلامي، بتحقيق ملكة التقوى، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٣) فليست الغاية من الصوم إعنات النفس، وإرهاق الجسم، بدليل السماح بالفطر للشيخ والمرضع، والمريض والمسافر، وإنما الغاية التحلي

(١) الشرق، ٢٧/٢/١٩٩٣م.

بالتقوى، التي من أهم شروطها الانفطام عن الطعام والشراب، وتصعيد الشهوات، والانعتاق من أسر البطن والفرج، والارتقاء إلى أهداف ومعان، تتناسب مع إنسانية الإنسان، تجعله يستعيد إنسانيته، ويدرك بشريته، ويرتفع إلى أهدافه الكبرى في تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى.

ولقد حدد الرسول ﷺ مردود الصيام ومفهومه ومقصده بقوله: (والصوم جنة) (رواه النسائي). والجنة: الوقاية... والوقاية من السقوط في الآثام، سبيل التقوى.

ولعل أولى ثمرات هذه التقوى، أو الوقاية، هي وقاية النفس من الشح، والبخل، كنوازع بشرية مهلكة، يقول تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ (الحشر: ٩) ووقايتها من الأثرة، والاستغناء بحيازة المال، والتأله به على عباد الله، وممارسة الظلم والطغيان، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ (العلق: ٦).

ولعل فقدان حالة التوازن الاجتماعي، بين الفقر والغنى، والعدل والظلم، وما تفرزه من الصراع والاقتتال، هو الآفة الاجتماعية، التي تجعل الحياة قاسية، والمعيشة ضنكاً.

لذلك نرى أن الصيام وما يمنحه للفرد المسلم من التقوى، يعيد للإنسان حالة التوازن الاجتماعي ويقضي على أسباب الاستبداد السياسي، والصراع والتقاتل، والطغيان الاجتماعي، إنه دواء الكثير من الأدواء النفسية، والمادية والاجتماعية.

فالصائم بما يمتلك من التقوى، ويبصر من الخير والثواب، ينطلق للعطاء غير المحدود، والكرم غير المألوف، حيث ينمو عنده الحس الاجتماعي، ويدرك أهمية وقيمة النعم بشيء من فقدها ولو لساعات بسيطة فيهرع إلى الشكر، ليضمن دوامها واستمرارها، والاستزادة منها، والله سبحانه يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى

لَشَدِيدٌ ۝﴾ (إبراهيم: ٧) والشكر: وضع النعمة حيث أراد المنعم، والمنعم ندب إلى البذل والعطاء مهما كان الأمر بسيطاً حتى ولو كان إفطار صائم، على شربة ماء، أو مذقة لبن، فقد يدرك الإنسان في أيامه العادية، بعض الكفران بالنعمة وعدم الالتزام، بآدابها الاجتماعية، وحدودها الشرعية، فيأتي الصوم كعملية تصحيحية، ترمم النفس مما يمكن أن يكون لحق بها من الإصابات.

ولا شك أن الجود والكرم، يتناسبان زيادة مع ازدياد التقوى، حتى لنكاد نقول: إن التقوى من شروط الكرم والجود ومقدماتهما.

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) فالأكرم هو الأتقى، والأتقى هو الأكرم، والكرم هنا لا تحده حدود، ولا تحكمه ساحة عطاء واحدة.

لذلك فالرسول القدوة عليه الصلاة والسلام، كان أجود الناس وأكرمهم، وكان أجود ما يكون في رمضان، إذ يلقاه جبريل فيدارسه القرآن... فلعل التهيؤ بالصيام والتصويب النفسي والعقلي بالقرآن، واسترجاع معانيه، وأحكامه، يمنحان الفرد آفاقاً من العطاء، لا تحدها حدود بحيث يجود الإنسان، ويجود، لعله بذلك يحسن التأسي بالرسول القدوة ﷺ، الذي كان أجود بالخير من الريح المرسلة، أي المندفعة دون عقبات، أو معوقات. إنها الريح المرسلة المعطاء التي تحمل البشر والخير، بلا عوائق ولا حدود، والتي هي خير مثال لحالات العطاء غير المحدود، الذي يمنحه الصيام للمسلم ليكون شهر رمضان حقيقة، شهر التكامل الاجتماعي، فيحس المسلمون بطعمه، وثمرته، ويعيشون معانيه حقيقة، ويدركون أنه شهر الشبع والعطاء، وليس شهر الجوع والحرمان، ويتحققون بالتأسي والاقتداء برسولهم الذي كان أجود الناس، فكان أجود ما يكون في رمضان، حتى أنه أجود بالخير من الريح المرسلة، فميدان

الخير يتسع، وحواجز الشر تقصر، ويستمر قول الرسول ﷺ، الذي يمثل النداء الرمضاني العظيم طيلة الشهر الكريم..

يا باغي الخير أقبل. ويا باغي الشر أقصر. (رواه الترمذي وابن حبان والحاكم). والحمد لله رب العالمين.



رمضان شهر تلاوة ومدارسة القرآن[1]

كيف لا يكون لرمضان هذا الفضل الكبير، وهذا التميز العظيم، عن سائر الشهور والأيام، وفيه أنزل القرآن، قال تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥) هذا الكتاب الذي انتهت إليه أصول الرسالات السماوية جميعاً، وحكى لنا قصة النبوة كمختبر بشري، وتجاربها في الهداية، على مدى تاريخ البشرية الطويل.

وكأن المؤمن به، الملتزم بتعاليمه وأحكامه، يقف على القمة لتجربة الأنبياء مع أقوامهم، ووسائلهم في هدايتهم، وخصائصهم، كمحل للأسوة والاقتداء، في الصبر والتحمل، والإيثار، والرحمة، والعفو، والإحسان، والاحتساب في سبيل نشر الخير، والفضيلة.

وكأن المؤمن بالقرآن، إلى جانب أنه يتحصل على مواريث النبوات، وينضم إلى قافلة الخير، والاستقامة، فإنه يمتلك أصول الخطاب الإلهي للبشر، ابتداء مما أنزل الله من تعاليم في الصحف الأولى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ (الأعلى: ١٨) وانتهاء بالرسالة الخاتمة التي جاءت مصدقة لما سبقها من الرسالات، ومصوبة لتعاليمها،

---

(١) الشرق، ٤/٣/١٩٩٣م.

بعد أن داخلتها يد التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨).

فبالقرآن ينضم المسلم إلى قافلة الخلود، التي ابتدأت مع بدء الخلق، ويمتد به الخلود ويمتد حتى مرحلة الخلود، المستقر في دار الخلد، الجنة التي وعدها الله المؤمنين، كل هذا كان محله، ومدخله، شهر رمضان.

والحقيقة التي لا بد من الإشارة إليها، في شهر رمضان، الذي بلغ تلك المكانة، بسبب القرآن إلى جانب كل المعاني، التي ينضحها القرآن، أسوة بالرسول عليه الصلاة والسلام الذي تصفه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بقولها: كان خلقه القرآن. إن هذا القرآن هو الخطاب الإلهي الأخير للبشرية، وهو أقدم وثيقة تاريخية دينية وصلت بالتواتر: أي بما يفيد علم اليقين، بسلامة النقل، من جيل إلى جيل، وهذا يعني فيما يعنيه، أن المسلمين، يمتلكون دون غيرهم من العالم، النص الديني السليم، من التحريف، والتبديل، بل يمتلكون المعيار، معيار التصويب والتصحيح، لما داخل النبوات السابقة، من تحريف وتبديل، وامتلاك هذا النص الإلهي السليم يفوق كل الكنوز، والثروات، والطاقات، لأنه يأتي بكل تلك الكنوز والطاقات، ولكنها لا تأتي به.

والمسلمون عندما تمسكوا بالقرآن، كانوا خير أمة أخرجت للناس، وألحقوا الرحمة بالناس، وخرجوا بهم من الظلمات إلى النور: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (إبراهيم: ١) وأصبحوا أمة الحضارة، والعطاء العالمي، وتخلصوا من الفرقة، والشتات بالتناحر والتشاحن، وتحولوا إلى التعاون والوحدة أصبحوا أمة مذكورة تاريخياً، وحضارياً، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (الزخرف: ٤٤).

إن امتلاك المسلمين اليوم للنص الإلهي السليم، يمنحهم القدرة على إنقاذ البشرية، ويمنحهم الإمكان الحضاري، ويجعلهم في محل القيادة للناس، والشهادة عليهم، من موقع الوسطية والاعتدال. يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣): إنهم يمتلكون التاريخ النبوي، ويمتلكون المعيار، ويمتلكون قيم الهداية، يمتلكون الهدى والبينات، يمتلكون الفرقان، الذي يمنحهم البعد التاريخي، والعطاء العالمي، والمدى المستقبلي، لدعوتهم ورسالتهم.

لذلك نرى أن من الأخطاء الفكرية، والدينية، والثقافية، والتاريخية، محاولات اختزال الإسلام في زمن معين، أو جماعة معينة، أو إقليم معين، أو جنس بشري معين، أو صراع مع نظام، أو حاكم، أو واقع ما، كائناً ما كان.

إن الإسلام بما يمتلك من قيم الكتاب الخاتمة، للنبوة الخالدة، على الزمن، أكبر بكثير من الإنسان، والزمان، والمكان، والأشخاص والأحوال، والأحزاب، والجماعات، والحكام، وحتى المحكومين.

إنه النور الذي لا يطفأ، ولا ينطفيء، مهما حاولت الأفواه الصغيرة، أن تقذفه لتطفئه متمثلة صورة النمرود، والمتجددة، في حواره مع سيدنا إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام، عندما قال: أنا أحي وأميت، ذلك أن خلود الآيات على الزمن، يعني خلود المشكلات، وتجدد الجدال والمواجهة، بين النبوة، متمثلة بسيدنا إبراهيم، أبي الأنبياء، والنمرود أو النماريد المستمرة، التي تتوهم أنها تحيى وتميت فلا تلبث أن تموت، ويخلد الإسلام والمسلمين... ولو لم تتكرر أمثال هذه الصور، لتوقف التاريخ البشري، وانتهت رحلة الصراع بين الخير والشر، وألغيت سنن المدافعة، وضرب الحق بالباطل: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ

﴿وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ (الرعد: ١٧) فلولا الضرب، لما ظهر الزبد، ولما تحصحص الحق الذي ينفع الناس.

نعود إلى القول: أي فضل لشهر رمضان، إلى جانب فضائله العظيمة، والكثيرة أكبر من أنه شهر القرآن، ذلك الشهر الذي خصه الله من بين الشهور كلها، بنزول القرآن، كما خصه بتلاوة ومدارسة القرآن؟.

فلقد كان جبريل أمين الوحي، ينزل على الرسول ﷺ في رمضان، فيدارسه القرآن، فالمدارسة والمراجعة، والتجدد، كان محله شهر رمضان، فرمضان مائدة القرآن، بما فيه من إقبال على التلاوة الفردية، والمدارسة الجماعية، والدروس في المساجد، وتلاوات الصلوات الجهرية، وصلاة القيام، تلك التلاوات المتعددة، التي إن أحسنا تدبرها، وحسن التعامل معها، والتلقي لها، فسوف تفعم نفوسنا بالإيمان، وتحقق لنا النقلة الكبيرة، في سلوكنا وواقعنا..

وبذلك يشكل رمضان، من كل عام، مرحلة التصحيح والتصويب، لأحوالنا والارتقاء لمواقعنا ومراتبنا.

روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها» (رواه أحمد وأصحابه) (السنن لابن ماجه) وبعد:

فهل يدرك المسلمون رسالة ومكانة شهر القرآن، يدركون أهمية المدارسة، والتدبر، والتلاوة، يدركون أن القراءة سبيل الرقي، والارتقاء، فيكون رمضان مرحلة التحول الكبير في حياتهم، من الجهل إلى العلم، ومن الأمية إلى القراءة، ومن الظلمات إلى النور؟

وأوسطه مغفرة[1]

من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، إلى جانب نعمه التي لا تحصى، أن فتح لهم باب التوبة، ووعدهم بالمغفرة، ولعل من أول مظاهر الرحمة، وأعظم ثمارها، ما قطعه الله على نفسه، من عهود ومواثيق المغفرة، التي منحها لعباده بقوله: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (الزمر: ٥٣) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ١١٦).

تلك المغفرة التي تمنح الفرد القدرة الهائلة، والحرية والإرادة الكاملة، للفعل والتجديد والتجدد، بعد الإحساس بها والطمأنينة، إلى مواثيق الله وعهوده، ومهما كانت تلك الذنوب التي تطارد الإنسان، وتقض مضجعه، ومهما كان ذلك التاريخ الطويل، من السقوط، والوقوع في الإثم، والقلق على المصير، فإن العزيمة على الرشد والتوبة، كافية لأن تحقق له الولادة الجديدة، وتمكنه من التخلص، والانخلاع، والتجاوز، والإقلاع صوب فعل الخير من جديد، دون أن تطارده ذنوب وآثام ومعاصي الماضي، مهما عظم شأنها، إنه بالتوبة أو بامتلاك القدرة على التوبة، بإمكانه أن يتخلص من حالات اليأس، والقلق، والقنوط، الذي يأكل سعادته، ويشقي حياته.

---

(١) الشرق، ٩/٣/١٩٩٣م.

ولا شك أن للتوبة شروطاً، تنطلق من داخل النفس، وإعادة بنائها بشكل سليم، وذلك بالعزيمة على عدم العودة إلى الفعل السوء، والتصميم على الثبات على فعل الخير، ومن ثم الندم على الماضي، وما تم فعله من السوء فيه والإقلاع عن الذنوب فوراً، والبدء برحلة الخير ومسالكها، من فعل الحسنات، لأن الحسنات يذهبن السيئات.

وكأن التوبة، تلك الرياضة النفسية، التي تعني التغيير النفسي، ، والتحول، وإعادة صياغة الإنسان، هي الباب المفتوح دائماً، الذي يسمح لنا بالدخول إلى ساحة المغفرة، التي تتوافر أسبابها في كل حين، حيث يبسط الله يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل، وفي رمضان بشكل أخص، تفتح الأبواب على مصاريعها، وكأن صوم رمضان مناخ لها، ومعوان عليها، «إذا جاء رمضان، فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين» (رواه النسائي). فإذا أحس الإنسان فعلاً بالنظافة، والتطهر النفسي، واستيقن أنه تخلص من الآثام، وأنه استطاع أن يسقط، ويلغي من تاريخه، النقاط السوداء التي تطارده، وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ـ فمن منا يخطىء ـ أصبح بإمكانه أن يكون مطمئناً إلى مصيره، بعد أن حطم الأغلال والآثار السابقة وانعتق منها: «فمن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» (متفق عليه) «ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» (متفق عليه).

إنها الولادة الجديدة التي تتحقق في رمضان، حيث يتغير في رمضان إلى جانب كل المعاني النفسية الكبيرة، مألوف الإنسان ومعروفه في الطعام، والشراب، والنكاح، والعلاقة مع الناس، وإيقاف الخصومة، والتفحش والسباب، والشتائم، ومقابلة السوء بالإحسان، «فإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل إني صائم» (متفق عليه). الأمر الذي يستدعي

التغيير في سلوكه خلال شهر كامل، حتى يصبح ذلك خلقاً له.

من هنا نجد أن قافلة الخير، تتسع في رمضان، وفعل الخير، يزداد في رمضان، وروح التراحم والتكافل، تسود في رمضان، وكثير من الناس، يعلقون توبتهم على رمضان، ويبدأون مشوار الخير في رمضان، ويقلعون عن مساوئهم في رمضان، وعلى الرغم من أن الكثير ما يعودون بعد رمضان إلى ما نهوا عنه، إلا أن الكثير أيضاً يشكل رمضان بالنسبة لهم محطة التحول، والتزود بطاقات الخير، كما يشكل لهم مرحلة الانعطاف الكبير في حياتهم، صوب الخير، فهو رحمة، ومغفرة، وعتق من النار. قال رسول الله ﷺ: أوله رحمة، ورحمة الله وسعت كل شيء وأوسطه مغفرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٥٣) وآخره عتق من النار»

وأعتقد أننا لو أحسنا التربية والتدريب على معاني الصوم، وعطائه في الرحمة والمغفرة والعتق من النار، لكانت العبادات بشكل عام، والصوم بشكل خاص، علاجاً للمأزومين والقلقين، واليائسين، والقانطين، ليعيشوا من جديد، في ظلال الرحمة التي تمكنهم من البوح بما في داخلهم إلى الله، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يفضح الإنسان ويستره، ومن ثم غسل نفوسهم وتزكيتها، ليتخلصوا من مطاردة الذنوب والآثام. والتوبة والدعاء ليست موقفاً سلبياً لفظياً، يشكل لحظة في حياة الفرد، ثم يعود لما تاب عنه، وإنما هي موقف إيجابي، يعني المراجعة والانعطاف والتغير والتجدد، إنها موقف الرشد، والعزيمة عليه وولوج بابه المفتوح. قال تعالى في أعقاب آيات الصيام، وما تمنحه من التقوى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ (البقرة: ١٨٦).

٢٧٣١/١٢

فليقل إني صائم[1]

العبادة في الإسلام هي التعبير الإيجابي، العملي العضوي، والتدريب المادي عن المعاني التي جاء الإسلام، ليؤكدها ويرسخها في نفوس البشر، ويضمن استمراريتها في الحياة الإنسانية، وهي أشبه ما تكون بمحطات، يتزود منها الإنسان بطاقات تضمن له ديمومة تغلب دوافع الخير التي فطر عليها، على نوازع الشر التي يخشى أن يتزلق فيها، هي غذاء العقيدة، وهي أيضاً وسائل للارتقاء بالإنسان إلى أنموذج الفرد الرباني.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، فليس له منها إلاّ القيام والقعود، والركوع والسجود...

والزكاة طهارة للمجتمع من الفقر، وطهارة للنفس من الشح، وطهارة للمال من حق الآخرين، وطهارة لنفس الفقير من الحقد...

والصيام جُنَّة، أي: وقاية من المعاصي، والأصل في فرضية الصيام، ليكون أداة لاكتساب ملكة التقوى، فهو رياضة روحية، وتجربة خلقية، ووسيلة إلى نيل صفة المتقين، قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع

---

(١) مجلة الأمة، العدد ٢١، رمضان ١٤٠٢ هـ.

قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»، وقال: «من صام رمضان وعرف حدوده، وتحفظ ما ينبغي له أن يتحفظ، كفر ما قبله» وقال: «ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد، أو جهل عليك فقل: إني صائم، إني صائم» وقال: «فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله، فليقل: إني صائم...» (متفق عليه).

فليس هدف الصوم: الكبت والحرمان، وإنما هو وسيلة لغاية نبيلة، إنه التدريب على السيادة والقيادة، قيادة النفس، وضبط الشهوة، وكف أهوائها ونزواتها، وانتصار للإرادة، وانضباط للسلوك، لأننا بالصوم نملك زمام الشهوات، ونملك أنفسنا عند الغضب، إنه الصبر الذي يجر إلى الصبر، والنصر الذي يقود إلى النصر، فلئن كان الصوم، يعلمنا اليوم الصبر على الجوع، والعطش، والجنس، طائعين مختارين، في وقت الأمن والرخاء، فإننا غداً أقدر على الصبر والمصابرة والمرابطة، في البأساء، والضراء، وحين البأس، وتلك عاقبة التقوى، التي أرادها الله عزّ وجل من الصوم.

وليس الصوم في رمضان زهداً في الطعام والشراب، كما هو الحال في بعض الأديان، وليس قبضاً وإمساكاً، بالحفظ والادخار، وإنما هو بسط وسخاء، بالبذل والإيثار، هذا هو الصوم، كما فهمه الرسول القدوة ﷺ، الذي كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حتى إنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة، ولذلك كان من بعض أغراض الصيام: الحس بحاجات الفقراء والمعوزين، لنكون أقدر على استشعارها ومعالجتها، ذلك أن المتخمين والمترفين أبعد ما يكونون عن تمثل هذه الحاجة، والإحساس بها، إنهم ينظرون إلى حاجات الفقير من خلال القصور الفاخرة، والسيارات الفارهة، والحياة الناعمة، لذا يصعب عليهم إدراك حاجته وتمثلها، ومن ثم التكافل معه.

من هنا نعود إلى القول: بأن العبادات، وعلى رأسها الصلاة والصيام، هي وسائل، فلا يجوز بحال من الأحوال، أن تنقلب إلى غايات بحد ذاتها، ومن هنا أيضاً، قال الرسول ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا» (متفق عليه). وقال: «إن الدين يسر، ولا يشاد الدين أحد إلاّ غلبه»(رواه البخاري). وليس المقصود من العبادة تعذيب النفس، إنما المقصود تهذيبها، لذلك أباح الإسلام الفطر للمريض، والمسافر، والشيخ الكبير، والحامل، والمرضع، كما أباح قصر الصلاة وجمعها، فالله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه...

إن شهر رمضان المبارك، هو نفحة الصحراء العربية إلى الدنيا بأسرها، إن الظروف الصحراوية برمضائها، وقساوتها، التي تمرس بها المسلمون من خير القرون، على الظروف الصعبة، كان لا بد لها أن تكون دورة سنوية، تصيب كل الفصول والأعمار، تعم المسلمين في كل مكان، وكل زمان، ورحم الله القائل:

إنَّمَا الإسْلَامُ بِالصَّحْرَا امْتَهَدْ لِيَجِيءَ كُلُّ مُسْلِمٍ أَسَدْ

لذا جعل الله صيام رمضان فرضاً، وقيام ليله تطوعاً، روى سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان، فقال:

«أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعاً، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه، كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزداد رزق المؤمن فيه، من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره، من غير أن ينتقص من أجره شيء، قالوا: يا رسول الله، ليس كلنا يجد ما

يفطر الصائم، فقال رسول الله ﷺ: «يعطي الله هذا الثواب من فطر صائماً على تمرة، أو شربة ماء، أو مذقة لبن، وهو شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، فاستكثروا فيه من أربع خصال، خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غناء لكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم: فشهادة أن لا إله إلا الله. وتستغفرون، وأما الخصلتان اللتان لا غناء لكم عنهما: فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار، ومن سقى صائماً سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة» (رواه ابن خزيمة في صحيحه).

كيف لا يكون هذا القدر لرمضان، وهو الشهر الذي بدأ فيه نزول القرآن، ولا نريد هنا أن نتحدث عن القرآن، حبل الله المتين، الذي ما اعتصمت به الأمة، إلاَّ وكتبت لها النجاة، وما أبعدت عنه وتنكبت له، إلا كانت الهلكة والعياذ بالله، وما تعاني الأمة اليوم، هو نتيجة الهجر والعقوق وعدم الاستمساك به، وأخذه بقوه... فيه ليلة خير من ألف شهر... فيه معركة الفرقان، ولا بد لنا في هذه المناسبة، من أن تكون لنا وقفة، بل وقفات، أمام هذه المعركة التي مضى عليها الآن أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث إنها كانت في السنة الثانية للهجرة، وقد ماتت في التاريخ معارك ومعارك، ولا زالت معركة «بدر» هي المعين الثر، والمنجم الزاخر، الذي يمد المسلمين في كل زمان ومكان بكل المعاني، التي جاءت بها الرسالة الخاتمة...

ولئن كنَّا الآن - بسبب جفوتنا للقرآن - نعاني من العيش في المنخفض الحضاري الذي انتهينا إليه، وكنا عاجزين عن استرجاع شخصيتنا الحضارية، بواقعنا الأليم، وكنا دون سوية خطاب التكليف، ودون سوية الاستفادة من وقائع السيرة، فالذي نريد أن نقوله هنا: إن الحضارة المعطاء لا تتحصل بالأماني، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣) لقد ألغى

القرآن بذلك ساحة الأماني من حياة المسلم، ذلك أن الذي يعيش في المنخفض حضارياً، يكون عاجزاً عن العطاء، للذي يعيش في القمم، والأرض المنخفضة، لا يمكن لها تقديم السقاية للأرض المرتفعة، وهذه سنن الله التي لا تتخلف بالنسبة لأحد...

فالمسلمون في مجتمع المدينة، الذين خاضوا معركة بدر، كانوا يملكون من الخصائص والصفات ما يفتقر إليه العالم بأسره آنذاك، لذلك كان من الطبيعي، أن يكونوا قادرين على العطاء، كانوا في موطن العطاء، وغيرهم في موطن الأخذ، وهذه سنة طبيعية أيضاً...

أما مسلمو اليوم، فقد مضى عليهم حين من الدهر، غفلوا فيه عن هذه السنن، سنن النهوض والارتفاع، وغابت عنهم مواطن الضعف، الذي يسري في كيانهم، فحلت فيهم نتائج ما هم فيه، قدراً لا يغلب، وقضاءاً لا يرد، وإنه لا سبيل إلى نهوضهم، والخلاص مما هم فيه، إلاّ أن يدركوا أن الأمر في هذه الحياة، ليس مصادفة عارضة، وإنما تنتظمه سنن وقواعد ونواميس... من أدركها، وتعامل معها، استطاع أن يسخر بها ما حوله من إمكانات وطاقات، ليكون وراء ذلك ما يرجوه بعد أن يقدم من نفسه، ما يستطيع من التغيير...

والغريب في مسلم اليوم، أنه ينظر إلى نفسه، نظرة العطالة والتواكل، وعدم الفاعلية، وهو الذي يتلو آيات الله، التي لم تتحدث عن السنن، إلاّ في إطار التاريخ، والتغيير الاجتماعي، وحركة الأمم، ومع ذلك يميل إلى فهم موضوع السنن في غير الإطار الاجتماعي والتاريخي، وإنما في إطار الأمور المادية، التي تتعلق بحياته ومعاشه فقط، والتي يجري الحديث عنها من قبيل التعميم والقياس، وحين يتحدث المسلم عن السنن والقوانين، ليتعامل معها، ويسخرها، لا يغيب عنه أن الفاعل الحقيقي في الكون هو الله وحده، لا يشاركه أحد، وأن تعلق قلبه لا

يكون إلاّ بالله الذي يتنزه أن يُحدّ إرادته شيء، إذ لا يمكن أن يخلق الله السنن ويُحكم بها!!

فالحديث عن الأسباب الإيمانية، وأثرها في التغيير، يشكل الضمانة، التي تنقذ المؤمن من السقوط في النظرة المادية البحتة للأمور...

ولا بأس هنا أن نقول: إن علماءنا من السلف الصالح، الذين استفرغوا جهدهم في تعاطي الأسباب، والسنن، لم يروا تعارضاً بين إيجابية السنن، وإرادة الله، فالله سبحانه وتعالى خلق السنن ليحكم الإنسان بها، فهي قدر من أقدار الله.

والأمر الغريب حقاً، أن أصحاب التفسير المادي للتاريخ، الذين جعلوا من نظريتهم البشرية نصاً مقدساً، يدّعون لها العصمة، عن الخطأ، ويعتسفون، ويفسرون بعض الحوادث الاجتماعية، بتفسيرات مضحكة أغلب الأحيان، حيث ثبت فشلها في أكثر البلدان، ومع ذلك يدّعون لتفسيراتهم الحتمية، بينما نرى المسلم منطفىء الفاعلية، عاجزاً عن التعامل مع السنن، التي شرعها الله لنهوض الأمم وارتقائها، وكأنه في موضع الشك منها، تسوده روح التواكل، ويسيطر عليه مناخ الهروب... وانتظار المخلص الذي سيملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جوراً.

التعامل مع السنة الجارية:

نعود بعد هذه المقدمة، التي لا بد منها لنقول: إن الرسول القدوة ﷺ، وصحابته الكرام في معركة بدر، التي تكاد تكون محور حديثنا... تعاملوا مع الأسباب والسنن المادية، التي كانت بمقدورهم، أبلغ ما يكون التعامل، لدرجة قد يعتقد الغافل عن التوازن بين الأسباب الإيمانية والأسباب المادية، أنهم أوكلوا أمر نصرهم إليها، لشدة ما بلغوا من التعامل معها، والالتزام بها.

لقد سبقت معركة الفرقان، مرحلة بناء المسلم في مكة المكرمة، على الظروف القاسية، حتى صلب عوده... لقد تعامل مع المجتمع الوثني في مكة، من خلال الوسائل الممكنة، ولم يتعاون معه ويذوب فيه، ولم يأذن الرسول ﷺ للمسلمين أن يقاتلوا، أو يخوضوا معركة الفرقان قبل أوانها، واستكمال الاستعداد لها... ولما أذن الله بالهجرة إلى المدينة المنورة جاءت فرضية الصيام في شعبان من السنة الثانية للهجرة، وجاء الإذن بالقتال بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (الحج: ٣٩) وكانت معركة الفرقان ثمرة لأول رمضان يصومه المسلمون...

ولسنا الآن بسبيل أن نفصل في أخبار المعركة، فأمرها معروف في كتب السير والمغازي، ولكن نريد أن نلفت النظر، إلى تعامل الرسول القدوة ﷺ، مع هذه السنن الناظمة للحياة، ابتداءً من التوقيت للمعركة، والتفكير بالاستيلاء على قافلة قريش التجارية، وما رافق ذلك، من الشورى في بدء المعركة، للتعرف على وجهات النظر، وصياغة القلوب، باتجاه رأي عام واحد، وهو المستغني عن الشورى بالوحي، وما كان بعد الشورى، من عزم الرسول ﷺ وتوكله، وقوله: «سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم...»؟.

وفي الطريق إلى بدر وقف مع الصديق ـ رضي الله عنه ـ على شيخ من العرب، فسأله عن قريش ومحمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما. قال النبي ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك»، وعلم النبي ﷺ منه، أن عير قريش قريبة من بدر، فقال لشيخ العرب: نحن من ماء، مستخدماً التورية، وفي الطريق أراد الصحابة إعفاء النبي ﷺ من المشي وإيثاره بالركوب، فقال: «لست أقل منكم قوة، ولا أقل منكم طلباً للأجر...».

ومن ثم إرسال دوريات الاستطلاع لأوضاع العدو، والحصول على المعلومات، وما كان من أمر الغلامين القرشيين، اللذين عادت بهما إحدى الدوريتين، وعلم منهما الرسول ﷺ أن قريشاً وراء الكثيب، بالعدوة القصوىٰ. . . وما جاءت به الدورية الثانية، من أن العير تأتي غداً أو بعد غد. . .

وبعد الوصول إلى موقع بدر، وقف الحباب بن المنذر ـ رضي الله عنه ـ ليناقش الرسول ﷺ في الخطة العسكرية بقوله: أمنزل أنزلكه الله. . . أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

قال الحباب: فهذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فنعسكر فيه ثم نغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً، فنملأه ماءاً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. . . .

أما ما بذل الصحابة من جهد، وما قدموا من تضحيات، فلا أدل عليه من قول أحد المشركين، يصف أصحاب رسول الله ﷺ: أما ترونهم جثياً على الركب، يتلمظون تملظ الحيات. . .

ونحن في هذه العجالة، لا نستطيع أن نأتي على ذكر كل الأسباب، والسنن المادية، التي تعامل معها الرسول ﷺ، وإنما هي نوافذ، ليطل منها مسلم اليوم فيرىٰ الفاعلية، ويرى الإيجابية علّه يضع حداً لعطالته. . .

أما الارتباط بالأمور الإيمانية، التي أهلتهم لنصر الله، بعد استكمال الشروط المادية للنصر، وهي أس الأمر كله، فالحديث عنها يطول ويطول، وحسبنا من ذلك وقفة مع دعاء الرسول ﷺ بقوله:

«اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد بعدها في الأرض» وجعل

يهتف بربه عز وجل ويقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك»، ويرفع يديه إلى السماء، حتى سقط الرداء عن منكبيه، وجعل أبو بكر رضي الله عنه يلتزمه من ورائه، ويسوي عليه رداءه، ويقول مشفقاً: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك... وقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك، وتكذب رسولك... اللهم فنصرك الذي وعدتني... الهم أحنهم الغداة (أهلكهم)...»... والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلاّ دخل الجنة...».

أما مجتمع المشركين، فكان عنوانه، قولتهم: سنرد ماء بدر، نشرب الخمور، ونذبح الجزور، وتضرب علينا القيان... ومن ثم كان ما كان من المقدمات لنصر الله المؤمنين، من الربط على القلوب، ونزول المطر، وتغشية النعاس، وإذهاب رجس الشيطان، وتثبيت الأقدام، والإمداد بالملائكة، وما إلى ذلك من عوامل النصر المعنوية... وجاء نصر الله، وتراءى لبعض المسلمين، أن النصر كان بفعلهم، وبما قدموا من أسباب، فنزل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧) فالأسباب خلق من خلق الله، فلا نعبد الأسباب، وإنما نتجاوز ذلك إلى مسبب الأسباب.

لذلك أصبحت هذه المعاني ماثلة في أذهان الجيل الأول حتى إنهم إذا استبطؤوا النصر... ذهبوا يفتشون عما اقترفوه في حق الإخلاص لله عز وجل، وصدق الاتباع لرسوله ﷺ.

فهذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين أبطأ فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص يقول: أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم، وأحببتم الدنيا، ما

أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى، لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم...

كانوا يدركون معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٢٦) ولا يتعارض ذلك مع استفراغ الجهد... وإحكام الخطة، ووضع الاستراتيجية الدقيقة، التي تأخذ بالاعتبار كل الاحتمالات لأن إراقة الدم المسلم، ليس بهذه السهولة، التي يتوهمها بعضهم.

وبعد، فهذه ملامح عامة عن معركة الفرقان، في شهر الفرقان، وقد مضى عليها أربعة عشر قرناً كما أسلفنا... والمسلمون ما زال حظهم من المعارك الإسلامية، قراءة أخبارها والاعتزاز بها، دون أن يتلمسوا عوامل النصر، المادية والمعنوية، التي شرعها الله عز وجل في قرآنه، وبيَّنها الرسول ﷺ في سنته، وأن يحاولوا محاكاتها والتأسي بها، وعدم الاكتفاء بالفخر والاعتزاز بالمجد التاريخي، الذي لا يتجاوز المنابر، إلى حياتهم العملية...

والمسلمون مدعوون دائماً، أن يعيدوا قراءة المعارك الإسلامية، ببصيرة واعية، وأن لا يسقطوا وقائع السيرة، على بعض تصرفاتهم الهزيلة، يفصلون حوادث السيرة عليها، وشيئاً فشيئاً تصبح تصرفاتهم هي المقياس، وبذلك تكون الإساءة، ويكون إجهاض القيم، وإنهاء الثقة بها من نفوس الجيل المسلم... كما أنهم مدعوون، أن يعيشوا شهر رمضان، شهر عبادة وتلاوة وتدبر للقرآن، وتبصر بالوسائل المشروعة، يترسمون من خلالها منهج النبوة، وطريق النبوة، وأن يكون رمضان من كل عام، فرصة المسلم للمراجعة، والاعتراف الجريء بالأخطاء، والتوبة منها، وعدم الاستكبار بغير الحق، والتدريب على المعاني الإسلامية، لتأخذ طريقها إلى حياتنا.

يوم الفرقان[1]

لم يتميز شهر رمضان المبارك بنزول القرآن، الذي هو مصدر لكل خير، وأنما أيضاً بأن قسمات الحضارة الإسلامية، قد تشكلت في غالبها في رمضان، كما أن المنعطفات التاريخية الكبرى، كان محلها رمضان، ولعل من أبرز هذه القسمات والمنعطفات، بعد نزول القرآن كانت معركة بدر، التي سميت بالفرقان، ونزل فيها قرآن خالد، يتلى على الزمن، وكان لأهلها من الفضل والخير والثواب، ما ليس لأحد من المسلمين، على مدى التاريخ الإسلامي الطويل، بما فيه المعارك التي جاءت بقيادة النبوة نفسها، في أحد، والخندق، وتبوك، وحنين. . . ولما كان لها من الأثر والدلالة سميت بالفرقان، كما سمى القرآن نفسه بالفرقان، الأمر الذي يمكننا من القول: فكما أن القرآن نزل فرقاناً بين مرحلتين، في تاريخ البشرية العام، بين الخرافات والجاهليات، وتحريف النص الديني، وبين التحول إلى تنوير الإيمان، والعطاء الحضاري الخالد، فإن معركة بدر كانت فرقاناً على مستوى التاريخ الخاص، التاريخ الإسلامي، حيث بدأت من على أرضها خطوات دولة الإسلام العملية، ونمت في مناخها أجنة الدعوة، وتوجه أمر الدين، فأهل بدر، هم الذين قال عنهم الرسول ﷺ: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد

---

(١) الشرق، ١٠/٣/١٩٩٣ م.

غفرت لكم» (رواه الحاكم). وهم الذين قال الرسول ﷺ عنهم: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض»، وهذا لم يكن لغير أهل بدر على الرغم من شدة المعارك وكثرة الضحايا.

ونحن بسبيل ذكرى معركة بدر نرى أنه من الأمور التي يجب ألا تغيب عن ذهن المسلم: أن الإسلام تعامل مع الناس من خلال طاقاتهم وإمكاناتهم، وطبقاً للسنن والأسباب الجارية التي يحكم الله بها الحياة والأحياء.

وعلى الرغم من أن جيل الصحابة رضي الله عنهم كان الجيل القرآني الفريد الذي ربي على عين الوحي، وتسديده، مما جعله جيل القدوة والتأسي فقد أراد الله، تجسيداً لطبيعة الإسلام في واقع عملي، وبسطاً لشروطه وظروفه، أن يتعرض هذه الجيل القدوة، لمواقف النصر والهزيمة، والضعف والقوة، والاتفاق، والاختلاف، حول الكثير من الأمور، ليكون قدوة في التعامل مع النصر، والتحكم بثمراته، وقدوة في معالجة الهزيمة، وقدوة في الاتفاق والإجماع، وقدوة في الاجتهاد، وتعدد وجهات النظر وتنوعها.

ولعل في معركة بدر التي أسماها الله بمعركة الفرقان، من المعالم والملامح، والعبر، والدروس، ما يمكن أن يشكل المعين الذي لا ينضب، والمنجم الذي لا ينفذ للعطاء المتجدد، وحسبنا في ذلك ما أفرده الله لها من مساحة تعبيرية في كتابه الكريم، لتبقى خالدة المعاني، بخلود القرآن، المجرد عن حدود الزمان والمكان، بحيث يبصر الإنسان من خلالها، عوامل النصر المعنوية، وتعاطي الأسباب المادية، وما كان من طوايا النفوس وخطرات القلوب، التي هي واقع الإنسان وكينونته، التي تتكرر في كل زمان ومكان.

وأول ما يطالعنا في سورة الأنفال التي حكت قصة المعركة

وخلدتها، اختلاف الصحابة، على اقتسام غنائم بدر، أو أنفالها إلى درجة، كادت تسوء معها أخلاقهم، وتفسد ذات بينهم يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: لقد اختلفنا في غنائم بدر، حتى كادت تسوء أخلاقنا، فنزعها الله منا، وجعل أمر قسمتها لله ولرسوله، فقال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (الأنفال: ١) فالخلاف والتعدد في وجهات النظر، والنزوع إلى الغنيمة، من طبيعة البشر كما أن التردد في أمر القتال، من طبيعة البشر أيضاً، يقول تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝﴾ (الأنفال: ٥) ويقول: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝﴾ (الأنفال: ٧).

بإمكاننا القول: أن معركة بدر التي تمثل درساً في النصر، ومعركة أحد، التي تمثل درساً في الهزيمة، قد سجل القرآن دقائقهما، وتفاصيلهما، لتبقيا معلماً شاهداً، وقرآناً يتلى على الزمن، بل لعلنا نقول: إن سورة آل عمران عرضت لأخبار المعركتين، وكأنهما معركة واحدة في تأكيد بعض المعاني، والسنن الجارية، ذلك أن الاختلاف على الغنيمة في معركة بدر، وما كان من التصويب كان لا بد له من درس عملي، من أول الطريق الإسلامي، حيث كان النزول إلى الغنيمة من الرماة سبب لهزيمة أحد، ذلك أن الحرب في الإسلام للعقيدة، وليس للغنيمة.

* * *

﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾[1]

ها هو هلال رمضان بدأ بالانتقاص والأفول، ويكاد المسلمون، يودعون الأيام الأخيرة من مواسم الخير، والعطاء، والحياة في ظلال القرآن، ليستقبلوا عيد الفطر المبارك، فتتضاعف فرحتهم بإنجاز الصوم، وينمو حسهم بالعتق من النار في الآخرة، والانتصار والانعتاق من أسر الشهوات في الدنيا، والانعتاق أيضاً من التاريخ الذي يحمل الأوزار والأثقال، من الخطايا، والأخطاء، حيث تبدأ العزيمة على الرشد، وتبدأ رحلة الحياة بولادة جديدة، وحياة مستقيمة بلا آثام ولا كبائر، بعد التزود من التقوى، الذي منحه شهر الصيام، والذي يضمن ديمومة تغلب دوافع الخير، على نوازع الشر، «فمن صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه» (متفق عليه).

وعلى الرغم من أن شهر رمضان كله شهر الخير، والبر، والفلاح والصيام، والقيام، والغفران إلا أن العشر الأواخر فيه، يختزل فيها فعل الخير، وتتحقق ثمرته، فأوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار.

إنها مرحلة القطاف للثمرة، بعد التوبة والمغفرة، مرحلة العتق من النار.

---

(١) الشرق، ١٦/٣/١٩٩٣م.

ومن نعم الله سبحانه وتعالى، أنه لم يدع التائبين، والآيبين، والمنيبين إليه، بلا تاريخ من فعل الخير، والاستكثار منه، حيث أنهم يشعرون أنهم لم يحققوا العطاء المطلوب، وإنما منحهم فرصة الإنجاز، في ليلة واحدة، تعتبر من أشرف، وأعظم، ليالي العمر، وكيف لا تكون أعظمها، وأشرفها، وأقدسها، وفيها بدأ نزول القرآن، الذي اختزل الرسالات السماوية جميعاً، من لدن آدم عليه السلام، فأضاف أعماراً، إلى عمر الأمة المسلمة، وتجارب إلى تجربتها، وكانت به خير أمة أخرجت للناس.

هذه الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن، أعطيت من القدر الكبير، والشرف العظيم، والتميز الرفيع عن غيرها، ما جعل العمل فيها يتضاعف، ويتضاعف، إلى ما لا نهاية، إلى درجة يمكن أن يختزل فيها المسلم أيام عمره كلها، ويحولها إلى فعل الخير، وكأنه يمتلك القدرة على استرداد الماضي، وإعادة الفعل فيه فهي خير من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر.

ولعلِ هذه الألف من الشهور، تتجاوز عمر الإنسان كله، وتزيد عليه، وما يمكن أن يحققه من الفعل في تاريخه الطويل.

إنه بهذه الليلة، يستطيع أن يختزل فعل الخير، ويطوي الزمان والمكان، ويملأ عمره من الخير، ليعوض كل ما فاته في الماضي البعيد.

هذه الليلة المباركة، أتاحت الفرصة لاختزال الزمن، والعب من الخير المضاعف، حتى ليكاد يشعر الإنسان المقصر، والكسول، والمتخاذل، أن بمقدوره بهذه الليلة، أن يرتقي ويقفز إلى القمة، ويعوض ما فاته من التقصير، في عشرات الليالي والأيام، والآف الشهور، ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝﴾ (القدر: ٣).

إن السلم والأمن الذي هو السمة الأولى لهذه الليلة: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ

﴿مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝﴾ (القدر: ٥) يعني الوصول إلى قمة المسامحة، وبالغ العطاء، وعظيم الغفران، ويحقق للمسلم القفزة النوعية، ليدرك الركب، ويعوض النقص، ويمتلك رصيداً أكبر من الخير، تطمئن له نفسه.

فبالقرآن الذي بدأ نزوله في ليلة القدر، يختزل المسلم رسالات الأنبياء ـ كما أسلفنا ـ وينتظم في قافلة النور، والخير والخلود... وبليلة القدر، يختزل الزمان، وكأنه يمتلك القدرة على استعادة الماضي، ليعيد تشكيله بفعل الخير.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝﴾. (سورة القدر).

ويقول الرسول ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان في الثالثة والخامسة والسابعة والتاسعة». (أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والبيهقي).

نسأل الله أن يقبل صيامنا وقيامنا إنه خير مسؤول.

* * *

غزوة العسرة...
نموذج للموقف الإسلامي
المطلوب في الشدائد[1]

تعتبر غزوة العسرة «تبوك» من الغزوات الهامة في تاريخ الإسلام... وتنبع أهميتها بالدرجة الأولى من كونها ـ وهي آخر الغزوات الداخلية لنشر الإسلام، بين القبائل العربية ـ أنها كانت مجالاً لإنزال وتجسيد شعار الإخاء التكافلي، الذي أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». (متفق عليه). ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (رواه مسلم وأحمد).

إنزاله في الواقع الفعلي للمجتمع المسلم، ليعمل على المساهمة في إعداد المجتمع نفسياً ومادياً، ليكون قادراً على نشر الرسالة، على المستوى العالمي.

وقد انطوت هذه الغزوة على كثير من المواقف الخالدة، التي تشهد بمتانة أواصر المؤاخاة الاجتماعية التكافلية، التي قامت على قواعد المؤاخاة الإيمانية، التي عقدها الله، بين جميع المؤمنين.

لقد حض النبي ﷺ في هذه الغزوة على النفقة والحمل في

---

(١) الشرق، ٨/٣/١٩٩٣ م.

سبيل الله، فجاء المؤمنون ـ كما ذكر الواقدي ـ بصدقات كثيرة... وكان أول من جاء بصدقته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، بماله كله، بعد أن أبقى لأهله «الله ورسوله»... وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله... وجهز عثمان رضي الله عنه ثلث الجيش... إلى غير ذلك من المواقف التي رافقت مرحلة إعداد الجيش.

لكن هناك مواقف أخرى، لا تقل أهمية، وهي تعكس حقيقة ما أشرنا إليه، من متانة أواصر المؤاخاة الاجتماعية التكافلية، في ذلك المجتمع... فكما هو معروف، فإن المسلمين في هذه الغزوة، عانوا جهوداً شاقة، وشدة شديدة، وأتعاباً جسيمة، حتى اشترك العشرة من الصحابة، في امتصاص التمرة الواحدة في طريق العودة لنفاد الزاد.

فقد روى الإمام أحمد وغيره أن الرجلين والثلاثة كانوا يتعاقبون على بعير واحد، وأصابهم عطش شديد، حتى جعلوا ينحرون إبلهم، لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها.

وروى أحمد أيضاً في مسنده عن أبي هريرة قال: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا... فقال لهم رسول الله ﷺ: «افعلوا»... فجاء عمر فقال يا رسول الله: إنهم إن فعلوا، قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم بالبركة، لعل الله أن يجعل فيه ذلك.

فدعا عليه الصلاة والسلام بنطع، فبسطه، ثم دعاهم بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف الذرة، والآخر بكف التمر، والآخر بالكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير.

ثم دعا عليه بالبركة، ثم قال لهم: «خذوا في أوعيتكم».

قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا من المعسكر وعاءً، إلا

ملأوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة. فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فتحجب عنه الجنة».

وإذا كنا اليوم نرى أطرافاً في المجتمع المسلم، قد أصابها شيء كثير، من شدة وعسرة ومحنة، فإن الواجب التكافلي، الذي غرس بذوره الأولى الرسول ﷺ، وربى عليه أصحابه في غزوة العسرة، يفرض علينا أن نهب لنجدة المعسرين من إخواننا حيثما كانوا...

كل منا يبذل ويقدم في حدود استطاعته... فإن كفاً من ذرة، وكفاً من تمر، وكفاً من كسرة، كفت جيشاً بأكمله، وحالت بينه وبين الهلاك، حينما بذلت عن طيب نفس، وإحساس صادق بآلام الآخرين، وقبل ذلك كله، إيمان بالله الرازق، المبارك في الرزق.

ولا يختص الإنفاق بالموسرين فالرسول ﷺ يقول: «درهم سبق مائة ألف درهم». (رواه النسائي وابن حبان والحاكم).

إن درهم الفقير، الذي لا يملك سواه، أو يملك شيئاً قليلاً غيره، قد يكون في ميزان الله أكبر بكثير من الدراهم الكثيرة، التي يعطيها الموسرون، من فضلات أموالهم.

وحسبنا ونحن نعيش في هذه اللحظات الصعبة، ما يصيب إخوتنا في البوسنة والهرسك والصومال، والسودان، من المآسي، والكوارث، أن نذكر، بأن الرسول ﷺ حرم الفضل والادخار في أيام الشدة، والأزمات، فقال: من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له. ويقول أبو سعيد الخدري ـ راوي الحديث ـ فذكر رسول الله ﷺ أصنافاً من المال، حتى رأينا أنه لاحق لأحدنا في فضل (رواه مسلم وأحمد وأبو داود).

لقد فهم الصحابي رضي الله عنه تحريم الادخار المشروع في أوقات الرخاء، وقت الشدائد.

والشدائد اليوم تحيط بنا من كل جانب... فهل يكون المسلمون في مستوى دينهم، وعصرهم، في هذا الشهر الكريم، فيستشعرون حقوق الأخوة الإسلامية، ويأخذ الصوم بعده الصحيح من حياتنا؟



العيد وفرحة الإنجاز[1]

للمسلمين عيدان فقط، عيد الفطر، وعيد الأضحى، قال أنس رضي الله عنه: قدم النبي ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحى» (رواه النسائي وابن حبان بسند صحيح).

والعيد في الإسلام هو أحد مواسم العبادة، ومظاهر وشعائر العبودية لله سبحانه وتعالى، التي يتجه إليها كامل نشاط المسلم وسعيه في أحواله كلها استجابة لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

وليس العيد في الإسلام لهواً، وعبثاً، وجنوحاً، وكسراً للموازين الاجتماعية، وخروجاً على القيم، وهذا لا يعني أن المطلوب التجهم، والاكتئاب، وتحريم الترويح والتزين، والتجمل، وإظهار البشر والفرح والسرور، ولبس أحسن الثياب، وأخذ الزينة والتنعم، والتمتع بالحلال. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢).

لكن ذلك التجمل والتزين والجمال، لا بد أن يكون منضبطاً بقيم

---

(١) الشرق، ٢٣/٣/١٩٩٣.

الشرع، وأخلاق الإسلام، بعيداً عن الاستعلاء والتكبر، الذي يعني بطر الحق، وغمط الناس.

ذلك أن العيد سواء في ذلك، عيد الفطر، أو عيد الأضحى، إنما يأتيان تتويجاً، أو تاجاً لعبادة الصوم وعبادة الحج، التي يعتبر من أبرز مدلولاتها: الولادة الجديدة المتجددة للمسلم، بلا آثام ولا خطايا.

فعيد الفطر يأتي بعد إتمام عبادة الصوم، التي قال الرسول ﷺ عنها: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه...» (متفق عليه). يأتي بعد الحصانة والوقاية الحضارية، التي يمنحها الصوم للمسلم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٨٣).

وعيد الأضحى، يأتي بعد إتمام عبادة الحج، التي قال الرسول ﷺ عنها: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (متفق عليه). ذلك أن عبادة الحج، تعني المراجعة للماضي، والرجوع إلى استئناف رحلة الحياة، بمنطلق جديد. بعد العيش على أرض النبوة، والتمحور، والطواف حول أول بيت وضع على التوحيد، والانضمام إلى قبلة الأنبياء ، وقافلة الأنبياء.

وإذا كان العيد فرحة، وبهجة، وحبوراً، فأية فرحة عند المسلم أعظم من لحظات الانتصار والإنجاز، وتحقيق الفوز برضى الله، بسبب ما وفق إليه من إتمام العبادة، وبسبب ما تمنحه تلك العبادة، من تجديد الأمل، وتعين على مسالك الخير، الأمر الذي يقتضي الفرح الحقيقي، والتمتع الحلال بلذة الطاعة، والتخلص من ذل المعصية ومنغصاتها.

ومن تمام الفرح بنعمة إتمام العبادة، شكر المنعم، لذلك أول ما يبدأ به المسلم يومه في عيد الفطر هو أداء زكاة الفطر، وهي عبادة مالية

تعني الحس بالآخرين، والتكافل معهم، وإغناءهم عن السؤال في ذلك اليوم، وتحقيق الفرحة في بيوتهم ونفوسهم.

وقد اشترط الفقهاء أداءها قبل صلاة العيد لتكون أول ما يبدأ به المسلم من عمل.

ومن السنة الإفطار على تمرات، قبل الذهاب إلى الصلاة، أسوة برسول الله ﷺ فالذي أوجب الصوم في رمضان، أوجب الفطر في يوم العيد، وكلاهما عبادة ونسك، ومن ثم يذهب المسلم إلى أداء الصلاة، رافعاً شعار التكبير، الذي يعني قمة الانتصار والارتقاء.

«الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً».

ذلك الشعار الذي يمثل بالنسبة للمسلم قمة التحرر، والانعتاق، من عبوديات الأرض جميعاً.

وقد شرع الإسلام خروج الصبيان والنساء للمصلى، من غير فرق بين البكر والثيب، والشابة والعجوز، والحائض، لشهادة الخير، والمشاركة في الصلاة، وسماع الخطبة، التي تعرض للواقع الإسلامي، وتؤكد على عوامل التضامن، ووحدة الأمة المسلمة، وتبصر المسلمين بالكيود والمؤامرات، التي تبيت لهم، وتذكرهم بآداب الإسلام في العيد، ليكونوا على بينة من أمرهم، ويعرفوا حق الله عليهم، وحقوق الأخوة الإسلامية، فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ويستشعروا مسؤولياتهم، تجاه إخوانهم المظلومين، والمبعدين، والمهجرين، والمضطهدين، والمعتقلين، ظلماً وبهتاناً، بحيث لا تغيب عنهم تلك المعاني، في لحظات الفرح والانتصار.

ومن عبادات العيد ومناسكه، الاقتداء بأصحاب الرسول ﷺ الذين كانوا إذا التقوا يوم العيد قال بعضهم لبعض: «تقبل الله منا ومنكم»، إلى

جانب أن العيد فرصة لصلة الأرحام، ووصل ما انقطع من علاقات اجتماعية، وتصحيح ما وقع من أخطاء، ليعم الفرح الاجتماعي.

ولا بد أن نذكر بأن فرحة العيد قد يتخللها بعض التجاوزات، والوقوع ببعض الهنات واللمم، بسبب انطلاق دفقات، الفرح لذلك كان الرسول ﷺ، يتسامح بالأعياد والأعراس، ما لم يتسامح به في غيرها، لأن الإسلام دين الفطرة.

إن العيد هو الفرحة الكبرى، بالنعمة الكبرى، وهي التوفيق لأداء العبادة، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ (يونس: ٥٨) إنه فرح بفعل الخير، وإنجاز الخير، والاحتفال بالتحول إلى فعل الخير، وليس بعرض الدنيا، وزينتها، ومتعها الزائلة، التي لا يحب الله الفرحين بها.



العيد وواقع المسلمين[1]

ليس من جديد القول، أن نذكر هنا، أن العيد إنما يأتي ثمرة من ثمرات العبادة، ويتمحض معناه، في تحقيق العبودية لله، والإخلاص له في الطاعة.

فالعيد إحدى العبادات التي لها شعائرها، وشعاراتها، هو منسك من مناسك الحج، وفرحة العيد، تتمثل عند المسلم، بما وفقه الله إليه من إنجاز التكاليف، وأداء المناسك، والولادة من جديد، لأن العيد يمثل لحظات الانتصار، والتجدد، والولادة الجديدة، ودحر الشيطان، ورجمه هناك عند العقبة، التي تمت عندها البيعة، التي كانت المنطلق، والأساس للهجرة، وانتصار الإسلام، واندحار الباطل، الذي يمثله ويرمز إليه الشيطان، ومن ثم يتحول الحاج إلى الطواف في البيت العتيق، حيث يصل في طواف الإفاضة، يوم العيد، إلى قمة التحرر والانعتاق، والتخلص من كل سلطان، إنه عتيق كالبيت العتيق، الذي بني على التوحيد.

وليس العيد عبثاً وطيشاً، ولهواً وكسراً للموازين الاجتماعية، وخروجاً عن العقل والدين، وإنما هو عبادة والتزام وتجدد، وتجديد

(١) الشرق، ١٩٩٣/٦/١.

للعلاقات الاجتماعية، وترميم لما يمكن أن يكون لحق بنا من إساءة وتجاوز.

إنه تنمية للحس الاجتماعي، وإعادة لبناء التكافل الاجتماعي، ففي عيد الفطر تأتي مشروعية زكاة الفطر، طهرة للصائم، وطعمة للمساكين، لإغنائهم في ذلك اليوم. وفي عيد الأضحى، تأتي مشروعية الأضحية، كرمز للتضحية، والعطاء، لتنمية الحس الاجتماعي، والتكافل مع الآخرين «من كان له سعة ولم يضح، فلا يقربن مصلانا» (رواه ابن ماجه والحاكم) . إن الاستمساك بالمال وحبسه عن الوصول إلى الآخرين، وعدم الشعور بهم، ليس من الإسلام، «فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به» (رواه البزار والطبراني)، حيث لا يجوز الادخار بالنسبة للمسلم مع وجود الفقر، وتفشي العوز. «كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي للدافة ألا فكلوا وادخروا» (رواه مسلم). لقد حرم الرسول ﷺ الادخار لوجود الفقر، وأمر بالتوزيع، فكان الحكم الشرعي حرمة الادخار من لحوم الأضاحي، ولما عولج الفقر وانقطع، عادت الإباحة للادخار، وهكذا كان لكل حالة حكمها، وعلاجها.

إن أشد المذاهب تطرفاً اليوم، لم تصل في العدالة والتوزيع، إلى مرحلة تحريم الادخار. أما الإسلام فقد حرم الادخار، واعتبره من الكنز، الذي تكوى به الجباه والجنوب، إذا وجد الفقر، واشتدت الحاجة: «فمن كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له». يقول أبو سعيد الخدري راوي الحديث: «فذكر رسول الله ﷺ أصنافاً من المال حتى رأينا أنه لا حق لأحدنا في فضل» (رواه مسلم وأحمد وأبو داود). لقد استقر رأي الصحابة وحكمهم على حرمة الاحتفاظ بالفضل، الزائد عن الحاجة، إذا

كان الآخر بحاجة إليه، هذا هو الإسلام الذي لو التزمنا أحكامه لجنبنا مجتمعاتنا الكثير من الإصابات، والبلاوي، والمذاهب الهدامة.

إن العيد تجديد لهذه المعاني، وتذكير بهذه الأبعاد الغائبة، ودعاء بالقبول، حيث شعار المسلمين في العيد عند لقائهم، «تقبل الله منا ومنكم، تقبل الله طاعتكم» إنها الفرحة بلذة الطاعة، وهزيمة المعصية ورمزها.

ولعل مما يثلج الصدر، ويحقق مقاصد الإسلام، الفتوى بجواز حفظ الأضاحي، ونقلها إلى فقراء العالم الإسلامي، وعدم تبديد المال، وتدميره بوادي منى، حيث تنقلب النعم إلى نقم، فتتفسخ اللحوم، وتنتشر الأمراض، ويعم الوباء والأمراض.

لقد كان الأقدمون يتصرفون بحفظها حسب وسائلهم البسيطة، حيث يعرضونها لأشعة الشمس، يشرقونها لتجفيفها، وحفظها، ونقلها وادخارها، أفلا يحق لنا، أن ننقذ هذه الأموال الهائلة من التلف والضياع، والمسلمون يتضورون جوعاً؟ أليس المطلوب أن تأتي فتاوانا محققة لمقاصد الدين، وأن ندرك علة الأحكام، أن ندرك الفقه النبوي المقصدي، عندما حرم الادخار وقت الحاجة والفقر، وعندما سمح به عند انقطاع الفقر وانتهاء الحاجة، ولم يتعامل مع الحالات المختلفة بالحكم نفسه؟

فالإسلام لا يتجاهل واقع الناس، والمجتمع، ولا يتعسف الحلول، بل نراه دائماً حريصاً على الانطلاق بالأوضاع، من الواقع التي هي عليه، وتكيف أحكامه حسب توفير المصلحة، وتحقيق مقاصد الدين، ففقهه فقه مقاصد، يقول الإمام القرافي: فمهما تجدد في العرف فاعتبره، ومهما سقط فالغه، ولا تجمد على المنقول في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك، فلا تجره على عرف بلدك...

هذا هو الإسلام الغائب اليوم، عن حياة كثيرين منا، من الذين لا يبصرون الواقع، ولا يفقهونه، ولا يدركون كيفية تنزيل الإسلام عليه.

لقد تطورت وسائل الذبح، والحفظ، والنقل، والتعليب، للأغذية واللحوم، ليستمر عطاؤها طيلة العام، وما يزال بعضنا يصر على الوسائل البدائية، ويعتبرها من الدين، حتى كانت الفتوى المقصدية الجريئة، بحفظ ونقل الأضاحي، إلى فقراء المسلمين في العالم، بعد هذا الزمن الطويل من العجز عن تحقيق مقاصد الدين، وحكمة الأضحية، وضياع الأموال.

إنه عيد التضحية بالمال والنفس، الذي حقق انتصار الإسلام، وعزة المسلمين، ويأس الكافرين من إطفاء نور الله، ولولا تلك التضحيات الكبيرة، لم يتحقق النصر، وانتشار الخير، ففي عيد الأضحى وفي رحاب البيت العتيق، نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) وفرحة عيد الأضحى جاءت ثمرة لتصويب نظام الكون والحياة والإنسان. «اليوم استدار الزمان كهيئته يوم أن خلق الله السموات والأرض». ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

إن يوم عرفة يعني عند المسلم، عودة الحق إلى نصابه، وإن يوم العيد يأتي ثمرة وفرحة بهذا الحق، وهذا الفضل، وهذه النعمة.

إن يوم عرفة هو اليوم الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ (المائدة: ٣). واليأس لا يعني توقف الكافرين عن الكيد، فالكيد دائب ومستمر، وواقع المسلمين في البوسنة والهرسك، وغيرها من المواقع الكثيرة، يشكل غصة تنغص علينا فرحة العيد وتدعونا إلى مزيد من الإحساس، بحاجات المسلمين، وتدفعنا إلى البذل والتضحية، في عيد الأضحية، وتمنحنا الأمل بأنها مهما اشتدت

الكروب، فهي محاولات اليائس، من إطفاء نور الله ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ (المائدة: ٣) وإن الإصابات مهما كانت بليغة، وبالغة فلن تقضي على الأمة، فلن يضرونا إلا أذى، وإنما هي استفزازات وتحديات، تعيد الأمة إلى صوابها، وتبصرها بحقيقة أعدائها، وتكشف الزيف والادعاء والمراوغة عن وجه أعداء الدين، فلن يضرونا، ولكن يلحقون بنا الأذى، لتحقيق يقظتنا، فلو أدركنا حقاً البعد الصحيح لعيد الأضحية، لكان ذلك شحذاً لهمتنا وبصارةً بعدونا، وبناء لقوتنا.

إن خروج عشرات الألوف من العالم الإسلامي، والعالم لأداء المناسك، والتزود بالمعانيَ الخيرة، وتحقيق الولادة الجديدة، والانعتاق من المعاصي، وعودتهم إلى بلادهم، وأقاليمهم، هذه الحركة السنوية لو أخذت البعد المطلوب، لتحقق التغير الكبير، ولكان الحج وعيد الأضحى سنوياً من المحرضات الكبيرة، والمنعطفات الأساسية، في حياة المسلمين، وإخراجها من الركود والتخلف التي تعاني منه.

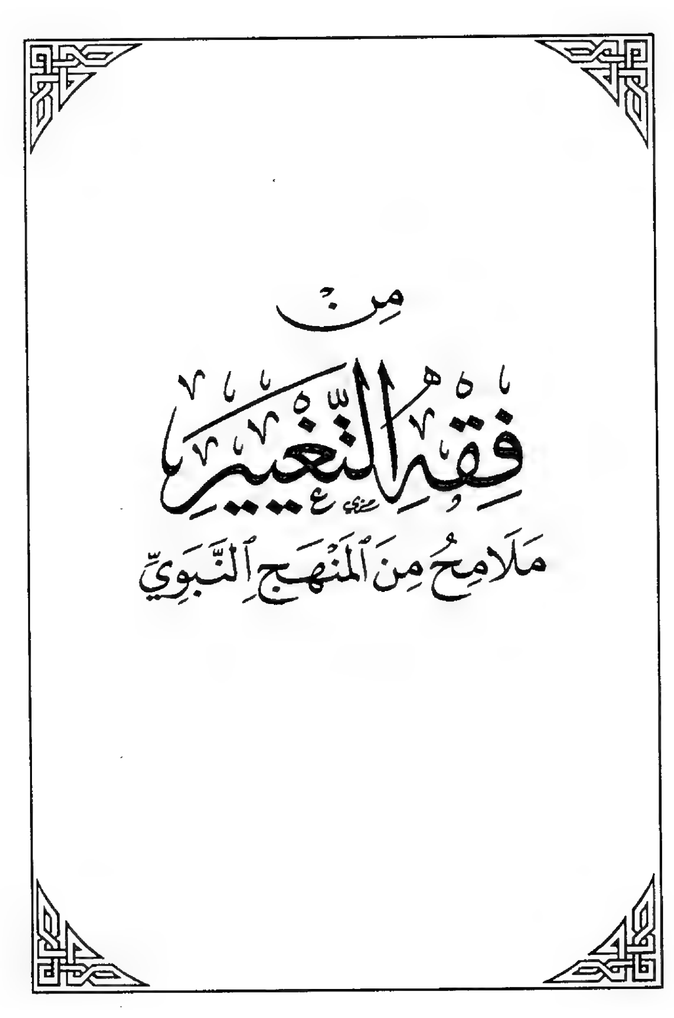
لذلك نرى، أنه لا بد من ربط معاني الحج، ومدلولات فرحة العيد، بواقع المسلمين، لتحقق هذه العبادة التحول المطلوب في حياتنا، وتشكل النقلة النوعية السليمة من هذا الواقع البئيس.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة


من
فقه التغيير
ملامح من المنهج النبوي



المقدمة

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد ألاّ إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، وَبَعْـد :

فإن الإشكاليات المتراكمة ، والمتراكبة ، التي يعيشها الواقع الإسلامي ، بمقدار ما تشكل من الإصابات ، والعقبات ، يمكن الإفادة منها ، و تحويلها إلى قدرات ومحرضات حضارية ، واستفزازات ، تستنفر الطاقة ، وتبعث الهمة ، وتقضي على العناصر الشائخة ، والجوانب الرخوة ، وتجمع شتات الأمة ، وتدفعها لاستثمار طاقاتها الروحية ، والذهنية ، والمادية ، لتستأنف دورها ، وتقلع باتجاه الشهادة على الناس ، والقيادة لهم ، من جديد .

وقد لا نكون بحاجة إلى إعادة التذكير ، بالإمكان ، الذي تمتلكه الأمة المسلمة، للنهوض الحضاري ، وقد أتينا على ذكر شيءٍ منه ، في هذا الكتاب ، وغيره من الكتب السابقة .

ذلك أن الأمة المسلمة، من دون سائر الأمم -كونها أمة الرسالة الخاتمة الخالدة- تمتلك القيم السماوية الصحيحة ، القيم الخالدة ، المجردة عن حدود الزمان والمكان، القادرة على الإنتاج ، وتغيير الحال .. كما أنها تمتلك الأنموذج التطبيقي لهذه القيم، من سيرة الرسول ﷺ ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، الذي يشكل محلاً للأسوة والاقتداء ، وقد جعل الاقتداء بالأنموذج ، ديناً من الدين ، لأن سيرة الرسول ﷺ وخلفاءه الراشدين ، أو منهجه في التعامل مع قيم السماء ، بياناً وتنزيلاً، بحسب ظروف الزمان والمكان ، تشكل الإطار المرجعي ، والدليل الفكري والثقافي ، للتعامل مع هذه القيم ، في كل زمان ومكان ، بعيداً عن التحريف ،

٢٧٦٥ / ١٣

والانتحال ، والتأويل . .كما انها تمتلك الطائفة القائمة على الحق ، التي لا يضرها من خالفها ، حتى يأتي أمر الله وهي على ذلك . . وهذه الطائفة، تشكل خميرة النهوض ، ووسيلة التواصل ، والشاهدعلى أن هذه القيم ، قادرة على الإنتاج في كل الأزمنة والمجتمعات.

والذي نرى أنه أصبح مطروحاً بإلحاحٍ ، بعد مجموعة الإخفاقات ، والإحباطات ، التي أصبنا بها ، أن هناك خللاً في كيفية التعامل مع القيم السماوية، بياناً وتنزيلا على الواقع ، أو أن هناك خللاً في أدوات التوصيل ، وإحداث التفاعل، بين الإنسان والإسلام ، أو بين المسلم والإسلام ، ذلك أن العجز عن التغيي، ومعاودة الإنتاج المأمول ، يعتبر أكبر شاهد إدانة لفهمنا ، ووسائلنا ، أو آلياتنا ، ومناهج تعاملنا مع قيمنا ، وأنموذجنا في آنٍ واحد .

إنه العجز عن الإفادة من الإمكان الحضاري ،الذي نمتلكه ، وإدراك سنن التغيير الاجتماعية ، الذي يعتبر التاريخ الإنساني بشكل عام ، والتاريخ الإسلامي بشكل خاص ، دليلها ، ومحلها في آن واحد .. لذلك جاء التكليف الشرعي بالسير في الأرض ، والتوغل في التاريخ البشري ، وأخذت قصص الأنبياء في القرآن الكريم ، مساحات تعبيرية كبيرة جداً ، حتى إنها لتكاد تغطي سائر مفردات الحركة الاجتماعية ، والحالات التي تمر بها الأمم ، سقوطاً ونهوضاً ، إذا أحسن المسلم الاستماع إليها ، والإنصات لها ، واستبيانها ، والاهتداء بها ، والاتعاظ بدروسها ، وعبرها ، وتحقيق التقوى من الإصابات إذا أحسن مغالبة سنة بسنة .

قال تعالى : ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ (آل عمران:١٣٧- ١٣٨) . . إن قصص الأنبياء القدوة ، لم تقتصر على كيفيات بناء الذات ، ولم تسقط من اعتبارها «الآخر»، الموجود عملياً ، وإنما أفردت له مساحات ، وبينت كيفيات التعامل معه ، في كل الأحوال والحالات ، مما يمكن أن يشكل هداية ، وعظة ووقاية في الوقت نفسه .

وقد تكون المشكلة ، كل المشكلة ، في أن مشاريع التغيير والنهوض ، دخلت الميدان بدون امتلاك وسائله ، وإدراك آلياته .. دخلت ميدان التغيير بأمنيات ، ولم تدخل بإمكانيات .. دخلت في عملية التغيير ، دون أن تفقه السنن الاجتماعية ، التي تهدي إليها القيم ، وتمنحها الحركة التاريخية .. دخلت وهي تمتلك الإحساس بالأزمة ،دون أن تمتلك الإحاطة بعلمها، والإدراك لسبب نشوئها ، ووسائل معالجة اسبابها .. دخلت ساحة التغيير ، وهي مفتونة بنفسها ، دون أن تدرك كامل المساحات المطلوب تغطيتها .

وخلاصة القول : إنها دخلت بحماس ، وتمنٍ ، ورغبات ، دون أن تعد للأمر عدته، من الاختصاص ، والإمكانيات ، واستقراء حركة التاريخ ، وتحقيق عبرة القصص النبوي .

وإذا جاز لنا أن نقول : إن مشاريع التغيير والنهوض الوافدة ، سقطت بسبب جهلها ، أو تجاهلها لمعادلة الأمة الاجتماعية ، ومحاولتها إسقاط وتجاهل عقيدة الأمة ، وتاريخها ، وتراثها الحضاري ، وبناء نهضتها ، بعيداً عن شروط وظروف ميلاد مجتمعها الأول ، وأنموذجها القدوة ، ومعايرة تاريخها ، وحاضرها ، ورؤية مستقبلها ، من خلال قيم حضارية غريبة عنها ، فإن مشاريع النهوض ، وحركات التغيير ، التي قامت في الداخل الإسلامي ، عجزت أيضاً عن تجريد القيم الإسلامية ، في الكتاب والسنة ، من ظروف وقيود الزمان والمكان ، ومحاولة تنزيلها على الواقع ، من خلال ظروفه واستطاعاته ، ومشكلاته.. أي أنها عجزت عن قراءة القيم المعصومة ، في الكتاب والسنة ، وكيفيات التعامل معها ، من خلال الواقع ، بمشكلاته واستطاعاته، كما أنها عجزت ، في الوقت نفسه ، عن قراءة الواقع من خلال القيم المعصومة ، والسيرة العملية ، ووضع خطة لتقويمه بها .

ونستطيع أن نقول : إن مشاريع التغيير والنهوض ، وإن تحصَّل لديها حفظ لآيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ ، ومعرفة للسيرة النبوية ، إلا أنه لم

يتحصل لديها الفقه المطلوب للواقع الاجتماعي ، الذي يمكنها من تنزيل هذه الآيات والأحاديث ، على الواقع ، في ضوء ظروفه ، وحاجاته .

إنها حفظت التاريخ ، وفاخرت به ، لكنها لم تستطع استنطاقه ، واستشرافه ، ليجيب عن أسئلة الحاضر.

إنها حققت معظم كتب التراث ، لكن لم يكن التراث دليلها الكامل إلى استيعاب الكتاب والسنة ، بالشكل المطلوب ، للتعامل مع الواقع .. لم يكن التراث دليلها المأمول ، لقراءة الحاضر ، وكيفيات التعامل معه .

إنها حفظت السيرة النبوية ، التي تشكل المرجعية التطبيقية ، لقيم الكتاب والسنة ، في بناء أنموذج الاقتداء ، لكنها عجزت عن امتلاك القدرة على وضع الحاضر ، بظروفه، ومشكلات، واستطاعاته ، في موقعه المناسب ، من مسيرة السيرة ، ليشكل لها المنهج النبوي ، عطاءاً وسداداً للمسيرة ، في كل الحالات والظروف التي تمر بها .

وفي تقديري ، أن مشاريع النهوض المأمولة ،إذا لم تحسن الإفادة من المنهج النبوي ، في التغيير والبناء الحضاري ، وتصبح قادرة على وضع الحاضر في موقعه المناسب ، من مسيرة المنهج النبوي ، سوف تفتقد بصيرتها ، وتفتقد مرجعيتها ، وتفتقد مركز الرؤية ، الذي يمكنها من حسن التعامل مع أنموذجها في القدوة .. أو بمعنى آخر : إن مشاريع النهوض والتغيير ، إذا لم تستطع تصويب شهادة الرسول ﷺ عليها ، وذلك باستيعاب منهجه في التغيير ، فسوف تبقى عاجزة عن أن تصوب شهادتها على الناس ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس** ﴾ (الحج : ٧٨) .. إن هذا الشهود الحضاري الغائب ، يتطلب العودة إلى استيعاب الأنموذج مرة أخرى ، في ضوء الحال التي نحن عليها ، حيث لا يصلح آخر هذه الأمة ، إلا بما صلح به أولها .

وقد تكون المشكلة أيضاً ، في أن كثيراً من المعاهد ، والجامعات ، والكليات

الإسلامية ، التي كان من المتوقع منها ، أن تقدم المناهج والأوعية الشرعية لحركة الأمة ، باتجاه النهوض ، والعودة للإسلام ، وتحقيق مقاصده في الحياة ، وإعادة تفعيل القيم الإسلامية ، في الكتاب والسنة ، في واقع الناس ، وتحقيق الانتماء إليها، والالتزام بها ، استغرقت في الكلام عن القيمة التاريخية للإسلام ، وقدرته على الإنتاج ، وعطائه في الماضي ، حتى لقد حولته إلى قواعد ، ونظريات ، وجدليات مجردة ، بعيدة عن تقويم الواقع ، دون أن تقدم دراسات تُذكَر عن أن هذا الدين العظيم ، صاحب القيم الخالدة ، الذي أنتج ما أنتج في الماضي ، كيف يمكن أن ينتج اليوم للحاضر ، مشاريع تنهض بها الأمة المسلمة ؟ وتضع يدها على السبب : لماذا لم يتحقق الإنتاج المأمول ؟

إن همّ التغيير ، والنهوض بالأمة المسلمة ، لو كان له نصيب من تفكير كثير من القائمين على أمر هذه المعاهد ، والكليات ، والجامعات الإسلامية حقيقة ، لانعكس ذلك على المنهج ، والكتاب ، والمؤلف ، والمحاضر، والطالب ، والأنشطة العلمية ، والثقافية ، ولانعكس أيضاً بالدرجة الأولى ، على موضوعات الدراسات العليا ، للماجستير ، والدكتوراه ، لتصبح أدلة عمل لدراسة مشكلات الأمة ، ووضع كيفيات النهوض بها ، في ضوء القيم الإسلامية ، في الكتاب والسنة ، والتجربة التاريخية الإسلامية ، واستشراف التراث ليجيب عن أسئلة الحاضر ، ويبصر بطريق المستقبل ، بدل أن يكون الكثير منها كاحزمة العملة الزائفة .. لكن للأسف الشديد ، يمكن القول : إن الكثير من موضوعات رسائل الماجستير والدكتوراه ، أصبحت تساهم سلبياً في تخاذل الأمة ، وتكريس تخلفها ، وبدل أن تأخذ طريقها لمعالجة مشكلات الأمة ، والمساهمة بنهوضها ، تتحول إلى المخازن، لتأخذ موقعها في التكديس ، والتراكم .

ونخشى أن نقول : إن الكلام عن عظمة الإسلام ، وعطائه ، والتفاخر بإنجاز الأجداد ، دون القدرة على توليد الحلول ، والفقه الميداني لمشكلات الأمة ، سوف

يتحول إلى مرض ، وعطالة ، تسيء للإسلام نفسه ، وتقلل الثقة به .. إنه – فيما نحسب – لا يقل خطراً عن مركب عقدة النقص ، التي يعاني منها كثير منا ، أمام منجزات الحضارة الغربية ، ذلك أن كلا الموقفين ، يؤدي إلى ذهنية العجز والاستحالة .

إن الكثير من الكليات ، والمعاهد ، والجامعات ، إلا من رحم الله ، انقلبت إلى معوق وعبء على الواقع ، يستنزف عقول أبنائنا ، ويستنفد معظم طاقاتنا المادية ، بدل أن تكون إمكانية وحلاً لمشكلة المسلمين ، هذا إن لم نقل : إنها كانت أخطر معابر الغزو الفكري والاستلاب الحضاري .. والكتاب الذي نقدمه ، لا ندعي أنه يقدم الحل المأمول، ولا حتى بعضه ، وإنما هو محاولة لإثارة بعض القضايا ، أو فتح ملفها ، وإلقاء الإضاءات البسيطة عليها ، وتوجيه الأنظار إليها ، وبعث الهم بها ، لأننا نحسب ، أنها من الأهمية بمكان ، لعل الله ييسر لها من يتابع الطريق ، ويحسن الإفادة من القيم الإسلامية ، في الكتاب والسنة ، والسيرة ، لبناء المرجعية الغائبة ، للمسلم المعاصر ، وتوليد الحلول الشرعية لمشكلات الأمة ، ومعاناتها ، والتعامل مع الكتاب والسنة ، من خلال فقه الواقع ، والتعامل مع الواقع، من خلال فقه الكتاب والسنة ، ذلك أن واقعنا يشكل شاهد إدانة لفهمنا قيم الإسلام ، وحضارته ، مهما كانت أصواتنا مرتفعة ، وخطبنا عريضة، إلا أنها تبقى دعوى بلا دليل .. فهل من دليل ؟!

والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

الدوحة في: ٢٠ شـــــوال ١٤١٥هـ
٢١ آذار (مارس) ١٩٩٥ م

مَلامح المنهَج النَّبَوي
في التغيّير وَالبنَاء

٢٧٧١ /١٣



أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن، مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنًا عليه، وجعله للناس شرعة، ومنهاجًا، واعتبر العدول عن منهجه، والالتزام بحكمه، عدولاً عن الحق، ووقوعًا في الهوى والضلال، وحذر الرسول ﷺ ، والسائرين على طريق الاقتداء والتاسي، من الفتنة التي يكون بها العدول عن بعض ما أنزل الله، بقـوله: ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكلٍ جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون * وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ...** ﴾ (المائدة : ٤٨ – ٤٩)،ذلك أن العدول عن بعض المنهج ، عدولٌ عن الكل .. كما أن التعديل في بعض جوانب المنهج، هو عدول في حقيقة الأمر، وسقوط في علل التدين، التي وقعت بها الأمم الماضية، من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر، وما لحق بها بسبب ذلك، من الخزي والسقوط في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة، قال تعالى: ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُردون إلى أشدِّ العذاب ...** ﴾(البقرة : ٨٥) .

ولقد اعتبر الله حال الذين جعلوا القرآن (الشرعة والمنهاج) تفاريق وأجزاء، يؤخذ بعضها، ويترك بعض – هؤلاء الذين جعلوا القرآن عضين – كحال المقتسمين الذين سبقوهم من الأمم السابقة، فأفسدوا على الأمة منهجيتها القرآنية، وأوقعوها في الهوى والضلال، والمعاصي، والإصابات، التي تعاني الأمة من آثارها اليوم، أو التي تشكل أزمتها الحقيقية، وتتسبب فيما يقع عليها من العقوبات.

ومايمارس عليها من الفتن، والمساومات من (الآخر) لإخراجها عن بعض ما أنزل الله عليها، قال تعالى: ﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين * فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾(الحجر : ٩٠-٩٣) .

وكانت مهمة الرسول ﷺ ، ان أصّل المنهج الإلـهي، وبيّنه، وجسّده، في واقع الناس، في ضوء هدايات الوحي الأعلى، ومن خلال عزمات البشر، واستطاعاتهم، وتركنا على المحجة البيضاء،ليلها كنهارها، لايزيغ عنها إلا هالك، متمثلاً قوله تعالى: ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

وقوله تعالى: ﴿ **وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ (الأنعام : ١٥٣)، فوضع بسنته، وسيرته، منهج الوصول إلى التمكين في الأرض، وتحقيق مهمة الاستخلاف الإنساني، والعمران البشري، في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة، ومثل لسبيله هذا بخط مستقيم واضح، ودعا لاتباعه على بصيرة، ومثل للمناهج الأخرى ، من على يمينه وشماله ، بخطوط متعرجه، يقف على رأس كل منها شيطان، يغري باتباعها.

إن استيعاب المنهج النبوي في البناء والتغيير الحضاري ، يعتبر المدخل الأساس لاسترداد شخصية المسلم المعاصر، وتحقيق الوقاية الفكرية، والحصانة الثقافية، وإعادة بناء المرجعية الشرعية، وتشكيل مركز الرؤية، في ضوء هدايات ومعارف الوحي، وتجارب ومكتسبات العقل، وإعادة بناء الوعي، وتبيُّن الأسباب، التي حالت دون الانفعال بمنهج النبوة، وحسن التعامل معه، وامتلاك القدرة على إنتاج النماذج المأمولة، التي تحقق خلود المنهج، القادرة على حمل أمانة الاستخلاف،

والعمران، وإدامة البحث والنظر، في ظروف وشروط ميلاد المجتمع الأول القدوة، مجتمع خير القرون، واستيعاب جميع المراحل التي مر بها، ووسائل توفيرها، للإفادة منها في عمليات النهوض، وتجاوز الواقع، وردم فجوة التخلف، من أجل أن يستأنف المسلم رسالته، ويقوم بالدور الذي ناطه الله به، في إلحاق الرحمة بالناس، مستثمراً إمكاناته الروحية، والذهنية، والمادية كلها، ومنطلقاً من ذاتيته الخاصة، ومرجعيته الشرعية، على طريق النهوض، وتحقيق الإرادة، والإفادة من الإمكان الحضاري، وفك قيود التحكم، والارتهان الثقافي، ومعالجة أسباب التقليد الجماعي والتخاذل الفكري .

وقد تكون الحاجة اليوم، أشد من أي وقت مضى، وقد اشتدت الفتن، وكثر الغثاء والادعاء الثقافي، وشاع مناخ التضليل والضلال، وتطبيع الهزيمة، وتقطيع الرؤية الإسلامية، لإيجاد المسوغات للسقوط الحضاري ، والفلسفات لتكريس الهزائم على الأصعدة المتعددة ... قد تكون الحاجة اليوم، أشد من أي وقت مضى، إلى اللجوء إلى المنهج النبوي ، والاحتماء والتشبث به، والعض عليه بالنواجذ، خوفاً من الاقتلاع والضياع، ومن ثمَّ محاولة استقرائه بوعي وإحاطة، وقراءة الواقع، والحال الذي صار إليه، والتعرف على أسبابه، ومحاولة تحديد المكان والموقع المناسب، الذي يمكن أن يوضع فيه هذا الواقع، من خلال المنهج النبوي في التغيير، ومسيرة السيرة النبوية، من خلال استيعاب المراحل كلها، لتكون كل مرحلة أنموذجاً ومحل اقتداء للمرحلة التي تماثلها في واقع الأمة، ابتداءاً من مرحلة الاستضعاف، والاحتفاظ بالإيمان في القلب، والاقتصار على كف اليد، وإقامة الصلاة، حتى تتوفر الإمكانات، ويحضَّر الواقع، وانتهاءاً بمرحلة التمكين في الأرض، والدفاع عن إنسانية الإنسان، وتحقيق حرية اختياره، والحيلولة دون افتتانه.. أو ابتداءاً من مرحلة: ﴿ اقرأ ﴾ كمدخل وسبيل إلى التغيير، وانتهاءاً

بمرحلة الاكتمال والكمال، التي يشير إليها قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ (المائدة: ٣).

ذلك أن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، وسيرة الرسول ﷺ في التعامل مع الواقع، قد استوعب، ومر بالحالات والمراحل كلها، التي يمكن أن تعرض لها المجتمعات البشرية بشكل عام، والإسلامية بشكل خاص، نهوضاً وسقوطاً، وحركة وركوداً، وامتلك الحلول والإجابات الكاملة، لأصول المشكلات الإنسانية والاجتماعية، وكيفيات التعامل معها، وإلا كيف استحق أن يكون خالداً، وأن يكون محل الأسوة والاقتداء؟!

الانتصار العاطفي للسنة

لذلك فمن الأهمية بمكان – ونحن بسبيل معاودة النهوض – امتلاك القدرة على الوعي بالمنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، وإدراك مراحله بدقة، ومقاصده في كل مرحلة، ومرونته في التعامل مع الواقع، في ضوء تلك المقاصد، أمراً ونهياً، وحظراً وإباحةً، ورخصة، وعزيمة، بحسب الظروف والأحوال، والاستطاعات، وتوفر الأسباب، ومن ثمّ القدرة على تحقيق خلوده، وذلك بتجريده من حدود وقيود الزمان والمكان، وتوليد الرؤى، والأحكام الشرعية، والحلول النبوية، للحالات، مع مراعاة الأعمار التي يمر بها المجتمع، وتنزيل هذه الحلول على الواقع، في ضوء ظروفه، وإمكاناته، وموقعه من مسيرة المجتمع الأول وسيرته، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن اعتماد المرحلية والتدرج لا يعني بحال من الأحوال تجزيء المنهج، وتقطيعه، بمقدار مايعني استصحاب المراحل كلها، التي مر

فيها المجتمع القدوة، للوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال، والإدراك الكامل لأبعاد حركة النهوض الشاملة، ومستلزماتها، من خلال المرحلة والموقع، الذي يكون عليه المجتمع اليوم، لتجيء هذه المرحلة في عمرها وموقعها ومكانها مستقبلاً، لبنة في البناء الكامل المأمول.

إن العودة إلى بعض مراحل السيرة، فيما قبل مرحلة الاكتمال والكمال، للمجتمع القدوة، ومحاولة الاستضاءة بها، لحل المشكلات المشابهة، من واقع المجتمع، واستطاعته، لا تعني هنا النكوص والتراجع، بمقدار ما تعني المراجعة للواقع، وظروفه، واستطاعته، ومحاولة تحضيره، والنهوض به، في ضوء الرؤية الشاملة، لمسيرة مجتمع القدوة...

ذلك أن العجز عن إدراك مقاصد المنهج النبوي، ومرونته، في التعامل مع الواقع بدقة، والعجز عن تجريده من قيود وحدود الزمان والمكان، وتمثل قولة العلماء: «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب»، وتحقيقها في الواقع، إن العجز عن ذلك – في رأينا – هو الذي حاصر المنهج النبوي، وحال دون تعدية الرؤية، وتوليد الحلول للحالات، وأوهم الكثير أن هذا المنهج أصبح جزءاً من التاريخ، لأن القدرة على التجريد، هي التي تمنح إمكانية التوليد، وتحقيق الخلود، ذلك أن غياب هذه القدرة على النظر للواقع من خلال المنهج النبوي، والتعامل مع المنهج، من خلال الواقع البشري، هو الذي عطل فعل المنهج، والانفعال به، ولا يمكن أن تحل المعادلة الصعبة، ما لم ننظر إلى الواقع، ونقومه من خلال المنهج النبوي، وننظر للمنهج النبوي، وكيفية التعامل معه، من خلال الواقع الذي نعيشه، ونسعى للارتقاء به.

لذلك نرى أن الذين يدّعون الانتصار، والانتساب لمنهج الكتاب والسنة، دون

أن يمتلكوا القدرة على تجريده، من قيود وحدود الزمان والمكان، وتنزيله على الواقع، من خلال ظروفه ومشكلاته، واستطاعاته، ويبصرون موقع الحاضر من مسيرة السيرة النبوية، إنما يقضون بذلك على خلوده وامتداده، ولو بحسن نية، وهم بذلك لايختلفون من حيث النتيجة العملية - ولو من بعض الوجوه - عن (الآخر)، الذي يرى عن جهل، وسوء تقدير، أن المنهج في الكتاب والسنة، إن كانت له قيمة اليوم، فهي لا تعدو أن تكون قيمة تاريخية، لأنه إنما جاء لمعالجة مشكلات عصر معين، انقضى بأهله ومشكلاته، ولم يعد قادراً على التطور، وحل المشكلات المعاصرة (!)

ذلك أن الاقتصار على الانتصار العاطفي لمنهج الكتاب والسنة، دون القدرة على توليد الرؤى والبرامج، وتقويم سلوك المجتمع به، واستشراف المستقبل من خلاله، سوف يؤدي بالضرورة إلى تمدد «الآخر»، هذا عدا عن أن الاستمرار في هذه الدعوة، دون القدرة على ترجمتها إلى واقع عملي، مؤد إلى الإحباط، واليأس، والارتباك، والتخاذل الفكري، والغياب عن الحاضر، والعجز عن التعامل معه .

صحيح أن الذين يدَّعون الانتساب والانتصار لمنهج الكتاب والسنة في التغيير، والتقويم لمسالك المجتمع، ويعجزون عن تجريده من قيود الزمان والمكان، والقدرة على توليد البرامج والرؤى، لتنزيله على الواقع المعاصر، بحسب ظروفه، ومشكلاته، واستطاعاته، لايمكن أن يسووا بالآخرين، الذين ينكرون خلود المنهج، وقدرته على العطاء، في كل عصر وجيل، وإن كانت النتيجة المتحصلة واحدة، ذلك أن الذين ينتصرون لمنهج التغيير والتقويم في الكتاب والسنة، هم يتميزون عن غيرهم، على الأقل في أنهم يحتفظون بخميرة النهوض، والإمكان

الحضاري، ولو إلى الجيل القادر، أو إلى الوقت المناسب، وإن عجزوا، عن تفعيل المنهج، والامتداد به، وعانوا من غربة المكان.

أما الآخرون الذين لا يرون فيه الخلود والامتداد، فإنهم يلغون وجود الأمة، وشخصيتها التاريخية، وشهودها الحضاري، ويقضون على كل أمل في النهوض الذاتي، والانتماء الثقافي ، وينتهون إلى الارتماء، على «الآخر»، وبذلك يعانون غربة الزمان والمكان معاً .

وفي ظني: أن الذين يشيعون، ويدعون، أن أزمة الأمة المسلمة اليوم، أو أزمة العمل الإسلامي، هي أزمة منهج، هكذا بدون تحديد واضح للمصطلحات، وبيان ماهو المقصود بالمنهج، الذي نعاني من غيابه، أو أن غيابه هو سبب الأزمة، يساهمون أيضاً في الغيبوبة والالتباس.. إن هذا الادعاء، بهذه المجازفة والعمومية الشديدة، يحمل من المخاطر والبلايا والطوام، والتضليل الثقافي، والإلغاء للانتماء، والانتهاء إلى الارتماء، واستدعاء «الآخر»، أو بشكل أصح استدعاء مناهج «الآخر»، ما لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى، سواء صدر عن حسن نية من بعض البسطاء، الذين انتهت عقولهم إلى آذانهم، والذين يقفون ماليس لهم به علم – وما أعتقد أن مثل هذه القضايا الشائكة محلها البسطاء – أو من بعض المكرَة، الذين يحاولون التسلل إلى الداخل الإسلامي، من خلال التدليس، والتلبيس للمصطلحات، والتأنيس والمقاربة لمصطلحات «الآخر»، والإيهام بأن القضية قضية إبداع فكري، ضمن القيم نفسها، لتمرير طروحاتهم، بينما الأمر في الحقيقة لايخرج عن أن يكون بدعاً فكرية، غريبة عن مرجعية هذه الأمة، وبعيدة عن منهج وفهم الجيل الأول، المشهود له بالأهلية، ليكون هو وحده بفهمه ومسالكه محل الاقتداء.

من تعريفات المنهج

وهنا قضية لا بد من تحرير القول فيها، ما أمكن، وهي أننا إذا كنا نريد بالمنهج، أنه بشكل عام هو : منهجية النظر والبحث، وعلوم الطريق الموصلة إلى الهدف، أو بتعبير آخر : أن المنهج هو طريق الوصول ، يصبح من الضروري أن نحدد، ماهي الأهداف، التي نريد الوصول إليها ابتداءاً، ومن ثم، ماهي الوسائل والأدوات والمعارف المطلوبة، لتحقيق هذه الأهداف؟ مع ضرورة الانتباه إلى أهمية عدم المجافاة بين الوسائل المعتمدة، في مشروعيتها، والأهداف المرجوة .

فإن كان المنهج المقصود هو نظام مسيرة الحياة في هذه الدنيا، والأهداف هي سعادة الإنسان، وكرامته، وحياته الطيبة، في الدنيا والآخرة، ومايتطلب ذلك من الوسائل التربوية، والأوامر والنواهي، فإن أي ادعاء بأن الأزمة التي نعاني منها، أزمة منهج، يمكن أن يخرج عن الملة – والعياذ بالله تعالى – لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍ جعلنا منكم شرعةً، ومنهاجًا** ﴾ (المائدة: ٤٨)، فالمقصود بالحكم بما أنزل الله، المنهج الذي شرع الله التزامه .. والحكم الذي شرعه الله هنا، لايخص الجانب السياسي، أو التشريعي، أو الأخلاقي، أو الاقتصادي، أو التربوي، وإنما يعني ذلك جميعه، بكل ما يتطلب المنهج من منطلقات أساسية، وأهداف مرحلية، ونهائية واضحة، ووسائل، وأوامر ونواهٍ، وقيم ومعايير ثابتة، ليست من وضع الإنسان.. وما يتطلب أيضًا من أنموذج تطبيقي لهذا المنهج، أشبه مايكون بوسيلة إيضاح مُعينة على تنزيل قيم المنهج على الواقع، وتحويل فكره إلى فعل مجسَّد في حياة الناس، أو هو كالمجسمات والنماذج، والصور، التي تبين الشكل،

الذي لابد أن تنتهي إليه الوسائل.

وهنا نقول: إن الأزمة التي نعاني منها، ليست أزمة منهج، وإنما أزمة فهم للمنهج، وأزمة تعامل مع المنهج.. أزمة تنزيل للمنهج على الواقع، وتقويمه به.. فالإسلام بمصدريه: الكتاب والسنة، والسيرة كتنزيل عملي وأنموذج، هو المنهج، وأن المعايرة للواقع، والتحديد للخلل، إنما يكون في ضوء الكتاب، والسنة، والسيرة، وأن أي معاودة للنهوض، واستئناف السير، مرهون بتقويم الواقع، بمنهج الكتاب، والسنة، والسيرة.. فالإسلام هو المنهج، وهو الصراط، وهو السبيل، وهو الحجة، وهو موثق الاستمساك والتلقي، والمعايرة، واكتشاف الخلل، وتحديد الأزمة، أو هو بكلمة جامعة: الدين، الذي يحكم تصرفات الإنسان، أو يدين له الإنسان بتصرفاته، ونشاطه، لأن أي عدول عن هذا، أو تعديل له – والتعديل هو عدول في الحقيقة، عن بعض الجوانب، كما أسلفنا – إنما يعني بالضرورة استدعاء مناهج ونظم معرفية، ومسالك ومعايير «الآخر»، وليس من «آخر» الآن، سوى المنهج الغربي، بوسائله، وأدواته، ونظامه المعرفي.

إن اعتماد المنهج الغربي، في النظر، والتحليل، والدراسة، سوف يؤدي بالضرورة أيضاً، إلى أن يصبح الإسلام، كتاباً، وسنة، وسيرة، هو مادة التحليل، ومحل وموضوع النظر، وليس منهج النظر، ومعيار التقويم.. ولا يغيب عنا هنا التذكير بالأبجديات الخاطئة في قراءة الإسلام، من ماركسية، ورأسمالية، وعلمانية، وكل المقاربات التي تتم وتملأ الساحة الثقافية اليوم، حيث باتت، مصطلحات «الآخر» هي أدوات، ومحددات الفهم، والقسمات الفكرية، لأي باحث.. وهنا يبرز التناقض والضياع، وتزييف الوعي، أو التدليس، عن وعي.

وحتى لو سلمنا بحسن النية – ومانظن ذلك حاصلاً في هذه المواطن الخطيرة –

فإن فصل الأدوات المنهجية عن نظامها المعرفي، ومرجعيتها الفكرية، ومضمونها القيمي، هو خلل منهجي، وتفتيت للنظرية، وتجزيء لها، ومحاولة نقلها للتشغيل، والتعامل مع نسق آخر.

ذلك أن الأدوات المستخدمة، وعلوم طريق الوصول، والتبصير بما يمكن أن يتحصل من إصابات في الطريق، وكيفية الوقاية منها، هو جزء منبثق من المنطلقات، والقيم، والنظرة الكلية الشمولية للأهداف، وليست جزءاً منفصلاً محايداً، قائماً بذاته.

ونخشى أن نقول: إن الذين يدّعون بأن الأزمة عندنا، هي أزمة منهج، متجاوزين في ذلك الصراط، والشرعة، والمنهاج، والسبيل، والدين، الذي أنتج هذه الحضارة، وتلك العلوم، سوف يقودهم سعيهم إلى تبني واحتضان المنهج الغربي، في النظر إلى القيم، والأفكار، والمجتمعات الإسلامية، وحتى إلى عطاء الكتاب والسنة والسيرة، واعتبارها كسائر المواد التراثية الأخرى، حتى لو أعلنوا خلاف ذلك .

وهنا تحفظ لا بد من التوقف عنده قليلاً، وهو أن التراث عند من يعرّفه بأنه اجتهاد ،وكسب بشري، خارج دائرة الكتاب والسنة والسيرة، قد يغيب عنه، أنه أثناء فحصه واختباره، وتقويمه، ومحاكمته، لا بد من استخدام المنهج، الذي تم إنتاج هذا التراث في ضوئه، ومن ثم بيان فساد أو صواب التنزيل والتطبيق لهذا المنهج في الواقع، لأن من العقم المنهجي، والفساد الفكري، محاكمة واقع حضارة وتراثها، أو إنتاج حضارة، باصول ومناهج وأدوات معرفية لحضارة أخرى مغايرة، في منهجها، وقيمها، ومنطلقاتها، وأهدافها، ووسائلها.

إن العجز عن استيعاب المنهج الإسلامي، في الكتاب والسنة، وإنتاج الأدوات

المعرفية، والعلوم، التي تمكن من التعامل معه، وكيفيات تنزيله على الواقع، بحسب استطاعاته، وظروفه، ومشكلاته، بالرغم من وجود أنموذج الاقتداء، وهذا التاريخ المتطاول من التعامل معه، هو الأزمة الحقيقية، التي نعاني منها.. إنها أزمة فهم، وأزمة تعامل مع المنهج.. أو أن سبب الأزمة اليوم، هو محاولة التعامل مع المنهج، بأدوات معرفية، ومناهج فهم خارجة عن منطلقه، ونقهه الحضاري، الأمر الذي سوف يؤدي بالضرورة - كما هوحال كثير من المؤسسات الفكرية في العالم العربي والإسلامي - إلى احتضان أشخاص، وأفكار، ومناهج، بعيدة عن طبيعة المنهج الإسلامي، وإن ادعي لها القومية والإسلامية في بعض الأحيان، أو رفع عليها شعار الإسلام، لتستر بذلك عجزها عن الإنتاج المأمول.

محاولات جديدة لعلمنة الإسلام

وقد يكون أحد الوجوه الخطيرة، للأزمة الفكرية، التي نعاني منها، بسبب عجزنا عن التعامل مع المنهج الذي شرعه الله، وبينته السنة، ونزلته، أو طبقته السيرة، هو الادعاء بضرورة الاقتصار على النص القرآني، في التقويم، والمنهجية، والمرجعية، والمعايرة، والعدول عن السنة والسيرة، أو عن المنهج النبوي في البيان، والتطبيق، والتنزيل على الواقع، أو تجاوزهما عمليًا، بحجة ظنية السنة، وضعف المرويات، من وجه، أو بأن التنزيل على الواقع في فترة السيرة، كان باجتهاد بشري، محكوم بظروف الزمان والمكان والحاجات، لا علاقة له بالنبوة والوحي، وأن الرسول النبي ﷺ الذي يبلّغ رسالة ربه (القرآن)، ويبيّن كيفية عبادته، غير الرسول الحاكم (!!) فالمهمة الأولى هو مؤيد فيها بالوحي، ومسدد به،أما الثانية

(السنة) فلا وحي فيها، وإنما هو اجتهاد جاء مناسبًا لعصر معين، ليس بالضرورة، أن يكون صالحًا لكل زمان ومكان، وأن إلغاءه، أو تجاوزه، لاعلاقة له بالدين، أو التدين (!!) وهذه بدعة في التفكير، خارجة عما أجمع عليه المسلمون في عصورهم المتطاولة، ووسيلة ماكرة لعلمنة الإسلام، ومحاصرة المنهج القرآني، وإقصائه، بمحاولة إلغاء سنة الرسول ﷺ، في التطبيق والبيان، لكنها اليوم باسم الإسلام، وهي لا تقل خطرًا وأثرًا عن الابتداع في العبادة.. إنها مروق من الدين، كما يمرق السهم من الرقبة .

أما القول : بأن نص القرآن قطعي، وإلهي، ومطلق، والادعاء بأن نص السنة في معظمه ظني، وبشري، ونسبي، يمكن رده.. فهو ادعاء ساقط، قرآنيًا، ومنهجيًا، وواقعيًا، وقد فند العلماء ذلك، ولم يبقوا فيه استزادة لمستزيد، ذلك أن النص القرآني نفسه، يعتمد السنة، مصدراً للتشريع، والمعرفة، والأحكام ابتداءاً، بقوله تعالى: ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ (الحشر : ٧)، وقوله: ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرهم** ﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وقوله: ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ (النساء: ٨٠)، وبيانًا لمدلولات الخطاب القرآني، قال تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليك الذكرَ لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ (النحل : ٤٤)، ووحيًا: حيث من الثابت قرآنيًا، تصويب اجتهاد الرسول ﷺ فيما لا قرآن فيه، بنص القرآن، وإقرار الرسول على ما اجتهد فيه وأصاب – ولا يتسع المجال هنا لإيراد الكثير من الآيات التي صوبت للرسول ﷺ اجتهاده، في مجال السلم والحرب، والأسرى، والقضاء، والحكم، وجميع مجالات الحياة – حتى يمكننا القول: بأن كل ماوردنا عنه، من البيان والمنهج، صحيح، إما بإقرار الوحي، أو بتصويبه، بحيث تصبح المشكلة هي في إثبات النقل والحفظ .

ولسنا بحاجة إلى القول : بأن مابذل من الجهود في الحفظ والتدوين، ابتداءاً من أدق الأمور وأبسطها، إلى أعلاها شأنا، لم يدع مجالاً معه لتشكيك متشكك، في إطار المنهجية العلمية لمناهج النقل، لكن الأمر الذي قد يحمل على إنكار ذلك، هو الاستكبار، لأن الإنكار الذي يجيء ثمرة للاستكبار والعتو، لا علاج معه، ولامنطق له .

لذلك فمحاولات تجاوز أو إلغاء المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، والبيان النبوي للقرآن، بحجة أن معظم نصوص السنة ظنية الثبوت، فإدعاء متهافت منهجيًّا، وواقعيًا - كما أسلفنا - والأكثر تهافتًا أن يقال : بأن الرسول ﷺ عزف عن بيان وتفسير القرآن حتى لا يقيد العقل (!) وكأن الوحي ند العقل، ومقابله ، وقسيمه (!) .

أما ظنية السنّة، من الناحية المنهجية، فإن السنة محكومة بضوابط القرآن الكريم،قطعي الثبوت، بحيث لا يجوز لها أن تخرج على نصوصه، أو تعارض مقاصده، أو مرجعيته، حتى في البيان، الذي هو مهمتها، وذلك بنص القرآن، إلى درجة اعتبر معها العلماء، أن من علامات الحديث الموضوع، معارضته لصريح القرآن الكريم. فالسنة، على الرغم من ورود معظمها عن طريق خبر الآحاد ، إلاّ أنها موثّقة بضوابط ومرجعية القرآن، قطعي الثبوت .

إضافة إلى أن هذه النصوص الظنية الدلالة، تجسدت، وتمثلت في واقع أمة، كاملة، مشهود لها بالخيرية، في مرحلة السيرة، والخلافة الراشدة، الأمر الذي يمنحها التواتر العملي، أو السكوتي - إن صح التعبير - وهذا لم يتوفر لنص آخر، غير نصوص السنة، التي تضمنت المنهج النبوي، اللهم عدا النص القرآني، الذي ثبت بالتواتر، الذي يفيد القطع، وعلم اليقين، وهذا التواتر من حيث المنهجية

العلمية، يمنح السنة السياج الواقي، ويجعل الظنية فيها، معتمدة في التشريع، والمعرفة، والأحكام، الأمر الذي لم يعان منه جيل الصحابة، حيث لم تكن هذه الإشكالية مطروحة أصلاً.

أما قضية الآحاد والظنية في الثبوت للسنة، والمنهج النبوي، فعدا عن أن السنة حُميت بالضوابط القرآنية، والتجسيد العملي، والحفظ المنهجي، والعصمة العامة للنبوة، وعصمة عموم الأمة، في عدم التواطؤ على الخطأ، فإن ردها، أو إلغاءها، أو محاصرتها، على أحسن الأحوال - وهي من المعصوم المسدَّد بالوحي المؤيد به- يمارس باجتهاد بشري، ظني، يجري عليه الخطأ والصواب، إضافة إلى أنه لم تتوافر له الخصائص، والصفات، التي توافرت لنصوص السنة ، والمنهج النبوي، من الحفظ والنقل، وتصديق ذلك بالتطبيق على مستوى الأمة.

فمن الناحية المنهجية، لا يمكن لاجتهاد بشري خاضع للخطأ والصواب، بعيداً عن وسائل الحفظ والنقل، وبعيداً عن المرجعية القرآنية في البيان والضوابط، وبعيداً عن العصمة في التسديد، أثناء الخطأ، والتأييد والإقرار، أثناء الصواب، أن يرد أو يلغي اجتهاداً، أو منهجاً، منضبطًا بمرجعية القرآن، وعصمة الوحي، وعصمة عموم الأمة في التلقي والتطبيق.

وحتى إذا سلمنا بالظنية، من حيث الثبوت، فلا ترد الظنية بظنية أدنى منها، منهجيًا، وعلميًا، وواقعيًا . يضاف إلى ذلك، أن العدول عن السنة، أو عن المنهج النبوي في البيان، والتنزيل على الواقع، والادعاء بالاقتصار على النص القرآني، نوع من محاصرة النص القرآني نفسه، و إبهامه، وتكريس العجز عن التعامل معه ، وفتح المجال للتاويل ، والخروج بالمعنى عما قد يكون وضع له اللفظ، وفقدان للضابط المنهجي، والإطار المرجعي، لتفسير النص، وتنزيله على الواقع، المستمد

من التفسير والبيان بالسنّة، أي بالمأثور، ومحاولة لتحكيم المنهجيات الوضعية، بالنص، وجعل النص القرآني الذي يمثل القيمة، والشرعة، والمنهاج، والمعيار، مادة للبحث والتحليل، والقبول والرد، وإحلال المنهج الوضعي محله.

ذلك أن السنة من بعض الوجوه، أو المنهج النبوي، هو الذي يمثل الإطار المرجعي، والضابط المنهجي لكيفية التعامل، أو منهج التعامل، مع النص الإلهي المطلق، وتحويله، وترجمته، إلى فعل بشري، وعطاء حضاري إنساني، لذلك كان حفظ البيان لا يقل أهمية من الناحية المنهجية، عن حفظ القرآن نفسه، قال تعالى: **﴿ إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه ﴾** (القيامة: ١٧-١٩).

فللإنسان، بكل طاقاته، أن يبصر المدى، الذي يستطيعه، والأفق الذي يبلغه، لمقاصد النص القرآني، لكنه لا يجوز بحال من الأحوال، أن يلغي برؤيته واجتهاده، البيان النبوي، ويتجاوزه، وإنما يمكن أن يضيف إليه أبعاداً كثيرة، وتجارب تطبيقية، من خلال التجارب البشرية، وتطور الزمان، وتغير المكان، كما لا يجوز بحال، أن تكون هذه الأبعاد والرؤى مناقضة، للإطار المرجعي لها، والمنهج النبوي، أو الضابط المنهجي، الذي تمثله قيم الكتاب، وتبينه السنة، ذلك أن الامتداد بالاجتهاد، هو في الحقيقة امتلاك القدرة، على تجريد النص من قيود الزمان والمكان، واستصحاب مقاصده، وتوليد لها في مواقع أخرى، وتعدية لرؤيته إلى آفاق، وأبعاد أخرى، ضمن مرجعية النص نفسه، وإبداع لبرامج، وأوعية شرعية لحركة المجتمع، ضمن القيم المعيارية، الثابتة في الكتاب والسنة.

وهنا قضية، قد يكون من المفيد أن نعرض لها، استكمالاً للأمر المطروح، حيث أشرنا سابقًا، إلى أننا إن كنا نريد بالمنهج: علم الطريق الموصلة إلى تحقيق

الأهداف، بمنطلقاته، ووسائله، وأدوات تقويمه، وحماية امتداده، من الإصابات على طريق الوصول، أو بمعنى آخر: نظام الحياة، فإن القرآن والسنة تكفلا بذلك.

أما إن كنا نريد بالمنهج، أو المنهاج: منهجية البحث والنظر، والطريق العلمي المعتمد الواضح، في تحصيل العلم، والفهم، والتعليم، أو هو علم قائم بذاته، موضوعه الاهتمام بنظام التفكير في الدرجة الأولى - ولهذا عرفه بعض العلماء، بعلم التفكير، وعرفه آخرون، بطريقة كسب المعرفة، أو الطريق المعينة، التي يتبعها الباحث، في دراسة مشكلة معرفية، بهدف اكتشاف أو استنباط حقيقة، أو الخطوات المنظمة، التي يلتزمها الباحث في معالجة موضوعات الدراسة - فإنه لابد من الاعتراف بأن العقل المسلم المعاصر يعاني في ذلك من التوقف وعدم الامتداد، الأمر الذي يحدث فراغًا لتمدد مناهج «الآخر». والخطورة هنا تكمن، وتبقى أيضًا في أن يستخدم الباحث أدوات ووسائل معرفية، أو منهجية، لمرجعيات وحضارات مغايرة، تسلخ عن حضارتها الأم، وتستخدم في دراسة وتحليل واقع حضاري مختلف عنها، في منطلقاته، وأهدافه، في المرجعيات الأساسية، ويعجز عن إنتاج النظام المعرفي، والأدوات المنهجية، المناسبة لنسقه الحضاري، وقيمه المعيارية .

مرحلة الأرض الأجادب

ولا بد أن نعترف أيضًا أن بعضنا يعيش اليوم مرحلة الأرض الأجادب، لكن بعضنا الآخر - مع الأسف - يعيش مرحلة الأرض القيعان، التي أخبر عنها الرسول ﷺ بقوله: **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا،**

فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لاتمسك ماءاً ولاتنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعمل.. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً...» (متفق عليه).. حيث تتقدم عندنا وسائل الحفظ والنقل لقيم الكتاب والسنة، لكن يصاحبنا العجز عن أن نستنبت منها الكلأ والعشب الكثير، إلى جانب حفظ الماء، فنكون من الطائفة الأولى. وقد يكون من المفيد هنا، ان نورد ما روي عن عثمان وعبد الله بن مسعود وأُبيّ رضي الله عنهم، من انّ رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر، فلا يتجاوزها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فتعلموا العلم والعمل جميعاً (صحيح سنن ابي داود)، وما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كان الفاضل من اصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة، لا يحفظ من القرآن إلا سورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وأن آخر هذه الامة، يقرأون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به (القرطبي ١ / ٤٠).

وحتى يكون الكلام واضحاً، لا بد أن نبيّن ان العجز المقصود هنا، هو عدم القدرة على الإفادة من المنهج النبوي، في مجال التغيير والبناء الحضاري، وليس المقصود مجال الفقه التشريعي، حيث خلف لنا العلماء والمجتهدون ثروة فقهية لا نظير لها، من الناحية القانونية، والثقافية، والتشريعية، والقضائية.

لذلك نقول: إن الأزمة الحقيقية التي نعاني منها، أو الأزمة الفكرية، هي أزمة فهم عملي، وأزمة تعامل، مع قيم الكتاب والسنة، وتحويلها إلى برامج، من خلال مسيرة السيرة النبوية.. أو بكلمة مختصرة: أزمة تعامل مع معرفة الوحي بشكل عام، أو استيعاب المنهج النبوي، في البناء والتغيير، سواء في ذلك من ينكرون

وجود المنهج، في الكتاب والسنة ابتداءاً ، ويعتبرون أن الأزمة اليوم، أزمة منهج، أو من يسلمون بوجود المنهج، إلا أنهم عاجزون عن وضع مناهج فهم، وتعامل، من خلال القيم نفسها، ونسقها المعرفي، وتراثها الممتد، الذي يشكل عقلها الجماعي، وشخصيتها الحضارية التاريخية.. لذلك نراهم يتطاولون على التراث، ويحكموا عليه، من خلال تشكيلهم الثقافي، بعيداً عن القيم المعيارية، التي أنتجته، وإنما من خلال قيم حضارات، ومناهج معرفية، وعقائد أخرى، لذلك لا يخرج عملهم عن طحن الماء، على الرغم من الجهد المبذول، والمال المهدور، دون أن تكون عندهم القدرة على إيجاد البديل، أي بديل، وقد يضطرهم سعيهم في النهاية، بسبب فقر إنتاجهم - كما أسلفنا - إلى احتضان أشخاص، قد يفتقرون لأدنى حد من المرجعيات الشرعية، سواء في دراستهم الأكاديمية، أو كسبهم الثقافي ، أو في مسالكهم، وإنما هم متخصصون، بالمنهج الغربي، ونظامه المعرفي، وأدواته البحثية، ويحاولون اليوم أن يجعلوا من الإسلام، والنصوص الإسلامية، في الكتاب والسنة، محلاً للتحليل، والدراسة، وفق المناهج، والأنظمة المعرفية، الخارجة عن نسقه، وقد يلحقون بأعمالهم أي شعار إسلامي، لتمريرها وتسويقها في عالم المسلمين.. إنهم يجرأون على الفتوى، في المعرفة، ويبتدعون في الفكر، وقد لايحسنون معرفة فرائض الوضوء، وأحكام الحلال والحرام، التي يجب أن تعرف من الدين بالضرورة، وقد لايستطيع الكثير منهم أن يقيم لسانه بآية، أو حديث، وغاية عملهم اقتطاع بعض النصوص الإسلامية، وإعمال أدوات المناهج الغربية في فهمها، وإعادة تفصيلها.. فكيف والحال هذه ستكون النواتج الفكرية والثقافية، خاصة إذا علمنا أن الأدوات المعرفية، ووسائل البحث، ومناهج الفهم والتفكير، ليست آليات محايدة، وإنما هي ثمرة

لخلفيات عقائدية ، ومرجعيات حضارية، لا تخرج عن أن تكون جزءاً منها؟

إنها المرحلة الجديدة للاستلاب الحضاري، والاختراق الثقافي، التي يفترض لها أن تكون أكثر قبولاً في عالم المسلمين، بعد أن سقطت الطروحات السابقة للإسلام، المعنونة بالمصطلحات الغربية أو الشرقية، لإيجاد غطاء تراثي لتسللها إلى الفكر الإسلامي.

ونخشى أن نقول: إن هذا المسعى اليوم يعتبر من أخطر البدع الفكرية الخفية، التي يجب التنبه لها، والتحصين منها، لأنها لا تقل خطراً عن البدع في العبادات، التي نهض فقهاء السلف والأتّباع، لمحاصرتها والتحصين منها، وهزيمتها بالسنة.

هذه البدع الفكرية، التي دخلت علينا باسم وضع الحلول لأزماتنا ومشكلاتنا، وحاولت اصطيادنا في حالة المعاناة، نرى أنها خلفت لنا تراكم الأزمات، بدل أن تضع الحلول.. وقد يكون المطلوب اليوم: أن تصبح مواجهتها من الأولويات، وهزيمتها إنما تكون بوعي المنهج النبوي، والتحصن بمعرفة الوحي ، في الكتاب والسنة، والاجتهاد في إبداع الأدوات المعرفية ، في إطار النسق الإسلامي، وتصوراته عن الحياة، ومرجعيته الشرعية .

وقد تكون الإشكالية الحقيقية، في النظر للمنهج النبوي، في التغيير والبناء الحضاري، تكمن في استيعاب مسيرة هذا المنهج، بمراحله المختلفة، ومحطاته الكبرى، والإفادة منه في تحديد وفهم الواقع، ووضعه في الموقع المناسب من هذه المسيرة، وامتلاك الفقه والقدرة، في كل مرحلة، على ضبط النسب، وإعادة ترتيب الأولويات، في ضوء الحال، وتطور المراحل، واستصحاب المقاصد، الأمر الذي

يتطلب هضم الجزئيات في شعب المعرفة المختلفة، وإعادة تجنيسها، كمعطيات للمنهج النبوي المعرفي، في كل مرحلة.

نعود إلى القول: بأن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، إذا لم يُدرك بمراحله وأبعاده، ويميِّز بين ثوابته، ومتغيراته، ومراحله، وتدرك الظروف والشروط، التي توفرت لكل مرحلة، يمكن أن ينقلب إلى معوق، بسبب سوء الفهم، ومن ثم سوء التطبيق، بدل أن يكون دافعًا للنهوض.. لذلك فالأمر لايجوز أن يبقى خاضعًا لرؤية فردية، تدّعي الإحاطة بكل شعب المعرفة، وإنما لابد له من دراسات متخصصة، بشعب المعرفة المتنوعة، شريطة أن تكون متحصنة بالمرجعية الشرعية الكافية، للتمييز بين ماهو من الوسائل، وماهو من الأهداف، وماهو من المبادئ، وماهو من البرامج، وماهو من القيم المعيارية، وماهو من الاجتهاد الخاضع للتقويم، لتشكيل رؤية جماعية لكل عصر، بحسب مشكلاته وظروفه، وإمكاناته، وقضاياه، وموقعه من مسيرة النبوة.

وقد يكون الكثير من مشكلاتنا الفكرية والمنهجية والنهوضية – إن صح التعبير – نابعًا من وجود متخصصين بشعب المعرفة، لكنهم يفتقدون المرجعية الشرعية، أو يفتقدون لمعرفة الوحي بشكل أعم، سواءاً منهم من تخصصوا في الغرب، أو من تخرجوا على أيديهم في مدارس ومعاهد وجامعات العالم الإسلامي، المرتهنة للنظام المعرفي الغربي في المرجع، والمنهج، والكتاب، والمدرس، أو من هم من المتحمسين للقضية الإسلامية، بعيداً عن أي معرفة أو تخصص.

والمجتمع الإسلامي الأول، هو مجتمع الأنموذج، ومعيار الاقتداء العملي، ليس في مرحلة الكمال والاكتمال فقط، وإنما في المراحل كلها التي مر بها، فكل مرحلة تعتبر قدوة وأنموذجًا لما يشابهها ويقابلها من الأحوال التي يعيشها ويتقلب فيها

المجتمع المسلم.. فالمجتمع الأول بالنسبة للمسلم، يشكل المرجعية التطبيقية.. كما أن القيم في الكتاب والسنة، تشكل المرجعية الشرعية والفكرية، وقد تحقق له ذلك دون غيره، بسبب حراسة الوحي، والرؤية الراشدية، بعد توقف الوحي، المشهود لها من الموحى إليه ﷺ، الذي اعتمدها في المرجعية والاقتداء فقال: «...**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ**» (رواه أحمد).

اكتمال الأنموذج

وهنا قضية لابد من الإشارة إليها في الحقيقة: وهي أن المجتمع الأول، مجتمع القدوة، والمثال، والأنموذج، والمرجعية، ليس هو نهاية المطاف للحياة الإسلامية، إنما هو نهاية المطاف للبناء الأنموذجي، إذ أن المجتمعات الإسلامية، الممتدة تاريخياً، كما هو الواقع، والتاريخ، والسنن الاجتماعية، سوف تمر بسقوط، ونهوض، وقوة، وضعف، ومرض، وصحة، بحسب أقدار التدين المتفاوتة، فهي ليست نسخة مكررة عن المجتمع الأول، مهما حاولت المقاربة والتأسي، ولكنها لا تخرج في كل حالاتها، التي تمر بها، عن المشابهة، مع مجتمع القدوة، في المراحل التي مر بها.

وقد يكون من المفيد التأكيد هنا، أننا مهما حاولنا الاقتراب من مجتمع القدوة، تبقى لمجتمع القدوة الذي ربي على عين النبوة، خصوصية في كونه قدوة دون سائر الحالات المماثلة الممتدة على طول التاريخ الإسلامي، فهي تجارب تفيد العبرة، ولا يمكن أن تتحول إلى أنموذج أو مصدر للتشريع والتلقي.

والفقه المطلوب اليوم: كيف يشكل المنهج النبوي، والرؤية الراشدية - قيماً

وبرامج، فكرًا وفعلاً – بمراحلها المتنوعة، مرجعية، وقدوة للمجتمعات الإسلامية ، ضمن الحالات التي تمر بها؟ وكيف يمكن أن يتحقق الاقتداء والإفادة، من المنهج؟ هذه هي القضية المطلوبة بشدة، الغائبة غيابًا مذهلاً .

ونحن عندما ندعو لاستيعاب المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، واستيعاب الواقع، ومن ثمّ وضع الواقع في مرحلته المناسبة من مسيرة النبوة، أو من المنهج النبوي، حتى نحقق الاقتداء في عملية التغيير، وكيفية التعامل مع الواقع، وتغييره، والارتقاء به، أو تقويمه بمنهج النبوة، في ضوء عطاء المنهج نفسه، أو عطاء المرحلة المشابهة لواقع الحال، لا نعني بذلك عملية التقطيع، والانتقاء الفقهي، كما أننا لا نعني إيجاد المسوغات الشرعية، أو التستر على هذا الواقع بفقه حيل، أو فقه مخارج، وإنما الذي نريد أن نوضحه : أن القضية قضية اجتهاد فكري، أو رؤية منهجية في كيفية إعادة البناء، في ضوء المنهج النبوي، ترتكز إلى فقه المقاصد، الذي كان محور التغيير في كل مرحلة، ومرتكز ومنطلق آلياته، ووسائله . . لذلك جاء تأكيدنا باستمرار، ومهما كانت مواصفات وشروط المرحلة، على ضرورة استصحاب الرؤية الشاملة .

وأعتقد أن الجهود، التي بذلت لحماية السنة، والسيرة وحفظها، ومناهج وضوابط الحفظ، والنقل الثقافي، ومعايير الجرح، والتعديل، لم تتوفر بعد القرآن الكريم، لأي نص تاريخي، أو وثائقي، أو ديني على الإطلاق، ولعل هذا من لوازم وخصائص الخلود . . إن هذه الجهود العلمية العظيمة التي توفرت لحماية بيان القرآن، وكيفيات التعامل معه، فهمًا وتنزيلاً على الواقع، والتي تحققت من خلال عزمات البشر، الذين يمثلون أوعية الحفظ وأدواته، جاءت مصداقًا لقوله تعالى : **﴿إن علينا جمعه وقرآنه ...... ثم إن علينا بيانه﴾** (القيامة : ١٧–١٩) .

فحفظ البيان، ومنهج البيان الخالد، الذي يشكل المرجعية، للتعامل مع القيم، وكيفيات تنزيلها، على الواقع، هو من لوازم الرسالة الخاتمة، عقلاً، وواقعًا، إذ لايمكن أن يُتصور عقلاً، بعد التسليم بالخاتمية، التي تعني: توقف التصويب من السماء، ألاّ تحفظ مناهج بيانها! ونلمح ذلك واقعًا بما توفر للسيرة والسنة من المناهج، وضوابط النقل العلمية، التي تكسب الاطمئنان، وكأننا نعيش المرحلة نفسها، ونسمع البيان بأنفسنا، ونرى المبيِّن باعيننا، الأمر الذي دعا بعض المستشرقين (رينان) إلى القول بما معناه: بأن أدوات الحفظ والنقل الثقافي، التي توفرت للسنة والسيرة، تجعل من الرسول محمدﷺ وكأنه يعيش بيننا، ننظر إليه، ونستمع منه مباشرة، الأمر الذي لم يتوفر لأحد من الأنبياء والمصلحين عبر التاريخ، حتى إن ما يروى لنا عن سيرة بعضهم، هو أقرب ما يكون إلى الخرافات والأساطير، التي لا توثيق لها.

كما أن الجهود التي بذلت لبيان منزلة السنة من القرآن، ووظيفتها، والثروة الفقهية، والتشريعية، التي استنبطت منها، لم تدع استزادة لمستزيد فعلاً.. وهذا الحفظ، والنقل، هو الأساس والمرتكز، وبدونه لايتحقق شيء.. إلا أن السنة والسيرة - في رأينا - لم تدرس إلى الآن بالقدر الكافي، وخاصة بعد أن توفرت محفوظة كاملة بين أيدينا، كمنهج للتغيير والبناء الحضاري، وكمصدر من مصادر المعرفة، لشعب المعرفة جميعًا، وليس في المجال التشريعي، واستنباط الأحكام الفقهية، والتشريعية فقط، ذلك أن الحفظ، والنقل، والحمل، تتمحض فائدتها لتكون في نهاية المطاف، وسائل، أو هي من علم الوسائل، للوصول إلى فقه تحقيق المقاصد.. إنها نصف الطريق إلى المطلوب، أو الأساس الذي لايقوم بناء بدونه، فإذا لم يتحقق منها الفقه، والمنهج التغييري، والبنائي المقصود، تبقى كالأرض الأجادب، التي أخبر عنها الرسولﷺ بأنها تحفظ الماء، لكنها لاتنبت الزرع،

والثمر، والكلأ.. إنها حمل للفقـه، وليست فقهاً.. أو يمكن أن نقول، مع بعض التجاوز: إنها علم محفوظ، وليست ثقافة فاعلة.

استصحاب الرؤية الشاملة

والحقيقة التي قد يكون ذكرها هنا من الأهمية بمكان، أنه أثناء التعامل مع المنهج النبوي، لابد من استصحاب الرؤية الشاملة للمنهج، حتى ولو كان التنزيل، والتطبيق لبعضه، بحسب النوازل، وظروف الحال، والاستطاعات، التي تقتضي التركيز على بعض الجوانب في مرحلة معينة، لمعالجة الخلل، دون الجوانب الأخرى.

ذلك أن غياب الرؤية الشاملة للمنهج النبوي، وعدم فقه مقاصد التعامل مع الحالات المتنوعة، من الواقع، وأسباب التركيز عليها، أدى ببعض المفكرين إلى اختلال في شمولية الرؤية، وضبط النسب، وبروز فرق خارجة، ونتوءات فكرية، لا تتفق مع توازن وشمولية المنهج النبوي.. أخذت بعض الجزئيات وضخمتها، وحاولت المرابطة من ورائها، وتعميمها على المنهج كله، فاضطربت الأولويات، واهتزت النسب، وظهرت الثنائيات المتناقضة، والتعسف في التفسير والتأويل المذهبي، لا المنهجي، وأصبحت القواعد والأصول المذهبية، كلامية كانت أو فقهية، هي المعيار لتفسير النص والتحكم بمقاصده، وهو ما لم يعرفه تنزيل الإسلام الأنموذجي في خير القرون .

وتشتد الحاجة اليوم، في هذا العصر العالمي، حيث حملات التضليل الثقافي، والتقزيم الحضاري، والتهزيم السياسي، والتطبيع الفكري، لاعتماد حضارة «الآخر»... تشتد الحاجة، إلى الانتقال من حفظ وتوصيف المنهج النبوي، الذي

٢٧٩٦/١٣

بلغ الكمال، إلى تشغيله، وتفعيله، في حياة الناس، وتجاوز عقدة الخوف من الاجتهاد في التنزيل، والتطبيق، وتحويله من فكر إلى فعل، وعلى الأخص، أن هذا الاجتهاد، هو فهم وتديّن، قابل دائمًا للمراجعة، والمعايرة ،والتقويم، بقيم الكتاب والسنة والسيرة، وليس دينًا معصومًا، أو ملزمًا، أو حتى أنموذجًا للاقتداء، حيث يبقى الكتاب والسنة هما القيم المعيارية، دون سواهما، والمجتمع الأول هو ميدان التأسي والاقتداء، دون سواه .

ولا شك عندي أن عملية التنزيل للمنهج النبوي على الواقع، أو الفقه التطبيقي، وتحويل القيم والمبادئ، إلى برامج، إذا لم تترافق بالرؤية الشاملة، والضوابط الصارمة، واليقظة المستمرة، قد يؤدي إلى لون من التكيف مع الواقع، دون القدرة على تكييفه، وفق القيم، بسبب الإلف له، والقبول به، نتيجة للتوارث الاجتماعي، ومن ثمّ الدفاع عنه، واعتماده كمقياس للمعايرة.. أو بتعبير آخر: نتيجة لإلف الواقع وحالة الركود، التي يفرضها، وسهولة التعامل معه، يصبح تقليداً يصعب تغييره، ومن ثم يعتمد هذا التقليد، أو هذه التقاليد، لتصبح قيمًا، ومعايير، تحل محل المنهج، والقيم، والتعاليم.. وبدل أن تُقوَّم التقاليدُ بالقيم، والتعاليم، وتكون التقاليد هي مادة البحث، والتحليل، تصبح هي معايير البحث، والتحليل، فيصاب المجتمع بالركود والاستنقاع الحضاري، ويصل إلى مرحلة ذهاب العلم، وإن بقيت مصادره التي أخبر عنها الرسول ﷺ .. فعن الإمام أحمد رحمه الله، قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا، فقال: **«وذاك عند ذهاب العلم»**.. قلنا: يا رسول الله، كيف يذهب العلم، ونحن قرأنا القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم؟ فقال: **«ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة، أوليست هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل، ولا ينتفعون**

مما فيها بشيء؟!» (الحديث رواه أحمد في مسنده، وابن ماجه في سننه، باب ما جاء في ذهاب العلم، وقال: هذا حديث حسن غريب).

الدورات التجديدية

لذلك، وحتى يحوُل المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، دون هذا التوطين للتقاليد، بسبب التوارث الاجتماعي – كما أسلفنا – شرع الدورات التجديدية، التي اعتمدها كحراسات لسلامة المنهج واستمراره، والتي تعني بعث الحياة للتعاليم والقيم من جديد، وإعادة تصويب المعادلة الاجتماعية.

فالتجديد هو العودة إلى الينابيع الأولى، وإعادة التقويم بها، وبذلك يتحقق الحفظ والاستمرار، وديمومة العطاء، للمنهج النبوي، أو لمعرفة الوحي، بشكل أعم، ليصبح منهج النبوة، أو معرفة الوحي بشكل أعم، هي الإطار المرجعي، والضابط المنهجي، والمعيار للمراجعة المستمرة، وإعادة تقويم الواقع، قبل ان ينغلق على تقاليده، التي يكرسها التوارث الاجتماعي، لذلك قال الرسولﷺ: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها دينها»** (رواه أبو داود في الملاحم).

لقد جُعل التجديد تكليفًا، ولم يقتصر على أن يكون إخباراً.. والتجديد – الذي هو في الحقيقة تقويم للواقع، وتغيير له، ومحاولة للعودة به إلى الينابيع الأولى، بعد إدراك هذا الواقع في ضوء المنهج النبوي للتغيير، أو بكلمة مختصرة: هو النظر في الواقع، وتقويمه من خلال المنهج النبوي، والنظر إلى المنهج النبوي، وكيفيات التزامه، والإفادة منه، من خلال الواقع – هو لازم من لوازم الخاتمية،

حيث توقف التصويب من السماء، فلا بد من ممارسة عمليات التصويب والتقويم للواقع، في ضوء مرجعية قيم السماء وبيانها النبوي.

الوعي بالمنهج لمواجهة البدع الفكرية

وهنا نقطة أو إشكالية، جديرة بالتأمل، والبحث، والنظر، والبصيرة، لالتباسها، ووقوع التوهم فيها، أو حولها.. فالخاتمية بدل أن تكون ميزة، ودليلاً على خلود القيم، وتجردها عن حدود الزمان، والمكان، وقدرتها على العطاء المستمر، في اعتمادها على السنن والأسباب، التي تناط باكتشاف البشر، ويناط التعامل معها وتسخيرها بعزمات البشر - وهذا كله من نضج معرفة الوحي- تحولت عند بعضهم إلى نتوءات فكرية، أو بدع فكرية، نتيجة لغياب الرؤية الشاملة لعطاء الوحي، فما رأوا فيها إلا أنها تعني إيقاف وصاية السماء على الأرض، على الإنسان، بعد أن بلغ مرحلة النضج، حيث لابد - في نظرهم - أن يحل العقل، محل الوحي، ليمثل القيام بمهمة النبوة المستمرة على الأرض، ويكون بديلاً عنها ، بل ليصبح الواقع الاجتماعي، معياراً لتقويم واختبار صوابية عطاء الوحي، وبذلك لامانع أن تُخضع معطيات الوحي لاختبارات العقل، ويُعتمد العقل والفعل البشري، والسنن التي وجهه إليها الوحي ، الإطار المرجعي ، والمعيار للقبول والرد(!!)

إنه اتجاه فكري خطير ، وتشتد خطورته وتتعاظم ، لأنه يتم هذه المرة في الداخل الإسلامي، وتحت مظلة الإسلام نفسه، ويُدلل عليه ببعض الاستدلالات المنتقاة والمقطعة من الرؤية الشاملة، حيث لم يكتف هذا الاتجاه بجعل العقل

٢٧٩٩/١٣

مصدر المعرفة الوحيد، وإنما تجاوز ذلك إلى جعل الإنسان، بعد أن بلغ مرحلة النضج، هو الإلـه البديل، بحيث أصبح هذا الإنسان، هو محل الدراسة ومعيارها في الوقت نفسه (١)

ولعلي أرى أن في تسمية منهج الرسول ﷺ في التغيير والبناء الحضاري، بمصطلح السنة، بعض ملامح الخلود، والتجرد عن ملابسات الزمان والمكان، ذلك أن السنة هي: القانون المطرد الممتد، الذي لايقبل التحويل، ولا التبديل. فهي في مجال الأنفس كالقانون الطبيعي الكوني، في اطراده وثباته، في مجال الآفاق، وإن كان محل الاستشهاد على ثبات السنن واطرادها، غالبًا ماينصرف إلى السنن الكونية الآفاقية، لسهولة إدراكها، ووقوعها تحت الحواس، وفي متناولها، ولأن الزمن المطلوب لاستيعاب اطردها، وإدراك نتائجها، هو في مقدور الإنسان، وضمن عمره المفترض، أما السنن النفسية والاجتماعية، والتعرف على عواقبها، فامر بطيء ومديد، إلى درجة قد يكون عمر جيل كله، مقدمة لها، إضافة إلى أنه قد تحول بعض العوائق، أو تغيب بعض الشروط، فتختل النتائج أو تتخلف، فيتوهم الإنسان عدم الاطراد، لذلك غالبًا ما يتحدىٰ القرآن في مجال السنن النفسية والاجتماعية ، بالعواقب ، التي هي آكد من النتائج عمليًا .

فإذا سلمنا، بأن السنة النبوية، هي قانون مطرد في التغيير الاجتماعي، والبناء الحضاري، وأن الاطراد سمة لازمة لها، كلما توفرت الظروف والشروط، وانتفت العوائق، وأن نهوض المجتمع الإسلامي من سقوطه اليوم، مرهون باستعادة الأنموذج، القدوة، والمنهج في التغيير، وأن توفير الظروف والشروط التي توفرت لميلاد المجتمع الأول ، أساس لمعاودة الإنتاج، أدركنا مغزى قولة الإمام مالك رحمه الله : لايصلح آخر هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها .

منهج اللبنة

ولعل من الأمور الأساسية التي لا بد من التنبه لها، والتذكير بها هنا، أن منهج الرسول القدوة ﷺ في البناء والتغيير الحضاري، هو منهج اللبنة والتدرج ،وتحضير المحل، والأخذ بيد الناس إلى تحقيق المقاصد الإسلامية، وتقويم سلوكهم بشرع الله، شيئًا فشيئًا، حتى وصل بهم، إلى درجة الاكتمال والكمال، في بناء المجتمع الأنموذج.. وهذا المنهج لم يقتصر على مرحلة النبوة الخاتمة، وإنما هو منهج النبوة في التاريخ الإنساني، ووسيلة الأنبياء جميعًا، حتى إن النبوة الخاتمة بكل عطائها، ومقوماتها، وأهدافها ومنطلقاتها، لم تخرج عن أن تكون لبنة، في البناء النبوي الممتد، مع رحلة الإنسان على الأرض، وقد ألمح إلى هذا وأكده الرسول ﷺ بقوله: **«مَثَلي ومثلُ الأنبياء من قبلي، كمثَل رجلٍ بنى بنيانًا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنةٍ من زاويةٍ من زواياه، فجعل النّاسُ يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون : هلاّ وُضِعَت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنةُ، وأنا خاتم النبيين»** (رواه مسلم).

حتى إننا لنجد في القرآن الكريم، الذي يمثل اللبنة الأخيرة، أو المنهج الأخير للنبوة، الذي انتهت إليه النبوات، مساحة كبيرة، لدعوة الأنبياء، وقصصهم مع أقوامهم، وكيفيات تعاملهم مع المجتمعات، وخلاصة التجارب التاريخية، التي صدقها الوحي، وتحققت من خلال سنن الحياة الاجتماعية والنفسية، والتي تشكل رصيداً في بناء مرحلة النبوة الخاتمة .

لذلك بالإمكان القول: إن الصورة الأخيرة التي انتهت إليها النبوة، لاتخص فترة النبوة الخاتمة، ولا تقتصر عليها من الناحية الزمانية، والمكانية، والحضارية،

والثقافيــة، وإنما هي في الحقيقـــة ثمـرة النبـوة التاريخيـــة، بكل بنائها وعطائها، وإن النبـوة الخاتمـة، هي لبنـة في هذا البنـــاء المتكامل الكامل، لذلك فقـول الله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ (آل عمران:١٩) إنما يعني من الوجوه كلها، أن الإسلام هو العنوان، والسمة، والتعريف، لهذا البناء النبوي التاريخي الكامل المتكامل، وإن انتهت تسميته إلى النبوة الخاتمة، وأصبح علماً عليها.

لذلك فالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، هو ملة إبراهيم، ودين موسىٰ، وعيسىٰ، والأنبياء من قبل، قال تعالى: ﴿ **شـــرع لكم من الدين ما وصىٰ به نوحًا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...** ﴾ (الشورى:١٢) .. وأن أي صدق مع منهج النبوة التاريخي، يقتضي الإيمان به، وأن الدعوة إلى الإبراهيمية، ووحدة الأديان، خارج نطاق الإسلام، الذي حقق وحدة الأديان – إضافة إلى أنها تشـويه للتكامل والكمـال، وحفريات تاريخيـة لا طائل من ورائها، إلا المزيد من التضليل – هي نكوص، وانتكاس، وتراجع عن طريق دارسته.

ولا أدل على ذلك ، مما رواه جابر ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة ، فقال : يا رسول الله : هذه نسخة من التوراة.. فسكت .. فجعل يقرأ ، ووجه رسول الله ﷺ يتغير ، فقال أبوبكر رضي الله عنه : ثكلتك الثواكل ! ما ترى بوجه رسول الله ﷺ ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ ، فقال : أعوذ بالله من غضب الله ، وغضب رسول الله ، رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً .. فقال رسول الله ﷺ : « **والذي نفس محمد بيده ، لو بدا لكم موسى ، فاتبعتموه ، وتركتموني ، لضللتم عن سواء السبيل .. ولو كان حياً ، وأدرك نبوتي ، لاتبعني** » (رواه الدارمي .. وقال الألباني : حديث حسن)

وكذلك نرى أن اليوم الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ (المائدة:٣) ، إنما كان ذلك الاصطلاح دليلاً على اكتمال البناء، الذي تعتبر النبوة الخاتمة ،تسديداً وتصويباً لنقصه، حتى بلغ الكمال.. فالخطاب من كل الوجوه، خطاب للبشرية جميعاً، ولأبناء الأديان السابقة، التي انتهت نبواتهم إلى الصورة الأخيرة، إلى الإسلام الشامل، ذي العمق، والبعد التاريخي، والبعد المستقبلي معاً.. فالإسلام الذي نزل على محمدﷺ ليس مقطوعاً عن الماضي، ولا مبتوراً من سياقه، وإنما استوعب الماضي، في بناء الحاضر، قال تعالى: ﴿ **ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل** ﴾ (الحج:٧٨).. كما أحسن بناء الحاضر، وكماله، في ضوء عطاء النبوة التاريخي، ليصبح الإسلام بناء المستقبل الخالد، ومنهجه الدائم، الذي اكتمل، وكمل على يدي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وأصبح في مأمن من النقص والانهدام، قال تعالى : ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشونِ** ﴾ (المائدة : ٣) .

والذي نراه هنا أن منهج اللبنة ليس مقتصراً على بناء الأنموذج، وإنما هو منهج كل بناء، أو إعادة بناء.. وكل لبنة من هذه اللبنات، تشكل مرحلة للاقتداء بما يماثلها، شريطة استصحاب صورة البناء الكامل، التي لابد أن تشكل اللبنة مرحلة للانتهاء إليها.

وقضية أخرى، في إطار منهج اللبنة، يمكن أن نلمحها في سنة الرسولﷺ، وطريقته في التغيير والبناء الحضاري، وهي أنه بالرغم من الرصيد التاريخي لدعوة الأنبياء مع أقوامهم، والخلاصات التي انتهت إلى النبوة الخاتمة، وساهمت في بنائها وعطائها، فإن دعوة الرسولﷺ ومنهجه في التغيير والبناء، استغرق ثلاثة وعشرين عاماً، أي استغرق الزمن المطلوب لبناء جيل كامل، على رأي علماء الاجتماع،

بدءاً من قوله تعالى: ﴿ اقرأ ﴾ - ولا نقصد بالقراءة هنا: تعلم الأبجدية فقط، وهي مقصودة بلا شك، كمفتاح للعلم، وطريق للدين الجديد الخاتم، ووسيلة للتغيير والبناء الحضاري، وإنما نقصد القراءة بأبجدية إسلامية، ذات منهجية خاصة بها.. فليس كل قارئ بالأبجدية، قادراً عليها، إذا افتقد الإيمان الذي يعتبر المؤشر الصحيح لتوجيه أبجدية الإنسان، وربطها بغاياتها.. إنها القراءة باسم الله الخالق، القراءة باسم الرب الأكرم.. إنها قراءة جديدة متميزة، عن كل القراءات القائمة، والأبجديات المعروفة - وانتهاءً، بالوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال، التي أوصلت البناء إلى غايته، والقراءة إلى هدفها، بقوله تعالى: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ (المائدة: ٣).

بشرية الرسول ﷺ

ومن الأمور الأساسية التي قد يكون من المفيد التوقف عندها قليلاً، ونحن نحاول، تحديد بعض الملامح، لمنهج النبوة الخاتمة، في التغيير والبناء الحضاري: قضية بشرية الرسول ﷺ وخضوعه في حمله، وولادته، ورضاعه، وشبابه، وهرمه، ومرضه، ووفاته عليه الصلاة والسلام، للسنن الفطرية، والقوانين الطبيعية، التي يخضع لها سائر البشر.. فلقد كان حمله طبيعياً، استغرق مدة الحمل نفسها، كما كانت ولادته طبيعية، كسائر الولادات، وعانى من فقد الأم والأب، ككثير من البشر، وخضع لكفالة الأقارب، وبلغ سن الشباب، وعمل في الأعمال، التي كان يمارسها قومه، كالرعي، والتجارة، وتزوج، وأنجب، وفقد الابن، والبنت، والصديق، والزوجة، وتعرض للأذى والمرض، والنصر، والهزيمة، وحل به من

جراحات الحرب، مايمكن أن يحل بكل إنسان، وأعلن أكثر من مرة: أنه بشر من البشر، وأن النبوة لم تخرجه عن بشريته، وإنما امتاز عن البشر بالوحي، والعصمة، حتى يتأهل ليكون قدوة للبشر ، ويربى على عين الوحي ، قال تعالى على لسان نبيه مقرراً حقيقة البشرية: ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي** ﴾ (الكهف: ١١٠).

وقال رسول اللهﷺ، عن نفسه: «**إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضيَ له بنحو ماأسمع، فمن قضيتُ له بحقِّ أخيه فإنما أقطع له قطعةً من النار**» (متفق عليه) .. إنه يخطئ باجتهاده ويصيب، فإذا أصاب اقره الوحي، وإذا اخطا صوّب له الوحي ، وهذا حاصل، وشواهده في الكتاب والسنه كثيرة، سواء قلنا: بان الرسولﷺ معصوم في كل شيء، وأن ذلك إنما كان لتعليم اصحابه الاجتهاد والرأي، وتدريبهم عليه، ليقرر انه لاعصمة في الاجتهاد، أو قلنا: بان العصمة مقتصرة على تبليغ الشريعة.. ويبقى الفرق بين اجتهاد الرسولﷺ، واجتهاد غيره، أن اجتهاده مسدد بالوحي، ومؤيد به، وانه لهذا فهو وحده الأنموذج والقدوة للبشرية.. فمرجعية الوحي، وتاييده، وتسديده، وبشرية الرسول ﷺ يعطي المنهج النبوي، كل الخصائص الصفات التي تؤهله لموقع القدوة.. ولاندري إذا تجاوزنا البشرية، كيف يمكن أن يشكل ﷺ أنموذجًا وأسوة للبشر، ويكون منهجه سنة في التغيير، إذا كان ممن لا يحس إحساس البشر، ولايطيق طاقتهم، ولا يعيش ظروفهم، ويعاني معاناتهم؟ لذلك نقول: إن المشكلة، كل المشكلة، لو لم يكن الرسولﷺ القدوة، من البشر، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويخضع لسائر القوانين والسنن الطبيعية.

وبالإمكان القول هنا أيضاً: بان الرسول القدوة ﷺ اجتمعت في شخصه

كمالات الأنبياء جميعًا ،كما اجتمعت لمنهجه رسالات، وتجارب الأنبياء جميعًا، فهو بذلك نبي الإنسانية، ومنهجه شرعة الناس جميعًا .

أهمية القدوة في البناء الحضاري

وقضية القدوة ،والاتباع، وعدم الابتداع، في العقيدة، والعبادة، والمنهج، والمرجعية، والأخلاق، والتعامل مع قيم القرآن، بيانًا، وفهمًا وتنزيلاً على الواقع،ومنهج التعامل مع الواقع، في ضوء ظروفه، واستطاعاته، ومايناسبه، في كل مراحله من الأحكام، هي دين، بالنسبة للمسلم، ومسؤولية، وسبيل للنهوض في الدنيا، والفوز في الآخرة، قال تعالى: ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً** ﴾ (الأحزاب : ٢١) .. والنص يفيد في جملة ما يفيد بأن الرسول ﷺ وحده هو القدوة، ولاقدوة سواه، لأنه المبيِّن عن ربه، والمؤيد بالوحي، والمسدد به، ولأن ماورد عنه هو محض حق وصواب، فإذا اجتهد واخطأ، صوّب له الوحي، وإذا اجتهد فاصاب، أقره الوحي. كما أن ماجاء به من البيان للقرآن، يكتسب خلوده وتجرده عن الزمان والمكان، وصلاحيته لكل زمان ومكان، من خلود القرآن المبيِّن، لذلك فكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد، لأنه يجري عليه الخطأ والصواب، إلا الرسول ﷺ، أو كما قال الإمام مالك رحمه الله: كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر، يعني رسول الله ﷺ .

أما أهمية القدوة، في مجال البناء الحضاري، والتنشئة التربوية، ووضوح المرجعية، وكيفيات التعامل مع القيم، وإبصار الضوابط لوسائل التغيير، والتقويم

لمراحل الإنجاز، فقضية تكاد تكون محسومة من الناحية الفكرية، والسلوكية، والنهضوية، وبخاصة إذا كان محل القدوة، مسدد بالوحي، ومؤيد به، وإذا كان ماجاء به خالداً، مجرداً، عن حدود الزمان والمكان، وأنموذجاً لكيفية التعامل البشري، النسبي، المقيد بظروف وشروط، مع الإلهي المطلق. ومن هنا ندرك لماذا كان التقدير، والتقديس، في إطار القدوة، في منهج النبوة، منصرفًا إلى الاقتداء بالمعاني المكتسبة، والقيم والمقاصد، كتقدير البطولة، والشجاعة، والكرم ... إلخ لتصبح بمقدور كل إنسان السعي لتحقيقها، وبإمكانه التطلع، والارتقاء إليها، قبل تقدير البطل، والشجاع، والكريم، خشية أن تحصر في نطاقه دون سواه.

ولعل من الأمور الجديرة بالنظر هنا، أن سيرة الرسول ﷺ التي كانت تنزيلاً لقيم القرآن، وتجسيداً لها في الواقع البشري، تمثل منهجًا لكيفية التعامل مع القيم، وتطبيقها في المواقع، والأصعدة المختلفة، بمعنى أن القدوة، وتقديم النماذج للاقتداء، لم يقتصر على الحاضر، وإنما استوعب أبعاد الزمن الثلاثة: الماضي، بما عرض من قصص الأنبياء كنماذج، والمستقبل أيضًا في إبصار بعض ملامحه الرئيسة، والإخبار عن كيفيات التعامل معه، والواقع الذي يعيشه الناس، وتقويمه بشرع الله.

لذلك نقول : بأن القدوة هنا، في الرسالة الخاتمة، جاءت شاملة شمول الإسلام نفسه، ولئن كان الأنبياء السابقون، يمثلون نماذج للاقتداء في مجالات معينة، فإن النبوة الخاتمة، قدمت القدوة والأنموذج المحتذى في مجال الدعوة، ومنهجها، وكل وسائلها، ومتطلباتها، وفي مجال الدولة، وكل ممارساتها، ووظيفتها، وأعبائها، وعلاقاتها،وسلمها وحربها.

فلقد كان منهج الرسول وسيرته ﷺ قدوة في مجال الحياة الاجتماعية، كزوج، وأب، وصديق، وجار...

وقدوة في مجال الحياة السياسية، كحاكم، ومشاور، ومحاور......

وفي مجال الحياة العسكرية، كقائد، ومحارب، ومسالم، ومصالح، ومعاهد، ومنتصر، ومنهزم.

وكان قدوة في مجال الحياة القضائية، كقاض، وشاهد.

وكان قدوة في مجال الحياة الاقتصادية ، في تحديد وسائل ملكية المال، وتوثيق الحقوق، ووضع ضوابط للكسب، وضوابط للإنفاق، واطر وتشريعات للتكافل المالي .

وكان قدوة في مجال الحياة الأخلاقية ..

وحسبنا أن نقول : وكان خلقه القرآن، وهذا جماع الأمر كله .

والحقيقة التي يمكن أن نلمحها هنا، والتي قد يكون من بعض مدلولاتها أهمية تقديم الأنموذج والقدوة، أن مساحة تعبيرية كبيرة من سور وآيات القرآن الكريم، وهي متواترة الورود، قطعية الثبوت، قد تضمنت عرضًا تفصيليًّا لسيرة الرسولﷺ، والأنبياء من قبله، حتى لا تبقى القيم والتعاليم الإلهية المنزلة، نظريات مجردة عن النماذج العملية، التي تجسد هذه الأفكار في أفعال، وإنما جاءت في معظم الأحوال، مقترنة بالأنموذج التطبيقي.. جاءت متلازمة، مع القدوة، التي تشكل منهج التعامل، وتحويل الفكر إلى فعل، والقيم إلى برامج، لذلك بالإمكان القول: بأن المنهج، والأنموذج، والقدوة، حُفظت بحفظ القرآن، لأنها لاتقل، من حيث الدلالة العملية، عن آياته شأنًا في عملية البناء والتغيير، حتى إن بعض الباحثين المعاصرين – والأستاذ محمد عزة دروزة رحمه الله يأتي في مقدمتهم – كتبوا السيرة من القرآن مباشرة.

لقد كان لحفظ التطبيق، والتنزيل على الواقع، الأهمية والقيمة نفسها، لحفظ

التعاليم، والمبادئ، والقيم الإسلامية، حتى لا يغيب المثال، والأنموذج، فتزل الأقدام، السائرة على الطريق، وتضل الأفهام في تحديد الدلالات والمقاصد، تحت وطأة الضغوط الاجتماعية، مهما كانت، ويمارس التضليل الثقافي، وتنتشر البدع الفكرية، باسم الدين والتدين، حيث لابد من التنبه إلى أن ضبط البدع الفكرية واكتشافها، وتقدير مدى خطورتها، وآثارها السلبية، ليس بالأمر السهل، كحال البدع في العبادات التوقيفية، ذلك أن كشف مثل هذه البدع، وتقدير مدى خطورتها، وخروجها عن النهج النبوي، والضوابط الشرعية، يحتاج إلى دقة في النظر، وإحاطة بالعلم الشرعي، ووضوح في الضوابط المنهجية ، واستيعاب لقيم الكتاب والسنة، التي تعتبر معايير وموازين التقويم، والقبول، والرد .

وخطورة هذه البدع ، في أنها ترفع لنفسها المشروعية الإسلامية، أو مشروعية التجديد والنهوض، وأنها تمارس في الداخل الإسلامي، كما أن من مخاطرها، أنها لا تُكتشف بسرعة، لأن آثارها الضارة، ونتائجها السلبية، مديدة، وزمن الحضانة فيها طويل، لذلك فهي بطيئة الظهور، الأمر الذي يجعل صعوبة معالجتها، بعد أن تتوضع ، ليست بأقل من صعوبة اكتشافها .

واقعية المنهج النبوي

وقد يكون من أبرز الخصائص، التي تجعل المنهج النبوي في التغيير والنهوض والبناء الحضاري، محلاً للاقتداء والتأسي، وتجعله أنموذجًا، يحتذى، إنما هي في واقعيته، وتوافقه مع فطرة الإنسان، وإنه تحقق من خلال تعامله مع السنن الجارية في الكون، ومن خلال عزمات الإنسان، بضعفه وقوته، وتذكره ونسيانه، وفطرته

وغريزته، ونزوعه إلى الخير، وانحداره في الشر، واستيعاب جميع ما يتعرض له من الظروف، والأحوال، والقابليات، من الشدة والرخاء ، والسقوط والنهوض، والهزيمة والنصر، ليكون المنهج من ثمّ دليلاً ومرشداً، في كيفية التعامل مع الأحوال كلها، من خلال الاستطاعات المتوفرة، والظروف المحيطة، ولم يتحقق من خلال تعامله مع السنن الخارقة، الخارجة عن طاقة البشر، التي قد تسهم بالتواكل، والإلغاء، وانطفاء الفاعلية، وتؤدي إلى السلبية، والإرجاء. واعتمد الزمن، وسنة الأجل، كعنصر لازم، لإنضاج الفعل الحضاري، وتحكم بالزمن تسخيراً وإنتاجًا، بعيداً عن النظرة الدهرية والجبرية الزمانية، التي كانت من مثالب الكفر، وليس من خصائص الإيمان. ونستطيع القول: إن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، تحكم بالزمن، وأعاد التعامل معه إلى المسار الحقيقي، وأكد استدارته كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وأبطل عبث العابثين بمساره، ليتحقق الانسجام، بين السنن الكونية، والسنن النفسية والاجتماعية، فلقد قال الرسول ﷺ في مراحل الاكتمال والكمال للمنهج النبوي، في خطبة الوداع: **إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض....** إلخ، حيث تحقق بالنبوة الخاتمة، التصويب لوجهة الإنسان، والقراءة الصحيحة، لحركة الكون، وغايات الحياة .

إشكالية التعامل مع الزمن

ولعل من المجافاة، والإصابات البالغة في هذا المجال، ما تهيأ لبعض العاملين في الحقل الإسلامي، من اعتماد عنصر الزمن، على أنه هو المتحكم بالفعل، وليس وعاءًا له، فذهبوا يقسمون فعل الدعوة والتغيير إلى مراحل وفترات، محكومة

بالزمن، بعيداً عن دراسة الإمكانات المتاحة، والظروف المحيطة، فاختلطت عندهم الأمنيات بالإمكانات، عندما حكموا الزمن بعملهم، وجعلوا مرحلة سرية، ومن ثم الصدع بالحق، والجهر به، وأخرى تقابل المرحلة المكية ، وتمتد ثلاثة عشر عاماً ، وثالثة تقابل الفترة المدنية وتمتد عشر سنوات، دون النظر للإمكانات المتوفرة في كل مرحلة، والظروف المحيطة، وأن الزمن عنصر لازم، لإنضاج العمل، وليس متحكماً به، وأن هذا الاختلال في ضبط النسب، أوقع العمل بارتكاسات وإحباطات لا نهاية لها، إلى درجة بدأ معها بعض البسطاء التشكيك بالمنهج النبوي، وليس الشك بفساد الفهم، والعجز عن التعامل مع المنهج .

وقد تكون إشكالية العمل الإسلامي الرئيسة اليوم، تتمثل في عجزه عن إبصار الواقع بشكل دقيق، وملاحظة متغيراته السريعة، والخلط بين المبادئ والبرامج، وبين القيم المعصومة، والاجتهادات البشرية المظنونة، والخلط بين الأمنيات والإمكانات، وعدم إدراك متطلبات المرحلة، وكيفيات وآليات التعامل معها، من خلال رحابة المنهج النبوي، وآفاقه المتعددة والمتنوعة.

والناظر في أدبيات العمل الإسلامي، من خلال نصف قرن، قد يجد أن التطور الذي طرأ على وسائله وتعامله، يكاد لا يذكر امام التحولات والمتغيرات السريعة، التي طرأت على الواقع، والذي ليس من الحكمة (وضع الأمور بمواضعها)، ولا من البلاغة (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)، ولا من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، أن تكون مواصفات الخطاب والأحكام واحدة، للحالات المختلفة والمتنوعة.. ونخشى أن نقول : بأن هذا مايزال يمثل حقًّا، إشكالية في فهم المنهج النبوي، وإشكالية في فهم الواقع أيضاً..

فالقضايا التي تُطرح، والمعالجات والوسائل التي تُستخدم، والمواجهات التي

تتم، تكاد تكون نفسها قبل نصف قرن، وهذا يعني من بعض الوجوه، إسقاط تجارب نصف قرنٍ من عمر العمل، وعدم الإفادة حتى من التجربة الذاتية، والخضوع للآلية والتكرار، وردود الفعل، والضغوط الخارجية، بعيداً عن استيعاب تطور معالجات المنهج النبوي، بحسب تطور الجماعة المسلمة، والمجتمع من حولها، وبعيداً عن استيعاب المتغيرات السريعة، وكأننا نريد للزمن أن يتوقف لأجلنا ، والسنن تتعطل بناءاً على رغباتنا.

إن اعتماد المنهج النبوي في التغيير الحضاري، سنن الحياة الجارية، في النفس والمجتمع، والحياة الإنسانية، وصل إلى مرحلة من الانضباط والدقة، أشبه ماتكون بانضباط القوانين العلمية التجريبية كما في المعادلات الرياضية، الصارمة.. بل لعلنا نقول: بأنه تجاوز المنطق التجريبي الوضعي، في الاكتفاء بترتيب النتائج على المقدمات، إلى ماهو أدق علمياً، إنه تحدى بترتب العواقب النهائية على المسالك الإنسانية، واستشرف التاريخ واستدعاه، ليبرهن عليها، فقد تفوت النتائج الآنية، لانعدام الشروط المطلوبة، أو وجود بعض العوائق، لكن ذلك لايلغي العواقب التي ستؤول إليها الأمور في نهاية المطاف، والتي تحكمها السنن الجارية.

والناظر في منهج الرسول ﷺ يرى أنه لم يعان من الثنائية، بين هدايات الوحي، ومدركات العقل.. بين التعامل مع السنن الجارية، بل واستفراغ الجهد في التعامل معها، إلى درجة، قد يظن معها الجاهلون بالمنهج النبوي أن الأمر كله موكول إليها، ومعتمد عليها، وبين الالتجاء إلى الله، والتوكل عليه، واستفراغ الوسع في الدعاء، والابتهال، وانتظار المدد من السماء، لدرجة قد يظن معها الغافلون عن أبعاد المنهج النبوي ومقاصده، أن صاحبها لاعلاقة له بالتعامل مع السنن والأسباب.

كما أنه لم يعان من الثنائية بين القدر، والحرية، والإرادة الإنسانية، بل كان يعتبر أن الأسباب هي قدر من قدر الله، وأن الله الذي خلقها، وجعلها قدراً وسبباً لحصول النتائج، هو القادر على خرقها، وليست المعجزات في تعريفها المبسط إلا خرق للأسباب، وما اعتاده الناس، وأن من الفهم للمنهج النبوي، مدافعة سنة بسنة، ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر، وأن إرادة الله هي التي أرادت للإنسان أن يريد ويفكر، لمغالبة قدر بقدر، وإلا، كيف يمكن عقلاً وشرعاً، ترتيب المسؤولية على الفعل، إن لم يأت ثمرة للإرادة والحرية ؟ وكيف يمكن أن يتحقق العدل المطلق ، الذي لا يليق غيره بالله سبحانه وتعالى ؟

منهج المقاصد والغايات

كما أن منهج الرسول ﷺ، في التغيير والبناء الحضاري، الذي اكتسب خلوده من خلود القرآن، تجاوز حدود وقيود الزمان والمكان، ليكون قادراً على العطاء العالمي في كل عصر ومكان، ويكون قادراً على الاستجابة، والاستيعاب، لمشكلات كل عصر، وتقديم الحلول المناسبة لها، ولذلك نراه استغرق في التغيير والبناء، مسيرة جيل كامل، واستوعب مراحل التغيير والبناء في كل مايعرض لها من الأحوال، ابتداءاً من حالات الاستضعاف، وحتى التمكين والوصول لحالات الكمال.

لذلك كان منهج المقاصد، والغايات، والأهداف، والاستطاعات.. لم يكن جامداً على حالة واحدة، من حالات الفرد، والمجتمع، والأمة، والدولة، والاستطاعة.. ولم يضع قوالب يابسة، ليصب الناس فيها بكل أحوالهم وحالاتهم، وإنما كان يتغير بحسب الرؤية المتوفرة، والمصلحة المتحصلة، والهدف

المطلوب.. يتغير بحسب الظروف والإمكانات، ليستحق أن يشكل القدوة للإنسان، في كل مايعرض له، حتى على مستوى الدعوة والفكر.. كان للحرب خطابه ووسائله، وكان للعهد والسلم شروطه، وضوابطه، وكان للنصر فقهه، وللهزيمة فقهها، وكيفيات التعامل معها .

وكان الرسول ﷺ يحرم بعض الأعمال، في عام، ويبيحها في عام آخر، فعندما أصاب الأمة من المجاعات، نهى عن ادخار لحوم الأضاحي، وعلل ذلك بالدّافة، أي بسبب زيادة الفقر ،وقدوم الفقراء على المدينة، للشدة والمجاعة التي يعانون منها، فإذا انتهت المجاعة، أعاد الأمر للإباحة فقال: **«ألا فكلوا وادخروا»**.

كما أنه حرم الادخار، والفضل، من المال، والظهر، والزاد، في حالات الشدة وضرورات التكافل الاجتماعي، أو ما يسمى اليوم اقتصاد الحرب، وأباح الادخار في حالات الرخاء.. يروي أبو سعيد الخدري فيقول: قال رسول الله ﷺ: **«من كان له فضل ظهر، فليعد به على من لاظهر له، ومن كان له فضل زاد، فليعد به على من لازاد له»**، فذكر من أصناف المال ما ذكره، حتى رأينا، أنه لاحق لأحد منا في فضل (رواه مسلم).

هكذا ، في بعض الظروف، يحرم المنهج النبوي، في الجانب الاقتصادي والاجتماعي، الادخار، ويعتبر الزائد عن الحاجة حرامًا في حالات خاصة، الأمر الذي لم تعرفه أشد المذاهب تطرفًا .

والمتأمل لمنهج الرسول القدوة ، ﷺ ، في تعامله مع استطاعة المكلّف، وفقهه لحالته، وتقرير الأحكام الشرعية، في ضوء إدراك مقاصدها، يرى كثيرًا منّا اليوم، هم حملة للفقه وليسوا فقهاء حقًّا.

ولعل في قصة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها، التي كانت سبب نزول قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم...**﴾ (المجادلة: ٢)، وتطور الحكم

في ضوء الاستطاعة، ما يلقي أضواء كاشفة على ما نريد.. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ:

« حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سليمان بن يسار، عن سلمة بن صخر الأنصاري، قال: كنت امرءاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، خوفاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت، غدوت على قومي فأخبرتهم خبري، وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله لانفعل، نتخوف أن ينزل فينا، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك. قلت: فخرجت حتى أتيتُ النبي ﷺ فأخبرته خبري، فقال لي: **«أنت بذاك»**؟ فقلت: أنا بذاك. فقال: **«أنت بذاك»**؟ فقلت: أنا بذاك. قال: **«أنت بذاك»**؟ قلت: نعم. ها أنا ذا فامض في حكم الله عز وجل، فإني صابر له، قال: **«أعتق رقبة»**، قال: فضربت صفحة رقبتي بيدي، وقلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أصبحت أملك غيرها. قال: **«فصم شهرين متتابعين»**. قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: **«فتصدق»**، فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا ليلتنا هذه وحشىٰ، ما لنا عشاء. قال: **«اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها، وسقا من تمر ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك»**، قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة، والبركة، قد أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليَّ، فدفعوها إليَّ، وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، واختصره الترمذي، وحسنه. (تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، المجلد الرابع، ص ٣١٩ ، ط دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٩م).

- وفي معركة بدر التي اعتبرت فرقاناً، نجد الرسول ﷺ يدعو للثبات والاستشهاد، ويرغب فيه، على الرغم من عدد الأعداء وعدتهم، فيقول: **«والذي نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة»** (ابن هشام، ج٢، ص٢٧٩، دار إحياء التراث العربي - بيروت)، لأنها المعركة الفاصلة بين الكفر والإيمان.

- بينما نرى في غزوة مؤتة، عندما استشهد القادة الثلاثة، رحمهم الله، وتسلم القيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، وجاءت جموع لاقبل للمسلمين بها، وانسحب بالجيش الإسلامي قافلاً إلى المدينة المنورة، وحاول بعض المسلمين أن يعيب عليهم الانسحاب، ويحثوا على الجيش التراب، وينعتوا جنده بالفرّار، ويقولون: يافرّار، فررتم في سبيل الله! فيقول رسول الله ﷺ: **«ليسوا بالفرّار ولكنهم الكرّار إن شاء الله تعالى»**، (ابن هشام، ج٤، ص٢٤).

- وفي غزوة الخندق، بعد أن اشتدت المعركة، وبلغت القلوب الحناجر، وبدأ التشكيك، والظن، واليأس، يتسرب إلى بعض النفوس، ورأى النبي ﷺ، أن العرب رمتهم عن قوس واحدة، فكر بالصلح على بعض ثمار المدينة، وكاد يوقع الصلح، والأمر معروف بمظانه من كتب السيرة.

- وفي مقاطعة قريش للرسول ﷺ وأصحابه في شعب بني المطلب، دخل معه الشعب بنو هاشم وبنو عبد المطلب، فاجتمع في الشعب من بني هاشم وبني المطلب، المسلمون والكافرون، أما المسلمون فتديناً، وأما الكافرون فحمية (ورد بأسانيد مختلفة عن موسى بن عقبة، وعن ابن إسحاق وغيرهما)، فأفاد من الرابطة القبلية.

- وفي صلح الحديبية دخل في حلف الرسول ﷺ، من غير المسلمين، فدخلت قبيلة خزاعة وقالت: (نحن في عقد محمد وعهده) وكان في ذلك مصلحة للمسلمين واضحة.

- وبعد هجرته للمدينة، وقع وثيقة العهد المشهورة مع أهل المدينة

كلهم.

- وفي مجال الدعوة، وأخذ الناس إلى الإيمان شيئًا فشيئًا، أحجم عن بعض الأعمال خشية مايترتب عليها من آثار سلبية، من ذلك قولته ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «**لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أُخرج، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا، فبلغت به أساس إبراهيم**» (أخرجه مسلم).

- في مرحلة، يستجيب الرسول ﷺ لطلب الصلح، قال ﷺ بين يدي صلح الحديبية: «**لا تدعوني قريش اليوم إلى خطَّة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**» (ابن هشام، ج٣، ص٣٢٣).

- بينما نرى في مرحلة أخرى، بعد معركة أُحد - وقد أنهكت المسلمين الجراح، عندما سمع الرسول ﷺ، أن المشركين تجمعوا في حمراء الأسد للانقضاض على المدينة - كيف أنه طلب إلى المسلمين، ممن حضروا أُحداً، أن يتعقبوا المشركين، ويتابعوا قتالهم على الرغم من جراحاتهم، فاستجاب المسلمون لذلك، وذهبوا إلى حمراء الأسد، متكلين على الله، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للَّذينَ أحسنُوا منهُم واتَّقوْا أجرٌ عظيمٌ * الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعمَ الوكيلُ**﴾ (آل عمران: ١٧٢-١٧٣).

- وفي حالة يصبح أعظم الجهاد، كلمة عدل، أو حق، عند سلطان جائر.. وفي حالة أخرى يصبح الفرار إلى شعب الجبال لينأىٰ الإنسان بنفسه عن الإصابات والفتن، ويمتلك القدرة على الاحتفاظ بالقضية، هو الحل الأمثل.

وهكذا نجد لكل ظرف وحال، تعامله وأحكامه.

ويبقى المطروح باستمرار: كيف ندرك مقاصد المنهج في كل مرحلة؟ وكيف نتعامل مع هذا المنهج من خلال العصر؟ وكيف نتعامل مع العصر ونقوِّم حركته ومسالكه، من خلال المنهج؟

لا شك أن الكتابة في المنهج، ليس بالأمر السهل، وأنه اليوم بحاجة إلى جهود جماعية، وتخصصات متنوعة، في شعب المعرفة المختلفة، لتحقق أمرين لابد منهما في كل مشروع للنهوض، واستعادة العافية .

أولهما: فقه المنهج النبوي، بعد التأكد من ثبوته، من حيث النقل والحفظ، لأنها المرحلة الأولى والأساس الذي يقوم عليه البناء .

والثاني : هو فقه التعامل مع المنهج ، تطبيقًا على الواقع، الأمر الذي يقتضي فقه الواقع الإقليمي، والعالمي، والإنساني، واستطاعاته .

ولا نزعم للكتاب الذي نقدمه اليوم ، أنه استطاع أن يقدم المأمول، أو أن يحسم بعض الإشكاليات المنهجية، التي يعيشها العقل المسلم، ليحقق النقلة النوعية المطلوبة، من الحفظ، والنقل، والتوصيف، والتحليل، إلى التعليل وامتلاك القدرة على تعدية الرؤية، والتنزيل على الواقع البشري المأزوم، بغياب منهج النبوة .

وحسبنا في هذا الكتاب، أننا طرحنا قضية المنهج النبوي، من وجهة نظر أخرى، ماتزال الدراسات فيها ضنينة ، لأن معظم الدراسات، تمركزت حول منهج الحفظ والنقل، واستنباط الحكم التشريعي، أما أن يكون المنهج النبوي مصدراً للمعرفة بشكل عام ، ومنهجًا للتغيير والبناء الحضاري، فلا تزال الحاجة إليه قائمة وماسة .

ونعتبر أن غاية ما قدمناه ، طرح القضية للمناقشة، وفتح ملفها، وقدم محاولة، قد تكون، نجحت في بعض سعيها، وتعثرت في بعضه الآخر، حيث يعوزها الاستدلال والتوثيق، لتحقق البعد المطلوب، وهي محاولة لاتخرج عن سائر المحاولات، والاجتهادات البشرية، التي يجري عليها الخطأ والصواب، ويؤخذ منها ويرد.. ويبقى المطلوب اليوم بشدة، تضافر الجهود لإعادة استيعاب المنهج النبوي، الذي يشكل المعيارية، لما يؤخذ وما يرد.

حسبة تغيير المنكر



قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيرَ أمَّةٍ أُخرِجَتْ للناسِ تأمُرُونَ بالمعروفِ وتَنْهَوْنَ عن المُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ باللهِ.. ﴾ (آل عمران : ١١٠) .. لقد جعل الله خيرية هذه الأمة وتميزها ، وقوامها، وكيانها ، وخلودها ، واستمراريتها ، منوطًا بقيامها بالحق ، والدعوة إليه، والنشر له ، والإغراء به ، واستمرار حراسته ، والدفاع عنه ، حيث لم يرض الله لها - وهي أمة الرسالة الخاتمة - أن تكون صالحة بذاتها ، بل لا بد أن تكون صالحة بذاتها ، مصلحة لغيرها ، مضحية في سبيل تمكين الحق، مدافعة للباطل، حتى تستحق صفة الخيرية ، والتميز ، والفضل .

قال تعالىٰ : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنُوا كُونُوا قَوَّامينَ لله شُهَدَاءَ بالقِسْطِ ولا يَجرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ الاَّ تَعدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أقْرَبُ للتَّقوَىٰ ﴾ (المائدة : ٨) .

ذلك أن الخاتمية تعني فيما تعني: توقف النبوات .. وتوقف النبوة، يعني : توقف التصويب من السماء، لأي منكر وخروج وانحراف ، لذلك لا بد من أن تكون القوامة على الحق ويكون التصويب مستمرًا، لأن الشر من لوازم الخير ، والمنكر من لوازم المعروف ، والتدافع بين الخير والشر ، والمعروف والمنكر ، من سنن الله الاجتماعية في الخلق ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (الرعد : ١٧) . وقال : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. ﴾ (الحج : ٤٠) .

ولولا هذا الضرب، بين الحق والباطل ، وهذا التدافع، بين الخير والشر، لتوقف التاريخ ، وانتهت الحياة ، وتوقف الاختيار ، ولم يبق أي معنى للتكليف وأي مدلول للابتلاء ، لذلك جعل الله التصويب في الرسالة الخاتمة ، وفي أمة الرسالة الخاتمة ذاتيًا ، يمارس في ضوء قيم وهدايات وثوابت الوحي ، وجعله تكليفًا

شرعيًا، يتحدد بمقدار الاستطاعة ، وسبيلاً لاستمرار الأمة ، ومناط خيريتها ، وتميزها ، كما أسلفنا .

ذلك أنه لا معنى لخلود الرسالة ، الذي يعني استمرار الحق ، واستمرار حراسته، والقيام به ، وتقديم النماذج التي تجسده في كل زمان ومكان ، إذا لم يستمر التصويب ويستمر التجديد وإنتاج النماذج، وتستمر الأمة القائمة به .

وقد بُعث محمدٌ ﷺ في الأمة رسولاً منها ، يتلو عليها، آيات الله ، ويزكيها ، ويعلمها الكتاب والحكمة ، ويضع عنها إصرها والأغلال التي كانت عليها ، يشهد عليها ، ويصوب مسارها لتتحقق لها صفة الخيرية ، وتتأهل بشهادة الرسول ﷺ عليها، لتكون شهيدة على الناس إلى قيام الساعة .. فهي أمة القيادة بما أورثها الله من الكتاب، واصطفاها له، لأنها وحدها التي تمتلك الإمكان الحضاري، إمكان التصويب ، بما اختصت من قيم السماء الصحيحة، وتمتلك الشهادة على الناس، ولهم، بما تحقق لها من شهادة الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... ﴾ (الحج : ٧٨) .

وقد يكون من أعظم المخاطر ، التي نعاني منها : غياب شخصية المسلم المعاصر المتوازن ، الذي يعيش التوحيد الحقيقي والانسجام العملي ، بين معارف وهدايات الوحي المعصوم في الكتاب والسنة ، ومدارك ومكتسبات العقل ، أو بين صحيح المنقول ، وصريح المعقول، كما يقول الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ويتخلص من الثنائية وألوان الشرك الذي يؤدي به إلى الانشطار الثقافي والمعرفي ، الذي كان ولا يزال وراء التمزق والضلال الثقافي ، للوصول إلى إعادة إخراج الأمة المسلمة ، وتحقيق شهادة الرسول ﷺ عليها ، وبناء خيرتها، لتكون مؤهلة للشهادة على الناس والقيادة لهم ، هذه الخيرية التي تجيء ثمرة لتكليف ، ومجاهدة ، ومعاناة ،

وتضحيات في سبيل التصويب والمناصحة، التي تحققها حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتقويم سلوك المجتمع المسلم بشرع الله ، وحمل الرحمة للإنسانية جمعاء ، وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان الذي هو مصدر الشر والشرك في العالم، وتامين حرية الإنسان في الاختيار، وتحقيق عبوديته لله ، وتحريره من سائر العبوديات ، وفي ذلك استرداد لإنسانيته، وتحقيق لكرامته ، التي تميزه عن سائر المخلوقات .

الإنسان والسلطة

ولعل من المداخل الرئيسة والأساسية لمشروعية التقويم، والنقد، والمناصحة، والمراجعة، والمعارضة ، والاختلاف، والتعددية، في التصور الإسلامي ، والذي يتمثل في أداء حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، التي تكون بها خيرية الأمة المسلمة، وأهليتها، وامتدادها : أن نُسارع إلى إيضاح دور الإسلام في تصويب المعادلة ، وتحرير العلاقة بين الإنسان والسلطة ، أو بين الحاكم والمحكوم ، أو نبين الأساس العقدي الديني لهذا العقد الاجتماعي، الذي يجعل من حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مسؤولية تضامنية وديناً ، لا يمكن إسقاطه أو تجاوزه أو التساهل فيه ، بل لعلنا نقول : إن الأساس العقدي الديني، هو الذي يستدعي هذه الحسبة ، ويضمن شرعيتها ومشروعيتها ، ويرتب عليها التمكين للحق، والاستقامة ، والخيرية في الدنيا ، والثواب في الآخرة .

ذلك أن العلاقة بين السلطة والطغيان ، والعلو في الأرض ، اخذت حيِّزاً كبيراً في تاريخ البشرية الطويل ، حتى لتكاد تكون علاقة تلازم، حيث كان يصعب على صاحب السلطة ، أن يقبل نصحاً ، أو يعترف بخطأ ، أو منكر، أو يتصور

وجود سلطان ، أو رأي ، أو حتى إله غيره، يتجه إليه الناس .لذلك نرى أن قولة فرعون ، كأنموذج للحاكم الظالم المتأله في التاريخ البشري : ﴿ **ما علمت لكم من إله غـيـري** ﴾ (القصص: ٣٨) ، هي قولة خالدة يتلبس فيها كثير من حكام الاستبداد السياسي ، ويمارسونها دون أن يعلنوها صراحة ، ولولا ذلك لكان القرآن كتاب قصة ماضية، وليس كتاب عبرة خالدة باقية، مجردة عن حدود الزمان والمكان .

ولسنا بحاجة إلى استقراء ذلك، والتدليل عليه من تاريخ البشرية الطويل ، ورحلة المعاناة الإنسانية ، وما مر فيها من الفراعين ، والنماريد، والقوارين ، حتى لقد بلغ الغرور بصاحب السلطة في بعض أطوار التاريخ ، التوهم بأنه قادر على مغالبة سلطان الله في المنح والمنع ، والإحياء والموت ، وليس ذلك في إطار الأمور والمسالك الظاهرة فقط ، وإنما التوهم بالقدرة على تعبيد الناس من داخلهم، لذلك استغرب فرعون واستنكر على السحرة إيمانهم ومعارضتهم عندما بدت لهم الحقيقة فقالوا : ﴿ **آمنا برب العالمين . رَبِّ موسى وهارون** ﴾ (الشعراء:٤٧-٤٨) . فما كان منه إلا أن قال : ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذي علمكم السحر** ﴾ (الشعراء : ٤٩)، وكان الإيمان والكفر، والاختيار المقترن بسلطان الحق والدليل، بحاجة لإذن السلطان (الإنسان) .

لذلك نرى أن الكثير من أصحاب السلطان والحكام في التاريخ البشري الطويل، حتى عند اعترافهم بوجود الله ، لم يعترفوا بسلطانه على الأرض ، وعند اعترافهم بهذا السلطان، يحاولون تشويه صورة العبودية لله تعالى ، لتكون في خدمتهم، فيجعلون من أنفسهم آلهة في الأرض ، نيابة عن إله السماء ، ويعلنون أنهم المتحدثون باسم الله، أو المفسرون لتعاليمه، وبذلك يلغون مشروعية أي رأي معارض، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر ، باسم الدين ، بحيث يصبح فعلهم

هو المعروف والحق المطلق ، وكل من يناقشهم أو يعارضهم ، أو يناصحهم، عاصياً لله تعالى، يعاقب بالتحريق ، والتقتيل، وإلغاء الحياة.

لقد عانى الإنسان من هذا الحكم باسم الدين ، أو ما عرف بتاريخ أوروبا باسم الحكم الثيوقراطي ـ الذي يحاول بعض العلمانيين إسقاطه على الإسلام اليوم ـ أشد المعاناة ، حيث لم يعد الحكام يتسلطون على دنيا الإنسان، ويلغون وجوده واختياره ، وإنما يمتد التسلط ، ليشمل أخراه ومصيره (!) وكان من المستحيل عقلاً وواقعًا ، أن يستمر هذا التسلط والتأله، منفصلاً ومنكرًا لله تارة ، ومستخدماً اسم الله وإرادته تارة أخرى .

ونستطيع أن نقول بكل الاطمئنان الذي يشهد له التاريخ ، وتؤكده القيم الإسلامية : إن الإسلام هو الذي أعاد الأمور إلى نصابها ، وصوّب معادلة الإنسان والسلطة ، وجسد هذا التصويب في الواقع العملي للناس، وذلك عندما نزع صفة الألوهية عن كل المخلوقات ، وأعلن المساواة في الإنسانية ، والخلق ، بين الحاكم والمحكوم ، والغني والفقير، واعتبر أن السلطة هي في نهاية المطاف تكليف ، وأمانة، وإجارة، وليست إمارة، وتشريفًا ، وتعاليًا، وتسلطًا، وأنها مسؤولية ، من أعلىٰ وأعظم المسؤوليات ، وأن السلطان إنسان مخلوق ملتزم بشرع الله ، وملزم به، وأن بيعته ، لا تنعقد إلا بهذا الالتزام ، وطاعته لا تستمر إلا بالمحافظة على هذا الالتزام، وأن الأمة مسؤولة، أفراداً وجماعات ، عن مراقبة هذا الالتزام، ومدى سلامته ، وأن بيعته تنحل ، والطاعة له تتوقف في كل أمر بمعصية.. وقد يكون الأمر فوق ذلك ، فلا يقتصر الأمر على التعامل السلبي وهو توقف الطاعة ، بل يتجاوز إلى تحقيق الفعل الإيجابي ، والتكليف الشرعي بالتقويم، الذي يتأتىٰ من حسبة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، التي لم تعد في الإسلام فعلاً وكسباً وتكليفًا ومسؤولية للمحكوم ، بل أصبحت مطلبًا واستدعاءاً من الحاكم نفسه.

ولعل في قوله أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ كأول خليفة في الإسلام ، بعد توقف الوحي، ما يعتبر عقداً اجتماعياً سياسياً ، ودليل عمل وتعامل في الإطار السياسي ، وهو الموقع الأخطر والأدق ، في تاريخ العلاقة بين الإنسان والسلطة، يقول أبو بكر رضي الله عنه في أول كلمة له بعد الخلافة : وُليت أمركم ولست بخيركم ، فإن احسنت فاطيعوني، وإن أسات فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم ، الا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ولا غرو في ذلك، فابو بكر رضي الله عنه، هو صاحب الرسول ﷺ، الذي استقىٰ منه المعنىٰ الإسلامي الذي يحكم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وهو أحد رواة الحديث النبوي الشريف الصحيح ، الذي يقول فيه الرسول ﷺ : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يَعُمَّهُمُ اللّٰهُ بعقابٍ منه» (رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي بأسانيد صحيحة) .

وفي هذا نرىٰ أن الإسلام لم يكتف بإباحة عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنما أوجبها .. والحاكم المسلم، لم يكتف بالسماح لها ، وإنما استدعاها واصّلها ، حتى يكون التزام المسلم بالفكرة ، والالتقاء عليها ، وليس الالتزام بالأشخاص ، والجماعات ، وحتى تكون معايرة القبول والرفض، بالحق والمبدأ والقيمة، وحتى تؤصل قاعدة معرفة الأشخاص بالحق ، لا معرفة الحق بالأشخاص ويصبح معيار المسلم : اعرف الحق تعرف أهله ، وهذا يعتبر المدخل والأساس الشرعي لحسبة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

ولعلنا نلمح من هذا أن عملية الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ليست مهمة المواطن وحده من دون الحاكم ، بل هي مسؤولية تضامنية للجميع ، يهدد غيابها بهلاك المجتمع كله ، وعموم عقاب الله تعالىٰ ، وهي دين وشرع من الله ، لا تتوقف على إذن أحد، فهي ليست وظيفة الحكومة فقط ، ولا وظيفة أفراد بأعيانهم ، لهم صفة رسمية ، وإنما هي وظيفة جماهيرية .. وظيفة الأمة كلها .

العلاقة بين حسبة الأمر بالمعروف... والإيمان

وهنا قضية قد يكون من المفيد أن نعرض لها ، ولو بقدر بسيط ، وهي أن حسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو ما يمكن أن يطلق عليه مصطلح: المناصحة، أو النقد ، أو التقويم ، أو المراجعة ، أو المعارضة، بالمصطلحات السياسية، والمفهومات الحديثة ، لا تتحدد في ضوء الانتماءات السياسية، أو الحزبية ، أو الفكرية ، أو الاجتماعية ، وإنما ترتبط بالإيمان بالقيم الشرعية ابتداءً وانتهاءً ، لذلك قد يكون للمعارضة السياسية في الإسلام مفهومًا خاصًا بها، على خلاف واقعها في الأنظمة السياسية، وبخاصة الديمقراطية منها، ذلك أن الأنظمة الديكتاتورية لا مجال فيها للرأي الآخر، وإنما كيانها قائم على إلغاء الآخر . فالمعارضة والموافقة إنما تدور مع الحق والمعروف حيث يدور، وتنحاز له، وتدافع عنه، سواء كان مطروحًا من الحكومة ، أو كان مطروحًا من المعارضة السياسية ، فالمسلم يُصنف في جانب الحق والمعروف، وينضم إلى الحق، وينصر صاحبه ، ويناصح صاحب المنكر، وينكر على صاحب الباطل ، والمنكر ، حتىٰ ولو كان من أخص جماعته، بل لعل مسؤوليته عن جماعته، وما تقع به من المنكرات ، أعظم وأخص .

وفي تقديري لو أن العاملين للإسلام فقهوا هذه الحقيقة، وهم فاقهوها، بلا شك من الناحية النظرية على الأقل، لكن لو تدربوا على ممارستها عمليًّا، وتجاوزوا بمواقفهم بعض الضغوط السياسية والاجتماعية التي تحملهم إلى ردود الفعل الغاضبة في بعض الأحيان، لاستطاعوا أن يقدموا أنموذجًا متفردًا يثير الاقتداء ، في عالم السياسة والاجتماع ، ولبرهنوا للأمة بشكل عام، ولخصومهم بالدرجة

الأولى، علىٰ أنهم دعاة حق ومعروف ، حتىٰ ولو كان القائم به وعليه عبداً حبشيًّا، كأن رأسه زبيبة، وليسوا طلاب مناصب، وتحقيق مصالح آنية، وليبرهنوا أيضًا أن الجماعات والحكومات والتنظيمات في التصور الإسلامي ، ما هي إلا وسائل لإحقاق الحق والأمر بالمعروف ، وإنكار الباطل، والنهي عن المنكر.

وقد تكون المشكلة الأساسية: في امتلاك القدرة، والصبر على تحقيق النتائج ، وعدم الاستعجال للوصول إليها، لأن من طبيعة هذه الممارسة، بطء ترتب النتائج المرجوة عليها، ذلك أن الأمر يقتضي الصبر والمصابرة والمرابطة جميعًا .

لذلك قد تكون المشكلة كل المشكلة، في خضوع العاملين للإسلام لقواعد اللعبة الديمقراطية، بالمفهوم السياسي الغربي، وانسلاكهم في إطارها ، في القبول والرفض ، والموافقة والمعارضة ، وعجزهم عن تقديم أنموذج المفهوم الإسلامي ، بأبعاده المطلوبة في حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد تكون مشكلة العقل المعاصر ، الذي تَشكَّل في المناخ الاستعماري والصليبي : في تعصبه ، ونظرته الآحادية ، وعدم إبصاره لكثير من القضايا ، والحكم عليها ، إلاَّ من جانب واحد ، أو هو العقل ذو البعد الواحد ، أو الإنسان ذو البعد الواحد ، إن صحّ التعبير.

ولعل أبرز مظاهر التعصب : التوهم أن ما يمتلكه الإنسان من رؤية ومعرفة ، يمثل الحق المطلق ، والمعيار الأساس ، الذي يمنع صاحبه الاَّ يبصر غيره ، ولا يرىٰ إلاَّ من خلاله ، للمنكر والمعروف ، والمقبول والمرفوض .

وهذا الأمر يتجلىٰ ، أكثر ما يتجلىٰ، اليوم في النظر للإسلام ، والحكم عليه ، من خلال مجازفات ، وأهواء ، ورغائب، تزري بالعقل حقيقة، لأنها دون البحث الموضوعي ، والنظر العلمي ، والمنهج المعرفي الصحيح ، لأن هذه النظريات الجائرة

للإسلام ، والحكم عليه ، هي مذاهب تعصبية ، وليست مناهج بحثية موضوعية .

فعلى الرغم من أن الإسلام اعتبر التدين اختياراً ابتداءاً ، وليس إجبارًا، وجعل الحاكم بشرًا ، يجري عليه الخطأ والصواب ، لأول مرة في تاريخ البشرية الطويل ، وجعل مناصحته ومراجعته ، وأمره ونهيه ، دينًا، وجعل طاعته واستمراره ، مرهونًا بالتزامه بالشرع الذي اختير لحراسته والقيام به ، وجعل عزله عند العدول عن إقامة الشرع، واجبًا شرعياً للأمة، وجعل التعددية والمعارضة شريعة ، وجعل العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، عقداً اجتماعياً ، له مقوماته ، وأركانه ، وشروط استمراره ـ الأمور التي يدّعىٰ لها أنها من ركائز الديموقراطية المعاصرة ـ مع ذلك كله، يستمر أعداء الإسلام المتعصبون بالقول : بأن الإسلام عقبة في وجه الديمقراطية (!) .

نحن هنا لا نريد أن نبحث ، أو نمارس عملية المقاربة بين الديموقراطية الغربية ، ورقاباتها ، والشورىٰ الإسلامية ، وأبعاد حسبة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولا المقارنة أيضًا ، لأن الأمر ليس موضوعنا هنا ، وإنما نريد أن نوضح أنه على الرغم من حرية الرأي التي تتيحها حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتوجبها ، وتستدعيها، حتى لم تعد في الإسلام حقًا فقط ، بل أصبحت واجبًا أيضًا ، وأنها منوطة بالجماهير المسلمة كلها ، والتي سبق إلى تقريرها الإسلام ، في الوقت الذي كانت أوربا تعيش ظلام الحكم الإقطاعي ، واستبداد الحكم الثيوقراطي الديني . . . مع ذلك يبقىٰ الإسلام ، إرهابيًا ، وأصوليًا ، في طبيعته، ويبقىٰ عقبة أمام الديموقراطية (!!) .

(انظر : الدين والموجة الثالثة (Religion and The Third Wave) ، صموبل ب. هنتنجتون ، مجلة ذي انترناشونال إنترست ، العدد ٢٤، صيف ١٩٩١م) .

مرجعية التحسين والتقبيح

وهنا قضية أرى انه لا بد من إعادة طرحها ، والتذكير بها ، لأنها ليست جديدة ، وإن كان الواقع الذي انتهىٰ إليه الناس ، يقتضي إعادة طرحها ، وتجديد النظر إليها وهي : أن الحسن والقبح ، أو التحسين والتقبيح ، أو المنكر والمعروف ، لا بد أن يكونا شرعيين ، وأن يكون الشرع الإلهي هو معيار التعرف عليهما، والحكم بقبولها ، أو ردهما .

ونحن هنا لا نقول بنفي العقل ، ولا نحكم بعدم قدرته على التمييز الفطري ، والكسبي ، نتيجة التجارب والتراكم المعرفي ، والمسح الاجتماعي ، بين الحسن والقبيح ، والمعروف والمنكر ، وإنما الذي نريد إيضاحه : ان العقل مُعْتَمدٌ شرعًا ، في ميدانه واستطاعاته ، وأنه محل النظر ، والتفكير ، والتمييز ، والاعتبار ، والتكيف ، وإدراك مقاصد التشريع وحكمته وعلته ، لكن العقل باستطاعاته النسبية ، وإمكاناته المقيدة بحدود الزمان والمكان، وكسبه المعرفي والعلمي المحدود، الذي يعتبر جزئيًا ، وبعيداً على الإحاطة ، لا يستطيع، لا عقلاً ولا واقعًا، أن يستقل في عملية التحسين والتقبيح ، أو التعريف والإنكار . . بل لا بد له من إطار مرجعي يتحرك في نطاقه ، وضوابط منهجية مستمدة من الوحي المعصوم ، الصادر عن العليم ، علمًا مطلقًا، ومحيط إحاطة كاملة، غير خاضع لقيود الزمان والمكان ، ونسبية الإمكانات والمعارف ، وغير خاضع للشهوة والهوىٰ ونوازع الشر ، والضغوط الاجتماعية ، والرغبة والرهبة في الحكم على الأمور ، ومعايرة المنكر والمعروف .

لذلك نرىٰ أن الحضارة المنسلخة عن مرجعية الدين ، وضوابطه المنهجية ، تدفع اليوم ضريبة هذا الانسلاخ ، من أمنها النفسي ، وسعادتها الأسرية ، وعلاقاتها

الاجتماعية ، وتتفشىٰ فيها الأمراض الجنسية والاجتماعية ، التي لم تكن في أسلافها ، حيث أصبح المنكر فيها معروفًا ، والمعروف منكرًا ، وتتغلب فيها المتع واللذائذ الفانية ، على السعادة الباقية ، وتزداد يومًا بعد يوم العيادات النفسية ، والأمراض الجنسية ، لأنها تفعل في ناديها المنكر ، إلى درجة أصبح يروج معها للشذوذ والانحراف ، باسم الحرية الشخصية ، وترتفع الأصوات هنا وهناك لتحقيق الشرعية القانونية للشذوذ والمنكرات ، بعد أن كادت تتحقق له الشرعية الاجتماعية . .

وحتى العقل الذي التجأوا إليه كبديل للوحي ، لم يلتزموا بأحكامه، ويقفوا عند حدوده ، وإنما تجاوزوه ، وأصبح عند الكثير منهم يمثل الصورة المزيفة للإنسان، لأنه يقيد حريته ، ويحول دون رغباته ، ويأمره بالتكيف حسب أعراف المجتمع، لذلك فما على الإنسان الذي يريد أن يستمتع بحياته ، إلا أن يُسقط هذا العقل، وينطلق هكذا بشكل بوهيمي ، يفعل ما يحلو له (في مذاهب الوجودية واللامنتمي) .

وهكذا عندما تكون معايير المعروف والمنكر من وضع الإنسان ، تصبح القيم كدمى الأطفال ، يحركونها كيف يشاء ون، إذ لا يمكن أن تكون القيم من وضع الإنسان، ومن ثم يقيد نفسه بها .

أبعاد شهادة الأمة على الناس

وقضية أخرى ، قد يكون من المفيد الإشارة إليها، ولو سريعاً ، وهي : أن الأمة المسلمة التي اصطفيت لوراثة الكتاب الخاتم ، لم تقتصر شهادتها ومعايرتها وتصويبها للحاضر ، واستشراف وبناء المستقبل ، وتقويم سلوكه في ضوء هدايات

الوحي ، وإنما امتدت شهادتها ومسؤوليتها لتقويم التاريخ ، وتحقيق العبرة منه ، ببيان العلل والإصابات ، والسنن التي حكمت السقوط والنهوض الحضاري ، حتى تأخذ الأمة المسلمة حذرها، وحتى لا تنتقل علل الأمم السابقة إلى أمة الرسالة الخاتمة، وهيَ بذلك المعنىٰ أمة خالدة ممتدة المقاصد، شاهدة على الزمن، بأبعاده الثلاثة : التاريخ الماضي، والحاضر والمستقبل .

هذا الشهود الحضاري، أو هذه الحسبة في القوامة على الحق، التي تقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا تخص جيلاً ، ولا زمانًا، ولا مكانًا، وليست حكرًا علىٰ جماعة أو فئة، أو حكومة، أو حزب، أو طائفة ، وإنما هي وظيفة الأمة بكل أجيالها المتداخلة، وسبب خيريتها، وسر بقائها واستمرارها ، ومبرر وجودها، ولا خير فيها إن لم تقم بها وتدعو إليها، وتستمر في القوامه عليها وحراستها .

والأمر اللافت للنظر ، أن أمر هذه الحسبة ـ القوامة على الحق، ومقتضياته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ ارتبط بالأمة بكل مفهومها وعمومها، بنص القرآن ، ولم يرتبط بالدولة ، ولا بالحكومات التي قد تضعف عنه ، وقد تقوىٰ له، وقد تكون لها ظروفها وعلاقاتها التي تحول بينها ، وبين القيام بهذا الخير ، لذلك رأىٰ الكثير من المفسرين في قوله تعالى: ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ (آل عمران: ١٠٤) ، أن كلمة ﴿ **من** ﴾ في ﴿ **منكم** ﴾، بيانية تعم جميع الأمة ، ولا تقتصر علىٰ فئات وشرائح منها ، لتكون حراسة الحق ورقابته، عامة ، ومسؤولية تضامنية ، ولتكون عقوبة القعود عنها ، جماعية تنال حتى الصالحين من الأمة ، إذا حاولوا النجاة بأنفسهم فقعدوا عن القيام بالمسؤولية، لذلك قال تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ (الأنفال: ٢٥). فالظالمون والخارجون على القيم لا بد من ردعهم، وردهم، ووقوف الأمة

بوجههم، حتى لا يشيع الفساد والمنكر، ويعم ويكثر الخبث، وتهدد الأمة بالسقوط ، وتأتي هنا قولة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها للرسول ﷺ : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : **«نعم، إذا كثر الخبث»** ، لتشكل الرؤية الشرعية التي لا بد أن تتحقق في كل مسلم .

مظاهر من الهزيمة النفسية

وقد تكون المشكلة حقيقة اليوم ، وقد عمت الفتنة، وكثر الخبث، وأصبحت معها الأمة مهددة بالهلاك، لانعزال الصالحين عنها ، وانسحابهم من المجتمع ، وقعود الكثير منهم عن القيام بحسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير . . . قد تكون المشكلة بأن مناخ الفتنة والهزيمة النفسية ، وتربية حواس الذل في الأمة، والتطبيع على الهزيمة ، والمنكر ، وتأليفه للنفوس، في أن ينعكس هذا التطبيع على فهم النصوص، الداعية إلى القوامة على الحق ، والتضحية في سبيله والجهاد من أجله ، ومحاولة تفسيرها وتأويلها بما يكرس الهزيمة ويوطن الفساد ، ويمكِّن له في الأرض ، ويؤذن بتتابع الأزمات وخراب العمران.

وعملية تطبيع الهزيمة، وتفسير النصوص في الكتاب والسنة، وتأويلها في إطار مناخها، ووفق مقتضياها، وتقطيع الرؤية القرآنية، وبيانها في السنة والسيرة ، ومحاولة إسقاطها على واقع معين ، لتسويغه والتمكين لشرعيته ، ومحاصرة حسبة القوامة على الحق ، ومستلزماتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتكريس للانسحاب من المجتمع، والخروج من المعركة ، بين الحق والباطل، وإيثار السلامة الخادعة، ليست جديدة ولا مبتكرة، بل تعرض لها تاريخ هذه الأمة في إصاباته ومنخفضاته الحضارية ، حيث كثرت فتاوى الحيل والمخارج ، وعظم شأن فقهاء

السلطة ، والاستعمار ، ولكن الحقيقة لم تغب ، وإن ضاقت مساحتها ، في بعض الفترات ، والطائفة القائمة على الحق ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لم تنقطع، وإن انحسرت مساحتها ، ولم يُسجل على هذه الأمة في مرحلة من حياتها، التواطؤ على الخطأ، والتوافق على المنكر ، والتنكر للحق والمعروف ، حتى في أشد الفترات ظلامًا ، واستبدادًا ، واستعمارًا.

لذلك نرىٰ أن الخزي الذي تعاني منه الأمة اليوم بمجموعها ، ما هو إلا بسبب تقطيع الرؤية القرآنية وبيانها في السيرة والسنة، والالتزام ببعض الكتاب والكفر العملي ببعض ، وهو ما حذر منه القرآن، عندما قص علينا سبب خزي الأمم السابقة ، وتواطئها على المنكرات ، وإيمانها ببعض الكتاب، وكفرها ببعض ، حتى لا تنتقل العدوى للمسلمين ، فقال تعالى : **﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾** (البقرة:٨٥) .

إن الخزي والهزيمة النفسية التي لحقت ببعض هذه الأمة، لم تعد تقتصر على أضعف الإيمان ، الوارد في الحديث ، الذي رواه مسلم ، الذي يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» ، وأضعف الإيمان كما أفهمه هنا من الحديث، هو الاحتفاظ بالحق ، الاحتفاظ بالقضية في مرحلة العجز والسقوط، وتحيّن الفرص للتقوّي ، وبناء الذات، لمعاودة طرحها ، والعمل على إظهارها ، والإغراء بها، وهو في بعض صوره ، لون من الانحناء للعاصفة ، والريح العاتية ، حتى تمر ، ومن ثم معاودة الانتصاب، والوقوف لمتابعة النمو ، والسير بالحق ، والقيام به ، ففي بعض الآثار الصحيحة ان المؤمن لا ينكسر، ولا ينقطع، فهو كالنبات اللين ، قد تميله الريح العاتية ، لكن لا تلغيه، وإنما يعود إلى النهوض والنمو ، بل قد تكون الريح القوية

سبباً في إنمائه وتمكينه من الأرض . قال تعالى : ﴿ لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾ (النور: ١١).

نعود إلى القول: إن الخزي ، وتطبيع المنكر، والهزيمة النفسية، التي لحقت ببعض جوانب هذه الأمة في هذه الأيام النحسات، حتى كاد يصبح المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، لم يعد الإنكار لها يقتصر على أضعف الإيمان، الذي يعني: الاحتفاظ بالقضية حتى تتوفر الإمكانات وتتاح الظروف، كما أسلفنا ، وإنما تجاوز أضعف الإيمان إلىٰ ما دونه.. إلى محاولات إلغاء القضية أصلاً ، ومحاولة إطفاء فاعلية الأمة، وإلغاء مفهوم الجهاد، وتهميش أبعاده ، ومدلولاته ، واعتبار حسبة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر، وظيفة الحكومة، التي قد تكون محل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر، والأحوج لتقويم أدائها ..

إن مفهوم الجهاد اليوم، بدأ يُهمش وينتقص ويحاصر ويعبث به بوضع المقدمات الخاطئة ، التي أملتها ردود الفعل ، وحالات الهزيمة ، والانكسار، للوصول بالأمة إلىٰ النتائج الخاطئة ، باسم التكييف الفقهي لعملية الجهاد .

يقول الشاعر :

يُقضىٰ علىٰ المرءِ في أيَّامِ مِحْنَتِهِ ... حتَّىٰ يرىٰ حَسَنًا مَا ليسَ بِالحَسَنِ

وهذه من أخطر مراحل الخزي ، ومن أشد إصابات السقوط، إلىٰ درجة أصبح فيها القائم على الحق غريباً ، ومستغرباً ، ومتشدداً ، ومتطرفًا ، وأصوليًا ، إلى آخر هذه المصطلحات التي لا علاقة لها بنا ، ولا هي ثمرة لفكرنا ومعاناتنا الاجتماعية والسياسية ، إنما ألقيت علينا من الخارج الإسلامي ، وشاعت فينا .. وقعنا في أسر مدلولاتها من الناحية الثقافية والإعلامية ، حتى أصبحنا أكثر استعمالاً لها من أصحابها ، والتي بدأت تشل حركة الدعوة، وتحاصر حسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر .. وأكثر من ذلك، إنها تمارس تطبيع المنكر ثقافيًا ، وتجعل

المعروف منكرًا ، والمنكر معروفًا .. وهذه الحالة المنكوسة التي تنقلب فيها الأمم على أعقابها ثقافيًا ، وتصبح سلعة يُتصرف فيها من قبل خصومها ، تعتبر من أخطر مراحل السقوط والاستلاب الحضاري .

ولعل الخير كل الخير ـ «وخير القرون قرني ثم الذين يلونـهم» ، أو كما قال الرسول ﷺ ـ في أن فترة السيرة والخلافة الراشدة، المشهود لها من الرسول ﷺ هي فترة القدوة، في تحقيق الرؤية القرآنية، وبيانها النبوي، وتنزيل النصوص على واقع الناس، لتكون هذه الفترة الراشدية دليلاً ومعـياراً لكل العصـور ، حتى لا تزل قـدم بعد ثبوتها ، وحتى لا يكرس التضليل الثقافي، ويطبّع المنكر ، وخاصة في فترات الهزائم والانكسارات ، فيصبح الدليل والمعيار للأمة ، في مقارعة المنكر ومناصرة الحق ، حيث تقتل روح الأمة، وتنتقص معاني الجهاد فيها ، فتصبح من خوف الموت في موت ، ومن خوف الذل في ذل ، حيث يحتلها الوهن، ويكثر فيها الغثاء ، وتتقطع أوصالها ، وتلجأ إلىٰ دخول جحور الضباب، من الجنس، واللون ، والقوم ، والقبيلة ، والعشيرة ، وما إلى ذلك ، وتغيب معها المشروعيات العليا ، ويصبح مستنكرًا كل صوت يخرج عن إيقاع هذا السبات العام ، ويغيب الشهود الحضاري، ويتحول المجتمع إلى حالة الركود والاستنقاع الحضاري ، ويشيع فقه المخارج ، ويُغيّب فقه المقاصد ، وتصبح غاية المقصود درء المفاسد ، التي تعني المحافظة على حالة الركود ، وتُفتقد الفاعلية والنهوض، والقوامة على الحق، ومواجهة المنكر الذي يقتضيه فقه جلب المنافع ، وتحقيق المقاصد .

وعملية التغيير من الحسن إلى الأحسن ، ومن المفضول إلى الفاضل، أو تغيير المنكر ، وآليات محاصرة السلبيات ، والتحويل الثقافي والسلوكي للمجتمعات، أو ما يسمىٰ : الحراسة الدائمة للقيم والمشروعيات العليا للأمة ، والرقابة المستمرة لها، وزيادة فاعليتها ، أو تفعيلها، كما يقال ، أصبحت اليوم ، علماً قائماً بذاته،

له وسائله، وآلياته، وشروطه، وخططه، وأوعيته المتنوعة، وتخصصاته الكثيرة، حيث تشارك فيه عدة علوم من مثل علم الاجتماع، وعلم المجتمع، والنفس، والتاريخ، والإعلام، والتربية .. ولم يعد عملاً بسيطًا ساذجًا، وإنما أصبح ثمرة لمجموعة علوم، وخبرات، ومعارف، متراكبة ومتراكمة، يبتدئ من الإحاطة والرؤية الشمولية لواقع الحال، واكتشاف السنن والأسباب التي تحكمه وتنشئه، ووضع الخطط ورسم سبل التغيير للخروج منه تدريجيًا، في ضوء الإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة، واعتماد الزمن كعنصر لا بد منه لإنضاج التغيير.

أهمية توفر القناعات النفسية بالتغيير

هذا كله، يمكن أن يكون في إطار الوسائل والآليات، لكن لا بد أن يسبق ذلك كله تحصيل القناعات النفسية بالتغيير، وإبصار صور المستقبل البديل من المعروف، ذلك أن مشكلة الكثير من دعاة التغيير للمنكر، وممارسيه، أنهم يفتقدون الرؤية الشمولية، ويعجزون عن استشراف المستقبل، ورؤية البديل، ومدى ملاءمته، فيدافعون المنكر، دون دراية أو فقه، فيؤدي ذلك إلى مساهمة سلبية منهم، في التمكين لمنكر آخر، أشد خطورة وضراوة منه.. والأخطر من ذلك أن توظف طاقاتهم وتضحياتهم وأرواحهم من قبل خصومهم، وتوجه صوب مقارعة منكر، بعيداً عن أي بصيرة للمستقبل، فيصب ذلك في مصلحة خصومهم وأعداء قضيتهم.

لذلك لا بد أن تكون الصورة متكاملة، والمعادلة واضحة في ذهن المسلم اليوم، ومن هنا ندرك لماذا قدم الرسول ﷺ، أثناء التكليف بهذه الحسبة، مهمة الأمر

بالمعروف على النهي عن المنكر ، ذلك أن إزالة المنكر دون رؤية المعروف البديل، قد تفقد العمل الكثير من جدواه، فلا بد إذن من الإملاء بعد الإخلاء، كما يقولون ، وأن يكون الإملاء واضحاً منذ البداية ، فإذا كان الإخلاء دون الإملاء ، فسوف يملأ الفراغ بأشياء قد لا تكون لمصلحة الحق ، ومن هنا كان رأي الفقهاء بأن مدافعة، المنكر لا تُشرع إذا كان سوف يؤدي إلى منكر أشد منه وأخطر .

هذه القضايا أصبحت اليوم علوماً في علم ـ كما أسلفنا ـ ولم تعد خاضعة للرغبات والأماني ، بل لقد تفرعت قضايا الرقابة العامة إلى عدة تخصصات ، فهناك الرقابة الإدارية ، والرقابة المالية ، والرقابة الثقافية ، والرقابة الاقتصادية ، والرقابة الإعلامية ، ولكل آلياتها ووسائلها . حتى لقد تجاوزت وفاقت هذه الرقابات، وخاصة الرقابة العامة بأوعيتها الإعلامية المتعددة، المقروءة، والمسموعة ، والمرئية، سلطات الدول والحكومات وامتلكت من القدرات ما يجعلها قادرة على إسقاط سلطة الدول والحكومات، وزعمائها الكبار، ومراقبة أدائهم وتعقب أخطائهم، وكشف زيفهم، وتواطئهم على الخطأ، حتى أصبحت تتبع حياتهم الشخصية، فتكون انحرافاتهم الشخصية سبباً في إسقاطهم، وإلغائهم اجتماعياً ، على الرغم من أن هذه المجتمعات تعتبر من مجتمعات الإباحية ، وإطلاق العنان لما يسمىٰ الحرية الشخصية .

ومن هنا ندرك أهمية حسبة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وكيف أنها تكليف مرافق لتشريعات القيم الإسلامية ، وندرك مدى أهمية إحياء هذه الحسبة وأهمية الارتقاء بها إلى مستوى التكليف الشرعي، ومستوى العصر معًا ، وندرك أيضًا أهمية استمرارها في الأمة المسلمة ، وكونها مسؤولية تضامنية ، ودورها في استمرار الخيرية والتميز لهذه الأمة الخاتمة الخالدة .

الدورة الحضارية الثالثة

قد تكون الخطورة المتمثلة في الحضارة القائمة ، الغالبة حاليًا ، وسيطرتها ، وطول بقائها ، على الرغم من أنها دخلت الدورة الحضارية الثالثة والنهائية ، التي يطلقون عليها : دورة الغريزة ، التي تأذن بسقوطها مهما طال بها الزمن ، قد يكون طول بقائها واستمرار سطوتها، يعود من بعض الوجوه، إلى إنها حضارة تكتشف أخطاءها بنفسها ، وتمارس في سبيل ذلك عمليات الإحصاء والمسح الاجتماعي، واختبار العينات في كل ميدان اجتماعي وإنساني ، لدراسة الظواهر ، ومعرفة أسبابها ، وجمع جيوش من الباحثين والمتخصصين والمفكرين في المجالات المختلفة ، وإقامة مؤسسات البحث العلمي ، ومراكز البحوث والمعلومات، للنظر ، والبحث، والاستقراء ، والاستنتاج ، ومحاولات العلاج .

وأعتقد أن تعقب الأخطاء والمنكرات ، ومحاولة دراسة أسبابها ، وعلاجها ، يأتي على رأس قائمة حسبة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتكليف بها في الإسلام ، واعتبارها دينًا من الدين ، تتحدد مسؤوليته أمام الله تعالى . والمسلمون اليوم أحق بها ، خاصة وأن معاييرها منضبطة عندهم بعطاء الوحي .

وقد تكون المشكلة أو الإصابة الحضارية والثقافية ، أننا في العالم الإسلامي الذي أصبح ، بسبب أنظمة الاستبداد السياسي ، وغياب حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بالشكل المناسب ، محلاً لنفايات الحضارات الغالبة أو المتحكمة ، قد تكون المشكلة أو الإصابة، أن بعضنا يخادع نفسه بالسلامة الكاذبة ، فلا يكلف نفسه تحري المشكلات ، ودراسة أسبابها ، ووضع الحلول المعالجة، قياماً بحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونكتفي برجم الحضارة الغالبة الغازية، ونتحدث عن أسباب تآكلها ، وحتمية سقوطها ، ونقدم بعض الأدلة من الإحصاءات والدراسات ، دون أن ندري أن هذه الإحصاءات ، وتلك الاكتشافات من إنتاج أهل تلك الحضارة ، فهم الذين يكتشفونها، ونحن نكتفي

بنقلها وقراءتها ، ونستمر في المكوث في غرفة الانتظار ، حتى تسقط الحضارة الغالبة لصالحنا ، دون أن ندري أن التحول الحضاري إلينا ، له شروطه ومستلزماته، ومؤهلاته ، وسننه المفقودة في واقعنا الحالي ، وأن قراءتنا لقوله تعالى : ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (سورة الأنبياء : ١٠٥) ، ما تزال قراءة لا تتجاوز تراقينا ، لأن الصلاح والإصلاح ، وتشكيل البديل ، له مقوماته التي ما تزال مفقودة عملياً ، وإن كانت متوفرة في قيمنا الإسلامية ، وتاريخنا الحضاري .

أمة لن تموت

ولعل من الأمور الجديرة بالإشارة هنا، أن حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لم تنقطع، ولن تنقطع في هذه الأمة ، وأن الطائفة القائمة عليها مستمرة ، لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله، وهي على ذلك ، لأن توقف هذه الطائفة أو انقطاعها، يتناقض مع خلود وخاتمية الرسالة الإسلامية .

لذلك لم تمت الأمة المسلمة تاريخياً ، ولن تموت مستقبلاً ، ما دامت حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قائمة فيها .. وعلى الرغم من خضوع الأمة المسلمة بعمومها، لسنن التداول الحضاري، أو الدورات الحضارية، إلا أن هذه الدورات لم تحكمها من كل وجه، ولم تنطبق عليها تمام الانطباق .

ولعل السبب في ذلك : أن القيم المعيارية فيها، من عطاء الوحي ، وليست من وضع الإنسان، كما هو الحال في سائر الحضارات، السائدة والبائدة، والاستقراء التاريخي يؤكد ذلك .

فإذا سلمنا مع من يقول بسنة التداول الحضاري، أو الدورات الحضارية، فإن فرضية حسبة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، التي تقتضي تقويم حياة الأمة

بقيم الكتاب والسنة ، ومعالجة الأخطاء الذاتية، وعدم التواطؤ عليها ، تعني : استمرار دورة الفاعلية والانطلاق، وعدم غيابها أو تغييبها ، أو ما يعبر عنه في الدورات الحضارية : بمرحلة الفكرة، أو مرحلة الروح . ذلك أن مرحلة الروح هذه، تعني بروز إنسان الواجب، والإيثار ، والإحسان، وغياب إنسان طلب الحق والأثرة . . بينما في الدورة الحضارية الثانية، في مرحلة ما يطلق عليه : مرحلة العقل، أو العدل، حيث تتعادل كفتا الميزان الحضارية، يبرز الإنسان المؤدي للواجب المطالب بالحق ، ويغيب إنسان الإيثار والاحتساب ، والإحسان، إلى حد بعيد .

ومن ثم تأتي الدورة الحضارية النهائية : مرحلة الغريزة، التي تؤذن بالانقراض والموت ، والأفول الحضاري ، فيغيب إنسان الواجب والحق، ويبرز إنسان الحق فقط ، الذي لا يبصر إلا ما له، دون أن يقوم بما عليه، أو يستشعر مسؤوليته تجاه الآخرين، ويتحول الإنسان المنتج في هذه المرحلة، والإنسان المنتج، المستهلك في المرحلة، الثانية ، إلى إنسان مستهلك فقط، دون إنتاج فتسقط الحضارة، وتعم حالة الغثاء ، والوهن، وتسقط الأمة في مرحلة القصعة، فيكثر الأكلة من الداخل ، والتداعي عليها من الخارج ، ويستحوذ على الناس حب الدنيا وكراهية الموت ، ذلك أن حب الدنيا، يعني الاستهلاك ، والقعود عن الإنتاج ، بينما كان إنسان الإسلام، إنسان الواجب والإنتاج ، يحب الآخرة ، ويؤثرها على الدنيا .

لذلك نقول : إن حسبة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تعني امتداد مرحلة الروح ، وفاعلية الفكرة، واستمرارية شحذها ، وتجديدها، وعدم انقطاعها . . فقد تضعف الأمة، وتسقط، وتصاب، وتمرض ، لكنها لن تموت، لأن علاجها تحمله في ذاتها . وعلاجها وخيريتها، إنما هو باستمرار القيام على الحق، وتقويم سلوك الأمة، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، كمسؤولية تضامنية تعني كل أفراد الأمة ذكورًا وإناثًا، وتأتي ثمرة للموالاة : فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، حيث نلحظ هنا أن دور المرأة في هذه

الحسبة يعتبر من وظائفها الأساسية ، وثمرة لموالاتها، ومن لوازم إيمانها وولائها لأمتها ، وقيامها بأمر دينها. . لقد ارتقت هذه الحسبة بالمرأة ، وارتقت المرأة بها ، حتى وقفت في المسجد ، وفي مرحلة القدوة ، في خير القرون ، تأمر وتنهىٰ خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه .

فالدين في غاياته النهائية هو القيام بحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث لخصه الرسول ﷺ ـ فيما روي عن تميم الداري ـ بقوله : «**الدين النصيحة**» ، قلنا لمن ؟ قال : «**لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم**» (رواه مسلم) .

ومن هنا ندرك خطورة دعوىٰ فصل قيم الدين، عن مسالك الحياة، والممارسات اليومية ، وكيف أن هذه المفهومات الدخيلة، بدأت تحاصر حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بسبب شيوع الاستبداد السياسي والارتهان الحضاري . . لقد بدأت تتعطل وتُهمش هذه الحسبة، بسبب التضليل الثقافي ، وتُتَجَاوز من أجل تكريس فلسفات الهزائم، وشيوع مناخها ، وتُنتقص بسبب التأويل الفاسد للنصوص، والتنزيل المغشوش لها على الواقع، وتقطَّع وتبعَّض بسبب حالة الخزي التي تعيشها الأمة في تمثلها للرؤية القرآنية الشاملة، ويعبث بأسباب النزول، وإسقاط هذه التفاريق على أحوال ووقائع ليست لها، والعودة إلى فقه الحيل، الذي من أبرز مهامه وغاياته : إخضاع القيم الإسلامية والأحكام الشرعية للواقع، وتسويغه بها، بدل أن يُقوِّم الواقع ويسدد بها .

ويبقىٰ الأمر الذي لا يقل عن ذلك أهمية في هذا المجال ، هو الخروج بهذه الحسبة العظيمة من إطار الممارسة البسيطة والساذجة أحيانًا ـ التي لم تتطور وتمتد مع تطور المجتمعات ـ إلى إبداع الأوعية الرقابية والإعلامية ، المتقدمة، التي تتوفر عليها اليوم تخصصات متعددة ، حتى نتمكن من ممارسة التغيير المأمول ، وتحقيق البديل المطلوب، في ضوء دراية بالواقع، وفقه بالنص ، وحتى نكون في مستوىٰ عصرنا ممارسةً ، وإسلامنا هداية، ومرجعية، وهدفًا .

سُنَّة التَّدَافع
وَالتغيير الحَضَاري

٢٨٤٣/١٣



اصطفى الله سبحانه وتعالى الأمة المسلمة، لوراثة الكتاب بقوله: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ (فاطر:٣٢)، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، بما تحمل من رسالة، وما تقوم به من وظيفة، وما تؤديه من أمانة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (آل عمران:١١٠)، وما تقيمه من موازين العدل، والرحمة في حياة الناس، وتقوّم سلوكهم بشرع الله، لأنها الأمة الوسط، الأمة المعيار التي وكل إليها، بما تمتلك من قيم الوحي السماوي السليم، الشهادة على الناس، وتصويب مسيرتهم، قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾ (البقرة:١٤٣)، وبما تمتلك من رصيد التجربة التاريخية للأنبياء مع أقوامهم، إضافة إلى ماتتمتع به من خصائص، وصفات إنسانية، ماتزال مفقودة عند كثير من الأمم، التي يقوم كيانها على العروق، والأجناس، والألوان، وما يشابهها من الأمور القسرية، التي لا يد للإنسان في كسبها، والتي مهما ادعى صاحبها الرقي والحضارة، لا تنجو من التمييز، والتعصب، والروح العدوانية، تجاه الآخر، والشعور بالتعالي، الذي يقود إلى الحقد، والنزاع غير المشروع، ويكفي تاريخها وواقعها دليلاً، على أن هذه الأمم، بخصائصها، ومقوماتها، التي هي عليها، لا تمتلك رسالة إنسانية، وعطاءً عالميًا، وامتدادًا تاريخيًا، إلا بفعل السيطرة والاستعمار، لأنها ترفض باصل تكوينها، فلسفة المساواة الإنسانية، وتحقيق تكافؤ الفرص، وحرية الاختيار، التي تعتبر روح الحضارة الممتدة، حيث تتأصل بها كرامة الإنسان.

وقد تكون مشكلة المسلمين، وخاصة في مراحل الكمود، والخمود، والوهن

الحضاري، وشيوع التقليد، وغياب الوعي الجماعي، وانطفاء الفاعلية، في محاولة بعضهم التفكير بدخول جحور الضباب - حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه - التي تعيشها الحضارات الأخرى، واختزال التاريخ الحضاري، بعصر واحد، والانبهار بالطفرات الحضارية، أو الخداع الحضاري، واستبدال الذي هو أدنى، بالذي هو خير، والعجز عن إدراك الإمكان الحضاري، الذي تمتلكه الأمة المسلمة، لو تمثلت إسلامها، واستشرفت ماضيها، وأبصرت مستقبلها حقيقة.

لقد جاء الرسول القدوة ﷺ للعالمين بشيراً ونذيراً، وكانت الغاية من ابتعاثه، إخراج الناس، من الظلمات إلى النور، ووضع الآصار والأغلال التي عليهم، وتزكية البشرية، وإلحاق الرحمة بها، قال تعالى : ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وتقديم الأنموذج الحضاري الإنساني، على الأصعدة المتعددة، المتحقق من خلال عزمات البشر، وهدايات الوحي، المرشد إلى سنن البناء، ليكون محلاً للاقتداء والتاسي، بعيداً عن عبث الإنسان، وأهواء الإنسان، وتسلط الإنسان على الإنسان ، حيث لا أسوة بغيره، ولا اقتداء بسواه، لأنه مسدد بالوحي، ومؤيد به، وكل إنسان غيره، يؤخذ من كلامه ويرد، ويجري عليه الخطأ والصواب، والانحراف والاستقامة.

لذلك كان من أهم عوامل الإمكان، والارتكاز الحضاري، امتلاك الأمة المسلمة للقيم السماوية السليمة، التي لم يداخلها تحريف، ولا تبديل، إلى جانب امتلاكها أنموذج الاقتداء والتجسيد، والعطاء لهذه القيم، الذي استوعب جميع الأحوال التي تمر بها الأمة، من سقوط ونهوض، واستضعاف وتمكين، ودعوة ودولة، على مستوى الفرد، والمجتمع، والأمة، والدولة.. إنها أمة تمتلك القيم، وتمتلك الأنموذج التطبيقي، ليكون دليلها في كل حالة تمر بها.

وقد يكون من الأمور الأساسية في مجال البناء الثقافي والتربوي : إعادة بناء

فاعلية المسلم المعاصر، الصالح بنفسه، المصلح لغيره، من خلال إحياء وعيه، بموقعه الثقافي، ورسالته الإنسانية، وأمته المعيار، وإمكاناته في النهوض، وقدرته على استئناف السير، وإحياء شخصيته الحضارية التاريخية، وتوضيح ملامح حضارته، وبيان قسماتها، ونقاط ارتكازها، والدور المنوط به اليوم – على الرغم مما يعانيه – «لإخراج الناس، من عبادة العباد، إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام»، واستنقاذه من العبث الثقافي، والضلال الحضاري، وتبصيره بالسنن الإلـهيـة، في الأنفس والآفاق، التي تحكم الحياة والأحياء، والتي هي أشبه بقوانين مطردة، تمثل أقدار الله الغلابة التي لا تتبدل، ولا تتغير، ليحسن التعامل معها، ويمتلك القدرة على تسخيرها ، ومغالبة قدر بقدر ، والفرار من قدر إلى قدر. يقول ابن القيم رحمه الله : ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله (مدارج السالكين ج١).

التدافع.. سنة اجتماعية

وقد يكون من المفيد هنا ، أن نشير إلى أن الصراع ، أو التدافع، أو التداول، أو الحوار الحضاري ، سنة اجتماعية، من سنن الله تعالى وقوانينه، التي لا تتخلف، ولا تتبدل، كما أنها سنة فردية أيضًا، فالإنسان كفرد، ليس خارجًا عن دائرة الصراع والتدافع الذاتي، في الاختيار بين دوافع الخير، ونوازع الشر، في نفسه، لأن في ذلك تتحدد حرية الإنسان في الاختيار، وتتميز كرامته، ويبين فضله؛ والشر من لوازم الخير، وبضدها تتميز الأشياء.

فالصراع والتدافع، هو سبيل الحيوية، والنمو، والازدياد، وعلامة الحياة

والاستمرار، ابتداءاً من الخلية، وانتهاءاً بالحياة الحية.. وهو إحدى محركات الحياة الاجتماعية، وامتداد التاريخ البشري، وله صوره المتعددة، وشوكاته المتنوعة، من الحوار، والمفاكرة، والمثاقفة، والمناظرة، والقتال، والمواجهة، والمنافسة، والسباق، والمغالبة، كلها صور ومعارك، منها: المشروع المحكوم بضوابط ليست من وضع الإنسان، ومنها ما يستخدم وسائل غير مشروعة، وكل ذلك يقع ضمن دائرة الصراع الحضاري، الذي يندفع من عقائد وأنساق معرفية، ورؤى قيمية، وأنماط حياتية وسلوكية، تمتاز بخصوصيتها، وتسعى للبرهنة على أحقيتها، وإثبات وجودها، فهي أشبه ما تكون في خصوصيتها ببصمات الأصابع، وسحن الوجوه، وملامح الشخصية، لا يمكن أن تتطابق، ذلك أن التطابق، يعني التوقف والموت.

والصراع بين الخير والشر، والعدل والظلم، والحب والحقد، والعفو والثأر، والإيثار والأثرة، والحق والباطل، وبعبارة أخرى: الصراع بين المعروف والمنكر، لا يتوقف إلا بتوقف الحياة.

قال تعالى: ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً** ﴾ (الفرقان:٣١) وقال: ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يزينون لهم زخرف القول غروراً** ﴾ (الأنعام:١١٢).

إنها ابتلاءات الحياة: ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ (المائدة:٤٨).

فإبليس أبى السجود والطاعة لأمر الله، وتمرد، منذ بدء الخليقة، وقال: ﴿ **انظرني إلى يوم يبعثون** ﴾ (الأعراف:١٤) فقال الله تعالى: ﴿ **إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾ (الأعراف:١٥)، واستمرت رحلة الغواية والصراع، وكان لها جولات ممتدة في تاريخ البشرية، أفراداً وجماعات، وأخذت

أشكالاً متنوعة، وفاعليات متفاوتة، واستراحات، واسترخاءات، هي غالبًا ما تكون استعداداً لجولات جديدة. **﴿ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾** (هود:١١٨)، **﴿ولو شاء الله لانتصر منهم ليبلوا بعضكم ببعض﴾** (محمد : ٤).

ولعل من مظاهر رحمة الله، هذا التدافع والاختلاف، الذي من خلاله يتحصحص الحق، ويتمحص، وبسببه تنجو الحقيقة، من الدمار، والخير من الجفاف، قال تعالى: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾** (الحج:٤٠)، وقال: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾** (البقرة:٢٥١)، وقال: **﴿وكذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾** (الرعد:١٧).

لذلك رأى بعض العلماء في ضوء ذلك، أنه من المستحيل واقعًا وشرعًا، أن يسلط الله على البشرية ظالمًا واحداً، يتحكم في مصيرها، لفترة طويلة، ذلك أن التدافع يكون بين الظلمة أنفسهم، وبينهم، وبين الحق، وهذا سنة جارية، في الحياة، حتى يتوقف التاريخ، ويتغير نظام الكون.

علم السنن

واعتقد أن من أعظم الخلل الذي لحق بالعقل المسلم المعاصر، ما يكمن في عدم التأصيل، والتاسيس، لعلم السنن، من خلال نضج الرؤية القرآنية، وتنزيلها على الواقع، في السيرة والسنة، ومن خلال استقراء محركات الصراع، في تاريخ البشرية، وعوامله، وأسبابه، ونتائجه.. إن هذا الخلل، هو غياب عن الوعي،

تطيش معه السهام، وتضل معه العقول، ويقع الإنسان معه فريسة للمفاجآت، والعجز عن التعامل معها، لأنه عاجز ابتداءاً عن فهم المقدمات، والأسباب الموصلة لها.

والذي يدرك سنة التدافع والصراع، وأطرافه، وميادينه، وأسلحته، ومساراته، يصبح قادراً على حسن تسخيره، والفقه بنتائجه، ويمتلك القدرة على المداخلة، والتحكم، ومغالبة سنة بسنة، أو قدر بقدر – كما أسلفنا – ويمتلك القدرة على الحركة في كل الظروف وإيجاد مساحات لزرع الحقيقة، وتنميتها.

ومن هنا ندرك بدقة مغزى ومعنى قول الرسول ﷺ: **«...وإن الله ليؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر»** (أخرجه البخاري).

وندرك النتائج العظيمة، من نصرة الحق التي ترتبت على قدرة وحكمة الصحابي الجليل نعيم بن مسعود رضي الله عنه في غزوة الأحزاب، عندما رمت العرب المسلمين عن قوس واحدة، حيث تكالبت عليهم، وتحالفت: اليهودية، والوثنية، والقبلية، وابتلي المؤمنون هنالك، وزلزلوا زلزالاً شديداً، حتى لقد بلغت القلوب الحناجر، وبدأت الظنون، تتسرب إلى النفوس الضعيفة، قال تعالى: **﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾** (الأحزاب: ١٠-١١).

في هذه اللحظات الحاسمة وهذه الشدة الشديدة من المواجهة، أسلم نعيم بن مسعود، وجاء خفية إلى الرسول ﷺ، وقال فيما ترويه كتب السيرة: أسلمت، ولم يعلم أحد بإسلامي، فمرني بما ترى، فقال له الرسول ﷺ: – بما معناه – **«إنما أنت فينا واحد، وإن الحرب خدعة، فخذّل عنا ما استطعت»** فكان ما كان من نعيم، من فهم، واستيعاب، وفقه لسنة التدافع وعوامله، ومداخله، وكان النصر

بعد الشدة، وكان بلاء نعيم في الوقت المناسب وفاعليته، أعظم من جيش كامل، بخططه وعدده.

صحيح، بأن المسلم، يعتقد، بأن النصر من عند الله، وهي حقيقة، يجب الا تغادر نفسه، لكن صحيح ايضاً، ان هذا النصر اراده الله ان يتحقق من خلال اقدارٍ وسننٍ، وعزمات بشر، واسباب ومسببات، وكم يحتاج المسلمون اليوم – في حالات الحصار التي تفرض عليهم ويعانون منها اشد المعاناة – إلى نماذج ذكية، فقيهة بسنن وأقدار التدافع الحضاري، قادرة على دخول حلبة الصراع، بجدارة واقتدار، إلى درجة قد تمكن من إدارة الصراع، وتحقيق كسب أكبر، للقضية الإسلامية.

كم نحن بحاجة إلى نماذج من امثال نعيم، قادرة على التحرك في الوقت المناسب، وحسن استخدام المتاح، ذلك ان الإنسان المسلم، بمقدوره ان يحقق الكثير الكثير، إذا أدرك إسلامه وعقيدته، وفقه المعادلة الاجتماعية، التي يعيشها.

ومن هنا ندرك، كيف يمكن ان يكون الفرد أمة، وخاصة عند غياب الأمة.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في تفسير المنار، عند قوله سبحانه وتعالى: **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** (آل عمران:١٣٧):

«إن إرشاد الله إيانا، إلى ان له في خلقه سنناً، يوجب علينا، ان نجعل هذه السنن علماً، من العلوم، لنستديم ما فيها من الهداية، والموعظة، على أكمل وجه، فيجب على الأمة – في مجموعها – ان يكون فيها قوم يبيّنون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم، من العلوم والفنون، التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبيّنها العلماء بالتفصيل، عملاً بإرشاده، كالتوحيد، والأصول، والفقه.

والعلم بسنن الله تعالى، من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة ، وقد دلنا على مأخذه على أحوال الأمم ، إذ أمرنا أن نسير في الأرض ، لأجل اجتلائها، ومعرفة حقيقتها (انظر تفسير المنار، المجلد الأول) .

ويقول الشيخ محمد عبده رحمه الله :

ولا يحتج علينا، بعدم تدوين الصحابة لها، فإن الصحابة، لم يدونوا غير هذا العلم، من العلوم الشرعية، التي وضعت لها الأصول والقواعد، وفرعت منها الفروع والمسائل، وإنني لا أشك، في كون الصحابة، كانوا مهتدين بهذه السنن، وعالمين بمراد الله من ذكرها، يعني أنهم، بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية، والشعوب القريبة منهم، ومن التجارب، والأخبار، في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء، والحذق، وقوة الاستنباط، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم، وفتوحاتهم، وسياساتهم للأمم، التي فتحوها، وما كانوا عليه من العلم، بالتجربة، والعمل، أنفع من العلم النظري البحت، وكذلك كانت علومهم كلها .

ولما اختلفت حالة العصر اختلافًا ، احتاجت معه الأمة، إلى تدوين علم الأحكام، وعلم العقائد، وغيرهما، كانت محتاجة أيضًا، إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية، أو علم السياسة الدينية، سم بما شئت، فلا حرج في التسمية .

والسنة كما هو معلوم : الطريقة المعتبرة، والسيرة الحميدة المتبعة، والقانون المطرد، الذي لا يتبدل، ولا يتحول، قال تعالى : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (الأحزاب : ٦٢)، فالحياة لم تخلق عبثًا، وإنما خضعت لسنن وقوانين، وأمر البشر في اجتماعهم، وما يعرض فيه من الصراع، والتدافع الحضاري، بين الحق والباطل، وما يتبع ذلك، من الحرب، والنزال، والملك، والسيادة، والتداول الحضاري،

يجري على طرق قويمة، وقواعد ثابتة، فمن سار على سنن الله ظفر بالفوز، وإن كان ملحداً، أو وثنياً، ومن تنكبها، خسر، وإن كان صدّيقاً، أو نبياً.

وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في أحد، وكذلك في أول المعركة في حنين، ويتخرج انتصارهم على الأصعدة المتعددة، (انظر تفسير المنار).

لذلك قد يكون من الأولويات المطلوبة في الفهم والتفكير الإسلامي اليوم، إدراك أمر السنن والأسباب، والأقدار، وامتلاك القدرة على التعامل معها، وتسخيرها، ودخول حلبة الصراع الحضاري، بميادينه المتعددة، بأدواته ووسائله النوعية المطلوبة، ذلك أن دخول أية معركة، بدون أسلحتها الفاعلة، سوف يؤدي إلى الخسارة الفادحة، فالتعامل مع أي ظاهرة دون تحليلها ومعرفة أسباب نشوئها واستيعابها، والإحاطة بها، سوف يوقع بإحباطات كبيرة، ومفاجآت غير متوقعة أو محسوبة.

وهذا لن يتأتى بالأماني والرغبات، ولن يتأتى بالصراخ والعويل، ولن يتأتى من زيادة الحماس، وزيادة التوثب الروحي، ولن يتحقق لعامة الناس، وإنما لا بد له من وعي كامل بمعرفة الوحي، في الكتاب والسنة، كأمر لا بد منه لبناء المرجعية، وتشكيل مركز الرؤية، ومن ثم التحقق بالتخصص في فروع المعرفة والعلوم المتعددة، وبخاصة العلوم الاجتماعية، وتأسيس مراكز بحوث ومعلومات ودراسات يقوم عليها متخصصون، يمثلون أهل الحل والعقد فيما اختصوا فيه، وإحلال العقل الجماعي المؤسس، محل العقل الفردي.

وأستطيع أن أقول: بأن أية مفاجأة بالنتائج، تعني من بعض الوجوه، نوعاً من البلاهة، كما تعني عدم إدراك المقدمات، فلكل قضية علمها المطلوب، لإدراكها، وفهمها، والقدرة على التعامل معها، ومن هنا يمكن أن ندرك بعض أبعاد قوله تعالى: ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ (يونس:٣٩).

إدراك السنن.. ضرورة لفهم إصابات الأمة

وفي ضوء ذلك يمكن ان نفسر الإصابات والارتكاسات، وتوالي الهزائم، واستمرار السقوط، والانحدار، والانكسار، والتراجع، الذي يمنى به العالم الإسلامي والمسلمون بشكل عام.

ولا سبيل امامنا للإحاطة بعلم الأشياء ، على الأصعدة المتعددة، وعلى الأخص في مجال التدافع الحضاري الذي لا يتوقف، ما لم ندرك السنن، التي شرعها الله، لتحكم حركة الحياة، وسلوك الاحياء، ذلك ان الفقه بالسنن، هو الذي يحقق لنا الفرقان، من إدراك المقاصد، وإبصار المخارج، وامتلاك الوسائل، ودخول حلبة الصراع، بالمؤهلات المطلوبة.

وقد يكون من المفارقات العجيبة، والمؤرقة حقًا، في الحالة الإسلامية اليوم، ان المسلمين ما يزالون يمتلكون الخطاب الإلهي السليم، دون سائر الأمم، يمتلكون معرفة الوحي، التي توقفهم على تاريخ الحضارات، نهوضاً وسقوطًا، وخلاصة التجربة البشرية، والسنن التي حكمتها في التدافع، والسقوط والنهوض، لكنهم يعجزون عن الإفادة منها.

لقد قدمت معرفة الوحي، في الكتاب والسنة، الخلاصات، والنماذج المطلوبة، من قصص الأنبياء، التي تعتبر منجماً زاخراً بالعبر والدروس، وعطاءاً لا ينفد للتدافع، والصراع بين الخير والشر، والنتائج والمآلات التي تحققت وفق هذه السنن الإلهية في التاريخ، الذي يعتبر المختبر البشري الدقيق لفاعلية هذه السنن، حتى لقد جعلت معرفة الوحي السير في الأرض والنظر في احوال الأمم السابقة، وإدراك السنن والقوانين، التي حركت مسار التاريخ، أو تحرك التاريخ في مسارها، من العلوم المطلوبة للمسلمين، والتي بدون العلم بها سوف يخرجون من التاريخ،

وينقلبون من وسيلة محركة فاعلة، قائدة، مُسَخِّرة، إلى أداة معطلة مُسَخَّرة..
سوف يتحولون من صناعة التاريخ، إلى أن يكونوا محلاً لحركة التاريخ، وتجاربه.

وبالإمكان القول: إن علم السنن التي شرعها الله للأنفس والآفاق، تعتبر من الفروض الكفائية، أو من الفروض الحضارية، التي غفل عنها المسلمون جماعات، وجمعيات، ودولاً، وأفراداً، اللهم إلا من بعض الملحوظات والإضاءات، والإشارات، والبدايات، التي لم ترق إلى مستوى العلم.

قال تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بلاغ للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ (آل عمران: ١٣٧-١٣٨)، فأين السير في الأرض المأمور به شرعاً، والتوغل في التاريخ، واكتشاف السنن التي طلب القرآن تحصيلها، والاهتداء بها إلى الفعل الصواب، والاتعاظ بما تحقق منها، في إطار الأمم السابقة، والقيام بعملية المغالبة بين سنة وسنة، وبين قدر وقدر؟

إن قسماً كبيراً من المسلمين اليوم، يسيرون في الأرض، ويذهبون إلى بلاد الحضارات الأخرى، سير البلهاء، والمغفلين اللاهين، الذين ينتهي بهم قصدهم ويتحقق على مزابل الحضارة الغربية وإباحيتها، أو على أحسن الأحوال يقرأون الحضارة قراءة خاطئة لا تسمن ولا تغني من جوع، وقد تسخرهم وتسحرهم، بدل أن يسخروها، ويعتبروا بإصاباتها.

إن السنن هي أمر الله، وقدره الثابت، الذي لا يتبدل، قال تعالى: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ (الأحزاب: ٣٨).

ونعترف أن علم السنن، تأصيلاً وتأسيساً، لما يأخذ بعد طريقه إلى المسلمين، وأكثر من ذلك، إلى المؤسسات الإسلامية الرائدة، المنوط بها إخراج الأمة والعالم الإسلامي، من حفر التخلف، التي يعيش فيها، في الوقت، الذي أصبحت فيه

مراكز البحوث والدراسات، والمعلومات، المتخصصة في نطاق الحضارة الغربية، التي تسعى إلى الغلبة والتفوق، والسبق، تتجاوز التصور.

لقد أصبحت مراكز البحوث والمعلومات، جزءاً لا يتجزأ من نواتج الحضارة، ولوازمها، وأصبحت وسيلتها الفاعلة، في إدارة الصراع والحوار الحضاري.. أصبحت جزءاً من البيئة العقلية، للنظام الحضاري الغربي، ومرتكزاً من مرتكزات النظام المعرفي، وحاسة متقدمة من حواس صاحب القرار السياسي، وجانباً هاماً من مباني الجامعات، والمعاهد، والمدارس.. إنها مختبرات الفحص، والتحليل، والاختبار، لكل الظواهر الاجتماعية، والنواتج الفكرية التي تمكن من التخطيط المستقبلي، وصناعة القرار.

في الوقت الذي نرى فيه عالم المسلمين – إلا من رحم الله – لا يزال يمارس حالة الانتظار، أو يعيش في غرفة الانتظار، حتى تسقط الحضارة الغربية لصالحه، دون أن يكون صالحًا مصلحًا، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ (الأنبياء:١٠٥).

إن الكثير من المسلمين اليوم، يعاني من إصابة الأمية، التي أخبر الله عنها في أهل الكتاب ، حيث قال تعالى: ﴿ **ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني** ﴾ (البقرة:٧٨) .. إنهم مسلمو اليوم.

قال ابن تيمية رحمه الله: عن ابن عباس وقتادة رضي الله عنهما، في قوله تعالى ﴿ **ومنهم أميون** ﴾، أي غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظًا، وقراءةً، بلا فهم، لا يدرون ما فيها...

وقوله : ﴿ **إلا أماني** ﴾، أي تلاوة، لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يتلى عليهم.

وعن الإمام أحمد رحمه الله قال:

ذكر النبي ﷺ شيئًا ، فقال: «... **وذلك عند ذهاب العلم**». قلنا: يارسول الله : كيف يذهب العلم، ونحن قرأنا القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك، من أفقه رجل في المدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى، بأيديهم التوراة، والإنجيل، ولا ينتفعون مما فيهما بشيء**»؟! (الحديث رواه أحمد في مسنده، ورواه ابن ماجه في سننه، عن زياد بن لبيد الأنصاري، رضي الله عنه، في كتاب الفتن، ورواه الترمذي في سننه في باب: ما جاء في ذهاب العلم، وقال: وهذا حديث حسن غريب).

إن الحالة السلبية، الانسحابية، الإرجائية، التي يعيشها معظم المسلمين اليوم، انعكست على فهمهم للدين، لإيجاد مسوغات، ومشروعيات لحالهم.

إنهم ينتظرون السنن الخارقة، ويعدلون عن السنن الجارية، ولا يحسنون فقه الكتاب، ومع ذلك يندبون حظهم العاثر، والله تعالى يقول: ﴿**من يعمل سوءًا يجز به**﴾ (النساء:١٢٣).

أهمية تحديد المفردات المعرفية

ولعل من أخطر ميادين التدافع الحضاري، أو إن شئت فقل: الحوار الحضاري – وما الحوار إلا صورة من صور التدافع – مشكلة تحديد المفاهيم والمصطلحات، والمفردات المعرفية، التي تعبر عن الثوابت الحضارية والمرجعية الثقافية، ذلك أن المفاهيم، والمصطلحات، أو ما يمكن أن نعبر عنه بعالم الأفكار، والعقائد، هي وسائل التحصين، وأسلحة التدافع، وأدوات الحوار الحضاري.

لذلك أعتقد أن الغفلة عن مدلول المفاهيم الشائعة، أو التي يراد إشاعتها في عالم المسلمين، والسماح بالاستقرار لدلالاتها بالذهنية الإسلامية، وتأنيسها أو

الأنس بها، يعتبر من الغفلة عن الأسلحة، وأول مراحل الوهن ، والاغتراب ، قال تعالى : ﴿ ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلوا عليكم ميلة واحدة ﴾ (النساء:١٠٢).

من هنا نقول : إن وضوح المفهومات والمصطلحات الإسلامية، ومحاولة إشاعتها، وإحيائها، وإدراك دلالالتها، يعتبر من الأمور المهمة في بناء المرجعية، والتحصين الثقافي، والانطلاق إلى ميادين التدافع والحوار، بالزاد الكافي، لأن المفهومات والمصطلحات الإسلامية تشكل أوعية التفكير، وجذوع النسغ الحضاري، الممتد، من الماضي، إلى الحاضر، والمستقبل، وتمثل خلاصات لمعطيات الوحي والعقل معاً، إضافة لما لها من رصيد نفسي وثقافي، واختبار تطبيقي تاريخي، يجعلها محل ثقة واستمساك.. إنها باختصار تشكل ملامح حضارة الأمة، وقسمات شخصيتها، ومحصلات الفكر، وأبجديات قراءة الهوية، ومعالم الطريق.

لذلك فأي تنازل عنها، باسم الحداثة، أو العصرية، أو حتى مقاربتها بمصطلحات أو مفهومات الآخر، هو تخل عن الذات، وتوهين لقيم الأمة، في معركة الصراع الحضاري، وعدول عن الانتماء، إلى الارتماء، والسقوط لصالح الآخر.

من هنا نقول : لا بد من البصارة، والفقه، والدقة الكاملة، في فحص واختبار المفاهيم، والمصطلحات السائدة، والتعرف على منطلقاتها، وأهدافها، ودلالاتها، وخلفياتها الثقافية.

ذلك أن المعركة الثقافية، التي بدأت تتبلور لصالح الحضارة الغربية ومصطلحاتها على الساحة العالمية اليوم، هي الأخطر، ولئن كنا نعاني سابقاً، من السقوط، والانهزام، والتخلف، في عالم الأشياء، فهذا يعني، أننا ما زلنا

نحتفظ بالإمكان الحضاري، أو نحتفظ بعالم الأفكار والقيم، وخميرة النهوض، لكن الخطر اليوم يكمن في التضليل أو التطبيع الثقافي، المراد لهذه الأمة، ومحاولة توهين قيم الحضارة الإسلامية، ومقاربتها بالقيم الحضارية الغربية، لضمان قبولها ومرورها إلى الداخل الإسلامي، وذلك باستنبات كتاب، ومفكرين، وباحثين، وإعلاميين، وسياسيين، ومراكز للبحوث والدراسات في التربة الإسلامية، مسكونين بقيم الحضارة الغربية، ومفتونين بأشيائها، وإنجازها المادي، لتمكين مرورها إلى عالم المسلمين، باسم الانفتاح والحداثة، وتحقيق المشترك الإنساني ، والعلمية ، والموضوعية ، والتجديد ، والعقلانية، والوسطانية.. إلخ.

فالشورى الإسلامية المأنوسة، بما لها من دلالات، وتطبيقات، وارتكاز عقيدي، والتي هي في نهاية المطاف، دين من الدين، تصبح الديمقراطية الغربية نفسها، مع التجاهل، أو التجاوز الكامل، لكل الخلفيات الفكرية لكل من الحضارتين والمصطلحين.

وأهل الذمة، بكل دلالة المصطلح في السيرة والسنة، والفكر والقيم، والتاريخ، يصبحون: مواطنين، لا ذمّيين، وكأن الذمي ليس مواطنًا، يتمتع بحقوق وحماية إسلامية، قد تتجاوز حقوق المسلم!

وفصل الدين عن الدولة، وعزل الإسلام عن حكم الحياة، وحصره في المساجد، والعبادات التقليدية، والعلاقات الفردية بين الإنسان وربه، بعيداً عن حكم الحياة، تُفَصَّل له عملية التفريق بين الرسول النبي، الواجب الاتباع، في الأمور الدينية العبادية البحتة، والرسول الحاكم، الذي تعني سنته هنا اجتهاداً يمكن تجاوزه!

والضرورة الشرعية بكل ضوابطها، ودلالاتها، التي يجوز معها، وقف الأحكام لمرحلة، أو لحالة طارئة، تصبح هي المصلحة، الموهومة الموقوتة، التي تبيح تعطيل النصوص ومحاصرتها، ورفعها من التطبيق!

والجهاد في الإسلام إنما شرع لمحاربة الظلم، وليس لمقارعة الكفر، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ (البقرة:٢٥٤)!

والجهاد الذي هو اعلى أنواع العبادة والتضحية، هو من الفعل الاجتهادي والسياسات الشرعية، وليس من شؤون العقيدة، ومقتضيات الدعوة!

لقد غابت ، أو غيّبت من حياتنا الثقافية اليوم، مفاهيم ومصطلحات : الكفر، والنفاق، والإيمان، والإسلام، والشرك، والتوحيد، ومصطلحات أهل الكتاب، وأهل الذمة، والمعاهدين، والنصارى، واليهود، والوثنيون، والباطنيون، والملحدون، والمشركون، تماماً، لتحتل عقولنا مصطلحات، ومعايير، ومفاهيم، ومقاييس، تطبّع الهزيمة، وتقرأ الحضارة المعاصرة، بأبجديات خاطئة، غير إسلامية، وتتحول حياتنا الفكرية إلى استخدام مصطلحات ومدلولات حضارة الآخر.

إشكالية النخب العربية الإسلامية

وقد تكون المشكلة أيضاً – إلى جانب من استُنبتوا في التربة الإسلامية، ليعملوا لصالح حضارة الآخر في المجالات المتعددة – فيما يسمى: النخب العربية الإسلامية، التي مُكّن لها، لتحتل مواقع القدوة والقيادة، والتأثير، والتي ارتهن معظمها لتلك المفاهيم والمصطلحات الفكرية، بسبب دراستها وتخصصاتها، في معاهد ومدارس وجامعات الغرب، فهي رهينة المدرس، والمنهج، والكتاب، والمرجع، والتطبيق الحضاري، مع التوهم بأن ما تعلمته، هو معيار عام، لكل تقدم وإنجاز، حضاري، يصلح لكل أمة، مهما كانت عقيدتها ومعادلتها الاجتماعية..

لذلك والحالة هذه، فإن عملية الصراع أو الحوار الحضاري، سوف تكون محسومة لصالح الآخر.

فما يسمى اليوم ندوات للحوار الحضاري بين الإسلام والغرب، أو ندوات، لدراسة التيارات الفكرية في العالم الإسلامي، كالصحوة، وتياراتها، أو الأصولية وأسبابها، ودوافعها وأهدافها، وما إلى ذلك من العناوين التي باتت تملأ الصحف والمجلات، يدعى للحوار والمشاركة، وتمثيل الإسلام، أو الطرف الذي يحاور عن الإسلام في هذه الندوات، بعض العلمانيين الذين يسكنون جغرافيًّا فقط في العالم الإسلامي، يدعى هؤلاء الذين لا يمثلون الثقافة والحضارة الإسلامية، ولا يعبرون عن ضمير أمتهم، لقلة بضاعتهم فيها، من جانب، ولأنهم منحازون بطبيعة دراستهم، وثقافتهم للغرب.

لذلك فالحوار معهم ليس حواراً مع الآخر، وإنما هو لون من النرجسية الثقافية، والتخاطب مع الذات، فالمؤسسات الغربية ومراكز البحوث والجامعات، عندما تدعوهم، فهي لا تدعو الآخر المسلم، وإنما تدعو تلامذتها وخريجيها، وحاملي ثقافتها، وتحاور بهم نفسها، وعلى ذلك فهي تزداد جهلاً بالإسلام، والعالم الإسلامي، وتعجز عن فهمه من الداخل، وتكرس الصورة المشوهة، والتفسيرات البعيدة، عن الحقيقة، هذا إذا أحسنا النية بأسباب الحوار وأهدافه.. كل هذا يتم اليوم باسم الحوار.

الحوار مع «الآخر».. مطلب إسلامي

أما الحوار الحضاري أو الحوار مع الآخر، وإتاحة الفرصة لتوسيع دائرة التفاهم، وإبلاغ رسالة الإسلام إلى العالم، التي إنما جاءت لاستنقاذه، وإيصال دين الله إليه، بأفضل الوسائل، والمجادلة له بالتي هي أحسن، مع مراعاة أدب الحوار وشرائطه... فهو من الفروض الشرعية الكفائية، التي تعتبر من مسؤولية الأمة جميعها.

وأحب أن أوضح هنا : أن الحوار مع الآخر، وإتاحة الفرصة لتبادل الرأي، للوصول إلى قناعات معينة، أو للوصول إلى صيغ مشتركة، للتفاهم والتعاون، هو مطلب إسلامي، وإحدى وسائل الدعوة والبلاغ المبين، إذا توافر للحوار شروطه، من إتاحة الفرص المتكافئة، وتحرير موضوع الحوار، والالتزام بآدابه، وأخلاقه، بل هو أكثر من مطلب إسلامي، أو أحد خيارات المسلم، إنه تكليف شرعي، يقع تحت مدلول قوله تعالى: ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ (النحل: ١٢٥)، ذلك أن الدعوة إلى دين الله، وسبيله، محلها ابتداءً: الآخر.

ولم يقتصر القرآن على الأمر بالمجادلة، وإنما نص على أسلوبها، واشترط أن يكون بالتي هي أحسن، حتى لا يكون منفراً، وحتى يحقق الاقتناع عن اختيار، ولا يشكل حاجزاً نفسياً يحول بين الآخر والإسلام، خاصة أن الإسلام لا يخص جنساً ، ولا لوناً ، ولا قوماً.

وأحسب أن المبادرة بالحوار ، والدعوة إليه، يجب أن تبدأ من عند المسلم، وأن يكون المسلم أكثر حرصاً عليها من الآخر.. ولعلي أرى في قوله تعالى: ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ (آل عمران : ٦٤)، تكليفاً شرعياً لايخص عصراً بعينه، ولا حادثة بعينها، ولا يجوز أن يعتبر سبب النزول قيداً لخلود النص، وتجرده عن حدود الزمان والمكان.. فمقتضى خلود النص يعني: أن التكليف جار وقائم في كل زمان ومكان.. والدعوة إلى الحوار، واللقاء بالآخر، ومحاججته بالتي هي أحسن، وظيفة المسلم، لإلحاق الرحمة بالناس.. وما يمتلك المسلم من قيم سماوية معصومة منزلة من رب العالمين، وتجربة تاريخية فذة، وشخصية حضارية وثقافية، تجعله في

موقع مكين، يدفعه إلى الإيجابية، وطلب الحوار، ويجعل مكاسبه من الحوار مقدرة ابتداءً، ذلك أن الآخر سوف يتأثر على كل حال، وليس بالضرورة أن تظهر النتائج بشكل سريع، فكثير من الصحابة رضوان الله عليهم سمع القرآن لأكثر من عشر سنوات، وكان الحوار بالقرآن، وكان المحاور الرسولﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، وجاء إيمانه متأخراً، ومع ذلك أبلى في الإسلام بلاءً حسنًا، وانتصر هذا الدين على يده، في معارك كثيرة، فكرية، أو فقهية، أو عسكرية.

وكان الآخر هو الذي يتهرب من الحوار، ويغلق منافذه، ولعل قوله تعالى: **﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾** (فصلت:٢٦)، مؤشر واضح على موقع المسلم في الحوار، وموقع الآخر، لذلك لا أرى عذراً ولا مصلحة في إقفال باب الحوار مع الآخر، أو نفيه، أو إلغائه، مهما كانت الأسباب، أو ترك المبادرة له، لتنظيم ندوات الحوار، وتحديد أهدافه، وموضوعه، واستدعاء بعض الإسلاميين لملء المربعات المرسومة لهم مسبقًا، بحيث تنتهي ندوات الحوار لتصب في مصلحة الآخر في نهاية المطاف، خاصة إذا كان الإسلاميون المدعوون ممن استُنبتوا على التربة الإسلامية، وغُرسوا فيها لهدف، حيث جعلت مهمتهم توهين القيم الإسلامية، ومقاربتها بقيم الحضارة الغربية، التي تمثل الآخر في الحوار الدائر اليوم.

وقضية الحوار مع الآخر، وإعادة النظر بمواصفات الخطاب الإسلامي المعاصر، وأدوات توصيله، ووسائل إبلاغه على مختلف الأصعدة، لم تعد خياراً للمسلم، في عصر ثورة المعلومات والاتصالات، وتطور وسائل الإعلام، حتى يكاد العالم يصبح قرية إعلامية صغيرة، وحيث امتدت حواس الإنسان من خلال وسائل الإعلام، لترى، وتسمع، وتستقبل، وترسل، إلى أقاصي الدنيا، وتعالت الأصوات في الدعوة إلى الحضارة الواحدة، والنظام العالمي الجديد..

والمطروح: كيف يستطيع المسلم استشعار التحدي الإعلامي والمعلوماتي، وامتلاك القدرة على أن يصب في هذه الأوعية الإعلامية، الموادَّ النافعة، ويسجل حضوراً، أو شهوداً حضارياً، ويحوِّل النقم التي تصب من فوق راسه، إلى نعم، في إيصال الإسلام إلى الناس؟

إنسانية الحضارة الإسلامية

وهنا قضية، أرى أن إعادة التذكير بها، في غاية الأهمية، وهي أن الحضارة الإسلامية، هي في حقيقتها، وتاريخها، ونواتجها، حضارة إنسانية، لا تخص جنساً، أو لوناً، أو عرقاً، أو منطقة جغرافية، أو طبقة اجتماعية، وإن كان العرب وبلادهم هي قاعدتها، وهم حملتها الأوائل، لقد تجاوزت بدعوتها وممارستها كل الفوارق القسرية، التي لا يد للإنسان في وجودها، وجعلت معيار الكرامة، فعلاً كسبياً، بمقدور كل إنسان أن يرقى إليه، وليس أمراً قسرياً لا يد له فيه، قال تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** (الحجرات:١٣).

لقد جاءت معظم آيات القرآن المكية، تؤكد الوحدة الإنسانية، وتحطم الفوارق التمييزية، قبل أن يكون للمسلمين أمة، أو دولة، أو حكومة، أو موقعاً جغرافياً، وكانت الوحدة الإنسانية، أو وحدة الأصل البشرية، من المقومات الأساسية التي نص عليها الوحي، ولم يدع مجالاً لا للمساومة عليها، أو يسمح بتجاوزها، وكان عطاء الوحي موجهاً إلى العالمين، بل لقد كانت الغاية من الرسالة الإسلامية وإنتاجها الحضاري، هو إلحاق الرحمة بالناس كافة، قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** (الأنبياء:١٠٧)، وكان الإسلام أول من دعا إلى فكرة المواطن

العالمي، في أمة الإسلام، والتمتع بالحقوق، والواجبات كافة، في دولة الإسلام، بمجرد أن يعتنق الإنسان الإسلام، كائنًا من كان، وبذلك انتفت عن الإسلام وحضارته إصابات العنصرية، والعرقية، ولوثة وعقدة الشعب المختار التي لم تبرأ منها الحضارات البشرية بشكل أو بآخر.

وبذلك فالإسلام بطبيعته يناقض التعصب، والانغلاق، ويعتبره من الجاهلية وآفاتها، ونخوتها، وتعاظمها بالآباء، وسفهها، لأن أسوار التعصب المحتمل، أو العارض، لا يلبث ان يكسر بمجرد الإيمان، والدخول بالإسلام، بينما نرى الحضارة الغربية، هي حضارة اللون والعرق والقوم، رغم ادعائها بالإنسانية.. إنها توبخ نفسها بادعاء الإنسانية، والمعيار الحضاري الإنساني، في أكثر من موقع من العالم، ولسنا بحاجة للتذكير، بتاريخها الاستعماري، كما أننا لا نرى أنفسنا بحاجة إلى القراءة في واقعها وممارساتها في فلسطين، والبوسنة، والشيشان، وغيرها من بلاد العالم.

والحضارة، أية حضارة، ترتكز إلى اللون، أو العنصر، أو القوم، أو العرق، أو الطبقة، هي حضارة عنصرية، عدوانية، بطبيعتها وأصل تكوينها، لا تستطيع أن تعيش بدون عدو أو عدوان، فإن لم يوجد لها عدو حقيقي، تصنع لنفسها عدوًا، ولو كان وهميًا، لمعالجة مشكلاتها الداخلية، وتوجيه أنظار شعوبها إلى الخارج، فهي كالنار التي سوف تأكل بعضها، إن لم تجد ما تأكله.

لذلك رأينا كيف ان عسكر الحضارة الغربية حاولوا استعمار العالم واستنفاد خيراته، وامتصاص خبراته، وكيف ان مصانع، ومعامل، وجسور، وأنفاق بلاد الحضارة الغربية، إنما بنيت بأموال المستعمرات، وسواعد العمال، الذين جلبوا، والأرقاء الذين خطفوا من بلادهم الأصلية.

وأن أموال، وخبرات وطاقات العالم النامي، وعلى الأخص العالم الإسلامي، ما تزال موظفة بشكل أو آخر لصالح حضارة الغرب.

وكيف أن هذه الحضارات العرقية العنصرية، بمجرد أن يتوقف عدوانها على الخارج تنفجر فيها النزعات العنصرية الداخلية، وتقوم فيها الديكتاتوريات الاستبدادية.

إن فكرة الصراع الحضاري، أو التحدي الحضاري، أو ما يسمى صراع البقاء للأقوى، أو الصراع الطبقي، هي الأساس الذي تقوم عليه الحضارة الغربية، بمذاهبها المتعددة، وتطبيقاتها المتنوعة.. والصراع يعني - فيما يعني - محاولة إلغاء الآخر بشتى الأساليب والوسائل، لذلك فإن أية حضارة، أو ثقافة، تفتقد النزوع الإنساني، وتقوم على العرق، أو الجنس، أو اللون، أو الطبقة، هي حضارة تمييز وتعالٍ بطبيعتها - كما أسلفنا - الأمر الذي يقودها إلى الاعتقاد بأن البقاء مرهون بإلغاء الآخر، لذلك تصبح الطبيعة العدوانية، من أخص خصائصها، إن لم نقل: إنها في الأصل تقوم على الفكرة العدوانية، لأنها تنظر إلى الآخر نظرة دونية، وتحاول أن تصرعه، وتتغلب عليه، وهذا يستدعي استعماره، واسترقاقه، واستنفاد طاقاته، ليبقى صريعاً.

من هنا، قلنا: بأنها لا تستطيع أن تعيش بدون عدو، يضمن تماسكها، واستمرارها.. فإن لم يكن لها عدو، فلتصنع عدواً.. وإن لم تستطع صناعة الأعداء، لاستمرار التعبئة والمواجهة، ترد سهامها إلى ذاتها، فتتآكل من داخلها، أو يتحول عدوانها إلى الداخل.

وفي ضوء ذلك، يمكن أن نفسر دوافع الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، كما نستطيع أن نفسر دوافع الاستعمار الحديث، الذي لم يختلف عن الحملات السابقة إلا بوضع الصليب، الشعار المستفز لعالم المسلمين.. ويمكن أن نفسر في ضوئه أيضاً، الحروب الكونية العالمية، التي جاءت من أخطر صور العدوان وأعظمها ضحايا.. هذا على مستوى الموقف العدواني من الآخر، ثقافة وحضارة.

فإذا ما جئنا إلى الموقف العدواني، على مستوى الذات، فنرى أن معظم الأنظمة الفاشية، والنازية، والديكتاتورية، ومؤسسات الاستبداد السياسي، كانت من إفرازات الحضارة الغربية، ومواليدها الشرعيين، ولا يزال العالم يذكر نماذج المآسي الإنسانية، من أمثال: موسليني، وهتلر، وستالين، وفيرديناند، وإيزابيلا، ومحاكم التفتيش، وفرانكو، وغيرهم.. كما لا يزال يذكر مذهب ميكافيللي الذي يمثل الأساس الثقافي والفكري لحضارة الصراع الغربية.

ونحب أن نوضح أن إصابات العدوى التي لحقت بمؤسسات الحكم في العالم الإسلامي، من حضارة الغرب العنصرية، والتي جاءت بسبب الانسلاخ عن الإسلام، والعدوان له، وأفرزت نماذج لا علاقة لها بسماحة الإسلام، وعدالته، وإنسانيته، هي دخيلة على الحضارة الإسلامية، التي تعتبر الاعتراف بالآخر، وحقه في حرية العقيدة، والعبادة، والعمل، والاختيار... دين من الدين.

وخلاصة القول: إن حضارة الغرب، هي حضارة القوة والصراع، وتسلط الإنسان على الإنسان، ولو بدت على غير ذلك، بسبب التضليل الإعلامي.. إنها حضارة جباية، وحقد، وعدوان، والتاريخ والحاضر يعتبران شاهد إدانة على ذلك في مواقع متعددة.. بينما نرى الحضارة الإسلامية، حضارة إنسانية.. حضارة رحمة، وحب، وهداية، واحتساب، واعتراف بالآخر، وليست حضارة حقد وصراع.. هي حضارة الإنسان، التي تدعو إلى الحوار على كلمة سواء، وتعتمد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتتنكر للإكراه في الدين، وتبتغي إلحاق الرحمة بالعالمين، لأن الناس، كل الناس، هم محل الخطاب السماوي.. والقوة في الإسلام، إنما تشرع حتى تُحمىٰ حرية الاختيار وتحقيق إنسانية الإنسان.

٢٨٦٧/١٣

إنسان الحضارة الإسلامية

ولعل من المفيد أن نبسط الكلام بمقدار ما يتسع المجال، عن إنسان وإنسانية الحضارة الإسلامية، وبعض خصائصها.

فالإنسان في الحضارة الإسلامية ، هذا المخلوق المكلَّف، المتميز بالعقل، الذي يمنحه القدرة على الاختيار، هو محور الحضارة، ووسيلتها، وهدفها، ومعيارها، في الوقت نفسه.. وإنما تقاس الحضارات، بمدى قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان، وتنمية مواهبه، وإطلاق ملكاته، ورعاية قابلياته، وتحقيق وعيه بذاته، وانسجامه مع الكون والحياة، والارتقاء به ، ليحسن القيام بدوره في البناء الحضاري ، الذي يكرم الإنسان ويُكَرَّم به.

ولما كان الإنسان وسيلة الفعل الحضاري وأداته، وكان محله وهدفه أيضاً، فإن الإنجاز الحضاري سوف يكون عرضة لمجازفات، وتجارب، ومخاطر، وعوارض، وأهواء، تعتبر من إصابات الإنسان نفسه، بسبب علمه المحدود، وعمره المحدود، ومعارفه النسبية، وميوله المتنوعة، وغرائزه المتدافعة، إضافة إلى عجزه عن إدراك الحقائق الغيبية، عن النشأة والمصير، التي لا تزال تشكل له قلقاً، يُذْهب أمنه النفسي، وينعكس على كسبه وإبداعه، بنوع من الاضطراب، وعلى أهدافه بالاهتزاز، وعدم الثبات، مهما حاول الهروب، والانغماس في عالمه المادي، لذلك تشتد الحاجة به، إلى الموجِّه لطاقاته، والمرشد لمسالكه، من مصدر خارج عن نفسه، يمتلك العلم المطلق، الذي لا يحده زمان، ولا يقيده مكان، ولا تخفى عنه خافية.. تشتد حاجته إلى الإيمان، الذي يوجهه، ويحقق له الأمن النفسي والاجتماعي.. يطلق طاقاته في المسار السليم، وينطلق بملكاته ومواهبه، ويزكّي غرائزه، ولا يتجاهل حاجة من دوافعه الأصلية. الإيمان الذي يعترف بكينونته،

ويحقق إنسانيته، ويحرره من شتى ألوان العبودية، سواءً كانت متاتية من إنجازه، أم كانت منحدرة من جهة خارجة عنه.

ولعل من أهم الخصائص التي امتازت بها الحضارة الإسلامية، هي هذا الهدي المقصدي للإنسان، الذي أحدث التفاعل، بين عطاء الوحي، وتطلعات العقل، وأشواق النفس، بحيث ارتقى بموقع ووظيفة الإنسان، من مجرد وسيلة، وأداة للإنجاز الحضاري، إلى مستوى جعل معه المنجزات الحضارية، التي يبتدعها، وسائل مسخرة لخدمته وتحقيق إنسانيته، والارتقاء بموقعه، وجعله مسخَّراً للكون، بدل أن يكون مسخَّراً له، فهو الإنسان المكلف، وفي الوقت نفسه الإنسان المكرم، وبذلك، كان بين تعاليم الوحي، وتطلعات العقل، تواعد والتقاء، فأثمر ذلك كله إنسانية الحضارة الإسلامية، الذي رسم مساراتها، وحدد أهدافها الوحي، وحقق إنجازاتها في المستويات المتعددة، وابتكر وسائلها، الإنسان المكلَّف: قال تعالى: ﴿**ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ (الملك:١٤).

فالهدي وبيانه، من الوحي، والاستدلال والبرهان، من كشف العقل، قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِم آيَاتِنا في الآفَاقِ وَفي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ**﴾ (فصلت:٥٣). فالوحي يحدد الأهداف، والعقل يكشف السنن، ويبدع الوسائل، التي تحقق الأهداف.

ولعل مرد الإصابات جميعها، التي لحقت بحضارة المسلمين، بعد عصر النبوة، والتي لحقت بالحضارة العالمية في عصورها التاريخية بشكل عام، هو في اختلال المعادلة، بين معارف الوحي، ومدارك العقل، ذلك أن الاقتصار على علوم ومعارف الوحي، يبصر بالأهداف، لكن تلك الأهداف تبقى غائبة، وعزيزة المنال، بدون مدارك العقل، وإبداعاته للوسائل والأوعية، التي نتوصل بها إلى تحقيق

الأهداف.. كما أن الاقتصار على مدارك العقل، وإبداعاته، بعيداً عن الهدي المقصدي، هو امتلاك للوسائل، التي تصبح عاجزة عن إبصار الأهداف. وبذلك تضل الطريق، فتنقلب الوسائل بحد ذاتها إلى أهداف، وعندها يصبح الإنسان في خدمة الحضارة، فيبرز ويتضخم دور الإنسان المكلّف، ويغيب ويتضاءل دور الإنسان المكرم.

ولعل قراءة صحيحة للواقع الإسلامي، والحضارة العالمية اليوم، تدل دلالة واضحة، على أن عالم المسلمين، انتهى اليوم لأن يكون عالم أهداف، وقيم، وشعارات، تعوزه الوسائل، التي توفرها العلوم الإنسانية والمادية معًا (علوم ومعارف العقل) بينما تضل الحضارة العالمية، وتفتقد غايات الحياة وحكمتها، لتصبح حضارة وسائل، جعلت من الإنسان نفسه وسيلة محرومة من الأهداف، الأمر الذي لا يتحصل إلا من معارف الوحي، وهداية الإيمان.

وتميز الحضارة الإسلامية في عصر النبوة والخلافة الراشدة ـ كما أسلفنا ـ أنها استطاعت حل المعادلة الصعبة، والموازنة بين معارف الوحي، ومدارك العقل، في تشكيل إنسانها المكلّف، للقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، المكرّم بالإنجاز الحضاري، ذلك أنها اعتبرت أن حمل الأمانة تشريف وتكليف.

وإن من خصائص الرسالة الإسلامية، التي كان الإيمان بها والانطلاق منها، وراء صناعة الحضارة، بمختلف أوجه نشاطاتها: الخاتمية، والخلود، بعد أن وصل العقل البشري إلى طور الرشد والاكتمال.

فالخاتمية تعني، فيما تعني توقف الوحي، ومن لوازم ذلك سلامة منهج النقل، ليجيء التكليف صحيحاً، إذ لا يمكن عقلاً، ولا واقعًا، أن يتم التكليف بقيم محرفة، وتعاليم منحولة.

ومن هنا نقول : إن التميز الحضاري ، والإمكان الحضاري في الوقت نفسه، إنما يتحققان بحفظ الله لاستمرار قيم الوحي سليمة، والتي كلما تفاعل معها الإنسان بشكل صحيح، أثمرت الحضارة، وكلما أصيب منهج العقل في التعامل معها، كان التخلف، والغياب الحضاري، وهذا بطبيعة الحال لا ينفي استمرار الإمكان الحضاري في كل حين وكل جيل.

كما يعني الخلود : مسؤولية العقل – بعد توقف الوحي بالخاتمية – عن الامتداد الحضاري بهذه القيم، وإبداع الوسائل، التي توفرها العلوم الإنسانية والمادية، لبسط الإسلام على الواقع، وتقويم سلوك الناس، وإنجازهم الحضاري، به لتأتي الحضارة من نضح القيم الإسلامية، وتتوجه الوسائل إلى تحقيق الأهداف، أو الهدي المقصدي للوحي، للوصول إلى الإنسان المكرّم. وإلا كيف يمكن أن ندرك مدلول الخاتمية التي تعني التوقف، والخلود الذي يعني الامتداد، والتجرد عن حدود الزمان والمكان، وتعديه الرؤية، إذا لم نستوعب دور العقل، ومسؤوليته في الوقت نفسه؟

ولعل من أبرز ما تميزت به الحضارة الإسلامية أيضًا : أنها اعتمدت العقل سندًا للحقيقة الدينية، ووسيلة لإدراكها وإثباتها، واعتمدت قناعة الإنسان سبيلها للإيمان، وطريقها لحصول اليقين. . فالدين التزام، وليس إلزامًا . . والتدين اختيار، وتحقيق لإنسانية الإنسان، واستجابة لنزوع داخلي، وميل فطري، وليس استسلامًا، وتلقيًا بدون قابلية ومناقشة، وتعطيلاً لملكات الإنسان، ومدارك عقله. . فرسالة النبوة هي إيصال البذرة الطيبة للنفس، التي تتوافق مع قابليتها، فتنبت الشجرة الطيبة، الممتدة في أنماط السلوك، وشعب الحياة المثمرة للحق والخير، في سائر نشاطات الإنسان. . والتدين تهذيب للنفس وارتقاء بها، وليس تعذيبًا، وعنتًا وإرهاقًا لها. . وغاية التكليف: بذل الاستطاعة وبلوغ الوسع.

ومن سمات الحضارة الإسلامية المتفردة : أنها إنسانية الخطاب، ميدانها العقل البشري، وعطاؤها الفعل الإنساني.. دافعها تحصيل الحكمة، أنى كان وعاؤها، لذلك جاء نسيجها وإنجازها إنسانياً من الناحية التاريخية، وبُعْدُها عالميًا من الناحية الجغرافية، ومحلها الإنسان من الناحية الفكرية، حيث تتوحد في نظرتها، مصدرية الخلق، وظروف المصير. فهي أول من دعا إلى المواطن العالمي في تشكيل الأمة، ودولة الفكرة، بعيداً عن كل الحدود، والسدود، والفوارق، حيث جعلت ميزان الكرامة، ومعيار التفاضل والارتقاء فيها كسب الإنسان، وفعله المختار، المتسق مع الطبيعة، وفطرة الخلق، وبذلك أسقطت المعايير القسرية في التفاضل، التي لا يد للإنسان فيها، من فوارق اللون، والجنس، والقوم، والجغرافيا، فبرئت بهذا من نوازع العصبية ودائها، واعتبرت الأقوام، والأجناس، أموراً واقعية قسرية، لا يد للإنسان فيها، بل هي من آيات الخلق، ومعالم التكامل الاجتماعي، التي تقتضيها وظائف التعاون والتعارف، والانفتاح على العطاء العالمي، فهي فوارق تنوّع وتعدد، وليست فوارق تضاد، وصراع، وبذلك تميزت عن سائر الحضارات، البائد منها والسائد، التي لا تزال تؤمن بالتطور، الذي يعني البقاء للأصلح، والأصلح في نظرها هو الأقوى.

القدرة على استئناف الدور المنشود

والحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها ، والإشارة إليها : أن الحضارة الإسلامية، بما تحقق لها من سلامة الخطاب، الذي يعتبر من لوازم ختم النبوة، والذي أورثها خاصية الإمكان الحضاري، أصبحت قادرة في كل حين على استئناف دورها

المنشود، في تحقيق الشهود الحضاري.. وشواهد التاريخ، تحمل الدلالة الكافية على قدرتها، في فترات متعددة، على النهوض، والتجاوز، والإقلاع من جديد.. كما تحمل الدلالة أيضاً، على أن فترات الركود، والجمود، والاستنقاع الحضاري، كانت بسبب اختلال المعادلة، بين الوحي، والعقل، وعجز وسائل التربية، والتشكيل الثقافي عن إحداث التفاعل، بين الإنسان والإسلام، بين الوحي والعقل، وعجز العقل المسلم – بسبب تشكيله التربوي – عن رد الأمور المستجدة، إلى قيم الكتاب والسنة، وامتلاك القدرة على استنباط القانون، واكتشاف الوسيلة، التي تسهم بالحل، وتحقق الهدي المقصدي للكتاب والسنّة، حسب ظروف الزمان والمكان، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النساء:٨٣).. والاستنباط هو مسؤولية العقل، القادر على استصحاب قيم الكتاب والسنّة، والاهتداء إلى الحل.

لذلك نستطيع القول: بأن ما أسميناه الإمكان الحضاري، وامتلاك القدرة على الإقلاع من جديد، إنما يتحقق كلما توفرت وسائل إحداث التفاعل بين الإنسان، والإسلام، الأمر الذي لم يتوقف تواصله في تاريخ الأمة الطويل، على اختلاف في مساحاته، وكان الهاجس الدائم، لرواد الإصلاح، وحركات التجديد، وإن اختلفت قراءاتهم للمشكلات، والإصابات، وإحاطتهم بها، وما وضعوه من وسائل للنهوض، وإحداث التفاعل، وتحقيق الشهود الحضاري.

إن الإحساس بمشكلة تخلف المسلمين، وإمكان الإسلام على تحقيق الشهود الحضاري، كان قدراً مشتركًا بين رواد الإصلاح، وحركات التجديد، والنهوض عامة، ولولا ذلك الإحساس لما حصلت دواعي التحرك، والمحاولات المتعددة لاسترداد الدور الحضاري، لعالم المسلمين.. لكن تبقى المشكلة المطروحة – في نظرنا على الأقل – تكمن في عدم الرسوخ في فهم أزمة التخلف، والإحاطة

بأبعادها، وإدراك جوانبها المتعددة، وأسبابها القريبة والبعيدة، والسنن والقوانين التي تحكمها، للوصول إلى سبل الخروج منها، وأهمية عدم التداخل بين الأسباب والأعراض. وهذه هي القضية الغائبة، والمطلوبة، والمطروحة، في الوقت نفسه، ذلك أن الواقع – وليست قدرتنا على الاختبار والتقويم – برهن لنا ، أن الحلول التي طرحت بشكل عام، أو سبل الخروج والنهوض التي اعتمدت، لم تحقق المأمول منها، وإن كنا لم نعدم في كل جيل، بعض النظرات اللافتة والدقيقة، في التشخيص، ولكنها نظرات بقيت قاصرة عن أن تفتح المجرى، وتحقق النقلة النوعية، ولذلك أسبابه التي لم توضع في الاعتبار كما يجب، لذلك لم تحقق المطلوب.

ولا بد من الإشارة هنا : إلى أن الحكم بعدم القدرة على تحقيق الشهود الحضاري الإسلامي لحركات التغيير بشكل عام، لا يعني انعدام الكسب، بأقدار متفاوتة ، ووضع معالم على الطريق ، كانت دليلاً للقادمين في المستقبل، في مجالي الخطأ والصواب على سواء، ذلك أن الخطأ – إذا أحسنّا تقويمه وإدراكه – يتحول إلى مكسب إيجابي، يوجه إلى الحقيقة ويوفر الطاقة، ويختصر الطريق على الجيل الجديد.

لذلك نعتقد أن القيام بمراجعات ، وتقويمات ، ودراسات ، هادفة لحركات الإصلاح، والتجديد، والتغيير، في العالم الإسلامي، ومحاولة إلقاء الأضواء على جوانبها المتعددة، وتحويل ناتج التجربة، ورصيدها، إلى الجيل الحالي، يعتبر اليوم من أوجب الواجبات، ففي ذلك اختزال للعقول في عقل، وللأجيال في جيل، وللتاريخ في الحاضر، كما أنه اختزال للتاريخ والحاضر، في تشكيل رؤية المستقبل المأمول، والمساهمة بصناعته.

إن القفز فوق التجارب السابقة ، وعدم اعتبارها، والاعتداد بها، وبخسها

حقها في الخطأ والصواب، ودراسة الأسباب التي صنعتها، والنظر في علل الأشياء التي أوجدتها، والظروف والملابسات التي أحاطت بها، والاقتصار على الحالة الوصفية، لمظاهر السبب، وآثار العلل، وناتج الخلل، كان وراء الكثير من استمرار التعثر، والإخفاق، وتكرار الأخطاء، وذلك يعني الاقتصار في النظر على علم الظاهر، كما يعني الإحساس بالأزمة، دون البحث في امتلاك القدرة للتحول إلى إدراكها، بعيداً عن التعرف على العلل، والقوانين الناظمة لها. قال تعالى: ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا** ﴾ (الروم:٢٢).

ونعتقد أن الحضارة الغربية، وإن استطاعت بأشيائها، وقوتها، أن تطفو حضاريًا، وتكسب بعض الجولات في الصراع الحضاري، إلا أن العبرة دائمًا بالعواقب، والمآلات، وليس بالنتائج القريبة، فكثيراً ما حمل لنا التاريخ، دلالات حضارية، على أن الأفكار والعقائد، تبقى أقوى من الأشياء والسياسات، وأن قيم المغلوب عسكريًا، كانت أقوى من عسكر الغالب، وأن الحضارة الإسلامية، هضمت الكثير من الموجات، والاجتياحات الاستعمارية العدوانية، وانتهى الغالب إلى اعتناق حضارة المغلوب، وهذا ما لا نراه إلا في تاريخ الحضارة الإسلامية، لأنها حضارة الفطرة، حضارة الإنسان.

دور أنظمة الاستبداد السياسي

وقد يكون من أخطر إشكاليات الصراع الحضاري، التي يعاني منها عالم المسلمين اليوم – إضافة إلى وجود العلمانيين، والحداثيين المرتهنين لحضارة الآخر، بسبب تشكيلهم الثقافي، وتاريخهم التعليمي، ونظامهم المعرفي، الذين يشكلون طلائع متقدمة، للحضارة الغربية في الداخل الإسلامي، ويفعلون فعلهم في

الإفساد، والتخريب، لصالح الغرب - هو في أنظمة الاستبداد، وما يلازمه من القمع السياسي، والظلم الاجتماعي، التي وجدت لصالح الغرب، بحيث أصبحت عوامل الطرد للطاقات المتميزة، والخبرات، والسواعد، والأموال، متوفرة في معظم بلاد العالم الإسلامي، إلا من رحم الله، وبذلك يدمر المسلمون طاقاتهم، ويكسرون أسلحتهم، ويكرسون تخلفهم بأنفسهم، أو بمعنى آخر: يخربون بيوتهم بأيديهم، في الوقت الذي نرى فيه، عوامل الجذب، والإغراء بالهجرة، متوفرة في مجتمعات الحضارة الغربية.

ونستطيع أن نقول : إن خيرة الطاقات الإسلامية، اليوم، في العلوم التطبيقية، والإنسانية على سواء، مسخرة لخدمة الحضارة، والتقدم، والتحكم، والسيطرة الغربية.

إن كثيراً من الجامعات ، والمعاهد ، ومراكز الدراسات ، والمخابر، والشركات، والمؤسسات المالية، والاقتصادية الغربية، تتوفر على أفضل الطاقات الإسلامية، وتتقوى بها. ويُخشى ان تفتقد هذه الطاقات والخبرات، انتماءها، شيئاً فشيئاً، بسبب أجواء الإرهاب السياسي، والفكري، في معظم بلاد عالم المسلمين.. وكم يبدو الأمر مذهلاً، وخطيراً مستقبلاً، إذا أدركنا أن الهجرة لم تعد تقتصر على الأدمغة المتميزة، والسواعد القوية، والخبرات المقدورة، وإنما تتجاوز ذلك إلى هجرة الأجنة في الأرحام.. إنها قمة المأساة من الناحية الحضارية، أن يسعى الكثير من أبناء العالم الإسلامي المنكوب بأهله، أن يستولدوا نساءهم في ديار الحضارة الغربية، لاكتساب الجنسية والمواطنة، هناك، حيث يجد الإنسان نفسه، ولو وهماً، يستمتع ببعض حقوقه، ويشعر بإنسانيته المفقودة هنا.

وتزداد محنة المسلم ، وفتنته ، عندما يرى، أن ما يتمتع به من الحقوق والحريات، وسيادة النظام والقانون، في بلاد الغرب، مفقود تماماً في العالم

الإسلامي، وأن ما يقوله، ويمارسه، من الحرية، في الدعوة إلى الإسلام، في المراكز، والحدائق، والشوارع، والجامعات، ووسائل الإعلام - على الرغم من أن هذه الحرية، الواقعة تحت السيطرة، بدأت تُواجه اليوم بالنزعات العنصرية، التي تعبر عن طبيعة وحقيقة الحضارة الغربية - لا يمكن قوله وممارسته، في كثير من مساجد العالم الإسلامي التي تحكمها أنظمة الاستبداد السياسي، ويفوته أن هذا يشكل قمة الصراع، والاستلاب الحضاري، والغزو الثقافي.

فإذا عجز عن تجاوز الصورة، إلى إدراك الحقيقة، وتجاوز النتيجة إلى فهم المقدمة، وأدرك أن حضارة الغرب، التي تتيح له أقداراً من الحرية، وحقوق الإنسان - لا تخرج عن السيطرة بحال من الأحوال - وأن الغرب الذي يستقبله مهاجراً، أو لاجئًا سياسيًا، هو الغرب نفسه، الذي يدعم أنظمة الاستبداد، والقمع السياسي، في كثير من بلدان العالم الإسلامي، ويخوّف من عودة الوعي الإسلامي، ويغري باستئصالها، ويمد الأنظمة، بالخبرات، والأدوات، والمعلومات، لتكون في مواجهة الأمة.. إذا عجز عن إدراك هذه الحقيقة، استلب حضاريًا، وأصبح رهينة، واقعًا في العمالة الثقافية.

حيث لا بد أن ندرك أن اليد التي تمنح المسلم، الحرية هناك، هي اليد نفسها، التي تمنعها هنا، ليتم الاستقطاب، والتحكم من جانب، ولإعطاء دليل عملي واقعي، على أن حضارة الغرب، بعطائها، تتميز عن حضارة المسلمين، فتهفو النفوس إليها، وتهاجر الأجنة إلى بلادها.

ولقد بلغت المحنة مداها، وأخذت الفتنة أبعادها المرسومة، حتى عند بعض المفكرين والأفراد الممتازين - إن صح التعبير - الذين بدأوا يشيدون بقيم الحضارة الغربية، واحترامها للإنسان.. ولم يقتصر نقدهم، على واقع المسلمين البائس، بسبب انسلاخهم عن الإسلام، لا بسبب انتمائهم له، والتزامهم به، وإنما تجاوزوا

إلى نقد التاريخ الإسلامي، ولم يعودوا يروا فيه إلا النقاط السوداء، والممارسات الشاذة، وبدأوا يعيشون عقدة مركب النقص، أمام قيم الحضارة الغربية، وآلياتها، دون أن يبصروا صورتها الحقيقية، أو وجهها الآخر، على يد عملائها وسدنتها في العالم الإسلامي.

وأعتقد أن التحكم والسيطرة على العالم الإسلامي، واستنفاد طاقاته، لم تعد تقتصر على إقامة الحراسات، والمخافر، لمصلحة الحضارة الغربية، ودعم أنظمة القمع والاستبداد السياسي، والتمكين لها، وامتصاص خبرات، وطاقات، وسواعد المسلمين، وإنما تجاوز ذلك، إلى محاولات التحكم بالمستقبل، حتى لا تقوم للمسلمين قائمة.

إنها مرحلة التحكم بالأرحام، والحد من النمو الديموغرافي للمسلمين، وذلك بإقامة مؤتمرات للسكان، والتمهيد لتشريعات، وتوصيات، الغاية منها الحصار السكاني، بعد أن تحقق الحصار السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، حتى لا تُخرج الأصلاب، وتحتضن الأرحام، من يفكر بالخروج عن السيطرة في المستقبل.

الابتعاث.. ميدان للصراع الحضاري

ومن ميادين الصراع الحضاري الخطيرة، التي لا بد من التنبه لها أيضاً، قضية الابتعاث، وتلقي العلم والثقافة، في معاهدَ، وجامعات الحضارة الغربية، ذلك أن الإلقاء بالطلبة في محاضن الحضارة الغربية، دون توفير التحصين الثقافي المكين، والوعي الحضاري اليقظ، ودون تزويدهم بدليل التعامل مع قيم الحضارة، وفهمها، وحسن قراءتها، سوف يجعل منهم ضحايا، قد يعودون إلى بلادهم، مشوهين حضاريًا، أو قد ينتهون، إلى الاستيطان، يصبحون طاقات ودماءً في شرايين

الحضارة الغربية، ويستوي في ذلك الذين يذهبون لتلقي العلم التجريبي، والذين يدرسون الإنسانيات، وإن كانت دراسة الإنسانيات أشد خطراً وأعظم أثراً .

أما الكثير من الذين يذهبون لأقسام الدراسات الشرقية، وأقسام الشريعة، والدراسات الإسلامية، التي أقامها الغرب لأداء رسالة معينة، دون تحصينهم بمعرفة الوحي، وبناء مرجعيتهم بضوابط الشريعة وعزائم الإيمان، بشكل صحيح، فسوف يكونون الأخطر، في آليات الصراع الحضاري، لأنهم ينقلبون إلى ألغام في جسم الأمة، قابلة للانفجار في كل لحظة، حيث يتحدد دورهم، في نقض الأسس، وهدمها، وتوهين القيم، والتشكيك فيها، لصالح الآخر، ذلك أن العدوان على الإسلام، والتحدي والاستفزاز من الخارج، يجمّع الطاقات، ويقضي على الرخاوة، ويقوي العزائم، ويبعث الروح الحضاري .

إنه المحرض الحضاري، الذي يساهم باسترداد الذات، والاحتماء بالقيم، وتجديد الانتماء، وتمتين الالتزام في معركة المواجهة . . وقد تكون المشكلة ، كل المشكلة هنا، هي في تدمير البيوت، بأيدي أهلها .

اللغة.. كأداة للفعل الحضاري

والحقيقة الأخرى، التي لا بد أن نعرض لها، في إطار الحوار، أو الصراع الحضاري، هي قضية اللغة، وما تحمل من دلالات، تعتبر أوعية للتفكير، وليس مجرد وسيلة للتعبير، وما تحمله وتعبر عنه، من حالات نفسية وشعورية، وما تمتلكه من مصطلحات، ومفاهيم هي خلاصات لعقل الأمة، وتجاربها وخبراتها . وليس من قبيل المجازفة القول : إن اللغة هي أداة الفعل الحضاري، ووسيلة التكوين، والتشكيل الثقافي . . إنها وعاء الهوية، وأداة التواصل بين الأجيال . . هي التراث،

٢٨٧٩ / ١٣

والحاضر، والمستقبل، لأنها طريقة الفهم للتراث، والتاريخ، والقيم.. لهذا كله، كانت ولا تزال، مستهدفة من الآخر، في عملية الصراع، والاستعمار، والحوار الحضاري، فالأمة التي تُلغي لغتها في المعهد، والجامعة، والمدرسة، والكتاب، والمصدر، والمرجع، هي أمة متوقفة حضارياً عن الامتداد والإبداع، ومهزومة حضارياً، إن صح التعبير، مهما حاولنا التخفيف من آثار ذلك، والادعاء، بأن اللغة هي وسيلة تعبير، وتفاهم فقط، لا علاقة لها بالتفكير، أو الفعل الحضاري.

ولا يتسع المجال هنا، أن نعرض لدور القرآن، في حماية اللغة العربية، ولماذا أنزل بالعربية، ودور سلامة اللغة، في إدراك مدلولات النص القرآني، وعمليات المسخ، والتشويه، والتحريف، التي لحقت بالنصوص المقدسة الأخرى، والتمزق، والتبعثر الديني، والعقيدي الذي نتج عن ذلك، بسبب سوء الترجمات التي اتسعت لسوء المقاصد والنوايا.

وسوف تستمر هزيمتنا، ويتوقف نمونا، ويغيب إبداعنا، وتحاصر رسالتنا، إلى العالم، طالما اننا نفكر باوعية الآخرين، ونصب افكارهم في عقولنا، من خلال لغاتهم.

فهم «آلية» إدارة الحوار

وتبقى قضية على غاية من الأهمية.. فإذا تقرر لدينا، أن الحوار الحضاري، هو سنة من سنن الله في الكون، له مقوماته، وآلياته، وأدواته، وأهدافه، وغاياته، وأسلحته المتعددة، فإن فهم آلية إدارة الحوار، وكيفيات التعامل معه، لا يقل أهمية عن امتلاك أدواته.. فكثيراً ما تستنزف الطاقات، في معارك دفاعية، غير مجدية، بل خاسرة، لأنها استنفاد للطاقة، واستهلاك لها، على حساب مواقع إنتاجية

آخرى.. فإذا استغرقتنا المواقف الدفاعية، في معركة الصراع الحضاري، وأصبح كل فعلنا، الرد على التهم، التي توجه إلينا، دون وعي بآلية الصراع، والتحكم بإدارته، نتحول من أن نكون أحد أطراف الحوار، المستخدمين لأدواته، إلى أداة للحوار، وميدان له، ونخضع لتحكم الآخر، بتفكيرنا، ونشاطنا، بحيث يصبح الزمام بيده، فيكفي أن يلقي إلينا بالتهم، التي يريد، ويحدد الزمان الذي يختار، ومكان المعركة التي تناسبه، ونحن ما علينا إلا رد الفعل، والاستجابة المرسومة مسبقاً، وبذلك يتحكم بساحة تفكيرنا، وبنوع نشاطنا، ومجال فعلنا، ويفقدنا زمام المبادرة، وتصير حياتنا، رد فعل عفوي، بعيداً عن الفعل المختار.

إن عمليات الاستهداف، ولائحة الاتهامات للإسلام اليوم، ومحاولات إدانة صحوته، وشل حركة العاملين، ومحاصرتهم، باسم الأصولية، والإرهاب، واعتبار الإسلام هو العدو الحضاري للغرب، وتوظيف كثير من الأنظمة، والأفراد، والمؤسسات، يتطلب من المسلمين استيعاب الهجمة، بعيداً عن الانفعال، والاستجابة العفوية للاستفزاز، والصبر، والتبصر، بكيفيات إدارة الصراع، لتفويت غرض الآخر، والتحول من أن نكون موطناً لأفكار الحضارة الغربية، وترجمتها إلى حياتنا، ومقاربة قيمنا بها، إلى نقل كنوز، وروائع، وقيم الحضارة الإسلامية، إلى الآخر، لإلحاق الرحمة به، واستنقاذه من التشويه العنصري والقومي، وبذلك نسهم فعلاً في الحوار الحضاري المثمر، وبناء حضارة إنسانية، يكون فيها الأكرم هو الأتقى.

إن الحضارة الغربية التي انتصرت بأشيائها وقوتها، وسقطت بقيمها وإنسانها، يرتفع صوتها اليوم، وترفع شعارها يوميًّا، على عالم المسلمين، وكأني بها تقول للمسلمين المهزومين: «اعل هُبل»، مستخدمة في ذلك وسائل إعلامها.. ولنا أن نتصور مدى الخطورة المستقبلية، إذا لم نكن في مستوى إسلامنا، وعصرنا، حيث

من المتوقع، في هذا العام، أن يصل عدد قنوات الإرسال التلفزيوني، الفضائية إلى نحو ١٤٠ قناة، تعمل ٧٥ قناة منها على مدار الساعة، أكثر من ٩١٪ منها تبثها شركات أو شبكات من أوروبا الغربية، وأمريكا الشمالية، واليابان، وأستراليا، والعشر الباقية لا تخرج عن أن تكون رجع الصدى .

ولا شك أن هذا الإغراق الثقافي والإعلامي، سوف يوقع في الداخل الإسلامي الكثير من الضحايا، ممن ينقلبون على المفاهيم، ويقررون الانسلاخ عن هذا الدين، في مناخ القهر الحضاري، ومحاولات التطبيع للهزائم . . لكن العالم الإسلامي، المهزوم بأشيائه، سوف يستعلي بقيمه وأفكاره، ويواجه الغزو الذي يرفع شعار: «أعل هبل»، بشعاره: «الله أعلى وأجل»، قولة أهل أُحد . . وأن الهزيمة والاستفزاز والقرح، الذي يصيب المسلمين، سوف تؤدي إلى الاستجابة لله وللرسول، ويتحقق الخلود لقوله تعالى : ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران:١٣٩) ، ولقوله تعالى : ﴿الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ (آل عمران:١٧٢) .

وتنبعث الروح الإسلامية من جديد . . فالاستجابة قادمة، على مستوى عالم المسلمين، والبشائر قائمة، إن شاء الله .

العَرَبيَّة ..
وَسيْلة تعبْير وَوعَاء تفكير

٢٨٨٣/١٣



يقول تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون ﴾ (يوسف : ٢) ، ﴿ إنا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون ﴾ (الزخرف : ٣) ، فاختيار الله للعربية ، أو اللسان العربي ، ليكون أداة التوصيل ، ووسيلة الإبانة ، ووعاء التفكير للرسالة الخاتمة الخالدة ـ التي تنتظم جميع شؤون الحياة ، وتستجيب لمشكلاتها ـ قضية ذات أبعاد لغوية، وثقافية ، وعلمية ، وحضارية، حيث لم يعد ينكر اليوم ، علاقة التعبير بالتفكير ، ودور التعبير في التفكير والإبداع الأدبي والعلمي، والمحاكمات العقلية.. لذلك فمجرد اختيار العربية لتكون لغة التنزيل والإبانة والتوصيل ، أو بتعبير آخر : اختيارها لتكون لغة الله سبحانه وتعالى في مخاطبة البشر في النبوة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية جميعاً ، والتي تحددت مهمة الرسول عليه الصلاة والسلام فيها ، بالبلاغ المبين ، يعني امتلاكها هذه الأبعاد جميعًا .. قال تعالىٰ : ﴿ إنما عليك البلاغ المبين ﴾ (آل عمران : ٢٠).. ﴿ وما علىٰ الرسول إلاَّ البلاغ المبين ﴾ (النور: ٥٤) .

لقد جاء التنزيل باللغة العربية، محل إعجاز وتحدٍ ، ليس علىٰ مستوى الأسلوب والصياغة فقط ، وإنما على الأصعدة المتعددة، اللغوية منها والفكرية ، أو علىٰ مستوىٰ التعبير والتفكير معًا ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذا يعني أن العربية أو اللسان العربي ، يمتلك من الخصائص والصفات والقدرات التعبيرية ، ما لا تمتلكه اية لغة أخرى، أو اي لسان آخر ، فاختيار العربية لغة للتنزيل، هو بلا شك تشريف لها من بين سائر اللغات ، وتكليف لها بأداء وتوصيل الخطاب الإلهي للناس بما هي أهلٌ له .. فلولا الأهلية، لما كان الاختيار .

لقد بعث الله محمداً ﷺ رحمة للعالمين ، ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين ، الذي أوتي جوامع الكلم ، وكان في القمة من الفصاحة، والبلاغة،

والبيان ، لذلك جاء البيان النبوي قريناً، وملازماً ، ومفتاحاً ، ومعياراً، ومرجعاً، لفهم لغة التنزيل ، قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزِّل إليهم** ﴾ (النحل : ٤٤) .. ولذلك لا بد أن يكون البيان النبوي محفوظاً بحفظ القرآن ، قال تعالىٰ : ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه** ﴾ (القيامة : ١٧-١٩) .

من هنا نقول : إن من الأهمية بمكان تحقيق الوعي الحضاري ، والتحصين الثقافي، واسترداد شخصية المسلم المعاصر ، وإعادة بناء المرجعية الشرعية ، وتشكيل مركز الرؤية ، في ضوء هداية ومعرفة وعطاء الوحي ، وتجارب ومكتسبات العقل ، وتخليصه من الارتهان الحضاري والضلال الثقافي ، والأزمات الفكرية ، التي يعاني منها، بسبب اضطراب المفاهيم ، والتباس المصطلحات ، وعدم وضوح الرؤية ، ذلك أن الكثير من المصطلحات والمفاهيم ، التي نتداولها ، وتُقذف بها الساحة الفكرية والثقافية ، في عالمنا اليوم ، هي من الوافد ، الذي له دلالاته ومفهوماته ، واستعمالاته في ثقافة أهله، التي تُفرض علينا ، وتُجعل لها السيادة في حياتنا الفكرية ، حتى لتكاد تصبح من المسلمات ، التي نفهم من خلالها ثقافتنا ، ونقيس بها حضارتنا ، ونُقوِّم بها واقعنا ، وننظر من خلالها إلى مستقبلنا ، والتي يمكِّن لها بعضنا بنوع من المقاربات الفكرية المحزنة ، التي أقل ما يقال فيها : إنها تخلٍ عن الأصيل لحساب الوافد ، وخلط بين التبادل الثقافي والمعرفي، وبين الغزو الثقافي، الذي ينتهي بإلغاء الأمة ، وتوهين عالم أفكارها ، وهزّ قيمها ، وتغييب قسماتها الحضارية، وصب قيمها الفكرية، في أوعية ومصطلحات غريبة عنها ...

ويفوتنا أن حفظ البيان، الذي لا يتحقق إلاّ بوضوح مصطلحاته ومفهوماته ، ودلالات ألفاظه، وإدراك معهود اللغة التي نزل فيها في الخطاب ، هو قسيم

حفظ القرآن نفسه .. وأن أي تفريط بالمدلولات أو بالمصطلحات أو بالمفاهيم ، يعني العبث والضلال الثقافي ، الذي يؤدي إلى الانتحال الباطل، والتأويل الفاسد الجاهل ، وأن حفظ البيان، لا يقل من حيث المردود، عن حفظ القرآن ، حيث يفتقد الحفظ قيمته العملية إذا فسد البيان .

ولعلنا نقول هنا : إن صبّ المعاني القرآنية في أوعية ومصطلحات ودلالات الآخرين، سواء في ذلك استخدام مصطلحاتهم ومفهوماتهم بعد ترجمتها إلى العربية، وإشاعتها في حياتنا الثقافية ، أو بترجمة دلالات الألفاظ العربية إلى اللغات غير العربية ، هو لون من الضلال الثقافي ، والانتقاص لعملية البلاغ والإبانة، التي جُعلَتِ العربية وعاءً لها . ذلك أن اللغات الأجنبية ـ إذا افتُقِدت المرجعية ـ يمكن أن تُعتبر من أخطر معابر الغزو الثقافي إلى الأمة ، عند من يدرك علاقة التفكير بالتعبير ، أو علاقة التعبير بالتفكير .

بل لعل ذلك يشكل إحدىٰ السبل الخطيرة ، لمحاصرة اللغة الأم ، وشل نموها وامتدادها ، واستمرار عطائها ، الذي سوف يحدث بالتالي أخطر الإصابات لعالم الأفكار والقيم ، ويفقده القدرة على تمثلها ، وحسن التعامل معها .

ومن هنا ندرك الأبعاد الكاملة ـ على المستوىٰ الفكري والثقافي ـ لاتجاه الذين يمنعون تعلم اللغات الأجنبية ، قبل سن الثانية عشرة ، حيث تعتبر هذه السنوات الإثنتا عشرة ،هي سنوات بناء المرجعية بالنسبة للإنسان .. وندرك أيضاً أسباب بعض الخلل والإصابات الثقافية التي نعاني منها .

فإذا سلمنا عقلاً وواقعًا ، أن خاتمية الرسالة ، وتوقف التصويب ، يقتضي حفظ النص الإلهي ، سليمًا من أي تحريف ، أو انتقاص ، حتى يكون التكليف صحيحًا، يترتب عليه الثواب والعقاب ، وفقًا لمقتضيات العدل الإلهي المطلق ، حيث لا يمكن أن نتصور أن يُخاطَب النّاسُ، بنصوص محرفة، أو منحولة ، فإن

٢٨٨٧ / ١٣

حفظ المصطلحات والدلالات القرآنية ، من خلال البيان النبوي ، ومعهود العرب في الخطاب ، يعتبر أيضًا من لوازم الخاتمية ، إذ لا قيمة لحفظ النص، وغياب بيانه ، والانحراف بمدلولاته ، وتحريف مقاصده ، وعدم استصحاب البيان النبوي، ومعهود العرب في الخطاب ، أثناء النظر فيه .

لذلك كان البيان النبوي عصمة للنص القرآني من التحريف ، وهو الخروج بالمعنى عما وُضع له اللفظ ، أو من التأويل الفاسد، الذي يتجاوز البيان النبوي ، كمرجعية ، ومعهود العرب في الخطاب ، كضوابط منهجية .

لذلك نقول : لا بد من التنبه إلى ضرورة المحافظة على المصطلحات القرآنية ، أو الإسلامية بشكل عام ، والاحتفاظ بمدلولاتها ، والعمل على وضوح هذه المدلولات في ذهن الجيل ، لأن هذه المصطلحات ، هي نقاط الارتكاز من الناحية الثقافية والحضارية ، وهي المعالم الفكرية التي تحدد هوية الأمة بما لها من رصيد نفسي ، ودلالات فكرية ، وتطبيقات تاريخية مأمونة .. إنها أوعية النقل الثقافي، وأقنية التواصل الحضاري .. وعدم تحديدها ، ووضوحها ، يؤديان إلى لون من التسطيح الخطير في الشخصية المسلمة ، والتقطيع لصورة تواصلها الحضاري ، والإلغاء لامتدادها المعرفي، والهبوط بها إلى مستوى التلقي الحضاري والثقافي الوافد .

والأمر الذي لابد من إيضاحه هنا : أن الدعوة إلى المحافظة على المصطلحات، ومدلولاتها، لا تتعارض مع الامتداد بها، والتطوير لهذه المدلولات، بشرط استصحاب المعنى الأصلي، وعدم الخروج عليه.

وقد نبه القرآن لهذه القضية الخطيرة عندما أرشد المسلمين إلى ضرورة استخدام مصطلح ﴿ انظرنا ﴾ ، ونهى عن مصطلح ﴿ راعنا ﴾ ، الذي كان يستعمله ويشيعه يهود ، كنوع من التضليل الثقافي ، وتحقيق بعض الأغراض الكامنة في

نفوسهم ، قال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴾** (البقرة : ١٠٤) .

إن أهمية تحديد المصطلح ، وقضية الوضوح في دلالته ، في البناء الفكري والثقافي للأمة ، أمر ذو قيمة فكرية بالغة ، إلى درجة أصبح معها كثير من المؤلفين والباحثين، يفردون صفحات في مقدمة مؤلفاتهم، لمعجم المصطلحات المستعملة ، والدلالات التي أرادوها ، من استعمال هذه المصطلحات ، وهي طريقة محمودة فكريًا وثقافيًا ، حتى يتحقق الوضوح ، ولا يحمّل الكلام أكثر مما يحتمل ، ولا يقوَّل الإنسان ما لم يقل ، حتى لقد بلغ الأمر اليوم، أن تفرد معاجم لمدلولات كل علم من العلوم، كمعجم المصطلحات الفلسفية، ومعجم المصطلحات الدبلوماسية، ومعجم المصطلحات النفسية ... الخ .

وقد نستغرب أو لا نستغرب ، أننا نحن المسلمين قد سَبَقنا إلى وضع معاجم لمصطلحات كثير من الفنون : لغوية ، أو فقهية ، أو أصولية ، أو غيرها ، حتى يضبط اللفظ بمدلولاته ، من خلال معهود العرب في الخطاب ، والإبانة ، أو من خلال مدلوله من حيث المراد به، في الفن، الذي وضع له ، دون الانقطاع عن أصله اللغوي.. ولا نكاد نجد كتابًا من كتب أصول الفقه ، إلاّ وفصل : « دلالات الألفاظ »، يأخذ مساحة كبيرة فيه .

وقد لا نرىٰ ضيرًا أن نقول : إن وضع علم النحو والصرف ، وتقعيد القواعد ، إنما كان في الحقيقة ، سبيلاً إلى حماية الألفاظ والدلالات القرآنية ، وضبطها بمعهود العرب في الخطاب ، حيث نزل القرآن بلسان عربي مبين ، حتى لا يكون إسلام أصحاب اللغات الأخرى سبيلاً إلى التيه الدلالي والاصطلاحي ، حتىٰ إنّ كثيرًا من علماء اللغة ، كابن هشام، رحمه الله ـ فيما روي عنه ـ عندما طُلب إليه أن يضع لطلبته كتابًا في التفسير للقرآن ، وضع لهم كتاب : « مغني اللبيب عن

كتب الأعاريب »، لضبط دلالات الألفاظ ، والأدوات ، ومعانيها ، حتى يدرك المصطلح القرآني، بكل احتمالاته . . . وكانت معظم شواهده ، واستدلالاته من النص القرآني، والبيان النبوي ، وكلام العرب من حقبة السلامة اللغوية .

استعارة مصطلح «الآخر»

وهنا قضية ، قد يكون من المفيد ، الإتيان عليها ولو سريعاً ، وهي أن بعض العاملين للإسلام ، قد يرىٰ فائدة من استعارة مصطلحات الآخرين ، واستخدامها كمفاتيح فكرية، ومداخل ثقافية للتعامل معهم ، وإيصال بعض المعاني الإسلامية إليهم ، من خلال مصطلحاتهم ، بنوع من المقاربة ، وقد أجاز كثير من العلماء ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأخرى ، لتعريف أهلها بالإسلام وكتابه . . وهذا إن صح في البدايات ، لا يجوز أن يصح في النهايات ، لأن الله اختار العربية لتكون وعاء التنزيل ، وأداة الإبانة، فلا ننزله في غير وعائه، ولا نبينه بغير أداته ، خاصة وأن من المسلَّم به لغويًا وفكريًا ، أن إدراك أبعاد النص تمامًا لا يمكن أن يكون بغير لغته الأصلية، وأن عجمة اللسان، يمكن أن تؤدي إلى عجمة العقل والقلب ، وعجمة التعبير سوف تقود إلى عجمة التفكير .

وقضية معهود العرب في الخطاب ـ من حيث السلامة في اللفظ، والإبانة في المعنىٰ ـ كضابط منهجي ، ومعيار ، لأي تفسير، أو تأويل، أو قراءة في معاني النص الإلهي ، أو لبيانه النبوي ، تعتبر من الشروط والموازين اللغوية الأساسية ، التي لا بد أن يخضع لها الكلام، من حيث مبناه ، وتحدد في ضوئها ، دلالات الألفاظ ، وأطر المعاني ، على الرغم من أن اللغة أداة توصيل وتفكير ـ كما أسلفنا ـ وليست مصدراً للأحكام ، وعلى الرغم ، من أن الكتاب والسنة ، هما يحكمان

على اللغة ولا تحكمهما ، أو تحكم عليهما ، لأنهما في القمة، من التعبير، والبلاغة، والإعجاز ، وعلى الرغم من أنهما أضافا دلالات عرفية ، ومصطلحات شرعية، لم تعرفها اللغة قبل التنزيل، علماً بأن هذه المصطلحات الشرعية الجديدة الإضافية، لم تخرج عن الدلالات اللغوية الأولى في معهود العرب ، وإنما استصحبتها وطورتها، وهذا جميعه لا ينبغي أن ينفي ، أو يلغي اعتماد معهود العرب في الخطاب ، لتحديد الدلالات، وفك الالتباس.

ومن هنا رفض العلماء أي تفسير ، أو تأويل باطني ، أو ذوقي ، أو عرفاني ، أو صوفي، مدَّعٍ للفيض الإلهي، أو ما يمكن أن يأتي ثمرة للتجارب ، والرياضات الذاتية، لأنه لا يخضع لمعهود العرب في الخطاب والبيان - والقرآن نزل بلسان عربي مبين - ولا يضبط بضوابط الشريعة، ولأن ذلك يفتح الباب على مصراعيه ، لكسر موازين اللغة، وتحريف دلالاتها ، ويشكل منزلقًا ومدخلاً، ينتهي إلى أن يقول في كتاب الله وسنة رسوله، كل من شاء، ما شاء ، كما يؤدي إلى الغيبوبة اللغوية ، واستحكام الأزمات الثقافية ، والفوضى في المفاهيم ، وبعثرة رقعة التفكير الجماعية ، وتمزيق نسيج الأمة الثقافي، والنيل من الثوابت العامة للأمة ..

لذلك كانت ولا تزال ، الإصابات الباطنية والصوفية المنحرفة ، على الأمة ، من أخطر الإصابات، سواء على مستوى اللغة ، والفكر ، أو على مستوى العقيدة والعبادة، أو على مستوىٰ السياسة والاجتماع..

وقد يكون الأمر الخطير حقًا اليوم، محاولات إيقاف هذه النزعات، تحت شعارات علمية ، ونظريات معرفية (أبستمولوجية) ، تعتبر أن هذه الاتجاهات، تمثل النظام المعرفي الأمثل !

ولقد تنبه علماؤنا رحمهم الله تعالىٰ إلى هذه القضية المهمة ، وكانوا يدركون تمامًا أن العربية من الدِّين ، وأنه لا سبيل إلى فهم العقيدة والتزام الشريعة بغير

العربية ، وبذلك يقول الإمام أبو إسحاق الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠هـ ، في الموافقات :

« إن هذه الشريعة المباركة عربية ، فمن أراد تفهمها فمن جهة لسان العرب يفهم ، ولا سبيل إلى تطلب فهمها من غير هذه الجهة ... » .

لذلك رأينا علماء الأصول يفردون في كتبهم مباحث نفيسة للغة العربية ودلالاتها، باعتبارها وسيلة لفهم الشريعة ـ كما أسلفنا ـ ومن هنا يقول الإمام الشافعي رحمه الله (١٥٠–٢٠٤هـ)، وهو أول من أصَّل الأصول : « فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، ومن التسبيح، والتشهد وغير ذلك ... » .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (٦٦١–٧٢٨هـ) يقول : « فإن نفس اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ... » (اقتضاء الصراط المستقيم، ١ / ٦٩) .

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « تعلموا العربية فإنها من دينكم ... » .

والأمر الذي نرى أهمية التأكيد عليه ، ولفت النظر إليه ، هو أن قوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (الأنعام : ١٢٤) ، لا يختص بشخص الرسول ﷺ ، فقط ، من بين سائر النّاس ، ولا يختص بزمانه فقط ، من بين سائر الأزمان ، ولا يختص بقومه ـ العرب ـ فقط، الذين يشكلون القاعدة الأولى لحمل الرسالة وبيانها ، من بين سائر الأقوام ، ولا يختص بجغرافية مكانه فقط ، دون سائر الأمكنة، ولا يختص بلغته فقط ، وقدرتها على الاستيعاب

والاستجابة والإبانة، دون سائر اللغات ، وإنما يشمل ذلك كله ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، نبيًا ، وزمانًا ، ومكانًا ، وقومًا ، وأرضًا ، ولسانًا ، لما يتوفر في ذلك كله من الخصائص والصفات التي تجعلها محلاً لذلك .

فاختيار العربية لتكون لغة التنزيل للخطاب السماوي ، أو لتكون لغة خطاب الله الأخير إلى البشر ، له دلالته من أكثر من وجه .

فإذا سلمنا أن من مقتضىٰ الخاتمية ، أو من لوازمها ، الخلود ـ والخلود يعني : التجرد عن قيود الزمان والمكان ، والقدرة على العطاء والإنتاج العلمي والمعرفي، في كل زمان ومكان ـ أدركنا خلود اللغة العربية ، وسعتها، ومرونتها ، وقدرتها على تقديم الأوعية التعبيرية ، والاستجابة لكل الظروف والأحوال ، التي يكون عليها الناس، والاستجابة للإنتاج الحضاري ، في سائر العلوم والفنون ، حتى يرث الله الأرض، ومن عليها . ولسنا بحاجة الآن للتدليل علىٰ سعتها ، وقدرتها ، وغناء مفرداتها ، وكثرة مترادفاتها ، التي تمتلك التعبير عن كل حالة شعورية، ولا يضيق لفظها عن استيعاب أي معنى ، ولا يضيق سلمها الصوتي عن النطق بأيِّ حرف ، مهما كان معقداً في اللغات الأخرى .

ولقد حدثني بعض المبتعثين إلى الدول غير العربية ، أن أصحاب اللسان العربي، من المبتعثين الذين يدرسون باللغات الأخرى ، هم الأكثر تفوقًا في النطق بتلك اللغات، كأهلها ، وأنهم يُختارون من بين سائر أبناء اللغات الأخرى ، لتميز نطقهم ، لأن حروف اللغة الأم عندهم (العربية) ، لم تُعطِل من السلم الصوتي ، أيّ جانب يعيق عن النطق بأي حرف، مهما كانت تعقيدات لفظه . . . أما نبوغهم في المجالات العلمية والمعرفية، حيث يتوفر لهم المناخ المناسب، فتلك قضية أخرىٰ .

وحسبنا أن نقول : إن التنزيل الخالد ، الممتد إلى نهاية الزمان ، والذي وصف

الله أبعاده ومداه ، بقوله : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ (الكهف : ١٠٩) ، وقوله: ﴿ **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** ﴾ (لقمان : ٢٧) ، والذي كانت العربية، وعاءه الخالد ، هو الذي يجعلنا ندرك الطاقة التي تمتلكها العربية، والشرف الكبير، بجعلها لغة التنزيل ، ويجعلنا ندرك أيضاً التخاذل اللغوي والثقافي ، الذي يعاني منه المسلمون اليوم ، وكيف أن المشكلة ليست في قدرة اللغة ، وإنما في تخلف وعجز أهلها .

من ثمرات لغة الرسالة الخاتمة

إن الجهود العظيمة التي قام بها علماء اللغة ، بصرفها ، ونحوها ، وفقهها ، وما قام به علماء أصول الفقه ، من البحث في دلالات الألفاظ ، وما قام به علماء الإعجاز والمفردات القرآنية، لحراسة اللغة وحمايتها ، والمحافظة على معهود العرب بالخطاب ، وحماية النص الإلهي من التحريف والتأويل الفاسد ... هذه الجهود في الحقيقة ، يمكن أن تعتبر ثمرة لخلود اللغة ، وحفظها بحفظ الذكر المُنَزَّل من الله بها ، إذ لا يمكن أن يتحقق حفظ النص الذي تعهد الله بحفظه ، ويُحمىٰ من التحريف والتأويل ، بدون حفظ لغته ، لغة التنزيل .

لكن المشكلة أن هذا الحفظ ، بكل مدلولاته الشكلية ، والموضوعية ، سوف ينتهي إلى الجمود والتجميد ، إذا توقف عن الإنتاج الحضاري والتقني ، والإبداع العلمي ، في ضوء المرجعية الشرعية واللغوية ، ذلك أن علوم اللغة جميعاً هي من علوم الآلة ، أو من علوم الوسائل ، التي يبذل فيها الجهد لتحقيق المقاصد

والأهداف.. وكم ستكون المشكلة صعبة، ومعقدة، من الناحية الفكرية والثقافية، إذا انقلبت الوسائل إلى اهداف، وتعطلت الآلة عن التشغيل، ودخلت الجهود اللغوية مرحلة التكرار، والشرح، وشرح الشرح، والاختصار، و اختصار الاختصار، والاجترار، وغياب استخدام اللغة للإبداع والإنتاج العلمي، والتقني، والحضاري.

وإذا كان ما تقوم به المجامع اللغوية، من إصدار معاجم حديثة نسبيًا (وإن كانت دون المطلوب والمأمول) بما تتضمنه من مصطلحات منحوتة، حديثة، ومعربة، وإصدار بعض المطبوعات التراثية الجديدة والمحققة، وما توصي به سنويًا من ضرورة الاهتمام بتعريب التعليم، وتعريب العلوم، فإن ذلك يعني فقط حماية اللغة، والمحافظة عليها.. لكن يبقىٰ الأمر الأهم هو: المحافظة على حياة اللغة، واستمرارها، وتجاوز مسألة الحفاظ على المفردات في التعبير عن المعاني والمدلولات العلمية والتكنولوجية الجديدة، وعدم الاقتصار على حمايتها، على الرغم من أن الحفاظ على اللغة وحمايتها، من الأمور الأساسية في البناء الفكري والحضاري للأمة... لكن تصبح عملية الحفاظ هذه، مشكلة، إذ توقفنا عند حدودها، ولم نتجاوزها إلى تذليل وتطوير عملية تعليم اللغة، والإفادة من التقنيات الحديثة والمعملية في تعليم اللغات، وتقديم الإبداع العلمي والثقافي والحضاري، وتقديم المعالجات الناجعة للمشكلات الإنسانية، التي تغري الآخرين بتعلم اللغة العربية.

ولعلنا نقول هنا، مع شديد الأسف: إن الكتاب العربي اليوم، في مجمله، بما يقدم من التكرار، والتقليد، والإعادة، وغياب الإبداع والابتكار، لا يغري بتعلم العربية - هذا إن كان لا يغري بتجنبها - فما قيمة أن نتكلم عن قدرة العربية، ونفكر - في الوقت نفسه - بعقول غيرنا، ونعبِّر بلسان غيرنا؟ لقد انتهى المسلم اليوم للجوء إلى تعلم اللغات الأخرى، للاطلاع على ما وصلت إليه الحضارة من

الإبداع والإنجاز ـ الذي أصبحت معرفته ضرورية لإنسان العصر ، وأصبح لا مناص له من تعلم لغة أهله ـ وذلك بسبب التخاذل اللغوي الذي يعيشه ، وتوقف لغته عن الاستمرار في الإبداع ، والإنتاج الحضاري .

وقد تكون المشكلة الفكرية والثقافية، فيمن يقفون عند حدود علوم اللغة (علوم الآلة ، وعلوم الوسائل) ، في أنهم يتعلمون ليقرأوا ، ويقفون عند حدود تعلم الوسيلة، دون القدرة على القراءة المبصرة، والعطاء المأمول، بينما قد يكون المطلوب أن يقرأوا ليتعلموا ، ويبدعوا.

ويحضرني بهذه المناسبة ، معلومة لافتة للنظر حقًا ، كان أوردها المستشرق الفرنسي « جاك بيرك » ، في إحدى محاضراته : من أن أحد الباحثين في علوم اللغة بالمغرب ، استمع إلى محاضرة للدكتور طه حسين هناك ، وأحصىٰ عليه أكثر من سبعة عشر خطأ لغويًا ، أو نحويًا !! فقلت في نفسي : كم من القضايا والإشكاليات الثقافية واللغوية ، التي أثارها طه حسين ، ولا تزال تداعياتها مستمرة في حياتنا الفكرية ، حيث أصبح لها تلامذة ، وتابعون، ومروجون ، وإن كانت لا تخرج في حقيقتها عن أن تكون رجع الصدى للمستشرقين؟! وكيف أن هذا الباحث الذي توقف عند حدود علوم الآلة ، ولم يتجاوزها إلى توظيف هذه الآليات في الإنتاج والإبداع ، لم يظهر اسمه وصوته ، إلاّ علىٰ هوامش محاضرة طه حسين ، ومن ثمّ غاب من بعدها ؟! فما قيمة علم الوسائل، إذا وقفنا عند حدوده، ولم نستعمله ؟! .

نعود إلى القول : لا شك إنّ علم الوسائل، يشكل حماية، وحراسة، وحفاظًا على اللغة ، لكن إذا لم يتم تفعيله وتشغيله بالإنتاج والإبداع ، سوف ينقلب إلى قوالب تجميد وجمود للغة .. فتنقلب الألفاظ ، لتصبح قبورًا للمعاني ، بدل أن تكن أوعية لحملها ونقلها، وتحقيق الانفعال بمعناها ، والتنمية لإنسانها .

وفي اعتقادي لو أننا اجتزنا قدراً من مواقفنا الدفاعية عن اللغة ، وقدرتها ، ومرونتها، وخلودها ... الخ ، لإنضاج بعض البحوث في تطويرها وتذليل تعليمها ، لغير الناطقين بها ، وإبداع بعض العلوم والفنون التي لا تتحصل إلاّ بتعلمها ، لتغيُّر الحال ، ولدبت فيها الحياة.. وقد لا يكون مستغربًا ونحن على هذه الحال من التخلف ، والتخاذل الفكري ، وبعد مضي أكثر من نصف قرن على حركة الوعي الإسلامي الحديثة ، وإلى الآن ، لم نقدم بعد جهداً مقدوراً في تطوير تعليم اللغة، أو تخديم التقنيات الحديثة لمصلحتها ، وقد بلغ تطور اللغات الأخرى شأواً بعيداً ، وأصبح لكل فن من فنون القول ، وكل علم أو فن من العلوم ، والفنون ، طريقة ، بل طرقًا لتعلمها وتعليمها .

من عوامل إلغاء «الذات»

والعجيب الغريب ، أن تتسع اللغة اليابانية لكل المنجزات العلمية والتقنية ، على الرغم من عقم أبجديتها ، وطريقة كتابتها ، ومحدودية مفرداتها .. وأن تتسع اللغة الصينية للإنجاز والإنتاج الحضاري .. وأن تُحيا العبرية ، وتسترد من بطون التاريخ ، والمتاحف، وتنفخ فيها الروح، لتصبح لغة العلم، والدين ، والسياسة ، وحتى التعبير عن أدق المصطلحات والمبتكرات العلمية ، في الفيزياء والرياضيات الحديثة ، وتنشر بها البحوث والدراسات، وتصدر المجلات المتخصصة ، ويضطر المعنيون بهذه الموضوعات ، من أبناء الأديان واللغات الأخرى، إلى تعلمها للاطلاع على إنتاجها(!) في الوقت الذي تنحسر فيه اللغة العربية ، بانحسار أهلها ، ونكوصهم الحضاري، إلى درجة يحاول معها بعضهم أن يخرج العربية من ساحة ولغة العلم نهائيًا ، ويحاصرها بالمتاحف والمعابد (!)

٢٨٩٧ / ١٣

فلغة المعهد عنده، غير لغة المعبد والمسجد ، والعربية لا تصلح أن تكون لغة العلم والمعرفة ، فليُقتصر فيها على لغة العبادة والترتيل لآيات القرآن (!) ولتعزل عن الحياة ، وتنفصل عن الدولة وحركتها اليومية ، ومعاملاتها الرسمية ، ومعاهدها ، ومدارسها ، وجامعاتها ، ومراجعها ، ومناهجها ، لأنها ليست لغة العلم ، ولا الحضارة ولا المراجع (!) وشيئًا فشيئًا تصير كالسريانية ، وغيرها من اللغات البائدة، التي انتهت إلى المتاحف ودور الآثار ، وبعض المعابد، حيث تمارسها طبقة من رجال الدين ، تردد ترانيمها ، للتبرك ، دون أن تعي منها شيئًا ، لا هي، ولا من يستمع إليها .

وطالما أن اللغة وسيلة تخاطب وتوصيل للمعاني فقط، لا علاقة لها بالتفكير والثقافة والتراث ـ في زعم بعضهم ـ فلا يهم أن تكون أية لغة، أو أية لهجة ، أو أية ترجمة .. ولا يهم أن تسود العاميات ، لأن الأصل أن يتفاهم بها الناس ، حتى ولو كانت سببًا في انقطاع الأمة عن مخزونها التاريخي والتراثي ، ورصيدها العلمي ، وإلغاء ذاكرتها ، وتوقف النقل الثقافي بين أجيالها !!

وتتأكد خطورة ذلك أكثر فأكثر ، في إطار اللغة العربية ، لغة التنزيل ، والتفسير، والحديث ، والفقه ، والأصول، أو بعبارة أدق : لغة ما تعتز به الأمة المسلمة، من أنها أمة الإسناد ، ومنهج النقل ، إلى جانب منهج العقل .. ذلك أن أي عدوان أو انتقاص من اللغة، يعني إلغاءً للأمة ، وتقطيعًا لأوصالها ، وتمزيقًا لثقافتها ، وتاريخها ، وتراثها .

فإذا كان العلماء المحققون ، والباحثون الجادون اليوم ، على مستوى اللغة نفسها، يحاولون تجاوز فهوم أبناء اللغة المعاصرين أنفسهم، ويعودون للبحث عن الأصول والمخطوطات ، يعودون للمعاجم لدراسة مدلولات الألفاظ ، ويدرسون أيضًا رسم الخطوط ليتمكنوا من القراءة، وليصلوا إلى الصورة الحقيقية ،

والمدلولات الدقيقة للوحي الإلهي ، ولنص الكتب ، والمعاهدات ، والمقررات ، والعقائد ، والأديان ... فما بالنا نحن المسلمين ، وعلى مستوى القيادات ، نرى أنه بالإمكان أن نكون مسلمين ، وأن يكون فهمنا للإسلام من خلال التصور الذي رسمته لنا الكتب المترجمة ؟!

ونعود للتأكيد مرة أخرى ، أن الدعوة لتعلم لغة العقيدة ، والتعرف على العقيدة من خلال لسانها ، لا يعني إلغاء الترجمة ، وبيان الإسلام باللغات الأخرى ، ولا التقليل من قيمة هذه الجهود المشكورة ، التي أضاءت الطريق لكثيرين ، ووصلتهم بالإسلام ولا تزال ، ولا أن نتخذ موقفًا معاديًا لها ، وإنما نقول : إن العربية هي الوسيلة الوحيدة في نهاية المطاف ، لفهم الإسلام ...

ويمكن أن نلمح ذلك من أن الإسلام لم يُقِم وزنًا لقضية الأجناس ، والألوان ، والأقوام ، حَسْبُها أنها فوارق قسرية ، ليس من المقبول عقلاً أن تكون ميزان تمييز وتفاضل ، ولو كان ذلك كذلك لكان الظلم عينه ، وكانت وسيلة وسبيلاً للصراع والاقتتال ..

ومن هنا أيضًا نلمح البدائية العجيبة عند الذين كانت القوميات ، والعصبيات ، والعنصريات ، والألوان ، والنزعات العرقية ، مناط دعوتهم ، وهدف حركتهم ... وعلى الرغم من أن الإسلام لم يُقم وزنًا لهذه الفوارق القسرية كلها ، إلاّ أنه لم يتنازل عن قضية العربية ، لأن اللغات مكتسبة ، وتعليمية ، ولا بد منها لصياغة الأمة الواحدة ، وتشكيل أوعية متجانسة للعقيدة الواحدة ، التي تحفظ روح الأمة ، وتعبر عن إرادتها .. ولذلك نرى التطبيق العملي لهذا في حياة المسلمين من غير العرب ، حيث لم يعتبر أحدهم أن بإمكانه الاستغناء عن العربية ، والاقتصار على ما يفهم من الإسلام بلغته ، أو من أبناء جنسه الذين أسلموا وتعلموا العربية ، بل كانت العربية غاية مناه ، ووسيلة فهمه لإسلامه وعقيدته ، فكان منهم مؤلفون ،

وعلماء ، ومفسرون ، ومؤرخون ، وأصوليون ، أدركوا من مدلولات الخطاب ما أدركه العرب أنفسهم ، بل وصلوا إلى مرتبة الإمامة في اللغة ، والفقه، والتفسير ، والحديث ، وما إلى ذلك من العلوم ، التي لا تتوفر إلاّ لمن أتقن العربية وعلومها. . .

اللغة.. كمقوِّم لإنسانية الإنسان

ولا شك أن اللغة ـ كما أشرنا ـ إحدى مقومات الأمة، إن لم تكن هي المقوم الأساس ، لأنها سبيل توصيل العقيدة ، وتحقيق الانفعال بها، وصياغة الأمة ، وتنظيم نمط تفكيرها ، وإعادة بناء نسيجها ، وحماية ذاكرتها، وبناء سياجها الثقافي ، والحيلولة دون اختراقه ، لذلك لم يُقم الإسلام وزنًا للأجناس ، والأعراق، والألوان . كما أسلفنا . ولم يعتبرها وسيلة تفاخر وتفاضل ، لكنه لم يتنازل بحال من الأحوال عن أمر اللغة ، لأنها الميثاق الجامع ، والصعيد المشترك ، والقاعدة الثقافية والفكرية ، والحصن العقلي للأمة ، ووسيلتها إلى الترقي والنهوض.. فالله سبحانه خلق أول ما خلق، القلم ، وجاء في الكتب المقدسة السابقة للإسلام : أنه في البدء كانت الكلمة ، وكانت أولى التعاليم السماوية ، بعد الخلق الأول : تعليم الأسماء قال تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (البقرة : ٣١) .. وبدأت الرسالة الخاتمة بكلمة ﴿ اقرأ ﴾ .. والعربية اللسان ، وليست الجنس ولا الجغرافيا .

واللغة هي المقوِّم الأساس لإنسانية الإنسان ، فالحيوان له أصوات محدودة، والإنسان له لغة ، لذلك يعرف الإنسان بأنه كائن لغوي ، يسمع ، ويقرأ ، ويفكر باللغة .. يفكر الإنسان بالكلمات .. والكلمات والأسماء ، رموز للأشياء .. وقد لا يعرف ابن آدم حقائق الأشياء ، التي يتعامل معها، ويكتشفها شيئًا فشيئًا ،

لكن طريقه إلى إدراكها : معرفة أسمائها .. وهذه الأسماء أو الرموز ، لها مخزون معنوي شعوري، فهي تؤثر في الإنسان فرحًا، وحزنًا ، وانفعالاً .. فالأسماء لا تُكسب اتجاهًا عاطفيًا فحسب ، وإنما تكسب الإنسان ايضًا، تفاعلاً عقليًا . لذلك نقول هنا : إن أخطر ما تواجه الأمم ، هو التعبير بأوعية الآخرين ، والتفكير بوسائل وأدوات وآليات الآخرين ، وإن عدم التعريب ، يعني : التغريب ، مهما حاولنا اعتبار اللغة أداة توصيل ، وهمشنا دورها في التفكير ، وتجاهلنا علاقة التعبير بالتفكير والنقل الثقافي ، وما تتضمنه مفردات اللغة من شحنات ومؤثرات لصناعة الشخصية ، وبنائها وتشكيلها .

وفي اعتقادي أن البحث في أهمية التعريب، يجب أن لا ينصب على المبدأ والأساس ، لأنه من المسلمات العقلية، والعلمية، والحضارية، والثقافية ، والذي يتعلق بأصل الوجود ، بأبعاده الثلاثة : الماضي بمخزونه الثقافي ، والحاضر وعلاقته به ، والمستقبل ودور هذا المخزون التاريخي ، في تشكيله، وإنما لا بد أن يتجه إلى الوسيلة والتطبيق ، فلا يمكن أن يتحقق النمو والنهوض والبناء الحضاري ، بغير اللغة .. والاستقراء التاريخي ، وقراءة الحاضر، يدلان على أنه لا يوجد بلد ارتقى بغير لغته .

ومن هنا ندرك لماذا تُلزِم بعض الدول – حفاظًا على كيانها وثقافتها – مواطنيها، وتمنعهم من استخدام ألفاظ أو عبارات أجنبية ، طالما أن هناك ألفاظًا أو عبارات مماثلة تؤدي المعنى ذاته، في اللغة الأم. حتى لقد شرَّعت فرنسا في مايو الماضي (١٩٩٤)، عقوبة للذي يستخدم غير الفرنسية، في الوثائق والمستندات ، والإعلانات المسموعة، والمرئية ، وكافة مكاتبات الشركات العاملة على الأرض الفرنسية ، وبوجه خاص المحلات التجارية ، والأفلام الدعائية ، التي تبث عبر الإذاعة والتلفزيون.. وأوصت بعقوبة السجن أو الغرامة المالية، التي تصل إلى ما

يعادل الفي دولار .. وهذا القرار، جاء في مواجهة هجمة اللغة الإنكليزية، التي أوصلتها الأقمار الصناعية إلى بيوت الفرنسيين ، في محاولة لاستنقاذ التراث الفرنسي المهدد بالإغراق اللغوي (انظر صحيفة الخليج الإماراتية ، العدد ٥٥٠٢ ، بتاريخ ٧/٦/١٩٩٤، ص٩)... فأين هذا من معاناتنا اللغوية ، أو ماساتنا اللغوية ، في مدارسنا ، وجامعاتنا ، ومعاهدنا ، ومحلاتنا التجارية ، والعمالة في بيوتنا ، ودوائرنا الرسمية، التي تمارس علينا ، أو تفرض علينا عملية التعجيم، وتكسير موازين وقواعد اللغة العربية؟! إنهم يعجموننا ، بدل أن نعربهم .

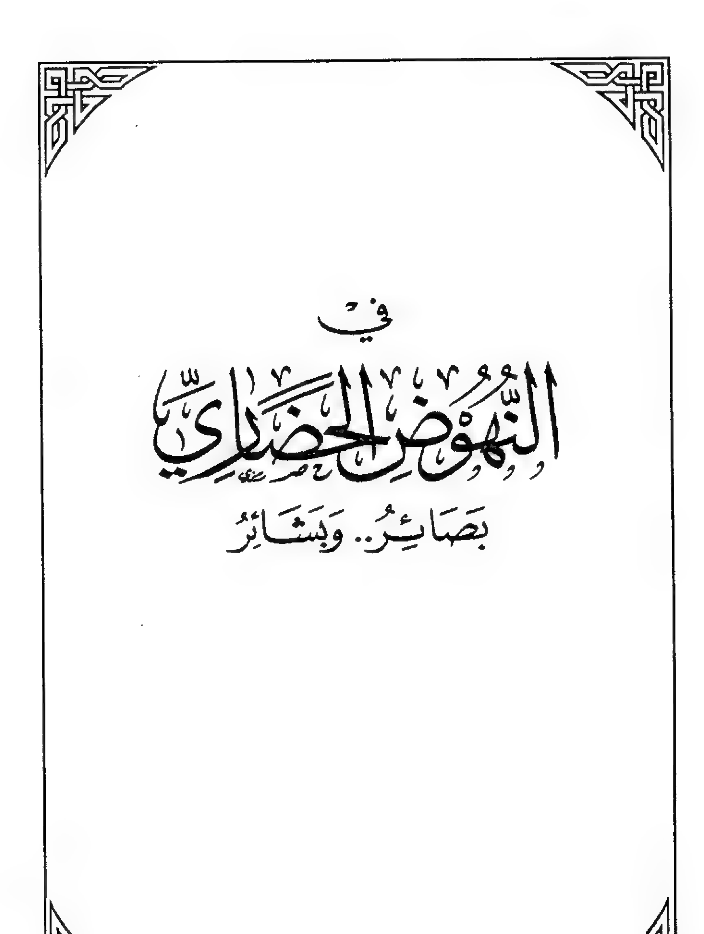
فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

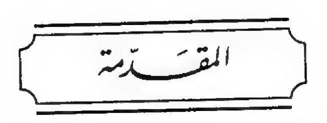
٢٩٠٣/١٣

الموضوع	الصفحة

٢٩٠٤/١٣


في
النهوض الحضاري
بصائر.. وبشائر





المقدّمة

الحمد لله الذي جعل الخير موصولاً بهذه الأمة، وناط استمراره بالطائفة القائمة على الحق، التي لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهي على ذلك، لتقدم الأنموذج العملي للقيم، وتثير الاقتداء، وربط النهوض والإنجاز والتغيير الحضاري بعزمات البشر وإراداتهم في التغيير، فقال تعالى: ﴿**إنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ (الرعد:١١)، وأخضع ذلك لسنن جارية لا تتبدل ولا تتحول.

والصلاة والسلام على الرسول الإنسان، الذي ابتعث أنموذجًا للتعامل مع السنن في أحواله كلها، فجاءت سيرتُهُ مَعِينًا لا ينضب أمام السائرين على الطريق، من ورثة الأنبياء، فيما يعرض لهم من حالات، ويعترضهم من مشكلات، وَبَعْـــدُ:

فسوف لا نأتي بجديد إذا قلنا: لعل من أعظم ما تمتاز به الأمة المسلمة، أنها -دون غيرها من سائر الأمم- تمتلك النص السماوي الصحيح، الذي يمدها - إن هي أحسنت تدبره، وكيفية التعامل معه - بالفهم السليم لمعادلة الحياة، والأحياء، ويمنحها الإمكان الحضاري، والحصانة الثقافية، وامتلاك خميرة النهوض، ويبصرها بكيفيات الفعل الحضاري، والقدرة على إعادة البناء، والحيلولة دون الموت والانقراض، كلما استطاعت توفير الظروف، والشروط المطلوبة، لاستعادة الفاعلية، وتحقيق النهوض، والإقلاع من جديد.

واستقراء تاريخ هذه الأمة المسلمة، وتتبع مسيرتها، في الصعود والهبوط، في اقدار التدين، يدل بما لا يدع مجالاً للشك، ان هذه الأمة المسلمة ـ أمة الرسالة الخاتمة الخالدة ـ تمتلك من القدرات على النهوض، ما لم تملكه أمة أو حضارة أخرى في التاريخ الإنساني.. فقد تمرض، ويطول مرضها، وقد تُحاصر، ويشتد عليها الحصار، وقد يتسلط عليها أعداؤها، ويظهرون عليها، لفترات طويلة، وقد يَعقُّها بعض ابنائها، ويسقطون في العمالة الثقافية، والسياسية، ويقعون في موالاة أعدائها، تحت شتى الفلسفات، والمسوغات، وقد ينتصر عليها أعداؤها عسكرياً، ويعلنون بشعارات الكفر والردة على أرضها، ويتكرر شعار : «أعل هبل»، الذي ساد أرض المعركة، في أحُد، ولكن يبقى بعض أبنائها البررة من أصحاب الولاء والبراء ــ الطائفة القائمة على الحق، التي لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهي على ذلك ــ يرددون في أقسى الظروف، وأشد المحن، وتنوع الابتلاءات : «الله أعلى وأجل»، فتتجدد العزيمة، ويستعلي الإيمان، وتتخلص النفوس من أوضار الهزيمة ومعاناتها، وتتوجه صوب العواقب : (قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار)، فتستجيب لله ورسوله بعد ما أصابها القرح.

وقد تمر الأمة بفترات، يجيء أعداؤها من فوقها، ومن أسفل منها، يأتونها من كل جانب: ﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم﴾ (الاحزاب:١٠)، وتجتمع عليها العصبية القبلية، والوثنية، والصليبية، والصهيونية، وترمى عن قوس واحدة، ولا يأمن بعض أفرادها في بعض المواقع، من الخروج إلى الخلاء، وتُبتلى النفوس، وتزلزل زلزالاً شديداً، ويشتد الخوف وتبلغ القلوب الحناجر: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾(الاحزاب:١١) ... وتبدأ حملة التشكيك، وتشيع فلسفات الهزائم : ﴿وإذ يقول المنافقون،

والذين في قلوبهم مرض، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ (الاحزاب:١٢).

وقد يشتد الحصار، ويشتد، حتى تؤكل الميتة، ويُقتات بورق الأشجار، وتحكم المقاطعة، وتوقع وثيقتها، ويتواطأ الظالمون، ويتسرب اليأس إلى بعض النفوس، ويتطرق حتى إلى النفوس الكبيرة، فتفقد حَوْلها وطَوْلها، وتستشعر بشريتها، وضعفها وحاجتها، فتلتجئ إلى الله، وتجدد عبوديتها، وتفتش عن مواطن قصورها، وأسباب تقصيرها : ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا ﴾ (يوسف:١١٠).. ﴿ فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب ﴾ (الشرح:٥-٨)، فتتحقق الاستجابة إلى الله، وتتفجر الطاقات، ويتجدد الأمل، وتكون هذه الإصابات أشبه بالمحرضات، التي تحيي موات الأمة، وتجدد شبابها، وتقضي على العناصر الشائخة في جسمها، فتعزم على الرشد، وتستجيب لأمر ربها: ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم * الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخْشَوهم، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ (آل عمران:١٧٢ - ١٧٤).

والقضية المهمة في تقديري، التي ما تزال غائبة من الناحية الثقافية،وإن كانت حاضرة من الناحية العلمية.. غائبة من الناحية الفعلية، وإن كانت حاضرة من الناحية الفكرية، هي: أن الوحي في الكتاب والسنة خالدٌ، والخلود يعني التجرد عن حدود الزمان، والمكان، والقدرة على الإجابة عن الأسئلة، التي يعيشها الإنسان، في كل زمان، ومكان، فرداً كان، أو جماعة، أو مجتمعاً، وامتلاك الحل لكل الحالات، وصور المعاناة، التي هو عليها، فما عليه إلا أن

يفتش عن الإجابة، والحل، والحكم الشرعي، في الوحي الإلهي الخالد.. عليه أن يفتش عن نفسه في القرآن.. أن يجد نفسه في القرآن والسنة.. عندها يتذوق الخلود،ويحس بطعمه،ويعيشه فعلاً.. يحس وكأن القرآن يتنزل عليه لينتشله من حالته، التي يعاني منها، فيشعر بالمدد، والقوة، والارتكاز إلى خالق الكون، فيصبر، ويصمد، ولا يسقط، بل تتغير معادلة الحياة والموت عنده، ويعيد قراءة الحياة بأبجدية جديدة: (قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار)، فيشعر بأنه أكبر من الحدث، وأنه فرد في قافلة الخلود، ويزداد أمله في نصر الله: ﴿**متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب**﴾ (البقرة:٢١٤).

فلا يسقط على أقدام الظلمة: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب * إن ربَّك لبالمرصاد**﴾ (الفجر:٦-١٤).. ولا يتنازل عن الحق، ولا يسجد إلا لله، ويدرك بكل اطمئنان أن النور يتولد من قلب الظلام، وأن الذي قوض ملك فرعون، رمز الظلم والاستبداد، والفساد، والعلو، في التاريخ، إنما تربى في قصره.. وأن الذين انقلبوا على فرعون، وآمنوا بموسى وهارون، هم من جنوده، وسحرته، حيث انقلب السحر على الساحر.. والخلود يقتضي أن هذا الانقلاب مستمر، ما دامت السماوات والأرض، وإلا كان القرآن كتاب تاريخ، وقصص ماضية، لا علاقة لها بالخلود، والواقع.

وما يزال فرعون الذي نجاه الله ببدنه، عبرة وآية لأولي الأبصار.

فهل نعود للقرآن والسنة، والسيرة العملية، فنتدبر وندرك أبعاد الخلود، في حياتنا اليومية، ونبدأ مع الرسالة الخاتمة الخالدة فعلاً، من حيث انتهت الأمم

السابقة، ونفيد من تجاربها، ونضيف أعماراً إلى عمرنا، وعقولاً إلى عقلنا، ورؤىً إلى رؤيتنا؟

ونحن على يقين من عهد الله ومواثيقه لهذه الأمة، أن لا يسلِّطَ عليها أعداءها، تسليط استئصال وإبادة: ﴿لن يضرُّوكم إلا أذىً﴾ (آل عمران:١١١)، وإنما هي عقوبات على المعاصي والتقصير في جنب الله، ومحرضات حضارية، وشحذ للهمم، أو هي في نهاية المطاف مصلحة للأمة، ورُبَّ ضارةٍ نافعة: هي تمحيص واختبار، ونفي للخبث، كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد، وإزالة للغشاوة عن العيون، يقول تعالى: ﴿إنَّ الذين جاءوا بالإفك عُصْبَةٌ منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم﴾ (النور:١١)، أو كما يقول بعض الصالحين: لا تخافوا الفتن، فإنها حصاد المنافقين.

ولعلنا نقول: إن حقبة التحالف الصهيوني الصليبي وعملائه من المنافقين في فلسطين والعالم الإسلامي، كانت أحد أهم عوامل الاستفزاز والتحدي، التي ساهمت باليقظة وحركة الوعي الإسلامي، أو الصحوة الإسلامية بشكل أعم.. وكذلك عندنا من البشائر والبصائر ما يؤكد بأن حقبة العلو والاستكبار الصهيوني، وما انكشف لها من رصيد في الواقع والداخل الإسلامي، كفيل بأن يحوِّل الصحوة الإسلامية ﴿في بضع سنين﴾ (الروم:٤)، من فكر ووعي نخبة، إلى وعي وثقافة وحركة أمة بإذن الله ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ (الروم:٤-٥).

وهذا الكتاب، هو في الحقيقة مجموعة ملامح ورؤى، أو بصائر وبشائر، كُتبت في أكثر من مناسبة، والذي يجمع بينها، أنها إضاءات على طريق نهوض الأمة، واستعادة فاعليتها، واستئناف دورها في الشهادة على الناس، والقيادة

لهم إلى الخير.. عرض بعضها لعوامل الإمكان الحضاري، الذي تختص به هذه الأمة، وعلم النهوض أو سبيل النهوض، ومواجهة الانكسار، وكيف أن القضية الأهم في مسيرة البشرية ومهمة الصفوة من الخلق (الأنبياء)، كانت تحقيق العبودية والربوبية لله سبحانه، وأن الإخفاقات التاريخية جاءت بسبب الحَيْدَة عن التوحيد، وأن آفة المشاريع النهضوية في الداخل الإسلامي، كانت عدم تحرير قضية التوحيد وحماية آثارها في النفس والمجتمع، وعدم التحقق بالمصدرية في الكتاب والسنة، والمرجعية المطلوبة في فهم خير القرون، وأن العقيدة والشريعة إنما جاءت لخلاص الإنسان وحمايته، وإلحاق الرحمة به.. جاءت لتتجسد في حياة البشر، وتتعامل معهم من خلال الحالة التي هم عليها، وتتحقق من خلال السنن الجارية، من خلال عزماتهم.

كما عرض الكتاب لبعض الحالات المَرَضِية التي تعاني منها مواقع متعددة في جسم الأمة المسلمة، وعلى الأخص عندما تصبح النخبة التي نِيطَ بها النهوض، هي المشكلة!

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الدوحة في:
١٢ من ذي القعدة ١٤١٦ هـ
٣١ آذار (مـارس) ١٩٩٦ م

من مقومات
الإمكان الحضاري



من نعم الله علينا، أن أرشدنا لسلوك سبيله، وهدانا صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين .

ومن رحمته بنا، أن بعث فينا خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ليخرج الناس من عبادة العباد، إلى عبادة الله، ويحررهم من العبودية، التي هي نزعة فطرية، في الإنسان، من التسلط، والاستعباد، فاسترد إنسانية الإنسان، ووضع عن البشرية إصرها، والأغلال، التي كانت عليها .. وكانت النبوة، بكل المفاهيم، والاعتبارات، والواقع الميداني، والسياق التاريخي، ثورة تحرير، وانعتاق، ونسخ لألوهية الإنسان على الإنسان، التي تمارس تحت شتى العناوين، والشعارات، والادعاءات، لإخلاص الوجهة لله سبحانه وتعالى . ذلك أن الشر، والظلم، تاريخياً، ناشئ، من تسلط الإنسان على الإنسان، وتعدد الآلهة، المتخذة من دون الله، والانحراف عن التوحيد، الذي يعني فيما يعنيه: مساواة الخلق أمام الخالق.. والذي لم يعرف الجاهلية، لا يعرف الإسلام حقيقة.

وقد لا نأتي بجديد عندما نقول: إن الإسلام دين الفطرة، وإن الحضارة الإسلامية، هي عطاء الفطرة، وإن خلود هذا الدين،وامتداده، وقدرته على الإنتاج، والعطاء، مستمد من خلود الفطرة، التي تتأبى على التشويه، والتبديل، وتمتلك إمكانية التجاوز، والتصويب، قال تعالى: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم**﴾ (الروم: ٣٠) .. إن هذا الدين، فطرة الله، فقوامته، واستقامته، وقدرته على

التقويم، والامتداد، والتجدد، والتجديد، مستمدة من رصيده في الفطرة البشرية، وكان بين الإسلام، الذي هو دين الله إلى البشرية: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ (آل عمران: ١٩)، الذي رضيه الله لعباده: ﴿**ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ (المائدة: ٣)، وبين الإنسان، الذي فطره الله على هذه الخصائص، والصفات، والمزايا، تواعد، والتقاء .. وأن المعركة الحقيقية، كانت ولا تزال، في الصراع، والتدافع، بين الفطرة، التي فطر الله الناس عليها، وبين محاولات التشويه، والتبديل، والتضليل والاغتيال لهذه الفطرة .

وفي ضوء ذلك، يمكن أن نفهم قول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: « **... وإني خلقت عبادي حنفاء، كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم** » (رواه مسلم في كتاب الجنّة) .. ونفهم قول الرسول ﷺ فيما يرويه أبو هريرة: «**ما من مولود إلا و يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، و يمجسانه .. كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحسون فيها من جدعاء ؟**» (رواه مسلم، في كتاب القدر) .

وندرك الأبعاد الكاملة لقوله تعالى في سورة الروم: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون**﴾ (الروم: ٣٢-٣٠) .

وفي ضوء ذلك أيضاً، يمكن أن ندرك، بأن حقائق الخلق الإنساني

العضوي، والنفسي، لها من الثبات، والامتداد، والديمومة، والعطاء، كحقائق الخلق الكوني .. وإن تميزت، عنها بأهلية الاختيار.. وأن رصيد الخلق في الفطرة البشرية، كرصيد الخلق في الفطرة الكونية .. وأن حقائقها، لا تقل ثباتاً وامتداداً، عن حقائق الشمس والقمر، والكواكب الأخرى .. وأن السقوط المستمر للآلهة المزيفة، التي أرادت تبديل خلق الله، عبر التاريخ البشري، وفتنت الناس إلى حين، جاءت من مواضعات البشر .. وأن غياب الحضارات، واندثارها، واستمرار الإسلام، دليل على خلود هذا الدين، لأنه استجابة طبيعية لفطرة الله، التي فطر الناس عليها، وشاهد إدانة مستمر، وتأكيد على أنه لا تبديل لخلق الله، وأن العبرة دائماً هي بالعواقب، والمآلات الممتدة، وليست بالنتائج القريبة، التي تحاول أن تختزل الخلود في لحظات مرضية، في إطار الزمان والمكان .

لذلك بالإمكان القول: إن رصيد هذا الدين، في الفطرة البشرية، أو باعتبار هذا الدين، هو دين الفطرة، أو هو الفطرة نفسها، وإنه صبغة الله سبحانه وتعالى: ﴿**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون**﴾ (البقرة:١٣٨)، وثمرة علمه المطلق، بتقلبات الزمان، والمكان، والإنسان: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ (الملك:١٤)، ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون**﴾ (البقرة:٣٠) ، ونتاج عدله المطلق الذي لا يليق به غيره... إن هذا المنطلق لفطرية هذا الدين، هو الذي أهلّ الإسلام، ليكون دين الإنسان، وهو الفيصل الأساس، بين الإسلام، وسائر المشروعات الحضارية البشرية،

والمنظومات العقائدية المختلفة، والأيديولوجيات الوضعية المتعددة.. ولعل هذا هو السر الأعظم، في خلود الإسلام، حيث تتساقط المشروعات، والحضارات البشرية، والدينية التي عبثت بها أيدي البشر .

إن الإمكان الحضاري، والقدرة على تحقيق الشهود الحضاري على الناس، والقيادة لهم، وتقويم سلوكهم، بشرع الله، الذي يمثل أساس مهمة الأمة المسلمة، الذي بينه قوله تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ (البقرة: ١٤٣) ، نابع من القابليات المركوزة في الفطرة لهذا الدين .

وفي نطاق هذه القدرة، المتميزة، لهذا الدين، على النهوض، وإعادة البناء، الذي اصطلحنا على تسميته: بالإمكان الحضاري، يمكن لنا أن نلمح بعض المقومات، ولعل في مقدمتها، إضافة إلى ركيزة الفطرة:

أن رصيد التجربة البشرية التاريخي ، وبكل إصاباته، وإنجازاته، وسقوطه، ونهوضه، وعبره، ودروسه، انتهى إلى النبوة الخاتمة، فهي بذلك تمتلك، إلى جانب رصيد الفطرة، رصيد الفعل التاريخي، الذي يعتبر المختبر الحقيقي للأفكار، والمبادئ، والدعوات، والحضارات، والعبرات، فهي تقف على قمة التجربة البشرية، ليس وقوف الذاهل، الغافل، وإنما وقوف المبصر، الذي يمتلك أدوات النظر، ومعاييره، وقيمه.

إن الوقوف على هذه القمة الحضارية، إن صح التعبير، بكل ما فيها من نهوض، وسقوط، وكفر، وإيمان،وخير،وشر، وقوة وضعف، في أقدار التدين، سوف يمكن المسلم، من امتلاك القدرة على استشراف الماضي البعيد، والنظر إلى كيفية بدء الخلق، والتأمل في مسيرته، وما تعرضت له من عثرات، كما يمكنه من استشراف المستقبل البعيد، والمآلات، والعواقب، في ضوء ذلك

الماضي، الذي استقرت له، وفيه، قوانين الاجتماع البشري، والحركة التاريخية، وتأكدت فاعلية سنن الله في الأنفس، والآفاق .. وحتى لا يصيب إنسان الإسلام، الذهول، والغفلة، والعجز، والضياع، جعل الله النظر في العمق التاريخي، والتأمل في العواقب، والاهتداء إلى السنن، الناظمة للحياة، والاتعاظ بأحوال السابقين، واختصار الزمان، والتجربة، وتحقيق الوقاية الحضارية، من السقوط ... جعلها من الفروض الحضارية، أو الاجتماعية، فقال تعالى: **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾** (آل عمران:١٣٧-١٣٨).

استشراف الماضي والمستقبل.. سبيل للنهوض

وإذا سلمنا بأن الحاضر هو مستقبل الماضي، وماضي المستقبل، كما يقال، أدركنا الرصيد، والزاد، ومقومات الرؤية المستقبلية، التي يتمتع بها إنسان الإسلام، الذي لم يقف فيها عند حدود المحسوس، في عالم الشهادة، ويخادع ببعض النتائج القريبة، ويعيش قلق المصير، وإنما يتجاوز إلى ماوراء المحسوس، والمنظور، في عالم الشهادة، إلى التحقق برؤى مطمئنة عن العواقب، والمآلات، التي سوف تصير إليها الأمور، من خلال مقدماتها في الماضي، ونتائجها في الحاضر، الأمر الذي سوف ينتهي بها إلى ادراك مآلاتها المستقبلية، المقترنة بتوثيق الوحي، الصادق المصدوق، قال تعالى: **﴿ولا يُنبئك مِثلُ خبير﴾** (فاطر: ١٤).

وهنا قضية، قد يكون من المفيد الإشارة إليها، ولو سريعاً، وهي أن الرؤية، التي يمنحها الإسلام للمستقبل، بشكل أخص، ولعالم الغيب بشكل أعم، ليست رؤية غائمة، حالمة، طوباوية، بعيدة عن القدرة على التصور، والإحاطة العقلية بها، وإنما هي رؤية تمتلك كامل مقوماتها، وحتى مقدماتها المادية في الدنيا، ونماذج السنن، التي تحكمها،حيث يمدنا التاريخ بدليل صدقها، وفاعليتها، ويضعنا على عتبة المستقبل، متحققين بالزاد المطلوب.

لذلك نقول: بأن أي استشراف للمستقبل، لا يمكن أن يتحقق بدون استشراف للماضي، والتحقق به، وأي إدراك لمصير الخلق، لا يمكن أن يدرك بدون السير في الأرض، والنظر في السيرورة البشرية: كيف بدأ الخلق، قال تعالى: ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة** ﴾ (العنكبوت: ٢٠) .

والقرآن الكريم، لم يكتف، بتوجيه المسلم صوب التاريخ، وأمره بالتوغل فيه، واكتشاف السنن الناظمة للحركة الاجتماعية، وتسخيرها، والوقاية الحضارية من إصاباتها، وتركه يمارس الاكتشاف بنفسه، وإنما زوده بهدايات الوحي، كما زوده بأدلة، ونماذج تاريخية، في القصص القرآني، تفتح بصيرته، وتقدم له القدر، الذي يشكل الأنموذج، وسراج الهداية، ودليل العمل، وبوصلة التوجه.

والمقوّم الآخر ، الذي يمتلكه هذا الدين، في إطار الإمكان الحضاري، أنه يمتلك، دون غيره من الأديان، صحة النص السماوي، وسلامته من التحريف، والتبديل، وانتقاله بالتواتر .. وعلى الرغم من أن سلامة النص، تعتبر من لوازم الخاتمية، حيث تعني الخاتمية، في أقرب مدلولاتها، توقف

التصويب من السماء، لما يمكن أن يكون من عمليات التحريف، والتبديل، والإلغاء، فإن من خصائص الخلود أيضاً، استمرار النص سليماً، لكل الأجيال، في كل زمان ومكان، حيث لا يعقل أن يخاطب الناس بنصوص محرفة، أو منحولة، ومن ثم يحاسبوا على مدى التزامهم، بما حمل لهم الخطاب من تكاليف، وفي ضوء ذلك يمكن أن نفهم الأبعاد الكاملة لقوله تعالى: ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (الحجر: ٩).

نقول: على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من لوازمه المادية، وثمرته، بتعهد الله بالحفظ، فإن الخطاب السماوي في الرسالة الخاتمة، خضع لأعلى درجات التوثيق، والحفظ، والنقل، حيث بلغ حد التواتر، الذي يفيد علم اليقين، مشافهته، وكتابته، إلى درجة أصبح معها النص القرآني - بالمعايير العلمية البشرية - يعتبر أقدم وثيقة تاريخية، وردت بطريق علمي صحيح، ولذلك قد لا نستغرب، أن يدرك ذلك بعض أبناء الأديان الأخرى، ويقوده إدراكه، ومنهجه العلمي الوثائقي، إلى اعتبار القرآن، هو المصدر الوحيد، الوثيق، لبيان عقائد النصرانية، واليهودية الصحيحة، وبيان ما داخلها من تحريف، وتشويه، ذلك أن المصادر الأخرى، لا يوثق بها، لا من الناحية التاريخية، ولا من الناحية العلمية، إذا خضعت للفحص والاختبار، وأن قبولها واستمرارها، محكوم بنوع من التسليم، وهالة من القدسية، تحول دون مناقشتها، وعرضها على موازين التقويم والنقد.

حفظ الذكر.. في فهم الجيل الأول

وهنا قضية، لابد من إثارتها، ولعلها من مقومات الإمكان الحضاري أيضاً: وهي أن المسلمين، في الجيل المشهود له بالخيرية، لم يفهموا من قوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ (الحجر:٩)، أنهم معفوون من مسؤولية الحفظ، والتوثيق، والنقل، طالما أن الله تعهد بها، وإنما أدركوا مسؤوليتهم تجاه القرآن، وأنهم أوعية الحفظ، والنقل، وأن الحفظ والنقل، إنما يتحقق من خلال عزمات البشر وفعلهم، لذلك، سارعوا إلى الحفظ والكتابة، منذ بدء الوحي، حيث اتخذ الرسول ﷺ كتّابًا للوحي، ونهىٰ عن كتابة غير القرآن؛ حتى لا يختلط النص السماوي بكلام البشر، فقال: «**لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه**» (رواه مسلم، في كتاب الزهد)، وأرعبهم اشتداد القتل بالقراء، في معركة اليمامة، وخافوا على ضياع القرآن، وأن يلحق بهم ما لحق باليهود، والنصارى، من الاختلاف، ومن ثم استنفروا جهودهم كاملة لحماية خطاب الله، الذي هُدد بالإصابة، فكان جمع القرآن، وحفظه، ونقله، حتى وصلنا كما أُنزل .

وأمة تمتلك، وتتفرد بوراثة الكتاب، وبامتلاك النص السماوي الخاتم، الخالد، سليمًا، وتدرك أن مدلولاته، ومقاصده، لابد أن تتحقق من خلال عزمات البشر، هي أمة مؤهلة، لتحقيق الشهادة على الناس، والقيادة لهم، والقيام بأمانة الشهود الحضاري.

من ثمرات التوحيد

وقد يكون من الأمور المهمة، التي تقتضي الإشارة إليها، ونحن بسبيل الكلام عن مقومات الإمكان الحضاري الخالد، الذي تحقق للأمة المسلمة، والذي يمنحها القدرة على النهوض، وإعادة البناء، هو عقيدة التوحيد، وثمراتها الإيجابية، في إعادة صياغة الإنسان، وتوحيد وجهته، في العقيدة والعبادة، والولاء والبراء، وتحقيق الانسجام بين نفسه، وروحه، وجسمه، وعقله، وعاطفته، وسائر أشواقه، وتطلعاته، وسموه، وحاجاته، وترقية خصائصه، وتصعيد غرائزه، ذلك أن التوحيد لم يقتصر على آفاق البحث النظري، في مجال العقيدة، وتوحيد الأسماء والصفات، وإنما أثمر رؤية توحيدية، في كل شُعَب الحياة، المعرفية والعملية، ونفي الشرك، وتوحيد الوجهة، في المجال السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والأخلاقي: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ (الأنعام : ١٦٢).

ولعلنا نقول هنا: إن التوحيد هو الركيزة الأساس، في الإمكان الحضاري، حيث قضى على التثليث، والتجسيد في العقيدة، الذي حاول إخضاع الخالق لسيطرة الإنسان، وخصائصه، وصفاته، وقضى على الثنائية، بين الوحي والعقل، التي كانت سببًا في سقوط الحضارات تاريخيًا، وتشطير الإنسان، وتقطيع أوصاله، وتعدد وجهاته، ومنازعه، ومصادر التلقي عنده.

لقد تخلص إنسان الإسلام، من ثنائية الوحي والعقل، ذلك الخيار الصعب، الذي طُرح تاريخيًا، كثمرة لمقدمات مغلوطة، فلم ير المسلم تناقضًا، بين معارف الوحي، ومدارك العقل؛ لأن الله، هو مرسل الوحي، وخالق العقل، ومكلفه بتعاليم الوحي، ومخاطبه بمعارفه، ولذلك فلا يمكن أصلاً، تصور أي تناقض .. فالعقل سبيل معرفة الوحي، ومحل تكليفه، والوحي، هو سراج الهداية للعقل، والإطار المرجعي، والضابط المنهجي لمعارفه، ولا يمكن ابتداءً لأحكام الوحي، أن تناقض العقل السليم، لأنه محل الخطاب والتكليف، كما أسلفنا.. ولو افترضنا أن الصدام والتناقض، حاصل من الناحية النظرية، فلا معنى إذًا للتكليف، الذي مناطه العقل، لأن التكليف لا يقع إلا على محله ..ولما كان العقل، متأثرًا بالرغبات والنزوات، وواقعًا تحت احتمالات خطأ الحواس المعتمدة، لإيصال المعلومة إلى العقل، كما أنه خاضع للعلم المحدود، والعمر المحدود، والاطلاع النسبي، فلا يمكن له أن يستقل بالنظر، والحكم. أما الوحي فهو: خطاب الله، العليم، علمًا مطلقاً، منزهًا عن الخطأ والغرض، والمُبَلِّغُ المُبَيِّنُ له هو: الرسول المعصوم ﷺ، لذلك فالتعارض منتف، بأصل الوضع، أما عند توهم التعارض، أو وجوده، لسبب أو لآخر، فإن الوحي المعصوم، مقدم عقلاً، على العقل المظنون.

وجيل خير القرون، ومن تبعهم بإحسان، في فترات التألق، والعطاء الحضاري كلها، لم يعانوا من هذه الإشكالية، التي دمرت إنسان الحضارة الغربية، ووضعته أمام الخيار الصعب، فانتهى، إما إلى إلغاء العقل، وإسقاطه، واعتبار التدين والإيمان، يعني ويقتضي: الإلغاء الكامل للعقل، والتسليم، بدون تعقل، الأمر الذي أدى إلى شيوع الخرافة، و التصورات المشوهة، والانسلاخ من الدين، والقيم

الأخلاقية.. وإما إلى نفي الدين، وتأليه العقل، والاكتفاء بعلم ظاهر الحياة الدنيا: ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا**﴾ (الروم:٧)، وإسقاط معارف الوحي، وتقطيع الإنسان إلى أبعاض.

إن جيل خير القرون، والفترات التاريخية كلها، التي تمتعت بالبناء، والتألق الحضاري، لم تعان من هذه الثنائيات، إلا عندما طغت مفاهيم الحضارة الغربية، وأخذ الناس بأشيائها، ونقلوا فكرها، وفلسفتها، وثقافتها، وهماً، منهم بأنها قارب النجاة، وسبيل الرقي الحضاري وما زادتهم إلا تبعية وتكريساً للتخلف، ونوعاً من الفصام الحضاري.

أنموذج الاقتداء التطبيقي

ولعل من مقومات الإمكان الحضاري، الذي يؤهل الأمة المسلمة للشهود الحضاري، أو بعبارة أدق: يؤهلها للشهادة على الناس، والقيادة لهم: هو وجود أنموذج الاقتداء التطبيقي، المعصوم، الذي تم تطبيقه، وبناؤه، على عين الله، صاحب الخطاب الأصلي، وفعل المعصوم ﷺ لتنزيل القيم، والنص السماوي المطلق، على الواقع النسبي، وتقويم سلوك الناس بها.. وهذا الأنموذج الذي امتد بناؤه ثلاثة وعشرين عاماً، استوعب أسس الحالات، وسبل حلول المشكلات، التي يمكن أن تتعرض لها البشرية، في تاريخها الممتد، حتى قيام الساعة، إنه أنموذج للدعوة والدولة، والضعف والتمكين، والسقوط والنهوض، والهزيمة والنصر..الخ .. أنموذج لكيفية التعامل مع القيم، من خلال الواقع،

والتعامل مع الواقع، والارتقاء به، وتقويم سلوكه، بشرع الله، من خلال القيم.. ويبقى المطلوب، في كل مشروع للنهوض والتجاوز: القدرة على استلهام الأنموذج المعصوم، وفقه الحالات المشابهة، ووضع الواقع في موقعه المناسب، من مسيرة بناء الأنموذج، والإفادة من كيفية تعامله مع الحال المشابه، لتسديد المسيرة، وتغذية السير، بعيداً عن أي تقليد، ومحاكاة للنماذج الرديئة، من أي مصدر جاءت. لذلك جعل الله استلهام الأنموذج المعصوم، ديناً من الدين، قال تعالى: ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ (الأحزاب: ٢١).

استمرارية الأنموذج

ومن الأمور التي لابد من لفت الانتباه إليها، ويمكن اعتبارها من مقومات الإمكان الحضاري أيضاً، في هذا المجال - مجال تميز الأمة المسلمة، بأنموذج الاقتداء التطبيقي المعصوم، لتنزيل القيم على الواقع - هو استمرار حمل الأنموذج، وعدم انقطاعه، في كل المراحل.. صحيح بأن مساحة هذا الأنموذج، قد تضيق، وقد تتسع، لكنها أبداً لا تنقطع، ولعل سمة الخلود، التي تعتبر من لوازم الرسالة الخاتمة، تعني فيما تعني، من الناحية النظرية: القدرة على الإنتاج العملي في كل عصر، وتأكيد ذلك من الناحية العملية التطبيقية، إنما يكون في امتداد الأنموذج، الذي يجسد القيم، ويدلل على قدرتها على الإنتاج، وقابليتها للتطبيق، وإثارة الاقتداء بها .. في ضوء ذلك، يمكن أن نفهم بعض

الأبعاد الغائبة، لقول الرسول ﷺ : «**لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**» (رواه البخاري ومسلم).

إنه استمرار لأنموذج الاقتداء، الذي يمنح الدليل العملي، والشاهد الواقعي على الإمكان الحضاري، وقابليات النهوض، وإعادة البناء، والإقلاع من جديد، ذلك أن الطائفة القائمة على الحق، تمثل بحق ميداناً تدريبياً تأصيلياً للمعاني الغائبة، وترجمة القيم إلى واقع وسلوك، والأفكار إلى أفعال .. ولعل امتلاك الأمة المسلمة للقيم، في الكتاب والسنة، التي لا يد للإنسان في وضعها، أو إلغائها، والتي تمثل الدليل للفعل البشري، والمعيار لصوابيته وخطئه، يمنحها القدرة على اكتشاف أخطائها، وممارسة عمليات التصويب، والنهوض، والتجدد الذاتي، والقضاء على جوانب الانحراف، ونوابت السوء .. يمنحها القدرة، ليس فقط عل معايرة الحاضر (الواقع)، وتحديد مواطن الإصابة، والقصور، ومعرفة أسباب التقصير، ورسم سبل الخروج منه، وتقويمه بشرع الله، وإنما تمتلك القدرة أيضاً، على تقويم الماضي (التاريخ)، وبيان جوانب الانحراف والاستقامة، والخطأ والصواب فيه، التي انتهت بنا إلى ما صرنا إليه.

فالتاريخ، هو في نهاية المطاف، فعل بشري، يجري عليه الخطأ والصواب، وهو محاولة لتنزيل القيم على الواقع .. وهو ليس أمراً مقدساً، ولا معصوماً، وهو بذلك ليس مصدراً لتشريع الأحكام، وإنما هو محل للدرس، والعبرة، والاهتداء إلى السنن الاجتماعية الفاعلة، والتحقق بالوقاية الحضارية، حتى لا يتكرر الخطأ، وتستمر الإصابة.

فالأمة المسلمة، ليست أسيرة لتاريخ أو لماضٍ، اللهم إلا السيرة الصحيحة،

التي تمثل أنموذج الاقتداء، المسدد بالوحي، والمؤيد به.. بل لعل السيرة النبوية، تشكل أحد المعايير التطبيقية، لتقويم التاريخ، وبذلك فالأمة المسلمة، قادرة باستمرار، على التجدد الذاتي، والتجديد، وهذا يعتبر أحد مرتكزات الإمكان الحضاري الكامن في طبيعة الأمة، وقيمها، التي تؤهلها باستمرار، لاستئناف السير، ومعاودة النهوض، ولعل هذا،هو السر الحقيقي في عدم انقراض الأمة المسلمة، وموتها، وعدم خضوعها بإطلاق، للدورات الحضارية، التي جرت على الحضارات التي سادت ثم بادت، على الرغم من خضوعها لسنة التداول الحضاري، قال تعالى: ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، ذلك أن خميرة النهوض، تتمثل دائماً في القيم المستمدة من الوحي (الكتاب والسنة)، وفي تجسيدها، وتفعيلها في الطائفة الممتدة، القائمة على الحق.

الدورات الحضارية.. والأمة المسلمة

لقد ذهب علماء الحضارات، كثمرة لاستقرائهم التاريخ البشري، وصفحات السقوط والنهوض، إلى أن الحضارة، أية حضارة، تمر بمراحل ثلاث، فقالوا:

إن المرحلة الأولى: هي مرحلة الفكرة، مرحلة الإيمان بالهدف، الذي يملأ على الإنسان نفسه، ويشكل له هاجساً دائماً، وقلقاً سوياً، ويدفعه للعطاء غير المتناهي، والتضحية في سبيل ذلك، بكل شيء، بما يمكن أن يعتبر أن من أهم سمات هذه المرحلة: بروز إنسان الواجب، الذي لا يرى إلا ماعليه، ويقبل

على فعله بوازع داخلي، بإيمان، واحتساب، دون أن يخامر عقله ماله من حقوق.. هو إنسان واجب، إنسان إنتاج، وليس إنسان حقٍ فقط، إنسان استهلاك.. وقد يكون من المفيد هنا، أن نذكّر بحديث الرسول ﷺ، الذي وصف مرحلة الوهن الحضاري، والإشراف على السقوط، وحدد معادلتها، عندما سئل عن الوهن، الذي يصيب الأمة قال: «**حب الدنيا**» (ظهور إنسان الغريزة – إنسان الاستهلاك)، «**وكراهية الموت**» (غياب إنسان الإيمان، والإنتاج، والاحتساب) (الحديث رواه أحمد، مجلد ٥، ص ٢٧٨).

أما الدورة الحضارية الثانية، أو المرحلة الحضارية الثانية، التي تمر بها الأمة، هي مرحلة العقل، وضمور الإيمان، وفتور الحماس، نسبياً .. مرحلة التوازن، بين العمل والأجر، بين الحق والواجب، بين الإنتاج والاستهلاك، بين الدنيا والآخرة، دورة ضبط النسب .. حلول العدل، محل الإحسان.. وهنا تصل الحضارة إلى قمتها، وتبدأ مرحلة السقوط، إذا لم تستدرك ما يتسرب لها من أمراض .

والدورة الحضارية الثالثة، أو مرحلة ما قبل السقوط النهائي، هي مرحلة غياب الإيمان والعقل، وبروز الشهوة، والغريزة، وانكسار الموازين الاجتماعية، واستباحة كل شيء وبكل الأساليب، وعندها تسقط الحضارة، وتموت الأمة، ويتم الاستبدال .

إن عدم خضوع الأمة المسلمة، للدورات الحضارية بإطلاق، وقدرتها على الاستمرار، والتجاوز، والتجدد، والتجديد، والنهوض، من دون غيرها من الأمم والحضارات، يعني فيما يعني: أنها تمتلك الإمكان الحضاري الممتد، والمفقود في الحضارات الأخرى، السائدة منها، والبائدة، وذلك بامتلاكها

النص السماوي السليم، الذي يشكل المعيار، وامتداد الأنموذج، المفعم بالإيمان، والإيثار، والإحسان، المتمثل بالطائفة القائمة على الحق، التي تمثل خميرة النهوض، بما تحمل من إيمان، وفاعلية، إنما تمثل استمرار إنسان الواجب، الذي يحفظ التوازن، ويعيد للحياة معناها المفقود، ويثير الاقتداء به، وهذا من ثمرات الخاتمية، والخلود، ومن لوازمهما، إن صح التعبير.

وفي ضوء ذلك، يمكن أن ندرك مواثيق الله، وعهده لهذه الأمة، أن لا يسلط عليها عدوها، تسليط استئصال وإبادة، وإنما تسليط تأديب على معاصيها، وتحريض لها، لتعاود المراجعة، والتقويم، والنهوض من جديد. قال تعالى: ﴿ **لن يضروكم إلا أذى** ﴾ (آل عمران: ١١١)، وقال رسول الله ﷺ: « ... **وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم** » (رواه مسلم، في كتاب الفتن وأشراط الساعة).

إمكانية التجاوز

وهنا نقطة، قد تكون جديرة بالتوقف قليلاً، بما يتسع له المجال، وهي أن السقوط الحضاري، مهما كان قاسياً، يكون بالإمكان تجاوزه، واستدراكه، واستئناف عملية النهوض من جديد، إذا اقتصر السقوط والانهدام، على عالم الأشياء، أو ما اصطلح على تسميته: «بالمدنية»، واستمر عالم القيم والأفكار، أو ما اصطلح على تسميته: « بالثقافة »، سليماً .. لذلك استطاعت الأمة الإسلامية، بما تمتلك من قيم محفوظة بحفظ الله: ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (الحجر: ٩)، والمتحقق حفظها، من خلال عزمات البشر،

استطاعت أن تعيد البناء، وتمارس عملية النهوض، على الرغم من فداحة الانكسارات، وعظم النكسات، وشراسة الهجمات، وقوة الأعاصير المدمرة، لأنها لم تفتقد قيميها، وأفكارها، ومخطط النهوض ودليله.

وفي ضوء ذلك، يمكن أن ندرك أبعاد قوله تعالى، في أعقاب هزيمة أحد: **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قَرْح فقد مس القومَ قرحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس. . ﴾** (آل عمران:١٣٩-١٤٠).. إنه استعلاء الإيمان، رغم سقوط، وهزيمة الأشياء، وعظم الانكسار.. وقوله تعالى في سورة البروج، بعد أن عرضت السورة لعذابات المؤمنين، وتحريقهم بالأخدود، وشراسة الظالمين، وتقديم نماذج للظلم المتصاعد، قال تعالى: **﴿هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود﴾** (البروج:١٧-١٨) (طغيان واستبداد حاكم: فرعون.. وتواطؤ وظلم أمة: ثمود)، ثم ختم السورة بقوله تعالى: **﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾** (البروج:٢١-٢٢)، الأمر الذي يلمح منه الإنسان، أن الشدائد الشديدة، لا تنال من الأمة، ولا تسقطها، إذا حفظ لها عالم أفكارها، الذي يضمن القدرة على العود، لذلك فإن معركة إسقاط الأفكار، والغزو الثقافي، هي الأخطر دائماً، وعملياً .. وأن عملية التحريف والانتحال، والمغالاة، هي الأدهى والأمرّ.. ولذلك أيضاً، نرى أن حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رسالة كل مسلم، وفريضة الأمة المسلمة، هي الحارس الأمين لعالم القيم، وتطبيقاتها في المجتمع، ونرى أن الدورات التجديدية على رأس كل مائة عام، التي أخبر عنها الصادق المصدوق، تأتي لتعيد تنقية عالم الأفكار، مما احدث فيه من جديد **«يبعث الله على رأس كل مائة عام، من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»** (رواه ابو داود، في

الملاحم)، ليبقى الإمكان الحضاري مستمراً.

وفي إطار ما تتمتع به الأمة المسلمة، من الإمكان الحضاري، الذي يمنعها من السقوط، ويدفعها إلى النهوض، بما تمتلك من الخصائص، التي أشرنا إلى شيء منها، قد يكون من الأهمية بمكان، العود على بدء، من أن الحضارة الإسلامية، بعطائها، وامتدادها، لم تعان، على مستوى التصور والسلوك، معًا، أو على مستوى الفكر والفعل، من ثنائية العقل والوحي، الأمر الذي أدى إلى تشطير الإنسان، وتدمير بعضه، وإنما سار العقل والوحي بخطين متوازيين، لا يصطدمان، فلا تعارض في التصور الإسلامي، بين العقل والنقل، أو بين صريح المنقول، وصحيح المعقول، والأمر لا ينظر له في المجال المعرفي الإسلامي، في إطار التعارض، الذي غالباً ما يمليه اليوم الموقف الدفاعي، بمقدار ما ينظر إليه في نطاق الانسجام والتوافق، لإنتاج الإنسان المتوازن، المتناسق.

فإذا كان الوحي في الكتاب والسنة، مصدراً للمعرفة والتشريع، فإن العقل، بما يمتلك من الإمكان، والأهلية، هو الذي يستنبط، ويحقق ذلك، بل ويمتد به لتعدية الرؤية، وتنزيل النص، وتحقيق مقاصده في الواقع، بما اصطلح عليه: (بالاجتهاد، الذي يعتبر المصدر الثالث للتشريع).. وما الاجتهاد إلا إعمال العقل، لمد الرؤية، وتوليد الأحكام الجديدة، للحوادث الجديدة، في ضوء الوحي، ذلك أن العقل، يجرد المقاصد، من حدود الزمان، والمكان، ويولد في ضوئها الأحكام الجديدة، أي أن العقل، يمتد بالوحي ليقوّم بأحكامه جميع شؤون الحياة .. فإذا كانت النصوص تتناهى، والحوادث المتجددة لا تتناهى، كما يقول علماء الأصول، فإن اعتماد الاجتهاد كمصدر للتشريع،

هو أحد مقومات الإمكان الحضاري، ومصدر الحيوية، وسبيل تحقيق الخلود، وآلية الفعل الحضاري، ذلك أن الاجتهاد، هو مصدر الإجابة عن كل الأسئلة، وتقديم الحلول لكل المشكلات، التي تواجه المسلمين، بعيداً عن صور التخلف، والعجز، والتخاذل الحضاري، التي يمكن أن يصنف خارج نطاقة الإسلام الصحيح، وأمانة التكليف.

استرداد إنسانية الإنسان

وقد يكون من الأمور، التي لابد أن تقدر حق قدرها، على الرغم من كل المحاولات المستميتة لتشويهها، والتي كانت سبباً في اختيار الإسلام، واستمرار امتداده، في كل الظروف، والأحوال، والأوضاع، سواءً في أكثر المجتمعات تقدمًا مدنيًا، أو في أكثرها تخلفًا وانحطاطًا، أن الإسلام استرد إنسانية الإنسان، وجعل التدين حرية واختياراً، واستطاع إيقاف تأله الإنسان على الإنسان، الذي هو مصدر الشر، والظلم في العالم -كما أسلفنا- وحَلَّ المعادلة الصعبة، أو صَوَّبَ المعادلة، بين السلطة، والألوهية، والإنسان.

ذلك أن العلاقة، بين السلطة، والطغيان، والعلو في الأرض، وبين الألوهية، أخذت حيزاً كبيراً من تاريخ الإنسان الطويل، في هذه الدنيا، حتى لتكاد تكون علاقة تلازم في فترات طويلة، حيث كان يصعب على صاحب السلطة، أن يقبل، أو يعترف، أو يتصور بوجود سلطان غيره، أو بوجود إله غيره، يمكن أن يتجه إليه الناس.

وهنا لابد أن نذكر مرة أخرى، بقولة فرعون، كأنموذج للطغيان في

التاريخ البشري، عندما دعاه موسى إلى الإيمان بالله، حيث قال: ﴿ماعلمت لكم من إله غيري﴾ (القصص:٣٨) .. ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ (النازعات:٢٤)، ومقولة النمرود: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ (البقرة:٢٥٨)، واستدل لذلك من استخدام سلطته، التي أوهمته بالألوهية، وفهم من قول سيدنا إبراهيم: إن الله يحيي، ويميت، تلك العملية الساذجة، حيث يقدر هو أيضاً أن يقتل إنساناً، ويطلق سراح آخر، ممن حكم عليهم بالإعدام، وعندما نأتي على ذكر هذين الأنموذجين، من تاريخ العلاقة، بين الإنسان، والسلطة، أو بين السلطان، والتأله، والعلو في الأرض، فإننا نؤكد أن هذه النماذج، سوف تتكرر، بشكل، أو بآخر، بشكل واضح، سافر، أو بشكل خفي مستتر، وأقل ما في ذلك اليوم، عزل الحياة عن سلطان الله، ليحل محله المتألهون، أو آلهة العصر الجديد – ولكل عصر آلهته – لأن القرآن خالد، ومجرد عن حدود الزمان، والمكان .. وهذا الخلود يعني تكرار الفراعين، والنماريد، والقوارين، وتكرار المواجهة، والإصابات، والتدافع، بين الحق، والباطل، ليمتحن الناس، ويتمايزوا، والشر من لوازم الخير، قال تعالى: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمث في الأرض﴾ (الرعد:١٧) ولولا هذه الشواهد، التي قد لا يخلو منها عصر، أو مكان، في جنبات الأرض الواسعة، لكان القرآن، كتاب تاريخ، وقصة، وتسلية، لا علاقة له بواقع الحياة، ولا مستقبلها.

إن صاحب السلطة، إذا تجرد من الإيمان بالله، وديمومة مراقبته، وخشيته، واستصحاب الحذر من التسلط، وما يترتب عليه من الإثم العظيم، يصعب عليه، بما يمتلك، من القدرات التنفيذية، والصلاحيات المنظورة، والحواشي المنفذة بلا رؤوس، يصعب عليه، رؤية مقام العبودية لله تعالى، واستشعار المسؤولية عن العمل، والكف عن شهوات النفس .

لذلك نرى، من استقراء التاريخ، أن الكثير من أصحاب السلطان، والحكام، حتى عند اعترافهم، بوجود الله، لم يرضوا أن يعترفوا بسلطانه، على الأرض !! وعند اعترافهم بهذا السلطان يحاولون تشويه، صورة العبودية لله تعالى، لتكون في خدمتهم، فيجعلون من أنفسهم، آلهة الأرض، نيابة عن إله السماء، ويعلنون أنهم هم المتحدثون باسمه، والمفسرون لتعاليمه، وأنهم هم ظله على الأرض، الذين يمثلون إرادته، وفي هذه الحالة، يربطون، بين استبدادهم، وتسلطهم على حياة الناس، وضمائرهم، وبين إرادة الله، الذي انتدبهم، بزعمهم، ليكونوا آلهة الأرض، بحيث يصبح كل من يخالفهم، او يناقشهم، أو يتقاعس عن تنفيذ أوامرهم، عاصياً لله سبحانه.. إنه التأله، والتسلط، والظلم، باسم الله، والدين، وهو أشد وأشر أنواع التسلط، وتعبيد الإنسان للإنسان .

ولقد عانى الإنسان، من الحكم الديني، أو ما عرف في أوربا، باسم: (الحكم الثيوقراطي)، أشد المعاناة، حيث لم يعد الحكام يتسلطون، على دنيا الإنسان، ويلغون وجوده، واختياره، وإنما امتد ذلك، للتسلط على آخراه أيضاً، لأن معارضة الحاكم الثيوقراطي، عصيان لله، سوف يحاسب عليه الانسان،في الدنيا بالظلم، والعسف، والطغيان، وفي الآخرة، بالعذاب الأبقى!!

وكان من المستحيل، عقلاً، وواقعاً أن يستمر، هذا التأله، الذي يمارس على الإنسان، منفصلاً، ومنكراً لله تارة، ومستخدماً اسم الله، وإرادته، حيناً آخر . لكن المشكلة بالقراءة الخاطئة، التي وقع فيها الإنسان، أثناء النظر إلى معادلة السلطة، والإنسان، فتوهم أن المشكلة كلها آتية من الإيمان بالله، الذي يزيفه

هؤلاء، الذين يدعون أنهم ظل الله على الأرض،وليست المشكلة في التزييف، ومحاولة الاعتداء على سلطان الألوهية، من بشر، هم كسائر البشر، يعطون أنفسهم حق التسلط على الآخرين، الذين لا يختلفون عنهم، فكان أن أنكر الإنسان الدين، والإيمان، سقوطاً في هذا التزييف، دون أن يدري أن حل المشكلة، وتصويب المعادلة، إنما يكون بالإيمان الصحيح، وتوحيد الألوهية، والربوبية، وإيقاف الشرك السياسي، ونسخ التألهات السلطوية، التي حاولت أن تجيِّر الإيمان لحسابها.. ولم يدر الإنسان أن إلغاء الإيمان بالله، وقيمه، التي تحكم الجميع، ويتساوى أمامها الجميع، هو تكريس لألوهيات البشر، بشكل ظاهر، أو خفي، لأنهم هم، الذين سوف يتولون وضع الضوابط، والمعايير، التي يحكمون بها الناس، ويغيرونها، تبعاً لأهوائهم، ولتحقيق مصالحهم، وتأمين سلطتهم، وتسلطهم .

ولابد أن نذكر هنا، أن أعتى المواجهات، كانت بين النبوة، والكبراء، سدنة الشرك السياسي .. كانت بين مدعي الألوهية من البشر، ومنكري ألوهية البشر وتسلطهم، من الأنبياء، إلى درجة يمكن أن نقول معها: إن النبوة جاءت كثورة تحريرية، لإيقاف تسلط الإنسان، على الإنسان، وإعلان مساواة الناس، وإعلان التوحيد، والوحدانية، التي تلغي تأليه البشر، أو شراكة البشر.. جاءت لتحرر الإنسان، من العبوديات جميعاً، وتربطه، بخالق البشر، بما فيهم أصحاب السلطان، وتمنحهم القدرة على الصمود، والمواجهة، والصبر، في مواجهة الظلم، والاستبداد، والشرك السياسي، وتجعل ثوابهم عظيماً، في مواجهة التأله، في الأرض، وتقدم لهم نماذج للظلم، والاستبداد السياسي الموهوم، وكيف كانت عاقبته، بل وتتحدى الظالمين والمتألهين، بالعواقب،

وأنهم على الأرض، ليسوا أكثر من وسائل إيضاح، وأدوات فتنة، موقوتة، للظلم، والطغيان،فأين فرعون، وهامان، ونمرود، وقارون ؟! وتمنحهم الثقة، والانتصار، مهما اشتد الظلم، والظلام، فالذي قوّض ملك فرعون، هو الذي تربى في قصره، على الرغم من كل الاحتياطات السلطوية.

العقد الاجتماعي.. بين السلطان والإنسان

ونستطيع أن نقول هنا: إن الإسلام، أو النبوة، الخاتمة، استطاعت أن تصوب معادلة السلطة، والإنسان، في التصور، وتجسد هذا التصويب، في الواقع، عندما نزعت صفة الألوهية، عن كل المخلوقات، وأعلنت المساواة في الإنسانية، والخلق، بين الحاكم، والمحكوم، بل أكدت أكثر من مرة، حتى لا يتلبس الإنسان بالوهية الإله، أن الأنبياء المتصلين بالله فعلاً، هم بشر من البشر، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً.. وأن السلطة، هي في نهاية المطاف، تكليف، وليست تشريفاً.. وأنها مسؤولية، من اعظم المسؤوليات.. وأنها إجارة، وليست إمارة، وتعالياً على خلق الله .. وأن السلطان، ملزم بتنفيذ شرع الله .. وأن طاعته لا تنعقد، إلا بهذا الالتزام بالقيم، التي لا يد له في وضعها .. وأنه ليس بالضرورة، أن يكون خير الناس، لأنه تولى أمرهم .. و أن الشورى، إنما تكون فيما لا نص فيه، من الله، ورسوله، وحتى في تطبيق النصوص، وتنزيلها على الواقع .. وأن الإنسان، مسؤول أمام الله، وليس أمام المخلوقين، مهما كانوا.

نقول: لقد استطاع الإسلام، أو النبوة الخاتمة، تصويب معادلة السلطة والإنسان، واسترداد كرامة الإنسان، بحيث أصبحت العلاقة، بين السلطة

والإنسان، نوعاً من العقد الاجتماعي، الذي ضُبطت فيه حدود الطاعة، والمسؤولية، سواء بالنسبة للحاكم أو المحكوم، على حد سواء.

وكان شعار، أو ميثاق الحكم، في الإسلام: **« أطيعوني، ما أطعت الله »** – والناس يعلمون شرع الله، الذي يشكل لهم المعيار لفعل الحاكم، ويستوجب طاعته– **«فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم »** .. **«وُليت أمركم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأطيعوني، وإن أسأت فَقَوِّمُوني، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »**.

إن هذا الميثاق، للعلاقة سوَّى بين الحاكم، و المحكوم، وجعل المسؤولية أمام الله، وليست أمام البشر، وجعل القيم المنزلة، الثابتة، هي معيار الحاكم، والمحكوم، وبذلك صوبت معادلة السلطة، والإنسان، وألغيت الوهيات البشر لبعضهم، وهذا هو أشد أنواع التسلط، الذي عانى منه الإنســان، في تاريخه الطويل، من التعامل مع الأرباب، من غير الله .

لكن النزوع السلطوي، إلى الطغيان، والاستبداد، والتأله، والترفع على خلق الله، لايزال يتكرر بشكل، أو بآخر.. ولعل من مظاهر الخلود، في القرآن، أن يتكرر الوهم، عند بعض أصحاب السلطان، ويدعي بعضهم، أنهم آلهة الأرض، فتأتي ممارساتهم جميعاً، اعتداءً على كرامة الإنسان، واختيار الإنسان، ويتكرر شعار: **﴿آمنتم له قبل أن آذن لــكم﴾** (الشعراء: ٤٩)، ويستمر العدوان على سلطان الله، في التشريع، ويخول بعض أصحاب السلطان أنفسهم، وضع الشرائع، التي تؤمن مصلحتهم، وتحقق تسلطهم، ويتلاعبون بها، طبقاً لأهوائهم، حتى أصبحوا يتفننون بالاعتداء على سلطان الله، فكما كانوا في الماضي يعتبرون أنفسهم آلهة الأرض، فهم اليوم يقولون:

إن الإيمان بالله، أو الإسلام، هو نوع من العلاقة الوجدانية الخاصة، بين الله، والإنسان، محلها الضمير، بعيداً عن تنظيم مسالكه، وعلاقاته، في الأرض، التي يتصرف بها، بشر من البشر، هم أصحاب السلطة .

وبعد هذا، هل نستطيع أن نقول : إن فصل الدين عن الحياة، أو بعبارة أدق، فصل الحياة عن الدين، الذي يمثل التطبيق العلماني، في المجال المعرفي -كما أن اعتبار الإنسان مصدر كل السلطات، والتشريعات، باسم الديموقراطية، يمثل الوجه الآخر للتطبيق العلماني في المجال السياسي- هو لون من الارتكاس، عن طريق النبوة، وعودة إلى تأليه السلطة، ومنحها سلطان وضع القيم للناس، وإلغاء لقيم الله الناظمة للحياة، والعلاقة بين الناس، وعودة إلى ممارسات الأرباب في الحكم، والتشريع، وإهدار كرامة الإنسان ؟

لذلك نقول : إن تصويب المعادلة، بين السلطة، والألوهية، والإنسان، هو من أبرز ملامح الإمكان الحضاري، وإعادة البناء الصالح .

ولعل استرداد هذه المعاني الغائبة، تتأكد أكثر فأكثر، في هذه الظروف العسيرة، التي تمر بها الأمة المسلمة، والتي يسودها الإحباط، واليأس، والتخاذل، والاستسلام، بسبب استكبار «الآخر» وعلوه، وما استدعىٰ ذلك من العبث بمفاهيم الجهاد، وتغييب مدلوله، وإسقاط تاريخه، وتجاوز موقعه من الدين، بلون من التأويل الفاسد، والفهم المغشوش، والانتحال الباطل، والتفسير المنهزم، الأمر الذي يتطلب إعادة الاعتبار لاستعلاء الإيمان، الذي يكاد يتوارىٰ، فهو الذي يحمي من الانكسار، استجابة لقوله تعالى : **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾** (آل عمران:١٣٩)،

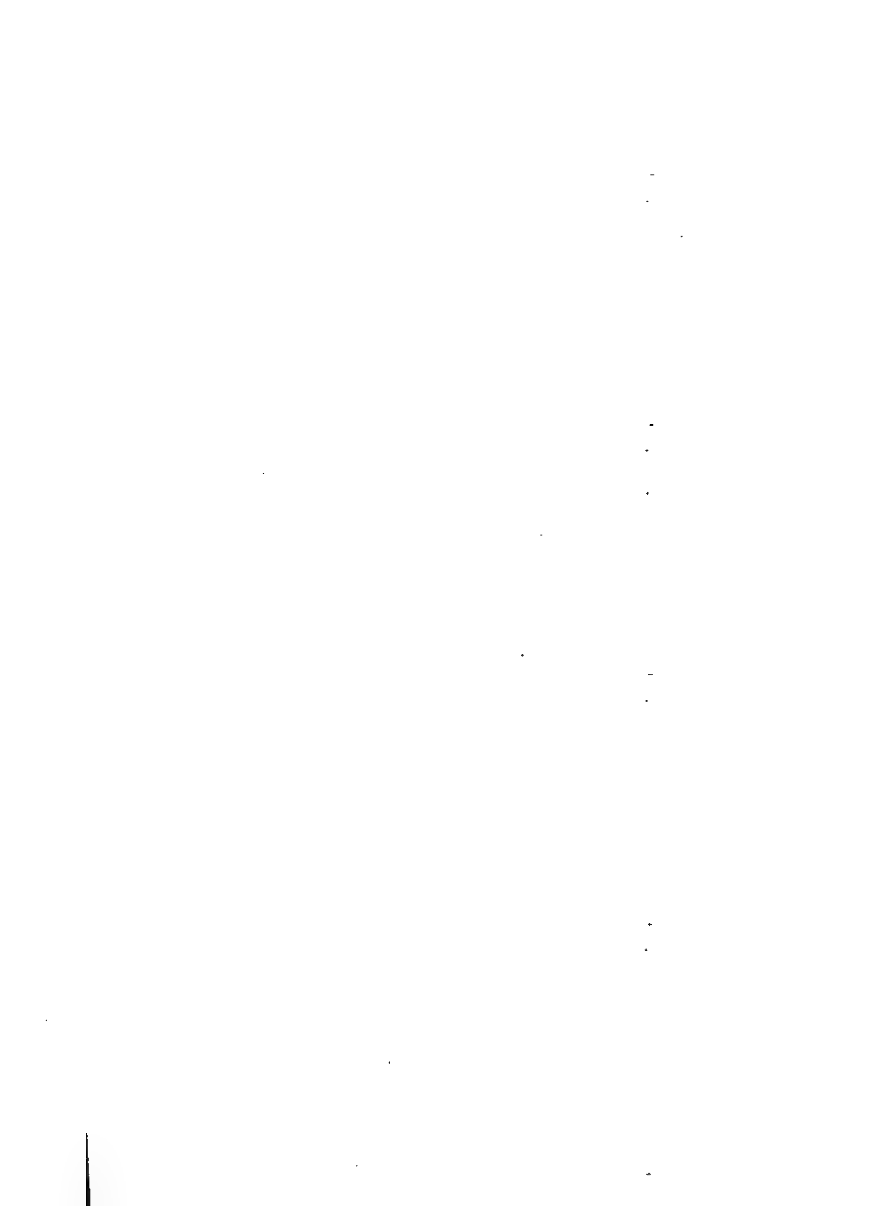
وليس ذلك من خـلال الأمنيات، والرغبات، وإنما من خلال السنن التغييرية، التي شرعها الله وأرادها، وفطر الناس عليها، وزودهم بآلياتها، بكل ما تقتضيه من الإعداد الروحي والمادي، ليكون الإنسان هو وسيلة التغيير وهدفه، في آن واحد .

إن الأمة أصبحت أشد حاجة إلى ان تؤصل لمفهوم الجهاد، من الناحية الشرعية، وتعيد له روحه، وفاعليته، ومواصفاته، وبعده الحضاري، والمستقبلي، وما يقتضيه من إعادة الصياغة والإعداد للمسلم، والتحذير من التقاعس، والتثاقل عن النفرة إليه، الذي يؤدي إلى تعريض الأمة للاستبدال، والانقراض، خاصة وأن دور الإعداد الروحي بدأ يتضاءل، ويغيّب، تحت وطأة الانتكاسات المتلاحقة، وضغوط الحياة المادية، وانطفاء الفاعلية، وتسرب اليأس إلى النفوس، وغلبة سلطان العادة، وغياب معاني العبادة، وانكماش الأبعاد النفسية، والمادية، المترتبة على ملازمة المجاهد لذكر الله، لكي يتحقق بالنصر والفلاح: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) .

إن الانهدام الروحي، الذي يعاني منه، الفرد المسلم اليوم، ومحاولات الانتقاص، والتقليل من شأنه، وإغفال دوره، يستدعي نذر النفس للمرابطة من جديد في هذا الموقع، وإحياء معانيه في نفوس الأمة .

عِلمِ النهُوض الحَضِاري

٢٩٤١/١٤ ٣٧



اصطفى الله الأمةَ الإسلامية لوراثة الثقافة، والحضارة الإنسانية، وختم بها النّبوات، فانتهت إلى كتابها أصول الرسالات السماوية، وانتهى إليها التاريخ البشري، قال تعالى: ﴿**ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير**﴾ (فاطر:٣٢).. وجعلها أمة وسطًا، وناط بها حمل الرسالة السماوية، وأداء أمانة البلاغ المبين، فكانت وظيفتها الشهادة على الناس، وتصويب مسيرتهم، وقيادتهم إلى الخير، قال تعالى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾ (البقرة:١٤٣)، وقال: ﴿**قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغًا من الله ورسالاته**﴾ (الجن:٢٢-٢٣).. وكان سبيلها واضحًا، بسبب من عصمة الوحي، وهداياته إلى التبصر بأحوال الأمم السابقة، وما خضعت له من سنن وقوانين، فتأخذ حذرها، وتحقق الوقاية الحضارية، قال تعالى: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾ (يوسف:١٠٨).. وقال تعالى: ﴿**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين**﴾ (آل عمران:١٣٧-١٣٨).

وابتعث محمداً ﷺ للناس كافة، بشيراً ونذيراً، قال الله سبحانه و تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾ (سبأ:٢٨)، وأوقفه على

خط النهاية من الرسل، وقمة التجربة البشرية، من لدن آدم عليه السلام، حيث اختتمت بالإسلام رسالات السماء، قال تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ (آل عمران:١٩)، واكتمل للبشرية دينها، قال تعالى: ﴿**اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ (المائدة:٣).. واجتمعت لشخصه ﷺ جميع كمالات الأنبياء، فتمحّضت رسالته، لإلحاق الرحمة بالبشرية جميعها، قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وحددت للأمة المسلمة، امة الشهادة والقيادة، مسؤوليتها تجاه نفسها والإنسانية، وضرورة استيعاب التجربة التاريخية، وأهمية التوغل في التاريخ، والسير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات، وإدراك السنن والقوانين الاجتماعية، التي تحكم الحياة والأحياء، مستمسكة بهدايات الوحي، ومعايير الكتاب والسنة، حيث أعطى الله سبحانه وتعالى كل شيء خَلْقَه ثم هدى هذا الخَلْق.. وتلك الهداية هي هذه السنن، التي تمثل اقدار الله الغلابة، التي لا تتبدل، ولا تتحول، ولا تُخترق، إلا بالمعجزات والخوارق، عندما يشاؤها الذي خلقها، وأودع في كل شيء قَدَرَهُ، وقوانين حركته الداخلية، وتوازنه، وانسجامه مع سائر المخلوقات في حركته الخارجية.. ولعلنا نقول هنا: إن خرق السنن والأسباب، من الله بالمعجزات، دليل على اطرادها، وعجز الإنسان عن خرقها.

والأمر الذي لابد من التأكيد عليه ابتداءً، أن الأمة المسلمة لن يتأتى لها استئناف النهوض، ومعاودة استثمار طاقاتها الروحية والمادية، ما لم تفتّش عن نفسها من جديد في كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وتُحسن التعامل مع معارف الوحي، وتقوّم الواقع بها، فتنظر إلى الواقع من خلال قيم الكتاب والسنة، وتتأمل في الكتاب والسنة، وتبصر الحلول وكيفيات التنزيل، ووضع البرامج

والخطط، من خلال معاناة الواقع وحاجاته، وتستوعب التجربة التاريخية، وتدرك حركتها وسنّتها الاجتماعية -إن صح التعبير- فتصبح قادرة على مغالبة قَدَر بقَدَر، والفرار من قَدَر إلى قَدَر.. تدرك الأسباب والمقدمات، فتحسن التعامل معها، وتُحسن توجيهها، والمداخلة في مسارها، وبذلك تتخلص من أسر النتائج والآثار المترتبة، فتفيد من خلاصة التجارب، التي كان محلها التاريخ والفعل البشري.. فتكون بداياتها، هي نهايات الآخرين.. تتحول مما يملكها إلى ما تملكه، فتتحقق بالرؤية الإسلامية السليمة، التي تحميها من العُقم الفلسفي، والعبث السياسي، والتضليل الثقافي.

ونُسارع إلى القول: إن من المنطلقات الأساس، التي لابد من التوقف عندها، وتحرير القول فيها، مما يسمح به المجال، هو أن الأمة المسلمة دون غيرها من سائر الأمم والحضارات الأخرى، تمتلك النص الإلهي الصحيح، الوارد بالتواتر، الذي يفيد علم اليقين، كما أنها تمتلك البيان النبوي المعصوم، الذي تحقق له من شروط وضوابط النقل، والتوثيق، والتحقيق، والحفظ، ما لم يتحقق لغيره، حتى في أرقى العصور المعلوماتية، إضافة إلى ما يمتاز به أيضاً، من تحويله من نظر إلى واقع، ومن فلسفة إلى ممارسة، ومن فكر إلى فعل، وتنزيله على واقع الناس، في مرحلة السيرة النبوية، حيث تسديد وتصويب الوحي، وفي مرحلة الخلافة الراشدة، حيث امتداد التنزيل والفعل البشري بعد توقف الوحي، تأييداً وتسديداً.

ومعرفة الوحي هذه، التي يمتلكها المسلمون اليوم، من نَص، وبيان، وتطبيق، وتجسيد في الواقع، والتي اتسمت بشمولية كاملة، تعتبر منهج العمل، ودليل التعامل مع الحياة، أي البوصلة التي تحدد الاتجاهات من جانب، كما تعتبر المعيار، وأداة التقويم، ومركز الرؤية، لمدى صوابية وسلامة الفعل، والاجتهاد البشري، من جانب آخر.

كما أنها تمتاز بالخلود، كما أشرنا في أكثر من موقع، الذي يعني تجردها عن حدود وقيود الزمان والمكان، والمناسبة، أو أسباب النزول بالنسبة للنص القرآني، وأسباب الورود بالنسبة للنص الحديثي.. وهذا التجرد أو هذا الخلود ،هو الذي يمنح القدرة على تعدية الرؤية، والامتداد بها، وبلوغ آفاق كل زمان ومكان، وتقويم سلوك كل المجتمعات، والارتقاء والانطلاق بها، من الحالة التي هي عليها، شريطة انضباط تلك الرؤية بالمصدرية في الكتاب والسنة والسيرة، والمرجعية بفهم القرون المشهود لها بالخيرية.

إن هذا التحرر، أو التجريد للنص من ظرفية الزمان والمكان والمناسبة، يمكِّن من توليد الأحكام والحلول الشرعية، وتحقيق الاستجابة، لمعالجة الواقع، شريطة الا يعود بالنقض أو الإلغاء للبيان النبوي المعصوم.. ولا أرى أننا بحاجة إلى إعادة التذكير والتحذير مما حذر منه الرسول ﷺ، من حالات التخاذل والاسترخاء، والخروج من الواقع وفقه المعركة، والاتكاء على الأرائك، والقعود مع الخوالف، والرسم بالفراغ، والتحلل من التكاليف، والضوابط الشرعية، حيث تتكرر مقولة: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه...

ومحاولة إسقاط السنة، أحد مصدري الإسلام، بحجة أن ما ورد من البيان والتنزيل النبوي بعمومه، لا يتعدى حدود الظنية في الدلالة، التي يجوز تجاوزها، وعدم الأخذ بها، ومن ثم الاقتصار على القرآن، حتى وصل الأمر ببعض دعاة المعرفيات الجديدة، إلى القول بجواز ردّ كل الأحاديث لأنها ظنية، والاقتصار على كتاب الله.. وهكذا يراد للأمة اليوم أن تلغي حديث المعصوم، الذي توافرت له شروط النقل والتوثيق، من الناحية الفنية، والغيرة والإخلاص من الناحية الدينية، وتقبل كلام، واجتهادات ، ومعارف ، وفلسفات البشر ، الذي لا عصمة لهم ، ولا اهتمام بهم.

معرفة الوحي.. تمنح الحقيقة

وهنا حقيقة قد يكون من المفيد الإشارة إليها، والتأكيد عليها، لأنها تشكل منطلقًا مهمًا في البناء المعرفي، وهي أن ما يَرِدنا عن طريق الوحي، يُشكل حقيقةً، سواء نظرنا إلى ذلك من حيث المصدرية، وووروده عن المعصوم، أو نظرنا لذلك من خلال ما توفر له، من شروط وضوابط النقل... وأن ما يردنا عن غير طريق الوحي.. هو مجرد معارف، ومعلومات، تحتمل الخطأ والصواب، ويبقى ذلك ملازمًا لها، فهي دائمًا قابلة للفحص والاختبار، والقبول والرد والنقض، على عكس حقائق معرفة الوحي، حتى إن بعض العلماء رأى قصر مصطلح العلم عليه دون غيره، وأن ما وراء ذلك لا يخرج عن كونه معرفة قابلة للنقض والتعديل، لم ترق إلى مستوى العلم.

ولعل القضية التي لا تزال بحاجة إلى التأكيد والتأصيل: أن معرفة الوحي في الكتاب، والسنة، والسيرة العملية، وضعت الأصول والمعالم، وحددت المقاصد الأساسية لجميع جوانب الحياة، أو بمعنى آخر: غطت جميع مجالات الحياة، ولم تقتصر في ذلك على الجانب المعرفي، والرؤية النظرية التصورية، على أهمية ذلك وضرورته، لأن الفكر دليل الفعل، ومصباح الطريق، وإنما جاءت بالفكر والفعل، بالإيمان والعمل، بل اعتبرت عدم التطبيق والعمل من خوارم الإيمان، ونواقض التصديق، واستصحبت تاريخ التجربة البشرية، من لدن آدم، وحتى انتهى التاريخ إلى الرسالة الخاتمة، كوعاء بشري، وميدان تطبيق لاطراد السنن، كلما توفرت مقدماتها، غير مكتفية بتاريخ وحركة أمة الرسالة الخاتمة، التي لا تخرج عن كونها حلقة في السلسلة، أو في المسألة الاجتماعية.

نعود إلى القول: بأن معرفة الوحي غطّت جميع جوانب الحياة ومجالاتها، مؤيدة بالبراهين والأدلة العملية الميدانية، من حياة الأمم السابقة، على اطرادها، وخضوع الأمم لسننها وقوانينها، في السقوط والنهوض.. وقدمت النماذج والعينات التطبيقية في شتى المجالات.. قدّمت خلاصة التجربة المخبرية، إذا اعتبرنا التاريخ هو مختبر العلوم الاجتماعية والإنسانية واطراد السنن، وشاهد الفعل البشري، ليعتبر المسلم، فينطلق للتعامل مع المعارف اليقينة، والنتائج المحسومة، اختصاراً للجهود والأعمار.

قدّمت نماذج لنهوض الأمم، وعلّلت أسباب النهوض، وقدمت نماذج لعوارض النهوض وأمراضه، وبيّنت طريق السقوط، والانقراض الحضاري.. قدمت نماذج للطغيان والظلم السياسي: فرعون وجنوده، وحمت المسلم من السقوط على أقدام الظلمة، فبيّنت مآله وعواقبه.. وقدّمت نماذج للطغيان والظلم الاقتصادي: قارون ومَن على شاكلته، وبيّنت إغراءاته وأسباب سقوطه.. وقدّمت نماذج للظلم والطغيان الاجتماعي، والمصير الذي انتهى إليه.. قدّمت نماذج للترف، والبَطَر، والكِبْر، وسائر الأمراض والأوبئة الاجتماعية، المؤذنة بالخراب والتدمير.

ربطت السنن المادية بالسنن النفسية، وبيّنت مدى التلازم والتأثير والتأثر بينها، بحيث قد تكون الأولى نتيجة للثانية.

قدّمت نماذج على مستوى الفرد، والجماعة، والملأ، والقوم، والأتباع والمتبوعين.. قدّمت نماذج للمرأة المؤمنة والزوج الكافر، وللزوج المؤمن والمرأة الكافرة، وللأب المؤمن والابن الكافر، والابن المؤمن والأب الكافر، وهكذا.. قدمت نماذج للكفر والإيمان، والعلاقة الجدلية بينهما.. قدمت نماذج لكيفية

التعامل مع الهزائم والانتصارات، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، لتكون معرفة الوحي دليل المسلم للتعامل مع الحياة، وامتلاك ملكة الفرقان، وتقدير المواقف، وقراءة الاحتمالات، ورؤية المستقبليات–من خلال اطراد السنن– واعتبار الماضي مقدمة الحاضر، والحاضر مقدمة المستقبل، حتى يمكن القول: بأن معرفة الوحي امتدت إلى التبصير بالمستقبل، وبما ستصير إليه الأمور، إذا لم نستدرك الأمر في الحاضر.

أحاديث الفتن.. بصائر مستقبلية

ولعلي أرى فيما اصطلح على تسميته: «أحاديث الفتن»، أنها تشكل رؤية مستقبلية، لابد من دراستها.. فمثلاً عندما يقول الرسول ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطعِ الليل المظلم، يصبح الرجلُ مؤمنًا، ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا، ويُصبح كافرًا، يبيع أحدُهم دينَه بعَرَضٍ من الدنيا قليل**» (رواه أحمد، ومسلم، والترمذي، عن أبي هريرة)، أليس ذلك رؤية علاجية لمواجهة الفتن، وحالة التلقي بالألسنة، وتعطيل التفكير، وانكماش السنن، وانتشار البدع، وشيوع القيل والقال، وأن المواجهة تكون بالعمل الصالح، الذي يكشف فساد القول، ويحمي الأمة من امتداده، واستنزاف طاقاتها بالقيل والقال، حيث العلم الذي لا ينفع؟!

وعندما يقول ﷺ: «**يا معشرَ المهاجرين، خصال خمس، إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهنَّ: لم تظهر الفاحشةُ في قومٍ قطُّ، حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع، التي لم تكن مضت في**

أسلافهم الذين مَضوا.. ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أُخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجَور السلطان عليهم.. ولم يَمنعوا زكاةَ أموالهم، إلا مُنعوا القَطْرَ من السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا.. ولم ينقضوا عهدَ الله، وعهدَ رسوله، إلا سلَّط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم.. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل، ويتحروا فيما أنزل الله، إلا جعل اللهُ بأسَهم بينهم» (رواه ابن ماجه، والحاكم عن ابن عمر)، أليس ذلك دعوة إلى التحذير من ظهور الفواحش، وما تورثه من الخلل الاجتماعي، وما يترتب عليها من آثار سلبية، ليكون المسلمون على حذر من شيوعها، وأهمية محاصرتها؟!

وعندما يقول الرسول ﷺ: **«إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة، وهي الجماعة»** (رواه ابن ماجه عن أنس).. وفي رواية: **«ما أنا عليه وأصحابي»**، أليس ذلك دعوة إلى الاستمساك بالكتاب والسنة، واعتمادها سبيل النجاة، والقيام بالمراجعة الكاملة، على المستويات المتعددة، والنظر في مدى انطباق أعمالنا على متطلبات الكتاب والسنة، وعدم الاستسلام للافتراق، والتحول من العزيمة على العمل بالكتاب والسنة، إلى فرز الناس إلى فرق ناجية، وفرق في النار، وزيادة اشعال الفتن بدل سبيل معالجتها، وإطفائها بالسنن؟!

وهكذا نرى أن أحاديث الفتن، هي في الحقيقة رؤى مستقبلية، تدفع للمداخلة في الحركة التاريخية، ودفع قَدَر بقَدَر، والاستعداد لكيفية التعامل معها، وإلا ما معنى وجدوى ورود أحاديث الفتن، والتحذيرات المستقبلية، مما يمكن أن تصير إليه الأمور؟! وما هو موقف المسلم، إذا لم يمتلك مدافعة قَدَر

بقَدَر، ويستلم زمام المبادرة في الحيلولة دون الفتن، وكيفية التعامل معها حال وقوعها؟!

ما الفائدة من أحاديث الفتن، إذا لم تُدرك أبعادها على أنها إشارات مستقبلية، لابد أن نأخذ حذرنا تجاهها، ونعد لها ما استطعنا؟

إن سنن السقوط والنهوض، أو القوانين التي تخضع لها مجتمعات البشر، لم تقتصر في معرفة الوحي على قراءة الماضي، أو استيعاب الحاضر فحسب، وإنما تجاوزت حدود المنظور إلى تقديم رؤى مستقبلية، تسبق الزمن، لنُحسن الإعداد، والاستعداد، للتعامل معه.

ولعلنا نقول: إن أقدار التدين في صعود وهبوط، على مستوى الأفراد، والدول، والأمم، وإن السقوط والنهوض منوط إلى حد بعيد بهذه الأقدار، صعوداً وهبوطًا، وبمدى إدراك شمولية معرفة الوحي وفاعليتها، وتغطيتها لجميع مجالات الحياة، والقدرة على الامتداد بها، صوب تعليل الحاضر، وقراءة المستقبل.

محاولة إلغاء المسبق.. إسقاط لمعرفة الوحي

وقد تكون المشكلة كل المشكلة اليوم، في توهين وزحزحة وإسقاط معرفة الوحي من النظام المعرفي، أو انحسارها في معاهدنا، ومدارسنا، وجامعاتنا، ومراكز بحوثنا، وأذهاننا، وعدم فاعليتها، والتوهم بأنها مناقضة للعلم والموضوعية، ومتعلقة بالخوارق والغيبيات، والأوهام، التي تكتفي بالتفسير السطحي، وتقصي العقل عن التعليل، وتضع له القيود المسبقة، أو المعلومة

المسبقة، التي لا يمكنه التحرك إلا من خلالها، والادعاء بأن الاجتماع البشري، والوجود بشكل اعم، فيما ذهبت إليه سائر العلوم الإنسانية، محكوم بقوانين تسيره من داخله، وتتحكم بحركته، ولا سلطان عليه لجهة خارجة عنه، لنفي صلة الكون بخالقه ومُسيِّره، ونفي المعارف الواردة من طريق الوحي، وتحييدها عن واقع الحياة أو إلغائها!!

والحقيقة التي لا شك فيها: أن الكون لم يخلق عبثًا ومصادفة -ولعل قوانينه الداخلية دليل انتفاء المصادفة- وإنما خضع لنظام وقانون يحكم حركته، وسنن تنتظم سيره، وأنه لا يمكن التعامل معه، وحسن تسخيره، بعيداً عن اكتشاف تلك السنن، التي تمكّن من تفسير الحركة، وتقدير النتائج، لكن ذلك التفسير للظواهر الكونية والاجتماعية، وقراءة حركتها، لا يعني غاية التعليل المطلوب، وإنما يبقى قراءة بتراء، إذا لم تتجاوز إلى اكتشاف العلة في الخلق، وأن وراء هذا التنظيم أو القانون الحاكم للحركة، منظم اعطى كُلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هدى، ذلك ان علمنا يقتصر على قراءة هذه القوانين، دون معرفة ناموس الخلق، الذي يشكل، لا اقول نصف الحقيقة في التعليل، وإنما أساس الحقيقة.

ومحاولة إلغاء المعارف المسبقة، باعتبارها قيوداً للعقل، تحول بينه وبين الطلاقة في التفكير والتعليل والاكتشاف، قد تستهوي الإنسان ابتداءً، لرغبة التمرد الكامنة فيه، لكنها لا تصمد في الحقيقة، ذلك انه لا يمكن أن تتم آية من العمليات التفكيرية دون محرِّضات، وأسباب، واستقراء، ومسبقات سلبية أو إيجابية، ومشاهدات.. حتى خطرات القلوب، ولمحات العقول، إنما تتحصل من مشاهدات، وآثار ومؤثرات خارجية، وإلا انفصل العقل عن محيطه وواقعه، وعجز عن النظر، والتعليل، والاستنتاج، والاستقراء.

فموضوعات التعليل مسبقات، ووسائله وأدواته مسبقات، والإنسان نفسه -أداة النظر وموضوع ومحل النظر- إذا لم تتوفر له معارف يقينية، وثوابت سليمة، تحمي عقله ولا تناقضه، وتوجهه، وتشكل له معايير التقويم، وضوابط المنهج، ومرجعية الفهم، وتحقيق الاطمئنان إلى الصواب، فكيف سيكون حاله واستقراره، خاصة وأنه -كما أسلفنا- محل الدراسة وأداتها، وعلى الأخص في الدراسات الاجتماعية والإنسانية؟!

من هنا ندرك أهمية معرفة الوحي اليقينية في تحقيق النهوض، وتوفير الطاقة، والحماية من السقوط، وإطلاق العقل للنظر والتدبر، وتحقيق الاعتبار، الذي يعني امتلاك القدرة، ومعرفة سُبُل العُبور السليم من الماضي إلى المستقبل.. وندرك كيف أن الإسلام ألغى الآبائية والمسبقات، التي لا تُبنى على حقائق وعلم صحيح، لتخليص الإنسان من قيد الخرافة، والتحول إلى الحقيقة، قال تعالى: ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون** ﴾ (البقرة: ١٧٠).

وندرك الحِكْمة من القصص القرآني، الذي يُشكِّل بالنسبة لنا تجربة تاريخية غنية، ومختبرًا لنفاذ السنن واطرادها، ومصدرًا مهمًا لعلم الاجتماع البشري، والقوانين التي تحكمه، ونتعامل مع نتائج وخلاصات يقينية، أشبه بنتائج التجارب في العلوم المادية، وأشبه بالمعادلات الصارمة الدقة في العلوم الرياضية والفيزيائية...

لكن المشكلة الحقيقية: أننا اليوم دون مستوى الإفادة من قيم الكتاب والسنة، وتحقيق خلودها فعلاً في الحياة والواقع.. دون سوية التراث الإسلامي أيضًا، الذي هو محاولات واجتهادات بشرية، لتحويل القيم والمبادئ إلى

خطط وبرامج.. تحويل الفكر إلى فعل.. تنزيل معرفة الوحي على واقع الناس، وتجسيدها في حياتهم، بما نسميه: «الحركة التاريخية» بمدلولها الثقافي.. وهذا الفعل التاريخي، قد يخطئ في التعامل مع معرفة الوحي، وقد يصيب، وهو في كلا الحالين يمنح العبرة.. والعبرة بمعناها الأخص، الذي يعني لغة واصطلاحًا: المعرفة التي تمكننا من العبور إلى المستقبل بشكل صحيح، مستصحبين تجارب الماضي في الخطأ والصواب، في النجاح والفشل، ذلك أن العاجز عن استيعاب التراث، واستشراف الماضي، سوف يعيش متخاذلاً وعاجزاً عن تحقيق العبرة التي تقود إلى العبور السليم، واستشراف المستقبل.

وفي تقديري، أن الإنجاز الحضاري، أو أي مشروع للنهوض، لابد أن يأخذ في اعتباره الأبعاد الثلاثة المطلوبة كمرتكزات لهذا الإنجاز: استشراف الماضي، الأمر الذي يعني استيعاب مسيرة التراث، واستلهامه، وتقويمه، من خلال قيم الوحي في الكتاب والسنة، واعتماده مصدر عبرة، ومختبر تجربة، وليس مصدراً للتشريع، لأن مصدر التشريع والتقويم والمعايرة، نصوص الكتاب، وصحيح السنة.. واستيعاب الحاضر، والسنن التي حكمت تكوينه وتشكيله، وموقعه من مسيرة الماضي (التراث).. ورؤية المستقبل، أو استشراف المستقبل، واستلهام التراث، تعني قدرتنا على جعل التراث يجيب عن أسئلة الحاضر، ويمكننا من رؤية المستقبل.. وأي مشروع نهضوي لا يأخذ هذه الأبعاد المتلازمة بعين الاعتبار، محكوم عليه بالفشل، والله اعلم، لذا أعتقد أن اتهام العاملين للإسلام، بأنهم ماضويين، أو محولين رؤوسهم للماضي، أو أن الماضي هو بديل المستقبل بالنسبة لهم، قول محل نظر، لأن الذي يستوعب الماضي حقيقة، يدرك الحاضر، ويرى المستقبل، والذي لا يحقق ذلك هو دون سوية الماضي، أو دون سوية التراث بشكل أخص.

قراءة التراث.. من خلال «الآخر»

وقد تكون المشكلة في الحقيقة، بعد حقب من التخلف، بسبب التخاذل الثقافي، والجمود العقلي، والتقليد الجماعي، وإلغاء الاجتهاد، ومحاصرة الخلود في النص الإلهي، تحت شتى المعاذير والمسوغات: أننا بدأنا نتعرف على تراثنا وأعلامنا، ونقرأهم من خلال فكر الآخرين، وأبجدية الآخرين، أو مناهج الآخرين المعرفية بشكل أعم، ونحن إزاء ذلك لا نخرج عن أحد موقفين:

إما موقف الدفاع، ورد الشبهات، ودرء السهام، والانحياز العاطفي، دون أن تكون عندنا القدرة على الإفادة من تراثنا، وإنضاج دراسات حوله، واستلهامه، لاستيعاب الحاضر وإصلاحه، وإبصار المستقبل والإعداد له، والاعتبار بهذه التجارب الثقافية الغنية، وبذلك يسرق تراثنا وفكرنا وأعلامنا، ويكون الآخر أقدر على الإفادة منهم، في الداخل والخارج، على حد سواء، ونحن نستنزف طاقاتنا بالفكر الدفاعي، والمرابطة على الحدود، دون إمكانية البناء والارتقاء في الداخل، إضافة إلى ما يمكن أن يشكل هذا الفكر الدفاعي من مخاطر، ليس أقلها التحكم الثقافي...

وإما تبنّي قراءات الآخرين، والوقوف على أقدامهم، والمفاخرة بإنجازهم، والتبشير بها، والخضوع لنتائجهم ومعاييرهم، وتشكيل عقدة كاذبة للتعاظم بأعلامنا الذين سُرقوا منا، وكيف أنهم أسهموا بنهوض الآخرين.. أما نحن فلم نفد منهم، ودون أن ندري أو ندرك أن سرقة هؤلاء العظماء والأعلام، سوف يؤدي إلى أمرين:

الأمر الأول: قدرة «الآخر» على الإفادة منهم في تراكمه المعرفي.. والأمر الثاني: أن قراءة «الآخر» ودراسته لأعلامنا، من خلال أبجديته ونظامه المعرفي، وانتقال هذه القراءة إلى الداخل الإسلامي، سوف تشكل معابر للغزو الثقافي، وتسهم بتشكيل قابليات في الداخل الإسلامي، لقبول «الآخر»، لأنه ليس غريباً عن تراثنا وهويتنا الثقافية، وإنما عَبَر إلينا من خلالنا، أو بما يسمى: «عملية الغزو الذاتي».

الابتعاث العشوائي.. سبيل البلاء!

ولعل معظم البلاء تسلل إلينا من خلال عمليات الابتعاث العشوائية، والتشكل ضمن مناخ الثقافة الغربية، بدون حصانة وضوابط، إلى درجة يمكن أن نقول معها: بأن خصومنا أفادوا من ابتعاثنا الثقافي، ووظّفوه لمصلحتهم وثقافتهم أكثر منا، لأنهم اعتبروا المبتعثين أدلةً لهم لفَهْم عالمنا، وأدوات بحث في تراثنا، وفق مناهجهم، وإذا ما عادوا عادوا مشبعين بالمنهج المعرفي الغربي، والقراءة وفق الأبجدية والأهداف الغربية لتراثنا وأعلامنا، فيتقلدون مراكز القيادة والأستاذية في الشرق، بعد أن كانوا تلاميذ في الغرب، فيساهمون بالتغريب، والاستيلاب الحضاري الذاتي، وبذلك نشتري غزونا واستعمارنا بأموالنا، وعلى أحسن الأحوال، نُشغل بإقامة ترسانات فكرية ومتاريس دفاعية، يمكن أن تحسب في خانة درء المفاسد، ونبقى نراوح في مكاننا، دون أن تكون عندنا القدرة على جلب وتحقيق المقاصد، وهذا يصدق إلى حد بعيد على العلامة عبد الرحمن بن خلدون، رحمه الله، حيث بالإمكان القول: بأن «الآخر» أفاد منه مرتين:

مرة بسبقه العلمي في مجال فلسفة التاريخ، كعلم امتد وتم تأصيله وبلورته عندهم، وأفادوا منه في قراءة المجتمعات البشرية، والعوامل الحاكمة للحركة التاريخية، وأنشأوا نواة العلوم الاجتماعية.

ومرة أخرى، بمحاولة إخراجه من إطاره المرجعي، ومناخه الثقافي، وطرحه كإشكال فكري أقرب انتماءً لحضارة «الآخر» منه لحضارته.

لذلك نقول: إنه لابد ابتداءً من تشكيل المرجعية، من خلال معرفة الوحي في الكتاب والسنة، كمعارف يقينية، وأدلة عمل وتعامل، وكحماية ثقافية، وكخلاصات اختصرت التجربة البشرية لصالح الأمة الخاتمة، وكمعيار لبيان الخطأ والصواب، والحكم على الفعل التاريخي في المسيرة الفكرية والثقافية.

لأننا إذا افتقدنا المعيارية، واهتز عندنا مركز الرؤية، ولم نحقق الإطار المرجعي لمعرفة الوحي، وجاء هذا السيل الجارف، والزَّبد الطامي من «الآخر» في تحليل ودراسة رموزنا العلمية والثقافية، من خلال رؤيته الحضارية، وأنظمته المعرفية، أمكنه استيلابنا، والتحكم الثقافي فينا، خاصة وأن شُعَب المعرفة في العلوم الاجتماعية والإنسانية قد تطورت عنده تطوراً مذهلاً، وأصبح معها قادراً على هضم كل الثقافات والأفكار، والتقوّي بها، وإعادة إنتاجها، وتصديرها، حاملة أهدافه وقسماته الحضارية والثقافية.. إنه يدخل علينا من الأبواب جميعًا، خاصة وأن شُعب المعرفة في هذه العلوم لم تمتد بالشكل المناسب في الواقع الإسلامي المعاصر، بل نستطيع القول: بأنها توقفت منذ زمن بعيد، وأحدثت فراغا مذهلاً، وعجزاً، وتخاذلاً، تمدد من خلاله «الآخر».

صحيح أن أسلافنا عندما استوعبوا معرفة الوحي في الكتاب والسنة، قادتهم إلى الفعل والإنجاز الحضاري والثقافي، والامتداد بجميع مناحي الحياة، وشُعب المعرفة، وإن لم يشتغلوا ببلورة موضوعات العلوم، وتحديد مصطلحاتها من الناحية الفنية.. لقد تعاملوا مع وظيفة المصطلح، وحققوا

مقاصد العلم، تعلموا العلم للعمل، ولم يتوقفوا عند التعريفات والتحديدات المصطلحية.. ثم تحول الأمر، حيث أصبح الاشتغال بتحديد المصطلحات والجدل الكلامي هو العمل، بدل أن يكون سبيل العمل.. إن مرحلة الجدل الكلامي، تحولت إلى البحث في التعريفات وموضوعات العلوم، واستغنت بذلك عن تحقيق الوظيفة، التي هي المقصود الأول في الفعل الحضاري.

فجاء «الآخر» بإنجازه وتفوقه وأدلته، من طلبة الابتعاث، ليغمر العالم الإسلامي برؤيته، ودراساته، ومناهجه، وأنظمته المعرفية، وتحليلاته حتى لتراثنا، ورموزنا العلمية والثقافية، وأفاد منها أكثر من أهلها أنفسهم.

وعلى أحسن الأحوال، فإن الكثير منا جاء انحيازه لتراثنا ورموزنا عاطفياً، ويغلب عليه الحماس والتوثب العاطفي والروحي، في محاولة لاسترداد رموزنا وتراثنا، دون أن نوطّن أنفسنا على إنضاج بحث أو دراسة مقدورة، نفيد فيها من تراثنا ورموزنا، ونؤصل لمناهجهم، ونقومها ونبين مواطن الخلل فيها، في ضوء معرفة الوحي ومعاييره، وبذلك نستوعب تراثنا، ونفيد من ماضينا، ونصوّب مسيرتنا.

مشكلة الحضارة عند ابن خلدون

وبعد: فقد يكون من المفيد في هذا المقام، حيث الحديث عن ابن خلدون، أحد الرواد العظام في تاريخنا الثقافي، والدراسات الكثيرة التي درات حوله، وحاولت إخراجه من إطاره الإسلامي، والتسلل من خلاله، أن نثبت رؤية الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، رحمه الله، في تقويمه لمن اهتموا بمشكلة الحضارة الإسلامية من أبنائها.. قال الشيخ رحمه الله:

«إن الذين تناولوا مشكلة الحضارة الإسلامية من أبنائها، هم ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، وقد كان العلامة ولي الدين بن خلدون من بين هؤلاء وهؤلاء، أجدر من طاطات له الرؤوس، اعترافًا بدقيق تحليله لهذه المشكلة، وإجلالاً لحُسن عَرضه إياها، وحُكم بيانه لها، لأنه تناولها على منهج دراسي نظري، مؤصَّل مفصَّل، إذ نظر إلى طبيعة الدولة الإسلامية ومقوماتها، وفكك بين الأصول التي قامت عليها، وبين الواقع الذي آلت إليه، ورجع إلى النفسية الفردية للمسلم، بين عهد السلف، وعهد الخلف، يضبط حقيقتها، من حيث تتمثل الصورة الاجتماعية للأمة، في ما يصدر عنها في كل عصر، من مدارك الحضارة والثقافة، على ما اختلف ذلك قربًا وبُعداً، من حقيقة الدين، ومن حقيقة المظهر المثالي الكامل، الذي ينبغي أن يبرز فيه المجتمع الذي يتكوّن بهذا الدين.

فجعل شؤون السياسة، والعمران، والصناعة، والعلم، في الدولة الإسلامية، تبعًا لشأن الدين.

وجعل الحقيقة الأولى للدين، التي هي العقيدة الفردية، أصلاً وأساسًا لذلك كله، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة، وركود ريح العمران، في عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة، وانتقاص الصنائع، وتلاشي ملكات العلوم، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهده، جاعلاً ذلك كله راجعًا إلى اختلال الحقيقة الأولى للدين، التي هي أساس العمران الناشئ به، والدولة القائمة عليه، أعني العقيدة الدينية.

فردّ ذلك كله إلى صورة تكوّن الفرد، تكونًا إيمانيًا، يرتبط من جهة بالدين الإسلامي في عقيدته، ويسري منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة، من مظاهر عمرانية، وصناعية، وفكرية.

وإذا كان الناس –كما يقول ابن عاشور– يكتفون، بأن يعللوا ما بدا في حياة المجتمع الإسلامي وحضارته من إخلال، بما يرجع إلى نظم الحكم، وصور الدول، وما شاع من فساد الخلق، وتفكك الروابط الاجتماعية، فإن ابن خلدون يطلب لهذه العلل عللاً، ويرد هذه الأسباب إلى أسباب وراءها، حتى يُظهر أنها وإن أثرت في أوضاع الحضارة والثقافة تأثيراً مباشراً، فليس ذلك التأثير بأصلي ولا جوهري، لأنها هي بذاتها تأثرت، بما تكيّف به العامل الأصلي من كيفية مختلة، فبقيت صالحة مستقيمة ما استطاع ذلك العامل الأصلي وصلح، وآلت إلى الاختلال والفساد، لمّا آل اصلها ومنشؤها إلى ذلك.

فالناس جميعًا يدركون، أن حالة الحضارة والثقافة، من حيث قابلية الإنشاء، وقوّة الصعود ، وحرارة المزاج، في عهد الخلفاء الراشدين، غير الحضارة والثقافة في آخر العهد العباسي، وإن كانت المظاهر أقوى، والأعداد أكثر، فإن العبرة بالروح المنتمية، لا بالاشباح الناشئة على إلف الأوضاع المستقرة الموروثة.

فحضارة الإسلام المعتد بها، هي الصورة اليقظة الفكرية، والهمّة الإنشائية، التي تولّدت من حرارة إيمان المسلمين في الأجيال الأولى، فمكنتهم من أن يخرجوا عن المحيط الإقليمي، إلى المحيط العالمي، وأن يتناولوا المعارف كلها بداعٍ من إيمانهم الديني، ولغاية تبدو في عظمة دينهم، يُستباح الفداء فيها، والهلاك من اجلها، فطلبوا المعارف ونالوها، وجمعوا بين أطرافها وهضموها، وصنفوها وتحكموا فيها، فتطورت على أيديهم، وتواصلت وتقابست، وتأصل ما بينها وبين دينهم، فانطبعت بشخصيتهم، وتأثرت بأوضاعهم الفكرية الأساسية، التي هي أوضاع الفكر الدينية، التي انشأ الإسلام عليها أفكارهم، والسكينة الإيمانية، التي رتبت دعوة الإسلام عليها نفوسهم.

هذه الحضارة هي التي ولدّت ما ازدهر به التاريخ الإسلامي من المعارف، والآداب، والصنائع، والفنون، فكان المسلم الذي هو منشئ تلك الآثار الباهرة من الحضارة، سيِّدها ومعمِّرها بإيمانه القوي، وروحه المتقدة، وفكره المتوثب، وخلقه الطاهر، وسلوكه الأمين.

فلما تحولت به الحال، عن تلك المعاني السامية، بقيت مظاهر الحضارة ومعالمها، ونشأت بعدها مظاهر ومعالم أخرى، ولكن المسلم لم يبق سيدها ومعمرها، وإن كانت تنشأ في أرضه، بيده وعن معرفته، لأنه أصبح أسيرهَا، وعاملَ فسادها وخرابها، لما فقد ما كان عنده من قوة الإيمان، والروح، والفكر، والخلق، والسلوك.

هنا تبدو حقيقة مشكلة الحضارة الإسلامية، وهنا يبدو الموقف الحكيم، الذي وقفه منها ابن خلدون.. فالحضارة الإسلامية في عصر ابن خلدون، لم تكن صورُ عرضِ مشكلتها، كما كانت عند السيد جمال الدين الأفغاني، ولا الشيخ محمد عبده، ولا الأمير شكيب أرسلان، ولا الحكيم محمد إقبال، فهؤلاء وجدوا أمة مغلوبة، ومدنية مضروبة، ودولاً زائلة، أو في حكم الزائلة، وأمة تتحرق على ما ترى عند غيرها من مظاهر القوة والسمو، فلا تستطيع أن تبلغ مبلغ الدنو منها، أو الزحف إليها.

أما ابن خلدون فعلى ما أصاب الإسلام قبله من نكبات، أهمها سقوط بغداد، فإن الأمة لم تزل في الشعور بعظمتها، ودولها.. لم تزل ذات شوكة مخشية، ونسبة غيرها من الدول والأمم منها، لم تكن تبرز شيئًا يُحَسُّ به، مما ينال الأمة الإسلامية في شعورها، ويَعْقِد في نفوسها عُقَدَ الشعور بالنقص والهضيمة، إلا أن عِبَرًا من الأحداث يستخلصها الفكر الوقاد، وتلويحات

دقيقة تشير إلى المستقبل المنتظر من ارتفاع الوضيع، وانحطاط الرفيع، لا يدرك مغزاها إلا من أوتي ما أوتيه ابن خلدون من بصر نافذ، هي التي قربت من ذلك النظر القوي الغريب، صور عرض المشكلة، فجلاّها لنا بقلمه، قبل يومنا هذا بنحو من ستة قرون، كما نستجليها نحن الآن، وكما استجلاها عظماء الباحثين في المشكلة الإسلامية في هذا العصر، بل لعله استطاع أن يضع يده من بعيد، على مجالي تلك المشكلة، التي لـمّا نضع نحن أيدينا عليها بصورة تامة واضحة.

لقد تناول ابن خلدون -والكلام ما يزال للشيخ ابن عاشور، رحمه الله- هذه القضية، عن طريق الدولة والعمران، فبنى بحثه على ما هو معروف عند المسلمين، وسبقت به الأخبار النبوية، من انقلاب الخلافة إلى ملك، وقد كان الناس يعتبرون ذلك أصل فساد الدولة الإسلامية، وفساد الرعية تبعًا لفساد رعاتها.

فجاء ابن خلدون يرد هذه النظرية إلى وضع آخر، إذ يجعل فساد الدولة، وانقلاب الخلافة إلى ملك، أمرًا عَرَضيًا، ليس من شأنه أن يؤثر في جملة المظاهر العمرانية لدولة الإسلام، بل إن هناك مطلوبًا آخر من العلل، هو الذي يرجع إليه فساد الدولة، رجوع المسبب لا رجوع السبب.

وأرجع الأمر كله إلى الحق والباطل، وإلى حسن القصد وسوء القصد، بحسب ما يكون بين نفوس الأفراد من عَقْدٍ وأمانة، وفي سلوكهم من استقامة وإخلاص.

فالذين راعوا الدين، واعتمدوا الحق، لم يضرهم تبدل شكل الدولة من خلافة إلى ملك، ولا أودى بهم ما سلكوا في حكمهم من مسالك السياسة.

والذين طغت عليهم نزعاتهم النفسية، فاستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم ومقاصدهم، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرير القصد فيها، واعتماد الحق في مذاهبها، هم الذين نبذوا الدين وراءهم ظهرياً، فتغير الوازع الديني إلى مقاصد التغلب والقهر، والتقلب في الشهوات والملاذ، وأصبحت العصبية عصبية دولة، لا عصبية دين.

لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها أو أساسها، أو بالأوضح إلى روحها، وهو العقيدة الدينية.

والحق أن النظر في مشكلة الحضارة الإسلامية، لو لم يتّبع فيه هذا المنهج الخلدوني، لبقي نظراً حائراً متردداً، لا يكاد يقع على مظهر يتعلق به، ويحسبه أصل المشكلة وسببها، حتى يبدو له مظهر آخر يصده عنه، ويطلب منه له ولأخيه علة من وراء ذلك» (انتهى: انظر روح الحضارة الإسلامية).

وتأتي أهمية دراسة ابن خلدون، واستيعاب منهجه في التحليل والتعليل للحركة التاريخية، وفق معايير الكتاب والسنة، في هذه المرحلة بالذات، حيث المسلمون بحاجة أكثر من أي وقت مضى، للعودة إلى الذات، وتحديد مواطن الخلل والقصور، ودراسة أسباب التقصير، واستئناف ما توقف في حياتهم الثقافية، من دراسة السنن المطردة، التي تحكم الحياة والأحياء، والتي احتل الحديث عنها، والشواهد على صدقيتها وثباتها، مساحات تعبيرية كبيرة في القصص القرآني، هذا العلم الذي توقف على الرغم من فرضية وإلحاح القرآن المستمر على السير في الأرض، والاهتداء إلى قوانين السقوط والنهوض، والاتعاظ وتحقيق الوقاية الحضارية.

ويبقى ابن خلدون رمزاً عظيماً من رموزنا الثقافية العملاقة، التي ما تزال

الحاجة إلى استردادها واستيعابها قائمة، لأن أثرها ما يزال ممتداً في حياتنا الفكرية، خاصة وأن معظم معرفتنا بها إنما جاء عن طريق دراسات المبتعثين، تلامذة الحضارة الغربية، ومناهجها، وقيمها.

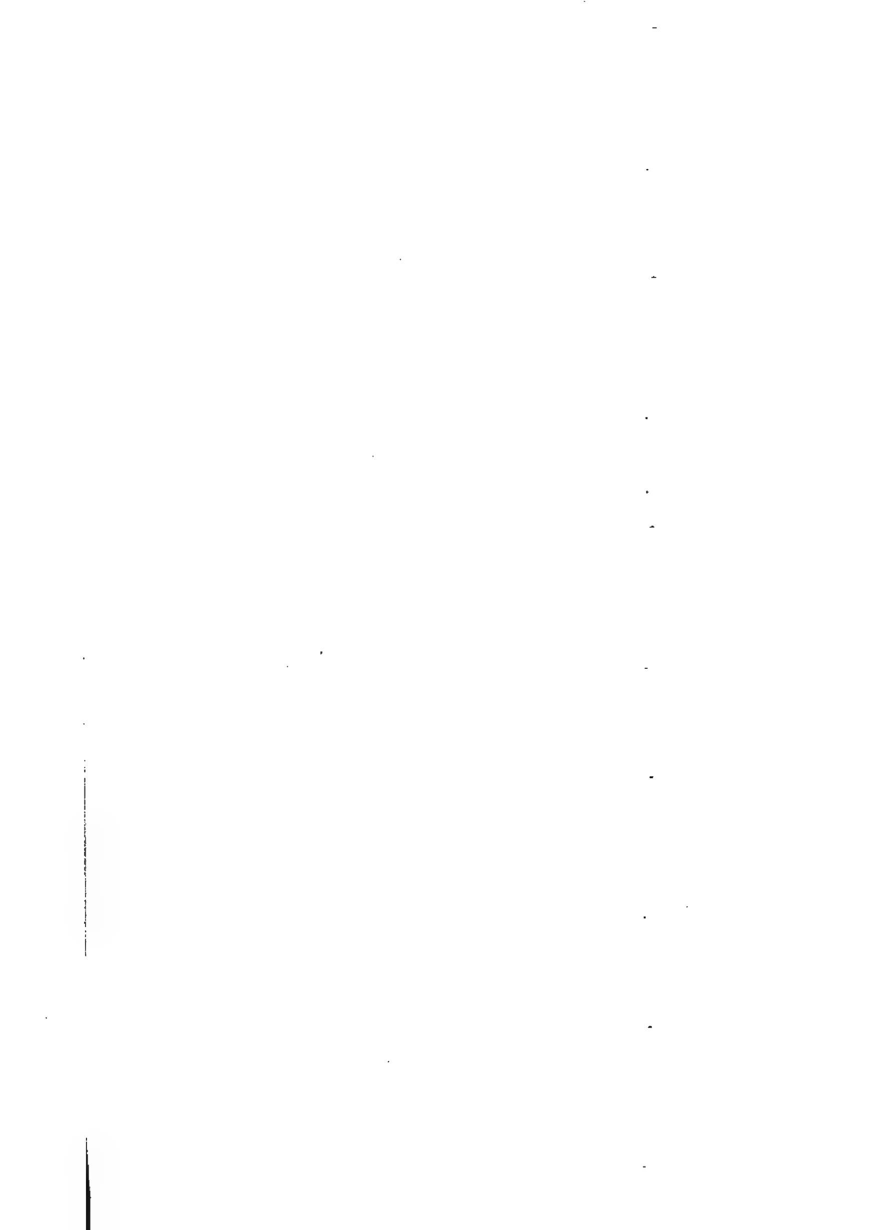
لقد كان عبد الرحمن ابن خلدون، رحمه الله، ابن ثقافته الإسلامية، وابن عصره تماماً، حيث قادته التناقضات، والمدافعات، والاضطرابات السياسية، التي عايشها، إلى التحول من الصورة إلى الحقيقة، من السياسة إلى الثقافة، ودراسة الأسباب، وتعليل الظواهر، للوصول إلى السنن، التي تحكم الحياة والأحياء، وتكمن وراء الحركة التاريخية.

وعلى الرغم مما يمكن أن يتحصل من آثار سلبية للفكر الدفاعي، حيث يصبح العدو هو المتحكم بساحة التفكير ومجالات النشاط الذهني، بما يطرح من مشكلات، إلا ان الأمر قد يختلف بالنسبة لابن خلدون، أحد الرواد الذين سرقتهم الثقافات الأخرى، حيث ما تزال الحاجة ماسة إسلامياً، للإحاطة بالمنهج الخلدوني للتوغل في التاريخ، ومعرفة العلل، والأسباب، والسنن، التي تحكم الحركة التاريخية، هذا العلم الذي ما يزال غائباً بالقدر المطلوب، لاكتشاف الإصابة، وتحقيق الوقاية الحضارية، استجابة لقوله تعالى: ﴿**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين**﴾ (آل عمران: ١٣٧-١٣٨).

والله المسدد والهادي إلى سواء السبيل.

التوحيد
محور الصراع الحضاري

٢٩٦٥/١٤



شرع الله لنا من الدين: ﴿ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ (الشورى:١٣).

وبعث محمداً ﷺ ، خاتماً للنبيين، وأورثه الكتاب، مهيمناً على الكتب السماوية السابقة، ليخلّص إرث النبوة مما لحق به من الشرك، والتحريف، والتأويل، والمغالاة، والانتحال، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله خالصاً لله: ﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ (الزمر:٣).

وناط بالأمة المسلمة، مهمة الشهادة على الناس، والقيادة لهم إلى الخير، وإخراجهم من الكفر إلى الإيمان.. من الشرك إلى التوحيد.. من عبادة العباد، إلى عبادة الله الواحد.. ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام.. ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة.

ذلك أن استرداد دور الأمة، وإحياء فاعليتها، لتصبح قادرة على استثمار طاقاتها الروحية، والذهنية، والمادية، لتقلع من جديد، لا يتأتى إلا باكتشاف مواقع الخلل، وتحديد مواطن القصور، ومعرفة أسباب التقصير، في ضوء سنن الله التي شرعها في الأنفس والآفاق، والتي تمثل أقدار الله، ليحسن المسلم التعامل معها، ويمتلك القدرة على تسخيرها، ومغالبة قدَر بقدَر، والفرار من

قَدَر إلى قَدَر، متمثلاً قولة ابن القيم رحمه الله: «ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله».

إلا أن عملية التقويم، والنقد، والتصويب، والمراجعة، بالشكل المنهجي الصحيح، ما تزال غائبة منذ أبد بعيد، والأسئلة الكبيرة، ما تزال معلقة بدون إجابات شافية، ولعل في مقدمة هذه الأسئلة، السؤال الكبير، والمطروح باستمرار وبإلحاح: لماذا صرنا إلى ما نحن فيه؟ ولماذا -ونحن نمتلك القيم السماوية الخالدة، المجردة عن حدود الزمان والمكان، والتي أنتجت الأجيال، التي حملت الرحمة إلى العالمين- توقفنا عن إنتاج النماذج المأمولة، والقرآن هو القرآن، والبيان النبوي في السُّنَّة والسيرة هو البيان؟

إن مجرد الجواب، بأن سبب ذلك كله، هو البعد عن الإسلام، على الرغم من صحته، جواب فيه الكثير من التبسيط، والتهوين، وحتى السذاجة أحيانًا، لأنه سوف يسلمنا إلى سؤال كبيرآخر، أو سلسلة من الأسئلة الأخرى التي لا تتوقف: ولماذا بَعدنا عن الإسلام، وانسلخنا عن الالتزام بقيمه؟ وعَجَزنا عن التعامل مع مصادره في الكتاب والسُّنَّة، لتربية وإنتاج النماذج المأمولة؟

واعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال، هو الذي ما يزال يمثل الإشكالية الكبيرة، من الناحية الثقافية والحضارية، في حياة المسلمين اليوم، وأن الإجابة الدقيقة تتطلب دراسات سننية، تتطلب بدورها فقهًا في الحركة التاريخية، وقوانين الاجتماع البشري.. تتطلب التعرف على: ﴿**سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدر مقدوراً**﴾ (الأحزاب:٣٨)، والتمثل لقوله تعالى: ﴿**فلن تجد لسُنَّة الله تبديلاً ولن تجد لسُنَّة الله تحويلاً**﴾ (فاطر:٤٣).

إن فقه السنن، هو الذي يمثل سبيل الخروج من الحال الذي نحن عليه، ذلك

أن الحال الذي صرنا إليه، لم ينشأ مصادفة، وبدون أسباب ومقدمات، إنما توضع نتيجة لسنن فاعلة في الحياة، ولم يحصل عبثًا.. وهذه السنن، لابد من إدراكها ابتداءً -أي أن الحياة لم تخلق عبثًا، وإنما تنتظمها سنن وقوانين- حتى نتمكن من تحديد الإصابة بدقة، ومن ثم فقه السنن، التي تمثل سبيل الخروج.. ونعني بفقه السنن: القدرة على استشراف التاريخ، واستيعاب الواقع، وإبصار المستقبل، في ضوء هدايات الوحي، ومدارك العقل.

صحيح، إن بُعدنا عن الإسلام، كان وراء جميع ألوان المعاناة، التي نعيشها، وأننا لا نستطيع الخروج ما لم ندرك، ونجيب على السؤال: لماذا بعدنا؟ ونستقرئ الأسباب بدقة، ونبدأ بمعالجة الأسباب في ضوء السنن، التي شرعها الله، ولا نقتصر على معالجة الآثار، التي ترتبت على ذلك، كما هو الحال في كثير من معالجتنا.

وبالإمكان القول هنا: إن الإجابة عن السؤال الكبير الثاني: كيف نرى طريق العودة؟ وكيف نضع الأوعية الشرعية لحركة الأمة، حتى تستطيع النهوض، وإعادة البناء، في ضوء سنن الله تعالى؟ لا تَقِلُّ أهمية عن الإجابة على السؤال الأول: لماذا صرنا إلى ما نحن فيه؟ بل قد يكون الأمران متلازمين، ذلك أن القول: بأن الحل هو العودة للإسلام، أو أن الإسلام هو الحل، دون تحديد الكيفيات، ووضع الأوعية والآليات لهذه العودة، أو للوصول إلى هذا الحل، هو نوع من التبسيط، الذي يخشى منه، أو بعبارة أدق: يخشى معه من تكريس حالة العجز، واستمرارها، وتراجع الثقة بقيمة وقدرة هذه الشعارات -إن لم تقترن بما تقتضي من فقه سنن النهوض- على تقديم الحل فعلاً. ذلك أن طرح الشعار، دون القدرة على تنزيله على الواقع، وتحويله إلى ممارسة، وفعل، وشعيرة، هو إجهاض للشعار، ومحاصرة له في نهاية المطاف، وإيهام بعدم واقعيته.

تقويم للتدين.. وليس للدين

وهنا قضية، لعل إيضاحها، وفك الالتباس الذي يكتنفها، وتحرير معناها، من الأهمية بمكان، وهي أن النقد، والتقويم، والمراجعة، وتحديد مواطن التحريف، والقصور، والمغالاة، وكشف الخلل والاعوجاج في الفهم، والخطأ في الاجتهاد، إنما ينصرف للتدين، للتطبيق، والممارسة، وليس لقيم الدين نفسها، ذلك أن الخلط بين الأمرين، يترتب عليه فساد عريض، واختلال في معادلة التدين نفسها.

ولعلنا نقول: إن التقويم، والمراجعة، والنقد، والتصويب لفهوم الناس لقيم الدين، وممارساتهم، أثناء تنزيله على الواقع، هو حماية لقيم الدين المعصومة نفسها، من أن تتحول، أو تلتبس بمفاهيم بشرية، يجري عليها الهوى والتعصب، والخطأ والصواب.

وبالإمكان القول: إن هذا الالتباس، بين قيم الدين المعصومة، وفهم الناس للدين (التدين)، الذي يجري عليه الخطأ والصواب، ترك جواً من الإرهاب الفكري، أو إن شئت فقل: الإرهاب الديني المقدس، وكرس الكثير من الأخطاء، وحال دون طلاقة الفكر، في الاجتهاد، والنقد، والتصويب، والتقويم، والمراجعة، ظناً ووهماً أن نقد الاجتهاد، أو نقد فهوم الناس، أو نقد بعض صور التدين، والممارسة، هو نقد لقيم الدين نفسه، وأصبحت الفكرة الشائعة: أن نقد بعض ممارسات الأشخاص، وفهومهم للدين، هو نقد لما يحملون من قيم ومبادئ معصومة، وأن هذا النقد قد يوصل صاحبه إلى الكفر، حيث الزعم بأن الذي ينتقد حملة الشريعة، ينتقد الشريعة، والذي ينتقد الشريعة، يكفر بمُنزلها.

وهكذا يسيطر جو من الإرهاب الفكري، يشل التفكير، ويحاصره، ويحرم عمليات التقويم، والنقد، والمراجعة، وبذلك يكرس الانحراف، وتعطل حسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، التي بها خيرية الأمة، وامتدادها، وتستمر ممارسة الخلط بين الدين المعصوم، والتدين الذي يجري عليه الخطأ والهوى، والصواب، وتتسع دوائر الانحراف، وتحاصر قيم الدين الخالدة المطلقة، بفهوم البشر النسبية القاصرة، وتنتقل القدسية من قيم الكتاب والسنة، إلى آراء البشر، وتصبح الفهوم البشرية المتفاوتة، هي مصادر الدين والتدين، وبذلك يتفرق أمر الدين، ليصبح أديانًا، وشيعًا، وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون ، ونقع فيما حذرنا الله منه، بقوله تعالى: ﴿ **ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ (الروم: ٣١ - ٣٢).

إن انتقال القدسية، من قيم الدين، إلى فهوم البشر المتفاوتة، هو تفريق لأمر الدين، وتمزيق للأمة، وقضاء على مصادر وحدتها الجامعة.. ولعل من بعض آثار ذلك السلبية، ما ذهبت إليه جماهير الأمة، من المقلدة، وبعض حملة الفقه، وليس الفقهاء، عندما يطلب إليهم الالتزام بأدلة الكتاب والسنة، واعتمادها مصدراً للتدين، وليس فهوم، واجتهادات البشر، التي تخطئ، وتصيب، من أن مصدر هذه الفهوم، والمذاهب، هو الكتاب والسنة، وأن الالتزام بها، والدفاع عنها، والاستسلام لها، هو التزام بالكتاب والسنة، وبذلك يصبح للمسلمين أكثر من كتاب، ومن سنة، حيث تتعدد صور الاجتهاد، والتدين، بتعدد المذاهب وقدرات البشر.

فالاجتهاد في التطبيق، جهد بشري لفهم الدليل، في التنزيل على محله، وليس دليلاً مستقلاً بحد ذاته.. وما أزال أذكر أنني عندما طلبت دليلاً من الكتاب والسنة، من أحد حملة الفقه، على مسألة اجتهادية، وأعياه ذلك، قال: إنه اجتهادي، وفهمي، وكوني أقول بهذا، هو الدليل!

التدين المعوج

وقد تكون معضلة البشر في التعامل مع نصوص الدين تاريخيًا، كامنة في أنماط التدين المعوج، في فهوم البشر، وليست في الدين نفسه.. تلك الفهوم التي تحولت شيئًا فشيئًا، لتصير هي الدين، ويصير الإنسان، أو رجل الدين هو المتحدث باسم الله، وتتخذ الأحبار والرهبان، على نقصهم، وضعفهم، وقصورهم ، ونسبيتهم ، وخضوعهم لظروف الزمان والمكان ، أربابًا من دون الله.

ولعل هذه القضية، قضية اتخاذ الآلهة من دون الله، واتخاذ الأرباب، هي التي ألحقت الفساد الكبير في تدين الأمم السابقة على الإسلام، كما أن قضية توحيد الألوهية، والحيلولة دون اتخاذ الأرباب ، هي قضية النبوات الأولى، وقضية النبوة الآخرة.

وفي تقديري أن إفراد القرآن الكريم، لمساحات تعبيرية كبيرة، وبأكثر من أسلوب، وطريقة أداء، لذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم، وصراعهم مع الأرباب، بمختلف أشكالها، وذكر علل التدين، التي دخلت على إرث النبوة، هو لون من التحصين الديني، والتوعية الثقافية، وتحقيق الاعتبار لأمة الرسالة الخاتمة، ذلك أن اتخاذ الأرباب من دون الله، والاعتقاد بأنها تقرب إلى الله، هي قابليات مركوزة في نفوس البشر: ﴿اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة﴾ (الأعراف:١٣٨)، تقتضي قدراً كبيراً من اليقظة، والحذر الدائم، للحيلولة دون الانحراف.. وأن هذه القابليات، موجودة في أمة الرسالة الخاتمة.. لذلك

يمكن بغفلة منها عن قيم الدين المعصومة، أن تقع في إصابات وعلل التدين، التي وقعت فيها الأمم السابقة.

ولولا أن هذه القابليات، قائمة وموجودة فعلاً، لما كان للتحذير منها أي فائدة، ولكان ذكر علل التدين في قصص القرآن، ومرويات السنة، لا قيمة عملية له، ولكان القرآن كتاب تاريخ، انتهت صلاحيته في العصور الماضية.. ولولا أن هذه الإصابات التدينية، تتكرر، وتخضع لسنن لا تتبدل ولا تتحول، لكان ادعاء الخلود لآيات القرآن، دعوى بلا دليل. ذلك أن الخلود يعني فيما يعني، تجرد القرآن، وبيانه النبوي، عن حدود الزمان والمكان، وامتداد فاعلية السنن وفعلها.. إن السنن التي ألحقت النقص والفساد بالأمم السابقة، يمكن إذا توفرت، أن تلحق الفساد بتدين الأمة المسلمة أيضًا، وأن القصص التي يذكرها القرآن لفساد التدين، دليل على نفاذ السنن، ومضيها في البشر، أينما كانوا، وحيثما كانوا، ومهما كانت عقائدهم الأصلية، لأن الله سبحانه لا يحابي أحداً.

ولم يعد موضعًا للشك أمام المتأمل والمستقرئ لأحوال البشر، في عصورهم المختلفة والمتطاولة، أن التدين فطرة بشرية، وحاجة عضوية ونفسية، وأنه إذا لم يأخذ طريقه الصحيح إلى توحيد الألوهية والربوبية، فسوف ينتهي إلى الضلال.. والذي لا يكون عبداً لله، فهو يقينًا عبد لسواه من الأرباب، مهما ادعى غير ذلك، أو زعم إنكار الدين، قال تعالى: ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله** ﴾ (التوبة: ٣١).. لذلك، فالذين ينكرون الإله، ويكفرون به، ظنًا منهم أنهم تحرروا من الدين، إنما يقعون في أسوأ وأردأ ألوان التدين الباطل، وهو اتخاذ الأرباب من البشر.

القرآن.. كتاب نخبة.. وأمة

والقرآن الكريم، وهو مصدر التوحيد الأول، ليس كتاب نخبة فقط، وإنما هو كتاب أمة، وهو ميسر للذكر.. والتيسير للذكر هنا، لا يعني أبداً التبسيط والسذاجة في الفهم، بقدر ما يعني بأن التامل في آياته، وما شرعه الله فيه من السنن، التي خضعت لها الأمم السابقة، وذكر هذه السنن، واستذكارها، أمر ميسر لكل من اقبل عليه.

إن بيان علل تدين الأمم السابقة، وما خضعت إليه من سنن، لابد من استيعابها، لتصبح ثقافة شاملة لأبناء أمة الرسالة الخاتمة، فيأخذوا حذرهم، ويتحققوا بالاعتبار، والوقاية، والهداية.

فالآية: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾، تكررت (٤) مرات في سورة القمر، وجاءت في كل مرة تعقيباً على ما ذكر من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وإصابات التدين، وأهمية إدراك السنن، التي حكمت مسيرة النبوة، وكيف أن إدراكها ميسر، إذا توفرت عزيمة الاطلاع، والادكار، والاتقاء.

وليس تيسير القرآن للذكر -فيما أرى- هو فهم المعاني القريبة بدون صعوبة، وهذا جزء من المقصود، أما المقصد الأساس، فهو تيسير إدراك سنن السقوط والنهوض، من خلال تاريخ النبوة، الذي لم يخرج عن الصراع، بين الإيمان والكفر، بين التوحيد والشرك، بين عبودية الإنسان لله الواحد الأحد، التي تعني المساواة بين بني البشر، وبين تاله الإنسان، الذي ينتهي إلى تسلط الإنسان على الإنسان.

نعود إلى القول: إن الإصابات من الخروج، والانحراف، والانتحال، والتأويل، والمغالاة، وسائر العلل، في تاريخ النبوة الطويل، إنما لحق بالتدين، من جهة التطبيق والممارسة، الأمر الذي حمل كثيراً من الفرق، والأديان، إلى تأويل نصوص الدين، وتحريفها، لتوافق أهواءهم، وليصبح النص خاضعًا للممارسة، وليكيف في ضوئها، وبذلك يصبح النص الديني تابعًا، بدل أن يكون متبوعًا، فينمو التدين المغشوش، ويسود فقه الحِيَل، ويوظَّف الدين لأغراض الناس وأهوائهم، ويستخدم مسوغًا لتصرفاتهم، وتصنع الفتاوى وتجهز، ويلوىٰ عنق الأدلة، لتسويغ مسالك الكبراء والملأ من القوم، ولا مانع أن تصنع فتاوى مناقضة لها، إذا اقتضت الحاجة، لإعطاء المشروعية لهذا العمل أو ذاك، وبخاصة لأصحاب السلطان، من المال والجاه.. وهنا يبرز الإنسان الذي يكون إلهه هواه، وتنقلب المعادلة، ويصير ما جاء به الرسول ﷺ تابعًا لأهواء البشر، بينما الوضع السليم للتدين، الانضباط بقول الرسول ﷺ: **«لا يؤمن أحدُكُم حتى يكون هواه تَبَعًا لما جئتُ به»** (رواه البغوي في شرح السنة، وقال النووي في أربعينه: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح).

ذلك أن الخطورة كل الخطورة، في مجال التدين، أن يكون ما جاء به الرسول ﷺ تابعًا لأهوائنا، وبذلك تقوم مذاهب، وفرق، وأديان، تنحرف شيئًا فشيئًا في تدينها، حتى تصل إلى مرحلة لا علاقة لها بدين الله، وإن ادعت أن ما ذهبت إليه هو دين الله، وأعلنت أنها تستمد مشروعيتها من الدين.

وفي تقديري أن خلود الإسلام، وامتداده، إنما تحقق من خلال تعهد الله بحماية نصوص الدين في الكتاب والسنة، وحفظها، وصحتها، قال تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** (الحجر :٩)، وقال تعالى: **﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعَه وقرآنَه فإذا قرأناه فاتبع قرآنَه ثم إن علينا بيانه﴾** (القيامة:١٦-١٩).

٢٩٧٥/١٤

فَحِفْظُ الله للقرآن، والبيان النبوي الذي تحقق من خلال عزمات البشر –ولا يزال– حال دون تطرق التحريف، والتبديل، والعبث بالنص الديني، الذي هو مصدر التدين، ومعياره.. وأن الإصابات التي لحقت بالتدين، لم تتمكن من العدوان على النص الخالد، الذي استمر – إلى جانب الطائفة القائمة على الحق، المستمرة حتى يوم القيامة– شاهد إدانة، لكل انحراف، وتأويل باطل، ومنبعًا وحيداً للتلقي، ومعياراً متوحداً للتجديد.

ولعلنا نقول هنا: إن الحماية لم تقتصر على النص الديني، وإنما امتدت إلى حماية الممارسة أيضًا، من خلال السيرة والسنة.. ذلك أن السنة والسيرة هما معيار الممارسة والتطبيق.. وبذلك لم يُترك الفهم، والتطبيق، والتنزيل، على الواقع، لرؤى واجتهادات البشر، وإنما كانت السيرة والسنة، معيار الفهم والتصويب، والإطار المرجعي له.. وتجسيد ذلك المستمر، في الطائفة القائمة على الحق، التي لا يضرها من خالفها، حتى يأتي أمر الله، مصداقًا لقوله عليه السلام: **«لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يَضُرُّهم مَنْ خَذَلَهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»** (رواه مسلم).

لذلك يمكن القول بكل الاطمئنان: بأن الرسول ﷺ تركنا على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، سواء في نصوص الدين المحفوظة الواضحة، الميسرة للذكر، أو في طريق التدين أيضًا، أي في الدين والتدين معًا.. في القرآن، والسنة، والسيرة، وسنة الخلفاء الراشدين.

ومن هنا، نتبين مدى خطورة تجاوز البيان النبوي، أو تجاوز السنة، أو تجاوز السيرة، وصحيح المأثور بعامة، حيث يفتح الباب على مصراعيه، للرأي، والهوى، والتأويل، لكل أنماط وأشكال التدين، والتطبيق، الذي به يكون تفريق

الدين، بحيث يصبح لكل إنسان كتاب وسُنة -كما أسلفنا- إذا افتقدت المرجعية، التي يبينها المأثور، وتمثلها تطبيقات الخلافة الراشدة، وفهم خير القرون.

إن فهم الرسول ﷺ، وتنزيله لنصوص الدين على الواقع، من خلال خير القرون، هو الذي يمثل الإطار المرجعي لفهم كل مسلم، في كل عصر.. وإذا كان الخلود يقتضي أن نمتد بالنص القرآني، لتنزيله على مشكلات كل عصر، بحسب ظروفه، وإمكاناته، وتعدية الرؤية، فإن هذا الامتداد لا يجوز أن يعود بالنقض أو الإلغاء للبيان النبوي، وفهم خير القرون.. ويبقى المطلوب في الاجتهاد والامتداد في التطبيق، امتلاك القدرة على وضع الحاضر في موضعه، الملائم والمناسب للحال الذي هو عليه، من مسيرة السيرة، وفهم خير القرون.

خصائص خيرية القرون الأولى

وقضية الخيرية، التي قررها وشهد بها الرسول ﷺ، للقرن الأول، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ومن ثَمَّ تكون الإصابات، ويكون التصويب والتجديد، قضية تقتضي بعض التوقف.

إن شهادة الرسول ﷺ للقرون الثلاثة الأولى، بأنها خير القرون على الإطلاق، سواء في ذلك القرن الأول، الذي هو خيرها، والذي شهد نزول نصوص الدين، وشهد تنزيلها على الواقع «ممارسة التدين»، على عين الوحي، أو تلك التي امتدت فيها ممارسة التدين، بعد توقف الوحي، وغياب المعصوم،

٢٩٧٧/١٤

تعني فيما تعني، أنه اجتمع لهذه القرون، وتحقق في أهلها من الصفات، والمزايا، والخصائص، ما لن يتوفر لغيرها.. وسواء قلنا: إن ذلك في مساحة الخير، أو عموم الخير، في هذه القرون، أو في النماذج المتفردة، التي تمثلت الإسلام على شكل يبقيها في محل الأسوة والاقتداء، حيث بدأ الخير، فيما بعد هذه القرون، يتضاءل على مستوى الفرد والمجتمع، لكنه لم ينقطع أبداً في هذه الأمة، لأنها كالغيث، لا يُعرف الخير في أوله أو في آخره، كما دلت على ذلك بعض الآثار.

إن الشمولية في الخيرية وعمومها في هذه القرون، يجعلها في محل الأسوة والاقتداء، في مجال ممارسة التدين، والتطبيق السليم، الذي منحها ووسمها بتلك الخيرية.. إنها الخيرية الشاملة شمول الإسلام، لجميع جوانب الحياة، وآفاقها، وأبعادها، ذات العطاء المتعدد والمتجدد.

ولا شك عندي، أن بحوث العلماء، ودراساتهم التي انصرفت إلى أبعاد استمرار الخيرية، وخلودها في الأمة المسلمة، امر طيب ومهم، ومن بشائر الخير الدالة على الامتداد، والخلود، والاستمرار، لكن الجانب الأهم في تقديري: أن تخضع هذه القرون، المشهود لها بالخيرية، في صحة وصدق تدينها، وممارستها للدين، أن تخضع للتحليل والدراسة، واستخلاص الصفات والخصائص التي كانت سبب خيريتها، ومحاولة تجريدها من حدود الزمان والمكان والأشخاص، لتوليدها في كل زمان ومكان، وجعلها أهدافاً ومعايير وركائز تربوية، في كل عمل دعوي تربوي، لتصبح سلم القيم، ومدارج الكمال، وسبيل الخيرية.. كما لابد أن تدرس عوامل الخلل والانتقاص، الذي دخل على الأمة المسلمة، بعد هذه القرون، فانكمشت خيريتها.

واعتقد أنه ليس المقصود، من الناحية التربوية، ولا أن ذلك من مقاصد الحديث، حصر الخيرية في هذه القرون، وقصرها عليها، لتصبح حكراً لها،

دون غيرها من سائر القرون، لأن ذلك يناقض طبيعة الإسلام، ودعوته الممتدة وخلوده، ووراثته للنبوة، وإنما المقصود فيما أرى، والله أعلم، أن يكون التدين في هذه القرون، وفهم الدين، الذي منحت بسببه شهادة الرسول ﷺ بالخيرية، هو سبيل المؤمنين إلى التدين الصحيح الخالص.. وإلا، فما معنى الشهادة لها، من الناحية العملية، إذا لم يكن المسلم في كل زمان قادراً على المحاولة للوصول إلى تلك الخيرية، وتمثلها، والتحقق بها؟!

إن اشتغالنا بأن هذه القرون هي الخير، وهي الأعلى، وأن ما تلاها هو الأدنى، إذا لم نلحظ فيه ضرورة دراسة الخصائص، التي رشحتها للخيرية، وحاولنا الارتقاء إلى مستواها، يصبح لا معنى ولا مغزى له، من الناحية التربوية، والدعوية.. وكم كان الإنسان يتمنى أن يجد كتباً ودراسات، متخصصة في شعب علوم الحياة المتعددة، تستطيع أن توظف المعارف جميعها، بحيث تعرض لخصائص هذه القرون، وفق خطة منهجية، وتضع دليل العمل، دليل التدين السليم، للانتساب إليها، وطي مسافة الزمن، للحصول على الخيرية والثواب، الذي شهد لها به الرسول ﷺ. وإذا لم تكن حركة هذه القرون، الفكرية، والعملية، والاجتماعية، والسياسية، محل دراسة، وتحليل، واستنتاج، وعطاء، للأجيال القادمة، بحيث تمنحها الرؤية السليمة، للحياة الخيِّرة، فنخشى أن نقول: إننا لم ندرك بعد الأبعاد الكاملة، والمقاصد الأساسية لشهادة الرسول ﷺ لهذه القرون.

إن دراسة الشخصيات العظيمة والمتميزة، والفترات الزمنية المتألقة، ذات الإنجاز الحضاري المقدور، في حياة الأمم، وإلقاء الأضواء على جوانبها المختلفة، لتمثل دلائل عمل، ووسائل تنوير، وقيادات هدى، ومناهج ارتقاء، أصبحت علوماً لها مقوماتها، وطرائقها، وتخصصاتها، ومعارفها.. لقد جردت للمعاني العظيمة من أشخاصها، وزمانها، ومكانها، وأعيدت جدولتها، كما أعيد بناؤها

تربوياً، بحسب أولويتها، لتكوّن المناخ الثقافي، والتربوي، لحركة الأمة، في مجالاتها المتعددة، ولتشكل نقاط ارتكاز حضارية، تحول دون الاهتزاز والذوبان.

ونحن نمتلك هذه الكنوز العظيمة، لحركة المجتمع الإسلامي: ثلاثة قرون، مشهود لها من المعصوم، ومع ذلك نعيش حالة التخاذل الفكري والديني، ونعجز عن امتلاك القدرة على وضعها في المكان المناسب، في مناهجنا التربوية، والتعليمية، ونحاول قراءتها، وتفسيرها من خلال حالة التخلف، وفلسفة التخاذل، التي نعيشها، ونرفعها كشعارات، تصبح على أيدينا عاجزة، عن تغيير الواقع الذي نعيش.

غياب المدلول الحقيقي للمفاهيم

إن غياب المدلول العملي للشعارات، والمفاهيم، والمصطلحات، والترجمة الواقعية لها، وتحويلها من فكر إلى فعل، ومن نظرية إلى تطبيق، ومن علم إلى ثقافة، ومن حمل للفقه إلى فقه، يعتبر من الناحية الثقافية، من أخطر ما تصاب به الأمم في حياتها، حيث تعيش حالة من الضلال، والركود، والاستنقاع الحضاري، والاستلاب الثقافي الذاتي، لا تحسد عليها، وتصبح مهيأة لقبول ما يلقى إليها من خصومها، وتبدأ مرحلة السقوط، وتأتي العملة الرديئة، لتطرد العملة الجيدة من السوق، وتحل محلها، وبخاصة في حالات الانبهار بالإنجاز والغلبة المادية، حيث يغيب الوعي، وتبدأ الأمة بالتنازل عن مفاهيمها، وشعاراتها، لصالح «الآخر».

وقد تكون المشكلة الأخطر، أن تنشأ في الأمة طبقة من الكتّاب والمفكرين، والصحفيين، يدّعون التنوير والتحرر، تمارس العمالة الفكرية،

وتقوم بنوعٍ من المقاربة الثقافية والحضارية، بين مفاهيمها، وشعاراتها، ومصطلحاتها، ومفاهيم حضارة وثقافة «الآخر»، فتتحول المفاهيم والمصطلحات والشعارات، التي الأصل فيها، أن تشكل الحصون الثقافية، والقسمات الحضارية للأمة، إلى معابر لمفاهيم ومصطلحات «الآخر»، وبذلك تنخلع الأمة من شخصيتها الثقافية، وتدخل مرحلة التيه والضلال، فلا هي متمثلة لثقافتها، ومفاهيمها، وقيمها، ولا هي مقبولة، بطبيعة تاريخها الثقافي، وقيمها الدينية، للدخول في ثقافة «الآخر»، إلا بحدود ما يُحَقِّق العمالة الثقافية، ويُمكِّن من الاختراق الثقافي.. ولعل في الحال التي انتهت إليها بعض الدول الإسلامية، التي أعلنت العلمانية، والالتحاق بالغرب، والالتزام بقيمه، والانسلاخ من الإسلام، خير عبرة، فلم تبق مسلمة كما ينبغي، ولم تصبح أوربية غربية خالصة.

ومن جانب آخر، فإن اغتيال المدلول الحقيقي للمفاهيم والمصطلحات، وتفريغها من مضمونها، والتعامل معها من خلال حالة التخلف والتخاذل، والعقلية الذرائعية، التي تسيطر على الأمة، في حالات الركود، يؤدي إلى محاصرة هذه المصطلحات والمفاهيم، ويخرجها من دائرة الفاعلية، والانفعال بها، وحسن توظيفها تربويًا، وبذلك تفتقد مدلولاتها الصحيحة، وتصبح عاجزة عن التغيير، وإعادة البناء.

لذلك نرى أن قضية التوحيد والعبودية لله، التي كانت همَّ الرسالات السماوية تاريخيًا، وكانت ميدان الصراع الحقيقي، لما يترتب عليها من آثار على مستوى الفرد، والمجتمع، والأمة، والدولة، اصبحت، في مراحل الجمود والتخلف، والتقليد، مجرد شعار، يصعب تمييز الذي يرفعه كثيرًا، عن غيره، الذي لا يؤمن به.

وبمعنى آخر، نرى أن شهادة (لا إله إلا الله)، التي تعني هدم العبوديات، ونسخ الآلهة، وإثبات التوحيد والوحدانية، والتي كانت تعني التغيير، والتحول، والانخلاع من حال، لها مواصفاتها، ومعاييرها، ومفاهيمها، وعبودياتها، إلى حالة التحرر والانعتاق، واسترداد إنسانية الإنسان، ونسخ تسلط الإنسان على الإنسان، لذلك كان الناطق بها، المدرك لأبعادها ومدلولاتها، تتغير مفاهيمه، كما يتغير سلوكه، وعلاقاته، ويعيش ثمراتها في النفس والمجتمع.. وهي الشعيرة التي من السنة أن يُنادىٰ بها في أذن المولود، فور استقباله للدنيا، ويستمر الإعلان والأذان بها من عَلىٰ أعلىٰ مكان، ولا يكتفى بسماعها واستيعابها، وإنما لابد لكل مسلم أن يجيب المؤذن، ويقول مثلما يقول، حتى تتجدد المعاني والمدلولات في نفسه: «**إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا عليَّ**... الحديث» (رواه مسلم)، كما أن النطق بها، آخر ما يودع الإنسان به الدنيا، حيث من السُّنة أن يُلَقَّنها في الاحتضار...

هذه الشهادة، الشعيرة، نراها اليوم أصبحت شعارات ترفع، وتكاد تكون عند كثيرين بلا مدلول، إلى درجة يصعب علينا معها تمييز من يرفعها حقيقة، ممن لا يؤمن بها مطلقاً، من حيث السلوك!

إن غياب شعارات الأمة، ومفهوماتها، وقيمها، عن ساحتها الفكرية، وتشكيلها الثقافي، وممارساتها اليومية، يعني أن الأمة دخلت مرحلة التيه والفراغ، الذي يسمح «للآخر» بالامتداد في داخلها، كما أسلفنا.

ولعل من المخاطر الثقافية الكبيرة، أيضاً، الانحراف بالمصطلحات، والمفاهيم، والشعارات، عن مدلولاتها الصحيحة، والخروج بها عما وُضعت له، ليصبح دورها، تبرير وتسويغ حالات الركود، والانسحاب، والإرجاء،

والعطالة، وانطفاء الفاعلية.. ومن هنا قلنا: إن القرون المشهود لها بالخيرية، وتألق العطاء، والفاعلية، هي التي تشكل مرجعية الفهم، والتحديد لمدلولات الشعارات، والمفاهيم، والمصطلحات، وترجمتها إلى أفعال، وتجسيدها في واقع الناس.. وأي تفسير يتجاوز ذلك، أو ينقضه، أو يخرج عليه، هو نوع من البدع الفكرية، والمفاهيمية، لابد من مراجعتها، وتقويمها، وتصويبها، في ضوء تلك المرجعية.

حول مفهوم المصدرية والمرجعية

وهنا لابد من وقفة بسيطة، لتحرير مفهوم المصدرية والمرجعية، فيما نرى، والله أعلم.. فإذا كان مصدر التشريع، والأحكام، أو القيم بشكل أعم، هو كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ الصحيحة دون غيرهما -لأن الله تعهد بحفظ القرآن، كما تعهد بحفظ البيان، كما أسلفنا، ولأن كل إنسان يؤخذ من كلامه (اجتهاده وفهمه) ويُرَدُّ، إلا صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام، كما يقول الإمام مالك - فإن اجتهاد وفهم القرون المشهود لها بالخيرية، هو الذي يشكل المرجعية لكل الفهوم الأخرى المتتالية.. ويبقى معيار هذه المرجعية في الفهم، أو معيار الفهم، هو القيم المصدرية في الكتاب والسنة، التي يجب أن تستصحب دائماً، لأنها الحارس الأمين على الاستقامة على النهج.

وفهم خير القرون، الذي يشكل المرجعية، كما أسلفنا، لا يعني قيداً على العقل والاجتهاد، بمقدار ما يعني إطاراً، يحمي من التحريف، والمغالاة، والانتحال، والتأويل الباطل.

واعتقد أن من أخطر بوادر الخلل، التي دخلت على الأمة، بعد القرون المشهود لها بالخيرية، محاولة التقليل من شأن المرويات، التي تمثل البيان المأمون، وإبعادها عن الساحة الفكرية، وعندها يقول كل من شاء ما شاء، ويذهب بالمعاني القرآنية مذاهب شتى.. ولذلك نرى أن الفرق الضالة والخارجة جميعها، وحتى المذاهب والتيارات المعاصرة، حاولت تقطيع الرؤية الإسلامية، وقراءة الإسلام من خلال اصول مذاهبها، فكان اليسار الإسلامي، أو الإسلام اليساري، والإسلام الاشتراكي، والإسلام الراسمالي، وهكذا... حتى تتمكن من الدخول إلى المجتمع الإسلامي.

لقد حاولت معظم الفرق، ان تُسوِّغ مشروعيتها، بنصوص من القرآن، والتاويل لبعض آياته، وفق رؤيتها وفهمها المسبق، وكان لا بد لها من أن ترد الكثير من المرويات، التي تشكل الضوابط المنهجية، للفكر، والمعرفة، والفعل، والتطبيق، والترسانة الثقافية، لحماية فهم الأمة، وامتداد خيريتها.

إن الكثير من مرويات المأثور، الذي رُدَّ، بحجة انها آحاد تفيد الظن، مع انها واردة عن المعصوم، وقد ترجمتها القرون المشهود لها بالخيرية، إلى افعال، والتزمتها في مسالكها... رُدَّ باجتهادات وآراء فردية، وكان الراي والاجتهاد الفردي، متواتر يفيد اليقين!!

واعتقد أن مصطلح خبر الآحاد، وجواز رده، لأنه يفيد علم الظن، قضية لم تطرح في زمن خير القرون، وإنما جاءت متاخرة، فكانت سبيلاً لمحاصرة المرويات ومدلولاتها، وإخراجها من الساحة الفكرية.

كما أن العبث بالمفاهيم، والمصطلحات، لم يقتصر على إلغاء بعض المرويات، التي تتولى بيان الرسول ﷺ للقيم، وكيفيات تنزيلها على الواقع، وإنما تجاوز -عند بعضهم- إلى إلغاء السنة بإطلاق، واعتماد القرآن فقط، بحجة أن نص القرآن متواتر، وأنه تبيان لكل شيء، وأن السنة جاء تدوينها متأخراً، وقد داخلها شيء من الوضع، بسبب الأهواء، ومسايرة السلاطين، والتبس فيها الصحيح بالسقيم، ومعظم مروياتها ضعيف أو موضوع، أو على أحسن الأحوال خبرآحاد يفيد الظن، ولا يفيد اليقين والقطع، على الرغم من خضوع التدوين لأدق الضوابط العلمية.. ومن هنا بدأ الخرق، والخلل الكبير، بل والانحراف الخطير، وأصبح لكل إنسان، حسب فهمه وإدراكه، قرآن وبيان، وألغي من تاريخ الأمة الثقافي والعلمي، الأساس المرجعي، الذي تمثل في السيرة، والخلافة الراشدة، وفهم خير القرون.

ولعل الأخطر من هذا أيضاً، اعتماد بعض المرويات بشكل مستقل، خارج عن وظيفة البيان، وجَعْل السنة حاكمة على القرآن، وناسخه لآياته، وهو النص المتواتر، الذي يفيد علم اليقين، والذي لم يُسمح أثناء نزوله، وكتابته، برواية السنة وتدوينها، حتى لا تختلط بالقرآن، إلا ما كان من إذن خاص لبعض الصحابة، كعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

ولعل من الغرائب والمفارقات حقًا، أنه يُحكم على الحديث بأنه شاذ، إذا خالف فيه الثقة من هو أوثق منه، بينما لا يكون شاذاً ولا مردوداً إذا خالف القرآنَ الثابت بالتواتر، بل يكون ناسخًا للحكم الذي نصَّ عليه القرآن، في رأي بعضهم!!

وهكذا يتطور الخلل، ويتسع الخرق، فتنتقل القدسية من القرآن إلى السنة، ويصبح القرآن عند بعضهم للتبرك فقط، ومن ثم تنقل القدسية من القرآن والسنة، إلى أقوال واجتهادات البشر، بحجة أنها مأخوذة من الكتاب والسنة، وتصبح كل آية أو حديث يخالف ما عليه علماؤنا، فهو مؤول أو منسوخ (أبو الحسين الكرخي، المتوفى سنة ٣٤٠هـ).

لذلك يبقى السبيل إلى استعادة العافية، واسترداد الخيرية: تمثل مفاهيم، ومصطلحات، ومدلولات، ومرتكزات خير القرون، سواءً في مجال المصدرية: الكتاب والسنة، أو في مجال المرجعية (فَهْم خير القرون، المشهود لها من المعصوم).

إن قضية التوحيد، هي قضية النبوة الأولى، عبر تاريخ البشرية الطويل، حيث كان الصراع دائماً متمركزاً حولها، ودائراً في ميدانها، ولقد حذر القرآن والسنة ، من علل التدين، التي لحقت بالأمم السابقة، لذلك كان لا بد باستمرار من اليقظة لقضية التوحيد، وتجديدها، وتجسيدها في المجتمع، وتتبع ما اعترى أصحابها من الإصابات، والتشويه، والخلل، من خلال التتبع العلمي الموثق، ليعود إليها صفاءها ونقاءها، ويعود المسلمون إلى الينابيع الأولى، اقتداءً بمجتمع خير القرون، ليعود التوحيد إلى موقعه ومكانه الصحيح، من العقل المسلم، ويكون محور تفكيره، ودليل ممارسته ، كما ورد في الكتاب والسنة .

إغلاق باب الإجتهاد ..
استدعاء « للآخر »

٢٩٨٧/١٤



أورث الله تعالى الأمةَ المسلمةَ النُّبوةَ والكتابَ الخاتم، الذي أنزلَهُ اللهُ مصدِّقًا لما بين يَديه من الكتاب، ومُهيمنًا عليه.. فجاءَ القرآنُ معيارًا للحق، ومبيِّنًا لما لَحقَ تُراثَ النُّبوةِ، من الإصاباتِ والعللِ، في التدينِ، والتحريفِ في الدِّين، ومُصوِّبًا لمسيرةِ البشريةِ، في تحقيقِ العبوديةِ لله تعالى، ونسخِ الوهياتِ البَشَرِ، التي كانتْ وراءَ الظُّلْمِ الممتدِّ في التاريخِ، مهما كانتْ أشكالُهُ وألوانُهُ، وَمُخْرِجًا الأُمَّةَ الوَسَطَ، التي اكتسبتْ صِفَةَ المِعْيَارِيةِ، بِمَا تَحْمِلُ مِنْ قيمِ السماءِ، لذلكَ كانَ من وظائفِهَا الرئيسةِ، الشهادةُ على النَّاسِ، والقيادةُ لهمْ إلى الخيرِ، قالَ تعالى: ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ (البقرة:١٤٣).

والشهادة على النّاس، والقيادة لهم إلى الخير، إنما تكون بإعادة بناء وتوسيع قاعدة النخبة، التي تشكل خميرة النهوض، وتمثل الطائفة القائمة على الحق، التي لا يضرها من خالفها، حتى يأتي أمر الله، وهي على ذلك.. التي تحرس الحق، وتدافع عنه بكل الوسائل المشروعة، وتقوم بإحياء حسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، التي بها كانت خيرية الأمة، قال تعالى: ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...** ﴾ (آل عمران:١١٠).. تغري بسلوكها، وتثير الاقتداء، وتشكل ميدان تدريب على المعاني الإسلامية، وتضمن التواصل، لعقيدة التوحيد، التي تتجسد في سلوكها وممارستها، وتحاول إشاعتها، في جميع جوانب

الحياة، ولا تتوقف فيها عند تجريدات ذهنية، ومجادلات كلامية، ضمن الغرف المغلقة، وتحاصرها في مربعات ضيقة، قد تذهب بالعمر والأجر معاً.

واعتقد لو اننا ادركنا مقاصد الدين، بشكل صحيح، وابصرنا الأهداف التي نسعى إليها، والتي هي امانة، وتكاليف شرعية، وقول ثقيل، وأحسسنا بمسؤولية التغيير، وإقامة المجتمع الإسلامي، مجتمع التوحيد، بكل أبعاده، لأعدنا النظر بالكثير من مناهجنا، وبرامجنا، ومواردنا الثقافية، ومعاهدنا، ومدارسنا، وممارساتنا، ولادركنا ان الكثير من انشطتنا المتنوعة -إن كانت هناك انشطة- هي ثمرة لعقلية الإرجاء والعطالة، التي ننكرها فكراً، ونقع فيها فعلاً وممارسة.. وأحسب اننا بواقعنا الحالي، نعيش خارج التاريخ، فلو تمثلنا قيمنا في الكتاب والسنة، وميراثنا الثقافي بشكل سليم، لما قبلنا بالواقع ايضاً، ولامتلكنا القدرة على التعامل معه، من خلال قيم الكتاب والسنة، وعطاء عقيدة التوحيد، التعامل مع القيم من خلال مشكلات الواقع، والتفكير في النهوض به.. إننا لا نعيش خارج التاريخ فقط، وإنما نعيش خارج الحاضر والمستقبل أيضاً.. فإذا كان الحاضر هذا حاله، وهو ماضي المستقبل، فكيف سيكون المستقبل؟

إن عقلية الخروج من الواقع، والانسحاب من مشكلاته، الانسحاب من حركة الحياة، وعدم القدرة على المعالجة للإصابات، من خلال عقيدة التوحيد، والتخلي عن مسؤولية التغيير بكل مستلزماتها، والحكم على حركة الحياة وممارساتها من بُعْد، والاكتفاء بعقلية الفتوى بالحلال والحرام، دون ان نكون قادرين على صنع الحلال، والامتناع عن فعل الحرام، سوف يجعلنا نسير خلف

المجتمع، ندفن موتاه، بدل أن نسير أمامه، ونقوده إلى الخير، ونُقَوِّم سلوك أحيائه.

فما القيمة العملية، والأثر الفعلي والسلوكي، لعقيدة التوحيد، التي نفخر بأنها تعني العبودية لله، الواحد الأحد، ونبذ العبوديات، وتعني التحرير والانعتاق، وتعني الولاء الكامل لله تعالى، وتعني حمل أمانة مسؤولية التغيير؟ وما القيمة العملية لامتلاكنا النص السماوي الخاتم، دون غيرنا، إذا لم يُحدث ذلك أثرًا تغييريًا في حياتنا على مختلف الأصعدة؟ فما أيسر أن أقول -أفتي- بأن هذا حرام، وهذا حلال، وما أصعب أن أنخرط في مشكلات الحياة، فأتعامل معها من خلال قيم الكتاب والسنة، فأصنع الحلال، وأمتنع عن فعل الحرام، وأضع خطة، لقيادة المجتمع إلى الخير، والأخذ بيده شيئًا فشيئًا، للالتزام في ضوء قيم الكتاب والسنة، وذلك من خلال إدراك واقع الأمة، ومعرفة إمكاناتها، لتحويلها إلى الحلال، وحجزها عن الحرام.

إن ذلك يقتضي عقلية أخرى.. عقلية استراتيجية، تستشرف الماضي، وتدرك الحاضر، وتبصر المستقبل، في ضوء الظروف المحيطة، والإمكانات المتاحة، فتحدد موقعها بدقة، وتوظف إمكاناتها، وتعرف دورها تمامًا، فتكون لها مجاهدات متنوعة، وتستكمل تخصصات مفقودة، وتجتهد في تنزيل الإسلام على الواقع ،ولا تكتفي بتقديم الفتاوى، والحكم على الواقع من بُعْد، بل قد تقوم أيضاً بجلد المجتهدين في التغيير، بدل تقديم النصح لهم، لتخادع النفس بمشروعيات خيالية، وتخلي مسؤوليتها عن التغيير.

ولعل إغلاق باب الاجتهاد، الذي لا يخرج عن كونه اجتهاداً، هو إعلان لوفاة العقل، ومحاصرة لخلود الشريعة، وامتدادها، وقدرتها على العطاء في كل زمان ومكان، وخروج من الحاضر والمستقبل، وفتح الباب على مصراعيه للغزو الفكري، والثقافي، والقانوني، والاستلاب الحضاري، والتحول إلى تقديس الأشخاص، والتوقف عند اجتهاداتهم، وآرائهم، والدوران في فلكها، شرحاً واختصاراً، وشرح الشرح، واختصار الاختصار، ووضع الحواشي والمتون، ونظم الأراجيز وشرحها، والانسحاب من الواقع الاجتماعي، والبعد عن معالجة مشكلات الأمة، في ضوء قيم الكتاب والسنة، وابتكار شروط وقيود للاجتهاد، مستحيلة الوجود والتحقق، والحجر على فضل الله وقدرته في أن يمنح الأمة، في كل زمان ومكان، القادرين على النظر لمشكلاتها، في ضوء الكتاب والسنة، وامتلاك القدرة على التعامل مع الكتاب والسنة، والنظر فيهما، وتنزيلهما على الواقع، من خلال استيعاب تلك المشكلات.

فالاجتهاد في نهاية المطاف، هو نوع من التفكير، وإعمال العقل في النص الشرعي، ومحاولة الاستهداء به، لتقديم الحلول لمشكلات الواقع، بهدي من خلود الشريعة، ومرونتها، وقدرتها على العطاء.

وهذا الاجتهاد قد يخطئ، وقد يصيب، وسواء أكان خطأ أم صواباً،

فصاحبه مأجور، لإعمال ذهنه، وتفاعله مع نصوص الكتاب والسنة.

والمعروف أن الله سبحانه وتعالى تجاوز عن الخطأ، ولم يعاقب عليه، قال الرسول ﷺ: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه..**» (رواه أحمد، وابن ماجه)، إلا في قضية إعمال العقل، والاجتهاد في نصوص الشريعة، فإن الأمر لم يقتصر على التجاوز، ورفع الخطأ، وإنما يتعدى إلى الثواب عليه، حتى تبقى حركة الفكر مستمرة، والاتصال بالكتاب والسنة دائمًا، ومفتوحًا لكل مسلم، بحسب قدرته واستطاعته.

ذلك أن تعطيل قطاعات كبيرة من المسلمين، عن التفكير، والانفعال بالنصوص، والحكم عليها بالعجز، وعدم امتلاك الأهلية، وجعل القرآن والسنة للنخبة فقط، أمر يتعارض مع أخص خصائص خير القرون، التي كان الانفعال فيها بنصوص الشرع، عامًا وجماهيريًا، ابتداءً من الطفل الذي يُدرَّب على الاجتهاد، ويحضر مجلس شورى الصحابة، والمرأة التي ترد على إمام المسلمين وخليفتهم، وتصوِّب اجتهاده، وحتى خليفة المسلمين.

لقد أدى إغلاق باب الاجتهاد، وإيقاف التفكير، إلى كارثة عقلية، وحوَّل الأمة من التفكير والإبداع، إلى التلقين والتقليد، وعاد بها إلى أدنى وظائف العقل، إلى مراحل العقل الطفولي، القادر على الحفظ، وشحن الذاكرة، منه على التفكير، والتحليل، والنظر، والاجتهاد، حتى باتت مؤسسات التعليم والتربية، والعملية التعليمية بعامة، تقوم على التلقين، وليس تعليم التفكير.. والطالب المتميز، هو ذو الذاكرة القوية، الأكثر حفظًا، الذي يكون نسخة عن أستاذه، وكتابه المدرسي، والأكثر سكونًا وعطالة، والأقل تطلعاً.. والطالب

الشاذ والمشاغب، هو الطالب صاحب الفاعلية والنشاط الذهني، الذي يحاول النظر، والتفكير، والسؤال، والخروج عن الإيقاع العام!! وبذلك ينشأ التقديس للأشخاص، والتعصب لآرائهم، لانعدام القدرة على النظر والموازنة والمقارنة، والإفادة من جميع الآراء، في العودة إلى نصوص الكتاب وا لسنة.

تراجع عصر «الإنسان الذاكرة»!

وهنا قضية، أعتقد أنها أصبحت اليوم على درجة من الأهمية، لأنها شكلت ثورة، قلبت موازين التعليم وطرائقه ووسائله، وهي أن وسائل وتقنيات الحفظ والاسترجاع، قد تطورت تطوراً مذهلاً حقًا، وحملت عن الذاكرة الإنسانية أعباء كبيرة، لتتوفر وتتحول طاقات العقل كلها إلى التفكير والتحليل، والدراسة، والاستنتاج، والاستقراء.. ولم تبق ميزة للإنسان الذاكرة، أو الإنسان (الكاسيت).. وما قيمة المحفوظ، والمباهاة به، إذا لم ينتفع منه؟

وفي تقديري، أن الاجتهاد، حركة أمة كاملة، ومسؤولية أمة، وإنجاز أمة، ومراقبة أمة، لكل فرد فيه نصيب، وذلك للحيلولة دون الانحراف والخروج.. إذ كيف يمكن للمسلم مقارعة المنكر، والقيام بحسبته ـ وهي حسبة عامة ـ إذا كان عاجزاً عن معرفته؟! فإذا لم تتمرن الأمة على النظر والاجتهاد، فسوف

تتحول من حركة المدن، إلى سكون المقابر، تقدِّس أقوال الرجال، الذين غابوا في جوف الماضي، وتطلب منهم الإنقاذ للأحياء، الذين يمتلكون الاختيار والفاعلية ـ لكن يعطلونهما ـ وتعجز عن النظر والامتداد، وتحقيق الخلود والعطاء للإسلام الخالد!

إن التوهم بأن نقد الاجتهاد، والفهم، والتدين، نقدٌ للدين ونصوصه المعصومة، أوجد جواً من الإرهاب الفكري، وصنع عقدة الخوف من الخطأ، حتى أصبحت معظم مؤسساتنا، المسماة بالعلمية والشرعية، تتوهم بأنها تُؤْثِر السلامة، فتقوم على الشحن من الماضي، والتفريغ في الحاضر، والنقل للأقوال فقط، دون القدرة على فرزها ودراستها، وبيان وجهاتها، وتحديد الخلل فيها، والخلوص إلى الحلول المطلوبة للحاضر.

وكم يلحظ الإنسان في المؤلفات الحديثة، وخاصة الرسائل العلمية الجامعية، دقة النقل ـ أو عدم دقته ـ لقال : فلان، وقال : فلان... أمَّا ماذا قال صاحب هذه النقول، فأمر مسكوت عنه.. لذلك فبدل أن تُخصِّب هذه الأقوالُ الفكرَ الاجتهادي، من خلال المقارنات والموازنات، والنظر، والترجيح، تحولت لتوقع الناس في ارتباك وبلبلة، قد توصل إلى الفوضى والضياع، والشتات ، ومن ثم إلى الأحكام الجائرة على التراث.

أما الحجة بأن إغلاق باب الاجتهاد، إنما جاء سداً للذرائع ومنعاً للتطاول على الشريعة، ممن لا يحسنون النظر، حتى لا توظف نصوص الشريعة لحكام الاستبداد السياسي، فإن حكام الاستبداد لم ولن يتوقفوا عن توظيف الشريعة، واستخدامها لتسويغ مسالكهم، وإيجاد المشروعيات لأعمالهم، وقراراتهم،

امام الجماهير المسلمة، حتى إننا لنجد الفتوى، والفتوى المناقضة، في عصر واحد، وقد اصبحت الفتاوى جاهزة، وتحت الطلب ... وهكذا .. فحكام الاستبداد يسمحون لانفسهم الاجتهاد في الدين، وتاويل نصوصه لصالحهم، ولا يسمحون لاحد الاجتهاد في السياسة، لكن الحقيقة التي لابد من إيضاحها، ان مثل تلك الفتاوى، هي ساقطة قبل صدورها، كما نلاحظ، ولا تقنع حتى اصحابها، لان وعي الأمة كفيل بتمييز الغث من السمين، ولم يحل دونها إغلاق باب الاجتهاد.

ذلك ان إغلاق باب الاجتهاد، الذي قُرر، سداً للذريعة، لم يسدها بشكل عملي، وإنما اوتي الحذر من مامنه، كما اسلفنا، حيث لم تتوقف فتاوى السلطان والاستبداد السياسي.. هذا إضافة إلى ان مبدأ سد الذريعة، واعتماده مصدراً للحكم الشرعي، يمثل حالة خاصة، وخاصة جداً، وان تعميمه يعطل الشريعة، ويلغي اثرها في الواقع، وقد يلتقي من حيث النتيجة، مع من زعم بعدم صلاحيتها إلا للزمن الاول.

إن إغلاق باب الاجتهاد، سداً للذريعة، بحجة فساد العصر، تولدت عنه إشكاليات كبيرة كما ألمحنا، ليس اقلها اتهام الشريعة الخالدة بالقصور، والعجز عن معرفة وتقدير الفساد المحتمل.. وفي تقديرنا، ان الله الذي خلق الإنسان والعصر، وانزل الشريعة الخاتمة الخالدة لكل عصر، هو الأعلم بتقلبات العصور والاحوال، وفسادها، وصلاحها.. فتوقيف الاجتهاد، باسم فساد العصر، يؤدي إلى فساد كبير، واتهام ضمني للشريعة ومُنزلها، بالقصور، وعدم تقدير الامور.

ومبدأ سد الذرائع، الذي كان مرتكز إغلاق باب الاجتهاد، على أهميته وضرورته، يبقى حالة خاصة، وخاصة جداً، كما أسلفنا، وليس مبدأ عاماً يمتد حتى يلغي الشريعة ، ويحاصرها باجتهادات ، أو توهمات بشر ، قاصر الفهم، نسبي الإدراك ، موقوت الحياة، محدود العلم.

إضافة إلى أن سد الذرائع، يعني - فيما يعني - إبقاء المجتمع على حاله التي هو عليها من الركود والجمود.. والمسلم مطالب بالاجتهاد المستمر، للارتقاء بالأمة من الحسن إلى الأحسن، ومن الفساد إلى الصلاح.. ولابد أن يتحول التفكير بقدر أكبر من الجدية، إلى تحقيق مبدأ جلب المصالح، والنهوض بالأمة، والاجتهاد لذلك.. أما الانسحاب، والإلغاء، باسم درء المفاسد، فنخشى أن يكون تعميمه لوناً من المفاسد، ومساهمة سلبية في عطالة الأمة، وتوقفها، حتى ولو كان ذلك بحسن نية.

الترجمات.. إصابات فكرية مبكرة

وقد يكون من أخطر الإصابات المبكرة، التي لحقت بالأمة الإسلامية، من الناحية الفكرية والعقدية، وأفسدت على الناس حياتهم، وحالت بينهم، وبين رواء قيم الكتاب والسنة، وسهولة التلقي عنهما للعقيدة، بدون تعقيد، أو فلسفة مفسدة للعقل، والدين ،والفطرة معاً، هي: ترجمة الفكر «الآخر»، الفكر اليوناني إلى العربية، بدل أن يترجم الفكر والقيم والعقيدة الإسلامية،

كما وردت في الكتاب والسنة، إلى اللغات الأخرى، لنشر الإسلام، واستنقاذ الناس، مما هم فيه، من الخلط والتشويه، في العقيدة والعبادة.

ذلك أن دخول علم الكلام على الحياة العقلية الإسلامية، كان -في رأينا- بدء الخلل، والخرق الكبير.. لقد كان وراء نشوء الكثير من الفرق، والمذاهب، والنحل الضالة، وفتح باب التأويل، والخروج بالمعنى عما وضع له اللفظ، ليتوافق مع الأهواء والرغبات.. وبدل أن تكون القيم الإسلامية، في الكتاب والسنة، هي المعيار للقبول، والرفض، ويكون الفكر الوافد، هو مادة البحث وموضوعه، تحوّل الأمر إلى محاولة النظر للإسلام، من خلال القوالب الفلسفية الوافدة، وجرت المحاولات العديدة، لصب الإسلام في هذه القوالب، والحكم عليه من خلالها، فتحول الإسلام من معيار، له صفة الهيمنة، إلى مادة للبحث، وموضوع له، وأصبح المعيار هو الوافد، من فلسفة اليونان والرومان، ففقدت العقيدة رونقها، ورواءها، وتميزها، وربانيتها.

إن الغزو الفكري والعقدي، الذي جاء به علم الكلام، كان وراء إقامة الحواجز الفكرية والنفسية، بين المسلم، والتلقي المباشر من الكتاب والسنة، وتحول الأمر، والنظر، والاجتهاد، إلى تجريدات ذهنية، وقوالب كلامية عقيمة، ورسم بالفراغ، أدت إلى الاختلاف، والتمزق، والتحيز، والتعصب، بدل أن يستمر الائتلاف، والتكامل، والتماسك، والاعتصام بالكتاب والسنة، وأصبحت العقيدة، كما أسلفنا، تجريدات ذهنية، لا نصيب لها من الواقع، أو السلوك.

ولم يقتصر الأمر على ميدان العقيدة، وإنما تجاوز إلى مناهج التفسير،

ومناهج أصول الفقه، وضاعت الأمة بين الردود، والمناقشات، والتشبيه، والتأويل، والتعطيل، والتآكل، والتشرذم، والاستمرار في طحن الماء.

وقد صوّر الإمام الذهبي رحمه الله، ذلك بقوله: «ولا ريب أن بعض علماء النظر، بالغوا في النفي، والرد، والتأويل، والتحريف، والتنزيه -في زعمهم- حتى وقعوا في بدعة، أو في نعت الباري بنعوت المعدوم.. كما أن جماعة من علماء الأثر، بالغوا في الإثبات، وقبول الضعيف، والمنكر أحيانًا... وحصل الشغب، ووقعت البغضاء، وبُدِّع هذا، وكُفِّر هذا، ونعوذ بالله من المراء في الدين، وأن نكفِّر مسلمًا موحدًا بلازم قوله، وهو يفر من ذلك اللازم، وينزه ويعظم الرب جل وعلا...

لقد أفرط بعضهم في نفي التشبيه، حتى قال: إنه تعالى ليس بشيء، وأفرط بعضهم في معنى الإثبات، حتى جعل الخالق مثل خلقه.. نعوذ بالله تعالى من إنكار أحاديث الصفات، فما أوّلها السلف في خير القرون، ولا حرفوا ألفاظها عن مواضعها، بل آمنوا بها، وأقروها، كما جاءت، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، فكان إيمان الأمة وعطاؤها، أقوى وأنفع من إيمان المتفلسفة وعلماء الكلام.

وآيات الصفات وأحاديثها، لم يتعرض السلف لتأويلها أصلاً، وهي أم الدين، ولو كان تأويلها سائغًا أو حتميًا، لبادروا إليه، فعُلم قطعًا أن قراءتها وإقرارها، على ما جاءت به، هو الحق، لا تفسير لها غير ذلك، فنؤمن بذلك، ونسكت اقتداءً بالسلف» (سير أعلام النبلاء، ١٠ / ٥٠٦).

لذلك نقول: إن الإدراك المطلوب اليوم، أو العقلية الاستراتيجية، التي نفتقدها بالأقدار المطلوبة، ونسعى إليها، لم تعد تقتصر على إبصار واقع الأمة ومشكلاتها، والتخطيط لمستقبلها، وإنما تجاوزت إلى الرؤية العالمية، أو الرؤية الإنسانية. ذلك أن الفضاء الحضاري، المطلوب التعامل معه اليوم، تجاوز الدولة، وحتى الأمة، في الوقت الذي لا يرى بعض الناس أبعد من أرنبة أنوفهم، في هذا العصر العالمي.

فكيف نستطيع أن نقول: بأن مثل هؤلاء مدركون، لقيم الكتاب والسنة، مدركون لتراثهم تمامًا، في الوقت الذي نرى أن البُعد العالمي والاستراتيجي، تاريخياً ، ترافق مع نزول الآيات الأولى.. الآيات المكية.. حيث جاء خطابها للناس جميعًا، والعالمين، قبل أن تكون للمسلمين دولة المدينة، أو دولة الجزيرة، أو حتى أي مكان آمن.. وكانت رسائل الرسول ﷺ للملوك والأمراء، خارج النطاق الإقليمي، ووعد الرسول ﷺ أصحابه، الذين ما يزالون في حينها، غير آمنين على أنفسهم، أن يكونوا حملة الخير، والرحمة، والوراثة لحضارة كسرى وقيصر.

لذلك نقول: إن المشكلة الحقيقية، أننا نعيش خارج حركة المجتمع.. خارج الماضي، والحاضر ، والمستقبل .. ولو أبصرنا فعلاً أحد هذه الأبعاد الثلاثة، لقادنا ذلك إلى إبصار البُعديْن الآخريْن.. حيث لا يعقل التخلف في جانب، والإبداع والارتقاء في آخر.. لذلك نرى أن دعوى الانتصار للماضي المتألق، هي دعوى بلا دليل.

نقد التدين.. حماية للدين

وقضية مهمة أخرى، وهي أن نصوص الدين ـ كما هو معلوم ـ معصومة، ومحفوظة، وقد تعهد الله بحفظها، لذلك فإن الإصابة والمشكلة، قد تكون بالفهم والاجتهاد، وتنزيل القيم في الكتاب والسنة، على الواقع، أي في الفهم والتدين، وليس في قيم الدين نفسه.. وأن نقد الفهم والتدين، وتحديد الخلل، واكتشاف علل التدين، ومحاولات التصويب والتجديد، لا يعني النقد، أو الإلغاء، أو المحاصرة، لنصوص الدين في الكتاب والسنة، ذلك أن التدين في نهاية المطاف هو مواضعات، واجتهادات بشرية، يجري عليها الخطأ والصواب، فنقدها لا يعني نقد الدين، وأن الالتباس في هذا الموضوع، أدى إلى مضاعفات وسلبيات خطيرة، وأشاع جواً من التخوف، ومحاصرة حركة العقل، والاجتهاد، والتفكير، وإشاعة الإرهاب الفكري، كما أسلفنا، وأصاب الأمة بحالة من الركود، والتقليد العام، والتخاذل الفكري، وتكريس الأخطاء، واختفاء مَلَكَة النقد.

والناقد، أو الناصح، أو القائم بحسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هو مجتهد، وشريك في عملية البناء، لذلك يجري عليه الخطأ والصواب، كسائر المجتهدين، وله مواصفات، لابد من تحققها، سواء ما يتعلق بحدود المعرفة التي يتعامل معها، وامتلاك الأدوات، والإدراك الكامل لما يقدِّم عليه، لأن الحكم على الشيء، فرع عن تصوره، والنقد حكم وتقويم وشهادة، أو

ما يتعلق بالتزام أخلاق المعرفة وآدابها.. فمن كان آمراً بالمعروف، فليكن أمره بمعروف.

وهنا أمر قد يكون من المفيد التوقف عنده قليلاً، بما يتسع له المجال، وهو أن للنقد والمناصحة بشكل عام، معايير، وموازين، وقيم، وآداب، لا يجوز تجاوزها، حتى لا يتحول البناء إلى هدم، والنقد إلى جلد، والنصيحة إلى فضيحة، والثقافة إلى لون من العبث والتضليل.. وإذا كان هذا هو المنطلق، لممارسة عملية النقد والتقويم بشكل عام، وفي شعب الحياة والمعارف المتنوعة، فهو في نقد، وتقويم التدين، وبيان علله، أشد.. حيث لابد أن يكون المعيار أشد دقة، وصرامة، ووضوحًا، وأن يكون صاحبه عالمًا عدلاً، فالرسول ﷺ يقول: «**يحمل هذا العلم** (قيم الدين)، **من كل خَلَفٍ عُدُولُه، يَنْفُون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين**» (رواه البيهقي).

ولقد اجتهد علماؤنا في وضع بعض الأصول والضوابط لعملية النقد والتقويم، حتى تتحقق المقاصد المطلوبة. يقول سفيان الثوري، رحمه الله: «لا يأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر، إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهىٰ، عدل بما يأمر، عدل بما ينهىٰ، عالم بما يأمر، عالم بما ينهىٰ» (جامع العلوم والحكم، ٢/٢٥٦).

فالإنسان الذي لا علم له بقيم الدين، ولا فقه له بمقاصده، ولا دراية له بفهم القرون المشهود لها بالخيرية، هو إنسان يفتقد مصادر الدين، في الكتاب والسنة، ويفتقد المرجعية للفهم المشهود له بالخيرية، وبذلك هو غير مؤهل لأنْ

يمارس عملية النقد والتقويم، لصور التدين، لأنه فاقد للمعايير والموازين، والفقه بالمصادر والمقاصد.. ويزداد الأمر خطورة، إذا كان الذي يتولى عملية النقد، من منكري الدين والتدين أصلاً، كمثل بعض العلمانيين والماركسيين، الذين ينطلقون من أن الدين -هذا إذا كانوا صادقين، ولم تكن القضية مكراً ومخادعة- شأن شخصي، معزول أو محيَّد، عن واقع الحياة، وتقويم سلوك المجتمع في شتى المجالات.

لذلك فنقدهم لصور التدين، فاقد للأساس، الذي يقوم عليه، قبل فقد الموازين، ونقدهم في الحقيقة ليس لصور التدين، لتنقيتها من المغالاة والانحراف، والتأويل الباطل، كما هو الأصل، وإنما هو هدم للدين أصلاً، لكنهم يجبنون عن مهاجمة الدين، كلون من النفاق الاجتماعي، لأن ذلك يكشف حقيقتهم، ويفضح عمالتهم الثقافية في المجتمع الإسلامي، فيتحولون إلى نقد صور التدين، لتكون وسيلتهم لإلغاء قيم الدين من الحياة، والبرهنة على فساد مسالك أصحابها.. وهذه قضية لابد من التنبه لها، إذ هي في حقيقتها ، ليست نقداً لصور التدين ، واكتشاف العلل ، وإنما هي وسيلة لنقد الدين.

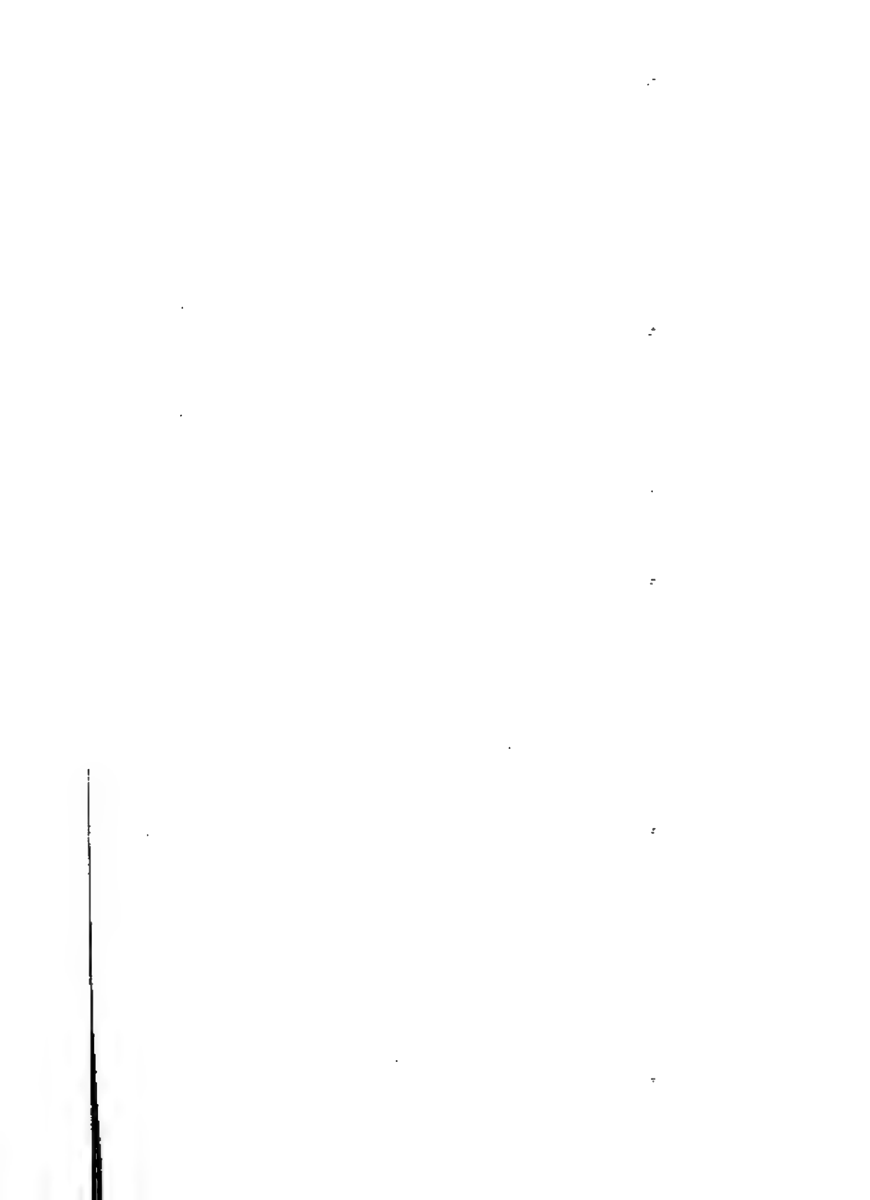
وقد تكون الوسيلة الأخطر في هذا السياق، هو استنبات أشخاص على التربة الإسلامية، وفي الداخل الإسلامي، مهمتهم الأساس، ممارسة علمنة الإسلام، وتقطيع رؤيته الشاملة، وتأويل نصوصه بمنأى عن النظرة الكلية للأمور، وفهم خير القرون، وإخراج قيمه من الساحة، وتغييب مصطلحاته، والعبث بمصادره، ومحاصرة مرجعيته، باسم المعاصرة.. وهذا من أخطر علل

التدين، التي تتم اليوم تحت شعار الاستنارة والمعاصرة، إن لم يكن أخطرها.

وتبقى قضية أخيرة أيضاً، وهي أن النقد، والتقويم، والمراجعة، لا تعني الإلغاء، واختزال التاريخ العلمي، والفكري، والخلقي للشخص محل النقد، والحكم عليه من خلال موقف واحد، أو خطأ في الاجتهاد، ونسيان سائر جهاده، وكسبه، وفضله، والعجز عن النظرة الكلية الشاملة للأمور، والتوازن في الحكم، وإعطاء كل ذي حق حقه.

ولعل المصطلح الإسلامي، في تسمية عملية النقد، والتقويم، والتصويب: (مناصحة) وليس (نقد)، له الكثير من الإيحاءات والدلالات، ليس أقلها الغيرة على المنصوح، وحمل الخير له، والرغبة في تسديده، والشعور بحقوق أخوته، وعدم إسلامه للخطأ والتجاوز، لذلك جعل الرسول ﷺ الدين النصيحة، فقال: «الدين النصيحة». قلنا: لمَن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم» (رواه مسلم).. فالنصح والتقويم، هو من لوازم الإيمان، وصدق التدين، وحق المسلم على المسلم.

قضايا الأمة
وأبعاد التديّن الصّحيح



جعل الله سبحانه وتعالى من لوازم استمرار خيرية الأمة المسلمة، وتميزها عن سائر الأمم، السائدة منها، والبائدة، حمل الحق، والدفاع عنه، ومحاربة الظلم، وحماية المظلومين من الناس، أينما كانوا، فقال: ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ (آل عمران:١١٠)، بل لقد جعل الغاية من النبوات، وعلى الأخص النبوة الخاتمة: إلحاق الرحمة بالناس جميعاً، بالعالمين، قال تعالى: ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وشرع الجهاد وأوجبه، وهو: بذل الجهد، بالنفس والمال، دفاعاً عن الحق، واسترداداً لإنسانية الإنسان، وتحقيقاً لحريته، في الاختيار، والحيلولة دون الفتنة، وحماية للمستضعفين، من الرجال، والنساء، والولدان، فقال تعالى: ﴿ **ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً** ﴾ (النساء:٧٥).

واختار محمداً ﷺ، خاتم الأنبياء، بشراً كسائر البشر، عانى في طفولته، وشبابه، وشيخوخته، معاناة الناس، وعاش همومهم، من اليُتْم، والفقر، والمناخ، والطعام، والشراب، والصحة، والمرض، والعمل عند أهل مكة على قراريط، فجاء رسولاً منهم، من داخلهم، ومن خلال معاناتهم، وظروفهم، وواقعهم، فأدرك مشكلات الناس، فأصبح مؤهلاً لمنحة النبوة: ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ (الأنعام:١٢٤)، ليكون النبي، المنقذ، وأنموذج التغيير،

ومحل الاقتداء والتأسي على الزمن، قال تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضـــلال مبين**﴾ (الجمعة:٢).

وكانت حياته المستمرة، انتصاراً للفقراء والمساكين، ودعاؤه الدائب: «**اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين**» (صحيح، رواه ابن ماجه، والطبراني)، فهو إلى جانب هموم الناس، من الفقراء والمساكين، وفي صفوفهم حياة، وموتًا، وحشراً.

ولعل من اهم ما تميزت به النبوة تاريخيًا، عن الافكار والنظريات والفلسفات الوضعية أنها إيمان وعمل، فكر وفعل، نظرية وتطبيق، شعارات وشعائر، إضافة إلى أنها توفرت على القضية الأولى والأهم، وهي استرداد إنسانية الإنسان، وإخراجه من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان الوضعية والمحرَّفة، إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، كما لخصها رِبْعي بن عامر، رضي الله عنه، ونَسْخ تحكم الطواغيت والظَلَمَة، وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان، وإعلان المساواة الإنسانية، وتقرير وحدة الجنس البشري، وتحطيم فوارق اللون والعِرق والجنس، وسائر الفوارق القسرية والدعوات التعصبية، وجَعْل ميزان الكرامة: التقوى والعمل الصالح.. ذلك أن التقوى أمر كسبي وفرصة متكافئة، الارتقاء إليها بمقدور الناس جميعاً.

فلا عجب إن كانت قضية التحرير، واسترداد إنسانية الإنسان، وتحقيق توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، هي القضية الأولى، والأمر المحوري، الذي دارت عليه النبوة، واستغرق معظم جهودها وجهدها، زمانًا ومكانًا، وسلطانًا وبرهانًا، لأن ذلك كان ولا يزال يشكل نقطة الانطلاق في استرداد الإنسان، محل الدعوة، وتخليصه من العبودية لغير الله،كما أسلفنا، وتحضيره وتأهيله،

والقضاء على قابليات الذل والهوان، حتى يصبح بشراً، سوياً، مكرماً، مؤهلاً لحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال، وأشفقن منها، وحملها الإنسان.. فما قيمة أن يكسب الإنسانُ متاعَ الدنيا، ويخسر نفسه، ومصيره؟!

لذلك بالإمكان القول: إن موضوع النبوة ومحلها، وسبب جهادها، تاريخياً، كان الإنسان، وهموم الإنسان، وقضايا الإنسان، ومصير الإنسان، وتحرير الإنسان من العبودية البشرية، والارتقاء به إلى عبادة الله، وكانت غاية الدين: إقامة الحياة الطيبة، أي أن الدين للحياة، في المعاش والمعاد، قال تعالى: **﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾** (النحل:٩٧).

وكان الإعراض عن الدين، سقوط لإنسانية الإنسان، وعمى في البصيرة، ودخول في حياة الضنك، قال تعالى: **﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾** (طه:١٢٤)، فهو مطموس البصيرة في الدنيا، وأعمىٰ البصر في الحشر والمعاد.

من هنا نقول: إن دعوات، ومحاولات، عزل الدين عن الحياة، وإبعاده عن هموم الناس، والعدول عن أحكامه، وجعله شأنًا شخصيًا، وأمرًا فرديًا مجاله ضمير الإنسان، بعيداً عن مسالكه وممارساته، هو تدمير لشخصية الإنسان، وانشطار بين فكره وقناعاته، وواقعه الذي لا ينتمي إلى هذه القناعات بصلة، بحيث يستمر إنسانًا مأزومًا، عدوانيًا.

إن دعوات عزل الدين عن الحياة، وهموم الناس، ومعالجة مشكلاتهم، والانتصار إلى قضاياهم، هي مؤامرة كبرى على الإنسان نفسه، وعودة إلى

تسليط الإنسان على الإنسان، والتمكين لعبودية البشر، ذلك أن الإنسان هو المخلوق المتدين، كما يرى علماء الاجتماع، فلا إنسان بلا دين، والذي لا يدين دين الحق، فسوف يقع بأديان باطلة.. والذين يحاربون الدين، ويحاولون عزله عن الحياة، بعد أن عجزوا عن استئصاله من الفطرة البشرية، إنما يحاربونه، ليقيموا من أنفسهم آلهه، ويضعوا للناس تشاريع، وأديان، تمكن لهم التسلط، واستلاب إنسانية الإنسان.

فهوم مغلوطة للتدين

والذين يفهمون التدين على أنه انسحاب من الحياة، وابتعاد عن هموم الناس، ومعالجة مشكلاتهم وقضاياهم، والذين يعيشون في المقابر، بدل الحواضر والمدن والحياة، ويؤولون الدين تأويلات جاهلة، تؤدي إلى العطالة والانسحاب، فإن فهمهم بحاجة إلى المراجعة والتصحيح.. والذين يفهمون أن غاية ما في التدين، هو أداء الصلاة، والصيام، والحج... الخ، بعيداً عن المساهمة في قضاء حاجات الناس، ومعالجة مشكلاتهم، ومجاهدة الظلمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن فهمهم بحاجة أيضاً إلى إعادة المراجعة والتقويم.. ولو صاموا، وصلّوا، وحَجُّوا، وزكُّوا، يبقى إيمانهم منقوصاً.

وقد تكون المشكلة، كل المشكلة، بفهمهم ، وظنهم، أن هذه هي صورة وحقيقة التدين المطلوب، بعيداً عن سيرة الرسول ﷺ، وفَهْم خير القرون، وممارساتهم، ولا يكتفون بهذا الفهم المعوج، وإنما يستدلون على صواب تدينهم، بسلامتهم من الأذى والمشكلات، وبُعدهم عن أن تنالهم يد الظلمة،

وتقع بهم الفتنة، دون أن يدروا أن الذي ينسحب من الحياة، ويخرج من الحاضر والمستقبل، هو إنسان خارج الاجتهاد والعقل والتفكير، لا يخطئ ولا يصيب أيضاً، فهو يساوي العدم، لأنه يلغي نفسه، ودوره، ورسالته، ويعيش في المقابر ، لكن مع وقف التنفيذ، أي وقف الدفن، ودليل ذلك أن بعضهم يستغيث ويتوسل بالأموات، ويلتحق بهم، لأنه لايحاسب على ذلك، بل يظن أنهم، وهم الأموات، أكبر قدرة منه على قضاء حاجاته، ومعالجة مشكلاته. وهذا الرصيد السلبي من المتدينين، قد يحقر الإنسان صلاته أمام صلاتهم، وحجه أمام حجهم، وصومه أمام صومهم.

وهذه الظواهر السلبية الخطيرة، في الانسحاب من الدنيا، والخروج من حَمْل هَمّ الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا أدري كيف تنسجم مع الإسلام، الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، لتقويم مسيرة الحياة، ومدافعة الظلم والظالمين، حتى لو كَلَّفَ ذلك الإنسانَ عُنُقَهُ، إذا كانت المدافعة منضبطةً بالضوابط الشرعية، والرسول ﷺ، يقول: «سيد الشهداء: حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه، فقتله» (حديث حسن، رواه الحاكم من حديث جابر)؟! فليست الغاية هنا القتل، وإنما يصبح القتل غاية بحد ذاته، في مرحلة معينة، عندما يحقق يقظة أمة، وفضح الظلم والظالمين.

هذه الظواهر السلبية، من انتقاص في التدين، وانحسار في الفهم، وغياب في الفقه، وإدراك وظيفة الدين في الحياة، ليست جديدة، ولا مبتكرة، فهي موجودة ومستمرة، لكنها تضيق وتتسع، بحسب درجة الوعي الإسلامي.. وهي في النهاية، لون من العلمنة الذاتية للإسلام، أي علمنة الإسلام على يد أهله، وعزله عن الحياة وتقويمها بقيم الإسلام، ليصبح شأناً فردياً، وعلاقة بين

الفرد وربه، بعيداً عن هموم الناس.. وهذا مُبْتَغَى الظلمة، ومحل تشجيعهم وإطرائهم.

وقد لاحظ عبد الله بن المبارك -من تابعي التابعين- العالم، العامل، المجاهد، رحمه الله، هذه الإصابات المبكرة، فلخص حالة التدين، وعوج الفهم الذي بدأ يتسلل إلى المسلمين، ويؤدي إلى انتقاض الإسلام، بقوله:

يَا عَابِدَ الحَرَمَيْنِ لو أبْصَرْتَنَا
لَعَلِمْتَ أنَّكَ في العبادةِ تَلْعَبُ

مَن كَانَ يَخْضِبُ جِيدَهُ بدُمُوعِهِ
فَنُحُورُنا بِدِمَائنا تَتَخَضَّبُ

أو كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ في بَاطِلٍ
فَخُيُولُنا يَومَ الصَّبِيحةِ تَتْعَبُ

رِيحُ العَبِيرِ لَكُمْ، ونَحنُ عَبِيرُنا
رَهْجُ السَّنَابِكِ والغُبَارُ الأَطْيَبُ

ولَقَد أتَانَا مِن مَقَالِ نَبِيِّنَا
قَولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ

لا يَسْتَوي غُبَارُ خَيْلِ اللهِ في
أنْفِ امرِيءٍ ودُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ

هَذَا كِتَابُ اللهِ يَنْطِقُ بيننَا
ليسَ الشهيدُ بميتٍ، لا يُكْذَبُ

حيث تصبح العبادة، لونًا من اللعب والعبث، بعيدة عن حكمتها ومقاصدها، وثمراتها في النفس والمجتمع.. وما أكثر مخادعة النفس اليوم،

بصور من التدين المنقوص ، والعبادة الحسيرة ، حيث يظن الناس معها، وَهْم العافية.

إنه فقه التذلل والخنوع، وعبادة الذل والخضوع أيضًا، بعيداً عن قوله تعالى: ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله** ﴾ (التوبة: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿ **اذهب إلى فرعون أنه طغىٰ** ﴾ (طه: ٢٤).. وهذا بلا شك لون من الغزو الثقافي في المجال الديني، حيث أصبح ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، بعيداً عن قوله تعالى: ﴿ **ولله ملك السموات والأرض** ﴾ (آل عمران: ١٨٩).

ولا شك أن هذا اللون من التدين، يرعاه الظلمة، كما أسلفنا، ويشجعه سَدَنَة الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، ويُرَوِّجُون له، ويمتدحونه، ويعتبرونه معياراً للتدين السليم، ويصورون ما وراءه من المجاهدة والمدافعة، نوعًا من المغالاة، واستغلال الدين وتسييسه، حيث يغيب العلماء العدول العاملون، الذين يحملون العلم الشرعي، وتنشأ طبقة علماء السوء، الذين يدافعون عن الاستبداد، ويتصيدون له المبررات.

ولابد من الاعتراف، أننا نعيش اليوم مرحلة جديدة من قراءة الإسلام، بأبجدية علمانية، ولئن كانت في الماضي، تأتي من الخارج الإسلامي، فتشكل تحديًا، واستفزازًا، يستنفر الأمة، ويجمع طاقاتها، ويقضي على الجوانب الرخوة في حياتها، ويعيد حصانتها، ويجدد شبابها، فهي اليوم، تأتي من الداخل الإسلامي، وتتسلل على يد طبقات من المخرفين، والصوفية المنحرفة، والمرجئين الجدد، بعيداً عن أية مسؤولية تجاه الأمة، فتستوعب هذه الصور من

التدين، وتغري السذج والبسطاء، الذين يخادعون أنفسهم بهذا اللون من التدين الخادع، والاطمئنان الكاذب، البعيد عن أية تبعة، أو على يد مجموعة من فقهاء العصر، أصحاب العقل المستنير!! الذين يحاولون تقطيع الرؤية الإسلامية، والانتقاء منها، ومحاصرتها في أسباب النزول، من حيث الزمان والمكان، واستخدام بعض الآيات والأحاديث، وعلى رأسها، قول الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» (رواه مسلم عن أنس وعائشة)، للتفريق بين الدين، وتعاليمه وعباداته، والدنيا وتشريعاتها وعلاقاتها... بعيداً عن البيان النبوي، وفَهْم خير القرون، وبذلك يفرقون بين الرسول النبي ﷺ، الواجب الاتباع، والرسول الحاكم المجتهد، الذي يخطئ ويصيب، ويقررون أن لا علاقة للوحي باجتهاد الرسول ﷺ كحاكم، لذلك فلا بأس أن يقيم الإنسان الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، في ممارساته الفردية، ومسالكه الشخصية، أما في مجال الحكم والمجتمع، ومعالجة هموم الناس، فليس مطلوباً منه شرعًا الاقتداء بسنة الرسول ﷺ!!

وليس ذلك فقط، حتى في مفهوم العبادة الخاص، يحاولون تقسيم السنن إلى سنة عادة، غير واجبة الاتباع، وسنة عبادة، واجبة الاتباع، أما الضوابط لهذا التمييز، فهي الأمزجة الشخصية، وما يتوهم من المصالح، وليس المناهج والضوابط الشرعية.

استحالة إلغاء الدين!

وهنا قضية تكاد تكون أصبحت من المسلمات، وهي أن إلغاء النزوع إلى الدين، وتبديل خلق الله، ومحاولة اقتلاع الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، قال تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ (الروم: ٣٠)، بات أمراً مستحيلاً، لمن يستقرئ التاريخ، ويقرأ الواقع، على الرغم من كل الممارسات ، التي لا تزال مستمرة.. وما سقوط الاتحاد السوفيتي بأيدلوجياته وفلسفاته، وعودة الإنسان إلى فطرته، التي فطره الله عليها، إلا دليل على أنه لا إنسان بلا دين.

فإذا كانت محاولات إلغاء الدين قد أخفقت، وباءت بالفشل، فلابد من التحول إلى صناعة لون من التدين، يشبع نزوع الناس، ويخدرهم، ويشيع بينهم نوعاً من الاطمئنان الكاذب، دون أن يكون له أي أثر تغييري، أو إيجابي، في حياة الناس، وتقويم سلوكهم بشرع الله.. وفي ضوء ذلك، يمكن أن نفسر تطور الطروحات العلمانية، التي كانت تقوم على مناقضة الدين وإلغائه أصلاً، فتحولت اليوم إلى دعوة لتحييده، وإبعاده عن حكم المجتمع، وجعله شأناً شخصياً، وليس لإلغائه.

ولعل من الصور الخطيرة، والبدع الفكرية، التي بدأت تتسلل إلى العقل المسلم، تحت شعارات وعناوين برَّاقة -ولكل بدعة بريقُها الخادع- لتخرجه من الساحة، ولتطفئ فاعليته، وتفرغها في أوعية نظرية، بعيدة عن هموم الناس، ومعالجة مشكلات الأمة، واستشعار المسؤولية، محاولات إدخال المسلم بدَهَاليز الفلسفة الفكرية والنظريات المعرفية، تحت عناوين : إصلاح مناهج

الفكر! وهي في الحقيقة إفساد للفكر ومناهجه، على حساب مشكلات الأمة الحقيقية والملحة.. إنه الهروب من مقتضيات العقيدة وتبعاتها، إلى دهاليز الفلسفة وغيبوبتها وبرودها، والتحلل من كل الضوابط الشرعية، واحتضان كل أصحاب الأفكار الشاذة، وتمكينهم من المنابر الإسلامية، لاغتيال العمل الإسلامي الجاد.

طروحات ماكرة حول تطبيق الشريعة

وقضية أخرى، يمكن أن تقع في الصميم من هموم الناس، ومشكلاتهم، وقضاياهم، وتقويم مسالكهم بشرع الله، وهي قضية تطبيق الشريعة الإسلامية، أو الدعوة إلى تطبيق الشريعة، والجدل الكلامي، الذي يدور حول ذلك، واللجان المُشَكَّلة، من سنوات، لتحضير المجتمع، لتطبيق الشريعة الإسلامية، وإشفاق بعض الكتاب (الإسلاميين!) ـ إن صح التعبير ـ على دعاة تطبيق الشريعة، وحزنهم على عقولهم الساذجة، الداعية لذلك، واتهامهم بأنهم يمتلكون الدين، ويفتقدون العقل، ووصمهم بقلة الفقه، والعجز عن فهم الواقع، والدراية بتعقيداته ومشكلاته المعقدة، وأن المجتمع لَمَّا يُهَيَّأ بَعْدُ لتطبيق الشريعة الإسلامية، وأن الناس ما يزالون في حاجة وعوز، وخوف واضطراب، فكيف يطبق عليهم حد السرقة، وغير ذلك؟! وكأن الاجتهاد في العدول عن تطبيق الحد، في حالة الشدة، أمر خارج عن التطبيق الشرعي، والدعوة إلى التأني، وتحضير المجتمع، والتدرج، الذي أصبح يعني الوضع في الأدْرَاج!! ولا أدري من أين دخلت علينا هذه المفهومات؟!

فالعدول عن تطبيق الحدود، لوجود المجاعة، وتطبيقها في حالة الكفاية، هو تطبيق للشريعة أيضاً، و ليس أمراً آخر، وكأن الشريعة في نظر هؤلاء الكتاب (الإسلاميين!) لا تساهم ببناء المجتمع الإسلامي وإقامته، وتقويم مسالكه بشرع الله، أو كأن تطبيق الشريعة لا علاقة له بتربية المجتمع، على القيم الإسلامية، والمساهمة بضبط مسيرته، ومعالجة مشكلاته!! وما قيمة التشريعات الإسلامية، إذا لم تساهم بارتقاء المجتمع، وإقامته، و بقيت معطلة مُحنّطة، حتى نقيم المجتمع المؤهل، وفي ضوء أية تربية وشريعة نؤهل المجتمع، حتى يصبح قابلاً لتطبيق الشريعة، ثم نطلب من الشريعة الإسلامية، أن تشرف لاستلام المجتمع، الذي أصبح كل شيء فيه جاهزاً؟ ولا أدري، ما هي مقومات تجهيز المجتمع، وتأهيله بعيداً عن إقامة شرع الله؟!

ولا أرى نفسي بحاجة إلى إيراد النصوص الشرعية –وما أكثرها– التي تبين البعد النفسي، والأمني، والتربوي، والاجتماعي، والسياسي، لتطبيق الشريعة، واستنقاذ الناس من معاناتهم، وما يقع عليهم من ظلم القوانين الجائرة، التي تكرس البُعد عن الإسلام، ولا تسهم بتحضير المجتمع لتطبيق الشريعة، ويكفي الإشارة إلى حديث النبي ﷺ، الذي أكد فيه أن: **«إقامة حَدٍّ من حُدود الله، خيرٌ من مَطرِ أربعين ليلةً في بلاد الله»** (رواه ابن ماجه عن ابن عمر).

لذلك أرى بأن المشكلات تزداد تفاقماً، والمجتمع يزداد ابتعاداً، وجنوحاً، واستيلاباً، كلما أقصيت الشريعة الإسلامية، أو تأخر تطبيقها، لأنها تساهم في إقامة المجتمع الإسلامي، وحمايته في الوقت نفسه، وعلى الأخص إذا عرفنا أن الشريعة لا تعني فقط العقوبات، من حدود وتعزيرات، على الرغم من الدور التربوي والبنائي، الذي لا يمكن إنكاره لهذه العقوبات، وإنما تعني شريعة الله

الشاملة لحياة الفرد والمجتمع، والتعامل معه من خلال الحالة والاستطاعة التي هو عليها.

ولا أدري من حيث النتيجة، ما الفرق بين من يقول: بأن الشريعة الإسلامية إنما جاءت لمعالجة مشكلات عصر ماضٍ، وأنها لا تصلح للمجتمعات المعاصرة، بعد أن تطورت، وتعقدت مشكلاتها، وبين من يقول: بأن المجتمعات المعاصرة، بعد أن تطورت، وتعقدت مشكلاتها، لا تصلح لتطبيق الشريعة، إلا بعد إعادة التأهيل والتحضير؟ إلا إذا كان الفرق أن بعض هذه الأصوات تخرج من الداخل الإسلامي، وبعضها الآخر يأتي من الخارج الإسلامي، ليؤدي النتيجة نفسها، بحيث يُلغى الإسلام، بشتى المعاذير، ويعمل على إخراجه من الحواضر إلى المقابر.

إن إقصاء الشريعة عن واقع الحياة، ومعالجة هموم الناس، هو - كما أسلفنا - تحييدٌ للدين، ليصبح شأنًا فرديًا، بعيدًا عن حكم الواقع، ووقوعٌ في التطبيق العلماني، الذي نتنكر له نظريًا، ونمارسه عمليًا، حيث نكتفي بالمساحات البسيطة على هوامش المجتمع، ويملك غيرنا قيادة المجتمع.

أما مقولة: (خذوا الإسلام جملة، أو دَعُوه)، فلنا معها وقفة بسيطة، بما يتسع له المقام هنا، وهي أنه مما لا شك فيه، أن الذي ينكر شيئًا من الدين، مما توافرت له شروط وضوابط النقل الصحيح، يعتبر كافرًا بالدين كله، قال تعالى: **﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾** (البقرة:٨٥).

وقال تعالى: **﴿ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك**

فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ (المائدة:٤٩-٥٠).

وقال تعالى: ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ (آل عمران:١١٩)، ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ (الأنفال:٣٩).

فمقولة: (خذوا الإسلام جملة، أو دَعُوه) إذن هي صحيحة، ودقيقة، على مستوى الإيمان والتصور، وشمولية الرؤية، التي لابد أن يتوفر عليها المسلم، حتى ولو لم يمتلك الاستطاعة، التي تمكنه من القيام بالتكاليف كلها، في مرحلة أو مراحل من حياته، لأن المسلم متعبد باستطاعته، قال تعالى: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ (التغابن:١٦)، لذلك نرى أن التزام هذه المقولة بإطلاق، في المجال التطبيقي، يناقض استطاعة الإنسان، ويكلفه بما لا يطيق، ويناقض السنن الاجتماعية في التدرج في البناء، ويناقض مسيرة المنهج النبوي، ووضع لبناته، حتى الوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال.. لكن الذي نريد قوله: إننا ونحن نعيد البناء، في ضوء الظروف المحيطة، والإمكانات المتاحة، لابد لنا باستمرار من استصحاب الرؤية الشاملة، ومرحلة الكمال المراد بلوغها، وعدم اعتبار ما نحن عليه، يمثل الحالة النهائية المطلوبة، وإلا ساهمنا سلبياً، في إبعاد الإسلام عن إمكانية التنزيل على الواقع، ووقعنا بتقطيع الصورة الإسلامية، وتبعيضها، كما فعل أهل الكتاب، وقد حذرنا الله من الوقوع في علل تدينهم.

من البرامج المفقودة.. إلى البرامج المستوردة

وقضية أخرى، لعلها تعتبر من أخطر المداخل على الإسلاميين، ودعاة تطبيق الشريعة اليوم، واعتبار هذا التطبيق هو العلاج الوحيد، أو الحل الوحيد، لحمل هموم الناس، ومعالجة مشكلاتهم، وهي أن الإسلاميين يفتقدون البرامج التفصيلية، والمشروعات الجاهزة، لمعالجة قضايا الأمة، في المجالات التربوية، والاقتصادية، والاجتماعية، التي يقدمونها للأمة، وإن امتلكوا المبادئ والقيم العامة، الأمر الذي يعني عجزهم، وعدم قدرتهم على حمل هموم الناس، ومعالجة مشكلاتهم، وقيادة المجتمع إلى المقاصد الإسلامية، مما يجعل دعواهم للحل الإسلامي، نوعًا من استغلال الدين، لأنهم بدل أن يفكروا بوضع البرامج المحددة والمدروسة، يقدمون للناس عبارات فضفاضة، وعموميات، لا تسمن ولا تغني من جوع، وإنما تعني المتاجرة بآلام الناس، دون القدرة على معالجة مشكلاتهم.. فمشكلات الناس، تعني الالتحام بهم، وتقديم برامج مدروسة، بعيداً عن إثارة العواطف، ومخاطبتهم من على المنابر فقط.

وهذا الكلام، فيه القليل من الحق، والكثير من التجني، فالحق القليل الذي فيه، أنه فعلاً لابد لدعاة الإسلام من النزول إلى المجتمع، والانخراط في قضاياه، والمساهمة بحل مشكلاته، في ضوء رؤية إسلامية، يتحقق لها فقه الحكم الشرعي، وفهم الواقع البشري، محل الحكم.. فالحضور في كل المواقع، والنفرة إلى كل الثغور، وتعلم العمل إلى جانب تعلم العلم، وتحقيق الاختصاص، له فقهه الميداني، وفوائده الفكرية والتربوية.. إنه فقه الواقع، الذي لا يغني عنه فقه النص، وإنما يدعو إليه.. ويكاد الإنسان لايقبل بعد

اليوم، القول: بأن الاقتصار على حفظ النص، وعدم الفقه بمقاصده، وتنزيله على الواقع، هو فقه فعلاً، لأن فهم الواقع من لوازم فقه النص.

لذلك، فبمجرد أن نقول للناس: إن سبب مشكلاتهم وهمومهم، هو البعد عن الإسلام، وأن الحل الإسلامي، هو العلاج لكل مشكلاتهم، دون أن ننزل من على المنبر، ونأخذ بأيديهم، في ضوء مناهج وبرامج مدروسة، للعودة للإسلام، في ضوء إمكاناتهم، أو استطاعاتهم المتاحة، وظروفهم المحيطة، يصبح كلامنا دعوى بلا دليل، وكأننا نوبخ أنفسنا، ونكرر ذلك في خطبة الجمعة، كل أسبوع، وكل كتاب يصدر جديداً.. ونخشى أن نقول: إذا تأخر تقديم الخطط والبرامج، ورسم طريق العودة للإسلام، بعد الانسلاخ منه، والاكتفاء بإطلاق الشعارات، سوف يقود إلى سلبيات كثيرة، ليس أقلها إجهاض الشعار نفسه، وتراجع الإيمان، والتصديق به عملياً.

وأما الكثير من التجني، والظلم، فهو في ادعاء خصوم الدعاة إلى الإسلام، بأن الإسلاميين يفتقدون الخطط والبرامج الإسلامية، التي يقدمونها للناس، لحمل همومهم، وحل مشكلاتهم.. فيمكن أن يعتبر الأمر مقبولاً، نوعاً ما، لو أن خصوم الإسلاميين، كانوا الأقدر والأجدر، وتقدموا للأمة ببرامج وخطط، لحل مشكلاتها، الأمر الذي يخولهم احتلال قيادة المجتمع، والمسك بزمام الأمور، بجدارة، وليس بزيف وبهتان، لكن البلاء هنا أعظم بكثير، من الفقر بالبرامج، والمناهج، لأن حالهم أشبه بحال الفقير المتكبر..

إنهم يفاخرون ببرامج، ومناهج مستوردة ومنقولة من «الآخر»، دون أن يكون لهم حتى القدرة على النظر فيها، والاختيار منها، واختبار مدى ملاءمتها للأمة، لذلك زادوا الأمة خبالاً، وتخلفاً فكرياً، وقتلوا فيها، حتى قابلية

النهوض مستقبلاً ـ في حين استطاع الإسلاميون الاحتفاظ بقابلية النهوض على الأقل ـ لأن ما استوردوه من المناهج والخطط والبرامج بشكل أعمىٰ، جاء مناقضًا لمعادلة الأمة الاجتماعية، ومجافيًا لروحها، وغريبًا عن ثقافتها وقيمها، ومصطدمًا بشخصيتها الحضارية، لذلك كرّس التخلف، وليس ذلك فقط، إنما أفقد الأمة القابلية، وإمكانية النهوض، وجعلها رهينة لحضارة «الآخر».

وفي تقديري، أن الارتهان، الذي نعاني منه اليوم، على مختلف الأصعدة، الثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والتعليمية، والقانونية، وهذا السيل الدافق علينا من كل جانب، والذي يكاد يأتي على ثوابتنا، ويهدد هويتنا، ويقدم البرامج والمناهج ، لمعالجة قضايانا، ومشكلاتنا، وهمومنا – أو بتعبير آخر: يداوينا بالتي كانت هي الداء – إنما تمدد في مجتمعنا، واحتل أمتنا، بسبب الفراغ، والعقم عن الإنتاج، وانطفاء الفاعلية، والانسحاب من المواقع الفاعلة، والابتعاد عن هموم الناس ومشكلات المجتمع، وإخلاء المكان «للآخر».. لقد أصبحنا أشبه بالأرض الواطئة، التي بسبب من تدنيها وانخفاضها، تصير محلاً لكل ما يُلقىٰ فيها من قاذورات الأمم، وهي بطبيعتها، وخبالها الذي انتهت إليه، عاجزة عن العطاء، ومؤهلة للأخذ، وهذه سنة الله في العمران، والاجتماع البشري.

ولا شك أن هذه الحال التي نحن عليها، لم تأت بالمصادفة، فكل شيء بقدر، ولا هي وليدة يوم وليلة، وإنما ثمرة لمقدمات وتُحضيرات، طويلة المدة، بعيدة المدى، توضعت في جسم الأمة، وأزمنت، بسبب غياب فقه أسباب السقوط والنهوض، وإصابة النخبة، والتخلي عن المسؤولية، ودمار شبكة العلاقات الاجتماعية، لقد أصبحت الأمة كالغَنَم في الليلة الشاتية..

الإصابات.. من عائق إلى محرِّض

والحقيقة التي لابد من ذكرها هنا: أن هذه الإصابات بقدر ما هي معوقات وعقبات ثقيلة، وإصابات بالغة، تعيق النهوض، بقدر ما يمكن ان تتحول لتشكل تحديات واستفزازات، تستنفرُ هِمَم الأمة، وتجمع قواها، وتشحذ فاعليتها، وتمكنها من الإقلاع من جديد، استئنافًا لدورة حضارية عالمية أخرى، أصبح العالم مهيأ لها، بعد سقوط إنسانية الإنسان، في حضارات التسلط، والإرهاب، والاستعمار، والعنصرية .. ذلك أن النظرة التحليلية للعالم اليوم، والتوغل في أعماقه، بعيداً عن السطوح، وفي حقائقه بعيداً عن الصور المصنوعة، تؤكد لنا ان الواقع العالمي، اصبح يتطلع للحضارة، التي تسترد إنسانية الإنسان، وتنادي بالمساواة، ووحدة الجنس البشري، وتوقف تسلط وعبودية الإنسان للإنسان.. يتطلع لحضارة إنسانية فعلاً، في مبادئها، وتاريخها، وممارساتها.

ولست بحاجة إلى العودة إلى ذكر مقومات وسمات الخلود، وعوامل الإمكان المستمرة، للإقلاع الحضاري من جديد، وقد أتيت على ذكر بعض من معالمه، في البحث الأول من هذا الكتاب، لكن الذي يتأمل دورات السقوط والنهوض، وتداول الأيام بين الناس، وقدرة الأمة المسلمة على النهوض، أكثر من مرة، بعد الظن أنه تُوُدِّع منها، يدرك تمامًا مقومات النهوض، وسننه المستمدة والخالدة، التي يمتلكها هذا الدين.

وقد تكون المشكلة ،كل المشكلة اليوم، ليست بعملية إقصاء المسلمين عن دينهم، أو فصل دينهم عن حياتهم، وقد باءت تلك المحاولات -تاريخيًا- جميعها بالفشل، وانقلب فيها السحر على الساحر، وليس ذلك فقط، وإنما تحولت تلك المحاولات، لتكون وسيلة تحريض، وعامل وعي، وأداة استفزاز وتحدي، واستشعار الخطر، الأمر الذي أدى إلى العودة للذات، والتشبث بها من الاقتلاع، والاحتماء بالشخصية التاريخية الحضارية.. ويبقى المطلوب: كيفية الإفادة من هذه العودة، حتى لا تبقى دفقات حماس وتوثب فقط...

وإنما المشكلة الخطيرة اليوم ، هي في قطع النصوص الشرعية عن سياقها، وتفسيرها، وتوظيفها، من خلال مناخ التخلف، وحالات الهبوط.. فبدل أن تكون الآيات والأحاديث، عامل نهوض وفاعلية، تحولت لتصبح مسوغًا لحالة التخاذل، ولتوجد مشروعية للهبوط، وذلك بالتأويل الجاهل، والانتحال الباطل، والتحريف الغالي.. وبدل أن يكون الاجتهاد لإيجاد الحلول، وكيفية التعامل مع المشكلات، وتقديم برامج الحل الإسلامي، لقضايا وهموم الناس، أصبح سبيلاً للعثور على التبريرات، وإيجاد الذرائع، لتكريس الواقع الظالم، والدفاع عن مشروعيته.. وبدل أن يصبح هوانا تبعًا لما جاء به الإسلام، جعَلْنا ما جاء به الإسلام تبعًا لهوانا! والعياذ بالله! والرسول ﷺ، يقول: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»** (رواه الخطيب البغدادي في تاريخه ، والبغوي في شرح السنة).

ذلك أن التدين الصحيح، هو التكيف مع مقتضيات الدين وأحكامه،

وتقويم سلوك المجتمع بها، وليس تكييف نصوص الدين، لتوافق هوىٰ الناس، ورغبة الظلمة المتسلطين.

نعود إلى القول: بأن النبوة بشكل عام، والنبوة الخاتمة بشكل أخص، ما جاءت إلا لإنقاذ الناس، وإلحاق الرحمة بهم، في معاشهم ومعادهم، حتى لقد اعتبر الإسلام، نفع الناس، وتحقيق مصالحهم، وتفريج كربهم، وتقديم الخير والإحسان إليهم، هو المعيار لحب الله ورضاه: «**أحبُّ العبادِ إلى اللهِ تعالىٰ، أنفعُهُم لعيَالِه**» (رواه عبد الله في زوائد الزهد، عن الحسن مرسلاً، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع).. ولم يقتصر الرفق والنفع على الخلق من الناس، وإنما تجاوز إلى استشعار المسؤولية عن الحيوان.. ولا يتسع المجال، لإيراد الأمثلة، وحسبنا أن نُذكّر بحديث الرسول ﷺ: «...**في كُلِّ كَبِدٍ رَطبةٍ أجر**» (متفق عليه).

وجعل الرسول ﷺ الدين المعاملة، والدين النصيحة، والبر حسن الخلق، لذلك كان التدين عطاءاً مستمراً، وإيثاراً مستمراً، وإحساناً مستمراً، وعفواً مستمراً، وحبًّا مستمراً، ورحمةً دائمةً.. والمسلم الحق، هو إنسان الاحتساب، الذي يبتغي بعمله وجه الله وثوابه، ولا يربط عمله بجزاء الدنيا، ولا يحبط ويرتكس إذا لم يتحقق له الجزاء الدنيوي.. إنه إنسان الواجب، الذي لا يرى رسالته إلا في العطاء، وفي ميزانه: الأكرم هو الأتقى، والأتقى هو الأكرم.. الإنسان الحق، إنسان الإنتاج، لا إنسان الاستهلاك، يبذل ماله وروحه جهاداً في سبيل رفع الظلم، وتحرير الإنسان.

الصراع بين الملأ والقوم

والمسلم الحق، هو الذي يلتصق بهموم الناس، لا يغادرها، ولاينفصل عنها، متأسيًا بالرسول القدوة ﷺ، الذي بعثه الله رسولاً من مجتمعه وقومه، حتى كان لا يتميز عنهم بطعام، أو لباس، أو مجلس، أو هيئة، ولا يترفع بمسكن، أو نفقة، نشأ فيهم، وبقي منهم، إذا جاءه السائلُ، لا يميزه من قومه، بل يسأل: أيكم محمد؟ وكانت وصاياه المستمرة:

«لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله» (رواه البخاري عن عمر)

«إن كنتم آنفًا، تفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا...» (رواه النسائي وابن ماجه عن جابر)

«هوِّن عليك، فإني لستُ بملِكٍ، إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قُرَيْشٍ، كانت تأْكُلُ القَدِيد» (رواه ابن ماجه والحاكم، عن أبي مسعود البدري).

وكان التسديد من السماء، لخطوات النبوة، ودورها الفاعل في تقويم المجتمع بشرع الله، مستمراً: **﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾** (الكهف:٢٨).

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ (الأنعام:٥٢).

وكان عليه الصلاة والسلام، دائم الانتصار والالتصاق بالفقراء والمساكين، يعتبرهم كيان المجتمع، وأدوات إنتاجه، ووسائل حمايته، وكان يقول عليه الصلاة والسلام: « ... **هل تُنصَرون وتُرزَقُون إلا بضعفائكم؟!** » (رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص).

إن الفقراء، عدة الإنتاج وسواعده ،في السِّلم، وعدة الدفاع ورجاله، في الخوف والحرب، في الوقت الذي كان ﷺ فيه، يعتبر ان الانفصال عن الناس، والانغماس في الرفه والترف، طريق السقوط والانقراض، ويحذر من الكبر، الذي هو «**بَطَر الحقِ، وغَمْط الناس**» (رواه مسلم عن ابن مسعود).

وإن الفِسْقَ والبَطَرَ سببُ الدمار، قال تعالى: ﴿ **وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمَّرناها تدميراً** ﴾ (الإسراء: ١٦).

والصراع تاريخيًا كان -ولا يزال- بين (الملأ) المترف، المستأثر بكل شيء، الظالم، المتسلط، وبين جمهور الناس (القوم)، وأن النبوة كانت دائمًا في مواجهة مع (الملأ)، حتى حولت الصراع والتآكل والحقد، إلى حب وتعاون وتكافل.

والأمر لم يقتصر، في الإسلام، على إيقاظ الوازع الداخلي، وتربية الضمير، وتنمية الحس بالآخرين فقط، وإنما تجاوز إلى وضع التشريعات الملزمة، لتحقيق التكافل الاجتماعي، على كل الأصعدة، التربوية، والنفسية، والمادية، والسياسية... الخ، بل لقد جعل تحقيق التكافل الاجتماعي، احد اركان الإسلام.. فالزكاة والصدقات، والنفقات الواجبة، وتحريم الفَضْل في ساعات الشدة، كما قال أبو سعيد الخدري: «حتى رأينا انه لا حق لأحدنا في فضل»

(رواه مسلم)، يدل على أن النبوة إنَّما بُعثت في الناس، وللناس.

ولا أدري ضمن إطار أي منطلق، أو أي مفهوم للتدين، يحق لدعاة الإسلام أن ينسحبوا من الساحة، ويغادروا هموم الناس، ولايواجهون (الملأ)، بالوسائل المتاحة والمشروعة، وهم يحاولون السير على قدم النبوة؟! ومن سيبقى محل دعوتهم، إذا افتقدوا (القوم)، أو جماهير الناس؟ وما قيمة ما يحملون من قيم ومبادئ عمليًا، إذا لم يحولوها إلى برامج وخطط، تنفع وتسهم بمعالجة مشكلات الناس، وتقويم سلوكهم بقيم الإسلام، وبذلك إنقاذهم ، وإلحاق الرحمة بهم ؟ وكيف إذا انسحبوا من المجتمع ، ولم يتعرفوا إلى قضاياه ومشكلاته، يمكنهم أن يتعاملوا معه؟ وكيف يُصَدِّقُ الناسُ عمليًا، أن الإسلام هو الحل، ما لم نتقدم به، ونتمثله، ونقدم حلولاً لمشكلات الناس، في ضوئه؟

ومع شديد الأسف، فإن الكثير من المؤسسات والجمعيات والمنظمات الدعوية الإسلامية، لسبب أو لآخر، أصبحت خارج الواقع، وخارج الحاضر، وخارج هموم الناس ومشكلاتهم.. أصبحت تشكل أجسامًا منفصلة، وأهدافًا خاصة منفصلة عن أهداف الأمة العامة، حتى إنها تدعي التميز عن جسم الأمة، الأمر الذي سوف يوقعها في الشِرَاك المنصوبة لها، ويجعل منها طوائف منفصلة، ودوائر مغلقة، تعكف على خاصة نفسها، وتعجب بفكرها، ولا ترى إلا تراثها وتاريخها، مما يسهل عزلها عن ضمير الأمة، ومحاصرتها، وضربها، أو على الأقل إلغاءها.

لذلك نقول: إن محاولات إبعادها عن الأمة، وإخراجها من الساحة، ومحاصرتها بالتهم الباطلة، إنما هي لشل حركتها، وتسهيل ضربها، بعيداً، حتى لا يحس بإصاباتها جسم الأمة.

ولعل فلسفة الانسحاب من المجتمع، ومحاولة إيجاد المشروعية، لتولية الدبُر، لهذا الانسحاب من الدوائر الاجتماعية المتاحة، هو الأخطر اليوم، حيث بدأ بعض الدعاة، يتوهم أنهم، إذا انخرطوا في هموم الناس، فسوف يقومون بوظائف الدولة، التي تتنكر للإسلام، نيابة عنها، مما يمكن أن يصبح إعانة لها، وتقوية لسلطانها، خاصة بعدما برزت صورة الدول، والأنظمة الشمولية، التي تتدخل في كل شيء، وتحاول امتلاك كل شيء، وتأميم كل شيء، حتى التفكير بتأميم الإنسان، لصالح النظام، وتحويل الناس إلى موظفين، وأَكَلَة على مائدة السلطان.

وفي اعتقادي، أن ذلك كله، لا يعفي دعاة الإسلام، من حمل المسؤولية، والالتصاق بهموم الناس، بل أرى أنه كلما اشتد الحال، كلما ازدادت المسؤولية، وليس العكس.

أما محاولة محاصرة الدعاة الإسلاميين اليوم، بحجة أنه لا حاجة لمؤسساتهم ومنظماتهم، لأن المجتمع كله مسلم، فهي حجة متهافتة، متناقضة مع نصوص الكتاب والسنة، ويدفعها الواقع والممارسة.

إضافة إلى أنها يمكن أن تنسحب على المؤسسات والمنظمات الوطنية، والشعبية، والقومية، غير الإسلامية، وهذا ما لم يقل به أحد.

والعجيب الغريب في عالمنا الإسلامي، أو في بعضه على الأقل، أن منطق الدولة الشمولية، انحسر وتراجع في العالم كله، وأصبح كل شيء يخضع للمنطق الليبرالي، أو اقتصاد السوق، إن صح التعبير، المصطلح الذي بدأ يفسر الحالة الثقافية، والسياسية، والاقتصادية على سواء.

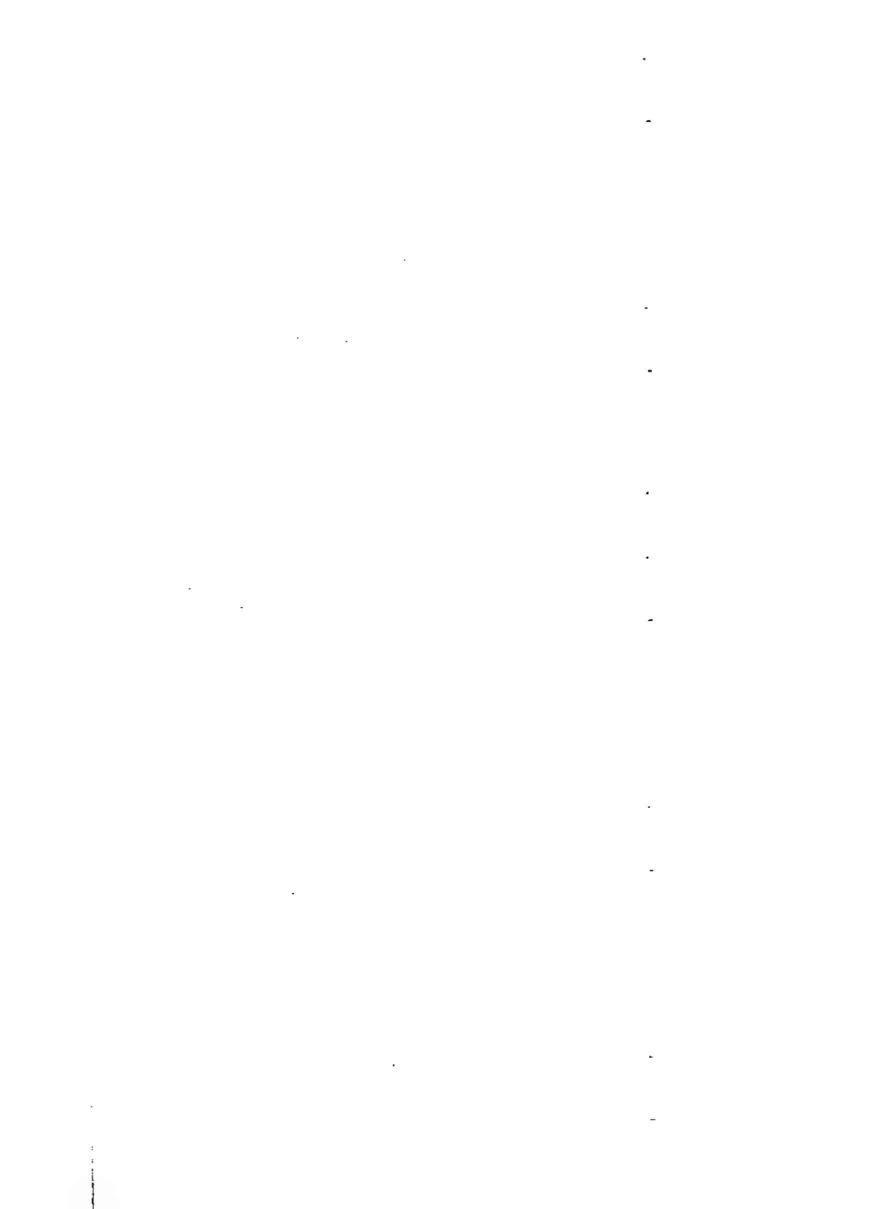
وأصبح المنطق الليبرالي، وسيلة لإباحة، وحرية كل شيء، وإخضاعه

للمنافسة.. لكن في المجال الإسلامي فقط، دون سواه، ما يزال يتحكم فينا عقل الأنظمة الشمولية.

والمخرج – والله أعلم – هو المبادرة بالأعمال الصالحة، وتحويل الفكر إلى فعل، والشعار إلى شعيرة، والانتقال إلى مرحلة التفكير والتربية، من أجل التغيير، والعودة إلى التجديد، والاجتهاد في الميدان، وليس من وراء المكاتب وفوق المنابر، والعودة إلى الناس، محل الدعوة وميدانها، وتربتها الصالحة للغرس، وامتلاك القدرة على الخروج من الحصار بالوسائل المشروعة، بعيداً عن اي تشنج، أو تعصب، أو انفلات من الضوابط الشرعية، وتقديم الإنسان الأنموذج، الذي يثير الاقتداء بعلمه وعمله وسلوكه.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

عندما تصبح النخبة هي المشكلة !



مسؤولية القيام بأمر هذا الدين الخاتم، يقتضي الحراسة الدائمة لقيمه، من تحريف الغلاة، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريك إمكانات التجديد، وإحياء مقوماته، وتحرير مفهومه، ومصطلحه، وتنمية المسؤولية به عند كل مسلم، ليمارس دوره بالقدر الذي يستطيعه، ومن خلال الثغر الذي يقف من ورائه، ليصبح التجديد ثقافة عامة، لكلٍ فيها نصيب، إلى جانب كونه تكليفاً شرعياً، وفرضاً حضارياً، للعودة إلى ينابيع التلقي في الكتاب والسنة، وتقويم سلوك المجتمع بها، ونفي نوابت السوء التي لحقت بها، وإعادة المعايرة والمراجعة للواقع الاجتماعي، وما ترسب فيه من تقاليد، وعادات، قد تكون جانحة عن التعاليم الواردة في الكتاب والسنة، والتطبيقات والتنزيلات على الواقع، المتمثلة في سيرة الرسول ﷺ وممارسة خير القرون، وإحياء الأنموذج المسدد بالوحي، والمؤيد به، ليكون محل القدوة، وإلغاء الاقتداء بالنماذج البشرية التي يجرى عليها الخطأ والصواب، انضباطاً بالتكليف الشرعي: ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ (الأحزاب: ٢١)، وسداً لذريعة استرداد الأصنام مرة أخرى، بصورة بشرية، ولو ادعى المقتدون بها، أنها تقربهم إلى الله زلفى، فيتحول بها المسلم، من معرفة الأشخاص بالحق، إلى معرفة الحق بالأشخاص، وما يحمل ذلك من مخاطر الانحراف والتحريف، والمغالاة، والتأويل الفاسد .

ذلك أن قول الرسول ﷺ: «**يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها - أو دينها -**» (أخرجه أبو داود، في الملاحم)، لا يقتصر - فيما نرى - على جانب إخبار المعصوم، وإنما يعني فيما يعنيه، التكليف بالاجتهاد والتجديد . .

وتجديد الدين، أو أمر الدين، والعودة بمفهوماته إلى الينابيع الأولى، ونفي البدع، ونوابت السوء، لا يخص فرداً، أو جماعة، أو عصراً، أو منطقة، أو جنساً بشرياً، وإنما يعم.. فهو مسؤولية جماعية، تضامنية، وفرض كفائي في المواقع والثغور المتعددة.

واعتقد – والله أعلم – أن المقصود بتجديد الدين، أو تجديد أمر الدين –على اختلاف الرواية– هو تجديد التدين، وإعادته إلى الجادة، بعد ما يمكن أن يكون ناله من الزيادة، أو الانتقاص، أو المغالاة، أو الغياب لبعض المعاني، والمسالك الأخلاقية، أو الركود، وفتور الهمم، وانخفاض أقدار التدين، وانطفاء الفاعلية، بسبب الإلف، وترسب العادات والتقاليد، لأن قيم الدين مكتملة، وكاملة، ومحفوظة بحفظ الله لها، وخالدة، ومجردة عن حدود الزمان والمكان، لكن أقدار التدين والالتزام، هي التي ينالها ما ينالها من الإصابات، والسقوط، والنهوض، والضعف، والنسيان، وغياب العزم، ومضي سنة التدافع البشري، والتداول الحضاري.

فالتجديد من لوازم الخلود والخاتمية.. والتجديد للتدين، وليس للدين.. والتجديد إعادة معايرة الواقع، لتحديد مواطن الإصابة.. والتجديد تقويم للواقع بشرع الله، وامتلاك القدرة على وضع الخطط والاستراتيجيات، من خلال استصحاب الواقع، وفي ضوء المعايير الثابتة في الكتاب والسنة والسيرة، ورؤية القيم في الكتاب والسنة والسيرة، والاجتهاد في محل تنزيلها، من خلال الواقع، واستطاعاته، واتباع سنة التدرج في الأخذ بيده، في طريق النهوض، شيئاً فشيئاً، أو بمعنى أدق: التعامل مع الواقع، من خلال القيم في الكتاب والسنة، والتعامل مع القيم من خلال الواقع.

ذلك أن استمرار الخطاب الإسلامي، خطبة، ووعظاً، وتأليفاً، وإعلاماً، بضخ سيل من الواجبات: يجب كذا، ويجب كذا... حيث لا يتورع

بعضهم عن جلد المؤمنين من الناس على تقصيرهم – وإن ترافق مع الحماس الزائد، والنية الحسنة – دون القدرة على وضع دليل عمل، وخطة واستراتيجية لحركتهم، من خلال استطاعاتهم، أو من خلال الإمكانات المتاحة، والظروف المحيطة، والأخذ بعين الاعتبار التوارث الاجتماعي للتقاليد، وغلبة سلطانها، والركود الحضاري، وانطفاء الفاعلية، وضمور المسؤولية... ليس من التجديد في شيء، إن لم نقل: بأنه يساهم سلبياً في تكريس التخلف، والتراجع، وتوضّع الإصابات في جسم الأمة .

ونخشى أن نقول هنا: بأن النخبة التي نيط بها، من حيث الشكل على الأقل، التجديد، وتقديم الحلول لمشكلات الأمة، والدليل لمسيرتها، تصبح هي المشكلة، أو هي مشكلة الأمة الحقيقية، بحيث تتحول النخبة من وسيلة تجديد ونهوض، إلى أداة تخلف وجمود وعجز، يستدعي «الآخر»، ليقود الأمة، ويمارس فيها التضليل الثقافي والسياسي، على حدٍ سواء .

وهنا قضية، لابد أن نطرحها، ونفتح ملفها للحوار، والنقاش، والمفاكرة، والمثاقفة... الخ، مهما كانت ملابساتها صعبة، وشاقة على النفس، وأن تمتلك الشجاعة والجراة الكافية، للمكاشفة، والمناصحة، والمراجعة، والتقويم، وهي: أن الواقع الإسلامي، الذي نحن فيه، ولا نحسد عليه، هو من بعض الوجوه، أو هو من معظم الوجوه، دليل وشاهد إدانة للنخبة، وعجزها عن التغيير والتجديد، خاصة وقد أتاح العصر من الآليات، وحفظ المعلومات، واختزال المسافات، وتوفير التخصصات، إضافة إلى هدايات الوحي، التي تتميز بها الأمة المسلمة، ما لا يدع عذراً لمعتذر .

والادعاء بالهجمة الشرسة، والحصار الخارجي، أو بكلمة مختصرة: التعلل بالعامل الخارجي، والظروف الدولية، والإقليمية، والمحلية، بات لا يقنع أحداً، إن لم نقل: بأنه يحمل في طياته، من بعض الوجوه، دليل الإدانة للنخبة.. وأقل ما يقال فيه: إن النخبة بعمومها، ليست في مستوى الأحداث،

وعواملها الدولية، والإقليمية، والمحلية، وليست في مستوى العصر، والقدرة على التعامل معه، هذا إن لم نقل: بأنها ليست في مستوى فهم الإسلام والعصر معاً، الفهم الصحيح .

ذلك أن إشاعة مناخ التخاذل الفكري، ومحاولة تعميم فلسفة الهزائم، وشيوع العقلية الذرائعية، عقلية التسويغ والتبرير، التي تتلخص في أنه في نهاية المطاف: ليس بالإمكان أفضل مما كان، يعني الجمود والخمود، والاستنقاع الحضاري، مع أن التكليف بالتجديد والاجتهاد، الذي هو روح سارية في الأمة، يعني: أنه بالإمكان دائماً، الارتقاء بأقدار التدين، وبالإمكان أن يكون أفضل مما كان .

خصائص مطلوبة.. في النخبة

وفي تقديري، أن خصائص النخبة، ومواصفاتها، تختلف من عصر إلى عصر، ومن واقع إلى آخر، ومن مرض إلى آخر، من أمراض الأمم، في ضوء حاجات الأمة، ومشكلاتها، وعمرها الحضاري، الأمر الذي يقتضي أن ينال التجديدُ النخبةَ، بالدرجة الأولى، التي تصبح مع الزمن جزءاً من الواقع، وتعجز عن الانفلات من قيوده، وتثقلها ثقافة مجتمعها.

إن المواصفات والخصائص المطلوبة لنخب الدفاع، وحماية الحدود، والمرابطة على الثغور، واسترداد الأرض، وحماية العرض، غير المواصفات المطلوبة لعملية البناء والنهوض، وإعادة التشكيل، وممارسة التجديد والاجتهاد، وتقويم الواقع بشرع الله، ووضع الخطط والأوعية الشرعية لحركة الأمة.. إن ورش البناء والتغيير، هي بطبيعة الحال، غير ورش الهدم وترحيل الأنقاض .

ففي مرحلة الإيقاظ من النوم، وهز إيقاع السبات العام، والإنذار بالمخاطر،

والقيام بعملية التحريض، وإعادة الشحن، والشحذ للقابليات، تكون الحاجة ماسة لإشعال الحماس بكل الوسائل، من ضرب الطبول، وقرع الأجراس، واختراق جدار الخوف والصمت، في مراحل الصحوة الإسلامة الأولى.. لكن الخطورة، كل الخطورة، أن يستمر قرع الطبول، بكل ضجيجها، ومساحاتها، بعد أن أصبحت الصحوة الإسلامية، حقيقة قائمة، وهي أحوج ما تكون إلى دليل عمل لحركتها، وتأصيلٍ لكيانها، ومرجعية لرؤيتها، وإدراك لعصرها، وتقدير لاستطاعتها، واستراتيجية لمسيرتها، وشرعية لعلاقاتها .

إن الاستمرار في مرحلة قرع الطبول، بأشخاصها، وأشيائها، وشعاراتها، ومساحاتها، ومواقعها، على الرغم من تبدل الظروف، وتغير الأحوال، وتجدد المسؤوليات، وتنوع المواقع، يعني العجز عن الاستيعاب، ويعني العجز عن التجديد، والعجز عن البناء.. إنه يعني : الغياب الرعيب عن الشهود الحضاري، والغيبوبة عن الوعي، والعودة إلى حالة السبات العام، لكن على الأنغام والأصوات الجديدة، التي أصبحت جزءاً من هذا السبات.. إنه يعني أن يصيرَّ الماضي هو المستقبل، ويصبح الافتتان بالتاريخ الخاص، هو البديل عن التعامل مع الحاضر، واستشراف المستقبل .

إن تشكّل النخبة وتشكيلها، أو مايسمى بالمصطلح الشرعي: «أهل الحل والعقد»، الذين هم بمثابة العقل المفكر، والرأس المدبر، بالنسبة للأمة، لم يعد أمراً عفوياً، تحكمه عقلية البساطة والسذاجة، ولم يعد ينفع معه الادعاء، ومزيد التوثب والحماس، وإنما لا بد لهذا الرأس المفكر، من أن تجتمع لديه الحواس جميعاً، أو بمعنى آخر، أن يتحقق بالاختصاصات جميعها، حتى يتمكن من التفكير السديد، والتدبير الرشيد، التزاماً بقوله تعالى: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم..**﴾ (الإسراء: ٣٦) .

وما لم تصبح النفرة إلى تحقيق الفقه في الاختصاصات المتنوعة، التي يحتاجها العصر، والتي تحقق الاكتفاء الذاتي، ديناً، استجابة لقوله

تعالى: ﴿فلولا نَفَرَ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ (التوبة: ١٢٢)، فإن حياة الركود، بين السقوط والنهوض، ستستمر إلى ما شاء الله، الذي تعهد بحفظ هذا الدين، وجعل النصر والنهوض، منوطاً بعزمات البشر، ومشروطاً بالتزامهم، ونصرتهم لهذا الدين، قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩).. وقال: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (محمد: ٧).. كما جعل فعل التغيير لواقع الحال، منوطاً أيضاً بإرادة البشر، وقدرتهم على التغيير، فقال: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد: ١١).. إنه الفقه في الدين، بالمعنى الشامل للدين، والمعنى العام لكلمة الفقه، بما فيها معنى الفقه الاصطلاحي.

فإذا كان التخصص، في فروع المعرفة المختلفة، مطلوباً لعموم أفراد الأمة المسلمة، بكل فرقها، ومواقعها - لأن الإنجاز الحضاري يتطلب جهود أمة، ويعز على نخبة أو جماعة - فهو مطلوب بشكل أخص لأفراد النخبة، أو جماعة أهل الحل والعقد، الذين يمثلون الصفوة، أوخلاصة الخلاصة، ويثيرون الاقتداء بحالهم، ويناط بهم انتشال الأمة من واقعها، استجابة لقوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ (الإسراء: ٣٦).. وقوله تعالى: ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ (النجم: ٢٨).. وقوله تعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ (يونس: ٣٩).. وقوله تعالى: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ (فاطر: ١٤).. فأين أهل الخبرة والتخصص، في المسائل المختلفة، الذين يتحققون بالمرجعية الشرعية، ويصوّبون شهادة الرسول ﷺ عليهم، لتكون عندهم الأهلية، ليشهدوا على الناس، وينبئوهم بالحق، لينتشلوهم مما هم فيه ؟!

المرجعية الشرعية قبل التخصص

وهنا قضية، أو هي إشكالية حقيقية في عالم المسلمين اليوم، وهي: أن الكثير من المتخصصين في فروع المعرفة المختلفة، تلقوا تعليمهم وتدريبهم، في معاهد وجامعات غير إسلامية، بالمعنى الأدق لكلمة إسلام، فارتهنوا لفلسفتها، في الحياة، ومناهجها، وكتبها، ومدرسيها، ومراجعها، وأنظمتها المعرفية، دون أن يتحققوا بالقدر المطلوب من المرجعية الشرعية، والمنطلقات الإسلامية السليمة.. إنهم يفتقدون مركز الرؤية.. لذلك نرى أن الكثير منهم قد يحكمون على الإسلام، ويتنكرون لقيمه عن جهل، خاصة إذا عجزوا عن قولبة الإسلام، بالقوالب الحضارية الغربية، وافتقدوا الاستجابة المطلوبة، في عالم المسلمين، ناسين أو متناسين، أدب المعرفة، ومنطق الأشياء العلمي: بأن الحكم على الشيء، فرع عن تصوره.

وقد لا نحتاج لإيراد الكثير من الأدلة، وشواهد الإدانة، على ذلك، وحسبنا هنا شهادة مرحلة النضج والاكتمال، التي أدلى بها الدكتور زكي نجيب محمود قبل وفاته، بعد هذه الرحلة الفكرية الطويلة، والتي تتسم بالأستاذية، وتعتمد المنطق والحجة والفلسفة، التي أدان فيها أحكامه السابقة، على الإسلام والثقافة الإسلامية كلها.. لقد جاءت هذه التوبة الفكرية، بعد شيء من الاطلاع، ولكنها بعد فوات الأوان، إلا أنها دلالة على الهدى، الذي نسأل الله أن يكتب له نصيباً من ثوابه.

والقليل منهم، من المتحمسين للإسلام، المنحازين له عاطفياً، يمارسون الاجتهاد الفكري الإسلامي، من خلال المنظومة الفكرية الغربية، ودليلها المعرفي الذي درسوه، دون أن يتوفروا على المرجعية الشرعية المطلوبة، والنظام

المعرفي الإسلامي، وأدواته، التي تمكنهم من الإفادة من معارفهم، ووضعها في خدمة المقاصد الإسلامية، في مواقعها، لذلك يقدمون للأمة المسلمة اجتهادات، وثقافات، فاقدة للمرجعية، ونقاط الارتكاز الشرعية، والضوابط العقدية، فيجيء عطاؤهم فيه الكثير من التشويش، والدخن، والأخطاء، أو الخطايا الفكرية، ويحتاج إلى الكثير من التأصيل، والتنقية الثقافية.. وتتعاظم مخاطره في أنه يجيء من الداخل الإسلامي، أو ينبت في التربة الإسلامية .

العجز عن جعل التخصص في خدمة العقيدة

هذا أحد وجوه الإشكالية، أما الوجه الآخر لها، فيتمثل في العجز عن المضي – عند معظمهم – في اختصاصهم، وجعله في خدمة قضيتهم، وعقيدتهم، فيغادرون اختصاصهم، ويخلون مواقعهم، ويتحولون إلى وعاظ، أو كتاب في القضية الإسلامية، أو خطباء، أو مرشدين، دون أن يكون عندهم الزاد الكافي لممارسة هذه الأمور الدقيقة، والخطيرة، من حيث الآثار المترتبة على الخطأ فيها، هذا إن لم نقل: وكأنهم بسلوكهم، وفرارهم من مواقعهم، يُثبتون مقولة: فصل الحياة عن الدين، وينتقصون من شمولية الإسلام .

وقد يعجب الإنسان، عندما يرى بعضهم يتحدث عن أهمية الاختصاص، ودوره في النهوض، والتكامل، وبناء النخبة، ومن ثم الأمة، ولا يكتفي بذلك كقضية عامة – قد يكون من حقه الحديث فيها – وإنما يتجاوز للحديث في دقائق القضايا، التي لا تمت إلى اختصاصه بصلة.. إنه يسمح لنفسه الخوض، والنظر، والاجتهاد، فيما لا اختصاص له فيه، من أمر قضايا الإسلام الدقيقة !

وكأنه بفعله يوبخ نفسه، ويعطي مثلاً سيئاً من أن شمولة الإسلام تضيق، وتضيق عن مساحات المجتمع، وتتراجع عن مجالات الحياة، بتنوع اختصاصاتها، لتقبع في إحدى زواياها المنعزلة .

فكم من المتخصصين المتدينين في شعب المعرفة المتنوعة، علمية، وإنسانية، غادروا منابرهم، وتخلوا عن مواقعهم، وتركوها ثغوراً مفتوحة في العقل المسلم، وتحولوا إلى وعاظ، ومفتين، ومرشدين، دون أن يقدروا قيمة هذه المنابر، ومدى تأثيرها، وحاجة المسلمين إليها، لو أحسنوا توظيفها، واغتنامها، وأدركوا كيفية التعامل معها. . إنهم قد يحملون العلم، لكنهم يفتقدون الثقافة والمرجعية، التي تقود الاختصاص العلمي، لتحدد له مساره، وتحقق أهدافه .

وما أزال أذكر، عندما كنت أتحدث عن أهمية الاختصاص، ودوره في بناء النخبة والأمة معاً، وأهمية إعادة تحرير مفهوم أهل الحل والعقد، في ضوء مقاصد الشرع، ومنطق العصر، وإحياء فكرة فروض الكفاية، في إحدى الجامعات، في عالمنا العربي، كيف أن إحدى المداخلات جاءت لتقول: إن ذلك عبء ثقيل، يناقض ما أخبر به الرسول ﷺ من أننا أمة أمية، لا نقرأ ولا نحسب ! فتملكني العجب حقاً من هذا الفهم الغريب، أمام ما فعله الرسول ﷺ القائل: «إنما بعثت معلماً» - الحديث ضعيف، لكن له شواهد كثيرة يتقوى بها - وقوله تعالى: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ (الجمعة:٢)، إضافة إلى عشرات الآيات التي تحض على العلم، وتدعو إلى التفكير، وتجعل العلم فرضاً على كل مسلم، والنفرة لتحصيل الاختصاص فرضَ كفاية .

ولعل في قصة بدء الخلق وبدء الوحي، ومسيرة الوحي، وركائز بناء المجتمع المسلم، الأنموذج، ما يشكل الإجابة الحاسمة .

فلقد بدأ الخلق بتعليم آدم الأسماء كلها، وبدأ الوحي الخاتم بـ: ﴿ **اقرأ** ﴾، فجاءت استجابة الرسول ﷺ العفوية لذلك بأنه أمي: «**ما أنا بقارئ**»، فأخذه جبريل فغطه، حتى بلغ منه الجهد، فقال: اقرأ، فأجاب النبي ﷺ بقوله: «**ما أنا بقارئ**»، ثلاثاً، وقد بلغ الجهد مداه، إلى أن قال: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ (انظر صحيح البخاري، باب: بدء الوحي)... وكأني ببدء الوحي يقرر: أنه لا سبيل إلى وراثة الكتاب، وحمل الرساله الخاتمة، والشهادة على الناس، والقيادة لهم، بدون القراءة، فهي طريق التخصص والمعرفة، وهي المفتاح الحضاري، بدأت بها الخليقة على الأرض، قال تعالى: ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها...** ﴾ (البقرة: ٣١)، وأكدتها الرسالة الخاتمة: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ (العلق:١) .

التعامل مع الفتن

وهنا قضية جديرة بالطرح، والمناقشة، وهي: أن الكثير من الأخبار النبوية في مثل حديث تجديد الدين، وفي غيره، من أحاديث وردت تحت أبواب أحاديث الفتن، التي ستحل بالأمة المسلمة، ومايمكن أن نطلق عليه: مصطلح «المستقبلات»، هي من جانب، إحدى دلائل النبوة في الإخبار عن الغيب دون شك، إلا أنها من الجانب الآخر، تنبيه للمسلمين، ليعدُّوا العدة المطلوبة، للمواجهة، ويأخذوا حذرهم، ويغالبوا قدراً بقدرٍ أحب إلى الله، ولايعجزوا، ويستوعبوا سنن السقوط والنهوض، ويبادروا بالأعمال الصالحة فتناً كقطع الليل المظلم، حيث يصبح الإنسان مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل.. إنها حالة من الاضطراب، والضياع،

والضلال، تفتقد معها الأمة ثوابتها، ويشيع فيها الجدل، والفلسفات والمعارف الباردة، بحيث لا يكون المخرج منها، إلا بالحصانة بالأعمال الصالحة، التي تبيِّن الأفكار الغثائية، وما يمكث في الأرض، وتصدق القول بالعمل .

وفي تقديري: إن هذه الأحاديث والأخبار، لم ترد لتصيب المسلم بالعطالة، وتطفئ فاعليته، وتخرجه من ساحة الفعل، إلى غرفة الانتظار، لحلول الفتن والبلاءات، بمقدار ماهي حوافز، واستفزازات، ومحرضات حضارية، للإعداد للمستقبل.. لكن المشكلة، فيما أرى، أن ثقافة التخلف، وعقلية التخلف، تضفي على أصحابها لوناً من التفسير والتبرير، يوافق حالهم، بدل أن ينتشلهم مما هم فيه.. ولو أن مسلمي العصر الأول، كان لهم هذا الفهم المعوج، وهذا التدين الساذج، لتقاعسوا عن كتابة القرآن، وجمعه، وحفظه، ونقله، ولم يرعبهم اشتداد القتل في القراء، في معركة اليمامة، ليبادروا إلى جمع القرآن، وحفظه، خشية أن يُختلف فيه، كما اختلف اليهود والنصارى.. فإذا كان الله سبحانه قد تعهد بحفظه، بقوله: ﴿ **إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (الحجر: ٩).. فلماذا يتعبون أنفسهم إذن بالجمع، والحفظ، والنقل ؟!

ويمكن أن نرى بعض الملامح لهذه الفهوم والتفسيرات المختلفة، أيضاًفي شرح بعضهم لحديث الرسول ﷺ: «... **وتتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، هي ما أنا عليه وأصحابي**» (رواه الترمذي، والحاكم).. فبدل أن نراجع أنفسنا وسلوكنا، ونختبر مدى تمسكنا بالسنن، واقتدائنا بالرسول ﷺ الذي يعتبر طريق النجاة، وبذلك نتعامل مع المقدمات التي نملكها، أقمنا معامل للتكفير، وانصرفنا للتعامل مع النتائج، التي تملكنا ولانملكها!! وهذا لا يجوز أن يفهم منه، الدعوة إلى عدم فضح الباطل، ومنازلته، وبيان زيفه، وإنما لا بد أن يترافق ذلك مع تحقيق المقصد الأساس من الحديث، وهو أن الاستمساك بالسنة، هو طوق النجاة .

أبعاد غائبة لثقافة النخبة

إن وجود قدر بسيط من الثقافة الإسلامية، المترافق مع الحماس، والانتصار العاطفي للإسلام، والإخلاص في الرغبة لنصرة الدين، وانتصاره، لايؤهل صاحبه ليكون من النخبة، أو من أهل الحل والعقد، ولايجعله أهلاً للفتيا في النوازل والمشكلات، التي تعرض للحياة الإسلامية، ولايجعله فقيهاً، قادراً على الموازنة، والمقارنة، والمقايسة، والترجيح بين الأدلة، وتقدير الاستطاعة، والنظر في محل الحكم .

فكثير من المخلصين، والمتحمسين، والعابدين، في تاريخنا العلمي والثقافي، ردَّ العلماء حديثهم، لأنهم ليسوا من أهل الحفظ والضبط، أي ليسوا من أهل الفن – الاختصاص المطلوب – ولم تشفع لهم حماستهم، ولا إخلاصهم في قبول حديثهم، حتى لقد اعتبر الحماس الزائد، والرغبة في الخير، التي دفعت بعض المسلمين، ترغيباً من الخير، وترهيباً من الشر، لوضع أحاديث من عند أنفسهم، تحض على ذلك، من أسباب وضع الحديث، حتى الذين قالوا منهم: نحن لانكذب على الرسول ﷺ، وإنما نكذب له، ليخلصوا أنفسهم من عقابيل مخالفة قوله الصلاة والسلام: «**من كذب عليَّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار**» (رواه البخاري ومسلم)! لذلك قال بعض العلماء: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.. حيث لابد من اجتماع الإخلاص والصواب.. العلم والإيمان.. المعرفة وخلقها.. الاختصاص والحماس.. الأهلية والصدق..

كما أن حفظ قدرٍ من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، أو حفظ مجموعة من المسائل الفقهية، لا يجعل حافظها فقيهاً.. إنه حامل للفقه، وليس فقيهاً.. فالرسول ﷺ يقول: «رُبَّ حامل فقه ليس بفقيه.. ورُبَّ حامل فقه، إلى من هو أفقه منه» (أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن). و«... رب مبلَّغ أوعى من سامعٍ» (أخرجه البخاري).

كما أن القدرة على الخطابة، واستثارة العواطف، وإثارة الرأي العام، وزيادة التوثب والحماس، دون كسب للعلوم الشرعية، والتحقق بها، لاتؤهل صاحبها لأن يكون من أهل الحل والعقد، أو من النخبة، التي تمثل الرأس المفكر، والمخطط للأمة.. وكم عانى ويعاني المسلمون اليوم، من حضور الخطباء، وغياب الفقهاء.. وكم عانوا ولايزالون، من زعامات الخطبة، القادرة على تجميع الناس، العاجزة عن وضع الأوعية لحركتهم، صوب استرداد الحياة الإسلامية، ووضع الاستراتيجيات لقيادتهم، وتحقيق مقاصد الدين في الحياة، في ضوء الظروف المحيطة، والإمكانات أو الاستطاعات المتوفرة، وعدم خلط الأمنيات بالإمكانيات، والسنن الجارية المتعبد بها، بالسنن الخارقة، المعجزة، التي لايد للإنسان فيها.

كما أن مجرد الانتساب إلى الجماعات، والمؤسسات، والتنظيمات، والجمعيات الإسلامية، لايكفي وحده لأن يجعل صاحبه في أهل الحل والعقد، ولايجعل منه فقيهاً، قادراً على الفتوى في نوازل الحياة، إذا لم يتوفر على مرجعيةٍ شرعية، تشكل له مركز الرؤية، وتخصصٍ في أحد فروع المعرفة، وإحاطة بعلمه..

معرفة الوحي.. سبيل الرؤية الثقافية

صحيح بأن النبوة، أو معرفة الوحي، في الكتاب والسنة، تشكل لنا الهدايات الأساسية، وتبين لنا المقاصد والغايات، ودليل العمل والتشغيل والتصويب، لما يمكن ان يكون من جنوح أو انحراف، حيث إنها توجه أنشطة الإنسان، وتمنحنا دليل التعامل مع الناس، والكون، والحياة، وتختصر لنا التجارب البشرية، وتبصرنا بالعواقب، وتحمي طاقاتنا من التبدد والضياع، وتحولها إلى المواقع المجدية، وتزودنا بطاقات غير محدودة، تضمن لنا استمرار الفاعلية، والقدرة على التجاوز، وتحول دون اليأس والإحباط، والانسحاب من الحياة، كما تحول دون الاستسلام للقدر الواقع، وإنما تدفعنا إلى مغالبة قدر بقدر أحب إلى الله، وأرضى له..

إنها بكلمة مختصرة: تمنحنا الثقافة، بالمفهوم الشامل لها، التي تشكل لنا دليل التعامل مع الحياة، والفقه، والاستيعاب لمتغيراتها، وتلفتنا إلى كثير من السنن الكونية، والاجتماعية، والنفسية، التي تحكم الحياة والأحياء، وتجعل تسخيرها تكليفاً شرعياً، لا يمكن ان يتم بدونه اي إنجاز حضاري، كما تطلب إلينا مزيداً من كشف السنن والأسباب، وتضعنا في مناخ التفكير العلمي والموضوعي، لنبدأ رحلة الحياة، متسلحين بمعرفة الطريق، ورؤية الغايات، بعيداً عن التضليل والضلال .

فمعرفة الوحي، هي من بعض الوجوه: الثقافة، التي تبيِّن وظيفة العلم، ومهمة التخصص الإنسانية، وتقود خطواته، وتبيِّن اهدافه، وتدفع إلى المزيد من التزود والإحاطة به، وكشف مغاليقه، وبيان أسراره.. تمنح العلم، أو العالِمَ التقيَّ، صاحب أهلية الفرقانَ، الذي تمكنه من جعل العلم والتخصص، لبنة في البناء الإسلامي الشامل .

ونستطيع أن نقول، كما أكدنا على ذلك كثيراً: بأن الميزة التي يتمتع بها العقل المسلم، أنه لم يعان من ثنائية: الله والإنسان.. الوسائل والغايات.. العلم والدين.. العقل والوحي.. الدنيا والآخرة.. المعهد والمعبد.. العمل في مجال التخصص العلمي الدقيق، والدعوة.. الفردية والجماعية.. الرجل والمرأة.. التعليم المدني، والتعليم الديني.. الروح، والمادة.. الفرض العيني، والفرض الكفائي.....الخ.

إن معرفة الوحي في التصور الإسلامي، أو الثقافة التي منحتنا إياها تلك المعرفة، حسمت هذه الأمور جميعاً، وحققت الانسجام والتماسك، ووحدت اتجاهها ومصبها، أو بكلمة مختصرة: معرفة الوحي هي التي تحقق: ﴿صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ (البقرة: ١٣٨).

لذلك أعتقد أن المسلمين الذين لـمّا يستشعروا الحاجة بعد، إلى استدراك الاختصاصات المطلوبة، لتحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة، وبناء النخبة، أو أهل الحل والعقد، بناءً متكاملاً، والذين يتراجعون عن تحصل اختصاصاتهم، وبذل جهدهم للإبداع، والنبوغ بها، والذين ما يزالون يحسون بعقدة الذنب، من المتخصصين، تجاه مسؤولية الدعوة، فيدفعهم هذا الحس المغلوط، إلى مغادرة اختصاصاتهم، والتحول إلى منابر الوعظ والإرشاد والفتوى، دون امتلاك أداة ذلك ووسيلته، إنما يعانون خللاً في بنائهم الثقافي الإسلامي، واستيعابهم معرفة الوحي، ومرجعيتهم الشرعية، ورؤيتهم الشاملة.. إنهم ينتقصون الإسلام، ويهمشون دوره، ويحاصرونه، بعيداً عن الاقتدار على صياغة الحياة، بجوانبها المتشعبة، وصبغها بالإسلام..

إنهم أدلة رديئة ومشوهة، افتقدت العلم والثقافة معاً، وفصلت الدين عن الحياة، وأخلت مواقعها المهمة، ومنابرها المؤثرة، لعلماء ومتخصصي الثقافات

الأخرى، الذين يعيشون في حياة الناس، ويسيطرون على العالم، ويحتكرون وسائل وآليات التقدم، وشغلت مواقع لم تهيأ لها، وتتخصص بها، ورضيت من الغنيمة بالإياب، وعجزت عن وضع تخصصها في خدمة عقيدتها، وعاشت الثقافة النصرانية، والانشطار الثقافي، الذي يضع الإنسان دائماً أمام الخيار الصعب، فإذا اختار الدين، فما عليه إلا الانسحاب من الحياة، وإذا اختار الدنيا، فما عليه إلا أن يدير ظهره لقيم الدين .

وهكذا تستمر المعادلة الصعبة، المفروضة علينا، وليست منّا، وتنكمش الرؤية الإسلامية، وتتقطع إلى تفاريق وأبعاض، ونضفي من ثقافاتنا المستوردة، التي تعاني من هذه الثنائية، تفسيرات كيفية لمعرفة الوحي، وانتقاءات لبعض النصوص، التي نحاول من خلالها تدعيم اختياراتنا، بلون من التدين المغشوش، والفهوم المعوجة، فتختلط الأوراق، وتستمر رحلة التيه .

والمشكلة اليوم – فيما نرى – تتراوح بين الذين غادروا اختصاصاتهم العلمية، للعمل في مجال الوعظ والإرشاد، وعجزوا عن تعبيد الحياة للدين، ووضع اختصاصهم في خدمة عقيدتهم – وأنى لهم هذا إذا كانوا مرتهنين للثقافة الغربية، ومفاهيمها، التي تتلمذوا في معاهدها وجامعاتها، وهم مفتقدون للمرجعية الشرعية – وبين الذين استدعوا الإسلام، أو الأسلمة، من خارج الاختصاص، وحاولوا إلباسه لفكرهم، أو إلباس فكرهم واختصاصهم للإسلام، وحاولوا تطبيق نظرياتهم، ومناهجهم، وأنظمتهم المعرفية، أو تقنياتهم المعرفية، ذات النسق الغربي، على الإسلام، فتحول الإسلام على أيديهم، من معيار للتقويم والتصويب، ليصبح هو موضوع التحليل ومادته.. يقبلون منه ويرفضون، ويبرزون ما يتوافق مع نظامهم المعرفي، الغريب عن الإسلام، ويغيبون ما يناقضه.. ومرة أخرى تعتمد الحضارة الغربية، هي المعيار والمقياس للحضارة الإسلامية.. يرفعون شعارات الإسلامية، أو الأسلمة، وقد لايفقه بعضهم الأحكام الشرعية للطهارة (!!)

وبذلك يخرجون الإسلام من كونه دين حياة، يشكل نسقاً وصبغة لشعب المعرفة جميعاً، ودليلاً لوظيفة العلم، ومقاصده، إلى إحدى الفلسفات، الخاضعة للتحليل، والدراسة، والنظر .

وحيث إن العقل المسلم قد توقف عن الامتداد بشعب المعرفة، وعجز عن الإنتاج المعرفي والثقافي، من خلال نسقه ورؤيته، وحاصر معرفة الوحي، في الكتاب والسنة، وأخرجها من مجالات الحياة، بسبب عجزه وتخلفه عن استيعابها، وفهمها فهماً متخلفاً، فقد انتهىٰ بنا الأمر بشكل طبيعي، إلى احتضان نماذج لثقافات «الآخر»، لتحتل المنابر الفكرية الإسلامية .

لقد كان المأمول أن تتمكن الجامعات، ومعاهد الدراسات العليا، من حلِّ المعادلة الصعبة في العالم الإسلامي، والتوجه صوب دراسة المشكلات التي تعاني منها الأمة، ووضع الحلول، من خلال رسائل الماجستير والدكتوراه، ومراكز البحوث والدراسات، إلاّ أن الجامعات والمعاهد، لم تستطع هي أيضاً أن تنفك عن ثقافة التخلف، وتخرج عليها، بل أصبحت جزءاً منها، تعيش على إيقاعها، سواء منها المرتهنة في مناهجها، ونظامها التعليمي، لثقافة الغالب، على الرغم من أنها تسكن العالم الإسلامي، إلا أنها مسكونة بالغرب، أو الجامعات التقليدية، التي لم تستطع أن تطور نفسها وآلياتها، فهي تعاني من غربة الزمان والمكان، ولولا أنك تدخل إليها من الحاضر، ما عرفت لأيِّ عصرٍ تنتسب، وفي أي زمان تعيش !

والناظر في موضوعات ومعالجات رسائل الدكتوراه والماجستير، لايمكنه أن ينسبها، إلى عصر، أو مجتمع، أو واقع، له ظروفه ومشكلاته، مهما بذل من الجهد الفكري، إلاّ أن يقرأ تاريخ الإجازة، وجنسية صاحبها.. فماذا تعمل الجامعات في العالم الإسلامي ؟ وماذا تقدم من حلول لمشكلات الأمة ؟ وماتفعل هذه الألقاب العلمية الكثيرة، التي أصبحت أشبه بالأوراق النقدية الزائفة، أو بالأوراق المالية في بلاد التضخم النقدي؟

غياب العقل الاستراتيجي

وما أزال أذكر لقائي بطلبة الدراسات العليا بقسم الدعوة والإعلام، في إحدى الجامعات العربية، وبحضور عدد من المدرسين، عندما بدأت المداخلات، وطرح الأسئلة، وإثارة القضايا، والمشكلات الإعلامية، والسؤال عن كيفيات التعامل معها، والمعالجة لها، عندها اضطررت أن أقول: لماذا لاتكون هذه القضايا والمشكلات، التي تعاني منها الأمة، موضوعات لرسائل الماجستير والدكتوراه، وتأخذ حقها من الدرس، والبحث الأكاديمي، وتقدم رؤى وحلولاً لمشكلات ثقافية وإعلامية ودعوية، تعاني منها الأمة ؟ فنظر بعضهم إلى بعض!

لكن لابد هنا من الاعتراف، أن إنضاج مثل هذه الموضوعات، ومعالجة المشكلات، يحتاج إلى جهود كبيرة، ودراسات، وإحصاءات، ومقارنات، وتحليلات.. إنها عبء ثقيل على الدارس والمدرس معاً، تختلف كثيراً عن عمليات الشحن من الكتب القديمة، والتفريغ على الأوراق الجديدة، كما هو الحال، الأمر الذي يكرّس حالة الركود، والاستنقاع الحضاري، والجمود، أو التقليد الثقافي.

ولعل من المؤشرات الخطيرة: غياب العقل الاستراتيجي، عن الساحة الفكرية الإسلامية المعاصرة.. العقل القادر على استشراف الماضي، وفقه الحاضر، وإبصار المستقبل، في ضوء عطاء الوحي، وهداياته، وكسب العقل، من خلال التخصصات المتعددة، التي لابد منها لتشكيل العقل الجماعي للأمة.. وشيوع عقل التبرير والتسويغ.. وغياب فقه المقاصد، وبروز فقه المخارج، والحيل الشرعية.. غياب جلب المنافع، وبروز درء المفاسد، وسد الذرائع.. الأمر الذي لايعني أكثر من المحافظة على الواقع، والإبقاء عليه، مما

أدى بالتالي، إلى فقر المكتبة الإسلامية المعاصرة، للبحوث والدراسات، والمؤلفات، التي تقدم دراسات مقدورة في أسباب النهوض والسقوط، والانقراض الحضاري، ودراسات عن حركات التغيير، وسبب إخفاقها، وعبرة تجربتها، من خلال رؤية الوحي ومرجعيته .

وليس من قبيل المجازفة القول: بأن معظم المتوفر من ذلك، قد يفتقر أصحابه إلى لغة التنزيل.. وعاء التفكير.. كما يفتقر إلى المرجعية الشرعية، ومركز الرؤية الدقيقة، لذلك جاء معظم كسبهم لايتجاوز بعض النظرات، والملحوظات، والتأملات، التي تمثل نقطة الضوء، أو شرارة قدح الزناد، التي تحتاج إلى كثير من التأصيل والضوابط الشرعية، علماً بأن دراسة أسباب النهوض والسقوط، وحركات التغيير والتجديد، تعتبر من الفروض الجماعية، التي يمكن أن تشكل المحور الرئيس لآيات التنزيل، الميسر للذكر، المستدعي للمدكر: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل مُدَّكر﴾ (القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠) .

هذا على مستوى التاريخ العام، إضافة إلى التقصير الكبير والرعيب، في فقر المكتبة الإسلامية المعاصرة، إلى دراسة وتقويم حركات التغيير الإسلامي، على مستوى التاريخ الخاص، وبيان الخلل الذي حال دون بلوغها الغاية، واعتصار التجارب الذاتية لصالح الجيل، ولصالح المستقبل الإسلامي .

أهل الحل والعقد.. الحاجة إلى تحرير المفهوم

وقد يكون المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضى – كما أسلفنا – تحرير مفهوم أهل الحل والعقد، وإعادة تشكيل النخبة، لاسيما وأن المسلمين مايزالون يراوحون في مواقعهم، ويعانون من حالة الركود، وتقطيع النعال، دون قطع

المسافات المطلوبة.. يعانون من حالة (اللاسقوط واللانهوض).. أما عدم السقوط، فبحفظ الله للدين، ورحمته لأهله، لأنه الدين الخاتم، الخالد.. وأما عدم النهوض، فبعجز، وتخاذل، وقصور المسلمين، أو مسؤوليتهم بشكل عام، وعجز النخبة بشكل خاص، عن الإنتاج المأمول، في المواقع المتعددة، لأن الله عز وجل، ناط عملية التغيير بهم، من خلال السنن الجارية وعزمات البشر .

ولعلنا من هنا، يمكن أن نفهم، أو ندرك أهمية النصوص الشرعية، التي تدعو للانفلات من حالة الركود، والتوارث الاجتماعي، واعتزال المجتمع، والانسحاب من الواقع.. وهذا الخروج وهذه العزلة، لا تعني الهروب من المسؤولية، بمقدار ماتعني محاولة إعادة بناء النفس، بعيداً عن الأمراض الاجتماعية، والتحقق بالسلامة، ليعود المسلم، وهو أقدر على الإسهام بعملية العلاج، والنهوض من جديد .

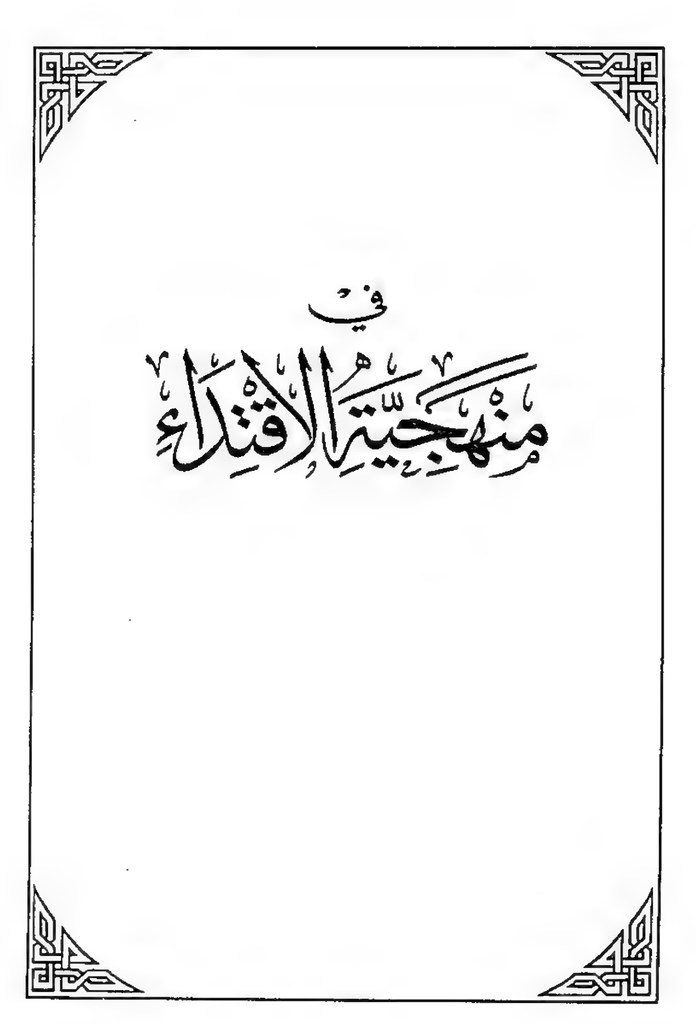
ولئن كان عزل المريض، والحجر عليه، هو المطلوب في الحالات الطبيعية، حتى لاتنتقل العدوى للأصحاء، فيحق لنا أن نقول هنا، بعد هذه الرحلة من الإحباطات، وحمل الكثير من الأمراض الاجتماعية نفسها، التي يعيشها الآخرون، إنه: لابد من عزل السليم، عزل الأصحاء، حتى لاتنتقل لهم العدوى، بعد شيوع المرض، وتفشيه، وإصابته لمن يدّعون القدرة على شفائه، ممن أصبحوا هم المشكلة، وليس الحل.. ومن هنا ندرك متى تكون العزلة، لإعادة التزود، والعودة إلى الحل الإيجابي، وليس السلبي الانسحابي، لما تعانيه الأمة، وندرك في ضوء ذلك، مدلول ومقاصد الأحاديث، والآيات، التي ترغّب فيها، وتعتبرها وسيلة النجاة .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

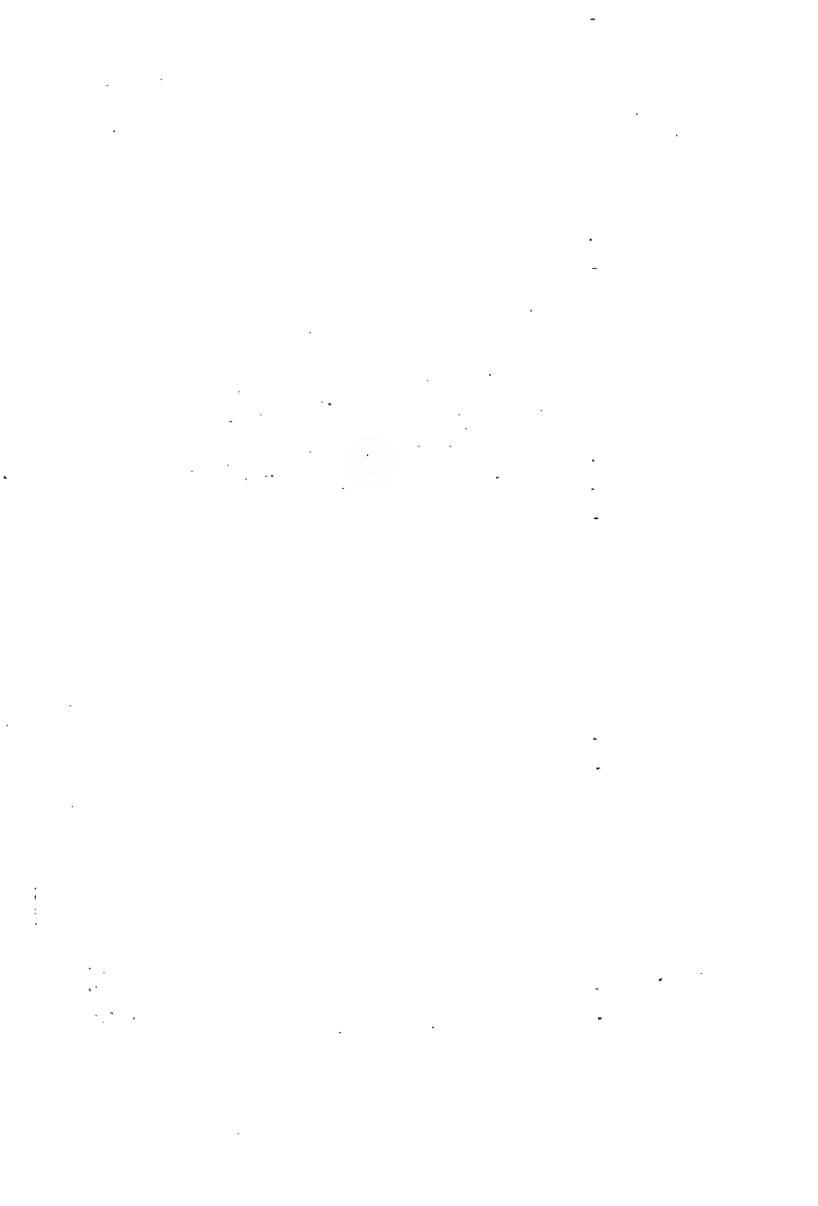
فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

٣٠٥٤/١٤



٣٠٥٥/١٥



المقـــدمة

الحمد لله الذي هدانا للإيمان، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وجعل مناط الشهادة على الناس وقيادتهم إلى الخير، مرتبطًا بالإيمان بوحي الله المنزل، واتباع النبي المرسل، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٥٣).

والصلاة والسلام على الرسول أنموذج الاقتداء، وسبيل الاتباع، البشير النذير، الهادي إلى الصراط المستقيم، الذي ابتعثه الله قدوة للعالمين، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، وجعل اتباعه والتاسي به والتزام سنته، سببًا في النجاة والفوز بحب الله ورضاه، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).

وبعد:

فلعل الفارق الأصلي أو الفارق الأساس بين النبوة والفلسفة، أو بين المبادئ الواقعية والمذاهب الفلسفية، هو قابلية تنزيل المبادئ على الواقع، وترجمتها إلى ممارسات، وتجسيدها في حياة الناس، وتحويل الفكر إلى فعل، واقتران النظرية بالتطبيق، والمبادئ بالبرامج، لذلك كان التاريخ بشكل عام، أو الواقع العملي، هو المختبر الحقيقي لصدقية المبادئ والعقائد، وقدرتها على

الارتقاء بالإنسان، وتحقيق تطلعاته وأهدافه والاستجابة لأشواقه.. فالتاريخ الحقيقي هو تاريخ النبوة وعطائها، أما الفلسفة فتاريخها تاريخ أوراق لا أفعال.. كما أن الكثير من المبادئ والأفكار التي قد تستهوي العقول وتخطف الأبصار في فترة من الفترات، فيتحول إليها الناس ويظنون فيها الخير، فإذا عُرضت للتطبيق أفلست، وخاب فيها الظن، على قاعدة: «اقرأ تفرح، جرب تحزن».. لذلك اعتبر الإسلامُ العملَ صنو الإيمان، ودليل صدقه، فلا إيمان بلا عمل، ومن كان قوله أو ما يعلن من مبادئ يخالف عمله، فكأنما يوبخ نفسه.

والمستقرئ للتاريخ، المتتبع لحركات التغيير والإصلاح، والمنعطفات الكبرى في حياة البشرية، يرى أن الأنبياء وما أحدثوا من تغيير، وربوا من أتباع، هم قادة التغيير الحقيقي، ذي الآثار الباقية الممتدة، وأن الكثير من الفلاسفة الخياليين كان دورهم الشغب على عطاء النبوة، ومحاولة التضليل لأتباع التغيير والإصلاح النبوي.

وقد تكون العقائد والمبادئ والتعاليم صحيحة في أصلها، معصومة من الخطأ والخلل في ذاتها، فيخونها حملتها بالتطبيق والتنزيل على الواقع، ويحرفها أتباعها، يخفون بعضها، ويؤمنون ببعض، فتشيع علل التدين، وتصبح مسالك الناس هي الدين، وتتشكل طبقات من رجال الدين يمارسون التحليل والتحريم، وتصير اجتهاداتهم وأقوالهم هي المعايير للحق والباطل، وتنقلب الموازين، فيُعَاير الحقُّ بالرجال، ولا تُعاير مسالكُ الناس وأفعالهم بالحق.

ومن ثم نقول: إن مخاطر الانحراف بالتطبيق، لا تقل خطورة عن التحريف للمبادئ، لذلك فإلى جانب سلامة المبادئ وحفظها من التحريف،

لابد من وجود الأنموذج المعصوم للتنزيل والتطبيق والاتباع، ليكون التنزيل بمأمن عن الهوى والانحراف والأهواء والنوازع البشرية.

ففي إطار النبوة، كان الأنبياء هم النماذج التطبيقية لما يحملون من مبادئ وقيم، لذلك كان لعصمة البيان العملي في السيرة والسنة، من الأهمية ما لا يقل من حيث الحقيقة عن حفظ وعصمة القرآن .. فالتطبيق والتنزيل العملي للمبادئ الإسلامية على الواقع، إنما كان يتم على عين الله وتصويبه، لما يمكن أن يكون من خطأ الاجتهاد البشري.. وكان من المسلمات العقلية -قبل المسلمات الشرعية- اتصاف الرسل بصفات وخصائص البشر، ليشكلوا قدوة للبشر في مجال التطبيق، وتنزيل القيم على الواقع، لتكون سيرتهم دليل هداية في التنزيل، ومرجعية في التطبيق لكل زمان ومكان، مما يعني أن اي اجتهاد أو تنزيل أو تفسير، له أن يبلغ آفاقًا وأبعادًا متعددة، لكنه لا يجوز أن يعود بالتعديل أو النقض أو النقد أو الإلغاء للتنزيل النبوي على الواقع، الذي يعتبر الأنموذج التطبيقي المعصوم.. فهو يعني أن هذه المبادئ قابلة للتطبيق من جانب، ويقدم الأنموذج والدليل للتعامل مع المبادئ والقيم من جانب آخر.. وهذا التطبيق المتبع أو الأنموذج، لا يقتصر على فترة النبوة وحراسة الوحي، وإنما يمتد بعد توقف الوحي وبدأ مرحلة الفعل البشري في الخلافة الراشدة: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعَضوا عليها بالنواجذ»** (رواه أحمد وأبو داود والترمذي).

وليست الخيرية فقط لفترة الخلافة الراشدة، وإنما للقرون المشهود لها بالخيرية أيضًا من قبل الرسول ﷺ.

وقد لا نكون بحاجة إلى الكلام عن دور الأنموذج والاتباع والتاسي، في

التربية العملية والارتكاز الحضاري والبناء الثقافي، وإثارة الاقتداء، لان ذلك أصبح من المسلمات التربوية والدعوية.

كما أننا لسنا بحاجة إلى تأكيد القول على أهمية التطبيق العملي للمبادئ، ووجود أنموذج الاتباع والتاسي، لأنه كثيراً ما يقع التحريف الباطل، والتاويل الجاهل، والغلو الظالم، والانتحال المارق، في التنزيل على الواقع أو في التطبيق.. ولعل من أخطر علل التدين التي لحقت بالأمم السابقة، وكانت سبب هلاكها، خضوع تطبيق التعاليم الدينية للهوىٰ.

وأعتقد أن حاجة الناس إلى استيعاب التطبيق العملي، لا تقل عن حاجتهم إلى معرفة التعاليم والمبادئ الشرعية، لذلك كان الصحابة الجيل القدوة لايتجاوزون الآية إلى غيرها، إلا بعد أن يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، وكان يُعلّمون ابناءهم السيرة كما يعلمونهم السورة من القرآن.

وفي اعتقادنا أن العناية بالتطبيق، وكيفيات التنزيل على الواقع، لابد أن توازي وتواكب العناية بالمبادئ والتعاليم نفسها، حفظًا وفهمًا وفقهًا، لأن التطبيق السليم هو من بعض الوجوه، حماية للمبادئ من العبث والمجازفات والسهام الطائشة.

ومن هنا يتبين أهمية السيرة النبوية كأنموذج تطبيقي تم على عين الوحي وحراسته وتصويبه، وفترة الخلافة الراشدة المشهود لها بالخيرية وخصوصية الاتباع، كأنموذج للاقتداء والتطبيق البشري بعد توقف الوحي.

إن عنايتنا بالسيرة النبوية، ومرحلة الخلافة الراشدة، لم تتعد في كثير من الأحيان وسائل الحفظ والنقل والتحقيق للنصوص!! وعلى أهمية ذلك

وضرورته لأية انطلاقة صحيحة، يبقى المطلوب أن تأخذ العناية باعتبارها، البعد التربوي وتأصيل الفقه العملي، لأن السيرة وفترة الخلافة الراشدة، تمثل مرجعية التطبيق والتجسيد للمبادئ في واقع الحال، ولأن اقتصار الفقه على التعامل مع النص نظرياً دون الفقه العملي والتعامل مع الواقع، سوف يؤدي إلى الكثير من التعسف وتدخل الهوى في الموضوع، لغياب الضابط المنهجي والمرجعية الشرعية للتطبيق.

لذلك نرى اليوم الكثير مما تعج به الساحة الثقافية والاجتماعية من المؤتمرات، في إطار الأسرة والمرأة والسكان وحقوق الإنسان والديمقراطية.. .الخ، تمارس فيها محاولات رعيبة لتطويع النص الإسلامي لقرارات وتوصيات ومقاربات ومقارنات ومقررات مسبقة، ليبدأ الغزو من الداخل الإسلامي، ومن خلال الانحراف في التطبيق على الواقع، توهماً للمصلحة، وادعاءاً لها، بعد أن فشل الغزو من الخارج، بل تعتقد أن الغزو من الخارج زاد في صلابة وقناعة المسلمين.

ومن هنا ندرك مغزى قول الرسول ﷺ: « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ** » (رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي)، لأن عوامل التحريف والانتزاع والاقتلاع متعددة.

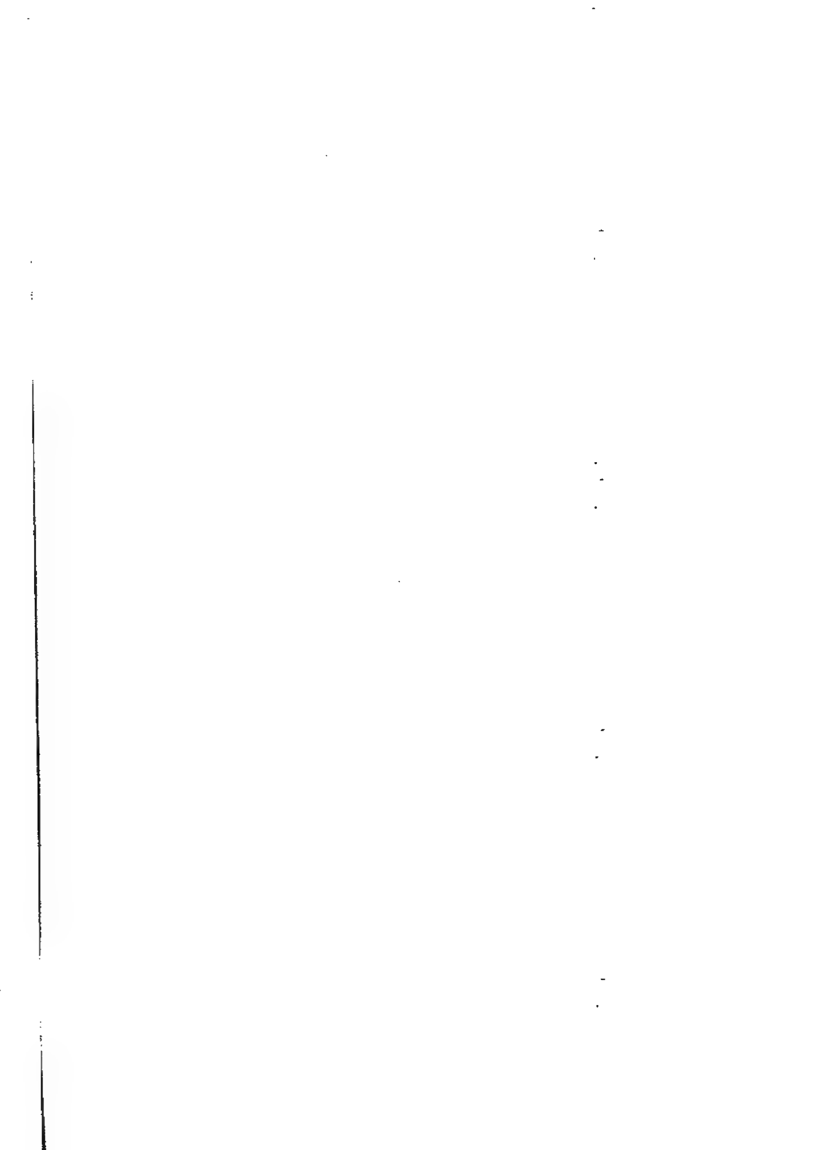
وقد عرضنا في هذا الكتاب الذي أسميناه: (في منهجية الاقتداء)، لبعض المفهومات في مجال التأسي والاتباع، من حياة الرسول ﷺ في مراحلها المتعددة من القوة والضعف، والدعوة والدولة، والجيل المشهود له بالخيرية.. كما عرضنا لبعض محاولات العبث بالنصوص الشرعية والخروج عن المرجعية ومنهجية الاتباع لخير القرون، وإقامة مؤتمرات الحوار وغيرها لرد

المسلمين عن دينهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (البقرة: ٢١٧).

كما عرضنا أيضاً لبعض النماذج من رواد الإصلاح وتجديد التدين، ومحاولة المساهمة بإعادة التفاعل بين الإنسان والإسلام، وإثارة التفكير باختيار مواقع الاقتداء من خلال السيرة الأنموذج، التي عرضت لكل الحالات التي قد تعرض للبشر في حياتهم الطويلة الممتدة، بعيداً عن تقطيع الصورة الكلية أو الانتقاء منها أو تبعيضها، ذلك أن الاقتداء يبدأ من عند الحالة التي عليها الإنسان، ويرتقي بحسب الاستطاعات، فكل إنسان يعتبر مقتدياً متبعاً بحسب استطاعته، ولو فاته إنجاز بعض ما لا يستطيع، لأنه غير مكلف به: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦).

سائلين الله أن يسدد خطانا، ويرزقنا الإخلاص في النوايا، والصواب والسداد في العمل، إنه نعم المولى ونعم النصير.

في منهجية التأسّي والاقتداء



من نعم الله تعالىٰ علىٰ هذه الأمة، أن أوقفها على ما شرع للأمم السابقة، وأورثها النبوة والكتاب، واصطفاها لحمل الرسالة الخاتمة الخالدة، وحفظ لها كتابها من التحريف والتأويل، وناط بها الشهادة على الناس، والقيادة لهم، فقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣).

وجعل الإسلام دعوة ودولة، وقرآنًا وسلطانًا، وحذّر الأمة من موالاة أعدائها، الذين يودون عنتها ولا يألونها خبالاً، واعتبر موالاة غير الله ورسوله والذين آمنوا ردة عن الإسلام، وسببًا للسقوط والاستبدال، فقال تعالىٰ بعد أن نهىٰ عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة:٥٤).

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ (آل عمران:٧٢-٧٣).

كما حذّر الأمة المسلمة أيضًا من الغفلة وغيبوبة الوعي، وطلب إليها أن تبقىٰ يقظة حذرة من مكائد عدوها، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ (النساء:٧١).

٣٠٦٥/١٥٠

وقال: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء:١٠٢).

وشرع الجهاد لحماية منجزات الدعوة، ووقايتها من مؤامرات ومكائد الأعداء، وجعله رأس سنام الإسلام، كما جعله ماضيًا إلى يوم القيامة، لدرء الفتن، وإقرار حرية التدين، ودفع الاعتداء، فقال الرسول ﷺ: **«الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة»** (رواه الطبراني في الأوسط، وفي سنده مقال، ومعناه تشهد له أحاديث في الصحيحين وغيرهما)، لأن العدوان على هذا الدين مستمر إلى يوم القيامة، ولأن التدافع بين الحق والباطل من سنن الحياة الاجتماعية الماضية -فالشر من لوازم الخير- قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان:٣١)، فلابد أن يدرك المسلمون مهمتهم ورسالتهم، فيأخذوا حذرهم على الأصعدة المختلفة، وأن يعدوا ما استطاعوا من القوة والحذر واحتياطات الأمن، لنشر الدعوة وحماية منجزاتها، في كل المراحل، لأن حماية المنجزات وتأمين الامتداد، لا يقل أهمية عن الإنجاز نفسه.

والسبيل إلىٰ ذلك، هو في مراجعة وسائل الاقتداء برسول الرحمة ﷺ، فهو خير مثال يُحتذى في الدعوة والإنجاز، وفي وسائل حماية الدعوة والإنجاز وتأمين امتدادها، الذي جاء الأمة من نفسها، وبُعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢).

وهو الذي شهد الله له انه معلم الكتاب، ومزكي النفوس، ومنقي المسالك من الزيغ والانحراف، ومبين كيفيات تنزيل القرآن على الواقع، وتقويم سلوك البشرية به، ذلك أن من الأمور التي أصبحت مُسَلَّمة، أن العقل لايمكنه بأدواته ومحدوديته رؤية الصراط المستقيم، بنتائجه وعواقبه، ولو كان العقل دون الوحي قادراً على ذلك، لانتفت الحاجة إلى النبوة.. ولو كان قادراً على الاغتراف المباشر، أو التعامل المباشر مع القرآن، لما كان هناك حاجة إلى الرسول القدوة، الذي يجسِّد المبادئ ويقدم المثال الانموذج، ويُناط به البيان، بقوله وفعله وإقراره، أي بسنته وسيرته وما أقره من اجتهاد أصحابه.

ولعله من الأهمية بمكان، التأكيد على انه قد يكون من الأولويات المطلوبة باستمرار، إعادة بناء وتسديد مسيرة النخبة أو الطائفة القائمة على الحق، التي لا يضرها من خالفها، حتى يأتي أمر الله وهي على ذلك، لأن هذه الطائفة هي التي تشكل ضمير الأمة، وخميرة النهوض، والانموذج التطبيقي العملي لقيم الدين، والدليل الممتد على خلود الإسلام، وقابليته للتطبيق في كل زمان ومكان.. إنها الطائفة الأمل، التي تحاول النجاة اليوم في سفينة هي أشبه ما تكون بسفينة نوح عليه السلام، وذلك بالتزامها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والعض عليهما بالنواجذ، لتستأنف الدورة الحضارية القادمة -إن شاء الله- بعد أن عم الطوفان، وانتشر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

هذه القاعدة، أو هذه النخبة، أو الطائفة التي تتحقق بالمرجعية الشرعية من خلال الكتاب والسنة، هي المؤهلة لعملية التغيير والتصويب.. تصوِّب شهادة الرسول ﷺ على نفسها، لتصبح من ثَمَّ مؤهلة للشهادة على الأمة

والناس، استجابة لقوله تعالى: ﴿ لِّيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ (الحج:٧٨)، وتغطي الاختصاصات المتنوعة في شُعَب المعرفة، وتحقق الحضور والشهود والانموذج الذي يثير الاقتداء في المواقع المختلفة، وتدرك سنن الله في السقوط والنهوض الحضاري، على مستوى الأمة والنخبة على حد سواء، وبذلك تصبح قادرة على مغالبة قَدَر بقَدَر، او الفرار من قَدَر إلى قَدَر أحب إلى الله، بحيث تبصر سنة الله في الذين خلوا من قبل، وتدرك انّ هذه السنة قدر ممتد لا يتبدل ولا يتحول، قال تعالىٰ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب:٦٢). وقال: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر:٤٣).. اي تبصر الماضي، وتستوعب الحاضر، لتستشرف المستقبل.

منطلقات.. في إطار التاسي

وقد يكون من المطلوب، ونحن بين يدي محاولات جادة لدراسة وتحليل جوانب من عطاء السيرة النبوية على أكثر من صعيد، ليكون ذلك محلاً للاقتداء والتاسي، وتقديم رؤية منهجية لبناء النخبة، واصطفاء الكفاءات للمهمات التي تتناسب معها، وتسديد مسيرة الأمة، وبيان سبيل بنائها لمشاريع النهوض، وأهمية التنبه لحماية منجزاتها في كل مرحلة، لتفيد من ذلك كله في حاضرها ومستقبلها، أن نقدم بعض المنطلقات والمفهومات، التي نراها ضرورية في إطار التأسي والاقتداء.

* بشرية الرسول ﷺ :

ولعل القضية الأهم، التي لابد ان نعرض لها ابتداءً، ونوضحها في مجال تصويب مسالكنا لتتحقق شهادة الرسول ﷺ علينا، التي سبيلها التأسي والاقتداء، هي قضية بشرية الرسول ﷺ، وحدود وأبعاد عصمته، ذلك أن من الأمور المقررة شرعًا وعقلاً وواقعًا، أن الرسول ﷺ بشرٌ يُوحىٰ إليه، وهي حقيقة أكدها القرآن الكريم، واعتبرها من الأمور المحسومة غير القابلة للتشكيك أو المساومة، لما للغفلة عنها من الأبعاد والآفاق والتداعيات الخطيرة، في مجال العقيدة والعبادة والسلوك.

وحسبنا في ذلك، ما قصّه القرآن علينا من صور الضلال والتضليل الذي وقع به اصحاب الأديان السابقة، ممن قالوا: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، وما كان لذلك من المضاعفات التي اصابت الركيزة الأساس، والمنطلق الأول: عقيدة التوحيد أو التدين بشكل عام، والآثار الشركية الخطيرة التي ترتبت على ذلك في النظر للخالق، والحكم على القدرة والإرادة والفعل من خلال صفات المخلوق، والنظر للرسول المخلوق العبد، ومنحه من القدرة والإرادة وفعل الخوارق والقدسية من خلال صفات الخالق سبحانه وتعالى، وانعكاس ذلك فيما بعد على ممارسات رجال الدين في التسلط والاستغلال، والتميز عن خلق الله بما يدّعون من خلافة الألوهية ووراثتها، حتى جاء الإسلام، وصوّب الأمر، واعاده إلى نصابه، على مستوى العقيدة، والعبادة، والسلوك، والكون، والحياة:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

«أنتم بنو آدم، وآدم من تراب» (رواه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة).

«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» (متفق عليه).

إنه التصويب لمسيرة الحياة على مستوى الإنسان والزمان والمكان.

وقد يكون من المفيد للتذكير، ان ناتي ببعض النصوص التي تؤكد بشرية الرسول ﷺ، لان هذه البشرية تعتبر فيصلاً في مجال العبودية والتدين والتاسي والاقتداء، الذي هو السبيل لإعادة بناء النخبة، وتشكيل الأمة:

قال تعالىٰ:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٧٩).

﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ (إبراهيم: ١٠).

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (إبراهيم: ١١).

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (الكهف: ١١٠).

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٤).

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ (الشورى: ٥١).

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ (هود: ٢٧).

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣).

وقال الرسول ﷺ: **«إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، فلعل بعضَكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيتُ له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار»** (رواه مالك وأحمد والشيخان عن أم سلمة).

وقال لرجل مرتعد خائف متهيب من مقابلة الرسول ﷺ: **«هوّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابنُ امرأة من قريش كانت تأكل القَديد»** (رواه ابن ماجه والحاكم عن أبي مسعود البدري).

«إنما أنا بشرٌ مثلكم، وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلتُ لكم: قال الله، فلن أكذب على الله» (رواه أحمد وابن ماجه من حديث طلحة).

«إنما أنا بشر مثلكم، أنسىٰ كما تنسون، فإذا نسيتُ فذكروني» (رواه الشيخان عن ابن مسعود).

«يا أم سُلَيْم! أما تعلمين أني اشترطتُ علىٰ ربي فقلتُ: إنما أنا بشر، أرضىٰ كما يرضىٰ البشر، وأغضبُ كما يغضبُ البشر، فأيما أحد دعوتُ عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل، أن تجعلها له طهوراً وزكاة، وقُربة تقرّبه بها منك يوم القيامة» (رواه أحمد ومسلم عن أنس).

وهذه البشرية، جعلت حياة الرسول ﷺ كحياة البشر، دون تميز عمن حوله، لذلك كان الاعرابي إذا غشي المجالس يقول: أيكم محمد؟

هذه النصوص، التي لم نوردها على سبيل الاستقصاء، وإنما أتينا على ذكر نماذج لترسيخ الحقيقة التي تؤكد البشرية للرسل ، وأنه يجري عليهم ما يجري على سائر البشر، من خضوعهم لقوانين الحياة، من الولادة والوفاة، والصحة والمرض، والطعام والشراب، والغضب والرضا، وما إلى ذلك من الخصائص والصفات التي غرزها الله في طبائع البشر وكينونتهم، وأودعها فيهم.. ولهذا المنطلق أهمية قصوى في مجال العقيدة والعبادة والسلوك والدعوة والتاسي والاقتداء، الأمر الذي سنعرض له في مكانه إن شاء الله تعالى.

* حدود العصمة :

والجانب الآخر والأهم ، الذي قد يعتبر مكملاً لموضوع بشرية الرسل أو بشرية الرسول القدوة عليه الصلاة والسلام، هو ما يمتاز به عن سائر البشر من الوحي، أو من العصمة في تبليغ الرسالة، وما يقتضيه ذلك من الصفات.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «الحديث النبوي: هو عند الإطلاق ينصرف إلى ما حُدِّثَ به عنه ﷺ بعد النبوة، من قوله وفعله وإقراره، -والسيرة فعله وإقراره لفعل أصحابه رضي الله عنهم- فإن سنته ثبتت من هذه الوجوه الثلاثة، فما قاله، إن كان خبرًا وجب تصديقه به، وإن كان تشريعًا إيجابًا أو تحريمًا أو إباحة، وجب اتباعُه فيه، فإن الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون - عن الخطأ - فيما يخبرون به عن الله عز وجل، فلا يكون خبرهم إلا حقًا، وهذا معنى النبوة، وهو يتضمن أن الله يُنَبِّئُه بالغيب، وأنه يُنبِئ الناسَ بالغيب، والرسول ﷺ مأمورٌ بدعوة الخلق

وتبليغهم رسالات ربه» (نقلاً عن قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، لجمال الدين القاسمي رحمه الله، ص٦٢).

واختلف العلماء - كما هو معروف في مظانه من كتب العلم - : هل ما ورد عن النبي ﷺ كله من الوحي؟ كما اختلفوا أيضاً في حدود عصمة الأنبياء، وهل هي عصمة مطلقة لكل ما يصدر عنهم، سواء في ذلك ما يتعلق بإبلاغ الرسالة، أو غيرها من الأمور الدنيوية؟

فذهب بعضهم إلى أن الرسول ﷺ لا يقول إلا حقًا، لأنه مؤيد بالوحي ومسدد به، وهذا يعني أن كل ما ورد عنه بطرق النقل المعتمدة علمياً ومنهجياً يعتبر وحياً، ودليلهم في ذلك ما روي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما، وكان يكتب كل ما يسمع من النبي ﷺ، فقال له بعض الناس : إن رسول الله يتكلم في الغضب، فلا تكتب كل ما تسمع، فسأل النبي ﷺ عن ذلك فقال : **«اكتبْ فوالذي نفسي بيده، ما يخرج منه (يعني فمه) إلا حق»** (رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عمرو).

أما ان الحديث (القول والفعل والتقرير، والسيرة فعل وتقرير كما أسلفنا) من الوحي، فالعلماء مجمعون على ذلك، إذا كان موضوعه مما له علاقة بمهمة الرسول ﷺ في إبلاغ الرسالة، أو بيان مجمل القرآن، أو تشريع الأحكام الجديدة في الحلال والحرام، لحديث المقدام بن معديكرب، قال: قال رسول ﷺ : **«ألا إنِّي أوتيتُ القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، وإن ما حرّم رسول الله كما حرّم الله»** (رواه أبو داود والدارمي، وابن ماجه عن المقدام بن معديكرب).

وما روي عن حسان بن عطية، قال: كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن.

وما روي عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: **«آتاني الله القرآن ومن الحكمة مثليه»** (رواهما أبو داود في مراسيله).

لذلك يرى هؤلاء العلماء ان العصمة هي في حدود ما كان له علاقة مباشرة بمهمته عليه الصلاة والسلام، من حيث إبلاغ الرسالة، وبيان احكام الحلال والحرام.

أما فيما يتعلق بأمور الدنيا من الحرف والصناعات والزراعات، وما له علاقة بالاجتهاد والظن، فإنما يرد إلى طبيعته البشرية، وآرائه الدنيوية القابلة للخطأ والصواب، لذلك نرى ان النووي رحمه الله سلك هذا المسلك في شرحه لحديث تابير النخل، في باب: وجوب امتثال ما قاله ﷺ شرعًا، دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الراي (مسلم بشرح النووي، ١٣/ ١١٦).

وقد أوضح الرسول ﷺ ذلك في طائفة من أقواله وأفعاله، ومنها: حديث: **«إنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطئ ويصيب»**(رواه مسلم).

والخلاصة التي ننتهي إليها -والله اعلم- ان العصمة إنما تكون في حدود ما تميز به الرسول ﷺ عن سائر البشر من الوحي وإبلاغ الرسالة، لان مجرد احتمال الخطأ يعود بالشك والإبطال لمعرفة الوحي أصلاً -لانه كما هو معلوم: إذا طرا الاحتمال بطل الاستدلال- وما يقتضيه إبلاغ الرسالة من الخصائص

والصفات المعروفة، وأن كل ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام عن طريق النقل المعتمد من اجتهاد في هذا المجال هو معصوم، لأنه إما صواب فيقره الوحي، وإما خطأ فيصوبه الوحي، وهذا الرأي هو الذي تطمئن إليه النفس، وتؤيده النصوص الشرعية في الكتاب والسنة.

ونخشى أن نقول: إن المغالاة في أبعاد العصمة، وما يترتب على ذلك من الإطراء والتقديس، يمكن أن تُلغيْ معها الطبيعة البشرية للرسول عليه الصلاة والسلام، وترفعه إلى مرتبة الألوهية، الأمر الذي يُناقض قوله عليه الصلاة والسلام: **«لا تُطْرُوني كما أطْرَتْ النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»** (رواه البخاري عن عمر).

كما أن هذه المغالاة في العصمة سوف يترتب عليها الكثير من المخاطر العقدية والتربوية.. والأهم -في تقديري، فيما يخص نطاق التأسي- أنها ستُخرج الرسول ﷺ من أن يكون محلاً للتأسي والاقتداء للبشر، الذي يخطئ ويصيب، إذ كيف يمكن لبشر أن يقتدي بمن لا يتصف بصفات البشر، ولا يعاني معاناة البشر، ولا يجري عليه ما يجري على البشر من الخطأ والصواب؟

لذلك نقول: إن المشكلة كل المشكلة فيما لو لم يكن الرسول ﷺ بشراً، يجري عليه ما يجري علىٰ البشر، وليست المشكلة في كون الرسل من البشر، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ولقد أكّد القرآن الكريم هذه النقطة وصوبها، ودحض شبهة المشركين بقوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام:٩).

فالذين يغالون في قضية العصمة، ولو بنيّة سليمة وحماس للإسلام ورسوله، يُخرجون الرسول عليه الصلاة والسلام، من حيث يدرون أو لايدرون، من مجال الاقتداء والتاسي، وبذلك يحاصرون خلود الرسالة وعطاءها في كل زمان ومكان، ويبتعدون بالمثال والأنموذج عن الواقع، وعن إمكانية التطبيق، وقد يقعون في التاليه –والعياذ بالله– كما فعلت اليهود والنصارى.

فالرسول القدوة ﷺ بشر إنسان، ابتُعث في قومه ومنهم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢). ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

إنه ﷺ بشر إنسان، خضع في حمله وولادته ورضاعه، ويتمه وشبابه وهرمه، ومرضه ووفاته، للسنن الفطرية والقوانين الطبيعية، التي يخضع لها سائر البشر، فلقد كان حمله طبيعيًا، استغرق مدة الحمل نفسها، كما كانت ولادته طبيعية كسائر الولادات، وعانى من فقد الأب والأم ككثير من البشر، وخضع لكفالة الأقارب، وبلغ سن الشباب، وعمل في الأعمال الموجودة في مجتمعه، والتي كان يمارسها قومه كالرعي والتجارة، وتزوج وأنجب، وفقد الابن والبنت والزوجة والصِّديق، وتعرّض للأذى والمرض، والنصر والهزيمة، وحلّت به جراحات الحرب، مما يمكن ان يحل بكل إنسان، وتعرّض للنسيان كسائر البشر، فعندما نسي في صلاته أكد على بشريته فقال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسىٰ كما تنسون، فإذا نسيتُ فذكّروني» (رواه الشيخان عن

ابن مسعود).. وأعلن أكثر من مرة أنه بشر من البشر، وأن النبوة لم تخرجه عن بشريته، وإنما امتاز عن البشر بالوحي والعصمة في تبليغ الرسالة.

ولعل قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾، يعبّر أدق تعبيرعن هذه الحقيقة.

* من متطلبات الإصلاح والتغيير:

وهنا قضايا قد يكون من المفيد التوقف عندها قليلاً لما لها من علاقة ببشرية الرسول القدوة ﷺ، وحدود عصمته، وأنه بُعث في الأمة الأمية رسولاً منها، أو من نفسها، ونحن نحاول أن نلمح بعض مواقع التأسي والاقتداء، ومنطلقات التعامل معها، وهي:

- إن حركات التغيير والإصلاح ومشاريع النهوض والاقتداء، بكل أهدافها ووسائلها وآلياتها وأدواتها المعرفية، لابد أن تخرج من رحم المجتمع نفسه، وتكون مستوعبة لمعادلة الأمة الاجتماعية، ومتمثلة لقيمها الدينية، مدركة لمشكلاتها ومعاناتها الواقعية، تفقه القيم الإسلامية، وتفهم العصر ومشكلاته، وتتعامل مع السنن الجارية على البشر، وتؤمن أن التغيير المنشود إنما يتحقق من خلال عزمات البشر واستطاعاتهم واجتهادهم وجهدهم.

- وإن أية مشاريع للإصلاح والتغيير، تأتي من خارج الأمة، وتجافي القيم الإسلامية، وتجهل معادلة الأمة الاجتماعية، أو تعدل عن السنن الجارية إلى السنن الخارقة، سوف تُمنىٰ بالفشل.

ـ وإن اية مشروعات تحاول ان تخرج الرسول ﷺ عن طبيعته البشرية وتغالي في حدود عصمته، سوف تخفق في الاقتداء، وفي تحقيق أهدافها، لانها تناقض الحقيقة، وتنافي منهج الرسول ﷺ وسيرته.

ـ وإن عصمة الاجتهاد والفكر ليست لاحد، فكل إنسان يجري عليه الخطأ والصواب، عدا المسدد بالوحي.. وإن كل اجتهاد قابل للمراجعة والنقد والنقض والرد.. وإن العصمة للكتاب والسنة، وبعد ذلك، وفي هدي ذلك، لعموم الامة، بدليل قوله ﷺ:

«إن الله تعالىٰ لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله فوق الجماعة، ومن شذ شذ في النار» (رواه الترمذي عن ابن عمر).

«إن الله تعالىٰ قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة» (رواه ابن ابي عاصم عن انس).

«إن أمتي لن تجتمع على ضلالة» (رواه ابن ماجه عن انس).

ـ وإن كل حركة إصلاح أو تغيير تعجز عن تقديم الحلول في ضوء السيرة، التي تمثل الفقه والتجسيد العملي أو التنزيل العملي لقيم الكتاب والسنة على الواقع، هي بعيدة عن الاقتداء، وعاجزة عن تمثل القيم الإسلامية، فالسيرة هي البيان النبوي العملي والضابط لكيفيات تعامل البشري بطبيعته ومحدوديته وظروفه، مع الوحي المعصوم والمطلق والصالح لكل زمان ومكان.

فالخلود للرسالة الإسلامية يعني، فيما يعني، امتلاك الإمكانية على قراءة السيرة في كل عصر، بشكل يحقق القدرة على الإجابة عن مشكلات الواقع

في كل زمان ومكان، أو بمعنى آخر امتلاك القدرة على تجريد السيرة النبوية من قيد الزمان والمكان، وتوليد رؤية من خلالها، لمعالجة الواقع والإجابة عن أسئلته ومشكلاته ، وإن أية قـراءة بعيدة عن هذه الإجابة ، أو عاجزة عنها ، أو لا تشكل رؤية إضافية، هي تكريس للضياع، وتعطيل لفاعلية السيرة في حياة الامة.. صحيح أن المسلمين نقلوا السيرة من جيل إلى جيل، فحققوا أمانة النقل والحفظ.. أما قراءة السيرة لكل جيل من خلال مشكلاته ومعاناته والإجابة عن أسئلته، فقد لا يتوفر في المكتبة الإسلامية من ذلك إلا النذر اليسير.

لقد تحولت السيرة في مجتمعات الجهل والتخلف، إلى موالد وموائد واناشيد وطبول، تشيع فيها البدعة، وتغيب فيها السنة، وتضيع معها الأوقات في الأكل والشرب والطرب!

وإذا نظرنا إلى المشكلة من هذه الزاوية -زاوية قراءة السيرة لكل جيل من خلال مشكلاته- أمكننا القول: إن الكثير من الكتابات في السيرة، التي بين أيدينا، إذا نزعنا عنها تاريخ الطبعة واسم المؤلف، اي إذا نزعنا غلاف الكتاب، لا يمكن أن نعرف لأي عصر تنتسب، وأي مجتمع تُخَاطِب، وفي اي زمن صدرت، ما لم ننظر في اسم المؤلف وتاريخ الطبعة ومكان الصدور.

وقد تكون المشكلة الحقيقية هنا، تكمن في غياب المقاصد الحقيقية، التي تمثل معاني الخلود، عند دارسي السيرة النبوية، الخلود الذي يعني تجردها عن قيود الزمان والمكان، وقدرتها على الإجابة عن مشكلات الأمة في كل زمان ومكان -كما أسلفنا- الأمر الذي جعلها -على أحسن الأحوال- تاريخاً من التاريخ ، وليست مصدراً للتشريع والاهتداء.

ـ وإن أية مشروعات تحاول أن تخرج الرسول ﷺ عن طبيعته البشرية وتغالي في حدود عصمته، سوف تخفق في الاقتداء، وفي تحقيق أهدافها، لأنها تناقض الحقيقة، وتنافي منهج الرسول ﷺ وسيرته.

ـ وإن عصمة الاجتهاد والفكر ليست لأحد، فكل إنسان يجري عليه الخطأ والصواب، عدا المسدد بالوحي.. وإن كل اجتهاد قابل للمراجعة والنقد والنقض والرد.. وإن العصمة للكتاب والسنة، وبعد ذلك، وفي هدي ذلك، لعموم الأمة، بدليل قوله ﷺ :

«إن الله تعالىٰ لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله فوق الجماعة، ومن شذ شذ في النار» (رواه الترمذي عن ابن عمر).

«إن الله تعالىٰ قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة» (رواه ابن أبي عاصم عن أنس).

«إن أمتي لن تجتمع على ضلالة» (رواه ابن ماجه عن أنس).

ـ وإن كل حركة إصلاح أو تغيير تعجز عن تقديم الحلول في ضوء السيرة، التي تمثل الفقه والتجسيد العملي أو التنزيل العملي لقيم الكتاب والسنة على الواقع، هي بعيدة عن الاقتداء، وعاجزة عن تمثل القيم الإسلامية، فالسيرة هي البيان النبوي العملي والضابط لكيفيات تعامل البشري بطبيعته ومحدوديته وظروفه، مع الوحي المعصوم والمطلق والصالح لكل زمان ومكان.

فالخلود للرسالة الإسلامية يعني، فيما يعني، امتلاك الإمكانية على قراءة السيرة في كل عصر، بشكل يحقق القدرة على الإجابة عن مشكلات الواقع

في كل زمان ومكان، أو بمعنى آخر امتلاك القدرة على تجريد السيرة النبوية من قيد الزمان والمكان، وتوليد رؤية من خلالها، لمعالجة الواقع والإجابة عن أسئلته ومشكلاته ، وإن اية قـراءة بعيدة عن هذه الإجابة ، أو عاجزة عنها ، أو لا تشكل رؤية إضافية، هي تكريس للضياع، وتعطيل لفاعلية السيرة في حياة الأمة.. صحيح ان المسلمين نقلوا السيرة من جيل إلى جيل، فحققوا أمانة النقل والحفظ.. أما قراءة السيرة لكل جيل من خلال مشكلاته ومعاناته والإجابة عن أسئلته، فقد لا يتوفر في المكتبة الإسلامية من ذلك إلا النذر اليسير.

لقد تحولت السيرة في مجتمعات الجهل والتخلف، إلى موالد وموائد واناشيد وطبول، تشيع فيها البدعة، وتغيب فيها السنة، وتضيع معها الأوقات في الأكل والشرب والطرب!

وإذا نظرنا إلى المشكلة من هذه الزاوية -زاوية قراءة السيرة لكل جيل من خلال مشكلاته- امكننا القول: إن الكثير من الكتابات في السيرة، التي بين أيدينا، إذا نزعنا عنها تاريخ الطبعة واسم المؤلف، اي إذا نزعنا غلاف الكتاب، لا يمكن ان نعرف لاي عصر تنتسب، واي مجتمع تُخَاطِب، وفي أي زمن صدرت، ما لم ننظر في اسم المؤلف وتاريخ الطبعة ومكان الصدور.

وقد تكون المشكلة الحقيقية هنا، تكمن في غياب المقاصد الحقيقية، التي تمثل معاني الخلود، عند دارسي السيرة النبوية، الخلود الذي يعني تجردها عن قيود الزمان والمكان، وقدرتها على الإجابة عن مشكلات الأمة في كل زمان ومكان -كما أسلفنا- الأمر الذي جعلها -على أحسن الأحوال- تاريخًا من التاريخ ، وليست مصدراً للتشريع والاهتداء.

ومما لا شك فيه أن السيرة من الناحية الزمانية والناحية المكانية ، أي الجغرافيا التاريخية، تمثل حلقة تاريخية من حياة الأمة المسلمة، لكن هذه المرحلة هي من التاريخ، وهي من الحاضر، وهي من المستقبل.. هي من التاريخ والجغرافيا زمانًا ومكانًا، كما أسلفنا، لكنها من الحاضر عطاءاً ومصدراً للتشريع، ومن المستقبل رؤية واستشرافًا.. فإذا كان التاريخ مصدراً للدرس والعبرة، فإن السيرة مصدر لذلك وما فوقه، فهي مصدر للتشريع، لأنها فترة مسددة بالوحي ومؤيدة به، وحقبة بيان عملي، ودليل تعامل خالد، لتنزيل قيم الإسلام أو قيم السماء على الواقع البشري، لذلك فأية دراسة للسيرة لاتتحقق بهذه الرؤية، ولا تنطلق من هذه المنطلقات، سوف لا تبلغ المقصد، ولا تحقق الهدف.

إن غياب هذا المنطلق أو هذه الرؤية، أدى من جانب إلى الامتداد والاستمرار والتبحر في فقه الأحكام النظري، سواء في ذلك الفقه الذي يسير خلف المجتمع، ويكتفي بالحكم على تصرفاته بالحلال والحرام، بدل أن ينزل إلى الساحة فيصبغها بفعل الحلال ومنع الحرام، أو الفقه الذي خرج من الحاضر والمستقبل، واستغرقه التنظير بالفراغ بعيداً عن معالجة المشكلات الحقيقية.

كما أدى غياب هذا المنطلق وهذه الرؤية أيضًا، إلى تراجع أو توقف الاجتهاد في الفقه التطبيقي، أو ما يمكن أن نطلق عليه فقه التنزيل، فتحول الفقه إلى تجريدات ذهنية بعيدة عن الواقع، وبدأ مجتمع المسلمين يتشكل ويحل مشكلاته بالوافد من القوانين والخطط المطلوبة للحياة، التي ابتعدت به عن الفقه التطبيقي، وأصبح الفقه لاحقًا للمشكلات لا سابقًا عليها كي ينير لها الطريق.

* السيرة هي المعيار:

وهنا قضية جديرة بالتنبه، وهي أن السيرة النبوية التي اكتملت على عين الوحي وتسديده، والتي هي فعل المعصوم، لها صفة المعيارية الخالدة في الإطار العملي التطبيقي.

والمسيرة الإسلامية، أو أقدار التدين، في ارتفاعها وانخفاضها، والجماعات والأفراد، والجمعيات والمؤسسات، قد تحاول التأسي والاقتداء، وقد يقوم بعض الكتاب والباحثين بنوع من الإسقاط للسيرة على تصرف بعض الجماعات أو الأحزاب أو المؤسسات، لتسويغ بعض الممارسات، وإعطائها صفة المشروعية، سواء في ذلك الدراسات التي تسبق التصرف والممارسة لإعطائه جواز المرور والتبني، أو التي تلحق التصرف لتسويغه وتبريره وإعطائه صفة المشروعية، كأن تُقرأ السيرة حركيًا أو عسكريًا، أو أمنيًا، أو اقتصاديًا، أو تربويًا، أو ما أشبه ذلك من القراءات، وتُفَصَّل حوادثها على تصرفات جماعة أو مؤسسة.

إن هذه القراءات أو هذه الإسقاطات، مهما كانت دقيقة أو غير دقيقة، لايمكن بحال من الأحوال أن تكتسب صفة القدسية أو العصمة، أو بعبارة أدق صفة المعيارية، وتصبح بديلاً عن السيرة، مهما اقترب الاجتهاد من الصواب وابتعد عن الخطأ، ذلك أن السيرة بما توفر لها من رعاية الوحي، وفعل المعصوم، تبقى لها وحدها صفة المعيارية.

من هنا نقول: إنه من الخطورة بمكان تفصيل قيم السيرة وأحداثها على واقع بعض الجماعات والمؤسسات، لتصبح فيما بعد ممارسة الجماعات

والمؤسسات هي المعيار، لأن في ذلك ما فيه من إجهاضٍ لمعاني السيرة النبوية، وقدسيتها.

إن ممارسة الجماعات والأفراد والجمعيات والمؤسسات لها صفة التاريخ، الذي يفيد العبرة أو الدرس، ولا تكتسب المعيارية كالسيرة.

ولعل الإشكالية الأكثر خطورة في الكتابة عن السيرة، هي في افتقاد بعض الباحثين والدارسين إلى المرجعية الشرعية، أو النظام المعرفي الإسلامي المستخدم في النظر والتحليل، البعيد عن الإدراك والإحاطة بمعرفة الوحي، التي تشكل الضابط المنهجي والإطار المرجعي لكل دراسة في المجال الإسلامي بشكل عام، وفي السيرة بشكل أخص، حتى لو جاءت هذه الدراسة من المنتصرين أو المتحمسين للقضية الإسلامية، ذلك أن الإصابات والحفر التي تأتي من قبل المتحمسين المفتقدين للمرجعية الشرعية في النظر والتناول، تكون علىٰ المدى البعيد هي الأخطر، لأنها تصنع مشكلة وتساهم بالتشكيل الذهني والثقافي الغلط بدل أن تقدم حلاً، وتزيد من حالة التخاذل الثقافي..

وكأني بحال الذين يُقْدِمُون على أمرٍ، دون امتلاك أدواته ووسائله، يشبه إلى حد بعيد حال بعض وَضَعَةِ الحديث، الذين كانوا يسعون إلى كل قول جميل أو منمق أو مرغوب، وينسبونه إلى الرسول ﷺ، كأن يزيدون في العبادات والطاعات، رغبة في الترغيب والترهيب، من عند أنفسهم، وينسبون ذلك إلى الرسول ﷺ، وإذا استُنكر عليهم ذلك، واستُشهد بقوله ﷺ: **«من كذب عليّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار»** (حديث صحيح متواتر، رواه الشيخان وغيرهما)، قالوا: إننا نكذب له ولا نكذب عليه.. وفي النهاية، فالكذب له كالكذب عليه، لأن كليهما كذب واستدراك علىٰ الشرع، وهي أحاديث موضوعة، كما يقرر علماء مصطلح الحديث.

* منهج قراءة السيرة :

أما قضية قراءات السيرة بأنظمة معرفية أخرىٰ، رأسمالية، واشتراكية، وعلمانية، وقومية، من الخارج الإسلامي، ومحاولة تقطيعها والانتقاء من أحداثها، وفصلها عن نسقها المعرفي وسياقها ومناسباتها، وذلك نتيجة طبيعية، عندما تصاب الأمة بحالة التخاذل الثقافي، ويصبح تراثها نهبًا لكل سارق، ومستباحًا لكل صاحب هوى، ومشاعًا لكل دَعِي، فعند ذلك تصبح السيرة، ويصبح التراث عامة، مدخلاً أو معبرًا للغزو الفكري، الذي يُعطىٰ المشروعية والقبول في الداخل الإسلامي.

ولسوف تستمر القراءات للسيرة النبوية بأنظمة معرفية من الخارج الإسلامي، وسوف تمتد في الداخل الإسلامي، طالما أن حالة التخاذل الثقافي هي المسيطرة والمتحكمة، ويكتفي الكثير من المسلمين بالتبرك والفخر بالسيرة، دون القدرة على الإفادة من عطائها.

وسوف تستمر القراءات الفاقدة للمرجعية أيضًا، للسيرة النبوية في الداخل الإسلامي، والتي لا تورث إلا تكريس التخاذل الثقافي، طالما لم تأخذ السيرة النبوية البعد المطلوب من الدراسة والتحليل ضمن منهج معرفي واضح، مستمد من القيم والمعايير نفسها، التي جسدتها السيرة في واقع الناس.. ضمن منهج ينطلق من مقاصد الدين، وخلود وخاتمية الرسالة، وهداية الوحي، وعصمة النبوة، وسلامة النقل، ودراية العقل.

وقد يكون المطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضىٰ، حيث تعاني الأمة ما تعاني على أكثر من صعيد، قراءة السيرة ودراستها دراسة استراتيجية، في

مختلف المجالات، السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية، والأمنية، والثقافية.

فإذا كانت السيرة -كما أسلفنا- هي التجسيد الخالد للرسالة، والبيان العملي للقرآن وتنزيله على واقع الناس، الأمر الذي يعني أنها -ومن خلال مسيرة النبوة التي بلغت ثلاثة وعشرين عامًا بين الدعوة والدولة، حتى وصلت إلى مرحلة الكمال والاكتمال، والتي تم خلالها بناء أنموذج الاقتداء- استوعبت جميع الحالات أو أصول الحالات، التي يمكن أن تمر بها البشرية حتى قيام الساعة، يبقى المطلوب من الدراسة الاستراتيجية التي ندعو إليها: الدقة في قراءة الواقع الذي عليه الناس، والإحاطة بعلمه من خلال متخصصين لا متحمسين فحسب، وتحليله بدقة، ومن ثم دراسة وتحليل السيرة -والتحليل المقصود غير النقل- والتفسير للأحداث، ومن ثم تحديد موقع الاقتداء من مسيرة السيرة، أو اكتشاف المرحلة من السيرة التي تمثل حالة الاقتداء وكيفية الاقتداء، من خلال ظروف الحال التي عليها الناس.

وهذا لا يعني بحال من الأحوال سقوطًا في منهج الانتقاء، أو إخضاع السيرة لمنهج الانتقاء والتقطيع -كما يحلو لبعضهم أن يصف ذلك، ويخلط فيما يدعيه من الرؤية الشمولية، بين مرحلة الدعوة ومرحلة الدولة، ومرحلة الضعف ومرحلة التمكين، وبذلك تصبح السيرة عبئًا ومعوقًا بدل أن تكون حلاً هاديًا لمعالجة مشكلات الأمة- وإنما يعني التحقق بالرؤية الشاملة للسيرة، بمراحلها المتعددة، ووضع واقع الأمة في موقعه المناسب من مسيرة السيرة.. ولا أقصد هنا التقسيم الزمني، الذي وقع فيه كثير من الدارسين أو المتحمسين، فبدل أن يدركوا المنهج النبوي ومرونته، ويُسَخِّروا الزمن ضمن الإمكانات المتاحة، أصبحوا هم مسخَّرين للزمن، ومحكومين به، يعانون من

حالة التيبس والعطالة، دون النظر للاستطاعة وواقع المجتمع.. لذلك حاولوا تحكيم الزمن بمسيرتهم، فجعلوا ثلاثة عشر عاماً للدعوة، لتبدأ بعد ذلك مرحلة الدولة، فأخفقوا وأحبطوا.. ولا نعني باختيار الموقع المناسب للاقتداء، من خلال مسيرة السيرة، اعتبار ذلك هو الحالة النهائية للاقتداء، وإنما هو اختيار المرحلة التي تتناسب مع الواقع، ودراسة إمكانات تطوير الواقع، للارتقاء به إلى الحالة الأعلى، وهكذا حتى نصل إلى حالة الكمال والاكتمال.

ولعل الصورة التوقيفية التي انتهىْ إليها ترتيب سور وآيات القرآن، الذي جاءت السيرة بياناً عملياً له، وتجسيداً لقيمه في واقع الناس، تلقي أضواءً كاشفة وهادية، لكيفية التعامل مع القرآن، ومع بيانه العملي (السيرة) أيضاً في كل المراحل والحالات، التي تتعرض لها الأمة.. فالقرآن الكريم لم تُرتب سوره وآياته حسب أزمنة النزول، كما هو معلوم، ولو كان ذلك كذلك، لكان الزمن هو المتحكم بالإنسان، وإنما جاء الترتيب بالصورة التي هو عليها الآن –والله أعلم– ليكون الإنسان مُسَخَّراً للزمن ومتحكماً فيه، ويستطيع أن يحدد الموقع المناسب للاقتداء من خلال قيم القرآن ومسيرة السيرة، بحسب الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة، وطبيعة أقدار التدين، صعوداً وهبوطاً، فلو اقتضى الاقتداء، في ظرف من الظروف، الموقع الأعلى، ومن ثم هبطت أقدار التدين أو أصيبت الإمكانات ببعض العجز، يمكن للإنسان أن يعيد النظر في موقع الاقتداء بحسب الحال التي هو عليها، ولا يخضع لقوالب جامدة، أو لتحكم زمني خارج عن قدرته وإرادته واستطاعته.

وإذا لم تدرس السيرة بهذه الرؤية المنهجية، الاستراتيجية، التي تمكن من الإجابة عن أسئلة الواقع، ومعالجة مشكلاته، فسوف تبقى في خانة التبرك والفخر، أو الخلط بين الأمنيات والإمكانات.. بين مراحل الدعوة والدولة، والقوة والضعف، والنصر والهزيمة، والسلطان والقرآن، مهما ادعينا غير ذلك.

٣٠٨٥/١٥

ويبقى السؤال المطروح دائمًا على الدارسين والباحثين والأكاديميين والمفكرين: كيف نتعامل مع السيرة في هذه المرحلة، وكيف يكون الاقتداء؟

إن الواقع يتغير من حولنا، ووسائلنا في العمل والاقتداء وقراءة قيمنا في الكتاب والسنة والسيرة لا تتغير، ونواجه الحالات المتنوعة والمختلفة بوسائل واحدة، على عكس منهج السيرة النبوية التي اتخذت لكل مرحلة ما يناسبها من الوسائل.. ويكفي هنا، من مئات الأمثلة، ما قاله الرسول ﷺ لعمار بن ياسر عندما أذن له بنطق كلمة الكفر للخلاص من الأذىٰ، طالما أن قلبه مطمئن بالإيمان، ونزل في ذلك قرآن خالدٌ يُتلىٰ على الزمن، لأن هذه الحالة يمكن أن تتكرر على الزمن، وكان مما قاله: **« إن عادوا فعد! »** (رواه البيهقي).

من مواقع الاقتداء:

وتبقى قضية اعتقد أنها من الأهمية بمكان في مجال الاقتداء، وهي أن الآية التي وردت بالاقتداء في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢١ – ٢٢)، نزلت بمناسبة غزوة الأحزاب، حيث رمىٰ العربُ المسلمين عن قوس واحدة، وحيث زُلزلت النفوسُ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ، وكاد أن يهتز الاقتداء، لتَخَلُّفِ النصر والنتائج بشكل عام.. جاءت لتؤكد أن الاقتداء إنما يكون في مواطن الشدة والصبر، والبأس والضيق، ومؤشرات فوات الحياة الدنيا، وتبين كيف أن الارتباط بالآخرة، هو سبيل الصمود والحماية من السقوط.. فالاقتداء لا يكون باليسر دون العسر..

والاقتداء لا يكون بالكماليات من مقاصد الشريعة دون الضروريات والحاجيات.. والاقتداء لا يكون بالاشكال دون الافعال.

ونحن هنا لا نحط من قدر الاقتداء بالرسول ﷺ في طعامه وشرابه ولباسه ونومه ويقظته، وعاداته وسننه كلها، لان ذلك يعتبر تربويًا من الاهمية بمكان في صياغة الشخصية وبنائها، على طريقة التربية النبوية، ولكن نقول: إن للدين مقاصد تتمثل في تحقيق ضروريات لا تقوم الحياة إلا بها، وحاجيات لاتُحمى وتقام الضروريات إلا بتوفيرها، وكماليات وتحسينيات تعتبر أموراً جمالية، انعدامها قد لا يؤثر في قيام الحياة.

لذلك، تبقى المشكلة التي نعاني منها اليوم، هي في الحرص على الاقتداء بالتحسينيات، والتخاذل عن الاقتداء بالضروريات والمقاصد الكبرى.

هذه قضية، وقضية أخرى لعل تحرير القول فيها أصبح ضروريًا، بعد أن تحوّل العقل المسلم المعاصر من التوكل إلى التواكل والإرجاء، والعجز عن التعامل مع الحياة، وتقويم مسيرتها.. لقد خرجنا من الحياة، وافتقدنا القدرة على التعامل مع مشكلاتها في ضوء السيرة النبوية، وانتهينا إلى المقابر، سواء في ذلك من يعتبر الأموات سبيلاً لحل مشكلاته فيستغيث بهم، أو من يعتبر الأموات سببًا لمشكلته فيرى معركته معهم، أو من حاول ستر عجزه عن التاسي والاقتداء بالسيرة، وذلك بالخروج وإسقاط عجزه عليها واستدعاء «الآخر».

والقضية التي نعرض لها هي: أن مسيرة السيرة النبوية كلها، تحققت من خلال التعامل مع السنن الجارية، التي تقتضيها بشرية الرسول ﷺ، وتحتملها عزمات البشر، لتكون السيرة محلاً للاقتداء وإعادة البناء للبشر في كل زمان

ومكان، لذلك لابد من أخذ هذا المنطلق بعين الاعتبار أثناء الاقتداء وكيفية الاقتداء، ذلك أن الاقتداء بالرسول ﷺ لا يعني العطالة عن العمل، والانسحاب من الحياة، وانطفاء الفاعلية، والتحول إلىٰ الاستغاثة به، ولا يعني العدول عن السنن الجارية إلى طلب السنن الخارقة، لأن ذلك باب لإشاعة الخرافة والبدعة، وتغييب السنة، التي هي القانون الجاري.

ولعل من الأمور الملفتة للنظر حقًا، تسمية طريقة الرسول ﷺ في التعامل مع الحياة والأحياء، سنة، بكل ما تحمل هذه التسمية من دلالات في المنهج والقانونية والأطراد.

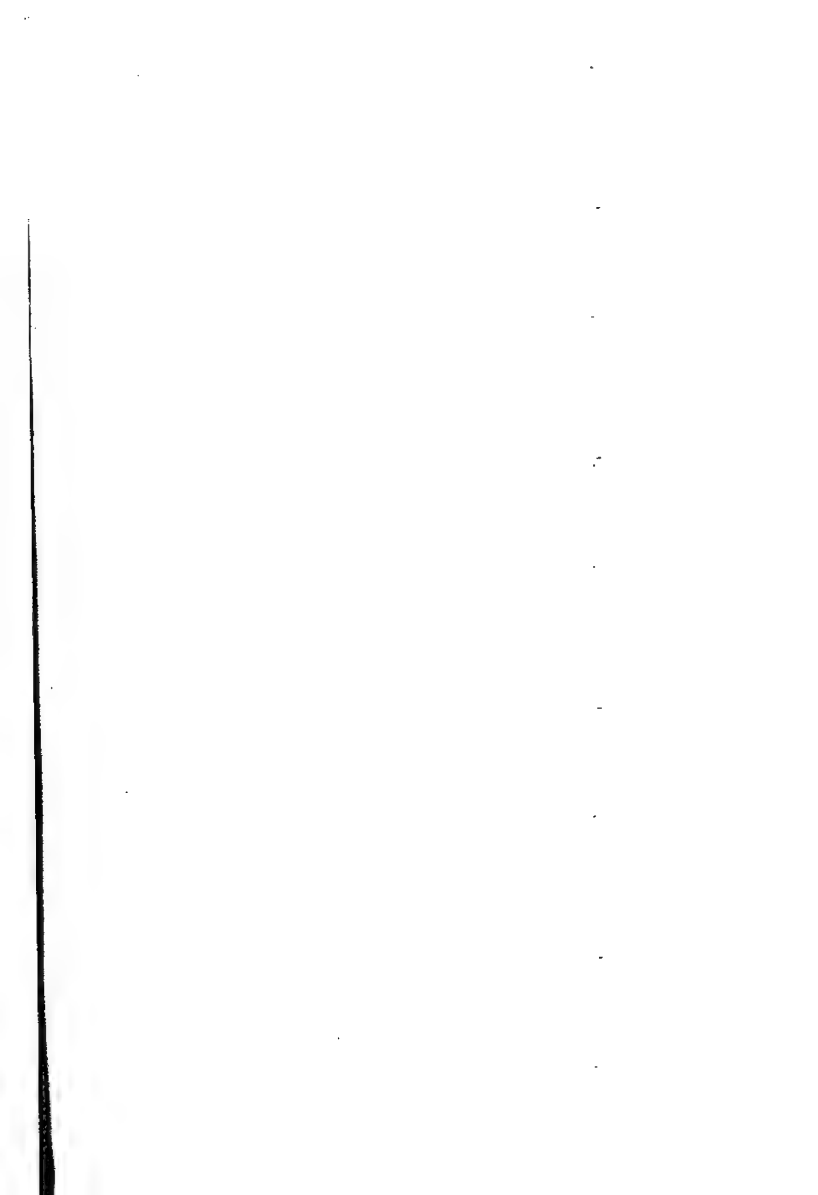
إن آية الاقتداء نزلت -كما أسلفنا- وقد بلغت القلوبُ الحناجرَ، والصحابة يستنجدون بالرسول ﷺ، الذي كان يشارك في حفر الخندق، عندما واجهتهم صخرة كبيرة، وعجزوا عن تفتيتها، ليعاونهم في ذلك، فأخذ فأسه وضربها، محاولاً تفتيتها طبقًا للسنن الجارية في الحياة، وكله أمل في النصرة للإسلام، والسقوط الحضاري للباطل.

فقيمة الاقتداء وفائدته وعطاؤه، وعظيم ثوابه، عندما يكون في العزائم والقضايا الكبيرة، التي قد يمتحن صاحبها في صدق إيمانه وقوة يقينه، فتفوته بعض النتائج في الدنيا، ويخسر المعركة، لكن الاقتداء يحميه ويحول بينه وبين السقوط، ويرتفع به من الوقوف عند النتائج القريبة، إلى إبصار العواقب والمآلات.. ذلك أن نقطة الارتكاز في الاقتداء، هي رجاء الله واليوم الآخر، واستمرار الذكر الذي يجلي هذه الحقيقة، ويؤكد حضورها واستمرارها.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

جيل القدوة وبناء المَرجعيَّة

(١)



قد يكون من المفيد بين يدي الكلام عن أصحاب رسول الله ﷺ وقادته العظام، أن نأتي على ذكر بعض ما ورد في القرآن والسنة من صفاتهم وخصائصهم وجهادهم، لندرك موقع هذا الجيل الرباني القدوة، الذي تربّى على عين النبوة وتسديد الوحي، فكانت أمّتُه خيرَ أمة أُخرِجَتْ للناس، وكان الجيل المعيار، والجيل القدوة، وقد شهد له الرسول ﷺ بأنه خير القرون، لِمَا تَمَتَّعَ به من المجاهدة والجهاد، والخصائص والصفات، التي تتمثل قيم الإسلام، وتثير الاقتداء.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٨٨-٨٩).

وقال عز وجل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٧).

وقال عز من قائل: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح: ١٨-١٩).

وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٨-٩).

وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (الفتح: ٢٩).

وقال رسول الله ﷺ: **«خيرُ أمّتي قرْني، ثمَّ الذين يلُونَهم، ثمَّ الذين يلُونهم»** (رواه البُخاري).

وقال عليه الصلاة والسلام: **«لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدَكُم أنفقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذهَبًا، ما بلَغَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه»** (رواه البخاري).

من شروط إحياء الأمة

لعل من أهم القضايا التي يجب أن تتوفر عليها الدراسات في شعب المعرفة المختلفة، بحيث تشكل محور النشاط الذهني، التفكير في مناهج ووسائل استرداد دور الأمة العالمي، وإحياء التزامها برسالتها، وإعادة بناء خيريتها، وتحقيق إخراجها الجديد للناس.. ونقطة الانطلاق في ذلك لاتتأتى ـ فيما نرى ـ إلا بتلمس ظروف وشروط ميلادها الأول، أو بتعبير أدق: إخراجها الأول، وامتلاك القدرة على التحقق بالمرجعية، وخصائص خير القرون، وعلى الأخص مرحلة السيرة وجيل الصحابة، الذي شهد له الرسول ﷺ بالخيرية، ومن ثم التوغل في التاريخ العام للأمم، والاهتداء خاصة بالنماذج التي عرض لها القرآن الكريم فيما اصطلح عليه بالقصص القرآني، والمسيرة التاريخية للأمة المسلمة، والإصابات التي لحقت بها حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم، وتحديد مواطن الخلل وأسبابه، في ضوء السنن الإلهية المطردة، وأقدار الله تعالى في السقوط والنهوض.

ولعل الفترة أو المرحلة الأحق بالبحث والدراسة والتحليل باستمرار، هي مرحلة السيرة النبوية والخلافة الراشدة، وحقبة خير القرون، لأنها تُصوِّب المسار، وتمثل المعيار والمرجعية، وتشكل نقطة الانطلاق، وتحقق الارتكاز الحضاري، وتوضح الملامح والقسمات المميزة للشخصية الحضارية الإسلامية التاريخية، كما تمثل البعد الإنساني والعالمي للرسالة الإسلامية، والفترة الأمينة والمأمونة والسابقة لتحويل المبادئ إلى برامج، والقيم إلى خطط، والفكر إلى

فعل، والنظرية إلى تطبيق، وإدراك مقاصد الدين، والانطلاق في الاجتهاد، والحوار، والمشاورة، والمفاكرة، والمناظرة، إلى الآفاق والأبعاد المستقبلية، التي تتلاءم مع خلود الإسلام ومرونته، وقدرته على العطاء في كل زمان ومكان.. فتجربة هذا الجيل الرباني، واجتهادهم، وفعلهم، وتنزيلهم للقيم على الواقع، جزء من خلود هذا الدين، ووسائل إيضاح معينة وخالدة لكيفية التعامل مع النصوص في الكتاب والسنة، في الظروف والأحوال المختلفة.

وقد تكون مشكلة الكثير ممن يدَّعون التاسي بهذا الجيل الفريد اليوم، هي في الانحباس ضمن أطر الأشكال، التي هي اقرب ما تكون إلى المحاكاة، والغفلة عن المقاصد الشرعية، وتاسيس الفقه المطلوب للواقع في ضوء ذلك الفهم وتلك المرجعية، ذلك أن التقليد الذي يعني المحاكاة والببغائية، غير الاتباع الذي يعني العلم والإحاطة وإدراك مناط الحكم ومقاصده.. إن الانحباس ضمن الأشكال، أو المحاكاة للمبادئ، بعيداً عن النفاذ إلى المعاني والمقاصد وبلوغ الرشد، بمقدور حتى الأطفال، ويمكن أن تعتبر من أدنى وظائف العقل، إن كان للعقل دَخْلٌ في ذلك، أما النفاذ إلى المعاني والمقاصد وبلوغ الرشد، فهي الإشكالية التي نعاني من غيابها اليوم.

وأعتقد أنه من الأهمية بمكان، تحرير المقاصد والمعاني من قيود الأشخاص، والزمان والمكان، وأسباب النزول والورود، ومن ثم توليد الرؤى وتحقيق الاجتهاد في ضوء ذلك، وتنزيله على الواقع، وتقويمه به، ذلك أن العجز عن التجريد، وتجاوز الصورة إلى الحقيقة، والشكل إلى المضامين والمقاصد، يورث العقم في التوليد والامتداد.. فحصر البطولة في نطاق

البطل، والكرم في نطاق الكريم، والتقوى في إطار التقي، والإيثار في إطار المؤثر، وعدم تجريدها وجعلها صفة وإمكانية بمقدور الجميع الوصول إليها، سوف يجعل حاجزًا نفسيًا وجدارًا سميكًا، لا يمكنُ أن نَظْهَرَهُ في التاسي بجيل خير القرون.. ولا أدري، كيف يتحقق معنى الخلود ويمتد، ويمتلك الإسلام الإنتاج والعطاء والبناء في كل زمان ومكان، إذا كانت المعاني والخصائص المطلوبة محبوسة، ومرهونة في إطار الجيل الأول، دون إمكانية ذلك لسواه؟! وكيف يمكن أن نحقق بطولات إذا كانت البطولة محصورة في نطاق بطل لا تتعداه، الأمر الذي سوف يجعلنا عاجزين عن أن نرنو إليها؟

لذلك نرى أن المتامل في الرسالة والحضارة الإسلامية، سوف يتحقق أنها على عكس سائر الحضارات الأخرى السائد منها والبائد، عَظَّمَت المعاني، عَظَّمَت البطولة، لتكون مجالاً للتنافس وتناول الجميع، ولم تعظم البطل إلا بمقدار ما يمنحها ذلك من إمكانية التطبيق والتجسيد بالواقع، وتحويلها من المثال والخيال إلى الحقيقة والواقع المعيش.

لذلك أرى أن الذين يحاولون اقتفاء آثار السلف، أو بعبارة أدق آثار الصحابة، ويقتصرون على الأشكال، وطرائق الممارسات، دون محاولة النفاذ إلى الفقه والمضمون، ويخادعون انفسهم أنهم على طريق التدين السليم، بحاجة إلى المراجعة وإعادة النظر، ذلك أنهم امتلكوا الأشكال، وافتقدوا الأعمال، فاصبحوا عبئًا على منهج الصحابة والسلف، وحاجزًا دون امتلاك القدرة على التعامل الصحيح مع خصائص جيل خير القرون، وعبئًا على انفسهم أيضًا، لعجزهم عن التغيير والإنجاز المأمول.

وكنتُ أشرتُ في كتاباتٍ سابقةٍ إلى اهميةِ استقراء وتجريد الخصائص والصفات والمعاني، التي جعلت من جيل الصحابة خيرَ القرون، والتي جعلت منه معياراً للأجيال، وانموذجًا للإنجاز: خصائص الخيرية، وصفات العظمة، لينعكس ذلك على مناهجنا في التعليم والإعلام والتربية، وكل وسائل التشكيل الثقافي، وبذلك نتحول من الاقتصار على الفخر والاعتزاز، إلى مرحلة الإنجاز والتاسي العملي الذي يقود إلى تغيير الحال، اي لابد من جدولة الخصائص والصفات، التي بها كانت الخيرية، ومن ثم وضع المناهج التربوية والثقافية، الموصلة إلى الإنتاج المامول، ذلك ان قول الرسول ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم...**»، لابد أن يستدعي الاستفهام الكبير: ما هي الخصائص والصفات، التي بها كانت الخيرية، وكيف يمكن تلمسها، والاقتراب ما أمكن من هذا الجيل الرباني، ليمتد الخلود للرسالة، والإنتاج للجيل المامول؟ وإلا لكان إخبار الرسول ﷺ ليس له مدلول تطبيقي في حياة المسلمين، خاصة وان القرآن الكريم قَدَّم الانموذج، ونَصَّ على بعض الخصائص والصفات، التي استحق بها جيل الصحابة خيرية القرون جميعها.

ولذلك كانت دراسة السير والمغازي وتعلمها، كجانب عملي تطبيقي، يعتبر موازيًا ومكملاً لدراسة السورة من القرآن، لتعلم العلم وتعلم العمل جميعًا.. يقول احد الصحابة رضي الله عنه: كنا نعلّم ابناءنا السِّيَر والمغازي، كما نعلّمُهم السورة من القرآن.

٣٠٩٦/١٥

جيل تحقيق المعجزة

وهنا قضية لابد من التوقف عندها ولو قليلاً، وهي أن للصحابة الكرام رضي الله عنهم، موقعًا متميزًا في مسيرة الإنسانية التاريخية، بل في مسيرة النبوة وصَحْبها وركْبها الممتد، فشأنُهُم ليس كَشَأنِ غيرهِم، وعمَلُهُم لَمْ يُدَانِه احدٌ ممنْ سَبَقَهُمْ، ولَنْ يَلحقَ بِهِ أحَدٌ ممنْ جاءَ بَعْدَهُم.

لقد كانوا معجزة خالدة من معجزات الإسلام، ومعياراً لكل جيل في كل زمان ومكان.

ولنحاول فتح بعض النوافذ، التي تؤكد ذلك وتُعَزِّزُه:

فلقد قال بنو إسرائيل لسيدنا موسى عليه السلام، وهو مِن أُولي العزم من الرسل، ومن أكبر أنبيائهم وأعظمهم شأنًا: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ (المائدة:٢٢-٢٥).

٣٠٩٧/١٥٠

فإذا قابلنا هذا الكلام اليوم بما قاله الصحابة يوم بدر: «والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب انت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول لك: اذهب انت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون»، ادركنا تميز هذا الجيل في تاريخ النبوة الطويل.

ونقدم انموذجًا آخر من موقف حواريّ عيسى عليه السلام، وهم خُلّصُهُ وانصارُه وناصرُوه، ومع ذلك فقد كانوا غير عارفين حق المعرفة لربهم، لذلك كانوا مترددين في الالتفاف حوله، والتضحية في سبيل دينه وشريعته، يقول تعالى حاكيًا قصتهم: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (المائدة: ١١٢-١١٤).

فإذا قابلنا ذلك بموقف الصحابة رضي الله عنهم بعد العودة من رحلة الإسراء، وقد كانت معجزةً عَصِيَّةً على العقل، والذي لخَّصَه موقفُ ابي بكر رضي الله عنه، بقوله: «إن كان قال، فقد صدق»، ادركنا موقعَ هذا الجيلِ الفريدِ في تاريخِ النبوات.

بذلك وغيره كثير، ندرك موقع جيل الصحابة رضي الله عنهم، وندرك بعض ابعاد الخيرية، التي شهد بها الرسول ﷺ لهذا الجيل.

ولما كان لجيل الصحابة هذه المكانة الفريدة من الخيرية، وهذا التميز في تاريخ البشرية بشكل عام، وفي تاريخ النبوة بشكل خاص، وكانوا الجيل الذي تجسَّدَت الرسالة في حياتهم، وكانوا الجيل الذي سوف يبقىٰ يمثل أنموذج التأسي، وأنهم الجيل الذي رضي الله عنه بنص القرآن: ﴿رضي الله عنهم﴾، ووصلوا إلى مرحلة من الرِّضىٰ والالتزام والانضباط، والإذعان والاطمئنان إلى ما هم عليه من الخير، فوصفهم القرآن بقوله: ﴿ورضوا عنه﴾.

الصحابة ﵃ أَمَنَةُ الأمة

لقد وصفَ الرسولُ ﷺ موقعهم بالنسبة للأمة، بقوله: «النجومُ أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبتِ النجومُ أتى السماءَ ما تُوعد، وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي فإذا ذهبَ أصحابي أتى أمتي ما يُوعدون» (رواه مسلم).

وأعتقد أن الدلالة واضحة جداً في وصف الرسول ﷺ لجيل الصحابة: فإن ذهابَ النجوم يعني اختلال نظام الكون، وتوقفت الحياة الدنيا، وإذا غابت سنة الرسول ﷺ، ومعرفة الوحي، انتشرتِ البدعةُ، واختلتْ مسيرةُ الحياة، وعَمَّتِ الفوضىٰ، وضلَّ الرأي، وإذا غُيِّبَ جيلُ الصحابة، افْتَقَدَتِ الأمةُ المرجعية، واهتزَّ الارتكازُ الحضاري، واعتلَّ ميزانُ التطبيق، ودخلتِ الأمةُ في التنازعِ والحيرةِ، والارتباك والفشل، والتبعثر، وعواصف الأهواء.

ولقد أجمع أهل السنة والجماعة على عدالة الصحابة في الرواية، ونقل الحديث.. والعدالة لا تعني العصمة من الخطأ بحال من الأحوال، قال الخطيب في الكفاية: «والأخبار في هذا المعنى تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحدٌ إلى تعديل أحد من الخلق.. فهم على هذه الصفة إلى أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية، والخروج من باب التأويل، فيحكم بسقوط عدالته، وقد برأهم الله من ذلك، ورفع أقدارهم عنده.

على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله شيء مما ذكرنا ، لأوجبت الحالُ التي كانوا عليها، من الهجرة والجهاد، والنُصرة، وبذل المُهَج والأموال، وقتل الآباء والأولاء، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين، القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من المعدلين والمزكين، الذين يجيئون من بعدهم إلى أبد الآبدين» (الكفاية، ص٩٣-٩٦).

يقول ابن تيمية رحمه الله، معقبًا على قوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح:١٨):

«والرِّضا من الله صفة قديمة، فلا يرضىٰ إلا عن عبدٍ علمَ أنه يوافيه علىٰ موجبات الرضا -ومن رَضِيَ الله عنه لم يسخطْ عليه أبدًا- فكل من أخبر الله عنه أنه رضي عنه فإنه من أهل الجنة، وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه، وعمله

الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح له، فلو علم أنه يتعقب ذلك بما يسخط الرب لم يكن من أهل ذلك (الصارم المسلول).

ويقول ابن حزم رحمه الله: «فمَن أخبرَنَا الله عز وجل أنه علم ما في قلوبهم، ورضي عنهم، وأنزل السكينة عليهم، فلا يحلُّ لأحدٍ التوقُّفُ في أمرهم، أو الشك فيهم البتة» (الفصل في الملل والنِّحَل).

لذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ كان منكم متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنَّهم كانوا أبرَّ هذه الأمةِ قلوبًا، وأعْمَقَهَا علمًا، وأقلَّهَا تَكَلُّفًا، وأقوَمَها هَدْيًا، وأحْسَنَها حالاً.. قومًا اختارهم الله لصُحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فَضْلَهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم» (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر).

لذلك ومن هنا، ندرك عِظَمَ المخاطرِ والآثارِ المترتبةِ على النيل من هذا الجيل، الذي يمثل قاعدة البناء، وأنموذج تنزيل الإسلام على الواقع، ومحل التأسي، والمرتكز الحضاري.

وليس ذلك بالنسبة لعصر، أو قوم، أو جيل، أو موضع، أو وضع اجتماعي، وإنما هم جيل التأسي الخالد، المجرد عن حدود الزمان والمكان، إنهم جيل التأسي العالمي والإنساني، لأنهم حَمَلَة رسالة عالمية إنسانية خالدة، ونماذج تطبيقها، وأوعية حَمْلِها ونَقْلِها، والقاعدة البشرية الأولى، التي قامت بها: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام:١٢٤).

عظمة الصحابة في بشريتهم

أما قضية العِصمة عن الخطأ، فالصحابة لا عِصْمَة لهم، لأنهم بَشَرٌ يجري عليهم الخطأ والصواب، بكل ما في البشرية من أبعاد، وبكل ما فيها من نوازع، ودوافع، وغرائز، وخصائص، وتفاوت في أقدار التدين، وفوارق فردية في النظر والاجتهاد، لذلك فلن يتأتى لأحد أن يَدَّعي العِصْمَة في القول أو العمل، أو يمنحهم خصائص وصفات الملائكة، الذين جُبِلوا على الخير وحده، وسُلِبُوا حرية الاختيار بين الخير والشر، ولم يكن للشَرِّ سبيلاً إليهم.

لقد عَمِلَ بعض الصحابة، فأخطأ في حياة الرسول ﷺ فعاتبه القرآن، واجتهدوا فأصابوا وأخطأوا، ولا نزال نتخيَّر من آرائهم الاجتهادية، في حالة اختلافهم.. فكم من مرة تَخَلَّىْ أبو بكر رضي الله عنه، عن رأيه.. وكم من مرةٍ تَخَلَّىْ عُمر رضي الله عنه، عن رأيه، و«أصابت امرأة وأخطأ عُمَر».. وكم قال عثمان رضي الله عنه: «لولا عَليٌّ لهلك عثمان»، حين أراد رجم التي ولدت لستةِ أشهر.

ولو لم يكونوا بَشَرًا، لما استحقوا أن يكون محلاً للتأسي، وأنموذجًا يُحتذى لتنزيل الإسلام على الواقع، وتحقيق المعجزة الإسلامية من خلال عزمات البشر.. وقد نحتاج هنا إلى إعادة التذكير بقولة الإمام مالك رحمه الله، إمام دار الهجرة، بأن: «كُل إنسان يؤخذ من كلامه ويُرَدُّ إلا صاحب هذا القَبْر»، يعني الرسول ﷺ، لأنه معصومٌ بالنبوة، مُسدَّدٌ بالوحي، ومؤيدٌ به، أما الصحابةُ فَبَشَرٌ يجري عليهم الخطأُ والصوابُ، عاشوا حياة البشر

بكل ما فيها من أبعاد وحالات، حتى لنستطيع القول: بأن بشريتهم، وما نتج عنها من ممارسات واجتهادات وفوارق فردية، جاءت مستوعبة للحالات التي تمر بها الأمة الخاتمة، حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها، ليشكل جيل هذا القرن الذي وصف بالخيرية، المعيارية في موقع التأسي ومرجعية التطبيق.. اختلفوا واتفقوا، وتعارضوا وتوافقوا، ووصلت القناعات والاجتهادات في بعض الحالات مرحلة الاحتراب، بل احتربوا فعلاً، دفاعًا عما يعتقدونه من الحق.

لقد جمعت حياتهم أصول الحالات التي تمر بها البشرية جميعًا، والتي يمكن أن تعرض للمجتمعات البشرية، وكيفية التعامل معها، من خلال ما يؤمنون به من قيم، وشهد لهم الرسول ﷺ بالخيرية، لتشكل حياتُهم رؤية لكل السائرين على الطريق.

نماذج .. لبشرية الصحابة:

وقد يكون من المفيد أن نعرض لبعض النماذج التي ترسم لنا خطًا بيانيًا، لكينونتهم البشرية، ولمستوى أقدار التدين، وطرائق الانفعال البشري بقيم الوحي.. لكن لابد أن ننبه ابتداءً إلى قضية أساسية: وهي أن الصحابة أوَّابُون، توَّابُون، قد يقعون في الهوى والخطأ والضعف، وهذا شأن بشري، لكن سرعان ما يعودون إلى الحق ويلتزمونه.

فعندما تُوفِّيَ الرسولُ ﷺ، اشتدت الرَّزِيَّةُ بموته، وعَظُمَ الخَطْبُ، وجَلَّ الأمرُ، وأصيب المسلمون بنبيهم، ولما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنبأ وفاته، أنكر ذلك، وقال: إنه لم يمت، وإنه سيعود كما عاد موسىٰ لقومه، وقام

يخطبُ الناسَ، ويتوعَّدُ من قال: مات، بالقتل والقطع، حتىٰ خرجَ ابو بكر الصديق رضي الله عنه، ليقيم الأوَد، ويصدعَ بالحقِّ، ويردَّ الناسَ إلىٰ رشدهم وصوابهم، وعُمَرُ يُكلِّمُ الناسَ، فقال له ابو بكرٍ: اجلس يا عمرا فأبىٰ عُمَرُ ان يجلسَ، فَتَشَهَّد ابو بكرٍ، فاقبل الناسُ عليه، فقال: «امَّا بَعْدُ، مَن كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فإنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، ومَن كانَ يعبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حَيٌّ لا يموت، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٤).. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: فوالله لكأنَّ الناسَ لم يعلموا أنَّ اللهَ انزلَ هذه الآيةَ حتىٰ تلاها ابو بكرٍ، فَتَلَقَّاها منه الناسُ كُلُّهُم، فما أَسْمَعُ بَشَراً من الناسِ إلا يتلوها».. ويقول ابن المسيب: قال عمر: «واللهِ ما هو إلا ان سمعتُ ابا بكرٍ تلاها، فَعَقِرْتُ -اي دهشتُ- حتىٰ ما تَقلني رِجْلاي، وحَتّىٰ هويتُ إلىٰ الأرضِ» (رواه البخاري، واحمد وغيرهما).

وتخلّف وتثاقل عن الذهاب إلى غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ الصحابة الثلاثة (كعب بن مالك، ومُرَارة بن الربيع العَمْري، وهلال بن أمية الواقفي) رضي الله عنهم، وتوبتهم معروفة في مظانها من كتب السير والحديث، ولقد سجل القرآنُ هذا التخلف، لأنه حالة بشرية متكررة، ليكون خالداً على الدهر.

كما لحق به ابو خَيْثَمَة، بعد أن تخلّف وجلس إلى نسائه وطعامه وَمَائه البارد، فأدركتْهُ حالةُ يقظة وصحوة ضمير، فاستشعر تقصيره، ولامَ نَفْسَهُ،

كيف يكون بين نسائه وطعامه في ظلٍّ ظليل، والرسول ﷺ يسير على رمال الصحراء اللاهبة إلى منازلة الروم في تبوك؟ فما كان منه إلا أن ركب فرسه، والتحق بالرُّكْبِ ، فلما رأىٰ الرسـولُ ﷺ الغبار يثور من بعيدٍ ، قـال: «كُنْ أبا خَيْثَمَةَ»، فكان القادم المجاهد الآيب التايب أبا خيثمـة رضي الله عنه (متفق عليه).

والصحابي ماعز رضي الله عنه وقع في الزنى، وأحس بعُقدة الذنب، ومخالفة الشرع، فأسرع للتطهر، والإقرار على نفسه، فقال الرسول ﷺ عنه بعد إنفاذ العقوبة، وإقامة الحد: «لقدْ تَابَ تَوبَةً لو قُسمَتْ علىٰ أهْلِ الأرضِ لَوَسِعَتْهُمْ» (رواه مسلم).

وأسامة بن زيد، حِبُّ رسول الله ﷺ وابْنُ حِبِّه، توسَّط في حَدٍّ من حُدود الله، توسط لرفع عقوبة القطع عن المرأة المخزومية التي سـرقت عـلى عهد رسول الله ﷺ، فلما تلوَّن وجهُ الرسولِ ﷺ من فِعْلَتِه، وقال له مستنكراً: «أتَشْفَعُ في حَدٍّ مِن حُدُودِ الله؟!» قال أسامة رضي الله عنه: «استغفر لي يارسولَ الله» (متفق عليه).

وامرأة من جُهينة، أتَت رسولَ الله ﷺ وهي حُبْلىٰ من الزنىٰ، فقالت: يارسولَ الله! اصبتُ حَدًّا فأقِمْهُ عليَّ، فلمَّا أقيم عليها الحَدُّ، صلَّىٰ عليها النبيُّ ﷺ، فقال له عُمَر: «تُصَلِّي عليها يا رسولَ الله وقد زَنَت؟» قال: «لقد تَابت توبةً لو قُسِمَتْ بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم» (رواه مسلم).

والمخزومية سَرَقَتْ، والغامدية زَنَتْ، لكن قَدَّرَ اللهُ ذلك، لأنه من طبيعة البشر، وحتى يكون وسيلة إيضاح، ومناسبات لِتَنَزُّلِ الاحكامِ وكيفيات التطبيق.

واجتهد سيفُ اللهِ خالدُ بن الوليد، رضي الله عنه، وعمل فأخطأ، فتبرأ الرسولُ ﷺ من عمله، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بعثَ النبيُّ ﷺ خالدَ بن الوليد إلى بَني جَذيمَة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحسنوا أن يقولوا: أَسْلَمْنَا، فجعلوا يقولون صَبَأْنَا، صَبَأْنَا، فجعلَ خالد يقتُلُ منهم ويأسِر، ودَفَعَ إلىٰ كلِّ واحدٍ منا أسيرَهُ، حتَّىٰ إذا كان يومٌ أمر خالدٌ أن يقْتُلَ كُلُّ رجلٍ منَّا أسيرَهُ،فقلتُ: والله لا أقتلُ أسيري، ولا يقتلُ رجلٌ من أصحابي أسيرَهُ، حتىٰ قَدِمْنَا على النبي ﷺ فذكرناه، فَرَفَعَ النبي ﷺ يديه فقال: «**اللهمَّ إنِّي أبرأُ إليكَ مما صَنَعَ خالد**» مرتين (رواه البخاري).

ولا نزال نذكر موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صُلح الحُديبية، الذي بناه على اجتهاده في رؤية النتائج القريبة، وغَابَتْ عنه العواقبُ والمآلات، عندما قال للرسول ﷺ مستنكراً: أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حقًّا؟ ألسنا على الحقِّ وعَدُوُّنا علىٰ الباطلِ؟ فَلِمَ نُعطِي الدَّنِيَّةَ في ديننا؟ (رواه البخاري) ثم لما تبيَّن له الحقُّ، بقي يتوبُ ويعتذر إلىٰ الله بقية حياته، من مَوْقفه يومَ الحُدَيْبية، الذي أسماه الله الفتح المبين، يقول عمر رضي الله عنه: «مازلتُ أصومُ وأُصلِّي وأتصدَّقُ وأعتِقُ مِنَ الذي صنعتُ، مخافةَ كلامي، الذي تَكَلَّمْتُ به يومئذ، حتى رجوتُ أن يكون خيراً» (رواه أحمد).

وهؤلاءِ البدريون، وهم من أكرمِ خَلْقِ الله على الله، يجادلون في الحقِّ بعدما تبين، ويَكْرَهُون الخروج للجهاد، مع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (الأنفال: ٥).

ويختلفون في قِسْمَةِ الغنائم يومَ بدرٍ، ويروي عُبادة بن الصامت، رضي الله عنه، ذلك فيقول: اختلفنا في غنائم بدرٍ حتى كادت تسوء أخلاقُنا، فنزعها اللهُ منّا، وجعَلَ أمرَ قسمَتِها للهِ والرسول، ونزلت الآياتُ لتعيد إصلاح ما فَسَدَ من ذاتِ البَيْن، قال تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال: ١-٤).

وقصة الصحابي حاطب بن أبي بَلْتَعة رضي الله عنه، التي نَزَلَ فيها قرآنٌ خَالدٌ يُتلىٰ علىٰ الدهر، وهو من البدريين، معروفة في مظانها من كتب السيرة والتفسير، عندما ضَعُفَ أمام حفظ العهد، وأراد عُمَرُ رضي الله عنه أن يَقْتُلَهُ جزاء فعلته، فنهاه الرسولُ ﷺ قائلاً: «**لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ إلىٰ أهلِ بدرٍ فقالَ اعْمَلُوا ما شِئْتُم فقد غفرْتُ لكم**» (رواه الجماعة إلا ابن ماجه).

وهكذا فالنماذج كثيرة ويصعبُ استقصاؤها، والآيات الخالدة في القرآن تقرر ذلك وتحكيه، ليكون وسيلة إيضاح، ودليل عمل على الزمن الممتد.

لذلك أرىٰ أن الذين يعتقدون أن نزع الصفة البشرية بكل أبعادها عن جيل الصحابة، ظنًا منهم أن هذا نوع من التقدير والتعظيم والإجلال،

ويدّعون لهم العصمة عن الخطأ، إنما يساهمون مساهمة سلبية في القطيعة المعرفية والسلوكية والتربوية، والمحاصرة لامتداد التأسي بهذا الجيل.. إنهم يحنطون الإسلام، ويطفئون شُعلتَهُ، ويميتون فاعليته، ويلغون خلوده وامتداده، ويدخلون به إلى المتاحف والمعارض، بدل المساهمة في تفعيله، وتقديم النماذج التي تثير الاقتداء، وتدلل على إمكانية التنزيل للقيم على الواقع، وتبين أن رسالة الإسلام واقعية، تتعامل مع الناس من خلال الحالات التي هم عليها، وترتقي بهم، وليست خياليةً أو مثاليةً، عَصِيّةً عن التطبيق.. ولا أدري كيف يمكن أن يشكل محلاً لتأسي البشر، الذي يجري عليه الخطأ والزلل والصواب، مَن هو معصوم، خارج عن طبيعة البشر، وضعف البشر، وخصائص البشر؟!

إن عِظَم الصحابة وقدرهم، ببشريتهم.. وإن عظمةَ الإسلام، ومعجزة الإسلام (عظمة الرسالة والرسول)، بقدرته على هذا الإنتاج، وعلى صناعة هذه النماذج، التي استطاعت أن تُجسِّد التعاليم الإسلامية في الأرض، وتتحرك بها، من خلال خصائصها وصفاتها كبشر، له غرائزه وأشواقه، وقدَّم الإسلامُ الدليل على أن معجزته الحقيقية أنه تحقق من خلال عزمات البشر، وأن الخلود، من بعض الوجوه: هو في وجود هذه الإمكانية، والقدرة على الإنتاج في كل زمان ومكان، طالما أن القيم موجودة في الكتاب والسنة، والأنموذج التطبيقي موجود في السيرة، لأن السيرة في نهاية المطاف، هي حركة جيل الصحابة، وإنجازه بقيادة النبوة.

الصحابة.. لبنات بناء الأنموذج

وهُنا قضية أعتقد أنه من المفيد التوقف عندها قليلاً، أو على الأقل إثارتها وفتح ملفها، لعله يُغْرِي مستقبلاً بعض القادرين أو الباحثين بالمتابعة، وهي أن جيل الصحابة رضي الله عنهم، هم لَبِنَاتُ البناء، ووسائلُ الاكتمال للدين، والوصولُ به إلى مرحلة الكمال، حيث انتهت إليهم حياة الأنبياء، وأصحاب النبوات، وصُنِعَتْ بهم الصورةُ الأخيرةُ والخاتمة للنبوة.. كانوا هم محل التلقِّي لآيات الكتاب، وميدان الفعل والتجريب، ووسائل إيضاح للتطبيق.. حياتهم وتصرفاتهم هي أسباب النزول للآيات، وأسباب الورود للأحاديث، لذلك نرى أن الكثير من الآيات والأحاديث سجلاً لحياتهم، وبيانًا لخصائصهم، وتصويبًا أو إقرارًا لممارساتهم، واستنزالاً واستدعاءً لبعض الأحكام الشرعية، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما: «اللهُمَّ بَيِّن لَنَا فِي الخَمْرِ بيانًا شافيًا، فإنها مفسدةٌ للعقلِ، مضيعةٌ للمال» (رواه أحمد).

هم حلقة الاتصال بين الفكر والفعل، بين المبادئ والبرامج، بين التكاليف الإلهية والفعل البشري، ولعلنا نقول: إن آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، سجلاً لحياتهم، وتقويمًا لمسالكهم، وإرشادًا لوجهتهم، ليكون أنموذج الفعل، وسبيل الاقتداء، وميدان التطبيق.. ولا شك عندي أن الأمر في البداية أو النهاية واقع في علم الله، وأن الله أعلم حيثُ يجعلُ رسالَتَهُ، ومَنْ هم المؤهلون ليكونوا قاعدة الرسالة الأولى، وامتلاك الخصائص والصفات التي

تمكنهم من الامتداد بها ونقلها، وأن أي محاولة للتشكيك في عدالتهم، وهدم مرحلة خير القرون، تعني تطرق الشك إلى الرسالة، وأوعية نقلها، والحط من قَدْر الرسول المُرَبّي ﷺ.

وبإمكاننا القول: إنهم الجيل الذي استدعىٰ الوحي بحركته، وتحقّقَ لهم الانفعالُ به، والتحركُ وِفْقَ مَقَاصِدِهِ.. إنهم الجيلُ الذي يُمَثّلُ أجِنَّةَ الدعوةِ الأولىٰ، وشَبَابَهَا، ورِجَالَهَا، وَدَعْوَتَهَا، وَدَوْلَتَهَا، وفَرْدَهَا، ومُجْتَمَعَهَا، جعلَ اللهُ نَصْرَهُم لها موازيًا لتأييدهِ ونصره، فقال تعـالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:٦٢)، لأنهم في المحصلة النهائية، أوعيةُ نصرِ اللهِ ووسائلُ تحقيقه.

فاللهُ أيَّدَ الرسولَ بنصرِهِ، كما أيَّدَهُ بهداية الصحابة إلى الإيمان بالله ورسوله، الأمر الذي دفعهم للجهاد وتحقيق نصر الله، من خلال حركة البشر المؤمنين.. فأي جيل أكرم من هذا الجيل؟ إنه جيلِ الخلودِ، لأنه جسدَ الرسالةِ الخاتمةِ الخالدةِ.. وجيلِ الاكتمال، لأنه بهم اكتمل التشريعُ.. وجيلِ الكمالِ، لأنهم اللَّبِنَاتُ التي اكتملَ بها بناءُ النُّبوة التاريخي.

لكن المشكلة كل المشكلة، قد تكون فيما نعانيه –منذ توقف العقل والاجتهاد والامتداد المعرفي– من الارتهان الثقافي، والاستلاب الحضاري، والانشطار التربوي، فنكتب عن جيل الصحابة بشكل عام، أو عن أحد الأصحاب، أو أية دراسة أخرى، بأدوات وأنظمة معرفية ليست من إبداعنا، ولا من امتدادنا المعرفي، وليست منطلقة من قِيَمِنَا.. فالكثيرُ منا يكتبُ وهو مطبوع بثقافة فصل الدين عن الحياة، التي شكلت المناخَ الثقافي لأمتنا خلال

حقبة من الزمن، الأمر الذي يتطلب الكثير من الجهد للانعتاق منه، فإذا جاءَ يتكلّمُ عن خصائص وصفات بعض الصحابة وعبادتهم وإيمانهم، أحسنَ الكتابةَ، لكن إذا طوىٰ هذه الصفحةَ، التي تخص التدين -بالمفهوم العلماني- تحوَّل للكلام عن ممارساتهم السياسية، رسم لهم صورة كاريكاتورية من المكر والكذب والخداع والغش ونقض العهود، قد لا تليق حتى بالإنسان العادي.

ذلك أن المشكلة -فيما نرىٰ- هي في المنهج الذي يرتهننا، ويمزِّق رؤيتَنا، ويُعَلْمِن تفكيرَنا، فنقع في مقاصده وأدواته، حتى ولو حاولنا في كثير من الأحيان رفع شعار مناقضته، والتنكر له.

أما بعض الباحثين الذين تخصصوا بالنقاط السود في تاريخنا، وعلى الأخص عصر الصحابة، فلم يبصروا إلا ما تخصَّصُوا بـه، وما تهوى أنفسـهم، وحاولوا توهين هذا الجيل، والحطّ من قَدْرِه وأدائه، والادعاء بأنه جيل الفتن، والاغتيالات، والحروب، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي.. وتلامذتهم في الداخل الإسلامي، فمقاصدهم قطع الأمة عن جذورها وتشويه شخصيتها التاريخية، وتركها في مَهَبِّ الرياح! فالغاية من طروحاتهم لم تعد خافية على أحد.

ومن هنا نُدرك الأبعاد الحقيقية لنهي الرسول ﷺ عن سَبِّ الصحابة بقوله: «لا تسبُّوا أصحابي» (رواه البخاري).

ونُدركِ مخاطر مَن فهموا من ذلك العصمة لهم عن الخطأ، ورفعهم فوق مستوى البشر، وندرك الخلط الحاصل عند مَنْ فَهِمُوا أن البحثَ في اجتهاد الصحابة، وترجيحَ بعض الاجتهادات، ورد الأخرى، هو من السبِّ المنهي

عنه، فكيف يكون ذلك، وقد خطأ بعضهم بعضاً، وخطأ بعضُهم نفسه، وتراجع عن اجتهاده؟! لذلك نقول: إن المشكلة في استخدام مناهج «الآخر» بالدرجة الأولىٰ، وغياب النظام المعرفي، يأت ثمرة للقيم والمبادئ الإسلامية.

وهنا أمر لابد من إيضاحه، وهو أننا بالإمكان أن نمتد بالرؤية الإسلامية، ونعديها إلى آفاق واجتهادات بحسب ظروف الزمان والمكان، لكن لا يجوز بحال من الأحوال أن نلغي هذه الاجتهادات، أو نَنْتَقِصَ، ما اجتهده عمومُ الصحابة، لأنهم جيل المرجعية للفهم والتنزيل، كما أن القرآن والسنة هما محل المصدرية لتشريعات وأحكام هذا الدين.

ومن نعمة الله على هذه الأمة المسلمة -ولعل ذلك من ملامح وخصائص الخلود والخاتمية- أن جعل لها من جيل الصحابة، جيلَ خيرِ القرون، وأن الرسول ﷺ شهد له بأنه الجيل المعيار، ليكونوا جيل الشهادة على الناس، كما كان الرسولُ ﷺ شهيداً عليهم، ونهى عن سَبِّهِم، والنيل منهم، لتبقى خصائصُهم وصفاتُهم واجتهاداتهم، معالم هادية على الطريق الطويل لمسيرة الدعوة الإسلامية، وحركة الأمة الإسلامية، ويبقى فهمهم للتنزيل متميزاً، بسبب معاصرتهم له، وكونهم مادته وأدوات فعله وتنفيذه، وأوعية حِفْظِه ونَقْلِه، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «والذي لا إله غيرُهُ، ما نَزَلَتْ آيةٌ مِنْ كتابِ الله، إلا وأنا أعلمُ فِيمَن نَزَلَتْ، وأينَ نَزَلَتْ». (أخرجه البخاري، وابن جرير الطبري في تفسيره واللفظ له).

إنهم جيل الخيرية، وحياتهم معالم مضيئة في بناء المرجعية، والفهم والتنزيل على الواقع، حتىٰ يُحْمَىٰ الجانبُ التطبيقي للقيم من الاجتهادات المعوجة، والانتحالات الباطلة، والتحريفات الجاهلة، والغلو في الدين، وحتى

تكون ترجماتُهم وسِيَرُهم المنجم التربوي، والمَعِينُ الذي لا يَنْضُبُ لمناهج وسُبُلِ الارتقاء بالنشء إلى تحقيق مقاصد الدين، والتَحَلِّي بخصائص الخيرية والصعود نحو الكمال.

إن هذا الجيل يبقى هو القاعدةُ الصلبةُ للبناءِ المأمولِ، والأنموذجُ المُحْتَذَىٰ للتطبيقِ السليم، والمُرْتَكَزُ الحَضَاري للانطلاقِ الصحيح، والدليلُ العَمَلي لتحويلِ القيمِ إلى سلوكٍ وواقعٍ، والوسيلةُ المُعِينَةُ لكيفيةِ التعاملِ مَعَ قيم الدينِ في الكتابِ والسنةِ من قِبَلِ البشرِ بِكُلِّ ما يمرُّ به من أقدارِ التدين: صُعُوداً وهبوطًا، ذُنُوبًا وتوبة، ضَعْفًا وقوة، سُمُوًّا وتَقَهْقُرًا، اتباعًا واجتهاداً.

الحاجة لتجديد المرجعية

وفي هذه المرحلة الحرجة من حياة الأمة، أو في هذه الأزمنة الرديئة، إن صح التعبير -وقد وَصَفَ الله بعض الأيام بأنها نَحِسَات بسبب ما يقع فيها- والتي تجتاحنا فيها ثقافات السموم، والإفساد في الأرض، تحاول اقتلاعنا من جذورنا، وتوهين قِيَمِنا، والتشكيك بثوابتنا، والنيل من تاريخنا، وتجريح حقبة الخيرية والمرجعية في مسيرتنا، يشتد اشتياقنا لطي مسافة الزمان والمكان، وتجاوز فترات العجز والتخاذل والوهن.. تشتد حاجتنا إلى تجديد العزيمة على الرشد، والانعتاقِ من مرحلة «القَصْعَة»، حيث تتداعى علينا الأمم، كَمَا تَدَاعَىٰ الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها، في محاولة للوصولِ إلى الينابيعِ الأولى

في الكتاب والسنة، واوعية الاغتراف منها، من جيل الصحابة، وأدلة التعامل معها، من سيرة أهل خير القرون.

في هذه الظروف الحرجة، يشتد اشتياقنا إلى اتّباع ابي بكرٍ رضي الله عنه: «إنّما أنا مُتّبعٌ ولستُ مبتدعًا»، وإلى اجتهاد عمر رضي الله عنه، وإلى إيمان وحياء عثمان، وإلى حِكْمة علي، وإلى فقه ابن عباس، وابن مسعود، وإلى زهدِ ابي ذَرٍّ وانعتاقه من الجاهليــة، وإلى ثبـات عبد الله بن الزبير، وإلى حِنْكَة عمرو بن العاص، ومَشورة أم سلمة، وإدراك أم المؤمنين خديجة لأبعاد النبوة، وطمأنة الرسول ﷺ بأنّ الله لن يخزيه أبداً، وإلى شجاعة عائشة، وتوبة ماعز، وموقف السَّعْدَيْن، وذكاء نعيم بن مسعود في غزوة الأحزاب، وقدرته في التعامل مع سنن المدافعة، وتوظيف التناقض، وتحقيق النصر على الأحزاب، و إلىٰ سياسة عمر بن عبد العزيز الذي عاد بالأمة إلى ممارسات الخلافة الراشدة.

في هذه الايام، تشتد حاجتنا إلى إعادة بناء القاعدة الصلبة للتخلص من الهشاشة والرخاوة، وإعادة بناء المرجعية للتخلص من الضياع والضلال الثقافي، وتشتد حاجتنا أكثر فأكثر إلى الاقتداء والتاسي، لأن التاسي بهذا الجيل، يعني اكتشاف سبيل التربية والمنهج وعلم الطريق، الذي يحقق لنا الانتشال من الحال التي صرنا إليها، ويمكننا من التجاوز، ويحصننا من الإصابات، ويمنحنا قدرات إضافية للتحمل والثبات على الحق، ويقدم لنا رؤىً تمكننا من التعامل مع الواقع، والانسجام مع السنن، ومدافعة قَدَرٍ بقَدَرٍ، والعودة إلى الجادة والسبيل القويم على بصيرة وهدى.

وتعتبر شخصية عمرو بن العاص رضي الله عنه، إحدى النماذج الفريدة، فهو أحد الصحابة الكرام، وقادة الفتح العظام، وسفراء النبوة الأمناء، رجل المهام والتعامل مع المآزق الكبرى، الذي جمع الإخلاص والصواب، وحسبنا في ذلك شهادة الرسول ﷺ له بقوله: «أسْلَمَ الناسُ وآمنَ عمرو بن العاص» (رواه أحمد)، حيث لم تَدَع هذه الشهادة استزادة لمستزيد، وقولة عمرو رضي الله عنه: «والله ما عَدَلَ بي رسولُ الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمرٍ حَزَبَهُ منذ أسْلَمْنَا».

حيث كان الرسول ﷺ يختاره دون غيره، للسفارات والمهمات الكبرى:

«يا عمرو خُذ عليك ثيابك وسلاحَك، ثم ائتني»، فأتيته، فقال: «إني أُريدُ أن أبعَثَكَ على جيشٍ فيُسَلِّمُكَ اللهُ ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة». فقلتُ يا رسولَ الله: ما أسلمتُ من أجل المال، بل أسلمتُ رغبة في الإسلام. قال: «يا عمرو! نِعِمّا بالمالِ الصالحِ للمرءِ الصالحِ» (أخرجه الإمام أحمد بسند صحيح).

وقد تكون المشكلة في دراساتنا التاريخية وسير الأعلام أو الكثير منها، كما أسلفنا، أنها مرتهنة لمناهج وثقافات بعيدة عن قِيَمِنا وأصولنا ومرجعيتنا، ونسقنا المعرفي، لذلك جاءت في معظمها -إلا مَن رَحِمَ الله- مطبوعة، بنظرات وفلسفات غريبة عن طبيعة هذا الدين، حيث توهم الكثيرُ من الباحثين أن تدينَ الإنسانِ وإيمانَهُ، لا يَمنَعُهُ في مجال الحياة والسياسة، من المكر والدهاء والكذب والانتهازية، والوصولية والأثرة، لذلك تأتي الصورة

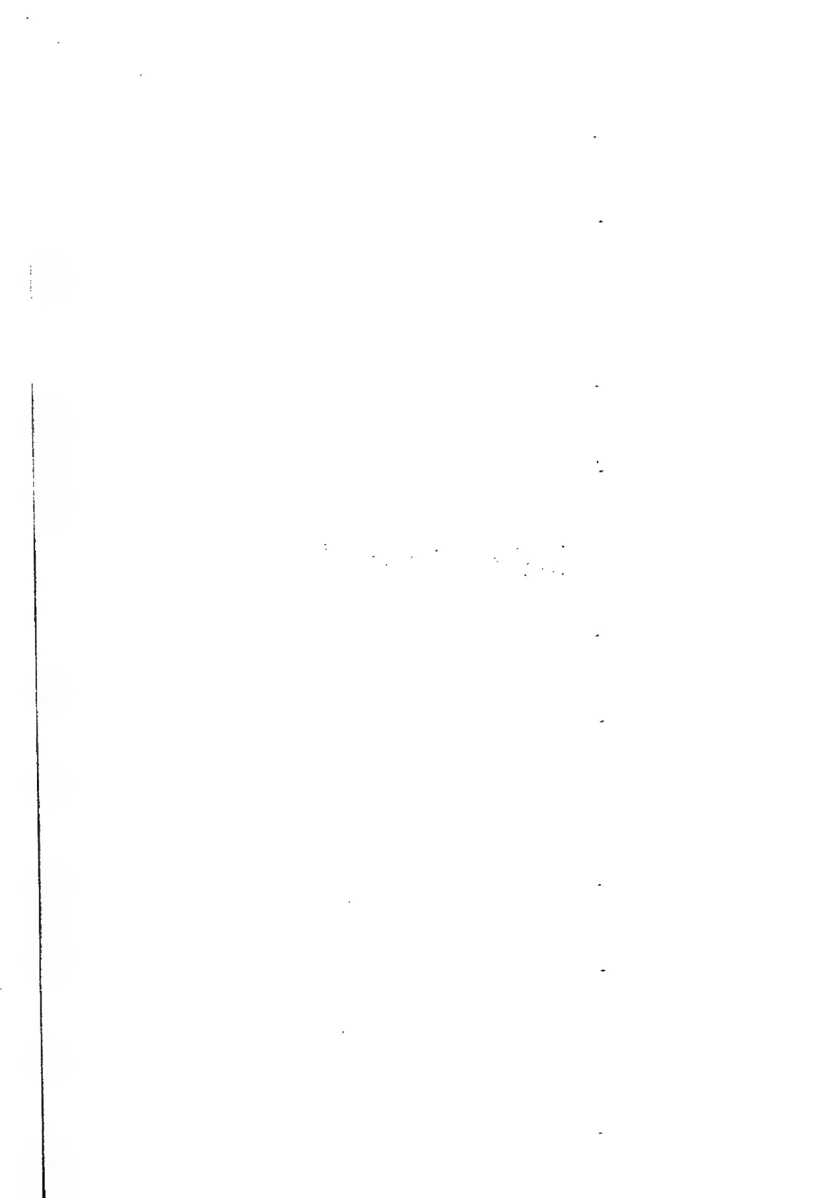
أقرب ما تكون إلىٰ الشخصية الخرافية المتناقضة.. وبهذه الرؤية والثقافة الانشطارية، شُوِّهَتْ رموزُنا، وقرئت بأبجديات مخططة وغريبة عن مناهجنا وقيمنا، وانتقيت رويات هالكة وضعيفة ومنحازة، فلم تزدنا تلك المعارف والدراسات إلا بعثرة وارتباكًا وحيرة، وحسبنا أن نورد ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله بإسناد صحيح إلى محمد بن سيرين، قال: «هاجت الفتنُ، وأصحابُ رسول الله ﷺ عشرات الألوف، فلم يحضرْها منهم مائة، بل لم يبلغوا الثلاثين»، فأين هذا الواقع، وهذه الحقيقة مما ذهب إليه القصاصون، والمؤرخون غير المحققين، والمغرضون، من التهويل والتضخيم، واعتماد الروايات الضعيفة والهالكة للنيل من جيل القدوة؟!

وعلىٰ الرغمِ من وجودِ دراساتٍ مقدورةٍ في مجالِ التحقيقِ لموقفِ الصحابة، واعتمادِ موازين رجال الحديث في القبول والردِّ، إلاّ أن هذه الدرسات لم تَصِل إلى مرحلة تكون الثقافة التاصيلية والوثائقية المطلوبة.

والله المستعان من قبلُ ومن بَعد.

جيل القدوة وبناء المرجعية

(٢)



قد يكون من الامور المطلوبة من المسلم، بل من المؤسسات الثقافية والتربوية والإعلامية، والتي ما تزال غائبة عن الدور المطلوب، التامل المستمر في أبعاد خيرية جيل الصحابة، السابقين الأولين، الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالخيرية، وأظهر الله بهم هذا الدين، وامتدوا به في الآفاق، متابعة للرسالة، وحملاً للأمانة، حيث أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره الكافرون، وأمدّ الامة المسلمة عبر التاريخ، وزوّدَها بعوامل الظهور ومقومات الإظهار لهذا الدين.. فهي الأمة التي امتازت عن غيرها من سائر الامم، أنها تمتلك النص الإلهي السليم، أو خطاب الله للبشر، المتناسب مع فطرتهم، القادر على إنتاج النماذج التي تتمثله في حياتها، في كل زمان ومكان.. وهي الأمة التي تمتلك الفترة التطبيقية المشهود لها بالرضى والخيرية، سواء على مستوى الجماعة، أو على مستوى الأفراد، الذين آمنوا بهذا الدين وما يزالون يقبلون عليه، من مختلف الشرائح الاجتماعية والسويات الحضارية.

فعلى المستوى الفردي، نجد اليوم الإقبال على اعتناق الإسلام متحققاً في أرقى المجتمعات البشرية، واكثرها مدنية في أوروبا وأمريكا، كما نجد الإقبال عليه مستمراً في أدغال إفريقية، وأكثر المجتمعات بداوة وبدائية، إضافة إلى عودة الوعي به، وتجديد العزيمة على الرشد في مجتمعات المسلمين، وتقديم نماذج من أعلى التضحيات وأغلاها في سبيله، وإحياء موات الامة في عالمنا

الإسلامي، بعد أن سقطت كل الشعارات التي حاول أصحابها أن تحقق الظهور، وأن تكون البديل الملائم.

أما على مستوى المجتمعات، فلا تزال طوائف من أبناء الإسلام قائمة على الحق، ممتدة به، مضحية في سبيله، لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهي على ذلك.

ما بين الظهور والإظهار

ولئن جاز لي أن أتوقف قليلاً عند ملمح بسيط بين مدلول كلمتي الإظهار والظهور، لقلتُ: بأن الظهور للدين الذي أشار له القرآن، أصبح متحققًا، ذلك أن الإسلام الذي مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرنًا، ما يزال مطروحًا وله الحضور الكامل على مختلف الأصعدة، الحضارية والثقافية والسياسية والدينية، لم يستطع أحد مهما قوي جبروته، وتصاعدت عداوته، أن يقف في وجهه أو يغيّبه.. فالإسلام يندفع ويتقدم بقوته الذاتية، وفطرية مبادئه، وتحقيقه لإنسانية الإنسان، يتقدم صوب الإنسان، أينما كان، ويتقدم الإنسان أيضًا باتجاه الإسلام، كرجاء وسبيل خلاص، من خلال معاناته وأزماته وإشكالياته، التي أورثتها الحضارة المعاصرة.

ولعل ثورة المعلومات والاتصالات ، التي اختزلت الزمان والمكان ، أو ما يمكن أن أسميه: حقبة امتداد الحواس وامتلاكها طاقات إضافية هائلة، حققتها ثورة التكنولوجيا، حتى أصبح الإنسان يرى آخر الدنيا وهو في

مكانه، ويسمع أصوات أقاصيها وهو في مكانه، نقول: لعل ثورة الاتصالات، وطي المسافات، بقدر ما حملت لنا من المخاطر والنفايات الثقافية والحضارية، بقدر ما أتاحت لنا آفاقًا ومجالات لامتداد الإسلام وحضوره وظهوره، إما بعز عزيز أو بذل ذليل، مصداقًا لحديث الرسول ﷺ: **«لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ مَا بَلَغَ الليلُ والنهارُ، ولا يَتْرُكُ اللهُ بيْتَ مدَرٍ ولا وبَرٍ إلا أدْخَلَهُ اللهُ هذا الدين بعِزِّ عَزِيزٍ، أو بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًا يُعِزُّ اللهُ بـهِ الإسـلام، وَذُلاً يُذِلُّ به الكُفْرَ»** (رواه الجماعة).

إن هذا الظهور وهذا الحضور وهذا الشهود -إن صح التعبير- أصبح أمرًا قائمًا، على الرغم من حالات العجز والتخاذل والتخلف الذي يعيشه عالم المسلمين، ويحول دون امتلاك المقومات والقدرة على إظهار الإسلام.. فالظهور يعني النمو والامتداد الذاتي، بما يمتلك من عوامل ذاتية، على الرغم من العجز الذي يعيشه العالم الإسلامي على الإظهار.

ولعل هذا الأمر، أمر ظهور الإسلام وتوجهه العالمي، انطلق وتحقق بعد معركة الفرقان ونصر بدر، التي قادها جيل الصحابة، جيل الفوز بالسبق والريادة والنصيحة، وقال عنها الرسول ﷺ: **«اللهم إن تَهْلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعْبد في الأرض»** (رواه مسلم)، ولذلك كان للبدريين من الصحابة، من الثواب والأجر والمغفرة، ما ليس لغيرهم: **«لَعَلَّ اللهَ قد اطَّلَعَ علىٰ أهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم»** (متفق عليه)، لأن أمر الإسلام بعد بدر قد توجه، وظهوره قد تحقق بعد أن أظهره البدريون، بتوفيق الله ونصره، ويئس الذين كفروا من إطفاء نور الإسلام، وعجزوا عن الحيلولة دون ظهوره، على الرغم من كرههم له: ﴿وَلَوْ كَرِهَ

ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (التوبة : ٣٢).. ﴿ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ﴾ (المائدة:٣).

وبالإمكان القول: إن جيل الصحابة رضي الله عنهم، هم الذين أظهروا الإسلام، وامتدوا به في الاتجاه الإنساني والعالمي، وتجاوزوا في إظهاره الجغرافيا والتاريخ، والجنس واللون، والأرض واللغة، والمناخ والبيئة، انطلقوا به إلى الرحابة العالمية، فكانوا نماذجه التطبيقية التي تثير الاقتداء، في المواقع كلها، والظروف كلها، والحالات الثقافية والبشرية كلها.

لقد كانوا نماذج عالمية إنسانية، امتدوا بالإسلام في كل الاتجاهات، وعلى مختلف الأصعدة.. استوعبوا كل الثقافات والحضارات والأديان، واستطاعوا الإنتاج والبناء الإسلامي في كل المواقع، مما يؤكد عالمية الإسلام، وإنسانية الإسلام، حتى إن الحضارة الإسلامية في مصبها الأخير، كانت مُشْتَركًا إنسانيًا متشابكًا، يصعب معه فرز ألوانها أو عناصرها أو أجناسها.. هي إسلامية القيم والمنطلقات، عالمية العطاء البشري.

بينما نرى الحضارات، التي ظهرت على مسرح التاريخ البشري، سواء السائد منها والبائد، كانت حضارات خاصة بقوم، أو جنس، أو جغرافيا، ولم ترتقِ إلى مستوى المشترك الإنساني.. فهي إما: حضارة يونانية، أو رومانية، أو فرعونية، أو فينيقية، أو فارسية، أو أوربية...الخ، على عكس الحضارة الإسلامية، التي هي في مبادئها وممارساتها، حضارة إنسانية، تحقق فيها ولها المشترك العالمي، الأمر الذي يصعب معه وصمها بالعنصرية، أو الإقليمية، أو العرقية...الخ.

من هنا نقول: إن جيل الصحابة، الذي كان له فضل السبق في إظهار الإسلام، ومن ثم ظهوره وامتداده، ليس خاصًا بأمة، أو جنس بشري، أو

جماعة، أو بيئة، أو تاريخ.. إنهم نماذج عالمية الأداء، إنسانية العطاء، بما تحمل من قيم الإسلام العالمية والإنسانية، لذلك لا يقتصر التأسي بهم، وتلمس جوانب العظمة -فيما نرى- على الأمة المسلمة، أو معايرة العظمة في إطارها، لأن ذلك مجافاة للحقيقة، وبخس للأشياء، ومحاصرة لإظهار الدين، ونماذج ظهوره اليوم.

ذلك أن جيل الصحابة رضوان الله عليهم، بما تحقق لهم من الخصائص والصفات، وما تمثل على أرض الواقع لهذه الصفات، يشكلون نماذج الاقتداء والإشعاع، والارتكاز الحضاري، على المستوى العالمي.

ونستطيع القول: إن الفائدة من جيل الصحابة لم تتحقق بالأقدار المطلوبة، وأن الانحياز لهذا الجيل المرضي عنه من الله سبحانه وتعالى، والمشهود له بالخيرية من الرسول ﷺ، إنما جاء في معظمه عاطفيًا، تتحكم به عقدة الافتخار بالماضي، لمواجهة مركب النقص أمام الاستلاب الحضاري والثقافي، والعجز عن الإنتاج.. أو بمعنى آخر، جاء هذا الانحياز لتحقيق الحماية دون التنمية، لذلك فهو أقرب لثقافة الاستهلاك منه لثقافة الإنتاج، ولذلك لم يسهم بتغيير الحال الإسلامي، إلى درجة يمكن أن نقول معها: بأن جيل الصحابة لم يأخذ البُعْد المطلوب، من ثقافة المسلمين وتربيتهم، ولم تنعكس خصائصهم وصفاتهم التي كانت سبب خيريتهم والرضى عنهم، على مناهج التعليم، والإعلام، والثقافة، والتربية، لتحقيق التأسي المطلوب، وصناعة الثقافة والتربية للأمة، وإنما اتجهت الخطب والكتابات والدروس والوعظ والإرشاد، إلى الفخر بهذا الجيل -وهو مما يُفتخر به لا شك- والتعاظم بإنجازاته، دون القدرة على استنباط الأسس، والقواعد، والمناهج، وجوانب العظمة، وكيفيات بنائها في الجيل المسلم.

وعلى أحسن الأحوال، كانت الكتابات والدراسات الإسلامية لهذا

الجيل، يغلب عليها الطابع والمنهج التسجيلي، التصويري، التفسيري، لاالطابع والمنهج التحليلي، الذي يستطيع تجريد معاني الخلود، وتخليصها من قيود الزمان والمكان، والأشخاص، والامتداد بها، لتمثل روائز ومنطلقات تربوية وثقافية للجيل في كل زمان ومكان.

البعد العالمي لجيل الصحابة

هذا من وجه، ومن الوجه الآخر، جنحت معظم الكتابات الإسلامية حول التعامل مع هذا الجيل، على أنه نماذج اقتداء على المستوى الإسلامي أو العربي، دون الالتفات إلى البعد الحقيقي إلى الوظيفة المهمة والأساسية، وهي أن هذا الجيل يشكل نماذج عالمية وإنسانية، سواء فيما تمثل من قيم، أو بما قدَّم من عطاء.. فعظمة هذا الجيل ليست على المستوى العربي الإسلامي، وإنما هي أيضًا على المستوى الإنساني العالمي، فهم وَرَثَةُ النبوة، وهم حَمَلَةُ الرحمة للعالمين.. هم حملة الرسالة العالمية الخالدة، وقاعدتها البشرية الأولى، ونماذجها التطبيقية، التي تشكل تراثًا إنسانيًا ومراكز إشعاع عالمي.

لذلك نرى كثيراً من تلك الكتابات التي حاصرت نفسها بظرف الزمان والمكان، وتحدثت عن جيل الصحابة وعظمته، وتألقه في إطار الزمان، الذي عاشوا فيه، عجزت عن الامتداد بجوانب العظمة وخصائص البطولة، وأسباب التألق، لتكون منارات هادية للأجيال في كل زمان ومكان، يمكن أن تقترب منها، فهي في عمومها اقتصرت على الافتخار بتلك العظمة، دون تربيتها على القدرة للاستفادة منها وتجسيدها في واقعها، اللهم إلا ما كان من دراسات انتقائية، وقراءات مغلوطة، جاءت من الخارج الإسلامي، أغرقت

الساحة الفكرية بأهداف وأفكار، وأيديولوجيات وفلسفات دخيلة وغريبة عن طبيعة عقيدة الأمة ومعادلتها الاجتماعية.. أرادت أن توجد لها التغطية التراثية أو المشروعية من التراث، وعلى الأخص من فترة جيل القدوة والتأسي، للتسلل إلى الداخل الإسلامي، متجاوزة أسوار الغربة، ومخترقة التحصينات الفكرية الإسلامية.

وبالإمكان القول: إن هذا الجيل، أو هذا التراث، قُرئ تارة بأبجدية رأسمالية، وأخرى بأبجدية ماركسية، وثالثة بأبجدية علمانية، وأخرى بأبجدية باطنية، ويكفي أن نقول: إن ما سمي في فترة من الفترات باليسار الإسلامي، وأفرز بعض المؤلفات التي تسللت إلى المكتبة الإسلامية ووجدت مكانًا لها بسبب الفراغ، حاول ممارسة الانتقاء والإسقاط ليجد لنفسه موطن قدم، ولأفكاره بعض المشروعية، سقط هذا جميعه، على الرغم مما ترك من بعض الضحايا والإصابات، لأن هذا الجيل المشهود له بالخيرية، هو أنموذج هذا الدين التطبيقي، الذي يتجدد باستمرار، ويستأصل نوابت السوء وأنماط الفهوم المعوجة، وينفي عن نفسه الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد.

وقد لا نحتاج إلى ذكر الأمثلة من الكتابات التي قسمت الصحابة إلى يسار ويمين، وذكرت قائمة من الصحابة «اليساريين»، وأخرى من الصحابة «اليمينيين»، وحاولت تفسير تاريخ الصحابة من خلال فلسفة الأنظمة، التي انطلقت منها، وانحدرت إلينا، الأمر الذي يمكننا من القول: إن فتاوى السلطان، وتطويع النصوص، والانتقاء والإسقاط، لم يقتصر على الفتاوى الفقهية، وإنما تجاوز إلى الطروحات الثقافية أو الفتاوى الثقافية -إن صح التعبير- وهي الأخطر، لأنها تصنع القابليات، وتشكل العقول، وتضلل الآراء.

وتبقى القراءات المطلوبة والغائبة، هي القراءات والمراجعات من خلال

ميزان الكتاب والسنة، في تحديد الخطأ والصواب، والضعف والقوة، في واقع التدين، لأن الله الذي اصطفى هذا الجيل، وأورثه النبوة والكتاب، أخبر عن الفوارق الفردية في التدين، فقال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (فاطر:٣٢).

إنها حالات بشرية دائمة ومتكررة، أو لازمة باستمرار، لتكامل الحياة وتماسك شبكة العلاقات الاجتماعية، ولو لم يكن ذلك كذلك لما تحقق لجيل الصحابة موقع القدوة، ومرتكز التأسي.

أما دراسة هذه الحقبة بروح عدوانية حاقدة، والضغط على مواطن الخلاف والتضخيم لها، والتقاط بعض الجزئيات وتعميقها، ومحاولة رؤية هذا الجيل من خلالها، وتصوير هذا الجيل المشهود له بالخيرية، على أن حياته كيد وتآمر، ومكر، وحرب، واغتيالات، واستئثار بالحكم والرأي، وتصفية الخصوم، والتقاط الروايات الضعيفة والهالكة والساقطة، ومحاولة تجاوز البشرية وطبائعها، إلى الملائكية، والمعايرة بها، لنقض الأساس الذي تقوم عليه المرجعية الإسلامية، والنيل من جيل خير القرون، وإيجاد الحواجز النفسية بين الأجيال المتعاقبة وميراثها المرجعي، وإبراز عناصر التألق والإنجازات الديمقراطية والإنسانية في الحضارات والثقافات الأخرى، لاغتيال الجيل المسلم واستلابه، فحديثه يطول!!

وقد يكون هذا الحال الثقافي، بما يمتلك من وسائل الإعلام، ووسائل التشكيل الثقافي الأخرى، هو أخطر فتنة للجيل المسلم، الذي لا يجد نفسه في تاريخه، ولا في واقعه، وإنما لا يجد نفسه إلا عند «الآخر»، الذي قد يمنح له هوامش من الحرية، فما يقوله في الأسواق، والإعلام، والأندية، والمؤسسات الفكرية هناك، قد لا يستطيع أن يقوله في أي مكان في بعض بلاد العالم الإسلامي.

وبالمقابل نجد من رفع بعض الصحابة عن مقام البشرية، وادعى له العصمة عن الخطأ في كل شان، ورأي، واجتهاد، فتجاوز به مقام النبوة، في حدود وأبعاد العصمة، ورفعه إلى مقام الألوهية، كما هو الحال في إصابات التدين التي لحقت بأصحاب الأديان السابقة!!

ولم يختلف الحال من حيث النتيجة، بين من حاول إلغاء وإسقاط حقبة الصحابة من أعداء الدين، لأنها مرحلة الفتن والخصومات والاقتتال، فهي لذلك لا تليق بموقع التلقي والتأسي ومعالجة الواقع(!!) وبين من رفع الصحابة عن مستوى البشر إلى مستوى العصمة، وناط العطاء بالمعصوم، وغيب هذا المعصوم عن واقع الأمة، والإجابة عن إشكاليات حاضرها، والتحضير لمستقبلها.

منهجية البحث في تاريخ الصحابة

ولعل المشكلة كلها في الكثير من دراسات الداخل الإسلامي لهذه الحقبة، إنما تتمثل في منهج التعامل، وأدوات الفحص والاختبار والنقد والمراجعة والتقويم.. المشكلة مشكلة منهج أولاً وقبل كل شيء، وإذا لم يصوب المنهج فسيبقى الإنتاج مختلاً.

لذلك نقول: إن هناك بعض المسلمات أو المرتكزات الاساسية، التي تشكل نقاط الانطلاق المنهجية ، وهذه المسلمات مقررة وثابتة بالتواتر، أو ما يشبه التواتر.

فجيل الصحابة، جيل رضي الله عنه، وانزل السكينة عليه، وشهد له الرسول ﷺ بالخيرية.

«والمعروف عقلاً وشرعًا، أن الله لا يرضى إلا عن عبدٍ علم أنه يوافيه على موجبات الرضـا، ومن رضي الله عنـه لم يسخط عليه أبدًا»، كما يقـول ابن تيمية رحمه الله.

ويقول أبو نعيم: «فمَنْ أسوأ حالاً ممن خالفَ اللهَ ورسولَه، وآب بالعصيان لهما، والمخالفة عليهما؟! ألا ترى أن الله تعالى أمر نبيه بأن يعفو عن أصحابه، ويستغفر لهم، ويخفض لهم الجناح؟» (الإمامة لأبي نعيم، تحقيق علي فقهي).

لذلك فإن الخوض في البحث في تاريخ الصحابة، دون امتلاك منطلقاته ومؤهلاته وأدواته، من القدرة على التحقيق في الروايات، وتحريرها ونقدها، والتمكن من معايير الجرح والتعديل، والنظر في هذه الحقبة من خلال تقويم الكتاب والسنة لها، والمنهج نفسه، الذي وضعه المحدثون، وخاصة بالنسبة لهذه الحقبة دون سائر حقب التاريخ الإسلامي، قد يوقع بالفتنة والاضطراب، وانتقاص الصحابة خير القرون، من حيث لا يعلم.

ولابد هنا من الإشارة إلى قاعدة منهجية علمية تربوية تعليمية مقررة، وهي أن لا يُعْرَضَ على الناس من مسائل العلم، إلا ما تبلغه عقولُهم، قال الإمام البخاري رحمه الله: (باب من خَصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية الايفهموا) (فتح الباري ١/١٩٩).. وقال علي رضي الله عنه: «حَدِّثوا الناس بما يعرفون، اتحبون ان يُكَذَّبَ الله ورسوله؟» قال الحافظ في الفتح تعليقًا على ذلك: «وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يُذكر عند العامة».

ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت محدِّث قومًا بحديث لاتبلغه عقولُهم، إلا كان لبعضهم فتنة» (رواه مسلم).

لذلك لابد من التحقق والتثبت من الروايات المذكورة حول الفتن، ومن ثم دراستها وتحليلها، بعد فحص إسنادها، والتعامل مع متونها، من خلال تحكيم قيم الدين في الكتاب والسنة، لبيان الخطأ في الاجتهاد.

والمعروف عند أهل العلم ، أن أكثر النقول من المطاعن، يرويها المعروفون بالكذب ، مثل ابي مخنف لوط بن يحيٰ ، ومثل هشامَ بن محمد ابن السائب . . .الخ.

لذلك لا يجوز من الناحية العلمية والموضوعية والمنهجية، رد ما ورد بالتواتر في فضل الصحابة، وخيريتهم، وخصائصهم، بنُقُولٍ بعضها منقطع وبعضها محرف.. وحتى لو سلم السند في بعض الأحيان، فلابد من فحص المتن بمعيار الكتاب والسنة.

فالقاعدة المعروفة عند العلماء، هي الحكم بشذوذ الحديث وردّه، إذا خالف الثقة من هو أوثق منه.. فكيف إذا خالفت الروايات التاريخية، النصوص المتواترة، التي شهدت بالفضل والخيرية والرضا؟!

ولما كان الصحابة بشراً من البشر، الذي يجري عليه الخطأ والنسيان والصواب، وكانوا مادة التنزيل الخالد وأوعيته، التي تمثل النماذج العملية لتعامل البشر مع المقدس، أو لتعامل الإنسان مع نصوص الوحي، وتبين أقدار التدين، بكل ما يعتريها من هبوط وارتقاء، لذلك كله فإن ما يقع منهم من خطأ وتوبة وعودة إلى الحق، وانصياع للصواب، مطلوب أيضاً كوسائل معينة على التأسي، والاقتداء، لاكتمال البناء في كل الظروف والأحوال، التي تعرض لها المسيرة البشرية.

المدرسة النبوية في التربية

ولعل من القضايا المهمة والأساسية في تقديري، ونحن بصدد رؤية بعض الآفاق المستقبلية، التي تقتضي منا استشراف الماضي، وخاصة مرحلة التأسي، مرحلة خير القرون، سعيًا في أن يعيننا ذلك على الانطلاق الحضاري من خلال دراسة ظروف وشروط وممارسات الولادة الأولى لمجتمع خير القرون، ونماذجها المتألقة التي تشكل بحق المرتكز الحضاري، والإشعاع الثقافي، والمرجعية والمعيارية، المشهود لها، بالنسبة للمسيرة الإسلامية في كل عصر، أن نتوقف قليلاً عند بعض التأملات في النقلة النوعية التي حققها الإسلام في حياة هذا الجيل على يد الرسول ﷺ وكيفيات التربية النبوية له، وصور التعامل مع جميع الظروف والأحوال والأشخاص، وكيف تحققت شهادة الرسول ﷺ لهذا الجيل، ليصبح مؤهلاً لأن يشكل المرجعية، وبالتالي التصويب والشهادة على الناس: ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج:٧٨).

وقد يكون من أبرز القضايا التي تستدعي التوقف والدعوة إلى التأمل الطويل، هي أن العملية التربوية، أو المدرسة النبوية في التربية، تعاملت مع كل الأعمار، تعاملت مع الإنسان طفلاً، ومراهقًا، وراشدًا، وكهلاً، وشيخًا، وذكرًا وأنثى، واستطاع الإسلام فعلاً أن يشكل عطاءً لهؤلاء جميعًا في كل ظروفهم وأحوالهم.. ونستطيع أن نقول: إنه تعامل مع الإنسان من خلال

الاستطاعة، والحالة التي هو عليها، فلم يرفض أحداً، بحيث لم يُبْقِ إنساناً خارج الخطاب الإسلامي، فتحققت الاستجابات من الشباب والشيوخ، والذكور والنساء، والأطفال، وكل وجد نفسه في الإسلام.. لذلك نلاحظ أن جيل الصحابة، الذي تربى على عين النبوة، يشكل نماذج لهؤلاء جميعاً، كما أن الإسلام تعامل مع الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية جميعها.. وبذلك تأهل جيل الصحابة، الذي شهد له الرسول ﷺ، وزكاه الله ورضي عنه، ليكون شهيداً على الناس، كما أسلفنا.

وقدم الأنموذج للتعامل مع كل الثقافات، والحضارات، والبيئات، والمناخات، والظروف والأحوال، وكان قادة الفتح نماذج مضيئة للإسلام، بعد أن تربوا في مدرسة النبوة، لتصبح هذه التربية دليلاً لإعادة البناء.. تمت هذه التربية، وعلى مختلف الأصعدة، ومختلف الحالات، في فترة ثلاثة وعشرين عاماً، فكانت أمة من خلال كتاب ونبوة، ممتدة على الزمن، وهذه المدة قد لاتكفي لزراعة شجرة ورعايتها.

لذلك عندما نقول: بأن المعجزة الإسلامية –القرآن وبيانه النبوي– تمثلت أو تحققت في إنتاج هذا الجيل الأنموذج، لا نعني بأنها أنتجته من خلال القفزات من فوق السنن الجارية وعزمات البشر والأسباب والأقدار التي شرعها الله، وإنما نعني أنها تميزت بتعاملها مع السنن والاستطاعات البشرية، ولم تخرق السنن.. أو بعبارة أخرى، لم تتعامل مع السنن الخارقة، لذلك لم تكن كمعجزات الأنبياء السابقين، مادية وخارقة للعادة، مما يلمح إلى توقيتها وانتهائها بغياب الأنبياء، على الرغم من أنه كانت للنبي ﷺ معجزات مادية

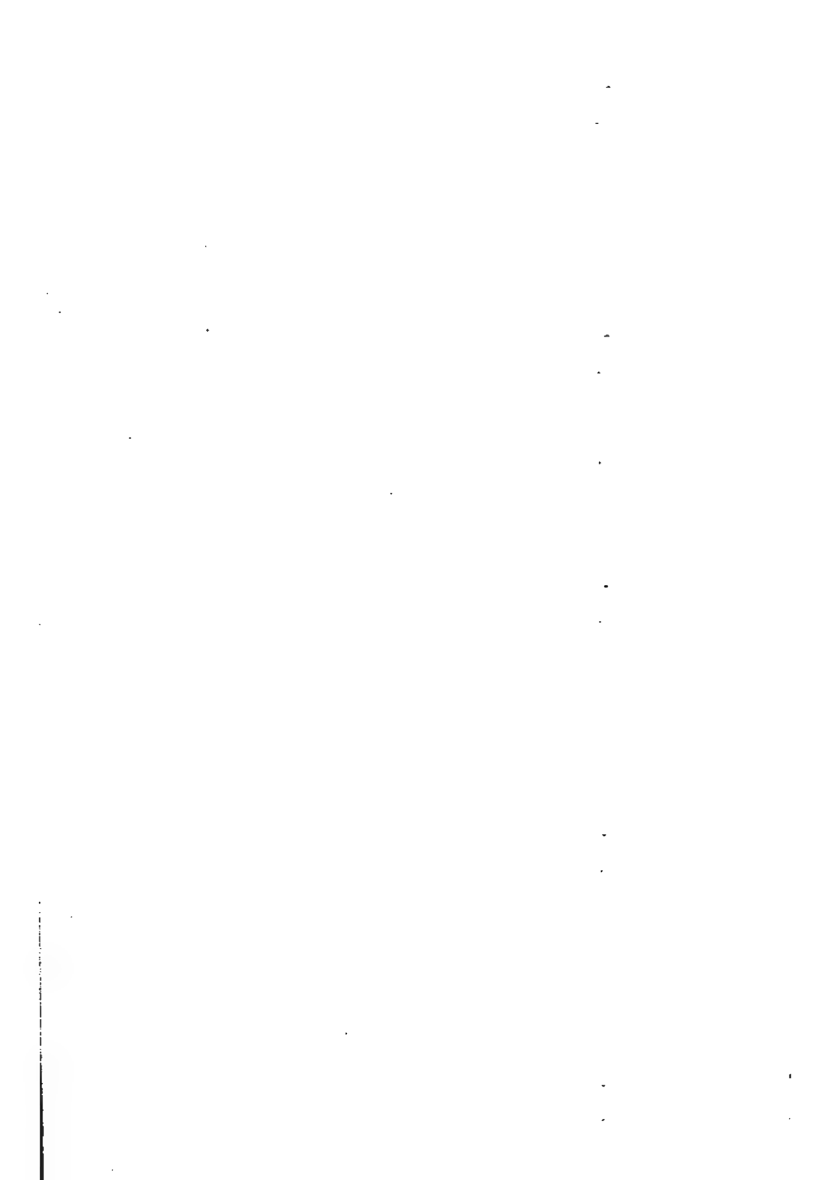
خارقة للعادة أيضاً، إلا أنها لم تعتبر المعجزة، لأن الإيمان بها نوع من الإيمان بالغيب، لعدم شهودها والتعامل معها، وإنما اعتبرت المعجزة هي القرآن، الذي لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، وهو في الوقت نفسه مستمر وخالد، يمكن تنزيله والتعامل معه في كل عصر، من خلال عزمات البشر واستطاعاتهم.

لذلك قلنا: بأن المعجزة الإسلامية، جاءت لتأكيد السنن وليس لخرقها.. ولو لم يكن ذلك كذلك، لكان التجديد وإعادة الإنتاج يمثل إشكالية يصعب تجاوزها، وكان بحاجة إلى نبي مرسل، وإنما كانت المعجزة الإسلامية، في تنزيلها على الواقع، تأكيداً للسنن الجارية، وتعاملاً معها، وليس خرقًا لها.

ولئن كانت المعجزات المادية خرقًا للأسباب، ودليلاً على قدرة الله ووجوده، فإنها من وجه آخر، دليل على اطراد الأسباب، وأنه لا يملك تعطيلها إلا الله الذي خلقها، فإن المعجزة الإسلامية وخلودها، وامتدادها، يكمن في أنها تعاملت مع السنن الجارية، وأكدت اطرادها، وتحققت من خلال عزمات البشر، الذين أدركوها وأحسنوا تسخيرها، فكان جيل الصحابة رضي الله عنهم، الذي يشكل دليل التعامل، وسبيل إعادة البناء في كل زمان ومكان، تتوفر له الظروف وتتحقق فيه إمكانات ومؤهلات التسخير.

مِن نماذج الاتباع :

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله



لا شك في أن تَعَهُّدَ الله سبحانه وتعالىٰ بحفظِ القرآنِ، خطابِ السماءِ الخاتمِ الخالدِ، المجردِ عن قيود الزمان والمكان، إلى الإنسان المخلوق المكلف المكرم، بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)، هذا التعهد بالحفظ، بمقدار ما يمنح الأمة المسلمة من الاطمئنان لصحة وسلامة عالم أفكارها، ومصدر قيمها، بمقدار ما ينيط بها من المسؤوليات ويكلفها من التبعات في حمل الأمانة، التي تقع ضمن عزمات البشر، والتي هي تشريف للإنسان وارتقاء به، قبل أن تكون تكليفًا له وتبعة عليه، فهو المخلوق المكرم، لأنه يمتلك من الصفات والخصائص والمزايا ما يجعله أهلاً لهذا القول العظيم الثقيل، وهو المخلوق المكلف -والتكليف دليل الحرية وعلامة الاختيار- لأنه يمتلك من القدرة والإرادة ، ما يجلعه قادرًا على إدراك الحق وحسن التلقي، وترجمة القيم والتعاليم السماوية والأفكار والقناعات إلى أفعال.

وتَعَهُّد الله الأكرم بحفظ الذكر، لم يقتصر على القرآن، على أهمية ذلك وضرورته على المستويات الدينية والثقافية والحضارية، وإنما امتد التعهد بالحفظ أيضًا إلى البيان، ذلك أن حفظ البيان (التفسير والتطبيق والتنزيل على الواقع) ، لا يقل أهمية وضرورة عن حفظ القرآن، من حيث حماية مدلولات النص من التحريف، والتأويل، والانتحال، والغلو، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة:١٧-١٩).

فالبيان النبوي المعصوم، أو ما صح من البيان المأثور، الذي توفرت له ضوابط النقل والتوثيق، من فُهوم وتطبيقات القرون المشهود لها بالخيرية، هو الذي يشكل المرجعية الشرعية، والمعيارية لفهم آيات القرآن الكريم في كل زمان ومكان.. فللإنسان المسلم أن يمتد بالرؤية القرآنية إلى أمداء وآفاق وفضاءات حضارية واسعة، وينظر إلى المشكلات الإنسانية، ويجتهد في إيجاد الحلول الملائمة لها، ويبصر مسارات المستقبل، ويرسم معالمها في ضوء هدايات ومعارف الوحي، شريطة الا يعود ذلك بالنقض أو الإلغاء للبيان المحفوظ، الذي يشكل المرجعية، التي لم تكتف بوضع الإطار، ورسم المسارات، ووضع المنهج للفهم القرآني، وإنما اقامت المنارات، ووضعت الإشارات الهادية، للحماية من السقوط أثناء السير في الطريق.

وفي اعتقادنا أن البيان النبوي الذي تعهد الله بحفظه، وفهم القرون المشهود لها بالخيرية من الرسول عليه الصلاة والسلام، له صفة الخلود والامتداد، ومقاصده مجردة عن قيود الزمان والمكان أيضاً، لأنه بيان النص الخالد.. ومن هنا نقول: إننا لا نعني فقط بتوفر المرجعية الشرعية، ان لا يعود أي فهم أو اجتهاد في كل زمان ومكان، بالنقض او الإلغاء للبيان النبوي، أو فهم القرون المشهود لها بالخيرية، وإنما نعني ايضاً ضرورة استصحاب أي فهم أو اجتهاد، للبيان النبوي ابتداءً، لما في ذلك من التقوى وأمن السلامة، والحماية من الزيغ والزلل والضلال، وعدم التقدم إلى التعامل مع أي قضية والنظر فيها، قبل التحقق بالمرجعية الشرعية، التي أشرنا إليها، استجابة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات:١). ونرى ان غياب هذه المرجعية وعدم وضوحها بالشكل المطلوب، إضافة إلى الجنوح إلى الهوى واتباع الظن، كان وراء الكثير

من حركـات الرفض والخروج، وتَشَكُّل الفـرق الضالـة، علـى هوامـش المجتمع الإسلامي.

ولم تقتصر مهمة البيان والتصويب وبناء المرجعية الشرعية، التي عهد بها الله إلى الرسول الخاتم ﷺ على حاضر النـاس، وإنما امتـدت لبيـان وتصويب ما لحق بالأقوام السابقة من علل التدين، نتيجة لتحريفات نصوص الدين ومدلولاته، التي عبث فيها أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤).. ولعل النص: ﴿لتبين للناس﴾ ينصرف أول ما ينصرف بمقصد بيانه إليهم، أي: اليهود والنصارى، لتبين –يا محمد– حقيقة ما نُزل إليهم، وزيف ما هم عليه، وتبين للمسلمين معاني ومقاصد الآيات القرآنية، وكيفيات التعامل معها، وتجسيدها في الواقع، وتكون في ذلك قدوة عملية، وتبين لهم سنن الله الاجتماعية التي تحكم الحياة والأحياء، والتي كان التاريخ وقصص الأنبياء مختبراً حقيقياً لها، ليأخذوا حذرهم، ويقوّموا حاضرهم، من خلال ماضي الأمم السابقة والنبوات السابقة، ويبصروا مستقبلهم من خلال حاضرهـم، فيهتدوا إلى سنن السقـوط والنهـوض، ويتعظـوا ويحققوا الوقاية الحضارية، فلا تتسرب إليهم علل التدين التي كانت سبباً في هلاك الأمم السابقة.

الحاجة إلى دراسة حركات التجديد

والقضية التي لابد من الاستمرار في طرحها، والتأكيد عليها، هي ضرورة استئناف السير في الأرض، والتوغل في التاريخ البشري بشكل عام، والتاريخ الإسلامي بشكل خاص، للاهتداء إلى سنن السقوط والنهوض، وأخذ الدروس

والعبرة، والحذر من تسرب علل تدين الأمم السابقة إلى أمة الرسالة الخاتمة، وتحقيق الوقاية الحضارية، استجابة لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٧-١٣٨)؛ والتوقف طويلا بالدرس والتحليل والاستقراء والاستنتاج لحركات الإصلاح والتجديد والتغيير، والتعرف على حياة المجددين كنماذج تاريخية، وخاصة أولئك الذين شكّلوا منعطفات تاريخية، والذين كانت تتشابه ظروفهم مع ظروفنا وواقعنا، حيث لا ينكر دور النماذج التاريخية المضيئة في بناء الأجيال، والإفادة من تجاربهم سلبًا وإيجابًا، وتاصيل منهج التقويم والمراجعة والمناصحة والنقد والمشاورة والمثاقفة والمفاقهة والحوار.

إن عمليات التجديد والإصلاح لا يمكن أن تتم بالفراغ، أو ترسم في البروج العاجية البعيدة عن ساحة التفاعل الاجتماعي، فأولى خطواته -فيما نرى- تتمثل في نقد الواقع، ومراجعة تقويمه، ومعايرته بقيم الكتاب والسنة، وتحديد مواقع الخلل، وإدراك أسبابه، ورسم سبل الخروج والتصويب، وهذا لا يمكن أن يتم أو يتحقق بعيداً عن أدواته وآلياته، من الحوار والمثاقفة والمفاقهة والمناصحة والنقد، لأننا نعتقد ان قول الرسول ﷺ: **«إن الله تعالىٰ يبعثُ لهذه الأمة على رأس كُلِّ مائة سنة مَن يُجَدِّد لها دينها»** (رواه أبو داود والحاكم)، هو إخبار بامتداد هذا الدين، واستمرار سلامة قيمه، من خلال التصويب والمراجعة والتوثيق، وهو -من جانب آخر- تكليف للأمة أن تستمر فيها حاسة الرقابة العامة، ومراجعة المسيرة، ومعايرة الواقع، بعيداً عن أي استنقاع حضاري، أو ركود ثقافي، أو استسلام وخلود إلى الأرض.

ولعل حركات الإصلاح والتجديد، تكون معنية بالدرجة الأولى بتحديد مواطن الشر، والتعرف على أسبابه، مخافة أن يدركها، أو يعلق بمسيرتها وسلوكها بعض أمراض مجتمعها التي تريد إصلاحه، ولتكون على بصيرة في معالجة الأسباب، عندما تحاول التصويب والإصلاح والوقاية ونفي نوابت السوء من جانب، والتجديد والتنمية لمجالات الخير من جانب آخر.

ولا شك أن ظهور ووجود حركات الإصلاح والتجديد والتغيير، ووجود نماذج مضيئة من المجددين الذين ينفون نوابت السوء، ويقتلعون البدع في الفقه والفكر والعقيدة بالقرآن والبيان، ويقفون سداً منيعاً في وجه التحريف، والمغالاة، والتعطيل والإرجاء، والتأويل والتضليل والضلال، يعتبر من لوازم الرسالة الخاتمة الخالدة المجردة عن حدود الزمان والمكان، حيث توقف عندها التصويب من السماء، لأن سمة الخلود تؤكد من بعض الوجوه قدرتها على التجدد الذاتي، وذلك بإنتاج نماذج للاقتداء والاتباع، قادرة على التجديد، وإعادة معايرة الواقع بقيم الكتاب والسنة، وتجديد الفاعلية، وتجاوز التقاليد الاجتماعية المترسبة، إلى التعاليم الشرعية المعصومة.

وهذه النماذج التجديدية، على مستوى الأفراد والجماعات، قد تضيق مساحتها وقد تتسع، لكنها لم تنقطع عبر التاريخ، القديم والوسيط والمعاصر، فسنن المدافعة جارية في الحياة، لأن الشر من لوازم الخير.. وتتبع هذه النماذج ودراستها، وتحليل طروحاتها الفكرية، ووسائلها في الدعوة والإصلاح، ضرورة علمية ودعوية وثقافية وحضارية وسياسية معاً، وذلك لإثارة الاقتداء، وإحياء الفاعلية واستشعار المسؤولية في حمل الأمانة، واختبار وسائل السقوط والنهوض، والفقه بكيفية التعامل مع قيم الكتاب والسنة، وتنزيلها على واقع

الناس، وتحقيق العبرة بالتعرف على جوانب النجاح والإخفاق، وتحديد مواطن التقصير وأسباب القصور والإخفاق، لتكون سبيل اهتداء، للتعامل مع الحاضر، وبصارة المستقبل، واستدراك الخلل، وتصويب المسيرة، وإضافة هذا الرصيد الثقافي والحضاري والدعوي لإمكانات الحاضر وتطلعات المستقبل.

ولعل الأولى بالتحليل والدراسة والاتباع، وإثارة الاقتداء في تاريخ حركات التجديد والإصلاح والتغيير والمجددين: أولئك الذين واجهوا ظرفًا مشابهًا لما حولنا، وواقعًا مماثلاً لواقعنا، واغترفوا من معين الكتاب والسنة، واهتدوا بفهم القرون المشهود لها بالخيرية من الرسول ﷺ، وعاشوا في قلب الواقع الإسلامي بكل مشكلاته وقضاياه ومعاناته، وقادوا المسيرة بفقه وفكر وفعل، وكانوا من الطلائع التي تتقدم الصفوف، تعطي الأنموذج لفعل الحلال ومنع الحرام، أو بعبارة أخرى: كانوا يصنعون التاريخ، ولم يكونوا من السّاقة الذين يخرجون من المعركة، ويسيرون خلف الصفوف، كل همهم أن يحكموا على تصرفات ومسالك الناس وأفعالهم بعد وقوعها، بالحل والحرمة، بعيداً عن أي صناعة حضارية، فتحولوا من صناعة التاريخ ومغالبة الأقدار في ضوء السنن الربانية، إلى الاقتصار على قراءة التاريخ، والخروج من الواقع.

التشابه بين عصر ابن تيمية والعصر الحاضر

وقد يكون الشيخ الإمام المجدد ابن تيمية رحمه الله، ومدرسته الفقهية ومنهجه الفكري، على رأس قائمة هؤلاء المجددين، من حيث أهمية التعرف على منهجه، نظراً للتشابه الكبير بين ظروف عصرنا وظروف عصره، بكل ما حمل من تقليد فقهي، وجمود فكري، ووهن حضاري، وغزو ثقافي،

وتسلط سياسي وعسكري، وتمزق اجتماعي، وتضليل فلسفي، وهجمة باطنية، وموالاة غير المسلمين، واختراق سياسي، وإشاعة الثقافات اليهودية والنصرانية، والافتتان بتقليد الكفار والتخلق بأخلاقهم، وتوهين قيم الكتاب والسنة، وتمزيق وحدة العالم الإسلامي العقدية والفكرية والسياسية، وكثرة فرق الضلال والتضليل.

لقد اهتم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بالحفاظ على الثقافة الإسلامية، والشخصية المسلمة بكل خصائصها وامتيازاتها، وخاصة عندما رأى من آثار اجتياح التتار للدول الإسلامية، وظهور اليهود والنصارى.. ولعل من القضايا المبكرة التي تنبه لها وأدرك خطرها، من الناحية الدينية والثقافية والسياسية والحضارية، قضية التقليد والمحاكاة، والتشبه بالكفار من اليهود والنصارى ومضاهاتهم، والانسلاك في منهجهم، والتتبع لسننهم، وما يؤدي إليه ذلك من الانحلال الثقافي، ونقض عُرىٰ الإيمان، والضلال.. والمعروف نفسيًا وثقافيًا، أن شيوع تقليد الغالب، والتشبه به في لباسه وعاداته وأعياده ولغته، يورث تشاكلاً وتناسبًا، كما يورث مودّة وموالاة بين المتشابهين.

ولقد توقف رحمه الله عند قضية اعتماد العربية، لغة القرآن، وأهمية تعلمها والتزام النطق بها، وأنها من الدين، ودورها كوعاء للتفكير وأداة للتعبير، وإحدى وسائل التشكيل الثقافية، وبيّن موقف الصحابة من ذلك، الذي يتمثل في قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إياكم ورطانة الأعاجم»، فكان الصحابة يكرهون أن يتكلم المسلم بغير العربية، على وجه الاعتياد والدوام ولغير ضرورة، لأن اللغة الأجنبية بشكل عام، إذا لم تؤخذ

بحذر ودقة، وبعد التحصين وبناء المرجعية، تصبح أحد معابر الغزو الثقافي، لأنها أداة تفكير وتغيير، وليست وسيلة تعبير فقط.

إن تشابه الظروف بين الحال التي نحن عليها، والواقع التاريخي الذي تعامل معه الإمام المجدد ابن تيمية رحمه الله، يجعل مدرسته في الإصلاح، ومنهجه في التغيير والتعامل مع الواقع في ضوء قيم الكتاب والسنة، هي الأولى بالدرس والتحليل، على الرغم من البُعد الزماني الذي يفصلنا عنه، والذي قد يتجاوز السبعة قرون، لأن أصول المشكلات الإنسانية واحدة، وإن اختلفت أعراضها وأحجامها وأشكالها من حين لآخر.

ملامح من منهج ابن تيمية

ونحن لا ندّعي بهذه الإلماحة السريعة، الإحاطة بمنهج ابن تيمية ومدرسته في الإصلاح والتجديد والتغيير، وإنما هي نوافذ وإضاءات وملامح أساسية لمنهجه، قد تكون قادرة على إعطاء فكرة عن السمات والخصائص البارزة لهذا المنهج، المحددة لبعض منطلقاته الأساس.

لقد كان المحور الأساس الذي انطلق منه شيخ الإسلام رحمه الله، في فكره وفقهه ودعوته التجديدية والإصلاحية، هو: تنقية التوحيد، والعودة به إلى صفائه، وتحرير مفهوم العبودية بكل أبعادها، لأن تنقية التوحيد وتحرير العبودية، هو الذي يحقق السعادة للإنسان، ويرفع عنه الآصار والأغلال، ويمنحه الأمن النفسي تجاه مسألتي الرزق والأجل، وبذلك ينعتق من كل العبوديات الأرضية، مهما كان نوعها، ويتمتع بالحرية والإرادة.

وقد بيّن رحمه الله أن العبودية لله نوعان: عبودية قسرية تتمثل في كون الله ربنا ومالكنا، وكوننا خاضعين للقوانين التي جرى عليها الكون، والسنن التي نظم بها الخليقة، فنحن عباد لله بهذا المعنى، شئنا أم أبينا.

ونوع آخر من العبودية نستطيع أن نسميه: «الخضوع الإرادي»، أو «الانقياد الشرعي»، وهو الإقرار لله وحده بالعبادة والطاعة فيما شرعه لنا، من قوانين لاتصبح نافذة وجارية في الواقع، إلا بتدخل من إرادتنا، وهو ما يعبر عنه بـ«عبودية الإلهية».

ويرى: أن كل من استكبر عن عبادة الله، لابد أن يعبد غيره ويذل له، ويعلل ذلك بقوله: «... إن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة، وكل إرادة لابد لها من مراد تنتهي إليه، فيكون الإنسان عبداً ذليلاً لذلك المراد المحبوب».

ويبلغ الآفاق الاجتماعية والسياسية، حين يتحدث عن بعض مظاهر العبودية لغير الله وآثارها، تلك التي تبدو ظاهراً بعيدة كل البعد عن أن يكون صاحبها عبداً، فيقول:

«وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات، ويعفو عما يجترحونه، ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع. والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، «عبودية متبادلة». (انظر التقديم القيم الذي كتبه الاستاذ عبد الرحمن الباني لرسالة العبودية، إصدار المكتب الإسلامي).

ولابن تيمية رحمه الله، سيرة حافلة بالعلم والجهاد، والمعاناة والمحن. وقد

تضافرت جهود الحكام في عصره مع جهود بعض العلماء لمحاربته والنيل منه، فمنهم من كفّره، ومنهم من رماه بالزندقة، ومنهم من وصفه بالفيلسوف الغارق في التشبيه والتجسيم.

وهكذا كانت حياته سلسلة من الصراعات الفكرية والفقهية مع خصومه.. وقد رافق هذه الحياة الحافلة بالمواجهة، جهد علمي، وانقطاع لا مثيل له إلى المناصحة والدعوة وإعلاء كلمة الحق.. حارب في كل الجبهات، وصنف في شتى العلوم والمعارف.

ولعل إلقاء نظرة على عناوين مؤلفاته، التي لا يتسع المجال لسردها جميعًا، يمكن ان تعطي فكرة واضحة عن سمات شخصيته وطبيعة اهتماماته، وساحات معاركه الفكرية والفقهية.. وقد يكون أبرز ما يميزه، معرفته بمن حوله، واستيعابه لعصره، ومعرفته الدقيقة بمكوناته الثقافية والسياسية.

لقد تناول علوم عصره بالدرس العميق، والفحص الدقيق، ثم تناولها بالتأليف والرد، وكانت معركته حامية الوطيس مع الفلاسفة، وعلماء الكلام والمنطق والتصوف المنحرف، وكان نتيجة ذلك ان ترك ثروة غنية من المؤلفات قد تصل إلى خمسمائة مصنَّف.

فقد كتب في التفسير رسائل كثيرة بالغة الأهمية، منها رسالة في منهاج التفسير، وكيف يكون؟ ولاتزال هذه الرسالة مرجعًا في منهجه في التفسير واستخراج الأحكام الشرعية.

وكتبه في العقيدة كثيرة، منها كتاب «الإيمان»، ثم كتاب «الاستقامة»، وكتاب «اقتضاء الصراط المستقيم»، وكتاب «الفرقان».

وفي مناهج الاستدلال، كتاب «نقض المنطق والرد على المنطقيين»، وكتاب «منهاج السنة»، وكتاب «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول».

وفي الفقه، الفتاوى المختلفة، التي كان بعضها في مصر، وبعضها في الشام، ووضع ضوابط وقواعد يلتقي عندها المختلفون.. ومن رسائله القيمة، رسالة «القياس»، ورسالة «الحسبة، وكتاب «في نكاح المحلّل»، وكتاب «العقود»، وغير ذلك من كتب ورسائل في الفقه والأحكام (انظر كتاب: «ابن تيمية ومنهجه الفكري»، للدكتور محمد حسني الزين).

معيار الفتوى والاجتهاد

وقد كان معيار الفتوى والاجتهاد عند شيخ الإسلام رحمه الله، تحقيق مقاصد الدين، وتحصيل مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، واعتماد الفقه العملي الذي يعايش واقع الناس ويعالج مشكلاتهم ويبصرهم بالحكم الشرعي، لينضبطوا به، بعيداً عن التجريدات الذهنية في الاجتهاد، التي لا تشكل حاجة عملية، على الرغم من خصوبة ذهنيته، ورصيده الشرعي والعقلي في الرد على الفلاسفة، ودحض مفتريات الفرق الضالة وشبهات الملحدين على مستوى الفكر والعقيدة.

وقد كانت له فتاوى واجتهادات فقهية خالف فيها الجمهور، وبعضها خالف فيها أصحاب المذاهب الأربعة، لما تبين له من دلالات النصوص في تحقيق المقاصد وتحصيل المصالح، من أبرزها:

- جواز إقدام الحائض على الطواف عند الضرورة، ولا فدية عليها.

- أن الطلاق البدعي -الطلاق في الحيض، أو في طُهْر بعد الوطء قبل أن يتبين الحمل- لا يقع.

- وأن طلاق الثلاث المجموعة -في طُهْر واحد- محرّم، ولا يلزم منه إلا طلقة واحدة.

- وأن مَن علّق الطلاق على شرط والتزمه، لا يقصد بذلك إلا الحظر أو المنع، يجزئه كفارة يمين.

- وأن الخلع لا ينقص به عدد الطلاق، ولو وقع بلفظ الطلاق.

- وأنه يجوز التضحية بما كان أصغر من الضأن.

- وأنه يجوز قَصْر الصلاة في كل ما يُسمىٰ سفراً، وأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء.

- وأنه يجوز إبدال الوقف للحاجة أو المصلحة.

- وأنه يجوز إخراج القيمة في الزكاة، للحاجة أو المصلحة أو العدل.

هذا عدا عن الفتاوى الكثيرة في المجالات السياسية و الاجتماعية، التي كانت ترتكز إلى الانطلاق من النص الشرعي، وتهدف إلى جلب المصالح ودرء المفاسد، إلى درجة يمكن معها اعتبار منهجه في الفتاوى والاجتهادات أقرب ما يكون إلى ما اصطلح على تسميته: السياسة الشرعية.

إعادة الاعتبار لمعرفة الوحي

ولعل من أبرز ما يميز منهجه الفكري ومدرسته في التجديد والإصلاح والتغيير، إعادة الاعتبار لمعرفة الوحي في الكتاب والسنة، والامتداد بالرؤية التجديدية، والانطلاق بها من خلال فهم القرون المشهود لها بالخيرية، واعتماد النبوة وسيلة المعرفة الصحيحة، والتركيز على حاجة البشرية إلى النبوة على أنها الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة، وأن الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته الحقيقية، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى، المعرفة الصحيحة، التي لا يشوبها جهل ولا ضلال، ولا سوء فهم، ولا سوء تعبير، وأن هذه المعرفة لا يستقل بها العقل، ولا يغني فيها الذكاء، ولا تكفي فيها سلامة الفطرة، والإغراق في القياس العقلي والتأمل الفلسفي، وأن سر ضلال الفلاسفة، اعتمادهم في ذلك على عقلهم وعلمهم وذكائهم ومهارتهم في بعض العلوم والصناعات.. حتى ليمكننا القول:

إن شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، استطاع وإلى حد بعيد، حل المعضلة المزمنة بين العقل والوحي، وخلّص الفكر الإسلامي من الثنائية والانشطار الثقافي والخيار بين الوحي والعقل، والعلم والإيمان، وإعادة فحص واختبار المقدمات المغلوطة التي كانت مطروحة على سبيل التقابل والثنائية بين العقل والدين، أو بين العلم والإيمان، وأعاد بناءها الصحيح، وصوّب المعادلة، لتتحول من التقابل والثنائية إلى التكامل والوحدانية، وكان من أَجَلّ وأهم مؤلفاته: «درء تعارض العقل والنقل، أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»، في وقت كان يخضع فيه العالم الإسلامي أو العقل الإسلامي،

للاجتياح الفلسفي والجدل الكلامي، وتغييب معرفة الوحي، فجاء إنتاج ابن تيمية ومنهجه الفكري بحق، يشكل الترسانة الفكرية التي حمت الثقافة الإسلامية من الاجتياح، كما وصف ذلك بعض الباحثين المسلمين المعاصرين، فلا دين بلا عقل، ولا عقل بلا دين.

الاجتهاد في محل النص

وقضية اخرى على صلة باهمية الارتكاز على معرفة الوحي وإعادة الاعتبار إليها، التي كانت من أبرز محاور اهتمام شيخ الإسلام، وهي في تقديرنا على غاية من الأهمية، لأن الفقه بها وحسن إدراكها، يعتبر من التفكير العلمي والموضوعي، أو بعبارة أدق: من التفكير الاستراتيجي، الذي يحفظ الطاقات، ويحمي الإمكانات، ويحول دون هدر الأوقات، ويُحسن توظيفها، ويخلص العقل والعمل الإسلامي من الإحباطات المتلاحقة، واختلاط الأمنيات بالإمكانيات، واختلال الموازين الشرعية في النظر للأشياء والحكم عليها، وهي:

أن ابن تيمية لم يقصر النظر على تحرير النص الشرعي، والاجتهاد في بيان دلالاته ومقاصده، وإنما اجتهد وبذل جهداً مقدوراً في فحص واختبار وبيان محل النص وخصائص مورده، وحدود وقوع التكليف، وربط ذلك بمدى توفر الاستطاعة.. فكان له اجتهاد في مورد النص، كما أن له اجتهاداً في تحرير النص وتبيين مقاصده ومدلولاته، لأن الأمر لا يتعلق فقط بمعرفة

حكم الشرع وما يطلبه منا، والتأكد منه، والانطلاق لإنجازه، بل يتعلق باستكمال أبعاد أخرى تخص ساحة التنفيذ والتنزيل على الواقع، وكيفياته، ومنهجية ومرحلية الإنجاز، خصوصاً عند تراجع أقدار التدين، وانتقاص آثار النبوة في الخلق، وضعف صلة الناس بالإسلام فهماً وممارسة، حيث يحتاج الاجتهاد والعمل إلى بصيرة نافذة وعقل راشد، وفقه نضيج، يمتلك مفاتيح المعادلات المركبة التي يفرزها التدافع غير المتكافئ بين الحق والباطل، والصواب والخطأ، والمصلحة والمفسدة، وهو ما عناه العلماء بقولهم: ليس الفقيه هو مَن يعرف بأن هذا مصلحة وهذا مفسدة، بل الفقيه هو الذي يعرف خير الخيرين وشر الشرين. وقد يكون من المفيد أن نجلي هذه الفكرة بإيراد نص كلام شيخ الإسلام نفسه، يقول شيخ الإسلام:

«العالم تارة يأمر، وتارة ينهى، وتارة يبيح، وتارة يسكت عن الأمر أو النهي... كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء، حتى علا الإسلام وظهر. فالعالِم في البيان والبلاغ كذلك، قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن، كما أخَّر الله سبحانه إنزال الآيات، وبيان الأحكام، إلى وقت تمكّن رسول الله ﷺ من بيانها.

فالـمُحي للدين والمجدد للسنة، لا يبلِّغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقَّن جميع شرائعه، ويؤمر بها كلها، كذلك التائب من الذنوب، والمتعلم، والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين، ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا

لم يطقه، لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه عليه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان، كما عفا رسول الله ﷺ عما عفا عنه إلى وقت بيانه.. ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات، وترك الأمر بالواجبات، لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل.. ومن هنا يتبين سقوط كثير من الأشياء، وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل، لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب والتحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي وإن كان في الأصل» (مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٥٨-٦٠).

هذه النظرة الفقهية الدقيقة لمحل تنزيل النص، ومدى توفر الشروط والظروف لهذا التنزيل، أي توفر الاستطاعة بمعناها الأشمل، ليقع التكليف -حيث لا يُكلِّف الله نفساً إلا وُسعها- التي يمكن أن نسميها: «فقه المرحلة»، أو فقه الحالة التي عليها الناس، ووضع الإجابات الشرعية لكيفية التعامل معها، لا تعني القبول بالواقع، وعدم تنمية القدرات والاستطاعات للارتقاء بمستويات التكليف، وبلوغ حالة القوة والتمكين، وإنما تعني -من بعض الوجوه- تعامل الشريعة مع حالة الناس التي هم عليها، والارتقاء بهم من خلال تنفيذ ما يطيقون من أحكامها، أي يتربون ويترقون وتتطور استطاعاتهم، من خلال ما يقع عليهم من أحكام التكليف، وبذلك يكون الحضور المستمر لأحكام الدين في حياة الناس، مهما كانت استطاعاتهم وأقدار تدينهم صعوداً وهبوطاً.

تطبيق الشريعة وأبعاد التكليف

ويمكن أن نقول: بأن هذا ليس انتقاصاً لتطبيق الشريعة، وإنما هو تطبيق للشريعة في حدود الاستطاعة وواقع الناس في الحالة التي هم عليها، وتأهيل للمجتمع من خلال أحكامها.. أما رفع الشريعة بحجة عدم تأهل المجتمع لأحكامها، والبدء بتحضير المجتمع ليصبح محلاً لتطبيقها، فاعتقد ان القضية من الخطورة بمكان، ذلك ان التأهيل إنما يتم ضمن أحكام الشريعة نفسها، الملائمة للمجتمع في حالته الراهنة.. فالمشكلة تكون عند عدم فقه الحالة التي عليها الناس (محل الحكم)، والأحكام الشرعية التي تتلائم مع استطاعاتهم في تلك الحالة، لأن غياب الاستطاعة تعني من بعض الوجوه، أنهم ليسوا مكلفين في هذه المرحلة إلا بهذه الأحكام، فتطبيق الشريعة بالنسبة لهم حدوده هي هذه الأحكام، التي يقع بها التكليف.

فقه التعامل مع مقاصد النص

ولعل من فقه شيخ الإسلام ونظراته الدقيقة، أن دراسته لمحل تنزيل الحكم الشرعي، وتحديد استطاعته، التي تستدعي نوع ومستوى التكليف، عادت بفقه جديد للنص الشرعي نفسه، أو بمعنى آخر: إن محل الحكم الشرعي عنده، كان له الأثر الكبير في إعادة النظر بمقاصد النص نفسه وتحليله وتعليله، وعدم الاقتصار على تفسيره وبيان معناه المقصود، فمثلاً قوله

تعالى: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (القصص: ٢٦)، يعني ان القوة والأمانة، أو بمعنى آخر: الإخلاص والصواب، أو التدين والتخصص، هما الصفتان المطلوب توفرهما في كل مسؤول ولكل مسؤولية.. لكن إذا كانت الحاجة قائمة والظروف تستدعي مباشرة بعض المهمات، ولم تتوافر الكفاءة المطلوبة من القوة والأمانة، نرى هنا ان من فقه ابن تيمية العملي والواقعي، النظر في طبيعة الوظيفة وطبيعة المهمة، فبعض المهام والاعمال تتطلب مزيداً من الأمانة والحرص والحماية وعدم التفريط، كالقيام على الأموال وما في حكمها، فيرجح لهذا العمل الأمين.. وهناك أعمال تتطلب قوة وشكيمة وصموداً وثباتاً وتضحية، كالاعمال العسكرية والقيادية، فيُختار ذو القوة.. كل هذا في حال عدم توفر القوة والأمانة معًا، وهي الصورة الأمثل التي لابد من الانتهاء إليها، لكن لا يقف الفقيه عاجزاً عن التعامل مع الحالة القائمة للناس، ضمن إطار الاحكام الشرعية.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، في كتاب السياسة الشرعية، تحت عنوان: (قلة اجتماع الأمانة والقوة في الناس):

«اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة. فالواجب في كل ولاية، الاصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر اعظم قوة، قُدم انفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، فتُقدَّم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور فيها، على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أميناً، كما سُئل الإمام احمد، عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف: مع أيهما يغزي؟ فقال:

أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيغزي مع القوي الفاجر. وقد قال النبي ﷺ: **«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»**، ورُوي: **«أقوام لا خلاق لهم»**. فإذا لم يكن فاجراً، كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين، إذا لم يسد مسده.

ولهذا كان النبي ﷺ يستعمل خالد بن الوليد على الحرب، منذ أسلم، وقال: **«إن خالداً سيف سلّه الله على المشركين»**، مع أنه أحيانًا كان قد يعمل ما ينكره النبي ﷺ، حتى إنه –مرة– رفع يديه إلى السماء وقال: **«اللهم إنّي أبرأ إليك مما فعل خالد»**، لمّا أرسله إلى جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك...

وكان أبو ذر رضي الله عنه، أصلح منه في الأمانة والصدق، ومع هذا قال له النبي ﷺ: **« يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم»** (رواه مسلم). نهى أبا ذر عن الإمارة والولاية، لأنه رآه ضعيفاً، مع أنه قد رُوي: **«ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء، أصدق لهجة من أبي ذر»**...

ويُقدم في ولاية القضاء، الأعلم الأورع الأكفأ، فإن كان أحدهما أعلم، والآخر أورع، قُدم –فيما قد يظهر حكمه، ويخاف فيه الهوى– الأورع، وفيما يدق حكمه، ويخاف فيه الاشتباه: الأعلم. ففي الحديث عن النبي ﷺ، أنه قال: **«إن الله يحب البصر النافذ، عند ورود الشبهات، ويحب العقل عند حلول الشهوات»** (انظر كتاب السياسة الشرعية لابن تيمية، ص٢٩–٣٤).

خلق المعرفة وغايات العلم

ولعل من القضايا المهمة التي عرض لها شيخ الإسلام رحمه الله، ووضع المنهج الصحيح للتعامل معها، المنهج الذي يضمن لها السداد والصواب: الاهتمام بخُلُق المعرفة والعلم، والنظر في غاياتهما ومقاصدهما، ذلك أن الاهتمام بخلق المعرفة وأمانتها، لا يقل عنده عن الاهتمام بالمعرفة نفسها، لأن العلم بدون توفر الخلق وتحديد الأهداف والمقاصد، سوف ينقلب إلى لون من البغي والظلم والفساد وتفريق الدين، ويكون سببًا للفرقة والتنازع والتآكل، بدل أن يكون سببًا في الوحدة والتكامل والقوة.. فقيام الحضارة، والتحرك في الإصلاح، وتجديد أمر الدين، لابد له من الكتاب: (العلم والمعرفة الصحيحة، عن طريق النبوة)، ولابد له أيضًا من الميزان: (العدل والالتزام بخلق المعرفة ومقاصدها)، وذلك انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥).

ذلك أن غياب الميزان واهتزاز المعيار، ولو كان صاحبه على شيء من العلم، فإن علمه يقوده إلى البغي والتطفيف، وبخس الناس أشياءهم، وإلحاق الأذى والسوء بهم، كما يؤدي إلى عدم الإنصاف، وشيوع فقه الحيل والمخارج الشرعية وأكل الحقوق، وغياب فقه المقاصد وميزان الاعتدال، كما يؤدي إلى التفرق والتعصب والغلو والتشرذم، وغلبة النزوع الحزبي والطائفي.. وعند فقد الميزان، تصبح الكبائر المهلكة من الهنات واللمَم، إذا وقعت من جماعتي

وحزبي وعصبتي وطائفتي!! وتنقلب الهنات واللمم إلى كبائر، إذا وقعت من الآخرين!!

ولا شك أن هذا من علل التدين، التي وقعت بها الأمم السابقة، وقص الله علينا تاريخها وسبب هلاكها في القرآن، لتأخذ الأمة المسلمة حذرها، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ (الشورى:١٤).

إن صور البغي التي تتسلل إلينا، دليل على غياب الميزان واهتزاز المعيار، حتى ولو كنا على شيء من الفقه والعلم، حيث أصبح الحق يُعرف بالناس، ولا يُعرف الناس بالحق، ولانزال نرى امتداد الكثير من فرق الرفض والخروج والمغالاة تتحرك تحت شعار العلم والجدل العلمي، فانقلبت المعادلة، وأصبحت معرفة الوحي تبعًا لهوانا، بدل أن يكون هوانا تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، وهذا لا يعني أن ابن تيمية رحمه الله، كان يتنكر للاختلاف في الرأي والفقه، لأن الاختلاف ظاهرة طبيعية وصحية، ومن سنن الله في الخلق، لكن الاختلاف المحمود هو الذي يُتَحلىٰ بأدبه، ويكون اختلاف تنوع لا اختلاف التضاد المذموم.. نختلف وتتعدد وتتنوع وجهات نظرنا، لكن لا نفترق، فلابد أن تكون لنا أصول وقواعد، لنعرف كيف نختلف، كما نعرف كيف نتفق.

لذلك دافع عن أئمة الهدى والاجتهاد، وألف في (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، على الرغم من مخالفته لهم في كثير من المسائل الاجتهادية.

منهج الحكم على الأشخاص

وطرح منهجًا دقيقًا ومتميزًا، ووضع معايير منضبطة في الحكم على الأفكار والأشخاص.. لقد فرّق بين الحكم على الأفكار ومعايرتها وتقويمها، وبين الحكم على الأشخاص، وبذلك استطاع أن يتحدث عن الأفكار والعقائد والفلسفات الضالة، والمكفرة المخرجة عن الملة، وجاهد في ذلك جهاداً كبيراً، لكنه لم يقع في عملية تكفير الأشخاص، الذين تنسب إليهم تلك الأفكار والعقائد، إلا بعد التحقق والتأكد، والإصرار بعد الاستتابة والبيان، وبذلك فرّق بين الفعل والشخص، وكان هذا مسلكًا تربويًا رائعًا حقًا.. فالتنفير والتخويف والترهيب من الأفكار والمبادئ والعقائد المخرجة عن الدين أمر مطلوب، ليكون الناس على بينة، أما الحكم على الأشخاص قضائيًا، فيتطلب التأكد والتحقق والبينة.

ونستطيع أن نقول: إن ابن تيمية رحمه الله، تميّز من بين روّاد الإصلاح والتجديد، بأنه كسّر قيود التقليد الجماعي، التي عطلت وجمدت حركة الأمة الإسلامية، بمجاهداتها الفقهية والفكرية، وأوضح منهج التحول من التقليد والابتداع، إلى الاقتداء والاتباع، بكل شروطه ومستلزماته، ومقوماته، وأبعاده.

وأن فقهه انطلق من القيم الخالدة في الكتاب والسنة، ومرجعيته من خلال فهم القرون المشهود لها بالخيرية، واستوعب ما حوله من فلسفات

وافكار وأوضاع اجتماعية وأسرية واستطاعات بشرية، لا يمكن للفقيه تجاوزها اثناء محاولة تنزيل النصوص الشرعية على واقع الناس.

لذلك كان له هذا الدور المتميز بين قادة الإصلاح والتجديد، حيث شكّل إضافة نوعية على مستوى المنهج، في الفقه والفكر، مايزال عطاؤها ممتداً في الحياة الإسلامية، على الرغم من تطاول الزمن.. ولعل من أبرز خصائص منهجه، انه لم يتحرك في إطار فكر الآخرين، وإنما جاءت اجتهاداته منطلقة من قيم الكتاب والسنة وفهم خير القرون، واستيعاب وفهم ما حوله من واقع الناس.

إن منهج ابن تيمية رحمه الله، يشكل لبنة مهمة في بناء المنهجية الفكرية والفقهية واصول التربية الاجتماعية، حيث يسعى إلى تصويب معايير النظر والحكم على القضايا والأشخاص، وتاصيل المرجعية الشرعية، من خلال قيم الكتاب والسنة، وفهم القرون المشهود لها بالخيرية، والتي تكاد تصبح غائبة عن الكثير من الكتّاب والمفكرين والباحثين، على الرغم من حماسهم للإسلام وانتصارهم له.

ذلك ان من أخطر الإصابات الذاتية، التي يمكن ان تلحق بالنخبة والأمة على حد سواء: انتقال علل التدين، التي كانت سبباً في سقوط الأمم السابقة وانقراضها عندما افتقد العلم أخلاقه وأهدافه الخيرة، فتحول من معرفة بانية، إلى وسيلة باغية، واصبح سبباً في تمزيق الأمة وتفريق الدين، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ (الشورى : ١٤)، فجاء الإسلام مصححاً للمعادلة، مصوباً للمعيار، مرتكزاً في بنائه الحضاري

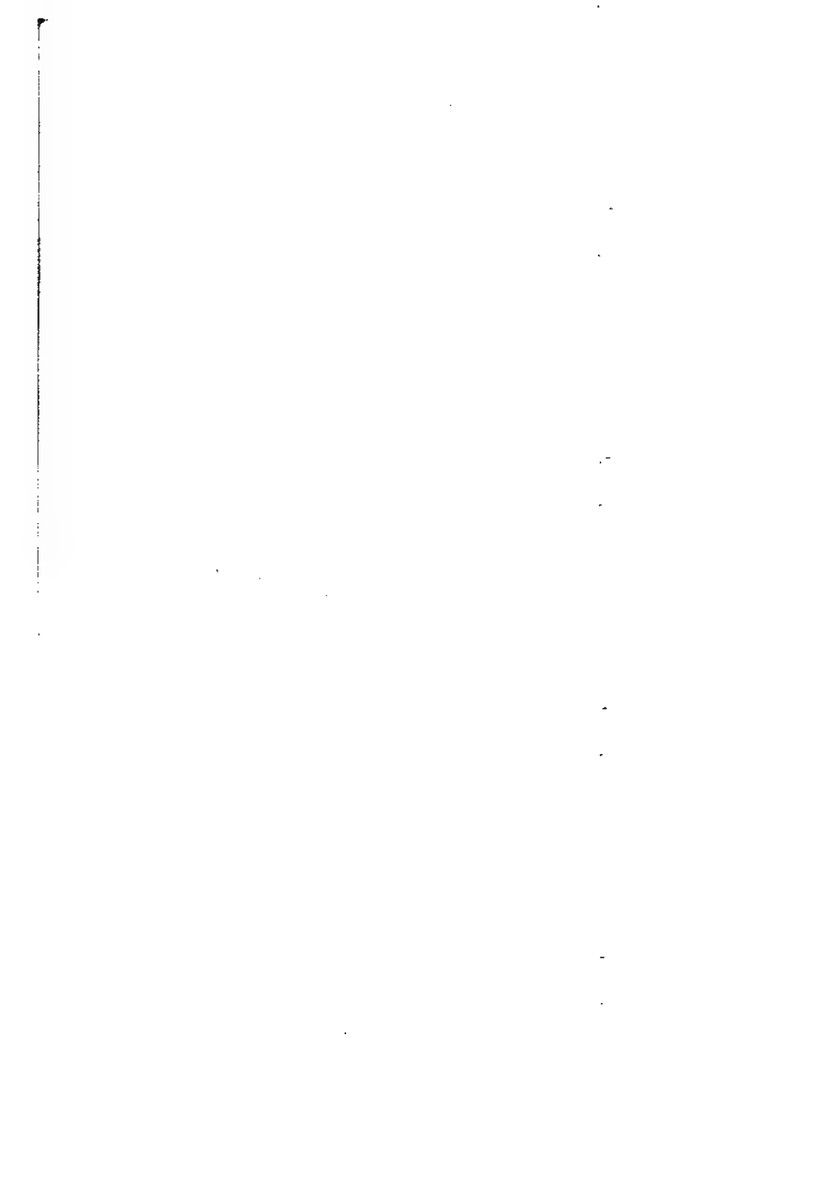
على العلم والعدل، على الكتاب والميزان: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد: ٢٥).

وتأتي أهمية إبراز جوانب من منهج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التجديد، في هذا الوقت بالذات، حيث يعيش العالم الإسلامي اليوم على المستوى الداخلي والخارجي، ظروفاً مشابهة لتلك الظروف التي عاشها ابن تيمية، من حيث الاجتياح الفكري، والاستلاب الحضاري، والانشطار الثقافي، والتحكم الدولي، بإنسانه وإمكاناته، ومحاولات تغييب ما جاء به الوحي كمصدر للمعرفة الصحيحة، إضافة إلى حالة التآكل والتمزق والتنازع، التي تفتك بنسيج الأمة الاجتماعي، وما يخلفه ذلك من الفشل والإحباط والتلاوم، والمجازفات التي توصل إلى انطلاق موجة الاتهام بالتكفير والتفسيق، والتطرف والمغالاة، وشيوع التطفيف وبخس الناس أشياءهم.

كل ذلك بسبب غياب العلم تارة، وغياب الميزان والمعيار تارة أخرى، واعتبار الأشخاص هم المعيار، وفي هذا ما فيه من الاضطراب والخلل، وخضوع للأمزجة والهوى.. فلو عرفنا الحق واعتمدناه معياراً، لعرفنا أهله: «اعرف الحق تعرف أهله»، وبذلك تتوقف المجازفات الباخسة، ويلجم الهوى والرغائب الجانحة، ويصبح الحكم على الأفعال والأفكار والنظر إليها، من خلال أصول ثابتة حددتها معرفة الوحي، ويصبح التعامل معها من خلال مقاصد الدين.

والحمد لله رب العالمين.

تأملات في الخطاب الإسلامي



الحمد لله خلق الإنسان، علّمه البيان، وشرّفه بتعليم ابيه آدم الأسماء كلها، ليكون اهلاً لحمل امانة التعليم والتبليغ، وأداء الرسالة، فجعل اشرف العمل وأحسن القول، القيام بمهمة البلاغ المبين، ودعوة الناس إلى الحق، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وممارسة العمل الصالح، والانسلاك بالقافلة المؤمنة، وصبر النفس مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣).. كما جعل افضل المكاسب واعظمها وخيرها، والفوز الحقيقي، يكمن في تحقيق الهداية للناس واستنقاذهم من الضلال وإلحاق الرحمة بهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وقال الرسول ﷺ: «لأنْ يهدي اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النَّعَم» (متفق عليه)، وفي رواية: «من الدنيا وما عليها».

بل لقد جعل الله القيام بمهمة البلاغ لرسالة النبوة وحسن أدائها، السبيل الوحيد للنجاة في الآخرة، والعصمة الحقيقية من فتنة الناس في الدنيا، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ (الجن:٢٢-٢٣).

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧).

وكانت غاية مهمة الرسول القدوة، وابعاد رسالته ﷺ، تتمحور حول

قضية البلاغ المبين، قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النور:٥٤).. فلقد أوتي جوامع الكلم، وكان في الذروة من قومه فصاحة وبلاغة وحكمة: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة:٢٦٩).

فوريث النبوة الممتد بعطائها ، لا بد له من تحقيق الوعي الحضاري، وترشيد العقل بهدايات الوحي، والاستيعاب لتعاليم النبوة، ورسالتها الإنسانية، ومهمته في إلحاق الرحمة بالعالمين، ووظيفته في الشهادة على الناس والقيادة لهم إلى الخير، واسترداد خيرية الأمة التي كادت تنحسر، لقعوده عن مهمة البلاغ، وحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تعتبر من مستلزمات الإيمان بالله، فيتحقق في الواقع إحداث التفاعل بين الإنسان والإسلام، وإخراج أمة جديدة، ويُستأنف تجديد أمر الدين وقيادة البشرية في دورة حضارية موعودة.

من وسائل تجديد أمر الدين

وتجديد أمر الدين، وإحداث التفاعل بين الإنسان والإسلام، وقيام العمران وقيادة الحضارة، لا يتحقق بالأمنيات والرغبات، وزيادة الحماس، وتعاظم التوثب الروحي، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء:١٢٣).. وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾(البقرة:٧٨)، وإنما يتحقق بحسن فقه الكتاب والسنة، والعودة بالتدين إلى التلقي عن الينابيع الأصلية، والتمييز بين قيم

الدين، ومسالك التدين، بين قول الشارح وفهمه، ونص الشارع وحكمه، بحيث يبقىٰ -باستمرار- نص الشارع هو المعيار والحَكَم على فهم الناس .. أما فهم الشارح فهو التنزيل المحكوم عليه باحتمال الخطأ والصواب، حتى لا تتحول فهوم الناس لنصوص الدين -ولو أثبتت صوابها في عصر- إلى معايير وأحكام تحل محل قيم الدين في الكتاب والسنة، ذلك أن صوابية الفهم والتنزيل على عصر، بواقعه ومشكلاته، لا تعني بالضرورة الصوابية في التنزيل والتطبيق لكل العصور.

وقد تكون المشكلة، كل المشكلة، في اعتماد فهم الشارح وادعاء العصمة له في صور التدين أو في علل التدين، التي كثيراً ما حذّر الله سبحانه وتعالى الأمة المسلمة -وريثة الكتاب والقيادة الدينية- منها، حتى لا تقع بما وقع به أصحاب الأديان السابقة، لأنها لو التزمت معايير الكتاب والسنة دائماً تبقى في مأمن من تحريف قيم ونصوص القرآن والبيان، اللذين تعهّد الله سبحانه وتعالى بحفظهما من التحريف والتبديل، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩).

لذلك لا يكفي هنا لتجديد أمر الدين، الاستباق في حفظ ما أنزل، ونقله ضمن الضوابط المنهجية والوثائقية المعتمدة للنقل الثقافي، أي لا يكفي حفظ وفقه النصوص، بل لابد أيضاً من استيعاب فقه التنزيل والتطبيق، وهذا لا يتحقق إلا في ضوء ما تمنحه السيرة النبوية الصحيحة، والخلافة الراشدة، وفهم خير القرون المشهود لها، في كيفية فهم وتنزيل الكتاب والسنة على الواقع.

إن تجديد أمر الدين يتحقق بامتلاك الفقه للنص، والقدرة على التعامل

مع قيم الكتاب والسنة، من خلال مشكلات الإنسان والمجتمع، وقضاياه، وإيجاد الحلول الشرعية، التي تتلائم مع هذا الواقع في ضوء إمكاناته واستطاعاته، وتقديم الأوعية الشرعية لحركة الحياة، وعدم الاقتصار على الإحساس بالمشكلات دون القدرة على إدراكها، وكيفية التعامل معها.

ذلك أن الاقتصار على إطلاق الشعارات، وصياغة أساليب الترغيب والترهيب، أو تغليب ثقافة الرفض والانسحاب من الواقع إلى غرف الانتظار، والسقوط في حالة التخاذل الثقافي، وفكرة الإرجاء المذهبي، لا يجدي شيئًا، كما أن الاكتفاء بالحكم على مسالك الناس وأفعالهم بالحلال والحرام، والسير وراء المجتمع دون القدرة على السير أمامه وريادته، وتقديم البرامج والنماذج من فعل الحلال والامتناع عن فعل الحرام، لقيادة الأمة وإثارة الاقتداء، هدر للطاقات في غير مواضعها.

ولعل سبيل الخروج من الحال التي صرنا إليها، يكمن في التحول من التفكير الارتجالي الآني، القائم على ردود الأفعال والقتال في غير عدو، واستنزاف الطاقة في معارك جزئية لاهية، إلى التفكير الاستراتيجي الذي يستوعب سنة المدافعة ويحسن تسخيرها، أو يدرك السنن الاجتماعية والنفسية، ويحسن التعامل معها، وهذا لا يتأتى إلا بمعرفة الواقع بدقة، والأسباب التي تقف وراءه، إضافة إلى التعرف بدقة أيضًا على الإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة، وتحديد مدى التكليف الشرعي المطلوب والممكن في كل مرحلة، في ضوء التكليف الرباني ومراتب الأحكام وواقع المكلفين، والتبصر بالعواقب والمآلات، وعدم الخضوع لعوامل الإثارة والاستفزاز.

فالرسول ﷺ يقول: «**ليس الشديدُ بالصُّرْعَة، وإنّما الشديدُ الذي**

يملكُ نفسَهُ عند الغضب» (متفق عليه)، ويقول لعائشة رضي الله عنها: «لولا حَدَاثَةُ قومِكِ بالكفــرِ، لنقضتُ البيتَ، ثم لَبَنَيْتُــه على أســاس إبراهيم عليه الســلام»» (متفق عليه).

والقرآن الكريم يؤكد على أهمية النظر في العواقب والمآلات والنتائج وتقدير حجم الخسائر، ويعتبرها من الأمور المحسومة في قضية الدعوة والتدين، وبسط قيم الدين، فيقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٤-٢٥).

وهكذا يوقف الرسول ﷺ هدم الكعبة البيت الحرام، وإعادة بنائه على أصول وقواعد سيدنا إبراهيم، بسبب حداثة عهد العرب بالإسلام، درءاً للفتن المحتملة، ويوقف الجهاد لإزاحة التحكم ببيت الله الحرام، وصد المسلمين المؤمنين من الوصول إليه، وتُكَفُّ أيدي المؤمنين بعد ما كاد النصر على الكفر أن يتحقق، خشية أن تلحق الإصابة وآثار الحرب برجال مؤمنين ونساء مؤمنات، في داخل مجتمعات الكفر لم يَتَزَيَّلوا، فتلحق المسلمين بإصابتهم معرة، فليس الجهاد إذن تدميراً أعمى وغاية بحد ذاته، بل لابد من استحضار حكمته المشروعة، وتحديد الهدف قبل تسديد الرمية.

ومن هنا ندرك كم يمكن ان يخلّف الحماس، والرايات العَمِيَّة من الغوغائية، وغياب الفقه والوعي، وغبش الرؤية، وعمىْ الألوان، الأمر الذي

يجعل من الكثير من المسلمين رصيداً جاهزاً للتضحية، تستعار دماؤهم لتصفية الخصومات والحسابات الدولية، دون أن يكون للإسلام والمسلمين نصيب من ذلك. ولسنا بحاجة إلى إيراد الأمثلة، التي تمثل في أكثر من موقع حالة ثقافية للعقل المسلم، أكثر من كونها حالة جغرافية لمنطقة معينة.

المعرفة قوة الغد

وقد لا نرى أنفسنا بحاجة إلى بيان دور الخطاب الدعوي أو الخطاب الإعلامي بشكل أعم، والتأكيد على أهميته وفاعليته وآثاره على الأصعدة المتعددة، إلى درجة يمكن أن نقول معها: إن السبق اليوم في امتلاك المعلومة وامتلاك القدرة على التحكم بها، وكيفية التعامل معها، أصبح هو القوة الحقيقية لعالم الغد، التي سوف ترتكز إليها دولة المستقبل، وتحقق لها الغلبة الحضارية والثقافية، ذلك أن امتلاك القوى المادية وأسلحة الدمار المتطورة، يمكن أن تقهر الإنسان أو أن تلغيه، أو أن تخرسه إلى حين، لكنها تبقى عاجزة عن إعادة صياغته وتشكيله والتحكم بتوجيه قابلياته، وتطوير خصائصه وصناعة اهتماماته.

لذلك نرى أن التوجه صوب تشكيل الأمة والدولة الإعلامية والمعلوماتية اليوم، بدأ يسبق تشكيل الدولة السياسية والقانونية، أو على الأقل يرافقها ويساندها، وأصبح الاهتمام يتوجه إلى إعادة بناء الأمة بكل خصائصها قبل بناء الدولة.. فالسباق الحقيقي والمعركة الحقيقية هي معركة المعلومات

والإعلام، وكان الأولى بنا نحن المسلمين أن ندرك حقًا أهمية الخطاب الإعلامي ودوره في تشكيل الأمم، وعلى الأخص أن أمتنا المسلمة تشكلت من خلال خطاب، من خلال كتاب، فكان القرآن ولا يزال، خطاب عقيدة وعلم ووعي وفكر وثقافة، لذلك جعل الجهاد به من أكبر أنواع الجهاد، والتسلح به من أمضى الأسلحة وأكثرها أثرًا، والتذكير به من أهم عوامل الإنابة والتصويب والاستقامة والحصانة الحضارية، لأنه يخاطب الإنسان بكل خصائصه وصفاته، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق:٤٥). وقال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٢).. ولذلك كانت وسيلة الكفار في المواجهة، الهرب من الخطاب القرآني الإعلامي، ومحاولة إقامة الرقابات والحواجز دون وصوله إلى أسماعهم، والشغب عليه، حيث قص علينا القرآن حالهم وما أصابهم من الارتباك، بقوله: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت:٢٦).

لقد كانت الأمم تتشكل قبل القرآن من خلال إحساسها المادي، وما يقع تحت حواسها، من ألوانها وأجناسها وأرضها ونَسَبِها، فأصبحت تتشكل بعد القرآن من خلال عقلها وفكرها، وأصبح الكسب والعطاء والتقوى معيار إنسانية الإنسان والأمة والمجتمع والدولة، فتم الفرز الحقيقي بين عالم الإنسان العاقل المكلف محل الخطاب، وعالم الحيوان وملحقاته، من الذين يبطلون عقولهم، الذين مَثَلُهم ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:١٧٢).

وقد يكون من المفيد هُنا أن نذكّر بعض الغافلين عن دور الخطاب الإعلامي وأهمية امتلاك المعلومة، وكيفية توظيفها، وحسن التعامل معها، بأن أكبر دولة متحكمة في عالم اليوم، وأملك دولة للأسلحة المتطورة، والأموال التي تحرك قوة العالم الاقتصادية أو تعطلها متى شاءت، تسعى لبناء دولة المستقبل المهيمنة، وترى ذلك من خلال امتلاكها للمعلومة، وكيفيات إعادة بناء الخطاب الإعلامي والمعلوماتي، الذي يمكنها من إلغاء الخصوصيات الثقافية، وتشكيل العالم ذي البُعد الحضاري والثقافي الواحد، بعيداً عن الجعجعة والخطاب الأجوف!

«فالمعرفة قوة، قول يصح اليوم أكثر من أي يوم مضىٰ، والبلد الذي يستطيع قيادة ثورة المعلومات على أفضل نحو، هو البلد الذي سيكون اقوى البلدان.. وفي المستقبل المنظور، هذا البلد هو الولايات المتحدة، فاميركا قوة واضحة من الناحية العسكرية، ومن ناحية الإنتاج الاقتصادي، ولكن تفوقها غير الواضح تمامًا على البلدان الأخرى يكمن في قدرتها على جمع المعلومات ومعالجتها ، والتصرف على أساس ما توفره من معرفة، ونشرها وتوزيعها... وهذا التفوق المعلوماتي، يمكن ان يساعد على ردع وهزيمة تهديدات عسكرية تقليدية، بكلفة بسيطة نسبيًا.. وفي الحقيقة، ان القرن الواحد والعشرين، لا القرن العشرين، هو الفترة التي ستكون فيها أميركا في الأوج، فالمعلومات هي حجر الزاوية الجديد في المجال الدولي.. إن القنوات الدبلوماسية والإذاعية الرسمية، التي يمكن من خلالها استخدام الموارد المعلوماتية والتفوق المعلوماتي يجب ان يحافظ عليها، فوكالة الإعلام الأميركية، وإذاعة صوت اميركا، وغيرها من الوكالات الإعلامية، تحتاج إلى

تمويل كاف» (مجلة الشؤون الخارجية بقلم جوزف ناي ووليم أونيز - نشرة الأنباء العربية الصادرة عن وكالة الإعلام الأميركية في ٤/٣/١٩٩٦م).. والمقال طويل وذو أبعاد استراتيجية معلوماتية وإعلامية متعددة، قد لا تغني المقتطفات من العودة إليه، وإدامة التأمل فيه.

فإذا كان للخطاب الدعوي أو الإعلامي بشكل عام، الذي يعني أول ما يعني الإحاطة بالفكرة والمعلومة المراد نقلها أو الإعلام بها، والأمانة والصدق في نقلها، ومن ثم امتلاك الكيفية، التي تعني بلوغ أحدث الوسائل والأساليب والأوعية الإعلامية التي تحمل المعلومة إلى الآخر، وتحاول إقناعه بها... هذه الأهمية والخطورة من حيث الآثار السلبية والإيجابية التي يمكن أن يتركها في التشكيل الثقافي للفرد والأمة على حد سواء، كان لابد أن يبقى الهاجس الدعوي أو الإعلامي حاضراً دائماً ومستمراً، وأن يبقى الملف الدعوي والإعلامي على مستوى النظرية والتطبيق كما يُقال، مفتوحاً وخاضعاً للنظر والدرس والمراجعة، والمناقشة والمشاورة والمذاكرة، والمتابعة والتقويم ودراسة الجدوى.

التمييز بين الدعوة ووسائلها

ولعل من الأوليات المطلوبة في هذا الملف أو هذا المجال، التي تستدعي المناقشة والإيضاح والحسم، هي التمييز بين المدعو له: (الرسالة الإسلامية)، الذي يمكن أن نطلق عليه اصطلاحاً مسمى: «الدعوة»، أي عطاء معرفة الوحي في الكتاب والسنة والسيرة بكل أبعادها، في مجال العقيدة والعبادة

والمعاملة والثقافة والسياسة والحضارة والعمران والأخلاق، وبين وسائل وأساليب توصيلها وإبلاغها، ذلك ان الخلط والتداخل بين الأمرين حَمَلَ وسوف يَحْمِل الكثير من المضاعفات والمعوّقات والعقبات، وقد يؤدي إلى التجمد والتيبّس والانسداد، وعدم التكيف والتلاؤم والتطور والقدرة على اكتشاف وسائل جديدة متناسبة مع العصر، بلغته وثقافته ومشكلاته، لتنزيل القيم الإسلامية على الواقع وإثارة الاقتداء بها، او بعبارة أخرى: تحقيق خلود الإسلام وبسط أحكامه على الواقع الحياتي.

ذلك ان القيم الإسلامية في الكتاب والسنة -كما هو مُسَلَّم- خالدة وثابتة ومعصومة، مجردة عن حدود الزمان والمكان، مصدرها إلهي مقدس.. أما أساليب إبلاغها وتوصيلها وتعليمها، وإعلام الناس بها، ودعوتهم إلى اعتناقها، فهي اجتهادات بشرية يجري عليها الخطأ والصواب، وقد تصاب بانطفاء الفاعلية، وشيوع الرتابة، وانعدام القدرة على التأثير ، وعلى الأخص ان وسائل الإعلام والاتصال من حولنا تتجدد يوميًا، وتقفز قفزات نوعية يصعب على الإنسان متابعتها، ولا يسعه في كثير من الأحيان إلا الاستسلام لها، إذا افتقد رؤيته وحصانته ومعياره في الحكم على الأشياء.

لذلك نقول: إن الجمود والعجز عن الإبداع في عملية البلاغ المبين، أو في أساليب ووسائل الدعوة، قد يكون مَرَدُّهُ في كثير من الأحيان التداخل والتلبس الحاصل في بعض الأذهان بين الاجتهادات البشرية، والنصوص والقيم الإسلامية، أو بين الدين وأساليب وصور التدين من بعض الوجوه، حيث يسود التوهم والوهم بان اي تغيير في أساليب البلاغ المتوارثة أو تجديدٍ فيها، أو تفكيرٍ في أوعية إعلامية متطورة، يعني انتقاض عُرىٰ الدين واهتزاز قيمه.

وقد يكون ذلك هو السبب الرئيس في أننا نرى أن الأمم تتغير من حولنا في أفكارها وأشيائها وثقافاتها وحضارتها واهتمامات إنسانها ومؤسساتها، تتغير سياسيًا وثقافيًا، وتختلف مشكلاتها وحاجاتها وواقعها التعليمي والإعلامي، ووسائلنا في الدعوة على حالها، وخطابنا هو ذاته، إلى درجة يمكن أن نقول معها: إن أساليبنا الدعوية وقوالبنا الإعلامية هي أقرب لأن تكون قبورًا لأفكارنا ومعتقداتنا وثقافتنا، ذلك أن عدم الاستجابة لخطاب الفطرة، تعني في كثير من الأحيان، حدوث العطب والعطالة في أدوات التوصيل.

ولو حاول أحدنا أن يقوم بدراسة للخطاب الإعلامي الإسلامي، أو الأوعية الإعلامية الإسلامية، المقروءة والمسموعة والمشاهدة قبل نصف قرن تقريبًا، وتيسر له الاطلاع على بعض الصحف والمجلات الإسلامية، التي صدرت من نصف قرن تقريبًا، أو الاستماع لبعض الخطب في المساجد والمواقع والمناسبات المختلفة، ومن ثم حاول الاطلاع أو السماع والمقارنة مع ما يصدر حديثًا، لرأى أننا وعلى الرغم من كل التقدم من حولنا، وبإيقاعات سريعة، ما نزال نراوح في مواقعنا ونتوهم أننا نقطع المسافات الطويلة!! ذلك أن نصف قرن من التغيير والتطور والتحول الاجتماعي والسياسي والثقافي، لم يستفزنا ولم يغير من حالنا ووسائلنا، حتى ليكاد الإنسان يشك اليوم أن لكثير من أشكال الخطاب الإسلامي هدفًا ومنهجًا واستراتيجية واضحة، وإنما هو في كثير من الأحيان أداء لواجب، وخروج من عهدة التكليف، ولذلك تُرانا بدل أن نفكّر بوسائل النهوض والارتقاء، نذهب إلى دراسة ما يجب أن يكون، تاركين البحث في كيفية الوصول إلى هذا الذي يجب!! مرددين كلمة:

يجب أن يكون كذا وكذا، دون أن نُكلف أنفسنا النظر في كيف يكون هـذا أو ذاك.. إننا لا نُجَدِّد ولا نتجدد! ومع ذلك ننعىٰ حظنا العاثر.

بل لعلنا نقول: إن محاولتنا تسويغ هذا الركود والتخلف والتخاذل، تبرئة لأنفسنا، جعلنا ننقل القدسية والعصمة من القيم الإسلامية في الكتاب والسنة إلى اجتهادات البشر، التي أصبحت قوالب نحتمي بها، ونتعبد بها، ونستميت في الدفاع عنها.. ولعلي أعزو ذلك إلى حالةٍ من العقم الثقافي التي ينتكس فيها الإنسان، ليصبح الافتخار بماضيه والتغني به وبإنجازاته بديلاً عن استيعاب الحاضر، واستشراف المستقبل.. لقد نقل المستقبل إلى الماضي، وأصبحت بعض مجتمعاتنا واهتماماتنا ورُؤَانا، أشبه بأندية المتقاعدين أو المحالين على المعاش.. ومع شديد الأسف يمكننا أن نقول: بأن هذه الحالة تفقدنا الأهلية المطلوبة لنكون بسوية إسلامنا وعصرنا! إسلامنا: رسالة وعقيدة، وعصرنا: وسيلة وبلاغًا مبينًا.

ولعل من آثار هذا العقم الثقافي، الذي قد يكون من أخطر الإصابات الإعلامية، أو إصابات وسائل الدعوة وعملية البلاغ المبين، تكمن في التوهم بأن عالمية الإسلام وخلوده وصلاحيته لكل زمان ومكان تنعكس على وسائل البلاغ، بحيث يصبح الخطاب واحداً لكل مجتمع، وليس فقط لكل عصر مهما كان واقعه وثقافته ورواسبه الدينية، وظروفه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والمذهبية.

من مواصفات الخطاب

إن الخطاب الذي يصلح لمجتمع متخلف مستعمر أمي جاهل مبعثر ملحد، لا يصلح بالتأكيد لمجتمع متعلم متحرر مستقل مبدع متدين جاد متطور.. من هنا نقول: إن الخطاب الدعوي المطلوب للنهوض بالعالم الإسلامي بحاله التي هو عليها اليوم، ومشكلاته التي يعاني منها على مختلف الأصعدة، والعودة به إلى الإسلام وإقناعه بأن تخلفه لم يكن بسبب استمساكه بالإسلام، وإنما بسبب انسلاخه عنه، وارتهانه الثقافي والحضاري، لا يصلح للمجتمع الأوروبي والأميركي بمواصفاته وظروفه وإنسانه.

لذلك نعتقد أن حمل الخطاب الدعوي والسياسي والثقافي والتربوي والإصلاحي، القائم في العالم الإسلامي بمواصفاته الكاملة، إلى العالم الأوروبي والأميركي أو الأفريقي، سوف يفقده قيمته وفاعليته، بل قد يحمل صوراً سلبية عن الإسلام ومنظومته الفكرية وحضارته الإنسانية، فيتحول إلى وسيلة للتنفير، وإقامة الحواجز النفسية.. فترجمة الكتب التي أُلفت في العالم الإسلامي، للغات الشعوب الأخرى، بدون دراية ودراسة لواقعها وحاجاتها ودون معيار دقيق في الاختيار، وخاصة بعض الكتب الخلافية، سوف يؤدي إلى إسقاط تلك الشعوب في مستنقعات الخلاف، وإعطائها صورة مشوهة عن الإسلام، يحمل من التنفير والكراهية ما لا يمكن عمله من قِبَل أعداء الإسلام.

كذلك حال الذين يحملون أحكام الإسلام، ويريدون تطبيقها جملة

واحدة على مجتمعات لا علاقة لها سابقة بالإسلام، ولا معرفة لها به، ولـمّا تُؤْمِن بعد، غافلين عن البُعد التربوي في الخطاب الدعوي، وحاجة المجتمعات إلى التدرج، وتثبيت الفؤاد، واطمئنان القلب، والثبات على الحق.. إنهم يقعون بغير إدراك وقصد في لجاج المنكرين للرسالة، الذين حكى الله قصتهم، بقـوله تعالـى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان:٣٢).

والقرآن الكريم مصدر الخطاب الإسلامي الإعلامي والدعوي والثقافي والعقيدي والسياسي والفكري، والذي تشكلت من خلاله خير أمة أخرجت للناس، كما أسلفنا، أخذ بالاعتبار المخاطبين ومستوياتهم، وخلفياتهم الدينية والثقافية، ودرجات إيمانهم، وفروقهم الفردية، فراعىٰ التنوع في الخطاب، والتدرج في أخذ الناس بأحكام الدين شيئًا فشيئًا، فكان خطابه في مكة المكرمة غير خطابه في المدينة المنورة، من حيث النداء والمضمون، والفاصلة القرآنية، والإيقاع والمثل والشاهد والنموذج، وبيان أصل النشأة والحديث عن المصير...إلخ.

فالقضايا التي تمحور حولها الخطاب المكي، والأساليب التي استعملها، والتحدي الذي مارسه، والأهداف التي قصد إليها، غير القضايا والأساليب والأهداف التي اتجه إليها خطاب القرآن المدني.. والترتيب للسور والآيات، الخالد، الذي جاء لبناء الرؤية القرآنية المستمرة، جاء توقيفيًا على غير أزمنة النزول، ليتعامل أهل كل زمان مع القرآن من خلال الحال التي هم عليها.

وكان الخطاب للمؤمنين، غير الخطاب للكافرين.. وكان الخطاب لأهل الكتاب ومحاججتهم، وتحذيرهم من كتمان الحق، غير الخطاب للكفار..

والخطاب للمنافقين، غير الخطاب للكافرين.

وكان خطاب الجهاد والمعركة والتحريض على القتال، وطلب الشدة والغلظة على الكفار، والتحذير من التولي عن الزحف، غير خطاب السِّلْم والتعاهد والتصالح، والتعامل مع الأسرى ومخاطبتهم.

وكانت مواصفات الخطاب في مرحلة الدعوة، وحالة الدعوة، غير مواصفات الخطاب في مرحلة الدولة، وبيان أعباء الاستخلاف والعمران، ومسؤولية النكول عن أداء الأمانة.

وكانت مواصفات الخطاب التربوي، غير مواصفات الخطاب التشريعي وتقرير الأحكام.. ومواصفات الخطاب في مجال العقيدة، وتحرير وحسم مفاهيم الولاء والبراء، غير مواصفات الخطاب في مجال البناء الاجتماعي، أو إقامة وبناء العلاقات الاجتماعية على البِر والقِسط.. وكانت مواصفات وأهداف الخطاب في حالة الاستضعاف، غير مواصفات الخطاب في حالات التمكين.. وكان القرآن في ذلك كله معلِّمًا، ومنارة اتباع واقتداء، لأنها حالات متعددة ومتنوعة، وقد تكون متجاورة، تتعرض لها الحياة البشرية، ويتعرض لمعالجتها الدعاة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

من أساليب القرآن والسنة في البلاغ

وكان من أساليب القرآن المعلم في البلاغ المبين: الحوار، والمناقشة، والمناظرة وطلب البرهان والدليل، والدعوة إلى كلمة سواء، والمباهلة، وضرب الأمثال، والتعبير المباشر، والترغيب والترهيب، والتبصير بالعواقب والمآلات،

وتقديم نماذج من نتائج المناظرة وطي مقدماتها، ودحض حجة الكافرين، وتوظيف الحدث التاريخي، ولفت النظر إلى السنن الاجتماعية الحاكمة في الحياة، من خلال القصص والمآلات التي انتهت إليها الأمم السابقة وعواقب أعمالها، بحيث غطى خطاب القرآن الكريم جميع الجوانب الإنسانية.. خاطب العقل، والوجدان، والضمير، والعاطفة، وحرّك الدوافع الفطرية الخيّرة، وحذّر من النوازع الشريرة، وقدّم نماذج ونتائج للنزوع إلى الشر، وأجاب عن الأسئلة الكبرى المتعلقة بأصل النشأة، وطبيعة المصير، ورسم لوحات ومشاهد للحالات البشرية جميعها، من العبودية والخوف الخوف والرجاء والندم، والتأله والاستكبار، والإحباط والسقوط والنهوض، مستعيناً بأحوال الأمم السابقة، وببعض النماذج المشهورة، كما قدّم مشاهد على المصير ونتائج المسالك والأعمال في الدنيا.

ولم تَتَعَدَّ مهمة الرسول ﷺ في توصيل الرسالة وأداء وظيفة البلاغ -في المراحل الأولىٰ- قراءة القرآن، أو إن صح التعبير: اعتماد الخطاب الإعلامي القرآني، الذي بين وعلّم وبَرْهَن وتحدى وأعجز، حتى خضعت له الرقاب، وهرب من سماعه الكفار، وكانوا في هيامهم على وجوههم ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر: ٥٠-٥١).

ولم يقتصر القرآن الكريم على الارتكاز إلى الوعي التاريخي، وإنما تحدى، فأخبر عن الغيب غير المعلوم، سواء كان ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً، كما لم يتجمد على حالة واحدة، ويعتبرها نهاية الكلام وفصل المقال.

لقد تنوعت الأساليب وتعددت مواصفات الخطاب، لتسع جميع الحياة ومستويات المخاطَبين، إلى درجة يمكن أن يتوهم معها بعض الجهلة وجود

تناقض بين أنماط الخطاب القرآني، الأمر الذي دفع بعضهم الآخر إلى إعمال النسخ لكل أساليب الدعوة، لانتهاء مرحلتها في المجتمع الأنموذج، دون التنبه إلى أن البشرية سوف تمر بالكثير من المنعطفات والمتعرجات. والسقوط والنهوض بأقدار التدين، التي تستدعي النماذج الملائمة لحالها من الخطاب القرآني المتنوع.. وهذا لا يعني التقطيع والانتقاء، بمقدار ما يعني استصحاب الرؤية الشاملة، وتحديد موطن الاتباع.

وقد تكون المشكلة في عدم استيعاب مواصفات الخطاب لكل مرحلة وحالة، فيقع اللبس والتداخل، والقول بالنسخ لموضوع خطابٍ بموضوع خطابٍ آخر.

والسنة كمبينة للقرآن وشارحة له، والسيرة كتطبيق عملي، جاءت مُنْزِلة لهذا الخطاب على حياة البشر المتنوعة، بأوعية متعددة.

وكانت تراعي حال المخاطبين وحاجاتهم ومشكلاتهم واستطاعتهم وأقدار عقولهم، قال رسول الله ﷺ لمعاذ: **«ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار»**، قال: يا رسولَ الله! أفلا أخبر به الناس، فيستبشروا، قال: **«لا، إذن: يتّكلوا»**، وأخبر بها معاذ عند موته تأثُّمًا -أي تجنُّبًا للإثم- (رواه البخاري في كتاب العلم).

وقال لمن جاءه يستأذنه في الجهاد: **«أحَيٌّ والداك؟»**، قال: نعم. قال: **«ففيهما فجاهد»** (رواه البخاري ومسلم).

وأقبل رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي

الأجر من الله، فقال: «**فهل من والديك أحدٌ حيٌّ؟**»، قال: نعم، بل كلاهما. قال: «**فتبتغي الأجر من الله؟**»، قال: نعم. قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صُحبتهما**» (رواه مسلم).

وقد أوصى النبي ﷺ كل واحد بغير ما أوصى به الآخر، لاختلاف أحوال وحاجات من سالوه الوصية.

روى الإمام احمد واللفظ له، والترمذي، عن أبي ذر رضي الله عنه، قال قلت: يا رسول الله! أوصني. قال: «**اتَّقِ اللهَ حيثما كُنتَ وأتْبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ**».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني بشيءٍ ولا تُكثِرْ عليَّ لعلي اعيه. قال: «**لا تغضب**» (رواه البخاري).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن اعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله! دُلَّني على عَمَلٍ إذا عَمِلتُه دخلتُ الجنة. قال: «**تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**» قال: والذي نفسي بيده لا ازيد على هذا شيئًا ولا انقص منه. (البخاري ومسلم).

وروى الترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن بُسر: أن رجلاً قال: يا رسولَ الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «**لا يزالُ لسانُك رَطْبًا من ذِكْرِ الله**».

وروى الترمذي عن عُقبة بن عامر، قال قلت: يا رسولَ الله! ما النجاة؟ قال: «**أملكْ عليك لسانَك، وليسعك بيتُك، وابكِ على خطيئتك**».

وقد أجاب الرسول ﷺ أجوبة مختلفة حول أفضل الأعمال، بحسب أحوال الناس، فقد أجاب كل سائل بما رآه في حقه أو في حين سؤاله أفضل، بحسب حاجته وظروفه، فقال لإنسان عندما ساله: أي الإسلام خير؟ قال: **«تُطعمُ الطعام، وتقرأُ السلامَ علىٰ مَن عرَفْتَ ومَن لم تَعْرِف»**.

وأجاب سائلاً آخر عندما ساله: أي المسلمين خير؟ فقال: **«مَن سَلِمَ المسلمونَ من لسانه ويده»**.. ومَن ساله: أيُّ العمل أفضل؟ قال: **«جهاد في سبيل الله»**، قيل: ثم ماذا: قال: **«حجٌّ مبرور»**.. ولمن ساله عن أحبِّ الأعمال إلى الله، بقوله: **«الصلاة على وقتها»**.. وقال لسائل آخر عن نفس السؤال: **«الإيمانُ بالله، ثم صِلَة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»**.

وهذا غَيْضٌ من فَيْض من الخطاب النبوي في الدعوة والبلاغ المبين، وهكذا فلكل مقام مقال، ولكل حالة علاج، ولكل داء دواء، ناهيك عن تنوع أساليب الخطاب بحيث يوافق الكلام لمقتضى الحال.. وعلى الرغم من عالمية الخطاب الإسلامي وتجرده عن قيود الزمان والمكان، بخلوده وخاتميته، بكل ما يقتضيه ذلك من منطلقات وأهداف ومواصفات، فإن الخطاب القرآني وبيانه في السُّنَّة استطاع أن يحل المعادلة الصعبة بين الماضي والحاضر والمستقبل، والإقليمي والعالمي، والفرد والمجتمع، والدولة والدعوة، والحكومة والأمة، ويحقق النظرة المنسجمة للكون والإنسان والحياة، بحيث تمضي الحياة وفقًا لسنن ونواميس متوازية ومنسجمة ومنضبطة النِّسَب، لا تتعارض ولا تتناقض ولا تتصادم، لأن مصدرها واحد.. فعقيدة التوحيد، المرتكز الأساس للخطاب الإسلامي، ولبناء المسلم، انعكست بالتوحد وتحقيق الانسجام والتوافق بين جميع عناصر الكون والحياة.

لقد بلغ الخطاب القرآني وبيانه في السنة، من استيعاب الواقع والإحاطة به، والتوفر على معالجة قضاياه ومشكلاته، وكيفية التعامل مع الحالة التي هو عليها، والبدء مع الإنسان من النقطة أو الحالة التي هو فيها، آفاقًا وأبعاداً، معلِّمة ومثيرة للاقتداء والاتباع والاغتراف الثقافي والإعلامي.

دور الواقع من عطاء النص

وحسبنا أن نقول: إن أسباب النزول للآيات وأسباب الورود للأحاديث، تعني فيما تعني استيعاب الواقع بكل أبعاده ومشكلاته، ومقتضياته، ولا نريد أن نجازف فنقول: يكاد يكون الواقع لشدة حضوره هو الذي يستدعي النص ويتسبب في نزوله، ويحدد زمانه وطبيعة معالجته.. ذلك أننا عندما نقول: سبب النزول، بالمعيار البشري، أو بالفهم البشري البعيد أو الغافل عن الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فإن ذلك يعني أن الواقع هو السبب وهو الحاكم والمتحكم بالنص. ولعل تسميتها «بمناسبات النزول»، دفعًا لمثل هذا التوهم، أولى من تسميتها «بأسباب النزول».. فأية واقعية للخطاب القرآني وبيانه أبعد من هذه الواقعية؟!

ولا يخفى أن هذه الأسباب للنزول والورود، ما هي في الحقيقة إلا نماذج ووسائل معينة على الفهم، ومساعدة على حسن تنزيل النص على الحياة، وليست قيوداً زمانية أو مكانية، تحد من مد الرؤية، واستيعاب الزمان والمكان في ضوء هدايات الوحي.

ولذلك يمكن القول: إن النص الصحيح المنزل، بحسب سبب نزوله ووروده في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، أشبه بالتجربة المعملية أو المخبرية في العلوم التطبيقية التي تجري في زمان ومكان محدودين، لتنقل فيما بعد للإفادة من كشفها وتصميمها في مواقع الحياة المختلفة في الأزمنة المتعاقبة.

وقد تكون مباحث دلالات الألفاظ، ودراسة طبيعة النص وخصائصه ما بين خاص وعام، ومطلق ومقيد، ومجمل ومفصل، وقطعي الدلالة وظني الدلالة، ومحكم ومتشابه، ودلالته من حيث إشارة النص وعبارة النص... إلخ، خصائص الخطاب القرآني، مجالاً غنيًا للرؤية، يمنحنا الكثير من الدقة والمرونة في الوقت نفسه في إعادة صياغة الخطاب الإسلامي المعاصر.

وقضية أخرى قد يكون من المفيد التوقف عندها بما يتسع له المجال، وهي أن دراسة الواقع وحال المخاطَبين ومستوياتهم وفوارقهم الفردية، والشرائح الاجتماعية المتعددة في التخصصات والمواقع المختلفة، والسوية الثقافية للفرد والمجتمع، والعمر الحضاري، والخلفيات التاريخية، كل ذلك بحاجة إلى إحاطة واستيعاب، بحاجة إلى مواصفات خاصة، وإلى أنماط من الخطاب، وأنماط من الدعاة أو المخاطبين، بحيث ينطلق الجميع من مرجعية شرعية واضحة، ويبصرون أهدافًا واضحة، سواء في التدرج المرحلي، أو البناء القاعدي، هذا إضافة إلى الخطاب العام، الذي يتوجه إلى الجميع بسوياتهم المتعددة، والذي من أولى مهامه بناء النسيج الثقافي المطلوب، وتحقيق المناعة الحضارية، لكل الشرائح والمستويات.. ولعل تنوع مستويات الدعاة، وتعدد مؤهلاتهم، يجعل بين الحاجات المتفاوتة والمتنوعة للمخاطَبين والاستجابة، تواعد والتقاء،

لكن تبقى المشكلة أو الإصابة -إن صح التعبير- التوهم بأن كل إنسان قادر على كل أنواع وأنماط الخطاب، بمختلف مستوياته وأوعيته.

ولعلنا نلمح أهمية هذه الواقعية والاستيعاب للواقع، وضرورة ربط الخطاب بقضاياه، والانطلاق في البناء الحضاري منه، في قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم : ٤). وقوله تعالى: ﴿ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

صحيح أن أول ما يتبادر للذهن في قوله تعالى: ﴿ **بلسان قومه** ﴾، هو البعد اللغوي كوسيلة للخطاب والفهم والتفاهم، لكنني أرى أن للآية أبعاداً أخرى، تتمحور حول وسيلة فهم الواقع، واستيعاب وامتلاك الخطاب المناسب لأهله، حتى يمكن تحقيق الارتقاء والنقلة الحضارية، إضافة إلى أن خروج الرسول جاء من خلال هذا الواقع، بقضاياه ومشكلاته ومعادلاته الاجتماعية والثقافية، وهي صفات لابد منها لقيادته وتحديد طبيعة ومواصفات خطابه.

وقد لا نكون بحاجة إلى التذكير، ونحن بسبيل الدعوة إلى إعادة البناء على الأسس الإسلامية، بأن فهم المجتمع واستيعابه وإدارك العناصر المكوّنة له، تقتضي معرفة السنن الاجتماعية التي جعلها الله أقداراً لا تتخلف ولا تتبدل ولا تتحول إلا بمدافعتها ومغالبتها بعد إدراكها بأقدار أحب إلى الله منها، وهذا يتطلب الوعي التاريخي، لأن هذه السنن اختُبرت تاريخياً، بما يمكن أن يقضي على الكثير من الأوهام في عدم فاعليتها واطرادها، فهي مؤكدة بالتاريخ، ولقد تحدّى القرآن بعواقب الغفلة عنها، إلى درجة يمكن أن نقول معها: إن القرآن يرشدنا إلى أن التاريخ مصدر لهذا الفقه الحضاري والاجتماعي الذي لابد منه، لاستيعاب الحاضر وإبصار المستقبل معًا.. لذلك

جاء معظم الخطاب القرآني مرتكزاً على قصص الأنبياء، حتى يتحقق الوعي من خلال الحدث التاريخي، ويأخذ بُعده الصحيح في تشكيل خطاب الدعوة، والتشكيل الثقافي بوجه عام.

ولعل القراءة الدقيقة التي قدمها الخطاب القرآني للتاريخ، ولفت النظر إلى عواقب الغفلة عنها وإهمالها، ما يحقق البيان والمعرفة، ويحقق الاهتداء إلى سبل النهوض والسقوط، ويحقق الاعتبار والاتعاظ، ويمكّن من الوقاية الحضارية.. وبهذا نقول: إن استيعاب التاريخ، والتبصر بالعواقب، هو في الحقيقة رؤية مستقبلية دقيقة ممنوحة من معرفة الوحي المعصومة، وتصديق الواقع الملموس.. فإلى أي مدى يمكن الإفادة من هذه الرؤية وتوظيفها في الخطاب الإسلامي المعاصر، قال تعالى: ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٨).

وقد لا نستغرب بعد ذلك عندما نسمع أن الخطاب الإعلامي المعاصر هو في الحقيقة ثمرة لمجموعة علوم إنسانية واجتماعية، ورؤى تاريخية، وبحوث وتجارب ميدانية، واستطلاعات واستبيانات علمية، وبعد ذلك كله دراسات تقويمية لصحة المسار. هذه المعارف كلها، تساهم في بناء الخطاب الإعلامي أو الدعوي، وليست عملية الدعوة عملية ساذجة وبسيطة وعفوية وارتجالية.. تتم بمجرد الحماس بعيداً عن إدراك جميع أبعاد خطاب الوحي والتأسي به، ذلك أن الإعلام الذي يمثل خلاصة لمجموعة علوم إنسانية واجتماعية، كما أسلفنا، هو الأكثر تأثيراً، لأنه تعليم مستمر، وتربية توظف جميع الاختصاصات وتوجهها صوب ما تريد.

وبعد ذلك ليس غريبًا أن نقول: إن الناس على دين إعلامهم.. إنه فن وعلم، وموهبة واكتساب، وليس ادعاءً وتطاولاً وغثاءً طافيًا، إنه يتشكل من خلال المجتمع وثقافته، ومن ثم هو الذي يعيد تشكيل المجتمع ويقيم بناءه.

نعود إلى القول: إنه من الخطورة بمكان الخلط بين موضوع الدعوة ووسائلها، بين التنزيل الإلهي المعصوم المقدس الخالد، وبين الاجتهاد البشري أو الفهم البشري الظرفي القابل للخطأ والصواب، والمراجعة والنقد، والنقض والإلغاء، أي للتقويم بشكل أعم.. كما أن المشكلة قد تكون في الخلط بين فلسفة ومنطلقات الرسالة الإسلامية، موضوع الدعوة وبين وسائلها وأوعيتها وتقنياتها، إن صح التعبير.

وعلى الرغم من بعض التداخل والتلازم والتجاور أحيانًا، فالفلسفة والمرتكزات والأهداف والمنطلقات شيء، والخطط والبرامج والممارسات شيء آخر، حيث لابد أن يسبق العلم (الفلسفة والنظر) العمل (التطبيق والبرامج والممارسة)، ذلك ان الإصابة في العلم سوف تورث الإصابة والخلل في العمل والممارسة.

خلل في منهج الرؤية

وتبقى قضية على غاية من الأهمية في الحقيقة، وهي أن عدم استيعاب الصورة الكلية، أو التحقق بالرؤية الشاملة للخطاب الإسلامي في الكتاب والسنة، والقدرة على إدراك طبيعة هذا الخطاب وتنوعه ومواصفاته لكل حالة يتعامل معها أو يعالجها، ويكون عليها المخاطَبون، أدى إلى نوع من التفكيك

والتجزيء والانتقاء والنظرة الذرية الجزئية، ومن ثم أوصل الكثير إلى غيبة التوازن وغياب ضبط النِّسَب، وإدراك الحالات ومتطلباتها.. وكان من نتيجة ذلك، الارتكاز إلى بعض الجوانب أو الجزئيات أو الحالات الخاصة التي استدعت الخطاب المناسب لها، وتعميمها على الخطاب كله، وعلى جميع الحالات التي يكون عليها المخاطَبون بحيث لا يُرىٰ من الخطاب الإسلامي إلا لونًا واحدًا. ولا يخلو هذا التعميم، الذي هو أقرب إلى العامية أو عمى الألوان، من الكثير من التعسف والتكلف.

لذلك قد تغيب فكرة التدرج في الخطاب، أو قد يغيب تنوع الخطاب بين الدعوي والعقيدي والجهادي، فيُعمل النسخ الذي يلغي أنماطًا في الخطاب لا يمكن أن يقوم الإسلام ويبلغ بدونها.

وقد يحصل هذا الخلل في منهج الرؤية والتعامل مع الخطاب الإسلامي في الكتاب والسنة، الذي هو مصدر الاقتداء والاقتباس، نتيجة لممارسة ومحاولة المقاربة مع بعض الطروحات الوافدة الغالبة، ذات الأصول الفلسفية والدينية المختلفة، أو نتيجة رد فعل على رؤى جزئية حسيرة أخرى، تحاول أن تبرز وتغلِّب جانبًا تربويًا أو دعويًا على آخر، فيُفْتَقَد التوازن، كأن يبرز ويغلِّب جانب الترهيب والتخويف والإنذار، بعيداً عن فهم حال المخاطَبين، فنخاطب المسلمين على ما يمكن أن يكون فيهم من النقص بصفات الكافرين والمنافقين، ونصب على رؤوسهم من التخويف ما يقضي على كل أمل في النجاة والتوبة والأوبة.. وقد يُكرس هذا اللونُ من الخطابِ الانحرافَ، حيث لا يبقىٰ أمل في النجاة.. ويشتد الأمر خطورة عندما يكون الخطاب التربوي الإسلامي الترهيبي في سني الدراسة الأولىٰ، غير متوافق مثلاً مع عُمر الطلبة

العقلي، فيحدث لهم كوابيس وقلقًا نفسيًا واضطرابًا سلوكيًا، يقضي على اطمئنانهم، بدل أن يهب لهم سكينة النفس، وبشارة التفاؤل، وابتسامة الحياة.

أو كان تُغَلَّب حال الترغيب على الخطاب في بعض المواقع، التي لا ينفع معها إلا الترهيب والتخويف من النتائج والعواقب، نتيجة التفريط والفسوق واستنفاد وسائل الترغيب.. وأعتقد أن الاتجاه إلى العدول عن الترهيب بإطلاق، لا يصلح وسيلة تربوية، لكل الحالات، إضافة إلى أن غياب الترهيب والشدة عن مواطنها المطلوبة، وبأقدارها المحسوبة، يوصل إلى نوع من الرخاوة والاستهتار.

والمعروف حضاريًا أن الذين يُحْرمون من نماذج التحدي والاستفزاز والظروف الشديدة والبأس والرهبة، ويعيشون حياة الدَّعَة، ويُنَشَّأُون في الحِلْيَة، هم في نهاية الأمر شخصيات هشة رخوة هلامية غثائية لا تثبت، سريعة العطب والانكسار، وعدم الاستقرار، والعجز عن التعامل مع الظروف.. لذلك تمثل حالهم مرحلة ما قبل السقوط الحضاري، أو نهاية الدورة الحضارية (مرحلة اللذة).. والناظر في تاريخ النبوة وقيام الحضارات الإنسانية، يرى أن ظروف النشأة وإقامة البناء، مرت بظروف صعبة من الصبر والتحمل والتضحية والخوف أهلت لبناء الحضارة، حتى لقد اعتبر بعض علماء الحضارة أن التحدي والخوف والاستفزاز هو المهماز والمحرض الحضاري، وأن السقوط الحضاري جاء نتيجة للرخاوة والترف والاطمئنان الكاذب، وعدم أخذ الحذر.. لكن تبقى المشكلة، ليست في خطاب الترغيب والترهيب، وإنما بكيفية التعامل مع كل حالة، وما يناسبها، بعيداً عن التعميم أو عن العامية في التعامل.

ولو قمنا بشيء من الاستقراء والمقارنة لبعض الحالات، من اتساع مظاهر السفه والفجور التي نشهدها، أدركنا النذر الخطيرة لغياب تربية الترهيب، حيث يجوب العالم وبعض المجتمعات الإسلامية ولو بشكل بسيط، طوابير من المستهترين بقيم المجتمع من البوهيميين والجانحين، الذين يكسرون الموازين، وينغصون على الناس حياتهم:

«ومن أمن العقوبة أساء الأدب».

وتبقى القضية كالدواء تمامًا، الذي يتطلب تحديد المرض بدقة، ومن ثم اختيار الدواء المناسب لهذا المرض، وقد يكون مرًا:

«ومن السموم الناقعات دواء».

ويبقى المطلوب توخي الحكمة وحسن التقدير لموافقة الخطاب لمقتضى الحال، وهذا تعريف البلاغة كما حدده العلماء، أو كما قال الشاعر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

ولعل من بشائر الخير وبصائر الحق للمستقبل، أن يبدأ التفكير في إخضاع الخطاب الإسلامي المعاصر للدرس والفحص والاختبار والتقويم والمراجعة والنقد، وبدء مرحلة التفكير الاستراتيجي -إن صح التعبير- الذي يدرس الإمكانات المتاحة والظروف والحالات المحيطة، أو الحالات والمشكلات المطروحة، والعواقب والتداعيات المترتبة، والأبعاد القريبة والنتائج البعيدة، والاحتمالات المتوقعة، والتجارب المماثلة، ويستشرف التاريخ،

مصدر الفقه الحضاري الحقيقي، أو المصدر التطبيقي لفقه السنن الفاعلة في الأنفس والآفاق.

وملف الخطاب الإسلامي المعاصر، ملف كبير مفتوح، كما هو معروف، يستدعي باستمرار المراجعة والنظر والتأمل والتقويم، في الوقت الذي ذهب كثير من المسلمين، نتيجة لظروف موقوتة وأزمات معينة ومقاربات مقصودة، إلى قراءة النصوص الإسلامية في الكتاب والسنة بأبجديات خاطئة، والانتقاء منها من خلال مقارباتهم مع الفكر الآخر أو من خلال أزماتهم.

ونخشى أن نقول: إن فكر الأزمات، والحالات الخاصة التي يعانون منها، إذا تجاوز مربعه وظروفه وزمانه، قد يؤدي إلى اختلال النِّسَب، وشيوع أزمة الفكر، وما ينتج عنه من خطاب دعوي وتربوي وعقيدي وفكري وسياسي وثقافي، أو بعبارة مختصرة: يترك بصماته ومنعكساته على الخطاب الدعوي بشكل عام، الأمر الذي يتطلب باستمرار التأمل والنظر والضبط المرجعي الشرعي، واستقراء الحالات المماثلة في الخطاب الإسلامي في الكتاب والسنة، وكيفيات التصويب والعلاج، لإعادة حالة التوازن الغائبة إلى الخطاب الإسلامي المعاصر، بحيث يبقى المعيار لكل إنتاج فكري أو ثقافي هو الكتاب والسنة والسيرة النبوية، وليست اجتهادات البشر كائنة ما كانت.

والله من وراء القصد.

أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا !

٣١٨٩/١٥



نزّلَ اللهُ القرآنَ تبيانًا لكل شيء، هدىً ورحمةً وبُشرىٰ للمسلمين، وجعل الإيمان والعمل والتقوى سبيل التنمية، ومناط الكفاية، وأساس الصلاح والإصلاح الاجتماعي والسياسي، كما شرعه الإسلام، فحقق بذلك التلازم، وأعاد التوازن المفقود، بين القيم الروحية الإيمانية، وبين القيم الاجتماعية والاقتصادية، الاستهلاكية منها والإنتاجية، وحل المعادلة الصعبة، وخلّص الإنسان من التبعثر والانشطار الثقافي، وعالج مشكلة القلق على الرزق، والخوف من المصير، وبذلك وفّر جهد الإنسان، وحمىٰ طاقاته من الهدر والتبديد والضياع، وصرفها ووجهها إلى الموقع المجدي المنتج، ضمن مقدور الإنسان واستطاعاته، حتى لا يدع ما يملكه من الإرادة والحرية والفاعلية والقدرة، إلى ما لا يملكه ويستطيعه، فيعيش حياة الضنك والقلق والبؤس والإحباط واليأس والضياع.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وقال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (نوح: ١٠-١٢).

وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ (الذاريات: ٢٢-٢٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ (آل عمران: ١٤٥).

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد: ٣٨).

فجعل قضية الرزق والأجل، اللذين هما مصدر الخوف والقلق، أمراً محققاً، وواقعاً مقدوراً، ودلل على ذلك بشواهد مادية وواقعية في ذات الإنسان، لعل من أبرزها قضية النطق واللغة، التي تلازم حياة الإنسان، وكيف أنها تتحصل بتحريك اللسان والشفتين، وهواء الزفير والشهيق، كما أن الرزق المقسوم حقيقة كالنطق، لكنه لا يتحصل إلا بتعاطي الأسباب، للوصول إليه وتحققه.. أمّا بسطه وقَدره فليس بإرادة الإنسان، لذلك جاءت التعاليم والضوابط الشرعية في معظمها منصبة على تحرير وسائل الكسب المشروع وغير المشروع، ووسائل الإنفاق المشروع وغير المشروع أيضاً، واعتبر الانضباط بالضوابط الشرعية سبيلاً مأموناً للرزق.

ولقد بصّر المنقذ من الضلال، المبعوث رحمة للعالمين، عليه الصلاة والسلام، الأمة بما كان من أحوال الأمم السابقة، لتأخذ العبرة، وتحقق الوقاية، وبما يمكن أن يلحقها من إصابات إن هي غفلت عن مقتضيات إيمانها وعقيدتها، لتأخذ حذرها، وتبصر مستقبلها، وتفر إلى الله، فتنفر للجهاد.

فقال ﷺ: «يا معشر المهاجرين: خصال خمس، إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن:

- لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا،

- ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أُخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وَجَور السلطان عليهم،

- ولم يَمْنَعوا زكاة أموالهم، إلا مُنعوا القَطْر من السماء، ولولا البهائم لم يُمْطَروا،

- ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلّط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخَذوا بعض ما كان في أيديهم،

- وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل، ويتخَيّروا فيما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم» (رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر، وصححه الشيخ الألباني).

وليس من شك في أن العودة بالأمة إلى ينابيع التلقي الأولى، في الكتاب والسنة، هي السبيل الوحيدة لتأصيل الرؤية الشرعية، والتحقق بالمرجعية من خلال إدراك أبعاد فقه القرن المشهود له بالخيرية، في محاولة لإعادة الإحياء والبناء؛ وتحقيق الوقاية الحضارية، التي تحمي القيم الإسلامية من الاستلاب الحضاري، والارتهان الثقافي، وتنفي البدع الفكرية والسلوكية، ونوابت السوء، وتغلق منافذ الشيطان، ومعابر الغزو الفكري؛ والتحصن بمعرفة الوحي، حتى يثبت أصلها في الحاضر، ويمتد فرعها في المستقبل، بمأمن من انتحال المبطلين، وتاويل الجاهلين، وتحريف الغالين؛ وبناء النخبة، التي تمثل الطائفة القائمة على الحق، الذي لا يضرها من خالفها، حتى يأتي أمر الله وهي

على ذلك، لتكون دليل السائرين، وملاذ الحائرين، وبصيرة القادمين، وخميرة الناهضين، ووعاء النقل الثقافي، ومنارة التدين السليم.

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى ان مؤتمر السكان والتنمية الذي عقد بالقاهرة خلال الفترة من ٢٩ ربيع الأول إلى ٨ ربيع الآخر ١٤١٥هـ الموافق ٥-١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٤م، يعد حلقة في سلسلة متصلة من المؤتمرات التي اتخذت طابعًا عالميًا، ابتداءً من عام ١٩٩٢م، حيث عُقد ما عُرف «بقمة الأرض» في ريودي جانيرو في البرازيل، ثم «المؤتمر العالمي حول حقوق الإنسان» في فيينا بالنمسا عام ١٩٩٣م، و«المؤتمر العالمي للحد من الكوارث الطبيعية» في يوكوهاما في اليابان عام ١٩٩٤م، و«القمة العالمية للتنمية الاجتماعية» في كوبنهاجن في الدانمارك عام ١٩٩٥م، و«المؤتمر العالمي الرابع للمرأة» في بكين بالصين عام ١٩٩٥م، وأخيرًا مؤتمر الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية، الذي عُقد في اسطنبول مطلع حزيران (يونيو) من هذا العام.

وهذه المؤتمرات، على تنوع طروحاتها، وتعدد أساليبها، ترمي إلى ابتداع أنماط وأشكال جديدة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، تحطم الحواجز الأخلاقية، وتعارض القيم الدينية، وتنشر الإباحية باسم الحرية، وتشجع على التحلل باسم التحرر، حيث لم يكتف واضعو البرامج لهذه المؤتمرات عند حد التشكيك في اعتبار الأسرة هي الوحدة الأساسية للمجتمع، ومطالبة الوالدين بالتغاضي عن النشاط الجنسي للمراهقين عن غير طريق الزواج، واعتبار ذلك من الشؤون الشخصية أو من الحرية الشخصية، التي لا يحق لأحد ان يتدخل فيها، ولكنهم قفزوا فوق الكثير من الضوابط والقيم الدينية الأخرى أيضًا،

ليقرروا بأن مفهوم الأسرة بالمعنى الذي يشرعه الدين ليس إلا مفهومًا عقيمًا، وقيدًا على الحرية الشخصية، لأنه لا يتقبل العلاقات الجنسية الحرة بين مختلف الأعمار، ويشترط أن تكون بين ذكر وأنثى فقط، وضمن الإطار الشرعي، ولأنه لا يمنح الشواذ حقهم في تكوين أسر بينهم، ويتمسك بالأدوار النمطية للأبوة والأمومة والعلاقات الزوجية ضمن الأسرة، معتبرين أن ذلك مجرد أدوار وأشكال لا تخرج عن كونها مما اعتاد الناس ودرجوا عليه وألفوه، حتى دخل في طور التقاليد المتوارثة.. لذلك حاولوا الترويج والإقرار لأنماط أسرية بديلة، دون أدنى اعتبار للنواحي الشرعية والقانونية والأخلاقية، مثل زواج الجنس الواحد، والمعاشرة بدون زواج، وإعطاء الجميع حقوقًا متساوية، ووضع سياسات وقوانين تقدم دعمًا تأخذ في الاعتبار تعددية أشكال الأسر، إضافة إلى الدعوة إلى تحديد النسل باسم تنظيم النسل، وتشجيع موانع الحمل، وتيسير سبل الإجهاض.

سقوط الأسرة في حضارة الغرب

والقضية التي لابد أن نسارع إلى طرحها والتأكيد عليها، أن الأسرة في الحضارة الغربية تكاد تكون انتهت تقريبًا، وتحللت من كل القيود والضوابط الخلقية، والروابط الاجتماعية، والعلاقات الأسرية والزوجية على حد سواء، حتى لقد وصلت إلى مستويات، ترقى عنها وتأنف منها بعض فصائل الحيوانات غريزيًا، إلى درجة يمكن معها أن ينال سجل الفضائح الجنسية أكبر الرؤوس وأعلى المناصب، حتى بات الاعتراف بالزنى والخيانات الزوجية،

والتبجح بذلك في التلفاز وأجهزة الإعلام، على مرأى ومسمع من الناس، أمراً طبيعياً أو أكثر من طبيعي، وأصبحت لتجارة الجنس ومقاولات الدعارة مؤسسات عالمية، تجاوزت البالغين والمراهقين والشاذين من الجنسين، بسبب ما ألحقت من إصابات مرضية رعيبة، لتدخل عالم الاعتداء على الأطفال، الذين لا يحملون هذه الإصابات، حماية من الأمراض، التي أصبحت من الجوائح التي تهدد البشرية.. أما قضية ملايين المرضى وملايين الشواذ، الذين أثمرتهم مجتمعات الإباحة والقيم الديموقراطية الغربية في المجال الاجتماعي باسم الحرية الشخصية، فحدّث ولا حرج.

حتى لقد اعتبر مؤلف كتاب: (أمريكا التي تخيف لا تخيف)، أن أحد الألغام الاجتماعية الكبرى الثلاثة، التي سوف تنفجر، عاجلاً أو آجلاً، فتقضي على كل شيء، هي قضية الجنس، التي تعتمل في داخل المجتمع الأمريكي بقوة، وتقترب به من حافة الانفجار، حيث آثارها الاجتماعية أصبحت ماثلة أمام العيان.

نعود إلى القول: بأن هذه المؤتمرات، أو هذه المؤامرات على الإسلام والمسلمين، إن صح التعبير، تعني بالدرجة الأولى استهداف الأسرة المسلمة، لأنها تعتبر من أواخر الحصون الإسلامية التي لـمَّا تسقط بعد، سواء على المستوى الثقافي أو الاجتماعي أو القانوني، لذلك لابد من إسقاطها وإغراقها في الفلسفات والممارسات التي سقطت فيها الأسرة في الحضارة والثقافة الغربية، وعند ذلك يتم إحكام السيطرة على الحصن الأخير، والأمل الباقي لغرس القيم والنقل الثقافي والتوارث الاجتماعي، ليمتد التحكم بالنطف والأجنّة مستقبلاً، إضافة إلى التحكم بالأحياء حاضراً.

ونحن لا ندعي هنا أن الأسرة بالمفهوم والبعد الإسلامي بشكل عام، نجت من بعض الإصابات والاختراقات، وأن بعض الأسر في العالم الإسلامي، أصبحت تمثل النماذج والمعابر الخطيرة لمفاهيم الأسرة وعلاقاتها في الحضارة والثقافة الغربية.

ولكن نقول: إنه بالرغم من بعض الإصابات، وبروز بعض النماذج الرديئة المسكونة بالقيم الغربية، التي تولدت بسبب التخاذل، والعجز في الرؤية، وعدم إعطاء المرأة -المحضن الأساس في الأسرة- ما أعطاها الله ورسوله، الأمر الذي أدى إلى الانفجار ومن ثم الانتحار اجتماعيًا، والارتماء باتجاه الثقافات الأخرى المدمرة، نقول: إنه بالرغم من ذلك، فإن تلك الصور والنماذج ما تزال تشكل حالات شاذة، ونماذج رديئة ومهمشة خارج الإيقاع العام، وإن الأسرة المسلمة بعمومها حتى اليوم، ما تزال إحدى القلاع الأساسية في حماية القيم، والتربية عليها، وممارسة عملية التوارث الاجتماعي.

وبالإمكان القول: إنها المؤسسة التربوية الباقية، التي لابد من الرجوع إليها، واسترداد دورها، خاصة عند افتقاد المؤسسات التربوية والإعلامية الأخرى جميعًا، حيث لابد، في مرحلة العلو والاستكبار، التي بدأنا نعيشها، من التنبه لدور الأسرة في التحصين والبناء.

لذلك نرى أن عطاء أو آثار هذه المؤتمرات على الأسرة في الحضارة الغربية، يكاد يكون معدومًا لانعدام وجود الأسرة تقريبًا، بالمفهوم الاجتماعي، وأن الأمر المستهدف هو الأسرة المسلمة، وتعميم حالة الأسرة الغربية عالميًا، أو فرض الثقافة والهيمنة الغربية في مجال الأسرة، كغيره من المجالات، في محاولة لفرض الهيمنة في سائر المجالات على الواقع الإسلامي، لأن الأسرة المسلمة ما تزال متميزة، بعيدة عن التناول والتحكم.

قال تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ (النساء:٨٩)، وقال: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (البقرة:٢١٧).

فكلام ربنا هذا، يقيني خالد، يشكل سنناً ماضية، وقوانين اجتماعية تثبتها الوقائع المتعددة.. والأسرة المسلمة اليوم، أصبحت هي ميدان المواجهة الحقيقي، وساحة المعركة بعد ان احتُلّت الكثير من الميادين، وسقطت الكثير من الرايات.

لذلك فهذه المؤتمرات أو هذه المواجهات، لم تتوقف، ولن تتوقف، وهي في النهاية صورة من سنن التدافع الحضاري، التي لابد من إدراكها، ومعرفة كيفيــة التعـامل معهــا، والتي أخبـر الله عنها بقوله: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج:٤٠) فالاستمـرار في التـدافـع مؤكـد بقـولـه تعـالـى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (البقرة:٢١٧)، والصمود وإفشال المؤامرات مؤكد أيضاً بقوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ (آل عمران:١١١)، لكن ذلك النصر والحصانة، لا تتحقق إلا بعزيمة البشر في التعامل مع السنن الجارية، وليس بالتطلع إلى الأمور الخارقة.. فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ، بساحاته وأسلحته المتعددة، لأن العدوان على الأمة وقيمها مستمر إلى يوم القيامة أيضاً.

مؤتمرات الإباحة.. ملامح وأهداف

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أهم الملامح والأهداف التي تسعى لتحقيقها هذه المؤتمرات جميعًا.. ولعل الملمح الأول هو تحوّل انعقادها إلى عواصم بلاد المسلمين، في القاهرة، واسطنبول، وطرحها الكثير من المفاهيم، التي كانت تبدو مستغربة ومنكرة، إلا ان هذه المؤتمرات تمارس شيئًا فشيئًا، عملية التطبيع والقبول لمفاهيمها وطروحاتها.. ذلك أن مجرد الطرح في المرحلة الأولى، يعتبر مكسبًا ثقافيًا، على الرغم من الادعاء بأنه غير ملزم للدول المشاركة، بهدف تمريره، ورصد ردود الفعل، ومن ثم دراسة ردود الفعل هذه بدقة، ورسم طريقة للتعامل معها، للانتقال إلى المرحلة التالية، وهكذا يتقدم الشر تدريجيًا، ويحتل كل يوم موقعًا في الذهنية الإسلامية المستهدفة، ويُرَوج له من قِبَل المسكونين بالحضارة والثقافة الغربية في العالم الإسلامي.

ولعل أهم قضايا وثيقة مؤتمر السكان هي: الربط بين زيادة السكان وبين الفقر واستحالة التنمية، وأن الحد من النمو السكاني هو الطريق الأمثل للتنمية وتحقيق الرفاه الاجتماعي، والقضاء على الفقر. لذلك ترى أن السبيل إلى ذلك يتركز في:

١ - إباحة الإجهاض، بجعله قانونيًا معتمداً.. وقد حاول واضعو الوثيقة استخدام تعابير متعددة لإباحة الإجهاض، مثل: الحمل غير المرغوب فيه.. إنهاء الحمل وتخفيف عواقب الإجهاض.. الإجهاض غير المأمون.

٢ - تقديم المعلومات والثقافة الجنسية للمراهقين، وإباحة الممارسات الجنسية، وحقهم في سرية هذه الأمور، وعدم انتهاكها من قِبَل الأسرة.

٣ - التشجيع على الممارسات التي تقع خارج نطاق العلاقات الشرعية.

٤ - إلغاء القوانين التي تحد من ممارسة الأفراد لنشاطهم الجنسي، واعتبار ممارسة الجنس والإنجاب حرية شخصية وليست مسؤولية جماعية (انظر: تقارير حول الوثيقة، لرابطة العالم الإسلامي).

والحقيقة التي لابد من إبرازها هنا، أن هذه المؤتمرات، خاصة المؤتمرات المتعلقة بالمرأة، ابتداءً من المؤتمر العالمي الأول للمرأة، وكان شعاره: (رفع التمييز ضد المرأة)، الذي انعقد في مكسيكوستي عام ١٩٧٥م، ومروراً بمؤتمر كوبنهاجن عام ١٩٨٠م، ومؤتمر نيروبي ١٩٨٥م، ومؤتمر السكان والتنمية في القاهرة عام ١٩٩٤م، ومؤتمر بكين ١٩٩٥م، ووصولاً إلى مؤتمر اسطنبول للإسكان والإعمار ١٩٩٦م، تنطلق من أهداف محددة، وتحكمها فلسفة واحدة، وتلتزم استراتيجية طويلة المدى في تطوير وسائلها، وتستظل بمظلة الأمم المتحدة، وحراسة النظام العالمي الجديد، بكل ما يمتلك من قدرات مالية، وخبرات إعلامية، وسلطان سياسي قاهر، قادر على أن يفرض ما يريد من قيم ومبادئ، تعمل على نسخ ثقافات الشعوب الأخرى وحضاراتها، وتهميشها، لتصبح جُزراً صغيرة في المحيط الكبير، القائم على التسلط والإغراق الثقافي، باسم العالمية، دون أن يمثل هذا النظام الذي تُدعىٰ له العالمية، شيئًا من المشترك الإنساني.

وقد يكون من أهم الفروض الثقافية والحضارية على الأمة اليوم، دراسة طروحات هذه المؤتمرات، وتطورها، ومحاولات الامتداد بها، وتطبيعها في

الواقع البشري، دراسة متأنية من مؤسسات متخصصة، لتتبع تطور طروحاتها وتوصياتها وكيفيات التقدم بها، وأساليب فرضها على الشعوب، ورصد مدى البعد والعمق، الذي تحققه في الواقع، على الرغم من تسريب توصياتها ومفهوماتها، تحت شعار: «أنها غير ملزمة للدول المشاركة»، لأنها في الحقيقة تتفاعل ثقافيًا بمساندة ما يتمتع به أصحابها من المال والسلطان السياسي والإعلام، لتشكيل ثقافة العمالة الفكرية.

محاولات للمقاربة

ولعل من أخطر المعابر إلى الأسرة المسلمة بشكل خاص، والعالم الإسلامي بشكل عام، وبعد أن تصدع الكثير من دفاعات حماية الذات في أكثر من موقع، على يد بعض أهلها، أمام الغلبة الظاهرة بالمال والإعلام والسلطان السياسي، والعلو في الأرض، التي يمتلكها أصحاب الهيمنة الدولية، أو النظام العالمي الجديد، هو المقاربة بين قيم الحضارة الغربية والقيم الإسلامية، ومحاولة إضفاء المسوغات الشرعية الإسلامية على الوافد الغربي، لتسهيل مرور القيم، والأفكار، وأنماط الحياة الغربية، من خلال القيم الإسلامية نفسها، وإيجاد ثقوب وثغرات في الجدار الواقي، والعمل على إيجاد شريحة من المثقفين غير العلمانيين -بحسب الظاهر، تطرح أسماؤهم، وتمهر كتاباتهم بسمة المفكرين الإسلاميين الكبار، والفقهاء الشرعيين أصحاب الجرأة (!)- للمناصرة والترويج والتسويغ.

ونعتقد أن القضية اليوم، تجاوزت الصورة المعروفة، حيث لم تعد تقتصر على المقاربة والتسويغ والجواز والإباحة، وإنما تجاوزت إلى التأكيد على أن هذه القيم الاجتماعية والعادات الوافدة، هي الدين والإسلام والسنة والحكم الشرعي الصحيح.

وقد تكون المشكلة اليوم، في تكاثر المثقفين المفتين، والمثقفين الفقهاء، الذين يلملمون الآراء من هنا وهناك، وينتقون منها، ويقطعونها حسب أمزجتهم وأهدافهم، والمهام التي يعملون من أجلها، لتأييد قيم الحضارة الغربية وتسويغها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٧٨).

لقد تعاظمت اليوم أكثر من أي وقت مضى، القراءات للإسلام بأبجديات ونظم معرفية ومناهج غريبة عنه، بحيث تجاوزت مرحلة ديمقراطية الإسلام، واشتراكية الإسلام، ورأسمالية الإسلام، واليسار الإسلامي، واليمين الإسلامي، إلى خطوة أخطر أثراً، وأبعد مدىً هي: الادعاء والتوهم بإمكانية إضفاء صفة الإسلامية على الفكر الغربي!! ذلك أن المعروف أن الإيمان والإسلام إنما يكون للعلماء، وتشكيل عقولهم في ضوء الرؤية الإسلامية، لينتجوا علوماً محكومة بالأهداف والقيم والمنطلقات الإسلامية، وهذا الذي عرفنا في تراثنا وتاريخنا الثقافي والعلمي.. أما محاولات تسويغ الإنتاج الفكري الغربي إسلامياً، وإضفاء صفة الإسلامية على فكر ناتج عن عقل لا يؤمن بالإسلام، فيُخشىٰ أن تكون من البدع الفكرية المعاصرة.. ولا ندري

كيف يمكن أسلمة فكر له منطلقاته، وفلسفته، وأهدافه، وعقيدته، ومناهجه، وممارساته، ورؤيته، الخاصة به، وعلى الأخص إذا كان بعض من يقومون بتلك المحاولات هم من تلامذة الفكر الغربي نفسه، وبضاعتهم في العلوم الشرعية مُزْجَاة؟!

لذلك أعتقد أن هذه المحاولات عند بعضهم على الأقل، لا تخرج عن بذل الجهد في محاولة استنطاق النصوص المتشابهة في الكتاب والسنة، في ضوء الرؤية والقيم الغربية، واحتضان نماذج من الباحثين والمفكرين، من الذين لا صلة لهم بالفكر والسلوك الإسلامي، والبحث في فكر الفرق والطوائف، والتفتيش في التراث لالتقاط المؤيدات والمسوغات، والتطبيع لهذه الأفكار والطروحات في الداخل الإسلامي.. وهذا العمل سوف يؤدي في تقديرنا إلى إيجاد المشروعية الإسلامية لعمل القائمين على هذا الأمر، في الداخل الإسلامي، وتمكين هذه الطروحات والأنماط الحياتية، من الساحة الإسلامية، باسم الإسلام نفسه، خاصة وأن بعض ما توصل إليه الغرب من مناهج العلوم الاجتماعية، المتوقفة عندنا من زمن بعيد، كما هو معلوم، يعتبر مبهراً.. فالفراغ موجود لامتداد «الآخر».

لقد كثرت ندوات وجهود الحوار، وعقد المقاربات بين الإسلام والغرب في الآونة الأخيرة، تلك الندوات التي تُحدَّد أهدافها ومحاورها مسبقًا، ويُنْتَقَىٰ الأشخاص المشاركون فيها، أو المساهمون بتحقيق أهدافها، وتنعقد في أجواء من الإرهاب الفكري، واتهام الإسلام والمسلمين بالتطرف والأصولية والعنف.. وما ندري هل ستؤدي هذه الندوات والحوارات إلى أسلمة الفكر الغربي أم إلى تغريب الفكر الإسلامي؟!

والقضيَة الأخطر اليوم -كما نرى- أن يُسَانَد هذا الفكر، ويروج له، حتى يصبح هو الـمُعَبِّر عن الإسلام المعتدل والوَسَطِي، وأن ما عداه يصنف في خانة التطرف والتعصب والأصولية والتمكين للإرهاب.

لقد أصبح تسويغ الفكر الغربي واعتماده، هو معيار الاعتدال، وطرح أي فكر أو ثقافة مقابله هو التطرف والأصولية!

وهذا من أخطر أنواع الارتهان والغزو الذاتي، حيث لم تقتصر خسارتنا وتخلفنا على افتقارنا للأشياء المادية، واستدعائها من «الآخر»، وهذا بعض المصيبة، وإنما تجاوز أيضاً لتهديم عالم أفكارنا، الأصل الباقي، وجعله في خدمة القيم والأفكار الغربية، حتى أصبح شيوع القيم الغربية وفلسفتها في حياتنا وممارساتنا، غير منكور، بل مشروع.. أصبح مفهوم الأسرة، وتحديد النسل، ومنع الحمل، واستسهال الفاحشة، وشيوع الزنى والاغتصاب والشذوذ، وتأخير الزواج، وإقامة العلاقات غير المشروعة، من الحريات الشخصية، بل من الحاجات الضرورية والمألوفة، وعنوان التقدم والحضارة!!

كل هذا يتم تحت مظلة التخويف من المستقبل، ونضوب الموارد، والدعوة إلى الحيلولة دون تكاثر السكان، الأمر الذي أصبح يشكل ثقافة العصر، وموضوع مؤتمراته.

والتخويف من المستقبل، وربط زيادة السكان بنضوب الموارد ليس جديداً، فقبل مائتي عام، أعلن الراهب (توماس مالتوس)، الذي ما تزال النظريات السكانية على اختلافها وتنوعها تحمل اسمه، دعوته إلى إيقاف الزيادة السكانية، وإلغاء الزواج، والدعوة إلى العزوبة المتعففة! (الرهبنة)، لأن البشر -في نظره- يتزايدون ويتضاعفون بنسبة عالية (بما يسمى السلسلة الهندسية)، أما طاقة الأرض والأرزاق فتتزايد بنسبة محدودة (سلسلة

حسابية).. وأن الحروب والمجاعات والكوارث، هي رحمة من الله لإعادة التوازن بين الأرزاق والسكان.

كانت تلك الدعوة في عام ١٧٩٨م، وكان عدد سكان العالم حوالي المليار، أي أقل ست مرات مما هو الآن، وقد وصل العالم اليوم إلى المليار السادس.. وقد لا نكون بحاجة إلى بيان الخطأ في نظرية مالتوس، وأبعادها ومنطلقاتها الدينية، التي استخدم العلم مروجًا لها، ومفلسفًا لمسوغاتها الاقتصادية، الذي أوضحه الواقع، ذلك أن المشكلة الحقيقية من الناحية الاقتصادية، تكمن في سوء التوزيع والظلم الاجتماعي، وليس في نقص الأرزاق، إذ أن ٩٠٪ من سكان هذا الكوكب يحلّون في خانة الدول الفقيرة، التي لا ينمو فيها إلا التخلف والبؤس والقمع.

لقد افتقد العالم اليوم أخلاقه، حتى بات الإنسان ذئب الإنسان، بعد أن قرر الدين أن الإنسان أخو الإنسان، وغابت الرحمة التي من أجلها جاءت النبوات، وأصبح ٨٠٪ من ثرواته الطبيعية يتحكم فيها ويستهلكها ٢٠٪ من سكانه.. و٢٠٪ من أغنى أغنيائه يمتلكون ٨٣٪ من العائد، بينما ٢٠٪ من أفقر فقرائه يمتلكون ١,٤٪ فقط.. وجاءت النتيجة المباشرة لهذا الانقسام، أن ٤٠,٠٠٠ شخص يموتون كل يوم من سوء التغذية أو المجاعة.

إن الدول الغنية المسيطرة سياسيًا وإعلاميًا، والتي تعاني من نقص السكان والخوف والهجرة، هي التي صنعت هذه المشاكل، خاصة مشاكل الفقر والبطالة، التي يعاني منها مئات الملايين من أبناء دول العالم النامي، وعملت على إغراقه بالديون، ليبقى متواكلاً يعيش على المساعدات، ولا تقوم له قائمة، ويكون مستعداً لكل الحلول المطروحة (انظر كتاب: العالم في سباق نحو الهاوية، لروجيه جارودي).

ضرورة تجاوز سلبيات الفكر الدفاعي

وقضية أخرى، نعتقد أن التفكير فيها أصبح فريضة عينية بالنسبة للقادرين عليها، وهي محاولة رؤية المقاصد، وإيجاد المخارج المطلوبة للحال التي نحن عليها، ذلك أن معظم الإنتاج الفكري والثقافي الإسلامي، أو بعبارة أدق: النشاط الذهني للمسلمين، يغلب عليه الفكر الدفاعي، أو يمثل المواجهة والموقف الدفاعي، أو هكذا كان قدر هذا القرن، الذي شهد سقوط الخلافة والاستعمار الحديث، واحتلال فلسطين، حتى وصل الأمر إلى محاولة احتلال الأفكار ونسخ الثقافات.

والمؤتمرات مستمرة، كما أسلفنا، والمشكلات التي تطرحها على العالم الإسلامي مستمرة أيضًا، ولا تزال تسلمنا قضية إلى أخرى، ويستمر الموقف الدفاعي مستغرقًا لمعظم الأنشطة والطاقات الإسلامية.

وهذا الموقف على ضرورته وأهميته في حماية الذات، والحفاظ على الهوية، إلا أنه في عمومه لا يخرج عن رد الفعل، الذي قد يتحول من حل إلى مشكلة، وحالة من افتقاد التوازن، وضبط النِّسَب، والحيلولة دون امتلاك القدرة على الإبصار السليم للمستقبل وحسن التخطيط والإعداد له، وتوزيع الجهد على المواقع المتعددة، ذلك أن الفكر الدفاعي مهما كان ضروريًا ونافعًا، فهو يعني فيما يعني، أن الخصم هو الذي يتحكم بساحة النشاط الفكري للأمة، ويحددها مسبقًا، وكلما كادت الأمة أن تنتهي من مشكلة، ألقىٰ إليها

الخصم بمشكلة أخرى، وهكذا يصبح نشاط الأمة محكومًا ومتوفراً على ما يُلقىٰ إليها.

وعلى الرغم مما يشكل طرح المشكلات على الأمة، وغزوها الثقافي، من استفزاز وتحدٍ، ويؤدي إلى شحذٍ للطاقات وإعادة الفاعلية والإحياء، والعودة إلى التثبت بالذات، حماية من الاقتلاع، إلاّ أن عدم القدرة على الإفادة من ذلك، للتحول إلى تحقيق المقاصد والأهداف وإعادة البناء، وتجاوز الواقع، وتنمية الذات وبنائها، إلى جانب حمايتها، قد يعيق الأمة عن أي تغيير أو إنجاز مأمول، لأن درء المفاسد أو الموقف الدفاعي يعني في النهاية حماية الواقع والقبول به، والحيلولة دون امتلاك القدرة على التغيير، وجلب المنافع.. وكان المطلوب هنا بإلحاح، التحول من فقه المخارج، بما يحمل من مسوغات وذرائع، إلى فقه المقاصد، بما يستدعي من إعداد واستعداد، وتخطيط، وإرادة للتغيير.

والحقيقة التي نلمحها من طريقة القرآن والسنة في بناء الأمة المسلمة، وكيفيات التعامل مع خصومها من أعداء الدين في الخارج الإسلامي، أو مع رصيدهم من المنافقين في الداخل الإسلامي -بطروحاتهم المتعددة- وما تحقق من الإنجاز الحضاري، سواء في مرحلة الدعوة أو مرحلة الدولة على سواء، أن القرآن الكريم وبيانه النبوي، لم يوظف نصوصه كلها للرد على تمحلات واتهامات المشركين ورصيدهم من المنافقين، وطلبهم المزيد من المعجزات، وطرحهم الكثير من الاتهامات، ولو كان ذلك كذلك، لجاءت نصوصه كلها في الإطار الدفاعي، ولما كان هناك مجال أو تفرغ لأي بناء أو إنجاز حضاري، ولكان التنزيل وإلى حد بعيد، محكومًا برغائب وطروحات المشركين،

لا يخرج عن معالجتها، أو الرد عليها. ولا يتسع المجال هنا للإتيان بالأدلة الكثيرة على هذا.

لا شك أن القرآن الكريم، لم يهمل تفنيد ادعاءات المشركين، ويكشف مكر المنافقين ودخائل نفوسهم، ويدافع عن الحق الذي جاء به، بالقدر الكافي، لكن ذلك الموقف الدفاعي لم يستغرق جميع آياته، وإنما تجاوز ادعاءاتهم وطروحاتهم إلى عملية التنمية والبناء والإنجاز الحضاري.. طرح من الردود والأدلة ما هو كاف لمن يريد الاستدلال، والاقتناع، ومن ثم تجاوز من لجّ في شركه وطغيانه، لأن المشكلة أصبحت في نفس المستدل، وليس في نقص الدليل.. تجاوز إلى بناء الأمة، التي لا تؤثر فيها طروحات الأعداء.. وقد يكون البناء والتنمية هما خير رد وخير سبيل، حتى لخدمة أهداف الموقف الدفاعي نفسه، بل هي موقف الدفاع الحقيقي.

ولعل الأزمة أو المشكلة في هذا الموضوع، كامنة في التشكيل الذهني لمسلمي اليوم، وغياب ثقافة التخصص التي تقتضي تقسيم العمل، وغياب المؤسسات المتخصصة في التخطيط والتنفيذ معًا، في الحماية والتنمية على حد سواء.. لذلك نجد معظم العاملين في الحقل الإسلامي –وقد يكون هذا من مقتضيات الموقف الدفاعي أو من إفرازاته– يدّعون المعرفة في كل شيء، والقدرة على كل شيء، والخوض في كل المجالات، والتعرض لمعالجة كل المشكلات.. فإذا طرحت مشكلة، يخوض فيها ويتصدى لها مَن يحسن ومَن لا يحسن.. مَن يفقه ومَن لا يفقه.. المتخصص، والمدعي، حتى ولو كانت من أدق المسائل.

أصبحنا نفتقد المعرفة التخصصية وأخلاق المعرفة أيضًا، فكل إنسان منا فقيه، ومفكر، وخطيب، وكاتب، وراوية، وشاعر، وداعية، ومدرس، ولغوي، وصحفي، وعالم نفس، وخبير إدارة واقتصاد واجتماع، ومقاتل.. هو يحسن كل شيء! لذلك ترى الرصيدَ، هذا الركام والتكديس والغثاء الثقافي الذي لا يمكث شيء منه في الأرض! وما حصل ذلك إلا بسبب غياب التخصص، والتحقق بالمعرفة، والتحلي بخلق المعرفة.. من هنا تختل النسب، ونستنفر جميعًا لكل قضية، حتى الكثير من المتخصصين يغادرون تخصصاتهم ويؤثرون الدخول في ثقافة الغثاء.. وتستنزف طاقتنا في فراغ، باسم حماية الذات والدفاع عنها، فنرجع إلى الذات التي ندافع عنها، فلا نجدها.

إن ضغط الموقف الدفاعي أو الفكر الدفاعي بشكل أعم، هو الذي حال بيننا وبين تأصيل فكرة التخصص وتقسيم العمل وتحقيق الإبداع والإتقان، وحسن اختيار وسائل الدفاع المناسبة، وأعجزنا عن الإحاطة بعلم القضايا والمشكلات المطروحة، واختيار الآلية، أو الوسائل المناسبة للتعامل معها، مما جعل هذا العجز أو اليأس يوقعنا في التوهم بأن الحل دائمًا في المواجهة، دون النظر لإمكاناتنا وإمكانات خصمنا، والتقدير الدقيق لما نقدم عليه، لذلك أصبحت الحسابات الإقليمية والدولية تصفَّىٰ بدمائنا وجهودنا أو جهادنا، وأصبح من السهل استثارتنا واستفزازنا وتوظيفنا في الوقت المناسب لصالح «الآخر».

واعتقد أنه لا سبيل إلى الخروج من المأزق، ولا بديل لنا عن التخصص وتقسيم العمل، بحيث ينفر من كل فرقة منا طائفة ليتفقهوا في الدين،

بالمعنى الواسع للفقه، حتى إذا ما جاءنا أمر من الأمن أو الخوف، لا نقتصر على الإذاعة به (الموقف الدفاعي)، وإنما نرده إلى قيم ومعايير الكتاب والسنة، ورؤية الخبراء والمختصين، حتى نحيط بعلمه، وندرك سننه، ونضع خطة لكيفية التعامل معه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ (النساء:٨٣).

وقد يكون المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضى، العودة إلى المرأة، التي كانت قضيتها ووضعها، المدخل أو المعبر لكثير من المشكلات، والاعتراف بأننا أوتينا من قِبلها، لأن الكثير منا لم يعطها ما أعطاها الله.. لابد من العودة إلى هذا الموقع، إلى المرأة، وإعادة تأهيلها، وإعداد قيادات نسائية فقيهة، مستوعبة للإسلام، يتحقق فيهن الانتماء والالتزام، قادرات على الحضور الإسلامي في كل المواقع الفكرية والاجتماعية، ومحاولة الخروج بثقافتنا من النفق والخارطة الفكرية التي فُرضت علينا لأكثر من قرن، وما نزال نتحرك ضمن حدودها، قضية الحجاب، والتعدد، والطلاق، والإرث، والشهادة –مع أن هذه القضايا أصبحت محسومة– لإبراز دور المرأة في الحياة الإسلامية، كما لابد من العودة إلى الأسرة، المحضن الحقيقي للتربية، والحصن الباقي للأمة.

قال تعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ ﴾ (النساء:٨٩).

والله الهادي إلى سواء السبيل.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

٣٢١٢/١٥



الأعمال الفكرية الكاملة

تتمحور حول:

-التأكيد أن عقيدة التوحيد هي ميثاق التحرير والخلاص؛ وأن الغاية الأساس للنبوة الخاتمة إلحاق الرحمة بالعالمين : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ وتبيين الآثار المدمرة لتحالف الاستبداد السياسي والكهانة الدينية (الجبت والطاغوت).

- التأسيس لمنهج التقويم والمراجعة وبناء العقل الناقد؛ وتحديد مواطن الخلل، وكشف أسبابه، واقتراح سبل علاجه.

-التدريب على التفكير الاستراتيجي وبناء الرؤية المستقبلية، والإفادة من التراث لبناء الحاضر ورؤية المستقبل؛ والتشجيع على الاجتهاد وإعمال العقل، في ضوء هدايات الوحي وضوابط الشرع.

-إحياء المنهج السنني، وبيان أهمية السير في الأرض، والتوغل في تاريخ الأمم، والتبصر في العواقب والمآلات لتحقيق العبرة.

-المساهمة في بناء «الطائفة القائمة على الحق»، الأنموذج التطبيقي لقيم الدين في واقع الناس، ودليل خلود الإسلام.

- المساهمة في تجديد أمر الدين، ونفي نوابت السوء، ومعالجة أسباب الغلو والتشدد، والعودة بالأمة إلى منهج الوسطية، والتمييز بين قيم الدين المعصومة وصور التدين.

-اعتبار التشكيل الثقافي ومعاودة النظر في مواصفات الخطاب الإسلامي السبيل الأجدى للتغيير.

-التعريف بأهم مقومات النهوض التي تمتلكها الأمة، ووسائل تفعيلها.

-إحياء فكرة الفروض الكفائية، واستكمال الاختصاصات الغائبة، وإعادة بناء مفهوم «أهل الحل والعقد».

-بيان الدور الحضاري للأمة، ورسم معالم رسالة المسلم في حقبة العولمة، وتوسيع دائرة التفاهم، وتحويل الاختلاف إلى تنوع وتكامل.

-تحرير القول في إشكالية «الحاكمية»، وبيان أبعاد تطبيق الشريعة، وبيان أن التكليف منوط بالاستطاعة.

- التصويب لمنهجية الاقتداء، ووضع المشكلات المعاصرة في موقعها المناسب من مرحلة السيرة وفترة القدوة وجيل خير القرون.

-بيان أن عملية النهوض تتطلب فقه النص وفهم الواقع، والتعامل مع المشكلات من خلال الإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة .

-صوابية الحل لمشكلات عصر معين، لا تعني بالضرورة قدرتها على معالجة مستجدات كل عصر.